B E T T Y   S M I T H

روايات

بيتي سميث

شجرة تنمو في بروكلين

ترجمة: فؤاد سروجي

مراجعة وتدقيق: محمود الزواوي



الأهلية

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين - بناية رقم 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7855 عمّان 11118 ، الأردنّ
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،
بجانب البنك المركزيّ الأردنيّ ، مكتب القاصة - بناية رقم 34
مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

شجرة تنمو في بروكلين / رواية أمريكيّة
بيتي سميث / الولايات المتّحدة الأمريكيّة
ترجمة : فؤاد سروجي / الأردنّ
مراجعة وتدقيق : محمود الزواوي / الأردنّ

الطبعة العربيّة الأولى ، 2011
حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** 95297109 7 00962 ، الأردنّ

سيسيه ®

لوحة الغلاف : **رافال أولبنسكي** / بولندة
الصفّ الضوئي : **إيمان زكريّا خطّاب ، عمّان ، هاتف 079/5349156**

رواية

بيتي سميث

شجرة تنمو في بروكلين

ترجمة: فؤاد سروجي

مراجعة وتدقيق: محمود الزواوي

الأهلية

الكتاب الأول

1

ربما تكون كلمةُ (هادئة) هي الصفة التي تليق بضاحية بروكلين في نيويورك، خاصة في صيف عام 1912 أو ربما تكون كلمة «كئيبة» أفضل وضعاً. ولكن صفة الكآبة لا تلائم منطقة وليامزبيرغ في بروكلين. ربما تكون كلمة مرج وصفاً رائعاً أو كلمة السهل الأخضر تحمل تأثيراً جميلاً، ولكن كلتا الكلمتين لا تناسبان بروكلين. الكلمة الوحيدة المناسبة هي كلمة «هادئة» وخاصة في عصر أحد أيام السبت من ذلك الصيف.

في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم، كانت الشمس تنحدر وسط الفناء المغطى بالطحالب أمام منزل فرانسي نولان، تنشر الدفء على السياج الخشبي شبه المهترئ الذي يحيط بمدخل الدار. كانت فرانسي جالسة تتأمل الشمس وهي تهوي إلى أفق الغروب حين تملَّكها شعور شبيه بذلك الشعور الذي كان يغشاها وهي تستذكر قصيدة كانت تنشدها أيام المدرسة:

هذه هي الغابة البدائية
أشجار الصنوبر والشوكران التي تهمهم
وقد كستها الطحالب بلون أخضر

يصعب تمييزه عند الشفق،
تقف كأنها كهنة من العصور الغابرة.

لم تكن تلك الشجرة الوحيدة في فناء بيت فرانسي شجرة صنوبر أو شوكران. بل كانت شجرة ذات أوراق إبرية تنمو عبر انحناءات خضراء تنطلق من غصونها فتبدو وكأنها تحمل مظلات خضراء مفتوحة. كان البعض يطلق عليها اسم شجرة الجنة. وحيثما سقطت بذورها، كانت تظهر شجرة تكافح في النمو كي تصل إلى السماء. تنمو وتورق على الحواف ووسط أكوام القمامة وحتى من داخل الإسمنت ولكن نموها كان يقتصر فقط على المناطق السكنية.

إذا تمشيت عصر يوم أحد ووصلت إلى ضاحية راقية لطيفة، ورأيت إحدى هذه الأشجار الصغيرة تنمو عبر بوابة حديدية تفتح على فناء بيت أحد الناس، فإنك ستعرف فوراً أنك قد دخلت في الضاحية السكنية لبروكلين. كانت الشجرة تعرف ذلك، فقد أرست بذورها هناك، وبعد ذلك بدأ تدفق الفقراء الغرباء على الضاحية وتحولت المنازل القديمة ذات الطوب البني إلى شقق مزدحمة تبرز من نوافذها أسرّة الريش في الهواء وتنمو على أطرافها شجرة الجنة، هذه الشجرة تحب الفقراء وتعيش بينهم.

كان في فناء منزل فرانسي شجرة مثل هذه تلتف أغصانها كالمظلات حول وأسفل مهرب الإطفاء في الطابق الثالث. كانت فرانسي في الحادية عشرة من عمرها تتخيل نفسها حين تجلس عند مهرب الإطفاء بأنها تعيش على الشجرة. تجلس هناك عصر كل يوم سبت في فصل الصيف.

ما كان أجمل يوم السبت في حيّ بروكلين، بل ما أجمله في كل مكان. كان الناس يقبضون رواتبهم يوم السبت وينطلقون في عطلتهم الأسبوعية بعيداً عن القيود التي تفرضها مراسيم يوم الأحد. كانوا ينفقون ما في جيوبهم ويبتاعون الأشياء ويأكلون جيداً أو يسكرون أو يتواعدون ويعشقون ويسهرون حتى الصباح وسط الغناء والموسيقى والرقص والشجارات أحياناً وهم يعلمون جيداً

أن الأحد هو يوم عطلة وأنهم يستطيعون النوم حتى ساعة متأخرة من الصباح. وإذا فاتهم القداس الأسبوعي الصباحي فإن بإمكانهم حضور القداس في المساء.

صباح الأحد كان الناس يتجمعون في باحة الكنيسة عند قداس الحادية عشرة، بعضهم كان يصلي خلال قداس الساعة السادسة صباحاً، ولكن هؤلاء رغم حضورهم باكراً إلى الصلاة لم يكونوا يستحقون أجراً ولا ثواباً لأنهم هم الذين كانوا يطيلون السهر ثم يعرّجون على الكنيسة في طريقهم إلى بيوتهم عند السادسة صباحاً ليحضروا القداس ويخلدوا إلى النوم طوال النهار بضمير مرتاح.

بالنسبة لفرانسي كان صباح السبت يبدأ بالذهاب إلى مكان تجميع القمامة حيث تقوم هي وأخوها نيلي مثلهم مثل باقي أطفال بروكلين بتجميع الخرق البالية والورق والمعادن والمطاط وغيرها من أنواع القمامة المفيدة، وتخزينها في علب أو صناديق مخبأة تحت أسرّتهم. كانت فرانسي طوال الأسبوع تمر على مجمع القمامة في طريق عودتها من المدرسة وتبحث عن رقائق الصفيح في علب السجائر أو لفافات العلكة وتذيبها في غطاء أحد المرطبانات لأن المشتري لا يقبل شراء لفافة من الرقائق المعدنية خشية أن يكون الأولاد قد أدخلوا فيها حلقات من الحديد لكي يصبح وزنها أثقل عند البيع. كان نيلي يعثر أحياناً على زجاجة فارغة من المياه المعدنية فيقوم بمساعدة فرانسي بكسر قمتها وتذويبها من أجل الرصاص الموجود فيها. وكان مشترو القمامة يرفضون استلام قمة زجاجة كاملة خوفاً من الدخول في مشاكل مع جماعة مصنع زجاجات الصودا. ولكن بالنسبة لنيلي فإن زجاجة الصودا تعتبر صيداً ثميناً فهي حين تذاب قمتها تباع بخمسة سنتات.

كانت فرانسي ونيلي ينزلان إلى القبو كل مساء ليفرغوا الرفوف التي يتم فيها تكديس القمامة. كان هذا الأمر يعتبر امتيازاً خاصاً بهما كون والدتهما تعمل حارسة هناك. وتغض النظر عما ينهبونه من ورق وخرق قماش وزجاجات فارغة. لم يكن الورق صيداً ثميناً إذ لا يتعدى ثمن 10 باوندات من الورق بنساً

واحداً أما خرق القماش فكانت تباع بقيمة سنتين لكل باوند والحديد بأربعة سنتات. الأفضل كان النحاس، فالباوند منه يباع بعشرة سنتات. أحياناً كان حظ فرانسي يقودها إلى قطعة من قاع سخان للغسيل وهي بالنسبة لها ثروة من النحاس كانت تقوم بخلعها بواسطة فتاحة للعلب ثم تطويها وتدقها عدة مرات قبل أن تصبح جاهزة للبيع.

بعد الساعة التاسعة بقليل من صباح كل يوم سبت كان الأولاد ينتشرون في الشوارع الجانبية لجادة منهاتن التي تعتبر الطريق العام، ثم يصعدون الجادة ببطء باتجاه شارع سكولز. بعضهم كان يحمل ما يلتقطه من حاويات القمامة في يده والبعض الآخر كان يجر عربات مصنوعة من صندوق خشبي مركب على عجلات خشبية، وقليل منهم كان يجر عربات أطفال محملة.

أما فرانسي ونيلي فكانا يضعان ما يجمعانه في كيس من الخيش يمسك كل منهما بأحد طرفيه ويجرانه صعوداً عبر جادة منهاتن ثم شارع موجر فشارع تن أيك وستاغ حتى شارع سكولز. حقاً إنها أسماء جميلة لشوارع قبيحة. من كل جانب من تلك الشوارع، كانت أفواج الصعاليك تنضم إلى المارّين. على الطريق إلى محل كارني كان هناك المزيد من الأولاد عائدين ولكن فارغي الأيدي بعد أن باعوا قمامتهم وأنفقوا ما حصلوا عليه من بنسات قليلة، كان هؤلاء يتسكعون ويسخرون من الأولاد الآخرين وينادونهم: يا جامعي الخرق البالية.. يا جامعي الخرق البالية.

ظل وجه فرانسي يلتهب احمراراً وغضباً كلما سمعت هذه الكلمات. لم يكن يعزيها أن الذين ينعتونها بهذه الصفة هم أيضاً من جامعي الخرق ولا كون أخيها يفعل مثلهم حين يعود فارغ اليدين ويشرع بالسخرية من القادمين الجدد، بل كانت تشعر بالخجل.

كان كارني يمارس عمله في شراء القمامة داخل إسطبل متداع. وصلت فرانسي إلى زاوية المكان ورأت أن كلا البابين مشرّعان في وضع استقبال وعبرهما

شاهدت الميزان الضخم وهو يتأرجح استعداداً لاستقبال البضائع. وراء الميزان كان يقف كارني بشاربه الصدئ وشعره الصدئ وعينيه اللتين كانتا أيضاً بلون الصدأ. كان كارني يحب التعامل مع الفتيات أكثر من الفتيان وكان يمنح الفتاة بنساً إضافياً إذا لم تنفر منه حين يقرص طرف خدِّها.

بسبب وجود احتمال لمثل هذه الزيادة، أفسح نيلي المجال لفرانسي لكي تجر الكيس إلى الإسطبل. هنا قفز كارني إلى الأمام وأفرغ محتويات الكيس أرضاً ثم قرصها قرصة أولية على الخد. وفيما كان يكوِّم البضاعة على الميزان، رمشت فرانسي بعينيها وهي تحاول التكيف مع الظلام الذي يلف المكان ومع الهواء العفن ورائحة الخرق القماشية المبللة. حدق كارني جيداً في عداد الميزان ثم قدّم لها عرضه بكلمتين. كانت فرانسي تعلم أن المساومة ممنوعة لذلك أومأت بالموافقة. عندها قام بتوزيع القمامة وتصنيفها كل قطعة في مكانها. جمع الأوراق في زاوية والخرق في زاوية أخرى ثم فرز المعادن فيما هي تنتظر. بعد ذلك مد يده إلى جيوب بنطاله وأخرج لفة من الجلد ثم حلّ رباطها وأخذ يعد بضعة بنسات لونها أخضر مثل القمامة، وفيما كانت تشكره قام بقرص خدها مرة أخرى ولكنها بقيت ثابتة. عندها أعطاها كارني سنتاً آخر وهو يبتسم. وما أن خرجت فرانسي حتى تغيرت نبرة صوته وهو ينادي الفتى التالي بصوت أجش: «ادخل» ثم صاح وهو يناديه. أخرج الرصاص جانباً. كان يوازن ضحكته وهو يقول: «لا أعني القمامة». كان الأولاد يضحكون بإذعان وتبدو ضحكاتهم كأنها أصوات ثغاء لحملان صغيرة تائهة ولكن كارني كان يبدو راضياً كل الرضا.

خرجت فرانسي لتعطي الغلة إلى أخيها وقالت: «16 سنتاً إضافة إلى سنت القرصة»، ولكنه أعاد لها السنت الأخير قائلاً: هذا حقك كما اتفقنا. وضعت السنت في جيبها وسلّمت له باقي المبلغ. كان نيلي في العاشرة من العمر يصغر فرانسي بسنة ولكنه كان الذكر في المنزل وهو المسؤول عن تقسيم الأموال بدقة.

«ثماني سنتات للبنك» هكذا كانت القاعدة. دائماً نصف المبلغ المحصل يذهب إلى البنك. والبنك لدى فرانسي ونيلي هو علبة صفيح مثبتة بمسمار في

أرضية الخزانة وفي أكثر زواياها ظلمةً. ويتم تقسيم المبلغ المتبقي: أربعة سنتات لفرانسي وأربعة سنتات لنيلي.

لفَّت فرانسي نقود البنك بمنديلها ونظرت بسعادة غامرة إلى سنتاتها الخمسة فهي سوف تتمكن من تحويلها إلى «نيكل كامل». أما نيلي فقام بطي كيس الخيش ووضعه تحت إبطه وسار في طريقه نحو دكان تشيب تشارلي، وفرانسي خلفه. وتشيب تشارلي هو دكان يبيع الحلوى ويقع إلى جوار مخزن كارني لتجارة القمامة. في نهاية كل يوم سبت يمتلئ صندوق النقود لدى دكان تشيب تشارلي بالسنتات الخضراء ولكن الدكان وبموجب قانون غير مكتوب كان يعتبر دكاناً للفتيان لذلك ظلت فرانسي تنتظر أخاها ليحضر لها الحلوى ولم تكن تدخل إلى الدكان أبداً.

كان الفتيان من عمر 8–14 يشبهون بعضهم البعض ببناطيلهم القصيرة المتهدلة وقبعاتهم المقصوصة عند القمة. وكانوا يتسكعون في المنطقة، وأيديهم في جيوبهم وأكتافهم مندفعة بشدة إلى الأمام. يكبرون وهم على هذه الشاكلة مع فارق وحيد فقط هو تلك السيجارة التي كانت تبدو دائماً محكمة الربط بين شفاههم، تعلو وتهبط في أفواههم فيما هم يتكلمون.

في تلك اللحظة، كان الأولاد يتحركون بعصبية ووجوههم النحيلة تنتقل بين تشارلي وبين بعضهم البعض ثم إلى تشارلي مرة أخرى. لاحظت فرانسي أن بعضهم قد أنهى الحلاقة الصيفية لشعره. كانت شعورهم قصيرة جداً بحيث تظهر بعض الشقوق على جلد رؤوسهم حيث كان القص عميقاً. كان هؤلاء المحظوظون يحشون قبعاتهم داخل جيوبهم أو يرتدونها على الجهة الخلفية من رؤوسهم. أما الذين لم يحلقوا فكانت شعورهم تتدلى بلطف وبصبيانية على مؤخرة أعناقهم. كانوا يرتدون قبعاتهم بخجل ويغطون بها آذانهم. كان منظرهم يوحي ببعض الأنوثة على الرغم من لغة التجديف القاسية التي يستخدمونها في حواراتهم.

لم تكن دكان تشيب تشارلي بالرخص الذي يوحيه اسمها كما أن صاحبها لم يكن يدعى تشارلي ولكنه ادعى هذا الاسم وأطلقه على الدكان بحيث صدقته فرانسي وصدقه الجميع. كان تشارلي يجري عمليات سحب مقابل السنت الإضافي الذي يدفعه. وكان لديه لوح مرقم عليه خمسون وصلة. كل وصلة تتدلى منها جائزة من بينها جوائز قيمة مثل مزاليج بعجلات وقفازات لالتقاط كرات البيسبول ولعب على شكل فتيات بشعر حقيقي وغيرها. كذلك كانت هناك جوائز خفيفة كالأقلام وورق النشّاف ومنظفات الأقلام. راقبت فرانسي نيلي وهو يختار أحد الأرقام ثم يرفع البطاقة القذرة عن الغلاف المتهلهل ليظهر رقم 26. نظرت فرانسي إلى اللوح بأمل. كانت الجائزة منظف أقلام بائساً. سأله تشارلي: هل تريد الجائزة أم قطعة حلوى؟ أجابه نيلي: قطعة حلوى ماذا تظن غير ذلك؟

كان الأمر دائماً ينتهي بالشيء نفسه. لم تسمع فرانسي عن أحد كسب جائزة من قبل حتى إن عجلات المزلاجات علاها الصدأ وامتلأ شعر اللعب بالغبار لطول ما انتظرت على اللوح. كذلك كان الأمر بالنسبة للكلب اللعبة ولتمثال الجندي المصنوع من الصفيح. يوماً ما، كانت فرانسي تقول سوف تحضر خمسين سنتاً وتربح كل شيء على اللوح. كانت تعتقد أن هذه ستكون صفقة رابحة. المزلاجات والقفازات واللعب مقابل خمسين سنتاً. فالمزلاجات وحدها تساوي أربعة أضعاف الخمسين سنتاً. كان على نيلي أن يحضر ذلك اليوم العظيم لأن الفتيات نادراً ما كنّ يتعاملن مع تشارلي. صحيح أنه كانت هناك بضع فتيات في ذلك السبت ولكنهن كن معروفات بوقاحتهن أو تهورهن. هن يبدونَ أكبر من عمرهن ويقضين الوقت في اللعب مع الفتيان. كان الجيران يتنبؤون لهن بمستقبل غير سليم.

عبرت فرانسي الشارع باتجاه دكان غيمبي للحلوى. كان غيمبي يعرج في مشيته ولكنه كان يبدو لطيفاً وحنوناً مع الأطفال الصغار. على الأقل كان الجميع يظنون ذلك إلى أن قام في ذات عصر مشمس أحد الأيام بإغواء فتاة صغيرة إلى غرفته الخلفية الموحشة.

أخذت فرانسي تناقش بينها وبين نفسها فيما لو كان من الأفضل لها أن تضحي بسنت من أجل الحصول على إحدى جوائز غيمبي الخاصة. كانت صديقتها مودي دونافان على وشك شراء شيء من الدكان عندما شقت فرانسي طريقها لتقف خلف مودي مباشرة. التقطت أنفساها بينما كانت مودي تشير إلى كيس نافر داخل صندوق الجوائز. كانت فرانسي ستختار كيساً أصغر لو كانت مكانها. نظرت فرانسي من خلف كتف صديقتها ورأتها تلتقط قطعاً من الحلوى القديمة وتتفحص الجائزة التي كانت عبارة عن منديل قطني خشن. في إحدى المرات ربحت فرانسي زجاجة صغيرة فيها عطر قوي الرائحة. فكرت فرانسي مرة أخرى في أمر دفع سنت للدخول في سحب الجائزة. إن من الممتع أن تفاجأ بهدية حتى ولو لم تستطع أن تأكل الحلوى. ولكنها اكتفت بالمفاجأة التي رأتها مع مودي. كان الأمر جيداً بما فيه الكفاية.

سارت فرانسي على جادة منهاتن وهي تقرأ أسماء الشوارع الجميلة المنتشرة فيها: شارع سكولز، شارع ميزيرول ثم شارعي مونت روز وجونسون. كان هذان الشارعان يضمان مساكن للإيطاليين الذين استوطنوا تلك المنطقة وبعد ذلك تأتي بلدة اليهود وتبدأ من شارع سيغل عبر شارعي مور وماككيبين حتى برودواي حيث اتجهت فرانسي.

وماذا كان يوجد في برودواي في وليامسبيرج بروكلين حتى تتوجه إليه فرانسي بهذا الحماس؟ لا شيء ... فقط دكان يبيع بضاعته على أساس كل شيء بنيكل وسنت، ويعتبر بالنسبة لها أروع دكان في العالم أو هكذا كان يبدو بالنسبة لفتاة في الحادية عشرة من عمرها. كان بيد فرانسي نيكل وهذا يعني قدرة على شراء ما ترغب من هذا الدكان، وهو أمر لا يوجد مثله في مكان آخر من العالم.

دخلت إلى الدكان وراحت تتجول بين الأرفف وتتحسس ما يعجبها. يا له من شعور رائع أن تستطيع لمس الأشياء ثم رفعها عن الرف والنظر إليها للحظة كي تتحسس معالمها ثم تعيدها بحذر إلى الرف مرة أخرى. كان النيكل في يدها يعطيها كل هذه الامتيازات. وإذا ما سألها أحد الموظفين إذا كان في نيتها شراء

شيء ما فستجيبه على الفور نعم ثم تريه سنتاً أو سنتين. لا شك في أن النقود شيء رائع. هكذا قررت بينها وبين نفسها. وهكذا بعد أن استمتعت بلمس الأشياء، قررت شراء شيء ثمنه خمسة سنتات. كان هذا الشيء لوح شوكولاته مع بسكويت بطعم النعناع.

عادت أدراجها إلى المنزل عبر شارع غراهام المعروف بشارع الغيتو اليهودي. كانت مندهشة من تلك العربات التي تجر باليد والتي تضم كل منها مخزناً صغيراً متجولاً. كذلك أدهشتها المساومات الدائرة حول الأسعار، منظر اليهود العاطفيين والروائح الخاصة بذلك الحي. كان هناك السمك المطبوخ والمحشي، وخبز الشوفان الخارج لتوه من الفرن وروائح أخرى تشبه روائح العسل المغلي. حدقت في الرجال الملتحين الذين يرتدون قبعات الصوف ومعاطف الحرير وتساءلت ما الذي يجعل عيونهم تبدو هكذا صغيرة وقاسية. نظرت من الثقوب الصغيرة في جدران المحلات واستنشقت رائحة الثياب والأنسجة المبعثرة على الطاولات. كذلك استرعت انتباهها الأسرّة المصنوعة من الريش والتي تبرز عبر نوافذ وواجهات المحلات والثياب ذات الألوان الشرقية الزاهية وهي تجفف على سلالم الحريق فيما يقف الأطفال نصف عراة يلعبون عند المزاريب. كانت هناك امرأة ضخمة تجلس مع طفلها على مقعد خشبي ثابت عند حافة الطريق، وتحت أشعة الشمس الحارقة تراقب سير الحياة في الشارع فيما تحتفظ بسرها حول حياتها الشخصية في باطن نفسها.

تذكرت فرانسي دهشتها عندما أخبرتها أمها ذات يوم أن المسيح كان يهودياً بينما ظلت تعتقد أنه كاثوليكي. ولكن أمها كانت تعرف أكثر فقد أخبرتها أن اليهود لم ينظروا أبداً إلى المسيح إلا على أنه ولد يهودي مشاكس لا يرغب في العمل كنجّار والزواج والاستقرار وإقامة عائلة كما يفعل الباقون. كما أن اليهود كانوا يؤمنون حسب قول أمها بأن مسيحهم لم يأت بعد. حالما خطرت ببالها تلك الفكرة، أخذت فرانسي تحدق بشدة في امرأة يهودية حبلى وقالت لنفسها أظن أن هذا هو السبب الذي يجعل اليهوديات ينجبن العديد من الأطفال ويجلسن بهدوء

كأنهن ينتظرن شيئاً ما. كما أنهن لا يخجلن من كونهن سمينات لأن كل منهن تظن في قرارة نفسها أنها قد تكون هي التي تحمل المسيح الصغير في بطنها. ربما لهذا السبب يسرن على الطريق فخورات بأنفسهن عندما يكن حبالى فيما تشعر النساء الإيرلنديات بالخجل لأنهن يعرفن تماماً أنهن لن يلدن أي مسيح بل ولداً من الأولاد الآخرين. عندما أكبر وأعرف أنني سألد طفلاً، سأتذكر أن أسير بفخر وكبرياء وببطء رغم أنني لست يهودية.

كانت الساعة قد اقتربت من الثانية عشرة عندما وصلت فرانسي إلى المنزل، دخلت أمها بعد قليل وبيدها مكنسة ودلو. أودعتهما في إحدى الزوايا وهي تطرق بهما على الجدار. كانت هذه الطرقات تعني أنهما سيبقيان مكانهما دون أي لمس حتى يوم الاثنين.

وأم فرانسي سيدة في التاسعة والعشرين من العمر، شعرها أسود وعيناها بنيتان وجسمها جميل أيضاً. يداها تتحركان بسرعة ونشاط فقد كانت تعمل في تنظيف البيوت، وتولت تنظيف ثلاثة مبانٍ سكنية، من يصدق أن أمي كانت تمسح أرضيات المنزل من أجل أن تعيلنا نحن الأربعة. تقول فرانسي وتضيف: كانت أمي جميلة جداً نحيفة تنبض بالحيوية والنشاط والمرح. ورغم أن يديها تبدوان حمراوتين ومشققتين بسبب مياه التنظيف المليئة بالصودا إلا أنهما كانتا جميلتين بأظافرهما البيضاوية الأنيقة. كان الجميع يشعرون بالأسف لأن امرأة جميلة أنيقة مثل كيت مولان قد اضطرت للعمل في تنظيف أرضيات المنازل من أجل لقمة العيش ولكن ماذا كان بإمكانها أن تفعل ولها زوج مثل هذا ! كان الجميع متفقين بأن جون نولان شاب أنيق محبوب يتفوق على جميع رجال الحي ولكنه كان سكيراً! وكان كلامهم صحيحاً.

طلبت فرانسي من أمها أن تراقبها وهي تودع السنتات الثمانية في علبة الصفيح أو البنك كما تسميه. دخلت الاثنتان في حدس لطيف لمدة خمس دقائق حول كمية النقود الموجودة في علبة الصفيح. كانت فرانسي تظن أن هناك ما يقارب المائة دولار ولكن أمها أجابت أن رقم 8 دولارات قد يكون الأصح.

أعطت الأم تعليماتها إلى فرانسي لشراء طعام الغداء: خذي ثمانية سنتات من الكأس المكسور واشتري ربع رغيف من خبز الشوفان اليهودي ولكن تأكدي من أنه طازج. بعد ذلك خذي نيكل واذهبي إلى ملحمة سويرواين واطلبي طرف لسان بقيمة نيكل ! سألتها فرانسي: ولكن يتوجب عليك أن تكوني على انسجام معه ليعطيك طرف اللسان.

– قولي له إن أمي طلبت ذلك. أجابت كاتي بحزم ثم أردفت بعد تفكير قليل: أتساءل إذا كان علينا أن نشتري حلوى بقيمة خمسة سنتات أو أن نودع هذه النقود في بنك الصفيح.

– آه يا أمي اليوم هو السبت وقد أمضيت الأسبوع وأنت تعدينا ببعض الحلوى يوم السبت.

– حسناً، اشتري بعض الحلوى.

كانت دكان بيع خبز الشوفان اليهودي مليئة بالمسيحيين. راقبت البائع وهو يدس ربع الرغيف في كيس الورق. كان منظر الرغيف رائعاً بمظهره المقرمش وقشرته الرقيقة وقاعه المغطس بالدقيق. تعتقد فرانسي أنه أروع رغيف في العالم عندما يكون طازجاً. دخلت مترددة إلى دكان بيع اللحم، كان البائع أحياناً راضياً عن بيع اللسان وأحياناً ساخطاً. كانت شرائح اللسان المقطعة تباع للأغنياء بثمن يصل إلى خمسة وسبعين سنتاً للباوند ولكن طرف اللسان المربع كان يباع بنيكل للفقراء إذا كان السيد سويرواين راضياً. بالطبع لم يكن هناك شيء من اللحم في طرف اللسان بل كان عبارة عن عِظام صغيرة رقيقة وهشة، أما اللحم فعبارة عن ذكرى متبقية.

كان السيد سويرواين في ذلك اليوم في حالة رضا: لقد بعت اللسان بالأمس وأبقيت الطرف لكم. أنا أعرف أن أمك تحب طرف اللسان وأنا أحب أمك قولي لها ذلك، هل تسمعين؟

حاضر يا سيدي ... همهمت فرانسي ثم وجهت نظرها إلى الأرضية وهي تشعر بحرارة تدب في وجهها. كانت تكره السيد سويروواين ولذلك لن تخبر أمها بما قاله.

عند الخبّاز تناولت فرانسي أربع قطع من الكعك، واختارت بعناية القطع التي تغطيها أكبر كمية من السكر. في الخارج قابلت نيلي الذي راح يسترق النظر إلى كيس الكعك ثم وثب مرحاً حين شاهد الكعك داخل الكيس. ورغم أنه كان قد تناول ما قيمته أربعة سنتات من الحلوى في ذلك الصباح إلا أنه كان جائعاً وأجبر فرانسي على الهرولة معه بسرعة باتجاه المنزل.

لم يأت أبي للبيت ذلك المساء. كان يعمل نادلاً مغنياً حراً دون الالتزام بمطعم واحد وهذا يعني أنه كثيراً ما كان يقضي الوقت دون عمل. غالباً ما كان يمضي صباح يوم السبت في مقر النقابة بانتظار عمل يأتي إليه.

تمتعت الأم ونيلي وفرانسي بوجبةٍ رائعة فقد كان نصيب كل منهم شريحة كبيرة من طرف اللسان وقطعتين من خبز الشوفان الطازج مع مسحة من الزبدة غير المملحة إضافة إلى قطعة كعك بالسكر وفنجان من القهوة الممزوجة بالحليب.

كان هناك أمر خاص في شأن هذه القهوة فقد كانت تشكل متعة لهم وأي متعة! كانت الأم تصنع منها إبريقاً كبيراً في الصباح وتعيد تسخينه عند الظهر وعند العشاء وهكذا كان طعم القهوة يزداد حدة مع مرور النهار. لم تكن كمية القهوة متناسبة مع الكمية الكبيرة من الماء، ولكن الأم كانت تضيف شيئاً من الهندباء مما يعطي المحلول طعماً قوياً ومراً. كانت حصة كل فرد في المنزل ثلاثة فناجين مع الحليب. أما بدون الحليب فكان فبإمكان كل فرد أن يتناول القهوة السوداء في أي وقت يشعر بالرغبة في تناولها. أحياناً عندما لم يكن يوجد شيء في البيت والسماء ماطرة وأنت وحدك في المنزل، كان رائعاً أن تعلم إن بإمكانك تناول فنجان من القهوة المرة السوداء.

كان نيلي وفرانسي يحبان القهوة ولكنهما نادراً ما كانا يشربانها. واليوم كما هي العادة ترك نيلي القهوة السوداء جانباً وأخذ حصته من الحليب المكثف بعد أن قام بدهنه على قطعة خبز. كما شرب رشفة صغيرة من القهوة السوداء من باب اللباقة. صبت الأم فنجاناً لفرانسي وأضافت إليه الحليب رغم علمها أنها لن تشربه.

كانت فرانسي تحب رائحة القهوة وسخونتها. كانت تأكل طعامها وتترك إحدى يديها محيطة بالفنجان تتمتع بسخونته أو تشتم رائحة القهوة الحادة فيه. كان هذا بالنسبة لها أفضل من شربه، وفي نهاية الوجبة كانت ترميه في بالوعة المجلى.

كان للأم أختان هما سيسي وإيفي وكانتا تأتيان لزيارتها عدة مرات وتوبخان الأم على تبذيرها في كل مرة كانتا تجدان القهوة مقذوفة في المجلى. ولكن الأم كانت تفسر الأمر بالقول: إن لفرانسي الحق بفنجان واحد مع كل وجبة مثلها مثل باقي أفراد الأسرة وإذا كان يحلو لها أن ترميه بدلاً من أن تشربه فلا بأس - أعتقد أن من الممتع أن يشعر أشخاص مثلنا بأن بإمكانهم رمي بعض الأشياء من وقت لآخر مثل هؤلاء الذين يملكون مالاً كثيراً ولا يقلقون إذا رموا شيئاً.

كانت وجهة النظر هذه ترضي الأم وتسر فرانسي. كانت واحدة من تلك الروابط التي تربط بين الفقراء الممعنين في فقرهم وبين الأغنياء المبذرين وتجعلهم يشعرون بأنهم أغنى لأن بإمكانهم التفريط بشيء ما. تناولت فرانسي كعكتها ببطء خشية أن ينتهي طعمها الحلو بسرعة فيما أصبحت القهوة باردة كالثلج. بعد الانتهاء من تناول الطعام، قامت فرانسي بصب القهوة في المجلى وكان هذا كفيلاً بأن يكسبها شعوراً ولو عرضياً بالكبرياء والفخامة. بعد هذا أصبحت فرانسي جاهزة نفسياً للذهاب إلى مخبز لوشر من أجل شراء مؤونة نصف الأسبوع من الخبز القديم. أخبرتها والدتها أن بإمكانها شراء فطيرة حلوى بقيمة نيكل شريطة أن لا تكون مهروسة.

كان مخبز لوشر يزود دكاكين الحي بالخبز ولكن خبزه لم يكن ملفوفاً بورق الشمع كما أنه كان سريع العطب. كان لوشر يسترد هذا الخبز من المتعاملين ويعيد بيعه إلى الفقراء بنصف السعر. وكان دكانه المجاور لمخبزه يتألف من منصة استقبال طويلة تمتد على طول أحد جوانب الدكان فيما تمتد على الجانبين رفوف ضيقة وطويلة. عندما يفتح الباب المزدوج الضخم وراء المنصة تدخل عربات الخبز وتفرغ حمولتها على المنصة. كل رغيفين يباعان بنيكل. كان الناس يتدافعون لشرائها وأحياناً يضطرون لانتظار تفريغ ثلاث أو أربع عربات قبل أن تسنح لهم فرصة الشراء. لم يكن الخبز المتوفر كافياً وكان على الشاري إحضار أكياس التغليف معه لأن بمثل هذا السعر لا يمكن إعطاؤك أكياس تغليف من المخبز. معظم الشارين كانوا من الأطفال الذين كان بعضهم يضع الأرغفة تحت إبطه ويعودون إلى منازلهم وكأنهم يريدون إعلام الدنيا وبكل جرأة ووقاحة أنهم فقراء. أما الآخرون فكانوا يلفون الأرغفة بأكياس أوراق صحف، أو بعبوات الطحين التي كان بعضها نظيفاً وبعضها قذراً. أما فرانسي فقد كانت تحضر معها كيس ورق كبيراً.

ولم تكن تحاول أبداً أن تشتري الخبز فوراً، بل كانت تجلس على الرف وتراقب ما يحدث. كان هناك عدد من الأطفال يتدافعون ويصرخون أمام منصة البيع، فيما جلس أربعة رجال كبار في السن على الرف المقابل وقد غلب عليهم النعاس. كان هؤلاء الرجال متقاعدين، لم يبق لهم عمل في وليامز بيرغ سوى مهمات شراء الأغراض والجلوس مع الأطفال. كانوا يفضلون الانتظار في المخبز للاستمتاع بالشمس التي تسطع على نوافذه وبرائحة الخبز الطازج. كان بعضهم يغط في النوم على المقاعد لساعات. ربما كان الانتظار يعطي بعض المعنى لحياتهم أو يجعلهم يشعرون بأنه لم تزل هناك حاجة إليهم.

حدَّقت فرانسي في وجه أكبر هؤلاء الرجال سناً، وراحت تلعب لعبتها المفضلة وهي محاولة تخيل شخصيات هؤلاء الناس. كان شعر رأس الرجل خفيفاً متشابكاً يشبه تلك الجذامة التي تقف على خديه الضامرين وعلى زوايا فمه

ترتص بقايا لعاب جاف. تثاءب الرجل وتبين لها أنه بلا أسنان. كانت فرانسي تراقبه وقد علتها الدهشة واعتراها شعور بالاشمئزاز وهي تراه يغلق فمه ويسحب شفتيه نحو الداخل حتى يختفي فمه تماماً وترتفع ذقنه إلى الأعلى حتى تكاد تلامس أنفه. راقبت معطفه القديم وقد تدلت بطانته من عروة كمه الممزق. كانت قدماه مبسوطتين عرضاً براحة بائسة وقد أفلت أحد الأزرار من فتحة بنطلونه الملطخ بالشحم فيما كانت فردة حذائه ممزقة ومفتوحة عند الأصابع. إحدى فردات الحذاء كانت تحمل رباطاً فيما ربطت الأخرى بخيط مجدول قذر برز منها إصبعان غليظان مجعدان.

سرحت فرانسي بتخيلاتها... لا بد أنه تجاوز السبعين من العمر، وأنه مولود عندما كان أبراهام لينكولن يتهيأ ليصبح رئيساً. لا بد أن وليامزبيرغ كانت ما تزال بلدة صغيرة في ذلك الوقت وفيها بعض الهنود الحمر يعيشون في ضاحية فلات بوش. كان هذا منذ زمن طويل.. فكرت وهي تحدق في قدميه لا بد أنه كان طفلاً صغيراً رقيقاً، نظيفاً ومدللاً وكانت أمه تقبل أصابع قدميه الزهرية اللون. ربما كانت أمه تأتي إلى مهده في ليالي الشتاء عندما يهدر صوت الرعد لتهدئ من روعه وتحكم غطاء سريره وتنبئه بأن لا يخاف لأنها تقف إلى جانبه، ثم تضع خدها على رأسه وتخبره بنعومة أنه طفلها الصغير الجميل. ربما كان في فتوته، مثل أخي يركض من البيت ويعود إليه ويغلق الباب وفيما كانت أمه توبخه كان تفكيرها يتجه إلى أنه قد يصبح يوماً رئيسا للبلاد. بعد ذلك، حين أصبح شاباً قوياً يافعاً، كان يسير في الشارع ويرى الفتيات وهن يبتسمن له أو يلتفتن إليه فيقوم بغمز أجملهن بعد أن يرد لها الابتسامة. لا بد أنه تزوج وأنجب أطفالاً وأصبح أباً رائعاً يعمل بكد ويجلب الألعاب لأطفاله في أعياد الميلاد. الآن كبر أولاده، مثله تماماً وتزوجوا وأنجبوا أطفالاً ولم يعد أحد يرغب به بعد اليوم. الجميع ينتظر وفاته ولكنه لا يريد أن يموت بل يريد أن يستمر في الحياة حتى ولو أصبح عجوزاً وحتى لو لم يعد شيء يفرحه بعد اليوم.

كان المكان هادئاً وأشعة شمس الصيف تتدفق إلى الداخل مبرزة خيوطاً من الغبار تمتد من النوافذ إلى الأرضية. لم يبقَ في الداخل إلا هي والرجال العجائز الذين يغطون في النوم. كان الأطفال قد خرجوا للانتظار في الخارج ولكن أصواتهم بدت وكأنها قادمة من بعيد.

فجأة قفزت فرانسي من مكانها وأخذ قلبها يخفق بسرعة. بدت وكأن الرعب قد امتلكها دون سبب يذكر. أخذت تفكر في آلة أكورديون موسيقية تقترب منها وقد تجهزت بنوتة موسيقية قوية. أخذت الآلة تقترب وتقترب. تملكها رعب شديد لا تعرف له معنى وقد أدركت في مخيلتها أن العديد من الأطفال في العالم قد ولدوا ليصبحوا يوماً ما شيئاً مثل هذا الرجل العجوز. أحست أن عليها أن تغادر هذا المكان وإلا فإن هذا ما سيحصل لها. ستصبح عجوزاً شمطاء بلا أسنان، وبأقدام بشعة تبعث على القرف.

في هذه اللحظة، فتحت الأبواب المزدوجة أمام منصة البيع معلنة قدوم دفعة جديدة من الخبز. وقف أحد البائعين الرجال خلف المنصة وبدأ سائق الشاحنة يقذف له الخبز فيما هو يكوِّمه على المنصة. سمع الأطفال في الشارع صوت الباب وهو يفتح وتدفقوا نحو المنصة ولكن فرانسي كانت قد وصلت هناك.

صاحت فرانسي بصوت عالٍ: أريد خبزاً، لكنها تلقت فوراً دفعة عنيفة من فتاة كبيرة كأنها تحاول أن تقول لها: من تظنين نفسك؟ لا بأس لا بأس، قالت لها فرانسي وعادت لتلتفت إلى البائع وهي تصيح: أريد ستة أرغفة وأقل فطيرة مفتتة لديك.

ناولها الرجل الخبز والفطيرة وهو معجب بإصرارها. دفعت له ثمنها عشرة سنتات ثم اندفعت عبر الحشد نحو الخارج ولكنها أوقعت رغيفاً في الطريق. وجدت صعوبة في التقاط الرغيف، إذ لم يكن هناك مجال كاف للانحناء وعندما وصلت إلى خارج المكان وضعت الأرغفة والفطيرة في الكيس الورقي.

مرت أمامها امرأة تجر طفلاً في عربة. كان الطفل يلوح بقدميه في الهواء. نظرت فرانسي إلى الطفل ولكنها شاهدت بدلاً منه جسماً ضخماً هائلاً يجلس في العربة وهو يرتدي حذاءً ممزقاً. دب فيها الرعب مرة أخرى وهرعت تركض إلى المنزل. كان المنزل خالياً، فقد كانت أمها قد ذهبت مع الخالة سيسي لمشاهدة أحد المعارض الفنية التي لا يتعدى رسم دخولها عشرة سنتات. وضعت فرانسي الخبز جانباً وطوت الكيس الورقي لاستخدامه مرة أخرى ثم صعدت إلى غرفة النوم الصغيرة التي تخلو من النوافذ، والتي يشاركها فيها نيلي، وجلست على سريرها في الظلام تنتظر أن لا تمر موجات الرعب التي تملكتها قبل قليل.

بعد قليل، دخل نيلي، وانحنى تحت سريره ليتناول قفازاً مهترئاً خاصاً بلعبة البيسبول. سألته فرانسي:

– إلى أين أنت ذاهب؟

– أريد أن ألعب الكرة في الخارج.

– هل يمكنني أن آتي معك.

– كلا، أجابها نيلي ولكنها تبعته إلى الشارع حيث كان بانتظاره ثلاثة من أصدقائه.

كان أحدهم يرتدي قبعة والآخر يحمل كرة بيسبول أما الثالث فلم يكن يحمل شيئاً ولكنه كان يرتدي بنطالاً خاصاً بالبيسبول. توجه الثلاثة نحو قطعة أرض فارغة تقع باتجاه غرين بوينت. شاهد نيلي فرانسي وهي تتبعهم ولكنه التزم الصمت إلى أن وكزه أحد الأولاد بمرفقه قائلاً: إن أختك تتبعنا.

– نعم. أجابه نيلي.

استدار الولد باتجاه فرانسي وصاح: اذهبي وطاردي نفسك.

– إنها بلاد حرة. أجابته فرانسي.

– نعم إنها بلاد حرة. كرر نيلي القول للولد وبعدها لم يلق أحد منهم بالاً لفرانسي. استمرت في تتبعهم إذ لم يكن أمامها شيء تفعله حتى الساعة الثانية بعد الظهر عندما تفتح مكتبة الحي أبوابها مرة أخرى.

سار الأولاد ببطء وهم يتفقدون علب الصفيح في القنوات على جانب الطريق وينتقون أعقاب السجائر لتدخينها في قبو المنزل بعد ظهر يوم تمطر فيه السماء. أمضوا بعض الوقت يسخرون من أحد الأولاد اليهود وهو متوجه إلى الكنيس. احتجزوه قليلاً وهم يتناقشون فيما بينهم حول ماذا سيفعلون به. انتظر الولد وهو يبتسم بتواضع، وأخيراً أطلق الأولاد المسيحيون سراحه بعد أن أعطوه بعض التوجيهات حول كيفية تصرفه في الأسبوع القادم.

أصدروا الأوامر إليه قائلين:

– لا نريد أن نرى وجهك في شارع ديفو.

– لن أمرّ من هنا، وعدهم بهدوء.

شعر الأولاد بالإحباط فقد كانوا يتوقعون معركة. أحدهم أخرج طبشورة من جيبه ورسم على الرصيف خطاً متموجاً وهو يقول للولد اليهودي:

– ولا تفكر حتى بعبور هذا الخط.

ولكن الولد اليهودي، وقد شعر أنه أهانهم حين استسلم لهم بسهولة، قرر أن يلعب على طريقتهم:

– ألا أستطيع أن أضع ولو قدماً واحداً في القناة؟

– إنك لا تستطيع حتى أن تبصق في القناة.

– حسناً، تنهد الولد في حركة إذعان مزعومة.

وهناك خطر ببال أحد أكبر الأولاد الثلاثة فكرة: ابقَ بعيداً عن الفتيات المسيحيات، أتفهم؟ استدار الثلاثة تاركين الولد اليهودي يحدق بهم.

همس الولد اليهودي لنفسه معبراً عن القرف وهو يحرك عينيه اليهوديتين البنيتين. أذهلته فكرة أن يعتقد هؤلاء «الغوييم» الغوغاء من غير اليهود أنه قادر على التفكير بأية فتاة سواء كانت منهم أم كانت يهودية. أكمل سيره وهو يتمتم.

عاد الأولاد إلى السير ببطء وهم ينظرون بإعجاب إلى الولد الأكبر الذي أطلق الملاحظة حول الفتيات. أخذوا يتساءلون إذا كان هذا الأمر سيقودهم إلى حديث عن مواضيع قذرة. ولكن قبل أن يحدث أي شيء من هذا القبيل سمعت فرانسي أخاها يقول:

– أنا أعرف هذا الولد. إنه يهودي أبيض. كان نيلي قد سمع من والده حديثاً حول نادل يهودي يحبه.

– لا يوجد شيء اسمه يهودي أبيض. قال الولد الأكبر.

– حسناً، أجاب نيلي وهو غارق في أفكاره، إذا كان هناك شيء اسمه يهودي أبيض فإنه هذا الولد. وافقه الآخرون على قوله:

– لا يمكن أن يكون هناك يهودي أبيض حتى ولو افترضت ذلك. قال الولد الأكبر.

– ولكن المسيح كان يهودياً. أجابه نيلي وكان قد سمع هذا الكلام من أمه.

– نعم ولكن اليهود الآخرين عادوا وقتلوه. أجاب الولد الأكبر وهو مصر على رأيه.

ولكن قبل أن يتعمقوا أكثر في هذا الحديث اللاهوتي، شاهدوا ولداً صغيراً يتجه نحو شارع إينسلي عبر شارع همبولت وهو يحمل سلة صغيرة على ذراعه مغطاة بقماشة بالية ولكن نظيفة. كانت هناك عصا صغيرة بارزة من إحدى زوايا السلة وقد علقت عليها ست حبات من البسكويت المملح. فجأة أصدر الولد الأكبر في عصابة نيلي أمراً للأولاد لكي يركضوا مسرعين نحو بائع البسكويت الصغير. وقف الولد مشدوهاً وقد فغر فاه وصاح: يا أماه.

هنا ظهرت امرأة على نافذة الطابق الثاني من إحدى البنايات وهي تلقي عباءة حول صدرها وصاحت بالأولاد:

- اتركوه وشانه أيها الزعران الحقيرون وابتعدوا عن هذا المكان.

أغلقت فرانسي أذنيها لكي لا تسمع الكلام القذر وتضطر إلى الاعتراف أمام القسيس بأنها وقفت وأصغت لمثل هذا الكلام.

- إننا لا نفعل شيئاً أيتها السيدة. أجابها نيلي بتلك الابتسامة المتملقة التي كان دائماً يتغلب فيها على أمه.

- أراهنك على حياتك بأن لا تفعل شيئاً. ليس وأنا هنا. أجابت المرأة ثم نادت ابنها دون أن تغير نبرة صوتها: أنت اصعد إلى هنا سوف ألقنك درساً لأنك ضايقتني فيما أنا غافية. صعد الولد إلى المنزل وأكمل الأولاد سيرهم بتمهل:

- إن هذه السيدة عنيفة. قال الولد الأكبر وهو يشير برأسه إلى النافذة.

- نعم، وافق الجميع.

- إن والدي العجوز عنيف أيضاً. قال الولد الأصغر.

- ومن يهتم لذلك؟ سأل الولد الأكبر بفتور.

- كنت فقط أعلق على الموضوع. قال الولد الأصغر معتذراً.

- إن والدي ليس عنيفاً. قال نيلي وضحك الجميع.

استمروا بالسير ببطء وتوقفوا قليلاً ليتنفسوا بعمق وهم يمرون أمام غدير نيوتون الذي يمتد عبر زقاق ضيق نحو شارع غراند.

- يا إلهي إنها رائحة عفنة. قال الولد الأكبر.

- نعم، وافقه نيلي بشدة.

- أراهن أنها أسوأ رائحة في العالم. قال ولد آخر بترفع.

- نعم.

وافقت فرانسي وهي تهمس لنفسها قائلة: نعم. كانت فخورة بهذه الرائحة التي تدل على وجود ممر مائي، يصب رغم قذارته في نهر يجري طول الطريق إلى البحر. بالنسبة لها، كانت هذه الرائحة النتنة تعني وجود سفن تبحر في البعيد ومغامرات بحرية، كانت راضية تماماً عن هذه الرائحة.

ما أن وصل الأولاد إلى الأرض الخالية حيث يوجد ملعب قديم بالٍ حتى ظهرت فراشة صفراء تطير بين الأعشاب، تماماً مثلما تتحرك غرائز الرجال لامتلاك شيء ما عبر مطاردته أو السباحة إليه أو الزحف أو حتى الطيران، أخذ الأولاد يطاردون الفراشة وقد رموا قبعاتهم البالية أرضاً. استطاع نيلي الإمساك بها. نظر إليه الأولاد قليلاً ثم فقدوا اهتمامهم بالأمر بسرعة وأخذوا يتجهزون للعبة بيسبول مؤلفة من أربعة أفراد صمموها خصيصاً لهم.

لعبوا بشدة وعنف، كانوا يشتمون ويعرقون ويدفعون بعضهم البعض وفي كل مرة كان يتعثر أحدهم أو يتباطأ كانوا يهرجون ويتباهون. كانت هناك إشاعة بأن هناك مئات الكشافين يجوبون شوارع بروكلين عصر كل يوم سبت ويراقبون الأولاد الذين يلعبون في الأراضي الخالية علهم يعثرون على لاعبين واعدين. لم يكن هناك ولد في بروكلين إلا ويفضل أن يكون لاعب بيسبول في فريق بروكلين على أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة.

بعد قليل، تعبت فرانسي من مراقبة الأولاد. كانت تعلم أنهم سيواصلون اللعب والقتال والتباهي حتى يحين موعد العشاء. كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر. لا بد أن المسؤول في المكتبة قد أنهى تناول غدائه وعاد الآن. غادرت فرانسي المكان وسارت باتجاه المكتبة وهي تشعر بالرضا والأمل.

2

كانت المكتبة مكاناً قديماً رثاً ولكن فرانسي كانت تظن أنه مكان جميل تشعر نحوه بشعور جيد كما هو شعورها عندما تدخل الكنيسة. دفعت الباب وسارت نحو الداخل. ولكن مزيج روائح الجلد البالية للكتب ومواد اللصق في المكتبات وأختام الحبر كان يعجبها أكثر مما تعجبها رائحة البخور المحروق في قداس الصلاة.

كانت فرانسي تعتقد أن هذه المكتبة تحوي جميع كتب العالم وقد وضعت خطة لقراءة جميع هذه الكتب. كانت تقرأ كتاباً كل يوم حسب الترتيب الأبجدي لأسماء هذه الكتب ولم تكن تتخطى أي كتاب حتى ولو كان مملاً. تذكرت أن أول كاتب قرأت له كان اسمه أبوت. اليوم وصلت إلى حرف (ب) وهي تقرأ الآن عن النحل والجواميس وقضاء العطل في بيرمودا والفن المعماري البيزنطي. ورغم حماسها المنقطع النظير إلا أنها كانت تجد صعوبة في قراءة بعض الكتب ضمن حرف (ب). ولكنها كانت قارئة لا يشق لها غبار، تقرأ كل ما تقع عليه عيناها من مواضيع تافهة وكلاسيكية وجداول زمنية، حتى لائحة الأسعار في دكاكين البقالة. بعض القراءات كانت رائعة، خذ على سبيل المثال: كتب لويزا ألكوت. كانت رائعة. وهي تخطط اليوم لإعادة قراءة جميع الكتب بعد أن تصل إلى حرف (Z) الأخير.

في يوم السبت كانت فرانسي تغير روتينها فتقرأ كتاباً خارج ترتيب الحروف الأبجدية وغالباً ما كانت تستشير الموظفة المسؤولة في المكتبة كي توصي لها بكتاب.

بعد أن دخلت فرانسي إلى المكتبة وأغلقت وراءها الباب بهدوء كما يفترض بها أن تفعل في المكتبة، التفتت بسرعة إلى الوعاء الفخاري ذي اللونين الذهبي والبني، والموضوع في طرف المكتب حيث تجلس الموظفة المسؤولة. كانت هذه المزهرية مؤشراً على فصول السنة. ففي الخريف تجد فيها بعض غصون شجرة الكالستروس المتسلقة، وفي فترة عيد الميلاد تمتلئ المزهرية بنبات الإيلكس. وعندما تظهر عروق الصفصاف في المزهرية تعرف فرانسي أن الربيع قد اقترب رغم الثلج الذي ما زال يغطي الأرض. واليوم، يوم السبت في صيف عام 1912 ماذا يوجد في المزهرية. نظرت فرانسي إلى المزهرية من الأسفل إلى الأعلى. شاهدت جذوعاً خضراء رفيعة تلتها أوراق دائرة ثم ... زهور نبتة الكبوسين بألوانها الحمراء والصفراء والذهبية والعاجية البيضاء. انتابها ألم في رأسها بين العينين وهي تحدق في هذا المشهد الرائع. كان مشهداً ستظل تستذكره طوال حياتها.

- عندما أكبر .. قالت فرانسي لنفسها سوف أشتري مزهرية بنية اللون وفي ذروة حر شهر آب/ أغسطس سأضع فيها ورود الكبوسين.

وضعت يدها على طرف المكتب اللامع. ونظرت إلى صف من أقلام الرصاص المبرية والمرتبة بشكل أنيق على المكتب، ثم إلى ورق النشاف الأخضر، فالوعاء الأبيض الذي يحتوي على معجون اللصق، ثم إلى رف البطاقات المرتبة بدقة، والكتب التي تنتظر إعادتها إلى الرفوف. كانت معجبة بذلك القلم المميز الذي يحمل على طرفه لوحة معدنية صغيرة تشير إلى تاريخ اليوم والسنة. كان القلم موضوعاً على طرف النشافة.

- نعم. قالت فرانسي لنفسها مرة أخرى.. عندما أكبر ويصبح لي بيتي الخاص لن أحضر كراسي ولا برادي ولا نباتات مطاطية. سيكون لي مكتب مثل

ذلك الذي في ردهة المكتبة. سيكون المكتب محاطاً بجدران بيضاء وسأضع عليه نشافة خضراء نظيفة كل ليلة سبت وصفاً من أقلام الرصاص اللامعة والمبرية جيداً استعداداً للكتابة. كذلك سأضع مزهرية ذهبية وبنية اللون وفيها ورود أو أوراق نباتات أو بعض أنواع التوت البري. سأملأ المكان بالكتب... كتب وكتب وكتب في كل مكان.

اختارت فرانسي كتابها ليوم الأحد، وهو لأحد الكُتّاب باسم براون. شعرت فرانسي أنها استغرقت في قراءته عدة أشهر. وعندما قاربت على إنهائه لاحظت أن الاسم التالي على الرف هو لكاتب آخر باسم براوني ثم براوننغ. همهمت قليلاً فقد كانت في توق لتصل إلى حرف (C) حيث يوجد كتاب لكاتبة تدعى ماري كوريلي كانت فرانسي قد اختلست إليه النظر سابقاً ووجدته مشوقاً. هل ستصل يوماً ما إلى ذلك الكتاب. ربما كان عليها أن تقرأ كتابين يومياً..

وقفت أمام المكتب وقتاً طويلاً قبل أن تتلطف مسؤولة المكتبة وتسألها بغضب عما تريده. أريد هذا الكتاب .. أجابتها فرانسي وهي تدفع الكتاب أماماً وقد ظهرت بطاقته داخله. كانت موظفة المكتبة قد درّبت الأولاد على تقديم الكتب بهذه الطريقة وكان هذا يوفر عليها عناء فتح مئات من الكتب يومياً وسحب مئات البطاقات منها. أخذت المسؤولة البطاقة وختمتها ثم مدت الكتاب عبر الفتحة إلى فرانسي بعد أن ختمت بطاقتها أيضاً. أخذت فرانسي الكتاب ولكنها لم تتحرك من مكانها.

– نعم؟ قالت لها الموظفة دون أن تنظر إليها.

– هل بإمكانك التوصية بكتاب لفتاة صغيرة.

– كم عمرها؟

– أحد عشر عاماً.

كل أسبوع كانت فرانسي تطلب الطلب نفسه، وكل أسبوع كانت الموظفة تسألها السؤال نفسه. لم يكن الاسم على البطاقة يعني لها شيئاً كما أنها لم تكن تنظر

إلى وجه الطفل الذي يسألها، لذلك لم تعرف أبداً من هي الفتاة التي كانت تأخذ كتاباً كل يوم وكتابين يوم السبت. كان يكفي منها ابتسامة أو تعليق لطيف حتى تجعل فرانسي تطير من الفرح فقد كانت فرانسي تحب المكتبة وكانت على استعداد أن تعبد الموظفة المسؤولة ولكن هذه الأخيرة كانت مشغولة بأمور أخرى كما أنها وعلى أية حال كانت تكره الأطفال.

شعرت فرانسي بقشعريرة وهي واقفة تنتظر بتأمل، فيما كانت الموظفة تبحث تحت المكتب. لمحت فرانسي عنوان الكتاب وهي ترفعه. كان اسمه «لو كنت ملكاً» للكاتب ماكارثي. رائع! في الأسبوع الماضي أوصت الموظفة بكتاب بيفرلي غروستارك واستمرت توصي به لأسبوعين كما أنها أوصت بكتاب مكارثي مرتين. كانت توصي بهذين الكتابين في كل مرة. يبدو أنها لم تقرأ سواهما أو أنهما كانا على قائمة التوصية أو ربما أنها اكتشفت أنهما يشكلان موضوعين رائعين لفتاة في الحادية عشرة.

تأبطت فرانسي الكتابين وانطلقت مسرعة إلى المنزل. قاومت إغراء الجلوس على شرفة المدخل حيث تنعم بقراءة هادئة ودخلت إلى المنزل. هنا كانت دائماً تتطلع لأسبوع من الجلوس والتنعم بالقراءة بالقرب من سلم الحريق. وضعت سجادة هناك وأحضرت وسادتها من غرفة النوم وألصقتها بقضبان السلم. لحسن الحظ كان هناك بعض الثلج في الثلاجة. أخذت قطعاً منه ووضعتها في كأس ماء. كما عثرت على بضع حبات من البسكويت بالشوكولاته في الوعاء الزجاجي الأزرق. كان الوعاء مشققاً قليلاً ولكن لا بأس به. وضعت الكأس والوعاء والكتاب على عتبة النافذة وتسلقت سلم الحريق. هنا تشعر فرانسي أنها تعيش على شجرة فلا يوجد أحد فوق أو تحت أو على الجوانب يستطيع أن يراها بينما كانت هي تستطيع من خلال أوراق الشجر أن ترى كل شيء.

كان عصر ذلك اليوم مشمساً لا يخلو من نسمة دافئة خفيفة تحمل رائحة البحر. وكانت أوراق الشجرة تشكل أنماطاً سريعة التغير على سطح الوسادة كلما

عبرت أشعة الشمس من خلالها. لم يكن هناك أحد في باحة المنزل وكان هذا أمراً جيداً لأن المكان كان يحتله دائماً ابن الرجل الذي استأجر المخزن في الطابق الأرضي. وكان يحلو لهذا الولد أن يلعب وبشكل لا ينتهي لعبة القبر حيث يقوم بحفر قبور صغيرة ويضع يرقات فراشات حية داخل علب كبريت صغيرة ثم يدفنها وسط مراسم عامة ويشيد عليها أحجاراً صغيرة بعد أن يهيل فوقها بعض التراب. كانت اللعبة تترافق دائماً مع تنهدات زائفة. ولكن الولد في ذلك اليوم كان في زيارة لعمته في بلدة بنسونهيرست. وكان هذا بالنسبة لفرانسي شيئاً رائعاً يوازي تلقي هدية عيد ميلاد.

تنشقت فرانسي الهواء الدافئ وراحت تراقب ظلال أوراق الأشجار وهي تتراقص ثم التهمت بعض الحلوى وشربت رشفة من الماء البارد فيما هي تتصفح الكتاب: لو كنت ملكاً يا حبي.. آه لو كنت ملكاً.

كانت قصة فرانسوا فيلون تبدو أروع وأروع كلما قرأتها. أحياناً كانت تخشى أن يضيع هذا الكتاب في المكتبة وأن لا تستطيع قراءته مرة أخرى. حاولت مرة أن تنسخ الكتاب على دفتر ملاحظات لا يتجاوز ثمنه سنتين. أرادت بشدة أن تتملك الكتاب وكانت تظن أن نسخه يفي بالغرض، ولكن الأوراق المكتوبة بقلم الرصاص لم تكن تحمل رائحة الكتاب في المكتبة، لذلك تخلت فرانسي عن فكرة النسخ مكتفية بأن تقسم لنفسها بأنها حين تكبر ستعمل بجد لكي توفر المال وتشتري كل كتاب يحلو لها.

بينما هي تقرأ في هدوء وسعادة لا تملكهما إلا فتاة صغيرة تجلس وحيدة في البيت وتقرأ كتاباً لطيفاً وتضع أمامها وعاء من الحلوى، انتقلت ظلال أوراق الشجر إلى الجهة الأخرى ومرّ العصر. عند الساعة الرابعة دبّت الحياة في شقق البنايات الضخمة المواجهة لباحة منزلها. عبر أوراق الأشجار نظرت فرانسي إلى النوافذ التي لا يوجد لها ستائر ورأت زجاجات الجعة الباردة وهي تفور في الكؤوس، والأولاد يدخلون ويخرجون ذاهبين إلى أو عائدين من محلات البقالة

وبيع اللحوم والمخابز، والنساء يدخلن ومعهن أكياس التسوق المنتفخة. عادت بذلة الرجل ليوم الأحد إلى المنزل لتعود ثانية يوم الاثنين إلى مقرضها أسبوعاً آخر. كانت الدكاكين التي تبيع بالدين تزدهر على فوائد النقود الأسبوعية، كذلك كانت البذلة تعلق ثانية في الخزانة وقد تناثرت حولها حبات النفتلين لتحميها من العثة. كانت تدخل إلى الخزانة يوم الاثنين وتخرج يوم السبت وكان العم تيمي يقبض كل أسبوع فائدة تصل إلى عشرة سنتات. هكذا كانت تسير دورتها.

رأت فرانسي الفتيات الشابات وهن يتجهزن للخروج مع أصدقائهن. ولما لم يكن هناك حمامات في تلك الشقق فقد كانت الفتيات يقفن على المجلى وهن يرتدين الستر القصيرة أو التنانير ويمددن أذرعهن فوق المجلى وينحنين لينظفن آباطَهنَّ، كان المنظر جميلاً. إذ إن هناك العديد من الفتيات اللواتي يقمن بالحركة نفسها وكأن هذه الطريقة في التنظيف أصبحت طقساً متبعاً.

توقفت عن القراءة عندما أوقف فاربر حصانه وعربته في الباحة المجاورة لمنزلها. كانت متعة مراقبة ذلك الحصان الجميل توازي متعة القراءة. كانت بوابة الباحة المجاورة مبنية من الحُصيِّ الكبيرة، فيما بدا منظر الإسطبل في نهايتها رائعاً، كما كانت هنا بوابة حديدية تصل بين الباحة والشارع. وعلى طرف الحُصيِّ الكبيرة توجد مساحة من الأرض مغطاة بالزبل وقد نمت عليها شجيرة لطيفة موردة وعدد من نباتات إبرة الراعي الحمراء اللون. كان الإسطبل يبدو أروع من أي منزل في الحي كما كانت باحته الأجمل في وليامزبيرغ.

سمعت فرانسي صوت البوابة وهو يغلق ونظرت إلى الحصان. كان هو أول من يدخل بلونه البني اللامع وذيله الأسود وهو يجر عربة صغيرة حمراء. خطّ السيد فرابر كلمة طبيب أسنان وعنوانه على جوانبها بحروف ذهبية اللون. لم تكن العربة توزع شيئاً أو تحمل شيئاً ولكنها كانت تسير بهدوء عبر الشوارع كل يوم من باب الدعاية. كانت عبارة عن لافتة متنقلة.

أما فرانك فكان شاباً لطيفاً له خدود موردة مثل ذلك الشاب الرائع الذي يرد وصفه في أغاني الأطفال. وكان يخرج العربة كل صباح ويعود بها بعد ظهر كل يوم. كانت حياته هادئة لطيفة ولطالما حاولت الفتيات مغازلته. كل ما كان عليه أن يفعل هو أن يقود العربة ببطء بحيث يتيح للناس قراءة الاسم والعنوان المكتوبين على جانبيها. وعندما يصل الأمر بالناس إلى تركيب طقم أسنان أو معالجة وجع الضرس كان عليهم فقط أن يتذكروا العنوان المكتوب على العربة ويهرعوا إلى الدكتور فرابر.

نزع فرانك معطفه ببطء وارتدى مريولاً من الجلد فيما غيّر الحصان «بوب» وقفته من قدمٍ إلى أخرى بصبر وأناة. نزع فرانك عنه اللجام ومسحه وعلقه في الإسطبل، بعدَ ذلك غسل الحصان بإسفنجة صفراء مبللة. كان الحصان يستمتع بتلك الغسلة وهو يقف تحت الشمس ويرفس الأحجار بحوافره حتى ينطلق منها الشرر. كان فرانك يكلم الحصان بينما هو يفرك ظهره البني.

– اثبت الآن يا بوب.. نعم هذا جيد. ارجع إلى الوراء هناك.. الآن.

لم يكن بوب الحصان الوحيد في حياة فرانسي. فقد كان العم ويلي فليتمان زوج خالتها إيفي يملك حصاناً اسمه درامر وكان درامر هذا يجر عربة حليب. ولكن العم ويلي وحصانه لم يكونا صديقين مثلما كان فرانك وحصانه بوب. بل كان ويلي ودرامر يقفان لبعضهما البعض بالمرصاد وكل منهما يفكر كيف يوقع الأذى بصاحبه. كان العم ويلي يشتم درامر كل ساعة. وقد تظن حين تسمعه يتحدث عنه أن الحصان لم يكن ينام الليل بل كان يقف متحفزاً في إسطبل شركة الحليب وهو يخطط لكيفية إيقاع الأذى بصاحبه.

كانت فرانسي تحب أن تلعب لعبة تتخيل فيها الناس حيوانات أليفة وبالعكس. وكان أهل بروكلين يفضلون اقتناء كلاب البودل الصغيرة ذات الشعر الكثيف. والمرأة التي تملك كلب بودل تكون بالعادة امرأة بيضاء صغيرة ممتلئة الجسم، وذات عينين ترشحان مثل البودل. مس تينمور مثلاً وهي التي

تعطي أم فرانسي دروس موسيقى كانت امرأة عجوزاً صغيرة الجسم، تبدو مشرقة مزقزقة مثل عصفور الكناري المعلق في قفص المطبخ. أما فرانك فلو كان بإمكانه أن ينقلب حصاناً فسيكون شكله مثل بوب. ومع أن فرانسي لم ترَ درامر حصان العم ويلي إلا أنها تستطيع أن تتخيله صغيراً نحيفاً داكناً وذا عينين قلقتين تميلان إلى البياض، تماماً مثل العم ويلي.

على الشارع كان هناك عشرة أولاد صغار يتعلقون بالبوابة الحديدية ويراقبون الحصان الوحيد في الحي وهو يُغسل. لم تكن فرانسي تستطيع رؤيتهم ولكنها كانت تسمعهم وهم يتحدثون ويروون قصصاً مخيفة عن الحيوان اللطيف.

- ألا يبدو هادئاً وطيِّعاً. قال أحدهم.

- ولكن ذلك ليس حقيقياً. هو فقط يظهر الهدوء عندما لا ينظر إليه فرانك ولكن عندما تحين الفرصة له فسيعضه ويرفسه حتى الموت.

- نعم، قال ولد آخر، لقد رأيته يسير فوق طفل صغير أمس.

أما الولد الثالث فقال وكأن إلهاماً قد نزل عليه: رأيته يتبول فوق رأس سيدة عجوز تبيع التفاح قرب القناة. فكّر الولد قليلاً ثم أضاف كأنما وصلته فكرة أخرى: لقد بلل التفاح كله.

- لقد وضعوا أضواء على عينيه لكي لا يرى الناس صغيري الحجم لأنه لو عرف صغر حجمهم لداسهم جميعاً وقتلهم.

- هل هذه الأضواء تجعله يرى الناس صغاراً.

- نعم صغاراً جداً.

- ياه.

كان كل ولد يتكلم وهو يعرف أنه يكذب ومع ذلك فقد كان كل منهم يصدِّق ما يقوله الأولاد الآخرون عن الحصان. في النهاية سئم الأطفال من

مشاهدة الحصان اللطيف وهو يُغسل. تناول أحدهم حجراً وقذف الحصان به. ارتج جسم بوب عندما أحس بضربة الحجر ووقف الأولاد يرتجفون وهم يتوقعون أن يفقد بوب صوابه.

نظر إليهم فرانك وخاطبهم بلهجة بروكلين اللطيفة:

- لماذا تفعلون ذلك؟ إن الحصان لم يؤذكم بشيء.

- آه كلا؟ صرخ أحد الأولاد ساخطاً.

- كلا ! أجابه فرانك.

صدرت عن أحد الأولاد شتيمة سيئة موجهة لفرانك ولكن الأخير لم يغير لهجته اللطيفة بل أجابه وهو يصب الماء على الحصان:

- هل ستذهبون من هنا أم سوف أضطر أن أضرب أحمقين منكما.

- أنت ومن؟

- سوف أريكم من ! انحنى فرانك وتناول قطعة حصى كبيرة وتهيأ لرميها عندما تراجع الأولاد وهم يطلقون الشتائم والردود المهينة.

- أظن أن هذه بلاد حرة.

- نعم أنت لا تملك الشوارع.

- سوف أخبر عمي الشرطي عنك.

- ارحلوا الآن. أجابهم فرانك بلا مبالاة وهو يعيد الحصاة إلى مكانها بهدوء.

انسحب الأولاد الكبار بعد أن سئموا من هذه اللعبة ولكن الأولاد الصغار تسللوا عائدين ليشاهدوا فرانك وهو يطعم بوب رزمة من الشوفان.

انتهى فرانك من غسل الحصان ثم أوقفه تحت شجرة حتى يبقى رأسه في الظل. بعد ذلك علّق على رقبته كيساً مليئاً بالعلف وعاد ليغسل عربته وهو يصفّر

لحن أغنية دعيني أناديك حبيبتي. أطلت فلوسي غاديس التي تسكن في الطابق الأسفل لمنزل آل نولان من النافذة وهي تنادي بصوت مرح:

- هل أنهيت عملك اليوم؟

- سرعان ما سأنهيه.

- أظن أنك ستخرج للعب الرياضة، كون الليلة ليلة سبت.

لم يجب فرانك.

تابعت فلوسي قائلة: لا تقل لي إن شاباً وسيماً مثلك ليس له صديقة.

لم يجب فرانك أيضاً.

استمرت فلوسي بالحديث: هناك لعبة يد الليلة في نادي شامروك.

- نعم، أجاب دون أن يبدي اهتماماً.

- حسناً لدي تذكرة لسيدة وشاب.

- آسف إنني مرتبط الليلة.

- هل ستبقى في البيت للسهر مع والدتك العجوز.

- ربما.

- أوه، اذهب إلى الجحيم. أغلقت فلوسي النافذة بقوة فيما تنفس فرانك الصعداء. انتهى الأمر.

كانت فرانسي تشعر بالأسى لفلوسي فهي لم تقطع الأمل أبداً رغم أن فرانك كان يخذلها دائماً. كانت فلوسي تركض وراء الرجال وهؤلاء يهربون منها. كانت الخالة سيسي كذلك تركض وراء الرجال ولكنهم كانوا يلاقونها في منتصف الطريق. الفرق هو أن فلوسي كانت نهمة في بحثها عن الرجال أما الخالة سيسي فكانت تبحث عنهم ولكن دون نهم ولعل في هذا الأمر فرقاً كبيراً.

3

وصل والد فرانسي في الساعة الخامسة. في غضون ذلك كانت العربة والحصان قد أصبحا داخل إسطبل فرابر، وكانت فرانسي قد أنهت قراءة كتابها والتهمت الحلوى التي أمامها. كانت الشمس في عصر ذلك اليوم تبدو باهتة رقيقة على ألواح السياج البالي أمام المنزل. وضعت فرانسي وسادتها على خدِّها للحظة. كانت الوسادة قد أصبحت دافئة بفعل أشعة الشمس ومنعشة بفعل الهواء الخارجي. وضعت فرانسي الوسادة مكانها على السرير وسمعت والدها يغني أغنيته المفضلة «مولي مالون». كان دائماً يرددها وهو يصعد الدرج بحيث يعرف الجميع أنه أصبح في المنزل.

في مدينة دبلن الجميلة

توجد فتيات جميلات

هناك قابلت لأول مرة ...

فتحت فرانسي الباب وهي تبتسم بسعادة قبل أن يكمل أبوها المقطع التالي:

– أين أمك؟ سألها. كان دائماً يطرح السؤال نفسه كلما دخل إلى المنزل.

– ذهبت إلى العرض مع سيسي.

– آه ... بدا عليه الإحباط ... كان دائماً يظهر إحباطه عندما لا يجد كـاتي في المنزل.

– سوف أعمل في مطعم كلومر الليلة. هناك حفل عـرس ضـخم. مـسح وجهه بكم المعطف قبل أن يعلقه.

– هل ستقوم بالعمل كنادل أم كمغنٍّ.

– كلاهما، هل مريول العمل نظيف يا فرانسي؟

– يوجد مريول نظيف ولكنه غير مكوي. سوف أكويه لك.

أعدت فرانسي لوح الكوي بعد أن وضعته على مقعدين ثم انتظرت حتـى تصبح المكواة حامية. في غضون ذلك صبّت لوالدها فنجـان قهـوة. شرب الأب القهوة وتناول معها قطعة من الكعك كانوا قد خبؤوها له. كان يبدو سعيداً لأنـه حصل على عمل هذه الليلة ولأن الجو كان لطيفاً.

– إن يوماً كهذا يشبه حصولك على هدية مَن أحدهم.

– نعم يا أبي.

– أليست القهوة الساخنة شيئاً رائعاً. ماذا كان الناس يفعلون قبل اخـتراع القهوة؟

– أحب أن أتنشق رائحتها.

– من أين اشتريت هذا الكعك؟

– من رينكلرز.. لماذا؟

– إنهم يصنعونها بشكل أفضل يوماً بعد يوم.

– هناك بعض الخبز.. ربما قطعة.

- حسناً.

تناول أبوها قطعة الخبز ثم قلبها. كان ملصق النقابة ما زال ظاهراً عليها.

- إنه خبز جيد هذا الذي تصنعه نقابة الخبازين.

رفع الملصق ثم فكر قليلاً: لماذا لا ألصقه على مريولي.

إنه هناك - مخيَّط على العروة سوف أخرجه بالمكواة.

- إن هذا الملصق يبدو مثل الزينة على المريول، كأنك تلبسين وردة. انظري إلى زر المريول وعليه ملصق النقابة. قامت فرانسي بتخييط الزر على طية صدر السترة فيما قام هو بتلميعه بطرف كمّه.

- قبل أن أنضم إلى النقابة كان رؤسائي في العمل يدفعون لي أي شيء وأحياناً لا يدفعون شيئاً. كانوا يقولون يكفيك ما تحصل عليه من إكراميات. بعضهم كان يبدلني لكي يعمل مكاني. كانوا يقولون إن الإكراميات كبيرة وإن بإمكانهم بيع هذا العمل. بعد ذلك انضممت إلى النقابة. لا يجب أن تكره أمك ما أفعله. لقد أصبحت أحصل على أعمال من خلال النقابة يدفع لي فيها الرؤساء راتباً محدداً بغض النظر عن الإكراميات. يجب أن تكون هناك نقابة لكل عمل.

- نعم يا أبي.

في غضون ذلك كانت فرانسي قد أنهت الكوي بعد أن أصغت لوالدها باهتمام. كانت تحب أن تسمعه وهو يتحدث.

فكرت فرانسي بمقر النقابة. في أحد الأيام ذهبت هناك لتحضر لوالدها مريولاً ورسوم النقل كي يستطيع الالتحاق بعمله. رأته وهو جالس مع بعض الرجال كان يرتدي بدلته التوكسيدو طوال الوقت، وهي البدلة الوحيدة التي يملكها. كانت قبعته السوداء بارزة بأناقة فوق رأسه فيما هو يدخن السيجار. عندما رآها رمى السيجار بعيداً ورفع قبعته.

– ابنتي. قالها بفخر فيما أخذ باقي النادلين ينظرون إلى تلك الطفلة النحيلة بثوبها الرث. راحوا يتبادلون النظرات فيما بينهم. كان وضعهم يختلف عن وضع جوني نولان. فهم يعملون في وظائف منتظمة طوال الأسبوع ويحصلون على نقود إضافية عندما يعملون في ليالي السبت بينما كان جوني يعمل هنا وهناك دون أن تكون له وظيفة منتظمة.

– أريد أن أخبركم أيها الزملاء أن لدي طفلين رائعين وزوجة جميلة، وأنني لا أقوم بواجبهم بما فيه الكفاية.

– هون عليك. قالها له أحد أصدقائه وهو يربت على كتفه.

أصغت فرانسي لرجلين من خارج المجموعة وهما يتحدثان عن أبيها.

قال الرجل القصير:

– أريدك أن تصغي لهذا الرجل وهو يتحدث عن زوجته وأطفاله. إن حديثه عميق كما أنه إنسان طريف فهو يعطي ما يحصل له من أجور لزوجته ويبقي نقود الإكراميات لكي يسكر بها. لقد رتَّب أموره مع مكغاريتي بطريقة غريبة. فهو يحوِّل له جميع النقود التي يحصل عليها من الإكراميات بينما يقوم مكغاريتي بشراء الشراب له. هو لا يعلم إذا كان مديناً لمكغاريتي أم أن مكغاريتي مدين له. ولكن يبدو أن الأمر يسير بشكل جيد بالنسبة له. إنه يحمل في قلبه همّاً على الدوام.

شعرت فرانسي بالألم يحز في قلبها ولكنها عندما رأت مدى محبة الرجال الآخرين لأبيها وكيف أنهم يبتسمون لرؤيته ويصغون بشغف إلى أحاديثه، خفّ تأثير هذا الألم. كانت تعلم أن الجميع يحب والدها وأن هذين الرجلين هما استثناء.

نعم، كان الجميع يحب جوني نولان فالرجل مغنٍّ رائع وأغانيه جميلة. منذ البداية كان الجميع وخاصة الإيرلنديين يحبون الشخص الذي يغني بينهم

ويهتمون به. كذلك كـان زمـلاؤه النـادلون يحبونـه بـصدق، ومـثلهم أصـحاب العمل، وزوجته وأطفاله. كان ما يزال فتياً ومرحاً وأنيقاً. لم تنقلب عليـه زوجتـه أبداً ولم يجد أولاده عيباً فيه يخجلهم أو يحرجهم.

أبعدت فرانسي أفكارها عن اليوم الذي زارت فيـه مقـر النقابـة، وعـادت للاستماع لحديث والدها. كان ما يزال يتحدث عن ذكريات ماضيه:

- خذوا شخصاً مثلي على سبيل المثال، أنا لا شيء ... قال الأب ثـم أردف بعد أن أشعل سيجاره بهدوء. لقد هاجر أهلي من إيرلندا في العام الـذي انهـارت فيه أسعار البطاطا. أحدهم كان يملك سفينة بخارية وقد قال لأبي إنـه سـيأخذه معه إلى أميركا، ففيها عمل ينتظره وإنه سيحصِّل أجور النقل بالقارب من رواتبه. وهكذا هاجر أبي وأمي إلى هنا.

- كان أبي على شاكلتي لم يستمر في وظيفة واحدة مدة طويلة. توقف الأب قليلاً عن الحديث وراح يدخن سيجاره بصمت.

تابعت فرانسي الكوي بهدوء. كانت تعلم أنه يفكـر بـصوت عـالٍ وأنـه لم يكن يتوقع منها أن تفهم ما يقول. أراد فقط أن يكون هناك شـخص يـصغي لـه. كان يكرر الحديث نفسه كل يـوم سـبت. أمـا بـاقي الأسـبوع فيقـضيه في شرب الخمر. كان يأتي إلى البيت ويذهب دون أن يتحدث كثيراً ولكن يوم السبت كـان يوم التحدث بالنسبة له.

لم يكن أهلي يعرفون القراءة أو الكتابة وأنا نفسي درست فقط حتى الصف السادس وكان عـليّ أن أتـرك المدرسـة عنـدما تـوفي والـدي. أنـتم أيهـا الأولاد محظوظون. أنا سأحاول كل جهدي أن أدخلكم المدرسة.

- نعم يا أبي.

- كان عمري حينها اثني عشر عاماً وكنت أغني في البارات أمام السكارى الذين كانوا يرمون عليّ بعض النقود ثم بدأت أغني حول البـارات وفي المطـاعم

وأنتظر من الناس أن يـدفعوا .. سرح الأب بأفكـاره قلـيلاً وخـيّم عليـه بعـض الهدوء.

– كنت أرغب دائماً أن أكون مغنياً حقيقياً من النوع الذي يخرج إلى المسرح بكامل أناقته. ولكنني لم أكن متعلماً ولم أكن أعرف كيف أبدأ الطريق.

ابق على طريقتك في العمل. قالت لي والـدتي .. إنـك لا تعـرف كـم أنـت محظوظ لأن لديك عملاً..

وهكذا أصبحت نادلاً مغنياً. ليس بالعمـل المنـتظم فقـد كنـت أرغـب أن أكون نادلاً فقط. لهذا أنا أسكر.

أنهى حديثه بهذه الكلمات غير المنطقية.

نظرت إليه فرانسي وكأنها تريـد أن تطـرح عليـه سـؤالاً. ولكنهـا عـادت وصمتت فيما تابع هو يقول:

– أنا أشرب الخمر لأني لا أملك فرصة وأنا أعلـم ذلـك. لم أسـتطع قيـادة شاحنة مثل باقي الرجال ولم أستطع دخول سلك الشرطة بسبب بنياني الجسدي الضعيف. تحولت إلى شرب الجعة والغناء عندما كنت أرغب في الغناء فقـط. أنـا أشرب الخمر لأن عليّ مسؤوليات لا أستطيع أن أقوم بها.

صمت الأب قليلاً ثم تابع همساً: أنـا لـست رجـلاً سـعيداً. لـديّ زوجـة وأطفال ولا أستطيع أن أعمل بجـد لأعـيلهم. لم أكـن أرغـب أبـداً أن يكـون لي عائلة. شعرت فرانسي بالألم مرة أخرى عندما أحست أن أباهـا لم يكـن يرغـب بوجودها أو وجود نيلي.

تابع الأب يقول:

– رجل مثلي لماذا يريد أن يكوِّن عائلة؟ لقد وقعت في حب كاتي روميلي. آه أنا ألوم أمك .. أعتب بسرعة لو لم تكن هي لكنت تزوجت هيلدي أو دير. أعتقد أن أمك ما تزال تشعر بالغيرة منها ولكني عندما قابلت كاتي قلت لهيلدي اذهبي

أنت في طريقك وأنا في طريقي وهكذا تزوجت أمك وأنجبنا أطفالاً. أمك امـرأة صالحة يا فرانسي لا تنسي هذا أبداً.

كانت فرانسي تعلم أن أمها امرأة صالحة ولكن لماذا هي تحب أباها أكثر من أمها؟ لماذا؟ إن أباها لا يصلح لشيء وقد اعترف هو بذلك فلماذا تحبه أكثر.

تابع أبوها قائلاً:

– نعم، أمك تعمل بجد وأنا أحب زوجتي وأطفـالي . عـادت الفرحـة إلى قلب فرانسي ولكن ألا يحق للرجل أن يحيا حياة أفـضل؟ ربـما يومـاً مـا سـتعمل النقابة على إتاحة الفرصة للرجل ليعمل ويحيا حياته أيضاً ولكن هذا لـن يحـصل في زمني. الزمن الآن هو أن تعمل بجد طـوال الوقـت وإلا فلـن تنـال شـيئاً. لا يوجد حل وسط بين هذين الأمرين. عندما أموت لن يتذكرني أحد لمـدة طويلـة. لن يقول أحد كان رجلاً أحب عائلته وآمن بالنقابة. سـيقولون للأسـف كـان لا شيء سوى سكير، كيفما نظرت إلى الأمر فهو هكذا سكير فقط..

عاد الهدوء إلى الغرفة، رمى جوني نولان سيجاره من النافذة بعد أن دخّـن نصفه وقد ظهرت على وجهه أمارات المرارة. كان لديـه هـاجس بـأن حياتـه تمـر بسرعة شديدة. نظر إلى طفلته وهي تكوي الثياب بهدوء ورأسها منحنٍ على لوح الكوي وشعر بطعنة في صدره أمام الحزن الناعم البادي على وجهها النحيل.

– اسمعي يا صغيرتي .. اقترب منها ووضع ذراعـه حـول كتفهـا الـصغير وقال: إذا حصلت على إكراميات جيدة الليلـة فـسأضع النقـود رهنـاً عـلى أحـد الخيول القوية التي ستنطلق في سباق يوم الاثنين. سوف أراهن عليـه بـدولارين وأربح عشرة ثم سأراهن بالعشرة دولارات على حصان آخر أعرفه جيداً وأربـح مائة. وإذا استعملت ذكائي جيداً وحـالفني الحـظ فسيـصل ربحـي إلى خمـسمائة دولار.

فكر قليلاً وقال لنفسه: أضغاث أحلام ! هكذا كان ظنه حتى وهو يحـدثها عن أحلامه في تحقيق الأرباح.

– ولكن آه كم هو رائع لو أن كل شيء تحدثت عنه يمكن أن يتحقق.

تابع حديثه يقول:

– أيضاً هل تعلمين ماذا سأفعل أيتها السيدة ذات الصوت الجميل.. ابتسمت فرانسي وهي تسمعه يكرر هذا اللقب الذي طالما كان يصفها به وهي طفلة رضيعة ويقسم أن بكاءها كان يحمل ألحاناً متنوعة مثل أغاني الأوبرا.

– كلا، ما الذي تنوي أن تفعله؟ قالت فرانسي.

– سوف آخذك في رحلة فقط أنت وأنا أيتها السيدة ذات الصوت الجميل. سوف نسافر جنوباً حيث يزهر القطن.. أعجبته هذه العبارة فكررها ثانية.. هناك حيث يزهر القطن.. ثم تذكر أن هذه العبارة وردت في إحدى الأغنيات التي يعرفها. وضع يديه في جيوبه وأخذ يصفِّر ويمشي وهو يرقص ويقلد بات روني.. ثم بدأ يغني.

حقل من الثلج الأبيض.

هل تسمع الظلام وهو يغني برقة وهدوء.

أشتاق لأن أكون هناك حيث ينتظرني أحدهم.

هناك حيث تهب زهور القطن.

قبَّلت فرانسي خديه بنعومة وهمست:

– أنا أحبك كثيراً يا أبي.

ضمّها إليه بشدة وفجأة عاد له الإحساس بالجرح المطعون وراح يردد بأسى لا يطاق: يا إلهي.. يا إلهي أي أب أنا.

لكنه عاد وهدأ فجأة والتفت إليها قائلاً:

– ألم تنتهي من كيّ مريولي بعد؟

– لقد انتهيت يا أبي.

طوت فرانسي المريول على شكل مربع.

سألها:

– هل يوجد نقود في المنزل يا صغيرتي.

نظرت إلى الكأس المكسور الموضوع على الرف: نعم يوجد نيكل وبعض السنتات.

– أرجوك أن تأخذي سبعة سنتات وتشتري لي قبة قميص وياقة من الورق.

انطلقت فرانسي إلى الدكان لتشتري لوالدها عدة ليلة السبت. كانت قبة القميص مصنوعة من نسيج قطني رقيق. وكانت تُركَّب حول الرقبة مع زر للياقة وصدرية تحفظها ثابتة في مكانها، وقد استخدمها الرجال بدلاً من قميص وكانوا يرمونها عندما تتلف. أما الياقة الورقية فلم تكن مصنوعة من الورق تماماً ولكن من السليولوز المقوى. كان الرجال الفقراء يلبسونها لأنها لا تحتاج إلى غسل بل يمكن تنظيفها بخرقة مبللة. بينما كانت الياقة المصنوعة من الكتان الناعم المنشى تستخدم مرة واحدة فقط.

عندما عادت فرانسي من الدكان، كان أبوها قد حلق ذقنه وأسدل شعره نزولاً بعد أن بلّه بالماء، كذلك لّمع حذاءه وبدل قميصه الداخلي. لم يكن القميص مكوياً كما كان فيه ثقب كبير ولكن رائحته كانت جيدة. وقف أبوها على كرسي وتناول صندوقاً من سطح رف الخزانة. كان الصندوق يحتوي على مجموعة من الأزرار اللؤلؤية التي كانت كاتي قد أهدتها له بمناسبة زواجهما. كانت هذه الأزرار قد كلفتها راتب شهر لذلك كان جوني فخوراً بها. ومهما قست الأيام عليه، لم يكن جوني يفكر أبداً برهن هذه الأزرار.

ساعدته فرانسي على وضع الأزرار داخل قبة القميص ثم أحكم ربط الياقة بزر ذهبي كانت هيلدي أو دير قد أهدته له قبل أن يخطب كاتي. ولم يكن ليرهن هذا الزر أيضاً. كانت ربطة عنقه عبارة عن قطعة من الحرير الأسود الثقيل وكان

يربطها بعقدة محكمة بينما كان باقي النادلين يربطونها بعقد مطاطية. هو لم يكن يفعل ذلك أبداً. كذلك كان النادلون الآخرون لا يأبهون إذا كانت القمصان التي يرتدونها نظيفة أو مكوية ولكن ليس هو. كان قميصه أنيقاً ولو بشكل مؤقت.

أخيراً انتهى من ارتداء ثيابه. كان شعره الأشقر المتموج يلمع وبدا نظيفاً منتعشاً من الاغتسال والحلاقة. ارتدى معطفه وزره بلياقة. كانت هناك بعض الخيوط المتدلية من بدلته التوكسيدو ولكن من الذي ينظر إليها عندما تكون البدلة لائقة بشكل باهر على جسده وحتى تجعدات البنطال تبدو مثالية عليه. نظرت فرانسي إلى الحذاءين السوداوين اللامعين وعلى طرف البنطلون الساحل بدقة فوق الكعب ولياقته المدهشة عند السير. لا يوجد بنطلون يليق بأب مثل هذا! شعرت فرانسي بالفخر ثم وضعت مريوله بحذر في كيس من الورق كان مخصصاً لهذه المناسبة.

سارت معه نحو العربة. كانت النساء يبتسمن له إلى أن يلاحظن أنه يمسك بيد فتاة صغيرة. كان جوني يبدو مثل فتى إيرلندي شيطاني وأنيق وليس كزوج لامرأة عادية وأب لطفلين يعيشان جوعى دائماً.

مرَّ الاثنان عن دكان غابرييل للخردوات وتوقفا ليلقيا نظرة من واجهة المحل على المزلاجات. لم تكن أمها تجد الوقت لذلك ولكن أباها كان يتحدث وكأنه سيشتري لها زوجاً من المزلاجات يوماً ما. سارا نحو زاوية الشارع. مرت عربة شارع غراهام وأبطأت السير أمامهما. تعلق أبوها بمنصة العربة ثم وقف على المنصة الخلفية ممسكاً بأحد مقابضها وهو يلوح بيده وداعاً لفرانسي. لا يوجد رجل على الأرض بمثل أناقة أبيها ... هكذا فكّرت فرانسي.

4

بعد أن ودّعت أباها، عادت فرانسي لترى أي نوع من الفساتين جهزتها فلوسي غاديس للرقص في هذه الليلة. كانت فلوسي تعيل أمها وأخاها من خلال عملها في مخرطة لصنع قفازات يد للأطفال. وكانت تصلح من وضع القفازات التي تخاط على الجهة الخطأ وتقلبها إلى الناحية الصحيحة وغالباً ما كانت تعمل في الليل في منزلها. كانت العائلة بحاجة إلى كل سنت حيث إن أخاها كان يعاني من داء السل وبقي عاطلاً عن العمل.

كم من مرة قيل لفرانسي إن هيني غاديس يحتضر ولكنها لم تكن تصدق ذلك إذ لم يكن تبدو عليه أمارات الموت. كان مظهره رائعاً، وبشرته صافية ووجنتاه تضجان باللون الأحمر. كذلك كانت عيناه داكنتين واسعتين تلمعان في وهج المصباح. ولكن هيني كان يعلم أنه قريب من الموت. كان عمره تسعة عشرة عاماً، تواقاً للحياة ولكنه لم يكن يفهم لماذا ابتلي بهذا القدر المشؤوم.

كانت السيدة غاديس تفرح لرؤية فرانسي إذ إن وجودها كان يبعد هيني عن أفكاره البائسة.

- «هيني هاهي فرانسي قد جاءت». نادت الأم بصوت جذل.

- مرحباً يا فرانسي.

- مرحباً يا هيني.

- ألا يبدو هيني في حالة جيدة يا فرانسي؟ أخبريه بذلك قالت الأم.

- تبدو رائعاً يا هيني. قالت فرانسي.

التفت هيني جانباً وكأنه يحدث شخصاً غير مرئي:

- هي تقول لرجل يحتضر إنه يبدو بحالة جيدة.

- أنا أعني ذلك. قالت فرانسي.

- كلا أنت لا تعنين ذلك ولكنك تقولينها فقط.

- ما الذي تقوله يا هيني؟ انظر إليّ كم أبدو هزيلة ولكني لا أفكر بالموت أبداً.

- أنت لن تموتي يا فرانسي، لقد خلقت لتتغلبي على هذه الحياة التعيسة.

- ومع ذلك أنا أتمنى أن يكون لي وجنتان حمراوتان مثلك.

- كلا أنت لا تريدين ذلك خاصة إذا عرفت من أين مصدرهما.

- هيني، عليك أن تجلس على السطح مدة أطول. قالت أمه.

- تقول لرجل يحتضر، عليك أن تجلس على السطح أكثر. قال هيني وهو يلتفت نحو شخصه غير المرئي.

- أنت بحاجة إلى أشعة الشمس والهواء النقي.

- اتركيني بحالي يا أماه.

- أنا أتحدث فقط لما فيه مصلحتك.

- أماه أماه اتركيني بحالي.

فجأة تدلى رأس هيني عند ذراعيه وأخذ يسعل بمرارة. نظرت فلوسي وأمها إلى بعضهما البعض، كأنهما توافقان على تركه لشأنه. غادرا إلى الغرفة التي عند المدخل ليعرضا الأزياء الجديدة على فرانسي وتركاه يسعل في المطبخ.

كانت فلوسي تفعل ثلاثة أشياء كل أسبوع؛ تعمل لتصليح قفازات الأطفال، وتعمل على الأزياء وتعمل من أجل كسب ود فرانك. وكانت تذهب كل ليلة سبت إلى حفلة تنكرية راقصة وهي ترتدي زياً مختلفاً في كل مرة. كانت تصمم أزياءها لكي تخفي ذراعها اليمنى المشوهة. فقد كانت قد سقطت في طفولتها داخل وعاء ماء يغلي ترك سهواً في مكان خطأ على أرضية المطبخ مما تسبب في إحداث حروق مروعة في ذراعها اليمنى. وقد كبرت فلوسي وذراعها اليمنى تحمل آثار هذه الحروق، لذلك كانت ترتدي دائماً أكماماً طويلة.

ولما كانت الحفلات التنكرية الراقصة تقتضي منها أن ترتدي فساتين مقوَّرة عند الصدر أو الظهر أو الكتفين، فقد صممت فلوسي فستاناً مكشوف الظهر، يعرض صدرها العارم من الأمام ويغطي ذراعها اليمنى وقد أثّر ذلك على الحكام الذين يقيِّمون أجمل زي إذ ظنوا أن الكم الطويل من جهة واحدة يرمز إلى شيء وبذلك نالت الجائزة الأولى في الحفل.

ارتدت فلوسي الزي الذي صممته لليلة السبت، وقد ظهرت في هذا الزي وكأنها إحدى الراقصات اللواتي يبرزن في الخيال الشعبي. كان الفستان يتشكل من طبقة خارجية من قماش الساتان وطبقات داخلية حمراء اللون. وفي جهة الصدر الأيسر للثوب، ظهرت فراشة لامعة مدروزة لتظهر الصدر بشكل حاد. أما الأكمام فكانت من الحرير الأخضر. أبدت فرانسي إعجابها بالفستان فيما قامت أم فلوسي بفتح الخزانة على مصراعيها ليظهر في داخلها رف من الأزياء ذات الألوان البراقة.

كان لدى فلوسي ستة فساتين من مختلف الألوان ومثلها عدداً من التنانير التحتية وما لا يقل عن عشرين كماً من الحرير من جميع الألوان التي يمكن للإنسان أن يتخيلها. في كل أسبوع كانت فلوسي تبدل التركيبات والخلطات، فمرة تنورة تحتية مع فستان أزرق سماوي وكم أسود حريري ومرة أخرى خلطة أخرى وهكذا   كان لديها في الخزانة أيضاً ما يقارب الأربع والعشرين شمسية حريرية لم تستعمل قط، هي مجموعة الجوائز التي كسبتها. كانت فلوسي تجمع

الشمسيات من أجل الاستعراض تماماً مثلما يجمع لاعب الكرة أو الرياضي الكؤوس التي فاز بها. كانت فرانسي تشعر بالسعادة وهي تنظر إلى هذه الشمسيات. لعل الفقراء يميلون دائماً إلى تجميع كميات من الأشياء.

وفيما كانت فرانسي تبدي إعجابها بالأزياء، انتابها شعور بعدم الراحة. شعرت وهي تنظر وتتأمل هذه التشكيلة البراقة من الألوان الزرقاء والحمراء والنهدية والزاهية أن هناك شيئاً يختفي وراءها. كان شيئاً ملفوفاً بعباءة داكنة طويلة تبرز منها جمجمة غاضبة وعظام يدين. كانت تختبئ هناك خلف الألوان الزاهية تنتظر هيني.

5

عادت الأم إلى المنزل برفقة العمة سيسي. كانت الخالة سيسي هي المفضلة لدى فرانسي، إذ كانت تشعر نحوها بالمحبة والإعجاب خاصة وأنها عاشت حياة شديدة الإثارة فرغم أنها ما تزال في الخامسة والثلاثين من العمر، إلا أنها تزوجت ثلاث مرات وأنجبت عشرة أطفال ماتوا جميعهم بعد ولادتهم بقليل. لذلك كانت سيسي تعتبر فرانسي البديل لأولادها العشرة.

عملت سيسي في مصنع للمطاط حيث كان جميع الرجال معجبين بها. كانت تملك عينين سوداوين لعوبتين وشعراً أسود أجعد ولوناً شديد الصفاء. ولم تنسَ أن تزين شعرها بياقة حمراء بلون حبة الكرز. أما أم فرانسي فكانت ترتدي قبعة خضراء تجعل بشرتها تبدو كالقشطة على فتحة زجاجة وكانت تخفي قساوة يديها الجميلتين بزوج قفازات بيضاء. دخلت إلى المنزل مع سيسي وهما تتجاذبان أطراف الحديث بحماس وتتضاحكان كلما تذكرت إحداهن حادثة طريفة وقعت خلال الحفل.

أحضرت سيسي هدية معها إلى فرانسي هي عبارة عن عرنوس مجوف من الذرة تظهر على طرفه دجاجة مصنوعة من المطاط كلما نفخت فيه. كانوا يصنعون

مثل هذه الألعاب المطاطية في المصنع الذي تعمل فيه سيسي، وكان المصنع يحقق أرباحاً ضخمة من عدة منتجات مطاطية أخرى.

أملت فرانسي أن تبقى الخالة سيسي لتناول العشاء، إذ إنها كان تسبغ على المكان جواً من المرح والإثارة، كما أنها كانت تفهم عقلية الفتيات الصغيرات، فبينما كان الناس الآخرون يعاملون الأطفال وكأنهم شر محبب لا بد منه، كانت سيسي تعاملهم على أساس أنهم مخلوقات بشرية مهمة. رغم أن الأم شددت على بقاء سيسي إلا أن الأخيرة لم تكن ترغب بالبقاء حتى العشاء. كان عليها أن تعود إلى البيت كما قالت لكي تتأكد من أن زوجها ما زال يحبها. ضحكت الأم من هذا الجواب، وكذلك فرانسي رغم أنها لم تفهم تماماً ما عنته الخالة سيسي بهذا القول. غادرت سيسي بعد أن وعدت أن تعود عند بداية الشهر ومعها المجلات. كان زوج سيسي الحالي يعمل في محل لبيع المجلات المثيرة. وكان يتلقى كل شهر أعداداً من المجلات من كافة الأنواع: مجلات الحب، والقصص البوليسية والخرافية، وقصص عن الغرب المتوحش وغيرها. كانت كلها مجلات ذات أغلفة ملونة براقة وملفوفة بخيط أصفر جديد. كانت سيسي تحضرها لفرانسي كما هي كي تقرأها ثم تبيعها إلى الدكان المجاور في الحي بنصف الثمن وتضع النقود في علبة الصفيح أو حصالة أمها.

بعد مغادرة سيسي، أخذت فرانسي تحدث أمها عن الرجل العجوز ذي الأقدام القبيحة والذي شاهدته في مخبز لوشر.

- كلام فارغ! .. قالت لها أمها. إن تقدم الإنسان في العمر ليس مأساة. إذا كان هو الرجل الوحيد العجوز الباقي على وجه الأرض فقد يبدو الأمر كذلك ولكن الأمر ليس كذلك. فهناك العديد من الرجال العجائز نستطيع مرافقتهم ولا يعني هذا أن العجائز غير سعداء. إنهم يختلفون عنا في رغباتهم ولا يهمهم إلا أن يشعروا بالدفء ويجدوا شيئاً خفيفاً يأكلونه ومن ثم يتبادلون الذكريات مع بعضهم البعض. لا تكوني حمقاء. إذا كان هناك شيء مؤكد فهو أننا جميعاً سنصبح عجائز يوماً ما! لذلك استعدي لتقبل هذه الفكرة بأسرع ما تستطيعين.

كانت فرانسي تعلم أن أمها على حق. ومع ذلك فقد شعرت بالسعادة عندما راحت أمها تتحدث عن شيء آخر. خططت هي وأمها للوجبات التي ستقومان بطبخها مع الخبز القديم خلال الأسبوع القادم.

كان آل نولان يعيشون عملياً على هذا الخبز القديم ولكن المدهش في الأمر أن كاتي كانت تستطيع صنع أشياء رائعة بواسطته. كانت تغمره في الماء المغلي حتى يصبح مثل العجين ثم تملحه وتبهره وتضيف إليه الزعتر والبصل المفروم والبيض (عندما يكون سعر البيض رخيصاً) وتخبز المزيج في الفرن. وعندما يصبح الخبيز بني اللون كانت تصب فوقه مزيجاً مصنوعاً من كأس من الكتشب وكأسين من الماء المغلي والتوابل ومقدار قليل من القهوة ليصبح وجبة ساخنة شهية لا تفسد بسرعة. أما ما تبقى من الخبز فكانت تقطعه وتقليه مع شرائح دهن الخنزير الساخنة.

كذلك كانت الأم تصنع حلوى طيبة من شرائح الخبز القديم والسكر والقرفة وشرائح التفاح الرقيقة. وعندما يصبح هذا المزيج بني اللون، تصب الأم السكر الذائب فوق سطح الشرائح. أحياناً تصنع الأم طبقاً يسمى في العادة «ويغ غيشنيسن» وترجمة هذه الكلمة تعني الشيء المصنوع من قطع الخبز التي عادة ما يتم رميها في سلة النفايات. ويتم هنا تغطيس قطع الخبز في مزيج مصنوع من الدقيق والماء والملح والبيض ثم يقلى هذا المزيج بالدهن الحار. وعادة ما تهرع فرانسي خلال عملية القلي إلى الدكان لشراء حلوى الكراميل التي تُسحق بمرقاق العجين وترش على القطع المقلية قبل تناولها. وتعطي هذه القطع التي لم تذب جيداً نكهة رائعة للمزيج.

كانت وجبة يوم السبت متميزة جداً. فقد تمكن آل نولان من الحصول على اللحم. قامت الأم بعجن الخبز القديم في الماء الساخن على شكل قرن ذرة ثم حشته ببعض قطع اللحم المفروم والبصل مع إضافة البقدونس المفروم والملح من أجل النكهة. ثم قطعت الطعام على شكل كرات صغيرة ليتم بعد ذلك قليها

بالكتشب الحار. كانت كرات اللحم هذه بالنسبة لفرانسي وأخيها نيلي تشكل فرصة للضحك.

عاشت العائلة معظم أوقاتها على مثل هذه الوجبات المصنعة من الخبز والحليب المكثف والقهوة والبصل والبطاطا مع إضافة كمية ضئيلة من أشياء أخرى كانت تشترى في اللحظة الأخيرة ودائماً لا يزيد ثمنها عن سنت واحد. أحياناً كانوا يحصلون على بعض الموز ولكن فرانسي كانت تتوق دائماً إلى أكل البرتقال والأناناس والمندرين بشكل خاص وهي أشياء كانت تحصل عليها فقط في عيد الميلاد.

أحياناً عندما يتوفر لديها سنت احتياطي، تقوم فرانسي بشراء البسكويت المملح. كان صاحب البقالة يقوم بطي ورقة على شكل بوق ويملؤها بقطع صغيرة من البسكويت المملح الذي عادة ما يكون مكسراً في العلبة ولا يمكن بيعه على شكل قطع كاملة. وقد وضعت الأم لأولادها القاعدة التالية: عندما يتوفر لديكم سنت لا تشتروا حلوى أو كعكاً بل اشتروا تفاحة. ولكن ما هي التفاحة أصلاً؟ لقد اكتشفت فرانسي أن قطعة من البطاطا النيئة تحمل الطعم نفسه الذي تحمله التفاحة، كما أن بإمكانك أن تحصل على حبة بطاطا مجاناً.

كانت هناك أوقات، وخاصة مع اقتراب نهاية فصل شتاء بارد طويل ومظلم، لا تشعر فيها فرانسي بنكهة شيء رغم جوعها. كان هذا زمن المخللات حيث تهرع فرانسي كلما توفر لديها سنت إلى دكان في شارع مور لا تبيع إلا المخللات اليهودية الثخينة التي تسبح وسط سائل ملحي ثقيل ومبهر. كان البائع رجلاً يهودياً عجوزاً له لحية بيضاء طويلة يرتدي قلنسوة سوداء تغطي مؤخرة رأسه ولا أسنان له على الإطلاق. وكان يشرف على أوعية التخليل ويحركها بعصي خشبية كبيرة لها طرف كالشوكة. كانت فرانسي تطلب دائماً ما يطلبه باقي الأطفال.

- أعطني قطعة مخلل لامعة بسنت.

كان اليهودي ينظر إلى الطفلة الإيرلندية من خلال عينيه الصغيرتين القاسيتين اللتين تظهران دائماً وكأنهما معذبتان وناريتان ومحاطتان بحد من اللون الأحمر.

- غوييم .. غوييم (غير يهودية). ثم يبصق عليها. كان يكره كلمة لامعة ولكن فرانسي لم تكن تقصد أية أذية، فهي في الأصل لا تعرف ما معنى كلمة لامعة. كانت مجرد كلمة تطلق على الشيء الغريب ولكن المحبب في الوقت نفسه. بالطبع لم يكن اليهودي يعرف ذلك. كانت فرانسي قد سمعت من أحدهم أن اليهودي كان لديه وعاء خاص يبيع منه فقط لغير اليهود وكان يبصق فيه مرة في اليوم كنوع من الانتقام. ولكن هذا الأمر لم يثبت قط على اليهودي العجوز كما أن فرانسي لم تكن تصدق مثل هذا الكلام.

فيما هو يحرك السائل الملحي بعصاه، ويتمتم ببعض الشتائم من خلف لحيته البيضاء، طلبت منه فرانسي أن يعطيها قطعة من قاع الوعاء، استشاط العجوز غضباً كأنه في حالة هستيرية، جحظت عيناه وانتفض الشعر الأبيض في لحيته. ولكنه مع ذلك أخرج قطعة صلبة يلوح لونها بالأخضر والأصفر ووضعها على قطعة من الورق. ناولته فرانسي السنت فمدّ لها كفَّه، كانت تحمل آثار جروح من كثرة تغطيسها بالخل. انسحب الرجل إلى داخل الدكان وهو يلعن ويسب ثم جلس على كرسيه محاولاً أن يهدئ روعه ويتذكر الأيام الخوالي.

بقيت قطعة المخلل مع فرانسي طوال النهار وهي تلعقها وتقرض أطرافها. لم تكن تأكلها تماماً ولكنها كانت تمتلكها. وعندما لا يأكلون سوى الخبز والبطاطا كانت أفكار فرانسي تتوجه نحو المخللات. لم تكن تدري لماذا ولكن وجبة البطاطا والخبز مع المخلل كانت شيئاً رائع المذاق. بالنسبة لفرانسي كان يوم المخللات يوماً من الأيام التي تتوق دائماً إليها.

6

عاد نيلي إلى المنزل فيما انطلقت فرانسي بأمر من والدتها لشراء اللحم، كما جرت العادة في نهاية كل أسبوع. كان هذا الأمر يخضع لطقوس وإرشادات تفصيلية هامة من الأم:

– اشتري عظماً للمساء من ملحمة هاسلر بقيمة خمسة سنتات ولكن لا تشتري شرحات اللحم من عنده. اذهبي إلى ملحمة ويرنر واحضري شرائح لحم «الستيك» بقيمة عشرة سنتات ولا تدعيه يعطيك إياها من الصحن. خذي معك حبة بصل أيضاً.

وقفت فرانسي وأخوها فترة طويلة أمام منضدة قطع اللحم قبل أن يلاحظهما الجزار.

– ماذا تريدان؟ سألهما أخيراً.

بدأت فرانسي المفاوضات قائلة: أعطنا بعشرة سنتات لحمة ستيك.

– مفرومة؟ سأل الجزار.

– كلا.

– لقد جاءت إحدى السيدات قبل قليل واشترت قطعة ستيك مفرومة بربع دولار، ولكن يبدو أنني قمت بفرم كمية أكثر مما طلبت وقد بقيت في الطبق. سوف أعطيكما إياها. صدقاني لقد فرمتها للتو.

كان هذا هو الفخ الذي حذرّتها أمها منه.. قالت لها لا تشتري لحمة مفرومة من الطبق مهما تذرَّع لك الجزار بالمبررات.

– كلا... لقد قالت لي أمي أن أحضر ما قيمته عشرة سنتات من قطعة «ستيك» مستديرة.

– لم يقل الجزار شيئاً ولكنه قصَّ قطعة من اللحم المعلق بغضب ووضعها على ورقة بعد أن وزنها، وكان على وشك أن يلفَّها بالورقة عندما قالت له فرانسي:

– آه لقد نسيت ... لقد طلبت مني أمي أن تفرمها.

– اللعنة على الجحيم ... رفع قطعة اللحم بغضب ووضعها في الفرَّامة «لقد خدعتني مرة أرى». خرجت قطعة اللحم من الفرّامة حمراء طازجة على شكل عيدان ملتوية. جمعها بيده وما كان يهمُّ بوضعها على الورقة حتى قالت فرانسي مرة أخرى.

– آه لقد طلبت أمي أن نفرم قطعة البصل هذه معها.

دفعت فرانسي بهدوء قطعة البصل باتجاه منضدة اللحم فيما تنحى نيلي جانباً دون أن ينبس ببنت شفة. فقد كان دوره محدداً فقط بالدعم المعنوي.

يا للمسيح. صاح الجزار وهو يكاد ينفجر غضباً. ومع ذلك عمل بصمت على تقطيع حبة البصل وفرمها مع اللحمة بالساطور. كانت فرانسي تصغي بسعادة إلى صوت التقطيع فقد كانت تحب إيقاعها الذي يشبه دق الطبول. مرة أخرى جمع الجزار اللحمة المفرومة ووضعها على الورقة ووقف ينظر إلى فرانسي. بلعت فرانسي ريقها استعداداً للطلب الأخير. كان هذا هو الأصعب ولكن

الجزار كان يملك فكرة عن السؤال التالي فقد وقف مقابلها وهو يرتجف من الداخل وهمهم بمرارة عندما سمع فرانسي تطلب منه بحزم:

– وقطعة من الدهن أيضاً لكي نقليها بها.

قصَّ الجزار قطعة من الدهن الأبيض وهو يتمتم باللعنات في غضب ودفعه الشعور بالانتقام إلى إسقاط القطعة على الأرضية ومن ثم التقطها ووضعها فوق كوم اللحم المفروم ولفَّ الكوم بورقة. بعد ذلك خطف النقود من يد فرانسي وهو يلعن الساعة التي جعلت منه جزّاراً.

بعد إتمام هذه الصفقة، تحولت فرانسي وأخوها إلى ملحمة هاسلر لشراء قطعة العظم المخصصة للمساء. كان هاسلر جزاراً لطيفاً عندما يتعلق الأمر بالعظم ولكنه كان سيئاً في مجال اللحم المفروم والمقطَّع لأنه كان يفرم ويقطع خلف الأبواب بحيث لا يدري أحد ما الذي يفعله. وصل الاثنان إلى ملحمة هاسلر ولكن نيلي بقي خارجاً حتى لا يرى هاسلر كيس اللحم الذي اشترياه من الملحمة المنافسة لأنه إذا رآه فسيطلب منهما أن يعودا لشراء العظم من المكان الذي اشتريا منه اللحم.

طلبت فرانسي من هاسلر قطعة عظم جيدة مع بعض اللحم حولها من أجل المساء، وبقيمة خمسة سنتات. أبقاها هاسلر تنتظر بينما هو يستذكر نادرة حصلت معه عن رجل ابتاع قطعة من لحم كلب بقيمة سنتين من النقود وعندها سأله هاسلر: هل ألفُّها لك أم أنك ترغب بتناولها هنا؟ ابتسمت فرانسي بحياء فيما دخل هاسلر المغتبط إلى ثلاجة اللحوم ليخرج عظمة بيضاء لامعة مع قطع صغيرة من اللحم متعلقة بها. أبدت فرانسي إعجابها بالعظمة فقال لها بدون تردد:

– بعد أن تقوم أمك بطبخها، قولي لها أن تنزع اللحم عنها وتنشره على قطعة من الخبز مع الفلفل والملح لكي تصنع منها ساندويشاً شهياً لك.

– سوف أقول لها. ردت فرانسي.

– كلي منها وضعي بعض اللحم على عظامك الصغيرة ... قال ضاحكاً وهو يلف العظمة بالورقة ويقبض ثمنها من فرانسي. بعد ذلك قام بقص قطعة سميكة من كبدة البقر وأعطاها لفرانسي. شعرت فرانسي بالأسف لأنها خدعت مثل هذا الرجل الطيب ولم تشتر اللحم من عنده. «من المؤسف أن أمي لا تثق به في مسألة اللحم المفروم».

لم يكن المساء قد حلّ بعد إذ كانت أنوار الشوارع لا تزال مطفأة ولكن بائعة المخللات كانت قد اتخذت موقعها أمام ملحمة هاسلر وبسطت بضاعتها على الرصيف. اشترت فرانسي منها بقيمة «سنتين» من النقود. كانت فرانسي سعيدة لأن أزمة شراء اللحم قد مرّت بسلام وسارعت إلى شراء بعض الخضراوات بقيمة «سنتين» أيضاً وذلك من أجل إكمال متطلبات وجبة المساء. كان نصيبها حبة جزر ضخمة وورقة كرفس وحبة طماطم وحزمة جيدة من البقدونس. كانت هذه الخضار تغلى عادة مع العظام وقطع اللحم المعلقة بها لتعطي وجبة حساء غنية، يضاف إليها في العادة بعض قطع المعكرونة. كان هذا مع ساندويش الخبز المبهَّر يشكلان عشاء جيداً يوم الأحد.

بعد تناول العشاء المؤلف من بطاطا مقلية وفطيرة وقهوة، نزل نيلي إلى الشارع للعب مع أصدقائه. لم يكن هناك اتفاقات أو مواعيد لقاء ولكن العادة جرت أن يتجمع الأولاد بعد العشاء عند ناصية الشارع ويقفوا طوال فترة المساء، أيديهم في جيوبهم وأكتافهم متحفزة إلى الأمام، يتناقشون ويتضاحكون ويتدافعون أو يطلقون الصفّارات بألحان مختلفة.

مرّت مودي دونافان على منزل فرانسي لترافقها إلى الكنيسة من أجل الاعتراف أمام الكاهن. ومودي طفلة يتيمة عاشت في كنف خالتيها العزبتين اللتين كانتا تعملان في المنزل في حياكة أكفان لصالح إحدى شركات الدفن مقابل مبلغ من النقود. كانتا تخيطان أكفاناً بيضاء اللون من قماش الساتان لمن يموت من الفتيات العذارى، وأكفاناً شاحبة بلون اللافندر للشابات المتزوجات وأكفاناً

نهدية اللون للنسوة في منتصف العمر وسوداء للعجائز. أحضرت مودي معها بعض قطع القماش ظناً منها أنها قد تنفع فرانسي. أبدت فرانسي سرورها بالقطع ولكنها وضعتها جانباً فيما بعد وهي ترتجف.

كانت الكنيسة تعبق برائحة البخور والشموع المشتعلة فيما وضعت الراهبات أزهاراً يانعة عند المذبح. كان المذبح الخاص بالسيدة العذراء الباركة يضم أجمل الأزهار فقد كانت السيدة العذراء تحظى بموقع كبير في قلوب الراهبات ربما أكثر من المسيح نفسه أو ماريوسف. كان الناس واقفين في صف طويل خارج غرف الاعترافات فيما كانت الفتيات والشباب يحاولون الانتهاء من الأمر بأسرع وقت قبل الخروج إلى مواعيدهم. أطول الصفوف كان أمام منصة الأب أوفلين الذي كان شاباً وحنوناً وصبوراً، ولا يقسو في عقابه للخاطئين.

عندما جاء دورها، دفعت فرانسي الستارة جانباً وركعت أمام منصة الاعتراف على المنصة. كان سر الاعتراف يأخذ بالألباب فيما فتح القسيس الطاقة الصغيرة التي تفصله عن الشخص الخاطئ الراكع أمامه. قام برسم إشارة الصليب، ثم راح يتمتم بضع صلوات باللغة اللاتينية وعيناه مغمضتان. اشتمت فرانسي روائح البخور والشموع والأزهار وحتى رائحة صابون الحلاقة الذي يستخدمه القسيس.

- باركني أيها الأب الجليل لأني خاطئة.

بسرعة اعترفت فرانسي بأخطائها، وبسرعة أيضاً غُفرت خطاياها. خرجت من أمام منصة الاعتراف مطرقة الرأس ويداها معقودتان أسفل رأسها. حنت ركبتها أمام المذبح ثم ركعت وتلت الصلوات التي أقرّها لها القسيس كعقوبة لأخطائها، فيما هي تمسك بالمسبحة لحفظ عدد الصلوات. أما مودي التي كانت تعيش حياة أقل تعقيداً من فرانسي فلم تكن أخطاؤها كثيرة، لذلك أنهت صلواتها بسرعة وخرجت تنتظر فرانسي عند درجات الكنيسة.

سارت الفتاتان عبر البنايات وذراعاهما تحيطان بخصر بعضهما البعض. تماماً مثلما تفعل الصديقات في بروكلين. اشترت مودي قطعة بوظة وقدمت لفرانسي عضّة منها. عند منزل مودي افترقت الفتاتان، فقد كان على مودي أن لا تتأخر بعد الساعة الثامنة مساءً، ولكنهما لم تنسيا أن تحددا موعد لقائهما التالي من أجل الاعتراف يوم السبت.

– لا تنسي ... قالت مودي وهي تسير إلى الخلف، لقد اتصلت أنا بك هذه المرة وأتوقع في المرة القادمة أن تبادري أنت بالاتصال بي.

– لن أنسى ذلك ... وعدتها فرانسي.

كان هناك زوّار عندما عادت فرانسي إلى البيت. الخالة إيفي وزوجها ويلي فليتمان. كانت فرانسي تحب خالتها إيفي فهي أولاً تشبه أمها بالشكل وهي مرحة وتعرف كيف تثير الضحك حولها بحركاتها وطريقة تقليدها لأي كائن على وجه الأرض. كان العم فليتمان قد أحضر غيتاره وأخذ يعزف عليه فيما كان الجميع يغنون. كان العم فليتمان رجلاً نحيلاً داكن البشرة وذا شعر أسود وشارب حريري وكان يعزف جيداً على الغيتار بالنسبة لرجل فقد إصبع يده اليمنى الأوسط. وعندما كان يضطر إلى استخدام هذا الإصبع، يضرب بشدة على الغيتار بحيث يصدر صوتاً يخفي النوتة التي كان يجب أن يلعبها. كان على وشك الانتهاء من معزوفته عندما دخلت فرانسي لتستمع إلى آخرها.

بعد الموسيقى، خرج العم ويلي لإحضار كأس من الجعة بينما انهمكت الخالة إيفي بالتهام ساندويشات كانت قد أحضرتها له ولها. بدا العم فيلتمان مرتاحاً وواثقاً بنفسه أكثر بعد كأس الجعة.

– انظري إليّ يا كاتي ... قال العم فليتمان .. إنك تنظرين إلى رجل فاشل !
هنا تنهدت الخالة إيفي وهي تسحب شفتها السفلى إلى الداخل وتقلّب عينيها فيما تابع فليتمان قائلاً:

– إن أطفالي لا يحترموني وزوجتي لا تجد لي نفعاً، حتى الحصان درامر الذي يجر عربة بيع الحليب يكرهني ! هل تعلمين ماذا فعل بي في ذلك اليوم؟

انحنى إلى الأمام واستطاعت فرانسي أن ترى عينيه وقد اغرورقتا بالدموع فيما تابع هو قائلاً:

– لقد كنت أغسله في الإسطبل وعندما انحنيت لأغسله تحت بطنه بال عليَّ.

نظرت كاتي وإيفي إلى بعضهما البعض. كانت عيونهما تتراقص بضحكات خفية نظرت كاتي فجأة إلى فرانسي وكانت الضحكة ما تزال تلمع في عينيها فيما اتخذ فمها وضع الصرامة. وجهت فرانسي نظرها إلى الأرض وعبست على الرغم من ضحكاتها المكبوتة في الداخل.

تابع فليتمان قائلاً:

هذا ما فعله، حتى إن جميع الرجال في الإسطبل راحوا يضحكون هازئين مني ...

شرب فليتمان كأساً آخر من الجعة فيما قالت له زوجته معنِّفةً:

– لا تتكلم هكذا يا ويل.

– إن إيفي لا تحبني ... قال ويل موجهاً حديثه إلى كاتي.

– أنا أحبك يا ويل .. قالت إيفي بصوت مطمئن ناعم لا يخلو من الدلع:

– لقد أحببتني عندما تزوجتني ولكنك لا تحبينني الآن .. صمت قليلاً وكأنه ينتظر، ولما لم تقل إيفي شيئاً تابع يقول: أترين، إنك لا تحبينني الآن ...

– لقد حان موعد عودتنا إلى المنزل. قالت إيفي معترضة.

قبل أن يأويا إلى الفراش، كان على فرانسي ونيلي أن يقرآ صفحة من الإنجيل وصفحة من كتاب شيكسبير. كانت هذه هي القاعدة المعمول بها في

المنزل وكانت أمهما قد اعتادت على القراءة لهما كل ليلة إلى أن أصبحا قادرين على القراءة بأنفسهما. قرأ نيلي صفحة الإنجيل، فيما قرأت فرانسي صفحة من شيكسبير. كانا قد أمضيا على هذه الحالة ست سنوات قرآ خلالها نصف الإنجيل ووصلا إلى قصة ماكبث ضمن أعمال شيكسبير الكاملة. تسابقا في إنهاء القراءة وعند الساعة الحادية عشرة ليلاً كان جميع آل نولان في الفراش ما عدا جوني الذي كان يعمل.

تلك الليلة من ليالي السبت، كان يسمح بالنوم في الغرفة الأمامية حيث كانت تضع كرسيين إلى جانب بعضهما البعض قرب النافذة وتصنع منهما سريراً ثم تجلس لمراقبة المارين في الشارع. هنا في تلك الغرفة أصبحت فرانسي ملمّة بأصوات الليل في المنزل. كان الناس يدخلون ويخرجون في الشقق المجاورة. بعضهم كان تعباً يجر قدميه جراً وبعضهم كان يصعد الأدراج بخفة ورشاقة. أحدهم تعثر وراح يلعن غطاء الأرضية الممزق في الردهة. بكى أحد الأطفال الرضع بحزن فيما راح أحد السكارى في الشقق السفلى يلعن الحياة التعيسة التي تسببها له زوجته.

في الساعة الثانية صباحاً سمعت فرانسي أباها يغني برقة وهو يصعد الأدراج:

مولي مولان الحلوة

تقود عربتها

عبر شوارع واسعة وضيقة

وهي تبكي ....

فتحت أمها الباب عند كلمة «تبكي». كانت هذه لعبة يقوم بها أبوها فإذا فتحوا له الباب قبل أن ينهي مقطع الأغنية يكسبون وإذا استطاع إنهاءَها في الردهة، فهو يكسب.

نهضت فرانسي من الفراش وتبعها نيلي. جلس الجميع حول المائدة وتناولوا الطعام بعد أن وضع أبوهم ثلاثة دولارات على الطاولة وأعطى كل طفل «نيكلاً». أجبرتهم أمهم على الفور بوضع النقود في الحصّالة بحجة أنهم أخذوا حصتهم من النقود لذلك اليوم من خلال بيع الخردة. كان الأب قد أحضر كيساً مليئاً بالطعام الذي تبقى من حفلة عرس ولم يتم استخدامه بسبب غياب بعض المدعوين. كانت العادة أن تقوم العروس بتوزيع الطعام غير المستهلك على النادلين. وكان الكيس يحتوي على نصف قطعة من الكركند المشوي، وخمس محارات مقلية، وبعض الكافيار وقطعة من جبنة روكفورت. لم يعجب الطفلان بالكركند أو بالمحار وبدا لهما الكافيار مالحاً ولكنهما كانا بوعي لدرجة أنهما التهما كل ما وضع على المائدة وهضماه أيضاً خلال الليل. لقد كان بإمكانهما أن يهضما حتى الأظافر لو استطاعا مضغها.

بعد أن تناولت الطعام، واجهت فرانسي حقيقة أنها كسرت صيامها الذي بدأ مع منتصف الليل وكان يفترض أن يستمر حتى بعد صلاة الصباح التالي. هكذا لن تستطيع أن تتناول القربان المقدس. ها هي خطيئة حقيقية عليها أن تعترف بها للقسيس في الأسبوع القادم.

عاد نيلي إلى فراشه ونام ملء عينيه فيما عادت فرانسي إلى الغرفة الأمامية المظلمة وجلست مقابل النافذة. لم تكن تشعر بالنعاس وظلت تصغي إلى أصوات أبيها وأمها وهما يتحدثان في المطبخ وهو حديث يمتد عادة حتى مطلع الفجر. كان أبوها يتحدث عن عمله في تلك الليلة وعن الناس الذي رآهم هناك وعن أشكالهم وأحاديثهم. كان آل نولان لا يستطيعون أن يحيوا حياتهم، فقد كانوا يعيشون حياتهم حتى رمّتها ولكن هذا لم يكن يكفيهم بل كان عليهم دائماً أن يملؤوها بحياة الآخرين الذين يحتكون بهم.

شارفت الساعة الثالثة صباحاً، كان والدا فرانسي ما يزالان جالسين يتحدثان حول طاولة المطبخ وكانت نبرات صوتهما صعوداً ونزولاً تولّد شعوراً

بالأمان والراحة لدى فرانسي. في هذه اللحظة رأت فرانسي إحدى الفتيات الشابات التي تعيش في شقة مقابلة لمنزل آل نولان تعود من حفلة راقصة مع صديقها. وقف الاثنان ملتصقين ببعضهما البعض عند مدخل بيتها. ظلا يتعانقان بصمت إلى أن استدارت الفتاة وقرعت جرس الباب. نزل أبوها الدرج بلباسه الداخلي الطويل ولما رأى الشاب أبلغه بكلمات هادئة ولكنها مليئة بالتجديف واللعنات بأن يذهب لشأنه فيما صعدت الفتاة الأدراج وهي تضحك بعصبية. خرج الشاب إلى الشارع وهو يصفِّر لحن أغنية: عندما أكون وحدي معكِ الليلة.

عاد السيد توموني صاحب محل الرهن في عربة مستأجرة فخمة من سهرته المترفة في نيويورك. لم يدخل أبداً إلى مكتب القروض الذي ورثه عن أبيه وظل يديره أحد الموظفين الأكفاء. ولم يكن أحد يدري لماذا اختار السيد توموني العيش في الغرف التي تعلو المحل، مع وجود كل هذا المال معه. كان يعيش حياة أرستقراطي من نيويورك في حيّ فقير من أحياء وليامزبيرغ. وقد ذكر أحد العاملين في طلاء تلك الغرف أنها مليئة بالتماثيل واللوحات الزيتية والسجاد المصنوع من الفراء الثمين. كان السيد توموني عزباً، لا يظهر طوال الأسبوع. لم يكن أحد يراه حين يغادر منزله يوم السبت ولم يره أحد عائداً إلى منزله سوى فرانسي والشرطي المناوب. كانت فرانسي تراقبه وكأنها تشاهد مسرحية.

في تلك الليلة شاهدته فرانسي وهو يرتدي قبعته الحريرية التي تغطي إحدى أذنيه بينما لمع ضوء الشارع على عصاه ذات الرأس الفضي والتي يضعها دائماً تحت إبطه. رفع السيد توموني طرف ثوبه فوق كتفه ليخرج من جيبه نقوداً لسائق العربة، تناول السائق النقود ثم هزّ لجام الحصان بطرف سوطه فيما وقف السيد توموني يراقبه وهو يبتعد وكأن العربة هي آخر رابط في حياة وجدها سعيدة. بعد ذلك صعد الدرج إلى شقته الفخمة.

كان من المفترض أن يتردد السيد توموني على تلك الأماكن الأسطورية مثل رايزينوييير ووالدورف. قررت فرانسي أن تزور هذه الأماكن يوماً ما ... نعم

يوماً ما سوف تعبر جسر وليامزبيرغ الذي يبعد قليلاً عن مكان سكنها ثم تنطلق صعوداً نحو نيويورك حيث توجد كل تلك الأماكن الرائعة. وهناك سوف تعرف كيف تحدد وضع السيد تومونى.

هبت نسمة عليلة من البحر فوق بروكلين، ومن بعيد حيث يعيش الإيطاليون على الجهة الشمالية من بروكلين ويربون الدجاج في أفنية دورهم، تعالى صياح أحد الديكة، وقابله عواء كلب من مسافة بعيدة. ردَّ عليهما الحصان «بوب» بصهيل متسائل وهو مستلقٍ بارتياح في إسطبله.

كانت فرانسي تحب ليل السبت وتكره أن ينتهي بالنوم. كانت تشعر بعدم الارتياح بسبب المسؤوليات التي يحملها الأسبوع القادم. ثبتت أحداث هذا السبت في ذاكرتها. كانت جميعها صحيحة ما عدا قصة ذلك الرجل العجوز الذي ينتظر الخبز.

في ليال أخرى من الأسبوع، كانت فرانسي تستلقي على سريرها وتصغي إلى الأصوات الغريبة الصادرة من إحدى الشقق المجاورة حيث تعيش عروس صغيرة مع زوجها سائق الشاحنة، الذي يشبه القرود. كان صوتها ناعماً متوسلاً فيما بدا صوته فظاً ومتطلباً. بعد ذلك كانت تسود فترة صمت قصيرة يعقبها صوت شخير الزوج وبكاء زوجته حتى الصباح.

كانت تنهدات العروس الصغيرة تثير الرجفة في قلب فرانسي فيما كانت تغطي أذنيها أحياناً بالفطرة كي لا تسمع. تذكرت أن اليوم هو السبت وأنها لن تستطيع سماع الأصوات الصادرة من أنابيب الهواء، نعم ... كان اليوم هو السبت وكان هذا أمراً رائعاً ! ما يزال يوم الاثنين بعيداً، ويوم الأحد الذي يأتي بينهما سيكون هادئاً وسيكون لديها الوقت لتفكر في تلك الورود ذات الروائح الحادة في المزهرية، وفي الحصان الذي سيغسله صاحبه وهو يقف بين الشمس والظل، بدأت تشعر بالنعاس ولكنها أرغمت نفسها على الإصغاء لأحاديث أمها وأبيها في المطبخ. كانا يستذكران أحداثاً قديمة.

قالت له كاتي: كنت في عمر السابعة عشرة عندما التقيت بك لأول مرة وكنت حينها أعمل في مصنع كاسل بريد.

– وأنا كنت في التاسعة عشرة، رد جوني مستذكراً، وكنت حينها صديقاً لأعز صديقاتك هيلدي أودير.

– آه هي تلك ... أخذت كاتي نفساً عميقاً.

كان الهواء الدافئ العليل يتلاعب بهدوء بشعر فرانسي. طوت ذراعيها على حافة النافذة ثم تأخرت ووضعت وجنتها على ذراعيها. نظرت إلى النجوم التي كان يمكن رؤيتها فوق أسطح البنايات ... وبعد قليل خلدت إلى النوم.

الكتاب الثاني

7

تعود قصة لقاء جوني نولان وكاتي روميلي إلى اثنـي عـشر عامـاً خلـت في العام 1900 كان عمر جوني آنذاك تسعة عشر عامـاً وعمـر كـاتي سـبعة عـشر، وكانت هي تعمل في مصنع كاسل بريد مـع صـديقتها الحميمـة هيلـدي أوديـر. ورغم كون هيلدي إيرلندية الأصل وكاتي من أصـل نمـساوي إلا أن صـداقتهما كانت تسير على ما يرام. ورغم أن كاتي كانت أجمل إلا أن هيلـدي كانـت تتمتـع بجرأة أكثر يساندها في ذلك شعرها الأشقر البراق وشـالها الأحمـر الـذي كانـت تلفه بأناقة حول عنقها إضافة إلى معرفتهـا لجميـع الأغـاني الحديثـة وبراعتهـا في الرقص.

كان لهيلدي صديق يصطحبها كل ليلة سبت إلى الرقص. كـان اسـم هـذا الصديق جوني نولان. ولطالما كان نـولان ينتظرهـا خـارج المـصنع حتـى تنهـي نوبتها، ولطالما اصطحب معه بعض أصدقائه لينتظـروا معـه. وهـم يقفـون عـلى الزاوية يتمازحون ويتسامرون.

في أحد الأيام طلبت هيلدي من جوني أن يحـضر معـه صـديقاً لكـاتي مـن أجل مراقصتها ليلة السبت. لبـى جـوني طلبهـا وخـرج الأربعـة إلى المـرقص في

كانارسي على متن عربة. كان الشابان يرتديان قبعتين من القش مع حبل يـربطهما بالحافة من جهة ربطية صدر السترة من الجهة الأخرى. كان نسيم المحيط البـارد يتلاعب بقبعتيهما وتتعالى الضحكات كلما حاولا إرجاعهما إلى رأسيهما.

رقص جوني مع صديقته هيلدي فيما رفـضت كـاتي الـرقص مـع الـشاب الآخر. كان هذا الشاب سوقياً فارغ الرأس يتفوه بكلام لا معنى له. ومـع ذلـك فقد جاملته كاتي بشرب كأس من الجعة معه وبقيت جالـسة عـلى المائـدة تراقـب جوني وهيلدي وهما يرقصان. كانت تتساءل بينها وبين نفـسها إذا كـان هنـاك في هذه الدنيا شاب مثل جوني.

كانت رجلا جوني طويلتين رفيعتين وحـذاؤه لامعـاً براقـاً. كـان يـرقص وأصابع قدميه بارزة يحركها من الإصبع إلى الكعب بتناغم فتّان وبحركات دافئـة جذابة.

علّق جوني معطفه على ظهر الكرسي فيما كان بنطلونه ملفوفـاً بلياقـة عـلى خصره وقميصه الأبيض مثبتاً بأناة داخل حزامه. كان يضع ياقـة رسـمية وربطـة منقطة تلائم ربطة قبعته المصنوعة من القش. ويلف ربطة زرقاء من الساتان المرن حول أكمامه. كانت كاتي تشعر بالغيرة حين ينتابها الشك بـأن هيلـدي هـي التـي خاطت هذه الربطة خصيصاً له وقد بقيت هذه الغيرة في قلبهـا حتـى إنهـا ظلـت تكره هذا اللون طيلة حياتها.

لم تتوقف كاتي عن النظر إليه. كان شاباً يافعاً أنيقاً وجذاباً بـشعره الأجعـد وعينيه الزرقاوين العميقتين، وأنفه المستقيم وكتفيه العريضتين. سمعت الفتيـات الجالسات على المائدة المجاورة وهن يتهامسن: إنه يعرف كيف يلـبس بأناقـة فـيما علق الشباب الذين يرافقونهن بأنه راقص أنيق. ورغم أنه لم يكن صديقها إلا أنها كانت فخورة به.

طلب منها جـوني أن تـرقص معـه فـيما كانـت الأوركـسترا تعـزف أغنيـة «روزي أوغريدي الجميلة». شعرت كـاتي وهـي تراقـصه بذراعيـه يحيطـان بهـا

وأخذت تعدل من رقصتها بالفطرة لكـي تتناغم مـع إيقاعـه. في تلـك اللحظـة علمت تماماً أنه الرجل الذي تريده وأنها لا تريد من هذه الدنيا أكثر من أن تقضي باقي عمرها تنظر وتصغي إليه. قررت كاتي أن هذا الامتياز يستحق أن تستعبد له طوال حياتها.

ربما كان هذا القرار أكبر خطأ ارتكبته. فقد كان عليها أن تنتظر مجيء رجل يحمل لها مثل هذا الشعور. عندها لن يكون أولادها جياعاً ولن يكون لزاماً عليها أن تنظف الأرضيات لكي تعيش وستبقى تتذكره كشخص رقيـق لامـع. لكنهـا أرادت أن تحظى بجوني نولان وعقدت العزم على أن تحصل عليه.

بدأت حملتها لهذا الغرض يوم الاثنين الذي تلا. عندما دقت سـاعة انتهـاء العمل في المصنع، هرعت إلى الخارج قبل أن تصل هيلدي ونادته:

- مرحباً جوني نولان.

- مرحباً كاتي عزيزتي. أجابها جوني.

بعد ذلك أخذت تسترق بعض الكلمات معه كل يـوم وأحـس جـوني أنهـا تنتظر كل يوم على الزاوية لتتبادل معه هذه الكلمات.

في أحد الأيام، أبلغت كاتي السيدة المسؤولة في المصنع أنهـا تـشعر بتوعـك لأن الدورة الشهرية قد حضرتها وطلبت أن تغـادر قبـل ربـع سـاعة مـن انتهـاء الدوام. كان جوني ينتظر عند الزاويـة مـع أصـدقائه. كـانوا يـرددون أغنيـة «آني روني» لتمضية الوقت. أنزل جوني طرف قبعته على إحدى عينيـه وأخـذ يـرقص على الرصيف. كان المارون يقفون وينظرون إليه بإعجاب حتـى إن أحـد رجـال الشرطة المارين قال له: إنك تضيع وقتك يا بني. مكانك هو على المسرح.

رأى جوني كاتي قادمة فتوقف عن الرقص وابتسم لها. كانت تبـدو جذابـة جداً بثوبها الرمادي المشدود وقد خاطت حوله جدولة سوداء اللـون في المـصنع. كانت كاتي ترتدي قبعة حمراء اللون تنسدل فـوق إحـدى عينيهـا وحـذاء مـزرراً

يلتف رباطه حول كعبيها. لمعت عيناها وأشرقت وجنتاها إثارة وخجلاً فيما هي تفكر كيف تبدو وهي تلاحق شاباً مثل هذا.

ألقى جوني عليها التحية فيما انسحب الشبان الآخرون. لا يتذكر كل من جوني وكاتي ما قالا لبعضهما في ذلك اليوم ولكنهما علما تماماً من خلال الأحاديث المتشعبة والموجهة في الوقت نفسه والمشاعر الخفية التي كانت تظهر كلما توقف الحديث، أنهما وقعا في حب جارف لبعضهما البعض.

رنت صفّارة المصنع معلنة انتهاء العمل وتدفقت الفتيات خارج كاسل بريد. خرجت هيلدي وهي ترتدي سترة بنية وقبعة سوداء مائلة فوق شعرها النحاسي من جهة مع دبوس شعر جريء من الجهة الأخرى. ابتسمت باهتمام عندما رأت جوني ولكن ابتسامتها تحولت إلى نوبة ألم وخوف ثم كراهية عندما رأت كاتي إلى جانبه. هرعت باتجاههما وهي تنتزع دبوس شعرها الطويل من جانب قبعتها ثم صاحت: كاتي روميلي هذا الرجل صديقي ولن تسرقيه مني.

سارع جوني يهدئ روعها بصوته الناعم الهادئ: هيلدي .. هيلدي.

– أظن أنها بلاد حرة .. قالت كيتي وهي تهز رأسها.

– ليست حرة للصوص.. صاحت هيلدي وهي تندفع نحو كيتي لتطعنها بدبوس الشعر.

وثب جوني ليحول دون اشتباك الفتاتين وناله خدش على خده. في الوقت نفسه كان عدد من فتيات المصنع قد تجمعن حول المشهد. وراحت الفتيات يراقبن ما يحدث ويطلقن التعليقات. سحب جوني الفتاتين من يديهما ومشى بهما بعيداً عن الزاوية نحو مدخل أحد الأبواب وحشرهما هناك بذراعه وراح يتحدث إليهما.

– هيلدي، قال جوني، أنا لست شخصاً جيداً. ما كان يجب عليّ أن أمشي معك كل هذه المسافة لأنني أعلم الآن أني لن أستطيع أن أتزوجك.

– الخطأ كله خطؤها. قالت هيلدي.

– بل إنه خطئي، أجاب جوني بشهامة، لم أكن أعرف ما هو الحب الحقيقي حتى التقيت بكيتي.

– ولكنها صديقتي الحميمة، أجابت هيلدي بشفقة وكأن الأمر يتعلق بجريمة سفاح قربى.

– إنها صديقتي الحميمة الآن ولا شيء أقوله أكثر من ذلك. أجابها جوني. بكت هيلدي وتابعت النقاش ولكن جوني استطاع في نهاية الأمر أن يهدئ روعها ويشرح لها علاقته بكيتي ثم أنهى النقاش بالقول إن على هيلدي أن تذهب في طريقها فيما يذهب هو في طريقه. وكأنما أعجبته طريقة ترديده لهذه العبارة فكررها مرة أخرى. بدا متمتعاً بتلك اللحظة الدرامية.

– وهكذا ستذهبين في طريقك وأذهب أنا في طريقي.

– أنت تعني أني سأذهب في طريقي وأنت ستذهب في طريقها. أجابت هيلدي بمرارة.

أخيراً ذهبت هيلدي في طريقها، سارت عبر الشارع وكتفاها متدليان. لحق جوني بها وفي أسفل الشارع أحاطها بذراعيه وقبلها قبلة الوداع.

– كنت أتمنى أن يكون الأمر مختلفاً بيننا. قالها بحزن.

– لا تتمنَّ شيئاً كهذا.. ردت هيلدي، ثم أضافت وهي تبكي مرة أخرى: إذا فعلت هذا فقط. افتح لها الباب وعد لنبدأ معاً مرة أخرى.

كانت كيتي تبكي أيضاً، فوق كل شيء، كانت هيلدي صديقتها الحميمة. قبلت هيلدي وشاحت بنظرها بعيداً عندما رأت عيني هيلدي تتغرغران ثم تصغران وهي تحدق فيها بكراهية.

وهكذا سارت هيلدي في طريقها وسار جوني في طريق كاتي.

استمرت صحبتهما فترة من الوقت ثم أعلنا خطبتهما وتزوجا ليلة رأس السنة من عام 1901 كان قد مر أقل من أربعة أشهر على علاقتهما قبل الزواج.

لم يسامح توماس روميلي ابنته أبداً. وفي الحقيقة أنه لم يسامح أيّاً من بناته على زواجهن، فقد كانت فلسفته في الحياة بالنسبة للأطفال بسيطة ومربحة: على الإنسان أن يستمتع بأطفاله وينفق المال على تربيتهم ما أمكن ومن ثم يستثمرهم للعمل وتحصيل المال من أجله عندما يصبحون في عمر المراهقة. كانت كاتي ما تزال في سن السابعة عشرة حين تزوجت ولم يكن قد مضى لها على العمل سوى أربع سنوات. لم يكن الأب راضياً عن ذلك لأنه باعتقاده ما تزال مدينة له ببعض المال والوقت.

كان السيد روميلي يكره كل الناس وكل شيء دون أن يعرف أحد ما هي الأسباب التي تدعوه لذلك. فقد كان رجلاً أنيقاً ضخماً، له شعر رمادي ووجه كوجه الأسد. كان قد هرب من النمسا لكي يتجنب تجنيده بالإكراه في السلك العسكري. ورغم أنه كان يكره بلاده السابقة إلا أنه كان يرفض وبإصرار أن يحب بلاده الجديدة. كان يتكلم الإنكليزية ويفهمها حين يريد ذلك ولكنه كان يمتنع عن الإجابة عندما يخاطب بالإنكليزية ويرفض التحدث بها في منزله، فيما كانت زوجته تصر بأن تتحدث بناتها بالإنكليزية فقط داخل المنزل. كانت تعلل ذلك بأنهن كلما قلَّ فهمهن للغة الألمانية استطعن كشف مدى قسوة أبيهن. لم تكن الفتيات على دراية جيدة باللغة الألمانية على أية حال، لذلك لم يكن أربعتهن على تواصل جيد مع أبيهن. ولم يكن هو يتحدث معهن إلا بلغة الشتائم. وكن يكتفين بالتحدث معه بمرحباً ومع السلامة. حين يغضب كان يدمدم كلمات بالألمانية ولكن شتائمه لم تكن من العيار الثقيل. الغريب في الأمر أنه كان يكره روسيا إلى جانب النمسا وأميركا مع أنه لم يطأ أرض روسيا يوماً ولم تقع عينه على روسي. لم يكن أحد ليفهم سبب كرهه لتلك البلاد الغامضة ولأهلها الغامضين على حد تعبيره. هذا الرجل كان جد فرانسي لأمها وكانت هي تكرهه تماماً مثلما كانت أمها وخالاتها يكرهنه.

وعلى العكس منه تماماً كانت زوجته السيدة روميلي، جدة فرانسي تعتبر امرأة قديسة. ورغم كونها أمية لا تقرأ ولا تعرف حتى كتابة اسمها، إلا أنها كانت تحتفظ في ذاكرتها بآلاف القصص والحكايات . بعضها اخترعتها بنفسها لتسردها على أطفالها، وبعضها الآخر، قصص شعبية قديمة انتقلت إليها عبر أمها وجدتها، كما أنها كانت تحفظ العديد من الأغاني الريفية القديمة وتفهم جميع الأمثال والحكم المأثورة.

والسيدة روميلي امرأة متدينة، تحفظ سيرة حياة كل قديس كاثوليكي وتؤمن بالأشباح والأرواح والجنيات وجميع أساطير عالم الغيب. كما أنها كانت على دراية بجميع الأعشاب الطبية وطريقة غليها واستخدامها شريطة أن يكون هذا الاستخدام بعيداً عن أية نية شريرة. كذلك كانت في موطنها السابق محترمة مقدَّرة من قِبَلِ مواطنيها لحكمتها ومشورتها. كانت امرأة بلا لوم ولا خطيئة رغم أنها تتفهم تماماً مشاعر الخاطئين. ورغم صرامتها الشديدة في سلوكها الأخلاقي إلا أنها كانت تصفح وتتسامح مع ضعف الآخرين، تخاف ربها وتحب يسوع المسيح وفي الوقت نفسه تتفهم تماماً لماذا يزيغ الناس أحياناً كثيرة عن الصراط المستقيم.

كانت ما تزال عذراء عندما تزوجت، وفيما بعد استسلمت بورع وهدوء لوحشية زوجها في الحب. فقد قتلت هذه الوحشية كل مشاعرها ورغباتها التي كانت كامنة فيها، في وقت مبكر من الزواج. ومع ذلك ظلت تتفهم نهم بعض الفتيات وجوعهن لولوج باب الخطيئة. كانت تفهم كيف أن ولداً طُرد من الحي بسبب ارتكابه جريمة الاغتصاب يمكن أن يبقى إنساناً طيباً في داخله، وتفهم لماذا قد يضطر بعض الناس للسرقة ولإيذاء الآخرين. كانت تفهم وتستوعب عناصر الضعف التي تثير الشفقة عند الإنسان وعناصر القوة المتوحشة التي تكمن فيه.

كل هذا ولم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة.

وتتميز السيدة روميلي بعينين بنيتين ناعمتين، تنضبان براءة ووضوحاً. وكان شعرها البني اللامع مفروقاً من الوسط ومنسدلاً حول أذنيها. كذلك كانت بشرتها شاحبة وشفافة. أما حديثها فكان هادئاً دافئاً وصوتها رخيماً يريح كل من يصغي إليها، خاصة عندما يصدر عن فم في منتهى الرقة والنعومة. وقد ورثت بناتها وحفيداتها هذه الصفة الصوتية فيها.

كانت ماري روميلي على قناعة بأنها، وبسبب خطيئة ما ارتكبتها بشكل غير متعمد خلال حياتها، قد دُفعت للزواج من الشيطان نفسه. ولعلها كانت تعرف هذا لأن زوجها أخبرها به بنفسه فقد قال لها في أحد الأيام: أنا الشيطان بنفسه.

أحياناً كانت تنظر إليه وترى كيف تنفر خصلتان من شعره إلى الأعلى من جانبي رأسه، وكذلك عيناه الرماديتان الباردتان المنحرفتان إلى الأعلى عند زاويتيهما الخارجية، وكانت تتنهد وتقول لنفسها: نعم هذا هو الشيطان بذاته.

كان لزوجها طريقته في توجيه نظرة شاملة إلى وجهها القديسي، ومن ثم توجيه الشتائم الطائشة إلى السيد المسيح. كان هذا يرعبها لدرجة أنها كانت تخرج مهرولة إلى الشارع وهي ترتدي شالها وتنطلق هاربة، تهيم في الشوارع إلى أن يدفعها قلقها على أطفالها للعودة إلى المنزل.

كانت ترغب في حماية بناتها من أبيهن وقد وجدت أن أفضل طريقة لتحقيق ذلك هي منعهن من استخدام اللغة الألمانية أو التفوه بها. لذلك كانت تذهب إلى المدرسة الحكومية التي كانت بناتها يدرسن فيها وتطلب من المعلمة أن تشجع أطفالها على التحدث بالإنكليزية فقط. وكم تألمت عندما اضطرت بناتها لترك المدرسة في الصف السادس ودخول سوق العمل، وكذلك عندما تزوجن رجالاً هاملين لا ينفعون لشيء. وكم بكت وانتحبت عندما أنجبن إناثاً لأنها كانت تعلم أن حياة الأنثى في هذه البلاد ستكون وضيعة وقاسية.

كلما كانت فرانسي تبدأ بالصلاة للسيدة العذراء: السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة الرب معك ... يبرز أمامها وجه جدتها.

كانت سيسي الابنة البكر لتوماس وماري روميلي. وقد ولدت بعد ثلاثة أشهر من وصول أهلها المهاجرين إلى أميركا. لم تذهب إلى المدرسة أبداً إذ إن أمها لم تكن تعلم حين وصلت سيسي إلى عمر الدخول إلى المدرسة أن الدراسة كانت مجانية لأشخاص مثلهم. كانت هناك قوانين تنص على دخول الأطفال إلى المدارس ولكن أحداً لم يسعَ لإيصال تلك المعلومات إلى مثل هذه الفئة الفقيرة الجاهلة من المجتمع. ولكن مع بلوغ ابنتيها التاليتين سن الدراسة كانت ماري قد علمت بوجود تعليم مجاني. ومع ذلك فلم تستطع إدخال سيسي لأنها كانت قد تجاوزت عمر الست سنوات لذلك بقيت في البيت لتساعد أمها.

في عمر العاشرة كانت سيسي فتاة مكتملة الأنوثة، تبدو كأنها في الثلاثين. كان الأولاد جميعهم يلاحقون سيسي وكانت سيسي تلاحقهم جميعاً. في سن الثانية عشرة أصبح لها صديق منتظم عمره عشرين سنة. ولكن والدها تدخل وقضى على هذا الحب بعد أن ضرب الفتى ضرباً مبرحاً. في سن الرابعة عشرة صادقت شاباً في عمر الرابعة والعشرين يعمل إطفائياً، وقد استطاع هذا الشاب أن يتزوج سيسي بعد أن قلب المعادلة وضرب والدها بدلاً من أن يضربه.

وقد تم الزواج على الشكل التالي: ذهب الاثنان إلى قاعة المدينة وهناك أقسمت سيسي أن عمرها ثمانية عشرة عاماً وهكذا قام أحد الكتبة هناك بتزويجهما. تسبب هذا الزواج في إحداث صدمة لدى الجيران ولكن ماري روميلي كانت تعلم أن هذا الأمر هو أفضل شيء يمكن عمله لتهدئة ثورة ابنتها الجنسية.

كان الإطفائي جيم رجلاً طيباً يعتبره الناس متعلماً كونه تخرّج من مدرسة ابتدائية. كذلك كان دخله جيداً ورغم أنه لم يكن يتواجد في البيت كثيراً إلا أنه كان زوجاً مثالياً. عاش الاثنان بسعادة فلم تكن سيسي تطلب الكثير سوى ممارسة الحب معها ما استطاع. كان هذا الأمر بالطبع يرضيه تماماً. أحياناً كان يشعر بالحرج من زوجته لأنها أمية ولكن حذقها وذكاءها وقلبها الطيب جعله يتغاضى عن أميّتها. كما أن سيسي كانت تعامل أمها وأخواتها الصغار بشكل

حسن. وقد استطاعت إدارة النقود التي كان زوجها يعطيها لها من راتبه بحذر ودقة حتى إنه كان بإمكانها أحياناً توفير بعض منها لمساعدة والدتها.

حملت سيسي بعد شهر من تاريخ الزواج وكانت ما تزال فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من العمر رغم مظهرها الأنثوي المكتمل. كان الجيران يصابون بالهلع خوفاً عليها وهم يرونها تلعب قفزة الحبل مع أطفال الشارع دون أي انتباه لبطنها المنتفخ وللمولود الذي سيأتي.

في الأوقات التي لم تكن فيها سيسي تطبخ أو تنظف أو تمارس الحب أو تلعب لعبة قفزة الحبل أو تحاول الانخراط في لعبة البيسبول مع أولاد الحي، كانت تخطط للمولود القادم. إذا كان المولود فتاة فإنها ستطلق عليها اسم ماري مثل اسم أمها وإذا كان ولداً فتسميه جون. تولدت فيها عاطفة شديدة نحو اسم جون حتى إنها راحت تطلق على زوجها جيم اسم جون. في البداية كان الأمر نوعاً من العاطفة ولكن فيما بعد أصبح الجميع ينادونه باسم جون لدرجة أنهم نسوا أن اسمه الحقيقي كان يوماً ما جيم.

أخيراً أنجبت سيسي أنثى وسارت الولادة بيسر تام بعد أن تم استدعاء القابلة التي تقطن في البناية المجاورة. بقيت سيسي في مخاض خمساً وعشرين دقيقة فقط، وكانت الولادة ناجحة كل النجاح فيما عدا نقطة واحدة هي أن الطفلة ولدت ميتة. ولأجل الصدفة تمت الولادة في يوم ميلاد سيسي الخامس عشر والوفاة في اليوم نفسه.

ألمّ الحزن بسيسي لفترة من الوقت ولكن هذا الحزن غيَّرها، إذ أخذت تعمل بجد أكثر على إبقاء بيتها نظيفاً كما زاد تفكيرها في أمها. لم تعد سيسي تلك الفتاة الصاخبة التي تشبه في تصرفاتها الأولاد. فقد اقتنعت تماماً أن قفزها على الحبل كان سبباً في وفاة مولودتها. أصبحت أكثر هدوءاً وقد انعكس هذا الهدوء عليها بشكل إيجابي إذ بدت أصغر عمراً وأكثر طفولية.

مع بلوغ سيسي سن العشرين، كانت قد أنجبت أربعة أطفال، ماتوا جميعاً، مما أوصلها إلى قناعة بأن زوجها هو السبب في ذلك وليست هي. فهي قد توقفت

عن القفز بالحبل بعد الولادة الأولى أليس كذلك؟ أخبرت زوجها أنها لم تعد تهتم به لأن ثمرة الحب بينهما لم تكن سوى الموت. طلبت منه أن يتركها. دخل معها في جدال ولكنه في النهاية تركها. وظل يرسل لها النقود من حين لآخر. أحياناً حين كانت تشعر بالحنين إلى وجود رجل كانت تسير باتجاه مركز الإطفاء لتجد جيمي جالساً في الخارج ومقعده متكئ على الحائط. كانت تسير إليه وهي تبتسم وتهز بردفيها وعندها كان جيم يطلب مغادرة غير رسمية ويمضي معها إلى المنزل ليمارسا الحب مدة نصف ساعة أو أكثر.

لاحقاً تعرفت سيسي على رجل آخر طلب منها الزواج. لم يعرف أحد أبداً اسمه الحقيقي لأنها ظلت تناديه باسم جون منذ اللحظة الأولى للزواج. تم ترتيب الزواج الثاني بهدوء وبساطة. فزواجها من جيم لم يكن دينياً بل مدنياً لذلك لم يكن الطلاق معقداً كما هو الحال مع الذين يتزوجون في الكنيسة الكاثوليكية. ببساطة تامة ذهبت مع عريسها الجديد إلى قاعة المدينة مرة أخرى فقام كاتب آخر بتزويجهما.

لم تكن ماري سعيدة لزواج سيسي خارج الكنيسة. وقد منح هذا الزواج سلاحاً جديداً لزوجها توماس لكي يعذبها ويشمت بها. ولطالما أخبرها أنه سيبلغ الشرطة بأن سيسي قد مارست تعدد الأزواج ولكن قبل أن يستطيع أن يفعل شيئاً بهذا الخصوص كانت سيسي قد حملت أربع مرات وأنجبت أربعة أطفال جميعهم ولدوا ميتين.

لذلك قررت سيسي أن زوجها الثاني جون ليس الرجل المناسب لها.

أنهت زواجها ببساطة وسرعة بعد أن أخبرت زوجها وهو بروتستانتي أن الكنيسة الكاثوليكية لا تعترف بزواجهما لذلك فهي تعتبر الزواج باطلاً. وهكذا عادت سيسي حرة مرة أخرى.

وافق جون الثاني على الأمر دون تردد. كان يحب سيسي ويشعر بالسعادة معها ولكنها كانت مثل الزئبق فرغم صراحتها المخيفة وسذاجتها الطاغية إلا أنه

لم يكن يعرف عنها شيئاً مما جعله يسأم من الحياة مع إنسانة تشبه اللغز ولم يكن لديه مانع في تركها.

في سن الرابعة والعشرين كانت سيسي قد أنجبت ثمانية أطفال لم يعش منهم أحد. لذلك قررت أن الله لا يريدها أن تتزوج. أخبرت الجميع أنها عانس، وبالطبع لم يصدقها أحد وحصلت على وظيفة في مصنع المطاط ثم عادت لتعيش مع أمها. إلا أنها في الفترة بين الزواج الثاني والثالث، تمتعت بمرافقة عدة عشاق كانت تطلق عليهم جميعاً اسم جون.

بعد كل ولادة، كان لهف سيسي وحبها للأطفال يزداد قوة. كانت تعاني أحياناً من مزاج كئيب يتخلله اعتقادها بأنها ستصبح مجنونة إذا لم تنجب طفلاً يحبها وتحبه. وقد صبّت إحباطها هذا على جميع الرجال الذين نامت معهم وكذلك على أختيها إيفي وكاتي وأطفالهما. ولكن فرانسي كانت تحبها لدرجة العبادة رغم كل الهمس الذي كان يدور حولها ويصورها فتاة سيئة. وكم حاولت أختاها إيفي وكاتي أن يعنفا أختهما الضالة ولكنها كانت طيبة جداً لدرجة أنهما لم تستطيعا أن تحملا ضدها أية ضغينة.

عندما بلغت فرانسي سن الحادية عشرة، تزوجت سيسي للمرة الثالثة في قاعة المدينة كان جون الثالث يعمل في شركة توزيع المجلات، وهو الذي كان يزود فرانسي بكل المجلات الجديدة في نهاية كل شهر. كانت فرانسي تأمل أن يستمر الزواج الجديد لكي تستمر في الحصول على المجلات.

أما إليزا الابنة الثانية لماري وتوماس روميلي، فكانت تفتقر إلى مقوِّمات الجمال والشخصية النارية الموجودة لدى أخواتها الثلاث. كانت إنسانة عادية، بليدة ولا مبالية بالحياة. ولما كانت ماري ترغب دائماً بأن تهب إحدى بناتها إلى الكنيسة فقد وقع اختيارها على إليزا لتكون هذه الهبة. وهكذا دخلت إليزا الدير وهي في سن السادسة عشرة واختارت أن تنخرط في سلك رهبنة معروف بصرامته حيث كان ممنوعاً عليها مغادرة جدران الدير إلا لزيارة أهلها عند وفاة

أحدهم. كما اختارت إليزا اسم أورسولا ليكون اسمها كراهبة. وفيما بعد أصبحت أورسولا أسطورة غير حقيقية بالنسبة لفرانسي.

رأتها فرانسي مرة عدما خرجت من الدير لحضور جنازة والدها توماس روميلي. كان عمر فرانسي حينها تسع سنوات وكانت قد أنهت مراسيم تناولها القربان المقدس لأول مرة كما هو متَّبع لدى الطائفة الكاثوليكية من المسيحيين وقد تأثرت كثيراً بالروح الكنسية في ذلك الوقت لدرجة أنها فكرت بأن تصبح راهبة يوماً ما عندما تكبر.

انتظرت فرانسي بتلهف حضور الأخت أورسولا، فقد كانت فكرة كون خالة لها، راهبة تثيرها وتسبغ عليها إحساساً مشرفاً. ولكن عندما انحنت الأخت أورسولا لتقبل فرانسي، لمحت فرانسي وجود بعض الشعر على طرف شفتها العليا وذقنها. أرعب ذلك فرانسي ودفعها للظن بأن الشعر ينمو على وجوه جميع الراهبات، وقررت بالتالي أن لا تصبح راهبة.

الابنة الثالثة كانت تدعى إيفي. وإيفي مثلها مثل أختيها سيسي وكاتي، تزوجت في عمر مبكر أيضاً من ويلي فليتمان وهو شاب أنيق له شعر أسود وشارب ناعم وعينان براقتان مثل الإيطاليين. كانت فرانسي تعتقد أن اسمه مضحك وكانت تضحك بينها وبين نفسها كلما تذكرت اسمه.

لم يكن فليتمان شخصاً ناجحاً، كما لم يكن شخصاً فاشلاً أيضاً ولكنه كان ضعيفاً، كثير الشكوى. كان فليتمان يعزف على الغيتار ولعل هذا ما جذب إيفي إليه. كان لدى فتيات عائلة روميلي نقطة ضعف أمام أي رجل يمكن أن يصبح خلاقاً أو لديه القدرة على عزف الموسيقى أو رواية القصص أو أي نوع آخر من الفنون. كن يشعرن دائماً أن عليهن دعم وحماية مثل هذه المواهب.

على أن إيفي كانت الأكثر تهذيباً بين أفراد العائلة. وكانت تعيش في شقة رخيصة في الدور التحتي لبناية تقع على أطراف إحدى الضواحي الراقية، كما أنها كانت تدرس أوضاعها بشكل أفضل. أرادت إيفي أن تصبح شيئاً ما. أرادت أن

يكون لأطفالها امتيازات لم تتمكن هي من الحصول عليها. كان لديها ثلاثة أطفال: صبي تسمى على اسم أبيه وفتاة اسمها بلوسوم ثم صبي آخر اسمه بول جونز. كانت أول خطوة قامت بها نحو تحسين ميزات أبنائها، هي في سحبهم من مدرسة الأحد الكاثوليكية وتسجيلهم في مدرسة الأحد الأسقفية. كانت تؤمن بأن البروتستانت هم أكثر رقياً من الكاثوليك.

كانت إيفي تحب الموسيقى ولكنها تفتقر إلى الموهبة في عزفها، لذلك سعت بلهفة شديدة إلى غرس تلك الموهبة في نفوسهم. كانت تأمل أن تنمو لدى بلوسوم رغبة في الغناء وأن يصبح بول جونز عازف كمان بينما يلعب ويلي الصغير على البيانو. ولكن موهبة الموسيقى لم تكن موجودة لدى أطفالها. هكذا قررت إيفي أن تمسك الثور من قرنيه. يجب عليهم أن يتعلموا الموسيقى، شاؤوا أم أبوا وإذا لم تكن الموهبة موجودة لديهم فربما يمكن إدخالها فيهم ما أمكن في كل وقت. اشترت إيفي كماناً مستعملاً ثم عملت على التفاوض مع أحد مدرسي الكمان وهو شخص يطلق على نفسه اسم البروفيسور الليغريتو لكي يعلم بول جونز العزف مقابل خمسين سنتاً في الساعة. وقد قام الرجل بتعليم ابنها بضع مقطوعات سطحية وتافهة وفي آخر العام قدم له مقطوعة تدعى «هيوموريسك» لكي يعزفها. كانت إيفي تعتقد بأنها مقطوعة رائعة، أفضل من السلّم الموسيقي على الأقل ثم أصبحت إيفي أكثر طموحاً.

بعد بول جونز قررت إيفي أن بإمكان بلوسوم تعلم العزف على الكمان أيضاً. قالت لزوجها إن علينا تدريب بلوسوم لتعزف الكمان مع أخيها.

أجابها زوجها بمرارة: نعم ولكن في أوقات مختلفة إذا أمكن.

ردت عليه بسخط: ما رأيك إذن؟

وهكذا كان على الزوج أن يستسلم للأمر ويدفع خمسين سنتاً أخرى للبروفيسور الليغريتو كي يعلم بلوسوم العزف على الكمان.

ولكن البروفيسور الليغريتو كان شخصاً له نظرة خاصة في تلميذاته من الفتيات كان يرغمهن على خلع أحذيتهن وجواربهن، على أن يقفن حافيات على السجادة الخضراء خلال العزف. وبدلاً من تصحيح أخطائهن في العزف كان يمضي الساعة حالماً وهو يتأمل في أقدامهن.

في أحد الأيام وبينما كانت إيفي تراقب بلوسوم وهي تستعد للتدرب في المنزل، لاحظت أنها قامت بنزع حذائها وجواربها ثم غسلت قدميها باعتناء، أعجبتها هذه الحركة ولكنها أحست أن فيها بعض الغرابة، لذلك سألت ابنتها فوراً:

– لماذا تغسلين قدميك؟

– من أجل دروس الكمان.. أجابت الفتاة.

– إنك تعزفين الكمان بيديك وليس بقدميك.

– إني أشعر بالخجل عندما أقف أمام البروفيسور وقدماي قذرتان.

– ربما يمكنه أن ينظر من خلال حذائك.

– لا أظن ذلك لأنه يرغمني دائماً على خلع حذائي وجواربي.

عند هذه النقطة، قفزت إيفي مصعوقة. لم تكن تعرف شيئاً عن فرويد كما أن معرفتها الشحيحة بأمور الجنس لم تكن تشمل أياً من انحرافاته، ولكن المنطق كان يقول بأنه لا يجب على البروفيسور الليغريتو أن يتقاضى خمسين سنتاً في الساعة ولا يهتم بعمله. وهكذا توقفت بلوسوم عن متابعة دروس الكمان منذ تلك اللحظة.

ولدى سؤال بول جونز عن دروس الكمان قال إنه لم يكن مرغماً على خلع حذائه ونزع جواربه بل على خلع قبعته. وهكذا سمح لبول جونز بمتابعة تعلم الكمان. وخلال خمس سنوات أصبح يستطيع العزف على الكمان تماماً مثلما يستطيع والده الذي لم يأخذ درساً في حياته أن يعزف على الغيتار.

بعيداً عن الموسيقى، كان العم فليتهان رجلاً بليداً. فلم يكن حديثه في المنزل يتعدى حدود موضوع واحد هو طريقة معاملة درامر، الحصان الذي يجر عربة الحليب له. كان فليتهان في نزاع متواصل مع الحصان منذ خمس سنوات وكانت إيفي تأمل أن يأخذ أحدهما قراراً يوماً ما.

ومع أن إيفي كانت أحياناً لا تستطيع مقاومة تقليد حركات زوجها أو السخرية منها إلا أنها كانت تحبه. كانت تقف أحياناً في مطبخ أختها كاتي نولان وتلعب دور الحصان ثم تأخذ في تقليد رائع للعم فليتهان وهو يحاول رفع كيس العلف أمام الحصان.

«يقف الحصان على الحافة هكذا.. تميل إيفي بجسمها حتى يكاد رأسها يلامس ركبتيها..» يأتي ويلي بكيس العلف وما أن يبدأ بوضعه وتثبيته على الحصان، حتى يرد الحصان رأسه إلى الأعلى «... ترفع إيفي رأسها بقوة إلى الأعلى ثم تصهل مثل الحصان».. ينتظر ويلي حتى يخفض الحصان رأسه مرة أخرى ويظن أنه لن يرفعه مرة أخرى ولكن ما أن يتقدم ويلي ليلبسه كيس العلف.. ترخي إيفي رأسها بحذر، حتى يرفع الحصان رأسه مرة أخرى.

– ثم ماذا يحدث بعد ذلك؟ تسألها فرانسي.

– أنزل أنا وأضع الكيس على الحصان. هذا ما يحدث.

– وهل يسمح لك الحصان بذلك؟

– هل يسمح لي؟ توجه إيفي كلامها إلى كاتي ثم تلتفت نحو فرانسي وتقول:

– بل إنه يصعد على الرصيف مسرعاً للقائي.

ويدخل رأسه في الكيس من تلقاء نفسه، حتى قبل أن أرفع الكيس إلى رأسه. هل تسألين إذا كان يسمح لي بعد ذلك؟ تتمتم إيفي بسخط ثم تلتفت إلى كاتي: أتعلمين يا كاتي، أني أعتقد أحياناً أن زوجي يغار من الطريقة التي يحبني فيها هذا الحصان.

تحدق كاتي فيها لوهلة وقد فغرت فاها ثم تبدأ بالـضحك. تـضحك إيفـي وفرانسي بعد ذلك. لعل فتيات عائلة روميلي وفرانـسي معهـن يـضحكن لأنهـن يتشاركن في سر يتعلق بضعف أحد الرجال.

كان هذا استعراضاً لفتيات عائلة روميلي بدءاً من الأم ماري وبناتهـا إيفـي وسيسي وكاتي، وثم فرانسي ابنة كاتي التي ستكبر فيما بعد لتصبح مثلهن «فتاة من عائلة روميلي» رغم أنهـا تنتمـي لعائلـة نـولان. كـن جمـيعهن فتيـات نحيفـات، ضئيلات الجسم ولكن عيونهن براقة لامعة وأصواتهن ناعمة مرتعشة.

كنّ كأنهن صنعن من فولاذ رقيق غير مرئي.

8

بينما كانت الفتيات في عائلة روميلي يتميزن بشخصيات قوية، كان الرجال في عائلة نولان موهوبين ولكن شخصياتهم ضعيفة، كما كانت عائلة نولان نفسها في حالة انقراض. فقد كان رجالهم يزدادون وسامة كلما كبر فيهم العمر ولكنهم كانوا يزدادون ضعفاً مع الأجيال أيضاً ويصبحون أكثر قدرة على اللهو وإضاعة الوقت. كانت لهم طرقهم الخاصة في الحب وفي تفادي الزواج أيضاً. وهذا هو السبب الرئيسي في أنهم أصبحوا على وشك الانقراض.

جاءت روني نولان مع زوجها الشاب الوسيم قادمين من إيرلندا ومعهما أولادهما الأربعة. توفي الأب ميكي وهو في عمر الثلاثين وتابعت روني بعده تربية أولادها أندي وجورجي وفرانكي وجوني حتى بلوغ كل منهم الصف السادس. كان كل ولد يترك المدرسة في عمر الثانية عشر ليعمل من أجل تحصيل بعض النقود.

كبر الأولاد مع الزمن، كانوا جميعهم وسيمين، قادرين على عزف الموسيقى والرقص والغناء، كما كانوا محط أنظار الفتيات لوسامتهم وجاذبيتهم. ورغم أن

آل نولان عاشوا في أكثر البيوت تداعياً في حي الإيرلنديين إلا أنهم كانوا الأكثر أناقة في الحي والأجمل لباساً. كان لوح الكي جاهزاً على الدوام في المطبخ وكنت تجد دائماً أحدهم يضغط بنطلوناً أو يكوي ربطة عنق أو قميصاً. كانوا جميعاً مفخرة شانتي تاون. أطول الشباب وأوسمهم وألمعهم شقاراً. كانت أحذيتهم لامعة على الدوام وملابسهم ملائمة وقبعاتهم موضوعة بأناقة على رؤوسهم. ولكنهم ماتوا جميعاً قبل بلوغهم الخامسة والثلاثين من العمر ولم يخلف أي منهم سوى جوني أطفالاً من بعده.

كان أندي أكبر أولاد آل نولان وأكثرهم وسامة بشعره الذهبي المتموج والمائل إلى الحمرة وملامحه الدقيقة. ولكنه كان يعاني من مرض السل أيضاً. أعلن خطبته على فتاة تدعى فرانسي ميلاني ولكنهما ظلا يؤجلان الزواج حتى تتحسن حالته الصحية، إلا أنها لم تتحسن أبداً.

كان أولاد نولان يعملون في الغناء ولكن كنادلين في المطاعم. وقد ظلوا يشكلون فرقة من أربعة إخوة إلى أن ساءت حالة أندي الصحيةوأصبح غير قادر على العمل. بعد ذلك تحولوا إلى فرقة ثلاثية. مع ذلك لم يحصلوا على الكثير من النقود نتيجة عملهم وكانوا ينفقون معظم ما يحصلون عليه على شرب الخمر ومراهنات سباق الخيل.

عندما أصبح أندي طريح الفراش للمرة الأخيرة، اشترى له إخوته وسادة من ريش الأوز ثمنها سبعة دولارات. كانوا يريدون له أن يتمتع ببعض الرفاهية قبل أن يموت. وقد شعر أندي أنها وسادة رائعة ولكنه لم يستخدمها سوى يومين. فقد قذف آخر رشقة دم من صدره على الوسادة قبل أن يموت، وتحول لون الوسادة إلى البني الصدئ. جثمت أمه إلى جانب جسده ثلاثة أيام. بعدها أقسمت بأنها لن تتزوج مرة أخرى فيما أقسم الأولاد الثلاثة أن لا يتركوا أمهم أبداً.

بعد ستة أشهر، تزوج جوني من كاتي. وشعرت الأم روثي بالكره تجاه كاتي لأنها كانت تأمل أن يبقى أولادها الثلاثة حولها حتى تموت هي أو يموتوا هم

وقد طاوعها الجميع وتجنبوا الزواج ولكن تلك الفتاة كاتي روميلي تمكنت أخيراً من أن تجر جوني إلى الزواج منها. كانت روثي مقتنعة بأن كاتي قد خدعت جوني بطريقة ما حتى يتزوجها.

أما فرانكي وجورجي فقد كانا يحبان كاتي ولكنهما كانا يعتقدان بأن جوني خدعهما بالزواج تاركاً أمر رعاية أمه بيدهما وحدهما. ومع ذلك فقد تقبلا الأمر بأفضل ما يمكن وقاما بالبحث عن هدية عرس لكاتي وجوني وأخيراً استقر رأيهما على إهداء كاتي الوسادة الناعمة التي سبق وأحضراها لأخيهما المتوفى أندي. قامت الأم بحياكة الوسادة لإخفاء البقعة القبيحة التي خلفها دم أندي عليها قبل أن يفارق الحياة. احتفظ جوني وكاتي بالوسادة وكانا يعتبرانها ثمينة جداً للاستخدام اليومي ولا يخرجانها من الخزانة إلا في حالة مرض أحدهما أو أحد الأولاد. كانت فرانسي تطلق عليها اسم وسادة المرضى. لم تكن كاتي ولا فرانسي تعلمان أنها كانت وسادة الموت.

بعد مرور سنة على زواج جوني وفيها كان فرانكي الذي ظلّ العديد من الناس يعتقدون أنه أكثر وسامة من أندي، عائداً يترنح في إحدى الليالي بعد حفلة سكر، تعثر بسلك محكم الربط كان أحد رعاة بروكلين قد ربطه حول قطعة عشب أمام منزله. كان السلك مشدوداً بأعواد صغيرة حادة اخترقت إحداهن معدة فرانكي حين تعثر. ولكنه نهض بعد ذلك وعاد إلى البيت ليموت في الليلة نفسها. مات وحيداً دون أن يشهد لحظاته الأخيرة أحد القساوسة ليغفر له خطاياه. وقد بقيت أمه حتى آخر حياتها تقيم له قداساً كل شهر من أجل راحة نفسه لأنها كانت تعتقد بأنها ما تزال تهيم في المطهر بين الجنة والجحيم.

خلال أكثر من سنة بقليل، كانت روثي نولان قد فقدت ثلاثة أولاد، اثنان منهما غيبهما الموت والثالث غيّبه الزواج. كانت تتحسر على ثلاثتهم. بقي جورجي وحده معها ولكنه توفي بعد ثلاث سنوات وهو في سن الثامنة والعشرين ولم يبقَ على قيد الحياة إلا جوني الذي كان حينها في الثالثة والعشرين من العمر.

هذه هي قصة أولاد عائلة نولان. جميعهم ماتوا في عز شبابهم. ماتوا بطرق مفاجئة وعنيفة نتيجة رعونتهم أو نتيجة طريقتهم الخاطئة في الحياة، كان جوني الوحيد الذي استطاع الاحتفال بعيد ميلاده الثلاثين.

كانت فرانسي نولان هي طفلة آل نولان وآل روميلي. تملك ذلك الضعف الشديد، وتلك العاطفة الفياضة أمام الجمال وهي من صفات عائلة نولان التعسة. وتحمل مزيجاً من غموض جدتها من أمها ومن قدرتها على سرد الحكايات وإيمانها الشديد وتعاطفها مع الضعفاء. كما كانت تملك إلى جانب ذلك تلك الإرادة الوحشية التي كان يتصف بها جدها روميلي. ورثت فرانسي موهبة خالتها إيفي في التقليد وبعضاً من نزعة روثي نولان بالتملك، إلى جانب حب خالتها سيسي للحياة وللأطفال ومشاعر والدها جوني ولكن في غياب نظراته الساحرة. فوق كل ذلك كانت فرانسي تحمل جميع الصفات الناعمة التي تحملها أمها ولكن بنصف قدراتها الفولاذية الخفية. هكذا كانت فرانسي مزيجاً من صفات حسنة وسيئة.

إلا أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد. فقد امتلكت فرانسي أشياء أكثر أيضاً. كانت فرانسي مصنوعة من الكتب التي تقرؤها ومن الورود المزهرة في الحوض البني. كما أن جزءاً من حياتها كان مصنوعاً أيضاً من تلك الشجرة التي ظلت تنمو بنشاط في فناء المنزل، ومن خلافاتها المريرة مع أخيها الذي كانت تحبه كثيراً. كانت فرانسي سر أمها كاتي وهي تراها تبكي إلى حد اليأس، أو تشعر بالعار وهي تشاهد أباها يسير مترنحاً من السكر باتجاه المنزل.

كل هذه الأمور صنعت شخصية فرانسي، ولكن كان هناك شيء آخر لم يأت من آل روميلي و آل نولان. كان هذا الشيء يتشكل من القراءة ومن الملاحظة ومن الحياة يوماً بيوم. وهو شيء ولد فيها فقط وجعلها مختلفة عن باقي أفراد العائلتين. شيء يضعه الله في كل روح ينفخ فيها ليجعلها مختلفة عن الأخرى حيث لا توجد بصمتان على وجه الأرض تشبهان بعضهما البعض.

9

بعدما تزوج جوني وكاتي، ذهبا ليعيشا في شارع جانبي هادئ في مدينة وليامزبيرغ اسمه شارع بوغارت. وقد اختار جوني هذا الشارع لأن اسمه مثير. عاش الاثنان بسعادة بالغة في السنة الأولى لزواجهما.

كانت كاتي قد تزوجت من جوني لأنها أحبت طريقة غنائه ورقصه ولباسه. ولكنها كأي امرأة أخرى سعت بعد ذلك إلى تغيير كل هذه الأشياء فيه. أقنعته أن يترك مهنته كنادل مغنٍّ وقد فعل ذلك إرضاءً لحبه لها. بعد ذلك عمل الاثنان معاً في الاعتناء بمدرسة حكومية وأحبّا كثيراً عملهما هذا، كان يومهما يبدأ بعد أن ينام الجميع. بعد العشاء كانت كاتي تضع معطفها الأسود على كتفها وترخي جدائل أكمامه بطريقة مثيرة ثم تلف شالها الصوف الوردي حول رأسها. كان هذا الشال آخر ما غنمته من المصنع قبل أن تترك عملها هناك وكانت تحب أن تطلق عليه اسم «نوبي». بعد كل هذه المراسم تنطلق هي وجوني إلى العمل.

كانت المدرسة التي يعملان فيها صغيرة، قديمة ودافئة وكان الاثنان يتشوقان لقضاء الليل فيها. كانا يسيران إلى العمل وهما يتأبطان ذراع بعضهما البعض، هو يرتدي حذاءه الجلدي الذي يستخدمه للرقص وهي بحذائها

(الولادي) ذي الرباطات العالية. وأحياناً عندما يكون الليل بارداً والسماء كاشفة واضحة النجوم، كانا يركضان قليلاً ويضحكان كثيراً وقد غمرهما شعور بأنهما مهمان لأنهما يحملان المفاتيح الخاصة بالمدرسة. كانت المدرسة هي عالمهما الليلي.

خلال عملهما، كانا يمارسان مختلف الألعاب، حيث يجلس جوني على أحد مقاعد الدراسة فيما تقف كاتي أمامه تمثل دور المعلمة، أو يقومان بكتابة رسائل لبعضهما البعض على السبورة، أو يسحبان الخرائط التي كانت تكرّ ويؤشران على الدول الأخرى من خلال المؤشر ذي الرأس المطاطي وقد انتابتهما الدهشة أمام فكرة وجود بلاد غريبة ولغات مجهولة. كان عمره يومئذ تسعة عشر عاماً وعمرها سبعة عشر عاماً. كانا يحبان كثيراً تنظيف غرفة الاجتماعات. أحياناً كان جوني يمرر أصابعه على مفاتيح البيانو وهو يمسح الغبار عنه، ليعزف بعض الألحان، بينما تجلس هي في صف المقاعد الأمامية وتطلب منه أن يغني. كان يغني لها الأغاني العاطفية المعروفة في ذلك الزمن مثل «ربما تكون قد شهدت أياماً أفضل» و«أنا أبعد قلبي عنك» فيما كان جيران المدرسة يستيقظون من نومهم في منتصف الليل ليستمعوا إلى أغانيه وهم مستلقون في أسرّتهم الدافئة يتهامسون ناعسين وقائلين:

- هذا الشاب! إنه يضيع وقته - يجب عليه أن يعمل في عرض أو فرقة غنائية.

أحياناً كان جوني يرقص على الشرفة الصغيرة التي يفترض أن تكون مسرحاً بالنسبة له. كان رقصه رائعاً جميلاً أنيقاً مثيراً وحياً لدرجة أن كاتي كانت تعتقد وهي تراقبه بأنها تكاد تموت من السعادة.

عند الساعة الثانية كانا يدخلان إلى غرفة طعام الأساتذة حيث يوجد فرن يعمل على الغاز، ويحتسيان القهوة. كانا يخبئان علبة صفيح من الحليب المكثف في الخزانة وكم كانا يستمتعان برائحة القهوة المغلية وهي تملأ الغرفة بعبقها الرائع. كذلك كان طعم خبز الشوفان والساندويشات التي يتناولانها رائعاً جداً، أحياناً

بعد العشاء كانا يتسللان إلى غرفة الاستراحة المخصصة للأساتذة حيث توجد كنبة مغطاة بالقماش ويستلقيان هناك وذراع كل منهما يضم الآخر.

آخر شيء كانا يفعلانه هو تفريغ سلات القمامة. كانت السلة تحتوي على عدد من الطباشير والأقلام التي ما زال فيها جزء يصلح للكتابة. كانت كاتي تجمع هذه الأقلام والطباشير وتأخذها إلى المنزل وتخبئها في علبة. لاحقاً عندما بدأت فرانسي تكبر وتذهب للمدرسة، كانت كاتي تشعر بأنها تمتلك ثروة هائلة من الطباشير والأقلام.

عند الفجر، كانا يغادران المدرسة لامعة نظيفة وجاهزة للشخص المسؤول عن التنظيف خلال النهار. على طريق عودتهما إلى المنزل كانت تفوح روائح الخبز الطازج من غرفة الخبيز في قبو المخبز. كان جوني يهرول نزولاً إلى الدور الأرضي ليبتاع بعض الأرغفة الساخنة. لدى وصولهما إلى المنزل يقومان بتجهيز طعام الإفطار ويستمتعان بالقهوة الساخنة والأرغفة الطازجة ثم ينطلق جوني لشراء صحيفة «الأميركي» ويقرأ لها ويطلق بعض التعليقات الطريفة فيما هي تقوم بتنظيف الغرف. عند الظهر كانا يتناولان غداءً ساخناً يتألف من بعض المشويات والمعكرونة ثم ينامان طوال العصر والمغرب حتى يحين موعد العودة إلى العمل.

كانا يحصلان على 50 دولاراً شهرياً وهو راتب كان يعد جيداً بالنسبة لأشخاص من طبقتهم في تلك الأيام وقد أهّلتهما هذه النقود لكي يعيشا براحة وسعادة ويتمتعا ببعض المغامرات الصغيرة. كما أنهما كانا ما يزالان فتيين ومغرمين ببعضهما البعض.

ولكن خلال أشهر قليلة، ولدهشتهم البريئة وذعرهم في ذلك العمر، اكتشفت كاتي أنها حامل وأخبرت جوني بذلك. اعترى جوني بعض الاضطراب لدى سماعه الخبر وأبدى عدم رغبته بأن تتابع كاتي عملها ولكنها طمأنته بأنها حامل منذ مدة وأنها لا تشعر بأي تعب أو أية معاناة خلال العمل. وهكذا أذعن جوني للأمر واستمرت كاتي في العمل إلى أن أصبحت غير قادرة على تنظيف

الأرضية تحت المقاعد. بعدها كانت تقضي الوقت مستلقية على الكنبة التي لم تعد تصلح لممارسة الحب، فيما كان جوني يقوم بالعمل كله. وعند الساعة الثانية صباحاً يحضِّر لها الساندويشات. بالطبع لم تكن الساندويشات تشبه تلك التي كانت تحضرها كاتي بعناية وذوق. كذلك كان الأمر مع القهوة، كان جوني يفرط في غليها. ولكن مع ذلك بقي الاثنان في غاية السعادة رغم شعور القلق الذي ظل يتنامى داخل جوني كلما اقترب موعد الولادة.

في إحدى ليالي الصقيع، أواخر شهر كانون الأول/ ديسمبر جاءها المخاض. استلقت كاتي على الكنبة وهي تكتم أوجاعها، لم تكن ترغب بإبلاغ جوني قبل أن ينهي عمله. ولكن الألم اشتد كثيراً خلال عودتهما إلى المنزل. بدأت تئن بشدة وعلم جوني أن الطفل قادم. حملها إلى المنزل ووضعها برفق على السرير دون أن يخلع عنها ثيابها ثم غطاها بدفء وهرع إلى الشارع المجاور ليحضر القابلة السيدة غندلر. كان يتوسل إليها لتسرع فقد كادت السيدة غندلر الطيبة تدفعه للجنون بهدوئها وتروِّيها في الحركة.

فاجأها جوني وهي نائمة واضطرت إلى نزع عشرات لفافات الشعر عن رأسها ورفضت أن تخرج دون أن تضع طقم أسنانها. في البداية لم تعثر على الطقم ولكن جوني ساعدها في البحث إلى أن عثرا على الأسنان داخل كأس مليء بالماء على طرف النافذة. كان الماء قد تجمد حول طقم الأسنان واضطرا إلى إذابة الثلج قبل أن تضعه السيدة غندلر في فمها. بعد ذلك كان على السيدة غندلر أن تصنع تعويذة من قطعة نخيل مباركة ادخرتها من مذبح الكنيسة يوم أحد الشعانين. أضافت إلى قطعة النخل أيقونة للسيدة العذراء المباركة، وريشة طائر أزرق وشفرة مكسورة وغصين عشبي صغير. كان عليها أن تربط هذه الأشياء بخيط قذر مأخوذ من مشدٍّ لامرأة كانت قد أنجبت توأماً بعد عشر دقائق من المخاض. رشّت على الربطة ماءً مقدساً يفترض أنه جاء من بئر في مدينة القدس كان يسوع المسيح قد شرب منه ليطفئ ظمأه. كاد جوني ينفجر من القلق والفزع ولكنها طمأنته بأن هذه الأشياء كفيلة بإيقاف الألم والدفع نحو ولادة طفل سليم. أخيراً

تناولت حقيبتها المصنوعة من جلد التماسيح. وهي حقيبة مشهورة في الحي ويؤمن معظم الأولاد أنها الحقيبة التي كانوا فيها عندما تم تسليمهم إلى أمهاتهم، والآن أصبحت السيدة غندلر جاهزة للانطلاق.

كانت كاتي تصرخ من الألم عندما وصل الاثنان إليها، فيما امتلأت الشقة بالجارات اللواتي كنّ يصلين ويستذكرن ولاداتهن الأولى. كانت إحداهن تتحدث عن ولادة ابنها فنسنت، فيما تقول أخرى إنها كانت أصغر من كاتي عندما شهدت ولادتها الأولى، وأعقبت ثالثة بالقول إن أحداً لم يكن يتوقع لها أن تعيش بعد أول ولادة. إلا أنهن جميعاً وقفن لاستقبال القابلة وطردن جوني خارجاً. جلس جوني على شرفة المدخل حائراً. كان يرتجف كلما سمع كاتي تصرخ. كما كان مشوش الذهن قليلاً فقد حدث الأمر فجأة وها هي صرخات كاتي تصل إلى مسامعه رغم أنه قام بإغلاق النوافذ. كانت الساعة هي السابعة صباحاً وكان الرجال يعبرون من أمامه نحو عملهم وينظرون إلى النافذة التي تصدر من خلفها صرخات كاتي. بعدها كانوا يحملقون في جوني وهو مكوَّم على حافة الشرفة ويعاودون السير متجهمي الوجوه.

كافحت كاتي في المخاض طوال النهار دون أن يستطيع جوني أن يفعل شيئاً لمساعدتها، لم يكن هناك شيءٌ يفعله. عند حلول الليل لم يعد بإمكان جوني أن يحتمل أكثر. ذهب إلى منزل والدته سعياً للراحة ولكنه حين أخبرها أن كاتي على وشك الإنجاب، تعالى نواحها ونحيبها حتى هز المكان وراحت تردد: الآن تمكنت منك تماماً ! صاحت في وجهه. «لن تتمكن من العودة إليّ أبداً». لم يستطع جوني أن يجيبها بشيء فتركها وذهب يبحث عن أخيه جورجي. كان جورجي يتمرن على إحدى الرقصات. جلس جوني ينتظره حتى ينهي رقصته وقد نسي أن عليه الذهاب لتنظيف المدرسة ليلاً. عندما انتهى جورجي من التمرين راح الاثنان يتجولان بين البارات، يشربان ويخبران الجميع عما يمر به جوني. كان الرجال يستمعون إليهما ويتعاطفون معهما. وكان معظمهم يدعون جوني إلى بعض الكؤوس ليخبروه أنهم قد مروا بالتجربة نفسها.

عند الفجر عاد الشابان إلى منزل أمهما. كان النعاس يغالب جوني. حاول أن ينام ولكن نومه كان مضطرباً. عند الساعة التاسعة صباحاً استيقظ وهو يشعر بخطر قادم. تذكر كاتي ثم تذكر المدرسة ولكن الوقت كان متأخراً. ارتدى ثيابه بسرعة وانطلق نحو المنزل. على الطريق شاهد بسطة تعرض أفوكادو. ابتاع حبتين لكاتي دون أن يعلم أن زوجته ظلت تكافح على مدى أربع وعشرين ساعة في مخاض عسير إلى أن أنجبت مولودة صغيرة. كانت الولادة عسيرة ودموية ولكن الطفلة الوليدة كانت تحمل غشاء على وجهها وكان هذا مؤشراً باعتقادهم إلى أنها ستقوم بأعمال عظيمة عندما تكبر. إلا أن القابلة قامت سراً بسرقة الغشاء وباعته لاحقاً بدولارين إلى بحار يعمل في حوض بحرية بروكلين. يقال إن كل من يحمل مثل هذا الغشاء لا يموت غرقاً. وهكذا ظل البحار يحمله في كيس قماشي ويلفه على عنقه.

بينما كان جوني غارقاً في الشرب وبعدها في النوم، لم يكن يخطر على باله أن برودة الليل قد تسببت في انفجار أنابيب المياه التي كان يجب عليه أن يراقبها في المدرسة وأن كلاً من الطابقين التحتي والأرضي من المدرسة قد غرقا بالمياه.

عندما وصل إلى المنزل وجد كاتي مستلقية على فراشها في غرفة النوم المظلمة والطفلة بجانبها على وسادة أندي. كانت الشقة نظيفة فوق العادة، لا شك أن الجارات قد قمن بعمل رائع. كذلك كانت هناك رائحة فينول خفيفة ممزوجة برائحة بودرة الأطفال. كانت القابلة قد غادرت بعد أن أبلغت كاتي أنها تريد خمسة دولارات عن العملية وأضافت: زوجك يعرف أين أسكن.

ما أن غادرت القابلة حتى أدارت كاتي وجهها نحو الحائط وهي تحاول أن تبكي، كانت تحاول أن تطمئن نفسها خلال الليل بأن جوني قد ذهب للعمل في المدرسة متمنية أن يأتي إلى المنزل للحظات خلال فترة تناول الطعام في الساعة الثانية صباحاً. جاء الصباح ومن المفترض أن يكون جوني في طريقه إلى المنزل. ربما يكون قد مرّ على منزل والدته لينام بعد عمله المضني في الليل. حاولت إقناع

نفسها بأنه مهما فعل جوني فإن الأمر سيكون على ما يرام وأن تفسيره سوف يريحها.

بعد مغادرة القابلة، حضرت إيفي بعد أن أبلغها أحد أبناء الجيران بأن كاتي أنجبت طفلة. أحضرت إيفي معها بعض الحلوى وقطعاً من البسكويت المالح والشاي. كان لطعمها وقع طيب على كاتي. أخذت إيفي تتفحص الطفلة، لم تعجبها كثيراً ولكنها لم تقل شيئاً لكاتي.

عندما عاد جوني إلى المنزل، بدأت إيفي بإعطائه محاضرة حول تربية الأطفال ولكنها عندما لاحظت شحوبه والرهبة البادية على وجهه، تذكرت أنه لم يتجاوز العشرين بعد. بلعت ريقها ثم قبلته على خديه وراحت تطمئنه بعد أن أحضرت له قهوة ساخنة.

رمق جوني الطفلة بنظرة سريعة، كانت حبتا الأفوكادو ما تزالان في يده. ركع بجانب سرير كاتي وراح يبكي. بكت كاتي معه ورغم أنها كانت ترغب في حضوره خلال ليلة الولادة إلا أنها أخذت تتمنى الآن لو أنها أنجبت الطفلة سراً في مكان بعيد ثم عادت إليه لتخبره أن كل شيء يسير على ما يرام. لقد نالت نصيبها من الألم. كان الأمر يشبه كونها ألقيت حيّةً في زيت مغلي دون أن تموت أو أن تتمكن من الخروج منه ولكن يا إلهي العزيز ألا يكفي هذا الألم؟ لماذا يجب أن يعاني جوني. لم يخلق هذا الرجل ليعاني، أما هي فتستطيع ذلك. فرغم أنه لم يمض على إنجابها طفلة ساعتين ورغم الضعف الذي لا يسمح لها أن ترفع رأسها بسهولة عن الوسادة إلا أنها هي التي حملت عبء تهدئته وطمأنته ثم أخبرته أن لا يقلق لأنها ستقوم برعايته.

بدأ جوني يشعر بالتحسن وأخبر كاتي أن الأمر لن يكون صعباً فقد سمع من كثير من الأزواج أنهم مروا بهذه المحنة وأنا الآن قد مررت بها وأصبحت رجلاً.

بعد ذلك، وافقت كاتي بناءً على اقتراحه بتسمية الطفلة فرانسي نسبةً إلى صديقة أخيه أندي، فرانسي ميلاني التي لم يمكنه الموت من أن يتزوجها. أحسّ

الاثنان أن تسمية الطفلة على اسمها والطلب منها أن تكون عرابتها يمكن أن يخفف من ألمها ويشعرها ببعض العزاء. فالطفلة ستحمل اسم فرانسي نولان وهو الاسم الذي كانت ستحمله فرانسي ميلاني لو أنها تزوجت أندي.

قام جوني بتقطيع حبتي الأفوكادو ثم أضاف بعض الزيت الحلو والخل وأحضرهما إلى كاتي. لم يعجبها طعم السلطة ولكنه قال لها إن عليها أن تتعود على هذا المذاق تماماً مثل الزيتون. تأثرت كاتي من تفكيره الطيب وقررت أكل السلطة إرضاءً له ولما دعت إيفي بإصرار لتناول بعض منها، أكلت إيفي قليلاً متذرعة بأنها ستأكل بعض الطماطم لاحقاً.

وفيما كان جوني جالساً في المطبخ يشرب القهوة، جاء ولد من المدرسة ليسلمه مذكرة من المدير تبلغه أنه مطرود من العمل بسبب الإهمال، وأن عليه الحضور إلى المدرسة لتسلم مستحقاته المالية. وفي نهاية المذكرة وردت ملاحظة بأن عليه أن لا يطلب أية توصية من المدرسة. شحب وجه جوني وهو يقرأ المذكرة وأبلغ الولد بعد أن أعطاه نيكلاً بأنه سيحضر إلى المدرسة قريباً. بعد ذلك مزّق المذكرة دون أن يخبر كاتي شيئاً.

ذهب جوني للقاء المدير محاولاً أن يشرح له السبب ولكن المدير لم يقتنع بحجته وأبلغه أنه كان عليه ترتيب الأمر بما أنه كان يعلم باقتراب موعد الولادة. ومع ذلك لم يطلب منه المدير أية تعويضات عن الخسائر التي تسبب فيها إهماله نتيجة تفجر الأنابيب. كذلك دفع له المدير من جيبه بعد أن وقع على تسليم الشيك إلى المدير. في نهاية الأمر فعل المدير أقصى ما بوسعه لتخفيف العبء عليه، ضمن رؤيته للأمور.

دفع جوني للقابلة ما طلبته كما سدّد حساب الإيجار للشهر القادم ولكنه أحس بالخوف عندما بدأ يدرك أن هناك طفلة الآن وأن كاتي لن تستطيع أن تعمل لفترة من الوقت، كما أنهما الآن أصبحا بلا عمل. إلا أنه حاول تعزية نفسه بالتفكير أنه قد دفع إيجار المنزل للشهر القادم وأنه لا بد وأن يعثر على عمل في القريب العاجل.

في عصر ذلك اليوم، ذهب إلى ماري روميلي ليخبرها عن المولودة الجديدة، وتوقف في طريقه عند مصنع المطاط طالباً رؤية المسؤول عن سيسي لكـي يبلغهـا بالمولودة الجديدة ويطلب منها أن تمر بمنزلهم بعد انتهاء عملها. وكـزه الرجـل في صدره غامزاً وهو يقول: أحسنت يا رجل، ابتسم جوني وشكره ثم أعطاه عـشرة سنتات قائلاً: هيا دخن سيجاراً جيداً من أجلي.

– سوف أفعل ذلك، أجابه المسؤول ثم صافحه ووعده بأن يبلغ سيسي.

بكت ماري روميلي لـدى سـماعها الخـبر. وأخـذت تنـوح قائلـة: الطفلـة المسكينة، لماذا وُلدت في هذا العالم المأساوي. هل وُلـدت لتعـاني وتقـاسي؟ نعـم سيكون هناك القليل من الفرح ولكن الكثير من العمل الشاق.

أراد جوني أن يبلغ توماس روميلي ولكن ماري رجته أن يؤجل الموضـوع. كان توماس يكره جوني لأنه إيرلندي. كان يكره الألمـان والـروس والأميركيـين بشكل عام. ولكن الإيرلنديين كانوا يتمتعون بكره خاص من قِبَله. كان عنـصرياً بامتياز رغم كرهه العجيب لعرقه الألماني أيـضاً ولطالمـا ردّد نظريتـه القائلـة بـأن الزواج بين عرقين غريبين سينتهي بأولاد مهجنين.

كانت حجته في هذا قوله: ماذا سـتكون النتيجـة لـو قمـت بتـزويج طـير الكناري إلى غراب.

رافق جوني حماته إلى منزلـه ثـم غـادره ليبحـث عـن عمـل. كانـت كـاتي مسرورة لحضور أمها. أدركت الآن بعد أن استذكرت ألم الـولادة الـذي مـا زال حديثاً في بالها، مدى المعاناة التي واجهتها أمهـا حـين ولادتهـا وكـذلك إنجابهـا لسبعة أطفال وتربيتهم ثم رؤية ثلاثة منهم يموتون فيما عاش البـاقون ليواجهـوا الجوع والمعاناة.

كان مجرد التفكير بأن طفلتها سوف تدخل في الحلقـة نفـسها يثـير الرعـب والقلق في نفسها.

– ما الذي أعرفه؟ سألت كاتي أمها بحرقة. لا يمكنني أن أعلمها أكثر مما تعلمته وأنا لم أتعلم الكثير. إنك فقيرة يا أمي وأنا وجوني فقيران وستكبر الطفلة لتصبح فقيرة. لن يكون حالنا في المستقبل أحسن من حالنا اليوم كما أننا سنهرم مع السنين ولن يتحسن شيء. كل ما نملكه اليوم هو ما يكفي من عمر الشباب لكي نعمل وهذا كله سينقضي مع مرور الأيام.

شعرت بحقيقة الأمر. راحت تفكر وتقول لنفسها: يمكنني أن أعمل ولكن لا يمكنني الاعتماد على جوني. سوف أضطر دائماً لرعايته. آه يا إلهي لا ترسل لي المزيد من الأطفال لأني لن أستطيع حينها أن أعتني بجوني وأنا مضطرة أن أعتني به لأنه غير قادر على ذلك بنفسه.. قطعت أمها أفكارها قائلة:

– ما الذي كنا نملكه في بلادنا الأصلية ... لا شيء .. كنا فلاحين ونكاد نموت من الجوع، حسناً ... لقد جئنا إلى هنا ولم يتحسن حالنا بشيء سوى أنهم هنا لم يأخذوا والدك إلى العسكرية كما كان سيحصل في بلادنا الأصلية. ما عدا ذلك فإن الأمور كانت أصعب. إنني أفتقد كثيراً بلادنا الأصلية، أشجارها وحقولها الواسعة، وطريقة الحياة التي ألفناها وأصدقاءَنا القدامى...

– إذا لم تكونوا تتوقعون شيئاً أفضل، فلماذا أتيتم إلى أميركا؟

– من أجل أطفالي، لقد كنت أتمنى أن يولدوا في بلاد حرة.

– إن أطفالك لم يفلحوا بالشكل المطلوب يا أماه. قالت كاتي وهي تبتسم بمرارة.

– يوجد هنا شيء نفتقده في بلادنا القديمة. فرغم الأمور الصعبة وغير المألوفة إلا أن هناك شيئاً اسمه الأمل... في بلادنا الأصلية لا يمكن للرجل أن يصبح أفضل من أبيه حتى ولو عمل بجد. فإذا كان والده نجاراً، فإنه قد يصبح نجاراً ولكنه لن يصبح قسيساً أو معلماً. يمكنه أن يتقدم أو ينهض ولكن فقط إلى المستوى الذي وصل إليه أبوه. في بلادنا الأصلية، يرتهن الرجل بماضيه أما هنا

فإنه ينتمي إلى المستقبل. في هذه البلاد يمكن للرجل أن يصبح ما يشاء، إذا امتلك قلباً طيباً وكان صادقاً في عمله.

– هذا ليس صحيحاً. إن أولادك لم يفلحوا أكثر منك.

تنهدت ماري روميلي وقالت: ربما كانت هذه هي غلطتي. لم أعرف كيف أعلِّم بناتي لأنني لم أكن أملك في خلفيتي إلا ميراثاً لعائلة عملت منذ مئات السنين في أرض أحد الإقطاعيين. لم أرسل طفلتي الأولى إلى المدرسة. كنت أجهل أن أبناء الفقراء من أمثالها يمكنهم أن يحصلوا على تعليم مجاني في هذه البلاد. لهذا السبب لم تستطع سيسي أن تكون أفضل مني ولكن الثلاث الأخريات ... أنت مثلاً ذهبت إلى المدرسة.

– لقد أنهيت الصف السادس ... إذا كان هذا ما يمكن تسميته تعليماً.

– وحتى زوجك يوني (لم تكن تستطيع أن تلفظ حرف الجيم) فعل ذلك.. ألا ترين؟.. دب الحماس في صوتها ... لقد بدأت أموركم تتحسن.

أمسكت بالطفلة وحملتها بين ذراعيها. «لقد ولدت هذه الطفلة في عائلة يمكنها أن تقرأ وتكتب».. قالت ببساطة .. إن هذا بالنسبة لي شيء في منتهى الروعة.

– أماه .. أنا ما أزال شابة في سن الثامنة عشرة ... أنا قوية ويمكنني أن أتحمل العمل الشاق ولكنني لا أريد لهذه الطفلة أن تكبر فقط لكي تشقى في عملها. ما الذي ينبغي أن أفعله يا أماه لكي أصنع عالماً أفضل لها ... كيف أبدأ؟

– إن السر يكمن في القراءة والكتابة. أنت قادرة على القراءة. اقرئي كل يوم صفحة من كتاب جيد لطفلتك.. يجب أن تفعلي هذا كل يوم حتى تتمكن طفلتك من القراءة ثم أن عليها هي أن تقرأ كل يوم. أنا أعلم تماماً أن هذا هو السر.

– سوف أقرأ لها .. قالت كيتي وهي تعد أمها ولكن أين أجد كتاباً جيداً؟

– هناك كتابان جيدان .. كتاب شيكسبير كتاب جيد. لقد سمعت بأن هذا الكتاب يحتوي على جميع روائع الحياة. جميع ما تعلمه الإنسان عن الجمال وجميع ما يمكن أن يتعلمه من الحكمة وأسرار الحياة. ويقولون إن قصصه هي مسرحيات يمكن أن تعرض على المسارح. لم تسنح لي فرصة لكي أكلم أحداً ممن رأوا مثل هذه المسرحيات ولكني سمعت من مالك الأرض الذي كنا نعمل فيها في النمسا بأن بعض صفحات هذا الكتاب تغني وحدها ؟

– هل شيكسبير كتاب ألماني.

– لا إنه إنكليزي، هكذا سمعت من مالك الأرض وهو يخبر ابنه الشاب الذي كان يستعد للالتحاق بالجامعة العظيمة في هيدلبيرغ قبل زمن طويل.

– وما هو الكتاب الرائع الآخر؟

– إنه الإنجيل الذي يقرؤه البروتستانت.

– إن لدينا إنجيلنا نحن الكاثوليك.

جالت ماري بنظرها حول الغرفة وكأنها تسترق النظر لا يحسن بكاثوليكي صالح أن يقول هذا ولكنني أعتقد أن إنجيل البروتستانت يحتوي على سرد أجمل لأروع قصة على هذه الأرض وما بعد ذلك. إحدى صديقاتي التي أحبها وهي بروتستانتية قرأت لي مرة بعض النصوص من إنجيلها وقد وجدته كما قلت لك.

– إذن هذا الكتاب وكتاب شيكسبير كل يوم يجب أن تقرئي صفحة منهما لطفلك، حتى ولو كنت لا تفهمين ما هو مكتوب ولا يمكنك لفظ الكلمات جيداً. عليك أن تفعلي هذا لكي يعرف طفلك ما هو عظيم ويعرف كذلك أن وليامزبيرغ ليست هي العالم كله.

– عليك بإنجيل البروتستانت وكتاب شيكسبير. كما أن عليك أن تحكي لطفلتك القصص التي كنت أحكيها لك والتي كانت أمي تحكيها لي كما حكتها

أمها لها. عليك أن تقصّي عليها الحكايات الخرافية التي نعرفها من بلادنا الأصلية، عن الجنيات والأقزام والأشباح التي كانت تسكن في عقول أهل والدك والعين الشريرة التي ظلت تراقب عمتك. عليك أن تعلِّمي طفلتك العلامات التي تظهر لنساء عائلتنا كلما كان هنا نذير بالموت أو بحدوث مشاكل. على الطفلة أن تؤمن بالله وبيسوع ابنه الوحيد. رسمت أمها إشارة الصليب ثم أرفدت:

– آه وعليك أيضاً أن لا تنسي سانتا كلوز. على الطفلة أن تؤمن به حتى تصل إلى عمر السادسة.

– أماه أنا أعلم أنه لا يوجد أشباح ولا توجد جنيات. لماذا أخبر طفلتي أموراً كاذبة لا وجود لها؟

ردت ماري بحدة – أنت لا تعرفين إذا كانت هناك على الأرض أشباح أم لا أم كانت هناك ملائكة في السماء؟

– أنا أعرف على الأقل أنه لا يوجد سانتا كلوز.

– ومع ذلك عليك أن تخبري الطفلة عنه.

– لماذا؟ مع أنني أنا نفسي لا أؤمن به.

– لأنه، أجابتها ماري ببساطة، على الطفلة أن تمتلك شيئاً قيماً جداً اسمه «المخيلة» على الطفلة أن تمتلك عالماً سرياً تعيش فيه أشياء غير موجودة في هذا العالم حتى إذا أصبح العالم يوماً أبشع من أن تعيش فيه، يمكنها أن تعود لتعيش في مخيلتها. أنا نفسي، رغم أنني قد وصلت إلى هذا العمر أحتاج بشدة إلى استذكار حياة القديسين العجائبية وكذلك المعجزات العظيمة التي حدثت على هذه الأرض. فقط من خلال وجود هذه الأشياء في ذهني، يمكنني أن أعيش أبعد مما أنا مضطرة للعيش من أجله.

– ستكبر الطفلة لتكتشف صحة هذه الأشياء وعندها ستدرك أني كذبت عليها وسيصيبها هذا بالإحباط ... قالت كاتي:

– إن هذا ما يسمونه معرفة الحقيقة. إنه لشيء جيد أن يعرف الإنسان الحقيقة بنفسه، أن تؤمني أولاً من كل قلبك ثم لا تعودي تؤمنين هو أمر جيد لأنه يوسع مشاعرك ويعطيها مدى أبعد بحيث إنك عندما تشعرين بالإحباط في الحياة أو من الناس، تكونين أقدر على تحملها. كذلك لا تنسي أن المعاناة ضرورية في سياق تعليمك لطفلك لأنها تغني شخصيته.

– إذا كان هذا الأمر صحيحاً، قالت كاتي معلقة على حديث أمها، فإننا آل روميلي نعتبر أغنياء.

– نحن فقراء ... نعم.. ونحن نعاني أيضاً، كما أن طريقتنا في الحياة صعبة ولكننا كبشر نعتبر في وضع أفضل لأننا نعرف كل الأشياء التي أخبرتك إياها. أنا لا أقرأ ولكنني أخبرتك عن أمور تعلمتها من الحياة وهي أمور عليك أن تنقليها إلى أطفالك وأن تضيفي عليها من تجاربك التي تخوضينها وتتعلمين منها فيما أنت تكبرين.

– هل هناك أشياء أخرى أعلمها لطفلتي؟

– على الطفلة أن تؤمن بوجود الجنة ولا أعني الجنة التي يتربع فيها الله على عرشه بينما الملائكة تطير حوله. حاولت ماري أن تصيغ عباراتها بألم وبلغة نصف إنكليزية ونصف ألمانية، ولكن الجنة التي تعني مكاناً رائعاً يحلم به الناس وتتحقق فيه رغباتهم. ربما يشكل هذا الكلام نوعاً آخر من الديانات ... لا أعلم.

– وماذا أيضاً؟

– قبل أن تموتي، يتوجب أن تكوني قد حصلت على قطعة من الأرض أو ربما منزل يمكن لأطفالك أن يرثوه.

ضحكت كاتي قائلة: أرض خاصة بي؟.. منزل؟ نحن محظوظون إذا تمكنا من دفع الإيجار. «ومع ذلك» أجابت ماري بحزم «فإن عليك أن تفعلي ذلك. منذ آلاف السنين وأهلنا يعملون كفلاحين في أراضي الغير. كان هذا هو الوضع في

بلادنا الأصلية، أما هنا فنحن في وضع أفضل إذ نعمل بأيدينا في المصانع وهذا يعني أن هناك جزءاً من يومنا لا يملكه السيد بل يملكه العامل نفسه. إن وجود قطعة أرض نملكها ونورثها لأطفالنا يمكن أن ينهض بنا على وجه الأرض».

- كيف يمكننا الحصول على قطعة أرض؟ أنا وجوني نعمل ولكننا لا نحصِّل إلا اليسير. أحياناً لا يتبقى بأيدينا ما يكفي لإطعامنا بعد دفع الإيجار والتأمين. كيف يمكن أن نوفر أبداً لشراء قطعة أرض.

- عليك بين الحين والآخر أن تأخذي صفيحة حليب معلب وتغسليها جيداً.

- صفيحة؟

- قصي غطاءها جيداً ثم اصنعي فتحات صغيرة في العلبة تكون بطول إصبعك. اجعلي كل فتحة بعرض خمسة سنتمترات بواسطة أصابعك ثم اقلبي الفتحات إلى الخلف حتى تصبح العلبة على شكل نجمة غير منتظمة. اصنعي فتحة في قمتها ثم دقي مسماراً في كل فتحة وضعي العلبة في أعتم زاوية من خزانتك. وكل يوم ألقي بها خمسة سنتات وسوف تجمعين في ثلاث سنوات ثروة جيدة تساوي 50 دولاراً. خذي هذه النقود واشتري قطعة أرض مع أوراق تثبت أنها ملكك وهكذا تصبحين مالكة أرض. وعندما يملك الإنسان أرضاً لا يمكن أن يعود أبداً إلى العبودية عند الآخرين.

- خمسة سنتات يومياً، إنه مبلغ قليل ولكن من أين نأتي به. نحن لا نملك اليوم ما يكفي لكلينا وها قد جاءنا الآن فم آخر لنطعمه.

- ومع ذلك ينبغي عليك أن تفعلي. عليك أن تذهبي إلى البقال وتسأليه عن ثمن حزمة الجزر وإذا أجابك أنها بثلاثة سنتات فابحثي عن حزمة أخرى ليست بجودة الحزمة الأولى واسأليه هل يمكن أن أشتري هذه الحزمة بسنتين إنها ليست كالطازجة وليست كبيرة. اسأليه بحزم ودون تردد وسيجيبك بنعم وعندها يمكنك توفير سنت لتضعيه في حصّالتك النجمية. مثل آخر: لنفترض

أنك اشتريت مكيال فحم لتشعليه في المدفأة وقاية من برد الشتاء. حسناً انتظري ساعة قبل أن تشعليه. ارتدي شالاً على كتفك وتحملي البرد ساعة. إن ساعة من المعاناة توفر عليك ثلاثة سنتات. قولي لنفسك: سوف أتحمل البرد لكي أستطيع شراء قطعة أرض. هكذا يمكنك توفير ثلاثة سنتات لتضعيها في حصالتك النجمية. أيضاً عندما تكونين وحدك في الليل لا تشعلي المصباح بل اجلسي قليلاً في الظلام واحلمي ثم احسبي كم سنتاً توفرين من ثمن الزيت الذي يشعل هذا المصباح عندما تجلسين في الظلام لفترة. ضعي ما توفر من ثمنه في حصالتك. سوف تزداد كمية النقود في الحصالة وتصل يوماً ما إلى 50 دولاراً وعندها توجد في مكان ما على هذه الجزيرة الطويلة مساحة من الأرض يمكنك شراؤها بهذه النقود.

– هل تعمل طريقة التوفير جيداً؟

– أقسم بالعذراء المقدسة أنها سوف تعمل.

– إذن لماذا لم توفري أنت نقوداً لشراء أرض؟

– لقد فعلت. عندما وصلنا إلى هذه البلاد، صنعت حصالة نجمية. مرت عشر سنين قبل أن أستطيع جمع أول خمسين دولاراً لي. أخذت النقود وذهبت إلى رجل في الحي معروف بتعامله العادل مع الناس في مسائل شراء الأراضي. أراني قطعة أرض جميلة وقال لي بلغتي الأصلية: هذه الأرض لك. أخذ النقود وأعطاني ورقة. لم أكن أقرأ لذلك أخذتها بسلام ولكنني بعد فترة رأيت رجالاً يبنون منزلاً على أرضي. ذهبت إليهم وأريتهم الورقة فضحكوا عليّ بإشفاق وأخبروني أن الأرض لم تكن ملكاً لذلك الرجل حتى يبيعها. كان الأمر احتيالاً وخداعاً. نعم إن أشخاصاً مثلنا غالباً ما يتعرضون للخداع لأننا لا نعرف القراءة ولكنك تعرفين ولذلك يمكنك أن تقرئي تماماً ما هو مكتوب على الورقة وعندها فقط تدفعين النقود.

– ولكن هل وفرت مرة أخرى يا أماه.

- نعم ولكن الأمر كان صعباً هذه المرة بسبب وجود العديد من الأطفال. لقد وفرت ولكن عندما انتقلنا عثر والدك على الحصالة وأخذ النقود ولكنه لم يشترِ بها قطعة أرض بل اشترى ديكاً وعدداً كبيراً من الدجاجات ووضعها في فناء الدار.

- أظن أني أتذكر هذه الدجاجات.. قالت كاتي.. كان هذا منذ زمن طويل.

- قال لي إن بيضها سيجلب لنا النقود ولكن أية أحلام تراود هؤلاء الرجال! في الليلة الأولى داهمتنا مجموعة من القطط الجوعى وقفزت فوق السياج وقتلت العديد من الدجاجات. وفي الليلة التالية جاء بعض الإيطاليين وسرقوا عدداً آخر ثم في اليوم الثالث جاءنا الشرطة ليقولوا إنه محظور على أحد تربية دجاج داخل حي بروكلين. كان علينا أن ندفع خمسة دولارات كي لا يأخذوا أباك إلى السجن. وأخيراً باع أبوك ما تبقى من الدجاجات واشترى طيور الكناري التي يمكنه الاحتفاظ بها دون خوف. وهكذا فقدت تحويشتي الثانية ولكنني أعمل الآن على توفير المزيد، لعله يوماً ما.. صمتت قليلاً ثم نهضت ووضعت شالها على كتفها، لقد عمّ الظلام وسوف يعود والدك إلى المنزل من عمله. لتحرسك مريم العذراء وتحرس طفلتك.

جاءت سيسي مباشرة من عملها حتى إنها لم تجد الوقت الكافي لنفض غبرة المطاط الرمادية عن شعرها. كانت مواجهتها مع الطفلة الوليدة هستيرية حتى إنها كادت تغص من الفرح ثم أعلنت أن هذه الطفلة هي أجمل طفلة في العالم. ولكن جوني نظر إليها مشككاً فقد كان لون الطفلة شبه أزرق وكان ذبولها يشعره بأن هناك خطأ ما. غسّلت سيسي الطفلة مع أنها لا شك قد اغتسلت عشر مرات في اليوم الأول لولادتها ثم خرجت إلى دكان لبيع الأطعمة وأغرت الرجل بأن يبيعها إلى أجلٍ حتى يوم السبت مأكولات بدولارين. ابتاعت بعض أسماك السلمون المدخن وقطعة لسان وشرائح من سمك الخفش المدخن مع الزبدة ولفائف بطاطس وكيساً من الفحم. عادت إلى المنزل وأشعلت النار وجهزت

عشاءً شهياً وأدخلته إلى كاتي ثم جلست في المطبخ مع جوني لتأكل معه. كان البيت يعج برائحة الطعام الطيبة إضافة إلى رائحة قوية تشبه الحلوى كان مصدرها قرصاً ربطته سيسي بسلسلة وتلّفه حول عنقها. كان هذا القرص تقليداً لقلب فضي مزركش غالباً ما ترتديه النساء الثريات على أعناقهن.

أخذ جوني يتأمل سيسي وهي تدخن سيجاراً بعد العشاء. أخذ يتساءل ما هي المعايير التي يستخدمها الناس في وصفهم للأشخاص الصالحين والسيئين. لنأخذ سيسي مثلاً كانت امرأة سيئة ولكنها طيبة في الوقت نفسه. هي سيئة عندما يتعلق الأمر بالرجال ولكنها كانت طيبة وصالحة لأن وجودها كان يعطي نكهة دافئة ناعمة نشطة ومحبة للحياة. تمنى أن تكون ابنته الوليدة مثل سيسي عندما تكبر.

شعرت كاتي بالقلق عندما أعلنت سيسي أنها ستمضي الليل عندهما. كان هناك سرير واحد في المنزل تتقاسمه هي وجوني ولكن سيسي أمعنت في المزاح عندما قالت إنها مستعدة للنوم إلى جانب جوني إذا ضمن لها طفلة مثل فرانسي. كانت كاتي تعلم أنها تمزح ولكن سيسي كانت إنسانة صريحة ومباشرة. بدأت تعظها وكأنها تلقي محاضرة ولكن جوني قطع الحديث معلناً أنه مضطر للذهاب إلى العمل في المدرسة. لم يكن قد أبلغ كاتي بما حصل بعد. لم يكن باستطاعته أن يقول لها إنه فقد وظيفته. توجه نحو المقهى الذي يعمل فيه أخوه جورجي في تلك الليلة. لحسن الحظ كانوا بحاجة لنادل آخر يغني. وهكذا حصل جوني على وظيفة، كما أنهم وعدوه بمهمة أخرى في الأسبوع القادم. عاد جوني إلى العمل كنادل مغنٍّ ومنذ ذلك اليوم لم يغير تلك المهنة أبداً.

نامت سيسي إلى جانب كاتي في السرير وأمضيتا الليل تتحدثان. أخبرتها كاتي عن قلقها حول وضع جوني وعن مخاوفها من المستقبل. تحدثتا عن ماري روميلي أمهما وعن طيبتها، وعن أبيهما توماس روميلي. قالت سيسي إنه عجوز خليع ولكن كاتي أجابت بأن عليها إظهار بعض الاحترام. ردّت عليها سيسي قائلة: هذا هراء. فضحكت كاتي.

بعد ذلك تحدثت كاتي عن الحوار الذي دار بينها وبين أمها في ذلك اليوم. أبدت سيسي إعجابها بموضوع الحصالة النجمية أو البنك ونهضت رغم أن الوقت كان منتصف الليل وفرّغت صفيحة من الحليب المكثف في وعاء وصنعت منها حصالة نجمية. ولما حاولت أن تثبتها بمسمار في الخزانة تعثرت بثوب النوم الطويل الذي كانت ترتديه وهكذا خلعت الثوب وزحفت عارية داخل الخزانة ولكنها لم تستطع ذلك أيضاً فقد منعتها مؤخرتها العارية اللامعة من دخول الخزانة وأخيراً جثمت على ركبتيها وثبتت الحصالة بأرضية الخزانة. انتابت كاتي نوبة من الضحك المتواصل حتى خشيت أن تصاب بنزيف. استيقظ المستأجرون من الجيران على أصوات دق المسامير في الساعة الثالثة صباحاً وأخذوا يطرقون على السقف وعلى الأرضية كل من جهته. كادت كاتي يغشى عليها من الضحك وهي تسمع سيسي تتمتم كيف أن هؤلاء الجيران لا يخجلون من أن يصدروا مثل هذه الأصوات مع وجود امرأة مريضة في البيت. أخيراً أنهت سيسي دق المسامير قائلة كيف يمكن أن ينام الإنسان في هذه البناية؟

بعد انتهائها من تثبيت الحصالة، ارتدت سيسي ثوب النوم وافتتحت الحساب بوضع نيكل في الحصالة ثم انسلّت داخل السرير وراحت تصغي إلى كاتي وهي تحدثها عن الكتابين ووعدتها بأن تحضرهما لها كهدية عند تعميد الطفلة.

أما فرانسي الطفلة الوليدة فقد أمضت أول ليلة لها على وجه الأرض محشورة بين أمها وخالتها سيسي.

في اليوم التالي، انطلقت سيسي لإحضار الكتابين. ذهبت إلى مكتبة عامة وسألت المسؤول هناك كيف يمكنها الحصول على كتاب شيكسبير وإنجيل البروتستانت. لم يستطع المسؤول في المكتبة أن يصنع لها شيئاً بخصوص الإنجيل ولكنه أعطاها نسخة تالفة من شيكسبير كانت موضوعة في الملفات وكانت المكتبة على وشك التخلص منها. كان الكتاب قديماً ممزقاً ولكنه يحتوي على جميع مسرحيات وقصائد شيكسبير. وكان يحتوي على هوامش معقدة وشروحات

تفصيلية عن معاني المسرحيات. كما كان يحتوي أيضاً على سيرة ذاتية وصورة للمؤلف إضافة إلى منقوشات على الفولاذ تظهر مشاهد من كل مسرحية. كانت طباعة الكتاب من النوع الصغير، تضم عامودين لكل صفحة كما كان ورقه رقيقاً. وقد دفعت سيسي ثمنه 25 سنتاً.

أما الإنجيل فقد كان ثمنه أرخص رغم أن سيسي وجدت صعوبة في الحصول عليه. لم يكلفها شيئاً وكان مكتوباً بأعلى غلافه اسم جدعون أما كيف حصلت عليه فهذه هي القصة:

بعد أيام من شرائها لكتاب شيكسبير، استيقظت سيسي ذات صباح ووكزت عشيقها الجديد الذي أمضت الليلة معه في غرفة بإحدى الفنادق العائلية.

– جون (نادته جون رغم أن اسمه كان تشارلي) ما هذا الكتاب الموضوع على الخزانة؟

– إنه إنجيل.

– إنجيل بروتستانتي.

– نعم.

– أريد أن أصادره.

– افعلي ذلك، إنه موضوع لهذا السبب.

– لا؟

– نعم.

– بلا مزاح.

– الناس يأخذونه ويقرؤونه ثم يصلحون أنفسهم ويندمون ويعيدونه ليشتروا إنجيلاً آخر. يسرقه أناس آخرون ويقرؤونه ويصبحون صالحين. بهذه الطريقة لا تخسر المؤسسة التي توزع هذه الكتب شيئاً.

– حسناً هذا كتاب لن يستعيدوه أبداً – قامت سيسي ولفّت الكتاب في منشفة للفندق سرقتها أيضاً.

قال لها جون وهو يبدي خوفاً بارداً – أخشى أن تقرئيه وتقرري أن تصبحي صالحة وأضطر أنا أن أعود إلى زوجتي. ارتعد قليلاً ثم لفّ ذراعيه حولها قائلاً: عديني أنك لن تصبحي امرأة صالحة.

– أعدك.

– كيف تعرفين أنك لن تصبحي كذلك؟

– أنا لا أصغي لما يقوله الناس عني كما أنني لا أعرف القراءة. الطريقة الوحيدة التي أميز فيها الصالح من الطالح هي عبر شعوري نحو الأشياء. إذا كان شعوري سيئاً فإن الأمر سيء وإذا كان شعوري طيباً فإن الأمر صالح وأنا أشعر شعوراً طيباً حين أكون معك. رمت بذراعها على صدره وقبلته قبلة صاعقة في أذنه.

– أتمنى أن نتزوج يا سيسي.

– وأنا أيضاً يا جون. أعلم أن الأمور بيننا ستكون بخير، لفترة على الأقل.. أضافت بصدق.

– ولكنني متزوج وأنت تعلمين هذا الزواج الكاثوليكي اللعين .. لا طلاق.

– أنا لا أؤمن بالطلاق على أية حال. قالت سيسي التي كانت تعود لتتزوج دائماً دون أن تستفيد من الطلاق.

– أتعلمين يا سيسي؟

– ماذا؟

– إن لك قلباً من ذهب.

- بلا مزاح.

- بلا مزاح ... راقبها وهي تتناول رباط جوارب حريري أحمر وتلفه على جورب قطني شفاف ثم تسحبه على رجلها..

- أعطني قبلة، ناشدته فجأة.

- هل لدينا وقت؟ سألها بطريقة عملية ودون أن تجيبه خلعت جواربها مرة أخرى.

وهكذا بدأت قصة مكتبة فرانسي نولان.

10

لم تكن فرانسي طفلة قوية، بل كانت نحيلة، لونها يميل إلى الزرقة ونموها ضعيف. وقد عملت كاتي على إرضاعها بشكل متواصل رغم أن الجيران أبلغوها أن حليبها لم يكن صالحاً للطفلة.

تحولت فرانسي إلى الرضاعة من (القنينة) وهي ما تزال في الشهر الثالث بعد أن توقف حليب كاتي فجأة. شعرت كاتي بالقلق واستشارت أمها في الأمر ولكن ماري روميلي رمقتها بنظرة وتنهدت ولم تقل شيئاً وهكذا تحولت كاتي إلى القابلة طلباً للنصح. سألتها القابلة سؤالاً بدا غبياً:

– من أين تشترين السمك يوم الجمعة؟

– من سوق بادي لماذا؟

– وهل ترين هناك امرأة عجوزاً تشتري سمك القد لقطتها؟

– نعم أراها كل أسبوع.

– هي السبب.. لقد فعلتها .. لقد نشفت حليبك.

– آه كلا.

– نعم لقد أصابتك بعينها الشريرة.

– لماذا؟

– بسبب الحسد... إنها تحسدك لكونك تعيشين سعيدة مع زوجك الشاب الإيرلندي الجميل.

– حسد ! أتحسدني امرأة عجوز لهذا السبب؟

– إنها ساحرة شمطاء أعرفها من أيام بلادنا الأصلية. لقد جاءت إلى هذه البلاد على السفينة نفسها التي جئت بها إلى هنا. عندما كانت في عمر الصبا، وقعت في غرام شاب من رعاة الأبقار في إيرلندا وضاجعته ولكنه رفض الذهاب معها إلى الكنيسة للزواج عندما راح أبوها العجوز يطارده. وهكذا تسللت في عمق الليل إلى إحدى السفن المتجهة إلى أميركا حيث توفي طفلها عند ولادته. بعد ذلك باعت نفسها للشيطان الذي أعطاها القدرة على تنشيف حليب الأبقار والماعز والصبايا المتزوجات في عمر الشباب.

– أذكر أنها نظرت إليّ نظرة غريبة.

– لقد رمتك بالعين الشريرة حينها.

– وكيف يمكنني أن أسترجع حليبي.

– سأخبرك ماذا يجب عليك أن تفعلي. انتظري حتى يصبح القمر بدراً تاماً ثم ارسمي صورة بواسطة خصلة من شعرك الأجعد، وقطعة من ظفرك وحزمة قماش مبللة بماء مقدس. أطلقي على الصورة اسم نيلي لوغان قبل أن تعمّديها بالماء. نيلي لوغان هو اسم هذه الساحرة، ثم دقي ثلاثة دبابيس صدئة فيها. إن هذا الأمر كفيل بإبطال سحرها وسيعود لك الحليب في اليوم التالي متدفقاً مثل نهر شانون. هذا سيكلفك ربع دولار.

دفعت كاتي للقابلة ربع دولار ثم انتظرت حتى أصبح القمر بدراً وضعت لعبة مثلما أوصتها القابلة وأمعنت فيها طعناً ولكن الحليب لم يعد. في الوقت

نفسه مرضت فرانسي نتيجة الرضاعة من (القنينة)، وهكذا دبّ اليأس في كاتي وهرعت إلى سيسي تستشيرها وتخبرها بما قالت الساحرة.

- «لتذهب الساحرة إلى الجحيم» قالت سيسي بسخرية وازدراء... لقد كان جوني هو المسؤول ولا توجد في القصة أية عين أو غيرها.

وهكذا علمت كاتي أنها حامل للمرة الثانية. وعندما نقلت الخبر إلى جوني بدأ الأخير يشعر بالقلق. كان سعيداً في عمله كنادل مغنٍّ. وكان عمله يسير بانتظام. لم يكن يشرب كثيراً بل كان يحضر معظم ما يجنيه من نقود إلى المنزل. ولكنه عندما علم أن هناك طفلاً ثانياً في الطريق، شعر وكأنه قد وقع في فخ. كان ما يزال في العشرين من العمر بينما لم تتعدّ كاتي الثامنة عشرة. أحس بأنهما رغم صغر سنهما قد أصبحا مغلوبين على أمرهما. وهكذا، وبعد أن سمع بالخبر ذهب إلى الحانة وشرب حتى الثمالة.

عادت القابلة في وقت لاحق لترى كيف فعل سحرها. أخبرتها كاتي أن السحر فشل لأنها كانت حاملاً وأن لا لوم عليها. وضعت القابلة ثوبها وراحت تبحث في أحد جيوب تنورتها عن شيء إلى أن خرجت بزجاجة تحتوي على مادة بنية داكنة اللون تبدو وكأنها فاسدة.

قالت لكاتي بالتأكيد لا بأس عليك، إن جرعة جيدة من هذا المحلول لثلاثة أيام صباحاً ومساءً كفيلة بأن تعيد لك حيويتك. هزت كاتي رأسها بالنفي فردت عليها القابلة: هل تخشين مما سيقوله القسيس إذا علم بما تفعلينه؟

- كلا ولكن لا يمكنني أن أقتل أي شيء.

- ليس الأمر قتلاً أجابتها القابلة، أنت لا تقتلين شيئاً تشعرين أنه حي. كما أنك لا تشعرين أنه يتحرك أليس كذلك؟

- كلا.

- إذن هاك الزجاجة، قالت القابلة وهي تضرب بقبضتها على الطاولة وكأنها تشعر بالانتصار، وأردفت: لن يكلفك الأمر إلا دولاراً واحداً.

– شكراً أنا لا أريد أن أفعل ذلك.

– لا تكوني حمقاء. إنك ما تزالين صغيرة ولن تستطيعي أن تنهضي بطفلين كما أن زوجك، رغم جماله إلا أنه لا يعد من الرجال القادرين على الثبات في وظيفة.

– إن زوجي هو شأني وليس شأن أي أحد كما أنني لا أواجه مشكلة مع طفلي.

– لقد أردت فقط أن أساعدك.

– شكراً لك ومع السلامة.

أعادت القابلة الزجاجة إلى جيب تنورتها ونهضت لتغادر المكان وهي توجه حديثها لكاتي: تعرفين عنواني عندما يحين موعد ولادتك. سارت نحو الباب وقبل أن تخرج أعطت كاتي نصيحة متفائلة: إذا واصلت صعود الدرج ونزوله عدة مرات، ربما يحصل معك إجهاض.

ذلك الشتاء، وفي وسط الدفء المخادع لصيف بروكلين، كانت كاتي تجلس على الشرفة الصغيرة عند مدخل البيت وهي تضع طفلتها المريضة على بطنها المنتفخ بانتظار مولودها الثاني. كان الجيران يقفون عندها ليواسوها، بعضهم كان يقول لها:

– لن تستطيع أن تربي هذه الطفلة، إن لونها شاحب. لو أن الرب يأخذها إليه فسيكون من الأفضل، ما فائدة طفل مريض في عائلة فقيرة، يوجد العديد من الأطفال في هذا العالم ولا يوجد مكان للضعفاء منهم.

– «لا تقولوا ذلك» كانت كاتي تجيبهم وهي تحضن طفلتها بشدة. الموت ليس خياراً أفضل! من فينا يرغب بالموت، كلنا نكافح لنحيا.. انظروا إلى هذه الشجرة التي تنمو عبر هذا الحاجز، إنها لا ترى الشمس ولا تروى إلا عندما يهطل المطر كما أن تربتها حامضية. ولكنها شجرة قوية لأن كفاحها من أجل الحياة يجعلها قوية. إن أطفالي سيصبحون أقوياء بالطريقة نفسها.

– آه ينبغي أن يقطع أحد هذه الشجرة البيتية. ردّ أحدهم.

– لو كانت هناك شجرة واحدة مثل هذه في العالم لظن الناس أنها جميلة ... ردت كاتي ولكن لأن هناك الكثير منها فإننا لا نلحظ كم هي جميلة. انظروا إلى هؤلاء الأطفال. أشارت كاتي إلى حشد من الأطفال يلعبون بالمزاريب وقد علت القذارة وجوههم وثيابهم. يمكنكم أن تأخذوا أي واحد منهم وتنظفوه جيداً وتلبسوه ثياباً نظيفة ثم تجلسوه في بيت أنيق جميل وستظنون جميعكم أنه جميل.

– إن أفكارك رائعة يا كاتي ولكن طفلتك مريضة جداً.

– هذه الطفلة ستعيش! ردت كاتي بقسوة. سأجعلها تعيش.

وعاشت فرانسي. شقت طريقها في أول سنة من حياتها بين النشيج والاختناق والغص.

بعد أسبوع من عيد ميلادها الأول، ولد أخ لفرانسي.

عندما جاءها المخاض من جديد لم تكن كاتي تعمل. كان عليها هذه المرة أن تعض على شفتها ولا تصرخ من الألم. ورغم الضعف الذي كانت تعاني منه إلا أنها أثبتت قدرتها وجرأتها.

ولد الطفل الجديد وهو يبكي ويولول بعد ولادة صعبة ومهينة. وعندما حملته كاتي على صدرها شعرت بعطف حامي تجاهه. على الجانب الآخر من السرير كانت الطفلة الأولى تئن في سريرها الصغير. التفتت إليها كاتي ولوهلة انتابها إحساس سريع بالازدراء لهذه الطفلة التي ولدت قبل عام، حين قارنتها بهذا الطفل الجديد الأنيق. لكنها سرعان ما شعرت بالخجل من نفسها. كانت تعلم أن الخطأ ليس خطأ هذه الطفلة الصغيرة. قالت لنفسها: يتوجب عليّ أن أراقب نفسي بحذر. سوف أحب هذا الطفل أكثر من الطفلة ولكني لن أجعلها تشعر بذلك أبداً. إنه لخطأ كبير أن نحب طفلاً أكثر من الآخر ولكنه أمر لا أستطيع مغالبته.

ناشدتها سيسي أن تسمي الطفل جوني ولكن كاتي أصرت أن يكون للطفل اسم مستقل. عندها غضبت سيسي وشتمتها فردّت كاتي بغضب أشد واتهمت سيسي بأنها تحب جوني. هنا أجابتها سيسي بكلمة «ربما» فلم تتمالك كاتي إلا أن تصمت، كانت تخشى إذا توسع النزاع بينهما أن تكتشف أن الأمر حقيقي وأن سيسي واقعة في حب جوني.

أطلقت كاتي على الطفل اسم كورنيليوس تيمناً بإحدى الشخصيات النبيلة التي لعبها أحد الممثلين الأنيقين في إحدى المسرحيات التي شاهدتها سابقاً. ولكن مع نمو الطفل تحول الاسم إلى نيلي كما هو متعارف عليه بلهجة أهل بروكلين.

بدون أي منطق مراوغ أو عواطف معقدة، أصبح الطفل عالم كاتي الشامل وانتقل جوني إلى المركز الثاني فيما تراجعت فرانسي إلى حدود قلب أمها. أحبت كاتي الطفل لأنه كان يبدو ملكاً لها أكثر من جوني وفرانسي. كان نيلي يشبه أباه تماماً وقد أرادت كاتي أن تصنع منه الرجل الذي كان يتوجب على جوني أن يكونه. أرادته أن يأخذ كل الأشياء الجيدة في جوني وأن تشجع ذلك بينما تطرد جميع الأشياء السيئة التي يمكن أن يعطيها جوني للولد فيما هو ينمو. أرادته أن يكبر وأن تكون فخورة به وأن يعتني بها طوال حياتها وأن يكون الشخص الذي ترى الدنيا من خلاله. بالنسبة لفرانسي وجوني، سوف تسير أمورهما على ما يرام ولكنها لن تأخذ أية مجازفة مع نيلي وستعمل على أن يتدبر أموره بشكل جيد.

تدريجياً وفيما الطفلان يكبران فقدت كاتي جميع ما تملكه من حنان وتحولت لتمتلك ما يطلق عليه الناس «شخصية»، أصبحت إنسانة قادرة صلبة وبعيدة النظر. أحبت جوني كثيراً ولكن الهيام الوحشي الذي كانت تحس به تجاهه في السابق ذوى ولم يعد موجوداً. أحبت طفلتها الصغيرة لأنها كانت تشعر بالأسف عليها. كان شعورها نحوها يتميز بالشفقة والالتزام أكثر منه بالحب.

أحس جوني ومعه فرانسي بحدوث هذه التغييرات في كاتي، وفيما كان الولد يكبر ويزداد قوة وجمالاً، كان جوني يضعف أكثر وأكثر ويتراجع إلى

الحضيض. أحست فرانسي بالشعور الذي تكنه أمها تجاهها لـذلك كـبرت وهـي تحمل في قلبها قسوة تجاهها، إلا أنه وعلى النقيض مما هـو متوقـع، قرَّبـت هـذه القسوة بينهما لأنها جعلتهما أكثر تشابهاً.

مع وصول نيلي إلى عمر سنة، توقفت كاتي عن الاعتماد عـلى جـوني. كـان جوني قد أصبح مدمناً على الكحول وأصـبح يعمـل فقـط عنـدما تعـرض عليـه وظيفة ليلة واحدة. كان يحضر ما يأخذه من راتـب إلى البيـت ولكنـه كـان يبقـي الإكراميات لشراء الكحول. كانت الحياة بالنسبة لجوني تسير بـسرعة فقـد وجـد نفسه مع زوجة وطفلين حتى قبل أن يصبح في عمـر يؤهلـه للتـصويت. انتهـت حياته قبل أن يحظى بفرصة ليبدأها. كان مصيره محتوماً وكان يعرف ذلك أكثر مما يعرف غيره.

واجهت كاتي الصعوبات نفسها التي واجهها جوني. كانت تـصغر جـوني بسنتين وفي عمر التاسعة عشرة كان يمكن أن يقال أيضاً إن مـصيرها قـد حـسم. فقد انتهت الحياة بالنسبة لها قبل أن تبدأ. ولكن التشابه بينهما انتهى هنا. فقد كـان جوني يعلم أن مصيره محتوم وقد قبل بذلك ولكـن كـاتي لم تقبـل وبـدأت حيـاة جديدة منذ اللحظة التي انتهت فيها حياتها الأولى.

بدَّلت حنانها بقدرتها، وأحلامها بواقعها القاسي وأصـبحت تمتلـك رغبـة شرسة بالبقاء مما حوّلها إلى مقاتلة. فيما كان جوني تواقاً إلى الخلـود مـا جعـل منـه حالماً بلا فائدة وكان هذا هو الفرق الكبير بينهما رغم الحب الذي جمعهما معاً.

11

احتفل جوني بوصوله إلى سن التصويت عبر سكرة دامت ثلاثة أيام. وعندما خرج منها أقفلت عليه كاتي باب غرفة النوم حتى لا يتمكن من الوصول إلى مزيد من الكحول. ولكنه كان يبكي ويناشدها تباعاً أن تأتيه ببعض منه. قال لها إنه يعاني فردَّت عليه بأن هذا مؤشر جيد لأن المعاناة ستجعله أكثر صلابة على مواجهة السكر كما أنها ستعلمه درساً كي يتوقف عن تعاطي الخمور. ولكن جوني لم يصبح صلباً بل تهاوى إلى درجة البكاء والعويل.

قرع الجيران باب منزلها طالبين منها أن تفعل شيئاً بالنسبة لجوني المسكين ولكن كاتي ردت عليهم ببرود قاسٍ بأن لا يتدخلوا في شؤون لا تخصهم.. كانت تعلم أنها رغم هذا التحدي، سوف تضطر إلى الانتقال لمسكن آخر مع نهاية الشهر إذ لا يمكنها البقاء في هذه الضاحية السكنية بعد العار الذي ألحقه جوني بنفسه وبعائلته.

عند العصر، شعرت كاتي بأن صيحات جوني المعذب ستدفعها إلى فقدان أعصابها، لذلك وضعت الطفلين في عربة الأطفال وسارعت تستنجد بسيسي في المصنع. هناك أقنعت المشرف المسكين بأن ينادي سيسي بعيداً عن الآلة التي تعمل عليها. أخبرت سيسي بما حصل ووعدتها الأخيرة بأن تأتي بعد انتهاء العمل لتصلح الأمور.

استشارت سيسي أحد الأصدقاء بخصوص جوني. وأعطاها هذا الصديق المحترم تعليمات قامت إثرها بشراء ربعية من الويسكي الجيد خبأتها بين نهديها ثم زررت ثوبها وأحكمت إغلاقه. بعدها ذهبت إلى بيت كاتي وطلبت منها أن تنفرد بجوني لعلها تخرجه من تلك الأزمة. قامت كاتي بإغلاق غرفة النوم على جوني وسيسي وذهبت إلى المطبخ تنتظر عند المائدة وقد وضعت رأسها على ذراعيها.

اختلط الأمر في البداية على جوني عندما شاهد سيسي ولكنه عاد وتمالك نفسه وأمسك ذراعها وهو يصيح: سيسي أنت صديقتي أنت أختي، بحق الله أعطني جرعة من الخمر !

- تريث يا جوني .. أجابت سيسي بصوت عذب مريح، «لدي هنا بعض الخمر لك». فكّت سيسي أزرار الثوب حول خصرها. ظهر الكشكش الأبيض تحت الثوب معقوداً بربطة حمراء. امتلأت الغرفة برائحة عطر قوي تستعمله.

وقف جوني يراقبها بذهول محدقاً فيما يحصل أمامه. أخذت سيسي تخلع الحلقة التي تربط المشد الداخلي حول ردفيها ثم أرخت المشد. هنا تذكر جوني سمعتها السابقة فأخذ يناشدها وهو لا يفهم ما يجري، «لا يا سيسي أرجوك» قالها وهو يئن.

لا تكن أحمق يا جوني. هناك وقت ومكان لكل شيء وهذا ليس الوقت ولا المكان لما تفكر به ... ثم سحبت الزجاجة فوراً من بين نهديها.

تناول جوني الزجاجة بسرعة. كانت دافئة كدفء جسدها. تركته سيسي يجرع منها طويلاً ثم اختطفتها من بين أصابع يديه. هدأ روع جوني قليلاً بعد تلك الجرعة وأخذت عيناه تغمضان من النعاس. بعدها راح يرجو سيسي أن تبقى إلى جانبه. أومأت له بالإيجاب ثم وبدون حتى أن تفكر بإعادة تزرير ثوبها استلقت بجانبه على السرير ووضعت ذراعها تحت كتفيه. أرخى جوني خدَّه على صدرها الذي كان يعبق بالعطر ونام. كانت الدموع تنهمر من عينيه المغمضتين بدفء أكثر من الصدر الذي تغفوان عليه.

ظلت سيسي مستيقظة تحدق في الظلام وهي تلف ذراعيها حول جوني. شعرت نحوه تماماً مثلما تشعر نحو أطفالها الذين لو كتبت لهم الحياة لتمتعوا بدفء محبتها. أخذت تجر يديها على شعره الأجدل ثم تمسحهما برفق على وجنتيه. وعندما كان يئن في نومه كانت تواسيه بكلمات حنونة ربما كانت لتوجهها إلى أطفالها. حاولت أن تحرك ذراعها بعد أن شعرت بتشنجها ولكنه استيقظ للحظة وتثبت بذراعها متوسلاً أن تبقى إلى جانبه حتى إنه عندما نطق ناداها يا أمي. ظلت سيسي، كلما استيقظ جوني مرتعداً تسقيه جرعة من الويسكي. عند الصباح استيقظ تماماً وشعر بصفاء في ذهنه رغم الصداع الذي كان يلازمه تحرك بعيداً عنها وراح يئن.

- «عد إلى أحضان ماما» قالت سيسي بصوت ناعم مرتعش. ثم فتحت ذراعيها على وسعهما. مرة أخرى انسلّ جوني بين ذراعيها وأرخى وجنته على صدرها العارم وراح يبكي ويتنهد بهدوء. كان في تنهده ينفث مخاوفه وهمومه وحيرته مما يجري في هذا العالم. تركته سيسي يتحدث على رسله ويبكي واحتضنته كما كانت ستحتضن أطفالها لو كان لها أطفال. أحياناً كانت تبكي معه. عندما انتهى من الحديث، أسقته ما تبقى من زجاجة الويسكي وتركته إثرها يغط في نوم عميق مرهق.

ظلت مستلقية بهدوء حتى لا يشعر أنها تنسحب من جانبه. عند الفجر تراخت قبضته على ذراعها وعادت السكينة تغمر وجهه كأنه ولد صغير. وضعت سيسي رأسه على الوسادة ونزعت عنه ثيابه بمهارة ثم غطته ورمت زجاجة الويسكي في عمود التهوية. كانت تتصور أن عدم معرفة كاتي بالأمر سيكون أفضل من حيث إنه لن يتسبب لها بضيق أو قلق. ربطت أزرار ثوبها وعدّلت وضعه حول خصرها دون أن ترتبه ثم أغلقت باب غرفة النوم بهدوء ودلفت إلى الخارج.

كانت سيسي تعاني من نقطتي ضعف. الأولى أنها عاشقة رائعة والثانية أنها أم رائعة أيضاً. كانت تملك فائضاً من الحنان والعطف لدرجة قد تدفعها لأن تهب

ما تملكه من مال أو وقت أو ثياب أو عطف أو تفهم أو صداقة أو رفقة أو حب لمن يحتاجها في ذلك. كانت أماً لكل من تجده في طريقها. ربما كانت تحب الرجال ولكنها تحب النساء أيضاً وتحب العجائز والأطفال. أما لماذا كانت تفعل ذلك؟؟ فالجواب هو أنها كانت تريد أن تجعل الجميع سعداء. حاولت مرة أن تغوي القسيس الطيب الذي كانت تدلي له باعترافاتها في الكنيسة، فقط لأنها أشفقت عليه كونه محروماً من أروع متعة على الأرض وهي ممارسة الجنس لأن فرائض الدين أرغمته على الامتناع عن الزواج. كانت تشفق حتى على كلاب الشوارع وتبكي أحياناً عند رؤية القطط الجياع وهي تحوم حول القمامة تبحث عن طعام أو القطط الحوامل وهي تدور حول زوايا شوارع بروكلين باحثة عن ثقوب في الجدران تضع فيها مواليدها. أحبت كاتي عصافير الدوري الملوثة بسخام المصانع وكانت تنظر بعطف حتى إلى الأعشاب التي تنمو في المناطق الخالية داخل المدينة. كانت تعتقد أنها جميلة وتجمع زهور البرسيم البيضاء من تلك البقع لإيمانها بأنها أجمل أزهار خلقها ربنا على وجه الأرض. في إحدى المرات عثرت على فأر في غرفتها وفي الليلة التالية بنت له وكراً من علبة صغيرة ووضعت له فيها بعض قطع الجبن. نعم كانت سيسي تصغي لشكاوى الجميع وتتحسس همومهم دون أن تجد أحداً يصغي لمشاكلها أو يتحسس همّها. ولكن هذا لم يشكل عائقاً بالنسبة لها فقد كانت دائماً إنسانة تعطي ولا تأخذ.

دخلت سيسي إلى المطبخ حيث ظلت كاتي جالسة طوال الليل. وعندما شاهدت كاتي ثوبها المتهدل حدقت فيها بعينين متورمتين شكاكتين وقالت لها بصوت ينم عن كرامة جريحة:

- أنا لست بناسية أنك أختي وآمل أن تكوني قد تذكرت ذلك أيضاً.

- لا تكوني حمقاء، ردّت سيسي وقد فهمت ما الذي ترمي إليه. مع ذلك ابتسمت ابتسامة عميقة في وجه كاتي بحيث شعرت الأخيرة باطمئنان مفاجئ.

- كيف حال جوني؟ قالت كاتي.

- سيكون بخير عندما يستيقظ ولكن بحق الله لا تضايقيه عندما ينهض من النوم يا كاتي. لا تضايقيه أبداً.

- ولكن على أحد أن يخبره...

قاطعتها سيسي وهي تقول: إذا سمعت أنك ضايقته مرة أخرى، فإني لن أعود إليك ... أقسم على ذلك رغم كوني أختك.

كانت كاتي تعلم أن سيسي جادة في حديثها وقد أفزعها ذلك فأجابت وهي تمتم:

- لن أفعل ذلك.. ليس هذه المرة.

- الآن أصبحت تتحدثين كامرأة ناضجة. قالت سيسي وهي تقبّل وجنتها. كانت تشعر بالشفقة على كاتي وكذلك على جوني.

انفجرت كاتي بالبكاء. كانت تكره نفسها عندما تبكي ولكن لم يكن باستطاعتها أن تقاوم ذلك أو توقف الأصوات المزعجة التي تصدرها عند البكاء وكان على سيسي أن تصغي إليها وأن تخوض معها التجربة نفسها التي خاضتها سابقاً مع جوني ولكن هذه المرة من وجهة نظر كاتي.

إلا أن الطريقة التي عالجت فيها كاتي كانت تختلف عن الطريقة التي عالجت فيها جوني. كان جوني يحتاج إلى عاطفة أمومة لذلك ظلت رقيقة في التعامل معه ولكن سيسي كان تدرك تماماً القسوة والصلابة اللتين تغلفان طبع كاتي، لذلك تصلبت أمامها وهي تصغي إليها وهي تقول:

- والآن أنت تعرفين كل شيء. إن جوني سكير.

- كل إنسان له عيوب من نوع أو آخر. ردّت سيسي ثم تابعت قائلة بصدق وبجهل تام: أتعلمين يا كاتي أن بعض الناس يتحدثون عني بقولهم إنني امرأة ساقطة؟ هل يمكن أن تتصوري ذلك؟ أنا أعترف أني أدخن بين الفينة والأخرى ولكن هذا لا يجعل مني ساقطة.

- حسناً يا سيسي ولكن طريقتك في التعامل مع الرجال تجعل الناس..

- كاتي لا تضايقيني. إن لكل منا طباعه وعلينا أن نعيش وفقاً لهذه الطباع. إن لديك رجلاً طيباً يا كاتي.

- ولكنه سكير.

- وسيبقى كذلك إلى أن يموت. هذه هي طباعه. إنه يسكر وعليك أن تتقبلي ذلك مع باقي صفاته.

- أي صفات تلك؟ أتعنين أنه لا يعمل بل يسهر طوال الليل مع أصدقائه.. أو الحمقى الذين يسميهم أصدقاءه.

- لقد تزوجته. هناك شيء. فهو قد سرق قلبك. حافظي على هذا الشيء وانسي ما تبقى.

- أحياناً أسائل نفسي ولا أعرف لماذا تزوجته.

- أنت تكذبين! إنك تعلمين تماماً لماذا تزوجته! كنت تتمنين أن تنامي معه ولكن تدينك منعك من ذلك قبل أن يصبح الأمر حلالاً عبر زواج كنسي.

- كيف تقولين هذا. إن الأمر كله لم يتعدّ رغبتي في انتزاعه من امرأة أخرى.

- كلا كان النوم معه هو الأساس. الأمر دائماً هكذا. وحين يكون هذا الأمر جيداً يصبح الزواج جيداً. وإذا لم يكن كذلك فالزواج سيء.

- كلا هناك اعتبارات أخرى.

- ما هي هذه الاعتبارات؟ حسناً ! ربما يكون هناك أشياء أخرى وهذه الأشياء تضاف إلى الأسباب الحسنة.

- إنك مخطئة، هذا الأمر قد يكون مهماً بالنسبة لك ولكن..

- إنه مهم لكل إنسان أو أنه يتوجب أن يكون كذلك وهذا هو سبب السعادة في الزواج.

– آه أعترف أنني أعجبت بطريقة رقصه وغنائه والطريقة التي كان يظهر بها.

– إنك ترددين نفس ما أقوله ولكن بكلماتك..

أطرقت كاتي تفكر: كيف يمكن أن تفوز في حوار مع سيسي. إنها تفصِّل الدنيا حسب رؤيتها لها. ربما تكون طريقتها جيدة. أنا لا أعلم ولكنها أختي والناس يتحدثون عنها على أنها فتاة سيئة وهذا أمر لا مفر منه. عندما تموت ستبقى روحها تحوم في المطهر للأبد. لطالما حدثتها بذلك ولكنها كانت تجيب أنها لن تحوم وحدها. إذا ماتت سيسي قبلي فسأضطر لأن أقيم لها صلوات في الكنيسة من أجل راحة روحها. ربما بعد ذلك يخرجونها من المطهر لأنها في حقيقة الأمر إنسانة طيبة تخدم جميع من يحالفه الحظ ويمر في طريقها، رغم كل ما يقال عنها بأنها امرأة سيئة. لا شك في أن الله سيأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار. فجأة انحنت كاتي نحو أختها وقبَّلت خديها. دهشت سيسي لأنها لم تكن تعرف ماذا يدور في رأس كاتي.

– ربما تكونين على حق يا سيسي وربما على خطأ ولكنني أفهم الأمر كالتالي: بعيداً عن مشكلة سكره ومعاقرته الخمر، إلا أنني أحب كل شيء آخر في جوني وسوف أحاول أن أكون طيبة معه وأن أتجاهل...

قالت كاتي ذلك وتوقفت عند الكلمة الأخيرة. في داخل نفسها كانت تعرف تماماً أنها ليست من النوع الذي يتجاهل شيئاً.

في تلك الأثناء، ظلت فرانسي الصغيرة مستيقظة داخل سلة الغسيل القريبة من المطبخ. كانت مستلقية تمصّ إبهامها وتستمع إلى الحوار الدائر حولها. لكنها لم تفهم شيئاً منه فقد كانت ما تزال في السنة الثانية من عمرها.

12

شعرت كاتي بالخجل من بقائها في تلك الضاحية السكنية بعد نزوة السكر التي وقع فيها جوني. ورغم أن عدداً لا بأس به من الأزواج بين جيرانها لم يكونوا أحسن حالاً من جوني، إلا أن هذا لم يكن مقياساً لدى كاتي. فلطالما كانت تريد أن يكون آل نولان أفضل من الجميع. كذلك كانت هناك مسألة النقود والتي لا تعد مسألة بالنسبة لزوجين لا يملكان من النقود إلا النزر اليسير وهاهما الآن أصبحا والدين لطفل وطفلة. أخذت كاتي تبحث عن مكان يمكنها فيه أن تعمل لتحصيل إيجار المنزل. على الأقل ليكون هناك سقف فوق رؤوسهم.

عثرت كاتي على منزل يمكنهم أن يستأجروه مجاناً مقابل إبقائه نظيفاً. أقسم جوني أنه لن يرضى أن تكون زوجته عاملة تنظيفات ولكن كاتي ردت عليه بصلابة أنه لا يوجد خيار، فإما أن تكون عاملة تنظيفات وإما أن يجدا منزلاً لهما لأن الأمر يزداد صعوبة شهراً بعد شهر بالنسبة لتحصيل نقود الإيجار. أخيراً أذعن جوني بعد أن وعدها بأن يقوم هو بأعمال التنظيف إلى أن يتمكن من الحصول على عمل منتظم يساعدهما على الانتقال إلى مكان أفضل للسكن.

جمعت كاتي أثاثها اليسير: سرير مزدوج، وسرير الطفلين بالإضافة إلى عربة أطفال صغيرة في حالة رثة، بذلة استقبال خضراء اللون ، سجادة عليها

رسوم لورود نهدية، زوجان من الستائر، نبتة من المطاط، ونبتة إبرة الراعي ذات الزهرة الحمراء، وعصفورا كناري داخل قفص مذهب، ألبوم صور من القماش، طاولة مطبخ مع بضعة كراسٍ، صندوق يحتوي على بعض الأواني والحِلل والمقلايات، صليب مذهب مع صندوق موسيقي يحتوي على لحن صلاة السلام المريمي، صليب خشبي بسيط أهدته لها أمها، سلة غسيل مليئة بالثياب، لفة أغطية سرير، مجموعة أشرطة موسيقية لجوني وكتابان هما الإنجيل المقدس والأعمال الكاملة لشيكسبير.

كانت البضاعة التي حملها سائق عربة الثلج قليلة جداً يمكن لحصان واحد تعس أن يجرها إضافة إلى آل نولان الأربعة.

بعد أن أخلت كاتي البيت من كل شيء قامت بكسر حصّالة الصفيح وإخراج النقود منها. كان فيها ثلاثة دولارات وثمانون سنتاً. كانت تعلم أن عليها أن تدفع لسائق عربة النقل دولاراً واحداً منها ثمناً لنقلهم، وكم آلمها ذلك.

فيما كان جوني منهمكاً بمساعدة سائق العربة في إنزال الأثاث، قامت كاتي بتثبيت حصّالة الصفيح أو بنكها المنزلي داخل إحدى الخزانات. أعادت وضع دولارين وثمانين سنتاً فيها ثم أضافت عشرة سنتات أخرى من بين ما تبقى في محفظتها المهترئة. كانت العشرة سنتات التي لم ترغب بدفعها إلى سائق عربة بيع الثلج.

كانت العادة في بلدة وليامزبيرغ أن يقوم سكان المنزل الجديد بتقديم كأس من الجعة إلى سائق العربة الذي نقل لهم أمتعتهم وأثاثهم ولكن كاتي قالت لنفسها: إننا لن نرى وجهه مرة أخرى - يكفيه دولار واحد - فهو مبلغ قد يحتاج إلى بيع كمية كبيرة من الثلج لتحصيله.

بينما كانت كاتي منهمكة بتركيب الستائر، جاءت ماري روميلي إلى المنزل وقامت برش الغرف بالماء المقدس من أجل طرد الشياطين التي تختبئ في زواياها. من يدري ربما كان هناك بروتستانت يعيشون هنا أو ربما مات كاثوليكي في ذلك

المنزل دون أن يحظى بغفران كنسي. إن الماء المقدس سيطهّر المنزل مرة أخرى ويفتح الباب أمام الله لكي يدخله إذا شاء ذلك.

غمر الفرح وجه الطفلة فرانسي وهي تشاهد انعكاس أشعة الشمس عبر كأس الماء المقدس بيد جدتها، وقد شكل قوس قزح ضخماً على الحائط المقابل. ابتسمت ماري للطفلة وأخذت تهز قوس القزح فيما مدت فرانسي يدها تريد أن تتناوله. سمحت لها ماري بحمل الكأس وذهبت لتساعد كاتي ولكن قوس القزح اختفى، وظنت فرانسي أنه داخل الزجاجة لذلك قامت بسكب زجاجة الماء المقدس على حضنها لظنها أن قوس القزح سيخرج منها. فيما بعد لاحظت كاتي أن الطفلة مبللة فوبختها بهدوء وهي تقول: لقد أصبحت كبيرة حتى تبللي نفسك. ولكن ماري تدخلت لتدافع عن الطفلة وتشرح قصة الزجاجة.

– آه لقد باركت الطفلة نفسها بالماء المقدس. إن هذا أمر رائع.

ضحكت كاتي وكذلك فرانسي التي شعرت أن أمها لم تعد غاضبة منها. وهنا ابتسم الطفل نيلي كاشفاً عن ثلاثة أسنان جديدة. أشرق وجه ماري بابتسامة كبيرة وقالت إنه من باب الحظ أن تبدأ الحياة في البيت الجديد بابتسامات مثل هذه.

استقر الجميع عند موعد العشاء وبقي جوني مع الأطفال فيما ذهبت كاتي إلى البقالة المجاورة لتفتح حساباً بالدَّيْن. أخبرت البقال أنها انتقلت حديثاً إلى هذه الضاحية وناشدته أن يثق بها ويبيعها بعض المأكولات حتى يوم السبت عندما تقبض راتبها. أطاع البقال وسمح لها بتعبئة كيس من المشتريات ثم أعطاها دفتراً صغيراً سجل فيه قيمة الدَّيْن وأخبرها أن تحضر الدفتر معها كلما أرادت أن تدفع أو أن تستدين. هكذا اختتمت مراسيم الانتقال إلى البيت الجديد وضمنت عائلة كاتي طعامها حتى ورود مبلغ جديد من النقود.

بعد العشاء، جلست كاتي تقرأ للأطفال قبل النوم. قرأت صفحة من كتاب شيكسبير وبعض سور الإنجيل. كان هذا كل ما استطاعت قراءته دون أن

تفهم هي أو أن يفهم الأطفال شيئاً مما قرأت. إلا أنها أحست بدوار خلال القراءة وبالكاد استطاعت أن تنهي قراءة الصفحتين. كان الطفلان قد ناما، غطتهما كاتي بهدوء وذهبت لتنام إلى جانب جوني. كانت الساعة ما تزال الثامنة ولكن الجميع كان متعباً.

نام آل نولان في منزلها الجديد بشارع لوريمر المحسوب ضمن حدود وليامزبيرغ ولكنه قريب من بلدة غرين بوينت.

13

كان شارع لوريمر يبدو أكثر رقِيّاً من شارع بوغارت، ويتكون سكانه مـن سعاة البريد ورجال الإطفاء وبعض أصحاب الدكاكين الذين يملكون من المـال ما يكفي لأن يجنّبهم السكن في غرف خلف دكاكينهم.

كان في شقة آل نولان الجديدة غرفة حمام. لم تستطع فرانسـي أن تخفـي دهشتها لدى رؤيتها لحوض الاستحمام الخشبي المستطيل خاصـة عنـدما يمتلـئ بالماء. كان هذا الحوض أكبر مساحة مائية تقع عينها عليهـا منـذ ولادتها وحتـى ذلك الوقت. ربما لأن حوض الحمام يبدو في عيون الأطفال الصغار وكأنه محيط.

أحب الجميع منزلهم الجديد. وقد استطاع جـوني وكـاتي إبقـاء قبـو المنـزل وردهاته وسطحه وحتى الممر الجانبي المفضي إليه في وضـع نظيـف جـداً مقابـل استئجارهم له. لم يكن هناك عمود هواء للتهوية في المنزل. كانت هناك نافذة لكل غرفة نوم وثلاث نوافذ لكل من المطـبخ والغرفـة الأماميـة. مـرّ الخريـف الأول الذي أمضته العائلة في المنزل بسعادة فقد ظلت أشعة الشمس تملأ أروقـة المنـزل طوال النهار. كذلك كان الشتاء دافئاً وقد صادف الحظ جـوني بـأن وجـد عمـلاً

شبه منتظم. لم يكن يكثر من شرب الخمر كما لم يكن لدى العائلة ما يكفي من النقود لشراء الفحم.

في الصيف كان الطفلان يقضيان معظم يومهما في الشرفة الصغيرة خارج باب المنزل. لم يكن في المنزل أطفال سواهما لذلك كان في الشرفة متسع لهما. كانت فرانسي تقترب من سن الرابعة فيما كان نيلي ما يزال في الثالثة من العمر. لذلك كانت هي مسؤولة عنه. كانت تجلس لساعات طويلة على الشرفة وقد عقدت ذراعيها حول رجليها النحيلتين وشعرها البني اللون يتطاير مع كل نسمة تهب محملة برائحة ملوحة البحر. كان البحر قريباً رغم أنها لم تكن قد رأته من قبل. كانت فرانسي تجلس وتهز جسمها إلى الأمام وإلى الخلف، وهي تراقب نيلي يصعد الأدراج وينزل عدة مرات. كانت تتساءل عن أشياء كثيرة مثل ما هو السبب وراء هبوب الريح؛ وما هو العشب؟ ولماذا خُلق نيلي صبياً ولم يُخلق بنتاً مثلها.

أحياناً كانت فرانسي ونيلي يجلسان وهما يحدقان ببعضهما البعض بعيون ثابتة. كانت عيناه تشبه عينيها في عمقهما وشكلهما أما في اللون فقد حظي نيلي بعينين زرقاوين صافيتين فيما كانت عينا فرانسي تميلان إلى اللون الأسود الفاتح. كان الحديث بين الطفلين متواصلاً رغم أن نيلي لم يكن يتحدث كثيراً فيما ظلت فرانسي تتحدث بشكل متواصل لدرجة أن نيلي كان ينام أحياناً وهو يستمع إليها بينما هو جالس باستقامة على الدرجة وقد اتكأ رأسه على الحاجز الحديدي.

في ذلك الصيف تعلمت فرانسي درز الثياب. اشترت لها كاتي قطعاً مربعة من القماش مقابل سنت واحد. كانت القطعة بحجم منديل نسائي وقد رسمت عليها صورة كلب جالس، يتدلى لسانه إلى الخارج. مقابل سنت آخر اشترت كاتي بكرة صغيرة من تطريز قطني أحمر اللون كما دفعت سنتين آخرين مقابل طوقين صغيرين. عملت جدة فرانسي على تعليمها طريقة الدرز حتى أصبحت خبيرة بذلك. كانت النسوة المارات يتوقفن وينظرن بإعجاب وشفقة إلى الطفلة الصغيرة وهي تعمل وقد بدا وكأن خطاً عميقاً أصبح يظهر على الطرف الداخلي لحاجبها الأيمن. كانت تقوم بدفع الإبرة داخل وخارج قطع الثياب المشدودة فيما

نيلي ينحني فوقها ويراقب بدهشة تلك القطعة المعدنية الفضية وهي تختفي كالسحر ثم تعود لتظهر مرة أخرى من خلال قطعة القماش. أعطتها سيسي قطعة قماش صغيرة بلون الفراولة كي تنظف بها الإبرة. وعندما كانت تشعر أن نيلي قد أخذ يتململ، تعطيه شوطاً على الإبرة ليدخلها عبر قماشة للتنظيف. كان عليها أن توصل مائة قطعة من هذه المربعات أو أكثر ثم تدرزها معاً لتصنع منها ملاءة للسرير. كانت فرانسي قد سمعت أن بعض السيدات استطعن أن يفعلن ذلك وكان هذا طموحها الأكبر. ولكن على الرغم من أنها عملت بشكل متقطع على درز القطع طوال الصيف إلا أنها مع حلول الخريف لم تستطع أن تنهي إلا نصف العمل فقط لذلك كان على ملاءة السرير أن تنتظر حتى موعد آخر في المستقبل.

مرت فصول السنة الأربعة وفرانسي ونيلي يكبران فيما كاتي تعمل بجد وجوني يعمل بشكل أقل ويسكر أكثر وأكثر. مع مرور كل فصل استمرت كاتي بالقراءة. كانت تقفز عن إحدى الصفحات أحياناً عندما تشعر بالتعب ليلاً ولكنها في معظم الأوقات ظلت قارئة ملتزمة. وصلت الآن إلى مسرحية «يوليوس قيصر». وكانت كلما وصلت إلى كلمة انتباه التي تحدد اتجاه المسرحية تظن أن الأمر له علاقة بسيارات الإطفاء وتبدأ بتقليد صوت الإطفائية. كان ذلك يسر الطفلين ويعتبرانه شيئاً رائعاً.

أخذت قطع النقود الصغيرة تتراكم في حصّالة الصفيح ولكن وفي إحدى المرات اضطرت العائلة إلى فتحها وإخراج دولارين منها لدفع ثمن دواء لفرانسي حين وقعت على ركبتها فوق مسمار يعلوه الصدأ. إلا أن الحصّالة لم تسلم من الفتح عشرات المرات كلما دعت الحاجة لسحب أجرة سيارة لجوني كي يصل إلى عمله ولكن القاعدة المتبعة كانت أن يضع جوني عشرة سنتات مقابل ذلك من نقود الإكراميات التي يحصل عليها وهكذا كانت الحصّالة تستعيد نقودها وتحقق أرباحاً.

في الأيام الدافئة كانت فرانسي تلعب وحدها في الشوارع أو على شرفة المنزل. وكم كانت تتوق إلى وجود أصدقاء تلعب معهم ولكنها لم تكن تعرف

كيف تقيم صداقات مع الفتيات الأخريات اللواتي كنّ يتجنبنها لأنها كانت تتكلم بطريقة مضحكة. وكان السبب في ذلك تلك القراءات التي كانت أمها تقرؤها لها من كتب شيكسبير فقد تعلمت فرانسي الكلام من تلك الكتب وكانت غالباً ما تدخل في نزاعات مع الفتيات الأخريات حول استخدامها لتلك الألفاظ الغريبة عنهن. إحدى الفتيات قالت لها بعد أن وبختها على استعمالها كلمات غريبة:

- إنك تتكلمين كالحمقى.

- أنا لا أتكلم كالحمقى. أنا أتكلم كما يتكلم الله، أجابتها فرنسي.

- سوف تموتين إذا سمعك أحد تقولين هذا.

- كلا، قالت فرانسي.

- ألا يوجد أحد في منزلك لينبهك؟

- نعم يوجد.

- إذن لماذا تتكلمين هكذا؟

- إن أمي تقرأ لي هذه الأشياء. أجابت فرانسي.

- ألا يوجد أحد في غرفة أمك.

- كلا أمي ليست قذرة مثل أمك ... لم تستطع فرانسي أن تجيب إلا بهذه الطريقة. إلا أن الفتاة التي كانت قد اعتادت على هذا الجواب لم تناقشها في الموضوع بل ردت عليها بذكاء: حسناً أنا أفضّل أن تكون لي أم قذرة على أم مجنونة كما أفضل أن لا يكون لي أب على أن أحظى بأب سكير.

- قذرة قذرة أنت قذرة. أجابت فرانسي بعصبية.

- مجنونة مجنونة أنت مجنونة. قالت الفتاة.

عادت فرانسي لتنعتها بالقذرة، كانت تبكي أمام عجزها عن إيجاد كلمات أخرى. انسحبت الفتاة وهي تقفز وجدائل شعرها تلوح تحت الشمس. كانت تغني:

إن العصي والحجارة قد تكسر عظامي

ولكن الأسماء لن تؤذيني

عندما أموت سوف تبكين

على كل الأسماء التي كنت بها تنادينني.

وقد بكت فرانسي فعلاً، ليس بسبب الأسماء التي كانت تنعت بها الفتاة ولكن لأنها كانت تشعر بالوحدة ولأن أحداً من الأطفال لا يرغب باللعب معها. فالأطفال الأشقياء يجدونها هادئة أكثر من اللزوم بينما يتجنّبها الأطفال المهذبون. في داخل نفسها كانت فرانسي تشعر أن هذا الخطأ ليس بسببها فقط، بل إن الأمر له علاقة من جانب أو آخر بالخالة سيسي وبالطريقة التي كان رجال الحي ينظرون إليها عندما تزور منزلهم. وما أكثر زياراتها. كذلك كان الأمر يتعلق أيضاً بالطريقة التي يسير بها والدها مترنحاً على جوانب الشارع وهو في طريق عودته إلى المنزل، وقد يرتبط الأمر أيضاً بالطريقة التي كانت النسوة في الحي يطرحن عليها الأسئلة حول أمها وأبيها وخالتها سيسي. ولكن أسئلتهن المتملقة والمرتجلة لم تكن لتخدع فرانسي. ألم تحذرها أمها قائلة: إياك أن يخدعك الجيران.

لذلك كانت فرانسي خلال أيام الصيف الحارة تجلس وحيدة على شرفة المنزل وتتظاهر بازدراء الأطفال الآخرين الذين يلعبون على الرصيف. كانت فرانسي تلعب مع رفقاء وهميين تصنعهم في خيالها وتؤمن بأنهم أفضل من الأطفال الحقيقيين، ولكن قلبها كان يخفق على إيقاع تلك الأنشودة الحزينة المثيرة للمشاعر والتي كان الأطفال يرددونها وهم يدورون في حلقة وأيديهم متشابكة.

أيتها الزهرة البرية
التي تنمو عالية فوق
لما كنا جميعاً سيدات صغيرات
ومن المؤكد أننا معرضات للموت
ما عدا ليزي وينر (إحدى الفتيات)
أجمل زهرة في الكون
لذلك اختبئي! اختبئي خجلاً
وأديري ظهرك واذكري اسم حبيبك.

كانت الفتيات بعد هذه الأغنية يتوقفن عن الدوران بانتظار أن تقوم الفتاة المختارة أخيراً وبعد فترة من التملق بذكر اسم أحد الشبان. كانت فرانسي تسائل نفسها أي اسم ستذكره لو أتيحت لها الفرصة أن تلعب هذه اللعبة. هل سيضحكن عليها لو ذكرت اسم جوني نولان.

تهتف الفتيات عندما تذكر ليزي اسم الشاب ويعدن إلى شبك الأيدي والدوران ولكن الأغنية هذه المرة تكون موجهة إلى الشباب.

هيرمي باشمير
هو شاب لطيف
يقرع الباب
وقبعته في يده
تنزل الفتاة
مرتدية الحرير
غداً غداً
سيبدأ العرس

تتوقف الفتيات ويصفقن بأيديهن بفرح ثم فجأة وبدون أي دافع يتغير مزاج اللعبة وتأخذ الفتيات بالدوران بشكل أبطأ وأبطأ ورؤوسهن مخفضة وهن ينشدن:

أمي يا أمي أنا مريضة

خذيني إلى الطبيب

بسرعة، بسرعة، بسرعة

يا دكتور هل سأموت؟

نعم يا عزيزتي

شيئاً فشيئاً

كم من عربة سيكون لي

ما يكفي لك ولعائلتك أيضاً

في الأحياء الأخرى، كان الأطفال يلعبون اللعبة نفسها ولكن بكلمات مختلفة. لا يعرف أحد من أين جاءت كلمات هذه اللعبة ولكن الفتيات الصغيرات كن يتعلمنها من بعضهن البعض. كانت لعبة مألوفة في بروكلين.

إلا أنه كانت هناك لعبات أخرى إحداها لعبة الحصى التي يمكن لفتاتين صغيرتين أن تلعباها على درجات الشرفة. كانت فرانسي تلعب بالحصى وحدها، مرة تعتبر نفسها فرانسي ومرة منافستها، وهي بالعادة لاعب وهمي أو لاعبة وهمية.

هناك أيضاً لعبة «بوتسي» التي يبدؤها الأولاد وتنهيها الفتيات. وعادة ما تبدأ بقيام اثنين من الأولاد بوضع علبة من الصفيح على مكان مرور العربات ومن ثم يجلس الاثنان على الرصيف ليراقبا عجلات العربة وهي تحول العلبة إلى شكل مسطح. بعد ذلك يعودان لطيها ويضعانها على الخط مرة أخرى إلى أن

تتسطح. ومن ثم يعيدان الكرّة مرات ومرات إلى أن تصبح العلبة مربعاً كاملاً مسطحاً. عند ذلك يسلمانها إلى الفتيات اللواتي يشرعن بدفعها بأقدامهن على قطعة من الأرض مقسمة على شكل مربعات وكل مربع له رقم. والفتاة التي تستطيع عبور أكبر عدد من المربعات بأقل الوثبات هي التي تفوز في هذه اللعبة.

صنعت فرانسي لعبة بوتسي. كانت تضع علبة الصفيح على ممر العربات وتنتظر وهي عابسة مرور العربة فوقها. كانت ترتعد خوفاً عند سماعها صوت سحق العلبة تحت العجلات. وتتساءل هل سيغضب سائق العربة إذا علم أنها تستغل عربته لصالحها؟ استطاعت فرانسي أن تصنع مربعات على الأرض ولكنها لم تستطع إلا كتابة أرقام 1 و 7 فقط. كانت تقفز بين المربعات بحماس متمنية أن تلعب إحداهن معها لأنها كانت متأكدة أنها ستفوز على جميع الفتيات بأقل عدد من الوثبات.

أحياناً كانت الموسيقى تصدح في الشارع، وهو أمر كانت فرانسي تستمتع به دون الحاجة لرفقاء. عادة ما تمر في الشارع فرقة مؤلفة من ثلاثة عازفين مرة كل أسبوع، يرتدي أفرادها ثياباً عادية ولكن قبعاتهم كانت مضحكة مثل قبعات سائقي العربات المحشورة عند رأسها إلى الداخل. عندما كانت فرانسي تسمع أصوات الأطفال وهم يهتفون: ها قد وصلت فرقة بيتلبرز كانت تخرج مسرعة إلى الشارع وأحياناً تجر معها نيلي. كانت الفرقة تتألف من عازف كمان وقارع طبل ونافخ بوق وكان الرجال الثلاثة يعزفون ألحاناً قديمة من فيينا ورغم أنهم لم يتقنوها جيداً في بعض الأحيان إلا أنهم كانوا يعزفون بصوت عالٍ يبعث الحماس في نفوس الفتيات الصغيرات فيشرعن بالرقص مع بعضهن البعض على الأرصفة في أيام الصيف الدافئة. كان هناك دائماً ولدان يرقصان بطريقة غريبة ومضحكة ويقلدان الفتيات وأحياناً يصدمانهنّ بفظاظة. وعندما تغضب الفتيات ينحني الولدان بطريقة مبالغة بحيث تصطدم مؤخرتاهما براقصين آخرين ويعتذران بلغة رقيقة.

لم تكن فرانسي ترغب أن تكون من بين الذين يرقصون بقدر ما كانت رغبتها أن تقف مع الأطفال الشجعان الذين يقتربون كثيراً من نافخ البوق ليسقطوا بعض المخللات كبيرة الحجم في بوقه، ما يجعل اللعاب يتدفق داخل البوق ويثير غضب الزّمار الذي إذا تم استفزازه بما فيه الكفاية يبدأ بإطلاق اللعنات باللغة الألمانية على اليهود. كان معظم سكان بروكلين من ذوي الأصول الألمانية يطلقون على أي شخص يزعجهم اسماً يهودياً.

أكثر ما كان يثير إعجاب فرانسي هو الطريقة التي يجمع فيها هؤلاء العازفون النقود. فبعد كل أغنيتين أو معزوفتين يستمر عازف الكمان ونافخ البوق بالعزف بينما يقوم قارع الطبل بمدّ قبعته إلى المتفرجين ليجمع فيها ما يلقونه إليه من السنتات. بعد أن يطوف الشارع بأكمله يقف على عتبة الرصيف وينظر إلى نوافذ المنازل حيث تقوم النسوة بلف بعض السنتات بورق الجرائد وإلقائها له من الأعلى. كان وجود ورق الجرائد مهماً لأن أية سنتات تفلت في الشارع لن تسلم من الأولاد الذين يهرعون لالتقاطها ويهربون أمام أعين الموسيقي الغاضب. لسبب ما لم يكن الأولاد يسرقون السنتات الملفوفة بورق الجرائد وكأنما كان الأمر عُرفاً متفقاً عليه بين الفريقين يحدد أياً من النقود، هي من حق من.

عندما يشعر العازفون بأنهم اكتفوا، يعزفون أنشودة أخيرة. وإذا كانت الغلة ضعيفة ينطلقون في طريقهم آملين أن يجدوا أمامهم أماكن أكثر كرماً. كانت فرانسي تجر نيلي وراءها في العادة لتتابع محطات وقوف العازفين من مكان لمكان إلى أن يحل الظلام ويحين الوقت لرحيل العازفين. كان هناك حشد كبير من الأطفال يتبع العازفين كلما جاؤوا. من بينهم فتيات صغيرات يجررن إخوتهن الصغار أو إخوتهن المواليد في عربات أطفال، بعضها مصنوع يدوياً في البيت. كان الأطفال الصغار والرضع يبكون ويجوعون وينامون ويبللون ثيابهم مرة بعد أخرى فيما الأولاد والفتيات يتبعون العازفين دون أن يتذكروا جوعهم أو تعبهم أو حتى العودة إلى منازلهم. كانت معزوفة «الدانوب الأزرق الجميل» تصدح مرة تلو الأخرى.

لطالما ظنت فرانسي أن حياة العازفين رائعة. كانت تخطط عندما يكبر نيلي أن يعزف على الأكورديون بينما هي تضرب على الدف ويتجمع حولهما المتفرجون ليلقوا لهم بسنتات كثيرة فتصبح عائلتها غنية ولا تحتاج أمها للعمل مرة أخرى.

ورغم أن فرانسي كانت تلاحق أفراد الفرقة إلا أنها كانت معجبة أكثر بعازف الأرغن الإيطالي الذي كان يأتي إلى الحي بين فترة وأخرى وهو يجر أرغناً يتربع على قمته قرد صغير. كان القرد يرتدي سترة مزينة بشريط ذهبي، تتدلى على عنقه علبة أدوية حمراء اللون وبنطلوناً أحمر فيه ثقب عادي كافٍ لإخراج ذيله. كانت فرانسي تحب هذا القرد وتقدم له سنتاً لطالما ظلت تخبئه لشراء الحلوى لمجرد رؤيته يتقدم إليها وهو يمد قبعته. «لو كانت أمي هنا» تقول فرانسي لنفسها لجلبت سنتاً من بين النقود التي تضعها في «الحصّالة» وقدمتها له مع تعليمات حادة للعازف الإيطالي بعدم الإساءة إلى الحيوان لأنها إذا اكتشفت أنه فعل ذلك فتستكتب به تقريراً إلى السلطات. لم يكن الإيطالي يفهم منها شيئاً ولكنه كان ينحني لها بأدب ويجيبها دائماً بالكلمات نفسها «سي سي» أي «نعم نعم» بالإيطالية.

إلا أن قدومه كان أمراً مختلفاً يبدو وكأنه مهرجان. كان للرجل أسنان شديدة البياض وشعر مجدول أسود، وكان يرتدي سروالاً مخملياً أخضر اللون وسترة كوردروي بنية يتدلى منها منديل أحمر. أما المرأة التي كانت تساعده في جر الأرغن فكانت ترتدي تنورة حمراء ملتفة وبلوزة صفراء وتضع قرطين ضخمين حول أذنيها.

كانت موسيقى الأرغن تتألف عادة من معزوفة كارمن أو إلتروفاتور وكانت تخرج حادة فيها المرأة تضرب على دف قذر ملفوف بشرائط أو توكزه بمرفقها حسب توقيت الموسيقى. في نهاية الأغنية كانت تقف فجأة وتدور حول نفسها مظهرة رجليها السمينتين وجواربها القطنية البيضاء القذرة مع بضعة هزات من تنورتها المتعددة الألوان.

لم تلاحظ فرانسي أبداً القذارة والتعب اللذين يرافقان هذا العمل. كانت فقط تسمع الموسيقى وتشاهد الألوان الفاقعة وتشعر بفتنة هؤلاء الناس. وكم من مرة حذرتها كاتي بأن لا تتبع عازف الأرغن لأن معظم هؤلاء هم من الصقليين. والعالم كله يعرف أن الصقليين ينتمون لعصابة اليد السوداء التي تخطف الأطفال وتحتفظ بهم مقابل فدية. وهذه العصابة تخطف الطفل وتترك ملاحظة بأن يدفع أهله مائة دولار في المقبرة. وتذيِّل الملاحظة بتوقيع عليه طبعة يد سوداء اللون. هذا كان رأي الأم بعازفي الأرغن.

طوال فترة وجود عازف الأرغن في الحي، كانت فرانسي تلعب لعبة عازف الأرغن فتأخذ بدندنة ما تتذكره من معزوفة فيردي أو توكز علبة الصفيح بمرفقها مفترضة أنها دف. كانت تنهي اللعبة برسم خطوط يدها على ورقة ومن ثم تملأ فراغات الرسم بقلم حبر أسود.

أحياناً كانت فرانسي تصاب بالحيرة. لم تكن تعلم إذا كان من الأفضل لها أن تصبح عازفة في فرقة أو عازفة أرغن عندما تكبر. من الممتع أن يكون لها ولنيلي أرغن وقرد لطيف يمكنهما أن يستمتعا به طوال النهار دون مقابل ويراقبانه عندما يمد يده للناس ليتلقى النقود. مثل هذه السنتات الكثيرة يمكن أن تطعمه وربما ينام الليل بعد ذلك في سريرها. كانت فرانسي تشعر برغبة شديدة في مثل هذه المهنة لدرجة أنها كانت تبوح بنواياها لأمها. ولكن كاتي كانت تسفِّه الأمر وتقول لها: لا تكوني حمقاء؟ إن القرود تربي براغيث على أجسادها ويجب أن لا تسمح لقرد أن ينام في أحد أسرّتها النظيفة.

كانت فكرة كونها قارعة دف تسلّي فرانسي ولكنها في هذه الحال يجب أن تصبح صقِّلية وأن تخطف الأطفال. وهي لا ترغب بفعل شيء مثل هذا رغم أن رسم يد سوداء هو أمر مسلٍّ أيضاً.

لم تخلُ شوارع بروكلين أبداً من الموسيقى. كانت هناك دائماً أغانٍ ورقصات تملأ فراغ أشهر الصيف الطويل وتضيف متعة إلى أيامه. ولكن كان هناك شيء

حزين في هذه الأشهر. شيء يتعلق بالأطفال. كانوا نحيلي الأجسام ولكن تعابير الطفولة تغمر وجوههم وهم يرددون الأناشيد برتابة حزينة وسط حلقاتهم الدائرية. كانوا ما يزالون في سن الرابعة أو الخامسة ولكنهم يبدون أنضج من ذلك بكثير وخاصة في مسألة تدبير أمورهم. كانت الفرقة تعزف مقطوعة الدانوب الأزرق بشكل سيء كما كان القرد المرافق لعازف الأرغن يملك عينين حزينتين تحت قبعته الحمراء اللامعة. كذلك كان اللحن الذي يطلقه الأرغن حزيناً رغم الصخب الذي يكتنفه. حتى المغنون الذين كانوا يرددون الأغاني في ساحات المنازل ومنها أغنية:

لو كانت لي طريقي

لما كبرت في السن أبداً.

كانوا حزينين أيضاً، معظمهم كانوا أغبياء وجياعاً ولا موهبة غنائية لديهم. كان كل ما يملكونه في هذا العالم أعصاباً قوية تجعلهم يقفون في ساحات المنازل ويغنون بصوت عالٍ وقبعاتهم في أيديهم. ولعل ما يحزن في الأمر هو أن كل هذه الأعصاب القوية لن تصل بهم إلى أي مكان في العالم بل إنهم سيبقون ضائعين تماماً مثل جميع الناس في بروكلين. وعند نهاية النهار وحتى لو بقيت الشمس ساطعة إلا أنها تظل شمساً ضعيفة لا تمنحهم الدفء عندما تشرق عليهم.

14

سارت الحياة على ما يرام في شارع لوريمر وكان بإمكان آل نولان البقاء في مكان سكناهم في ذلك الشارع لولا الخالة سيسي وقلبها الكبير الضال. فقد تسببت قصة الخالة مع الدراجة الثلاثية والبالونات بتدمير وإهانة آل نولان.

في أحد الأيام، قرر المصنع الذي تعمل فيه الخالة سيسي تسريحها من العمل. وهكذا قررت سيسي التفرغ لفرانسي ونيلي ورعايتهما خلال غياب كاتي في عملها ولكنها وقبل أن تصل إلى منزل آل نولان بمبنى واحد شد انتباهها بريق مقبض نحاسي لدراجة ثلاثية أنيقة وهي نوع من وسائل النقل التي يندر أن تراها في مثل هذه الأيام. كان لها مقعد جلدي عريض يتسع لطفلين مع مسند للظهر ومقود قيادة مرتبط بعجلة أمامية صغيرة. كذلك كان للدراجة عجلتان خلفيتان ومقبض نحاسي صلب على رأس المقود العامودي. أما الدواسات فتوجد أمام المقعد بحيث يمكن لطفل صغير أن يجلس هناك بكل أريحية ويحركها بينما يتكئ إلى الخلف ويحرك مقبض المقود القريب من حجره.

نظرت سيسي إلى تلك الدراجة الواقفة أمام الشرفة دون أن يراقبها أحد. وبدون أي تردد، سحبت الدراجة وجرّتها معها إلى منزل آل نولان ثم نادت الأطفال وأخذتهم في جولة.

كانت فرانسي في منتهى السعادة وهي تجلس مع نيلي على المقعد فيما الخالـة سيسي تقود الدراجة بهما حول المبنى. كان المقعد الجلدي دافئاً تحت الشمس تعبق منه رائحة زكية، بينما تسطع الشمس الحارة على المقود النحاسي فيبدو وكأنـه نـارٌ حية. ظنت فرانسي أنها إذا لمسته فستحترق يدها بالتأكيد ولكن فجأة حصل شيء ما! فقد ظهر حشد صغير من الناس أمامهم تقوده امرأة في حالة هستيرية وولـد يزعق بصوت عالٍ. هجمت المرأة على سيسي وهـي تـصيح لـصّة! لـصة! ثـم أمسكت بمقبض المقود وشدته إليها. ثبتت سيسي يديها بشدة على المقـود ولكـن فرانسي ونيلي وقعا أرضاً ثم جاء رجل الشرطة.

– ما هذا؟ ما الذي يحدث؟

– هذه السيدة لصة. قالت المرأة مشيرة إلى سيسي، لقد سرقت دراجة ابني.

– «أنا لم أسرقها أيها الرقيـب» أجابـت سيـسي بـصوتها النـاعم. وجـدتها متوقفة هناك فاستعرتها لآخذ الأطفال بجولة على متنها. إنهم لم يركبـوا بحيـاتهم مثل هذه الدراجة الرائعة وأنت تعلم ماذا تعني جولة بالدراجة بالنسبة للأطفال!

حدَّق الشرطي بالطفلين الصامتين في المقعد. ابتـسمت لـه فرانـسي وهـي ترتجف خوفاً فيما تابعت سيسي تقول: لقد كنـت أريـد فقـط أن آخـذهما بجولـة حول المبنى ثم أعيد الدراجة إلى مكانها. صدقني أيها الملازم.

نظر الشرطي إلى صدر سيسي الجميل الذي بدا عارماً داخل الثياب الضيقة التي تحب دائماً أن ترتديها ثم التفت إلى المرأة المنزعجة قائلاً:

– لماذا تريدين أن تكوني بخيلة يا سيدتي؟ دعيها تأخـذ الطفلـين في جولـة حول المبنى. إن هذا لن يضرَّك بشيء. دعيها تأخذهما في جولة وسـأعمل عـلى أن تعيد الدراجة لك سالمة.

كان الشرطي يمثِّل القانون ولم يكن بوسـع المـرأة أن تفعـل شـيئاً. أعطـى الشرطي الولد الذي يصرخ نيكلاً وطلب منه أن يسكت ثم فرّق الحشد قائلاً إنـه سيحضر عربة الفطائر ويأخذهم جميعاً إلى مركز الشرطة إذا لم يتفرقوا فوراً.

تفرق الجمع وذهب كل في شأنه. بعدها قام الشرطي وهو يلوح بعصاه بمرافقة سيسي والطفلين حول المبنى. نظرت سيسي إليه وابتسمت بنعومة، أصرّ بعدها الشرطي بعد أن أعاد عصاه على حزامه أن يقود الدراجة إلى جانبها بينما راحت هي تتمختر على جانبه بكعبيها العاليين ودعت له دعوة طيبة بصوت رخيم مرتعش. سار الاثنان حول المبنى ثلاث مرات دون أن يأبه الشرطي بالأيدي التي راحت تخبئ ابتساماتها حوله فيما الناس يشاهدون شرطياً بكامل زيِّه منشغلاً بأمرٍ مثل هذا. كان يتحدث بحرارة إلى سيسي، كان حديثه يدور حول زوجته التي كانت امرأة صالحة ولكنها عاجزة نوعاً ما.

أومأت سيسي بأنها تفهم تماماً ما الذي يعنيه.

بعد قصة الدراجة، انطلقت ألسن الناس في الحديث والنميمة. تحدثوا عن جوني الذي يرجع إلى منزله ثملاً بين الحين والآخر، وعن سيسي ونظرة الرجال إليها. وقد شكل هذا الموضوع الأخير إضافة جديدة لأحاديث الناس. هنا أخذت كاتي تفكر بالرحيل، فقد صار الأمر شبيهاً بشارع بوغارت حين أصبح الناس يعرفون الكثير عن عائلة نولان وخصوصياتها. وفيما كانت كاتي تفكر بالانتقال من شارع لوريمر إلى مكان آخر وقع أمر آخر اضطرهم إلى الرحيل فوراً. كان هذا الأمر يتعلق بمسألة جنسية صارخة وفجة رغم أنها كانت بريئة لو نظرت إليها من الاتجاه الصحيح.

ففي عصر أحد أيام السبت كانت كاتي تحضر القهوة والساندويشات للفتيات العاملات ضمن فترة الوقت الإضافي في مخازن غورلنغ الضخمة في وليامزبيرغ، وكان جوني ينتظر في مقر النقابات العمالية للحصول على عمل. أما سيسي فلم تكن تعمل في ذلك النهار إذ قررت أن تبقى مع الأطفال في المنزل لعلمها أنهم سيكونون وحدهم داخل الغرف المقفلة.

قرعت الباب معلنة أن الطارق هو الخالة سيسي. فتحت لها فرانسي بعد أن فكّت سلسلة القفل للتأكد ثم اندفع الطفلان نحوها يحضنانها ويقبّلانها. كانا

يحبانها كثيراً إذ إنها بالنسبة لهما تعتبر سيدة جميلة تعبق دائماً برائحة عطرة وترتدي ثياباً جميلة أنيقة إضافة إلى أنها كانت تحضر لهم هدايا رائعة.

في ذلك اليوم أحضرت لهم سيسي علبة سيجار مصنوعة من الحلوى وبضع رقائق من المحارم الورقية الملونة إضافة إلى علبة معجون. جلس الثلاثة حول مائدة المطبخ وشرعوا بتزيين العلبة. قامت سيسي بتحديد دوائر على الورق فيما عملت فرانسي على تقطيعها. وأرشدتها سيسي إلى كيفية صنع فناجين ورقية عبر طي الدوائر الورقية حول طرف قلم رصاص. وبعد أن أنهوا صنع عدة فناجين رسمت سيسي صورة قلب على غطاء العلبة ووضعت قطعة معجون على قعر كل فنجان لونه أحمر ثم ألصقت الفناجين على رسمة القلب وملأت مساحة القلب بالفناجين الحمر.

أما غطاء العلبة فقد ملأته سيسي بالفناجين البيضاء وعندما انتهت منه كان شكل العلبة يشبه حوضاً من أزهار القرنفل البيضاء المتلاصقة ذات قلب مليء بالأزهار الحمراء. ملأت سيسي الجوانب بالفناجين البيضاء وزينت داخلها بورق أحمر. لم يكن باستطاعة أحد أن يعرف أن هذا الشكل الجميل كان في الأصل علبة سيجار. استغرق صنع هذه العلبة طوال عصر ذلك اليوم.

كانت سيسي على موعد في الساعة الخامسة مساءً في أحد المطاعم الصينية ولكنها ما أن أخذت تتجهز للرحيل حتى تعلقت بها فرانسي وهي تتوسل إليها ألا ترحل. كانت سيسي تكره أن تتركها ولكنها لم ترغب أيضاً أن تضيِّع عليها الموعد لذلك أخذت تبحث في محفظتها عن شيء تعطيه للطفلين كي يتلهّيا به. وقف الاثنان عند ركبتها ليساعداها في البحث. فجأة لمحت فرانسي علبة سجائر فسحبتها على الفور. كان على العلبة صورة لرجل متمدد على الكنبة يضع رجلاً على رجل ويحرك إحدى قدميه في الهواء فيما هو يدخن سيجارة وينفث دخانها على شكل حلقة حول رأسه. داخل الحلقة، تظهر صورة لفتاة ينسدل شعرها على عينيها ويكاد صدرها يخرج من فستانها. كانت العلبة تحمل اسم «أحلام أميركية» وهي من الأنواع التي ينتجها مصنع السجائر حيث كانت سيسي تعمل.

ارتفع صخب الطفلين وهما يطالبان سيسي أن تعطيهما علبة السجائر. ترددت سيسي قليلاً ثم أعطتهما إياها بعد أن نبهتهما أن عليهما أن يتفرجا عليها فقط دون أن يفتحاها أبداً مهما كانت الظروف. «عليكما أن لا تلمسا الأختام» قالت لهما سيسي بحدة.

بعد مغادرة سيسي أخذ الطفلان يسألان نفسيهما عما يوجد داخل العلبة. أخذا يحدِّقان في صورة الغلاف ثم قاما بهز العلبة وسمعا صوتاً خفيفاً غامضاً داخلها. قال نيلي بحزم «إن في العلبة ثعابين وليس سجائر».

- كلا أجابته فرانسي إن بداخلها ديداناً حية.

دخل الاثنان في جدال، ففي حين أكدت فرانسي أن العلبة صغيرة الحجم لكي يكون فيها ثعابين أصرّ نيلي أن بالإمكان طي الثعابين داخل العلب مثلما يطوون سمك الرنكة داخل المرطبانات الزجاجية. ارتفعت درجة الفضول لدى الاثنين لدرجة أنهما نسيا تعليمات سيسي. لم تكن أختام العلبة ملصقة بشدة، لذلك تمكنت فرانسي من فتحها بسهولة. كانت هناك قطعة من الرقائق المعدنية حول المحتويات.

انتزعت فرانسي اللفافة فيما زحف نيلي ليختبئ تحت الطاولة خوفاً من الثعابين التي ستظهر. ولكن لم يكن في العلبة أية ثعابين أو ديدان أو حتى سجائر. بالنسبة لهما لم تكن العلبة تحتوي على أشياء هامة. بعد أن حاولا أن يعبثا بها قليلاً فقدا الاهتمام وقاما بربط محتويات العلبة بخيط ثم أخرجا الخيط من النافذة وأغلقا النافذة عليه. بعد ذلك راحا يقفزان على العلبة الفارغة حتى قطعاها إلى قطع صغيرة ونسيا تماماً أمر الخيط المعلق خارج النافذة.

بالنتيجة، كانت هناك مفاجأة كبرى تنتظر جوني لدى مجيئه إلى المنزل لجلب صدريته وياقة قميصه لارتدائهما في عمله المسائي. كانت تكفي لفتة واحدة منه إلى النافذة ليشتعل وجهه خجلاً وإحساساً بالعار وقد أبلغ كاتي بالأمر عندما عادت إلى المنزل.

حققت كاتي مع فرانسي بدقة وعرفت كل شيء. كانت سيسي على خطأ وأصبحت موضع إدانة. في تلك الليلة وفيما كان الطفلان يغطان في النوم وجوني غائباً في عمله، جلست كاتي في مطبخها المظلم ووجهها يحمر خجلاً بين الفينة والأخرى فيما ذهب جوني إلى عمله ويراوده شعور بأن العالم بالنسبة له قد وصل إلى نهايته.

في المساء، جاءت إيفي لزيارة كاتي وراحت الأختان تتناقشان في أمر سيسي.

«هذه هي نهاية الموضوع» قالت إيفي، «إن ما تفعله سيسي هو شأنها ولكن عندما يصل الأمر إلى هذا الحد فأنا أعتقد أن هذه هي نهاية الأمر. إن لدي فتاة صغيرة ما زالت تكبر وكذلك أنت ولا يجب علينا أن نسمح لسيسي بدخول منازلنا مرة أخرى. إنها سيئة ولا يوجد شك في ذلك».

- «إنها جيدة من نواحٍ عديدة» أجابت كاتي وهي تحاول أن تجاملها وتهدئ من روعها.

- أتقولين ذلك بعدما فعلته بك اليوم؟

- حسناً أظن أنك على حق.. فقط لا تخبري أمي بالأمر. إنها لا تعرف كيف تعيش سيسي وبالنسبة لها سيسي هي محظيتها.

عندما عاد جوني إلى المنزل أخبرته كاتي أن سيسي لن تعود إلى منزلهما مرة أخرى. تنهد جوني مجيباً: أعتقد أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكننا أن نفعله. قضى جوني وكاتي تلك الليلة يتحدثان وعند الصباح كانا قد وضعا جميع الخطط للانتقال إلى حي جديد مع نهاية الشهر.

عثرت كاتي في شارع جراند في ويليامزبيرغ على مسكن لأحد بوابي البنايات. وعلى الفور تفقدت حصّالة الصفيح. كان فيها ثمانية دولارات، دفعت اثنين منها لمتعهدي النقل وأعادت الباقي إلى الحصالة بعد أن علقتها بمسمار

داخل الخزانة في المنزل الجديد. مرة أخرى جاءت ماري روميلي الأم ورشت البيت بالماء المقدس، وكذلك الأمر بالنسبة لعملية بناء الثقة مع الدكاكين والحوانيت المجاورة.

كان هناك شعور بالأسف لدى الجميع لأن المسكن الجديد لم يكن يحمل حسنات مسكن شارع لوريمر. فقد كان المسكن الجديد في الطابق العلوي وليس في الطابق الأرضي ولم تكن هناك شرفة عند المدخل لأنها كانت مشغولة من قِبَل إحدى الدكاكين. كذلك كان الحمام مشتركاً بين عائلتين.

إلا أن المنزل الجديد كان يحمل وجهاً مشرقاً. فقد كان السطح تابعاً لهم بموجب اتفاقية غير مكتوبة تنص على أن السطح يعود إلى سكان الطابق العلوي تماماً مثلما يعود الفناء إلى سكان الطابق الأرضي. كذلك كانت هناك حسنة أخرى هي أنه لا يوجد سكان فوقهم يطقطقون على السطح ويتسببون بإزعاجهم.

فيما كانت كاتي تتجادل مع متعهدي النقل، أخذ جوني فرانسي معه إلى السطح وهناك شاهدت فرانسي عالماً جديداً. لم يكن جسر وليامزبيرغ بعيداً عن منزلها وكذلك كانت ناطحات السحاب تنتصب عبر النهر الشرقي وكأنها مدينة جنيات مصنوعة من ألواح فضية. وعلى مسافة بعيدة يظهر جسر بروكلين وكأنه صدى لجسر وليامزبيرغ القريب.

- إنه منظر جميل. قالت فرانسي.. جميل مثل الصور التي نراها.

- إني أعبر هذا الجسر أحياناً في طريقي إلى العمل. قال جوني.

نظرت إليه فرانسي بدهشة «لقد عبر هذا الجسر السحري وما زال يبدو ويحدِّث كما كان دائماً». لم تستطع أن تستوعب الأمر، مدت يدها وأخذت تتلمس ذراعه. لا بد أن تجربة عبور ذلك الجسر تجعل الإنسان يبدو مختلفاً، ولكنها أحست بالإحباط عندما وجدت أن ملمس ذراعه لم يتغير عن قبل. عندما شعر جوني بلمستها، وضع ذراعه حولها وابتسم لها قائلاً:

- كم عمرك أيتها السيدة الصغيرة؟

- أنا في السادسة من العمر وأقترب من السابعة.

- آه سوف تدخلين المدرسة مع حلول شهر أيلول (سبتمبر).

- كلا. تقول ماما إن عليّ أن أنتظر سنة أخرى حتى يكبر نيلي وندخل المدرسة معاً.

- لماذا؟

- لكي نساعد بعضنا البعض ضد الأولاد الكبار الذين قد ينفردون بنا إذا كنا واحداً وليس اثنين.

- إن أمك تفكر في كل شيء.

أخذت فرانسي تنظر حولها وتتأمل أسطح البنايات الأخرى. على مقربة منها كان هناك سطح عليه برج للحمام، كانت الحمامات تجثم بسلام داخل البرج وقد أقفل عليها صاحبها. وهو شاب في السابعة عشرة من العمر يقف على طرف السطح ويلوح بعصا طويلة من البوص في محاولة لجذب قطيع آخر من الحمام كان يحلق بشكل دائري حول السطح. تركت إحدى الحمامات قطيعها وراحت تلحق بالخرقة المعلقة على عود البوص. أخفض الولد العصا فلحقت الحمامة الغبية بها إلى أن تمكن الولد من القبض عليها وإيداعها داخل البرج. شعرت فرانسي بالانزعاج من هذا العمل.

- لقد سرق الولد حمامة. قالت لأبيها.

- وغداً سيسرق أحدهم إحدى حماماته. قال لها جوني في معرض ردِّه.

- ولكن الحمامة المسكينة. لقد انتزعها من بين أقاربها. ربما كان لها أطفال. دمعت عينا فرانسي.

– أنا لن أبكي لو كنت مكانك. قال جوني. ربما كانت الحمامة ترغب في الابتعاد عن أقاربها. إذا لم تعجبها الحياة في البرج فإنها سوف تعود إلى جماعتها عندما يطيِّرها.

شعرت فرانسي بالارتياح لهذا الرد. وقف الاثنان صامتين على طرف السطح، يمسكان بيدي بعضهما البعض دون أن يتكلما لفترة طويلة من الوقت. كانا ينظران إلى نيويورك عبر الجسر ويتأملان عندما سمعت فرانسي أباها يحدث نفسه قائلاً:

– سبع سنوات !

– ماذا يا أبي. قالت له.

– لقد مضى على زواجنا أنا وأمك سبع سنوات.

– هل كنت هنا عندما تزوجتما؟

– كلا.

– ولكني كنت هنا عندما وُلد نيلي.

– هذا صحيح. عاد جوني إلى التفكير بصوت عالٍ مرة أخرى:

– سبع سنوات زواج بدّلنا فيها ثلاثة منازل. هذا المنزل سيكون منزلي الأخير.

لم تلاحظ فرانسي أنه قال «منزلي الأخير» ولم يقل منزلنا الأخير.

الكتاب الثالث

15

كانت الشقة الجديدة مؤلفة من أربع غرف، كل غرفة تؤدي إلى الأخرى في ترتيب يطلق عليه غرف سكة الحديد. كما كان المطبخ عالياً وضيقاً يواجه فناء الدار الذي كان عبارة عن ممشى حجري يحيط بمربع من الأرضية الإسمنتية التي لا يمكن لشيء أن ينمو فيها. ومع ذلك كانت هناك شجرة تنمو داخل الفناء.

عندما رأت فرانسي الشجرة لأول مرة، كان ارتفاعها يصل إلى الطابق الثاني فقط وكان بإمكانها أن تطل عليها من النافذة فيما بدت الشجرة وكأن حشداً من الناس من مختلف الأشكال يقفون تحت مظلة تحميهم من المطر.

كان هناك عمود مائل للثياب في مؤخرة الفناء تنطلق منه ستة خطوط للغسيل مركّبة على بكرات ومربوطة بست نوافذ للمطابخ. ولطالما حصل الأولاد على بعض النقود كلما تسلقوا الأعمدة لإعادة وضع خط غسيل انحرف عن بكرته. كان من المعتقد أن بعض الأولاد يتسلقون الأعمدة خلال الليل ليفكوا الخطوط عن البكرات وبذلك يضمنون الحصول على نقود قليلة في اليوم التالي.

في الأيام المشمسة التي تشهد هبوب بعض الرياح، كان يحلو مشاهدة الخطوط مليئةً بالثياب والريح تهز الملاءات البيضاء المعلقة كالأشرعة على

القوارب التي تظهر في صور القصص فيها تبدو الألوان الحمراء والصفراء والخضراء مشدودة على الملاقط كأنها تضج بالحياة.

كان العمود يستند على جدار من الطوب ويشكل الجهة التي لا يوجد فيها نوافذ من بناية المدرسة المجاورة. عندما دققت فرانسي النظر في هذا الجدار وجدت أنه لا توجد فيه طوبتان تشبهان بعضهما البعض. كانت قطع الطوب مرتبة بإيقاع هادئ ضمن خطوط رفيعة سهلة التفتيت ومثبتة بملاط أبيض، وتلمع تحت أشعة الشمس. كلما كانت فرانسي تضع وجنتها على حائط الطوب كانت تشعر بدفئها ونفاذيتها. كان ذلك الجدار أول ما يتلقى المطر لتصبح رائحته مثل تراب مبلل تشبه رائحة الحياة نفسها. وعند أول هطول الثلج في الشتاء، تتعلق حباته على السطح الخشن لقطع الطوب بحيث تبدو وكأنها شرائط تعقدها الجنيات.

كانت أربع أقدام من فناء المدرسة تواجه فناء منزل فرانسي، ولا يفصل بينهما إلا سياج من الشبك الحديدي. لم تسنح لفرانسي فرص كثيرة للعب في فناء المنزل لأن الأمر كان مشروطاً بعدم وجود الطفل الذي يسكن في الطابق الأرضي هناك حيث إنه كان يمنع أي شخص من اللعب في الفناء طالما هو هناك. ومع ذلك تمكنت فرانسي من إيجاد فرص للنزول إلى الفناء خلال فترة الفرصة في المدرسة حيث كانت تجلس وتراقب الأطفال وهم يلعبون. كانت فترة الفرصة تبدأ باصطفاف مئات الأطفال داخل منطقة صغيرة مسيجة ومرصوفة بالحجر ثم إطلاقهم في الملعب وإعادتهم إلى وضع الاصطفاف عند انتهاء الفرصة، إلا أنه لم تكن هناك مساحة للعب. فما أن يطلق الأطفال في الملعب حتى يبدؤوا بالتجول بغضب هنا وهناك وهم يرفعون أصواتهم وبنغمة رتيبة لا يقطعها إلا رنين الجرس فجأة لإعلان انتهاء وقت الفرصة. عندها ولوهلة قصيرة تتجمد الحركة ويسود صمت قاتل ثم يبدأ التدافع ويبدو الطلاب وكأنهم مهتمون بالدخول إلى الصفوف تماماً كما كانوا متشوقين للخروج منها. هنا يتحول الصراخ إلى نوع من النحيب المقهور يستمر حتى عودتهم إلى الصفوف.

في عصر أحد الأيام وبينما كانت فرانسي تلعب في فناء المنزل، خرجت إحدى الطالبات الصغيرات وحدها إلى ملعب المدرسة وأخذت تضرب ممحاتي سبورة الطباشير ببعضهما البعض لطرد غبار الطباشير منهما. كان هذا المشهد بالنسبة لفرانسي، التي وقفت تراقب عبر فتحات السياج، يضم أكثر المهن التي تم اختراعها دهشةً وسحراً. ولطالما أخبرتها أمها أن هذا العمل كان يُترك للطلاب الذين يحبهم الأساتذة مثل حيواناتهم المدللة. ولما كانت فرانسي لا تعرف من الحيوانات المدللة إلا القطط والكلاب والعصافير فقد أقسمت أنها حين تكبر وتذهب إلى المدرسة سوف تعوي وتموء وتزقزق ما أمكن حتى تصبح حيواناً مدللاً لدى الأستاذ بحيث يسمح لها بالخروج إلى الملعب لتنظيف ممحايات سبورة الطباشير عبر ضربها ببعضها البعض.

في عصر ذلك اليوم، راقبت فرانسي بقلب ملهوف وعينين مليئتين بالإعجاب تلك الفتاة وهي تضرب الممحاتين ببعضهما البعض وكانت هذه الأخيرة بدورها تعلم أن فرانسي تراقبها بإعجاب لذلك أبدعت في ضرب الممحاتين أولاً ببعضهما البعض ثم على جدار الطوب ثم على حجارة الممشى وأخيراً على ظهرها. كانت تتحدث إلى فرانسي أحياناً وتقول:

– هل تريدين رؤيتهما عن قرب؟

أومأت فرانسي برأسها إيجاباً ولكن بخجل. عندها اقتربت الفتاة من شبك السياج ووضعت الممحاة على السياج لتلمسها فرانسي. اقتربت فرانسي لتدخل إصبعها عبر الطبقات الإسفنجية الملونة ولكنها ما كادت تلمسها حتى سحبت الفتاة الممحاة وبصقت في وجه فرانسي. أغلقت فرانسي عينيها لتمنع دموع الألم من أن تنهمر فيما وقفت الفتاة تراقبها بانتظار أن تبكي ولما لم تظهر الدموع سألتها بسخرية:

– لماذا لا تنفجرين بالبكاء أيتها الحمقاء. هل ترغبين أن أبصق في وجهك مرة أخرى؟

أشاحت فرانسي بوجهها وانسلت إلى قبو البيت حيث بقيت جالسة في الظلام لمدة طويلة إلى أن هدأت مشاعر الألم. شكلت هذه الحادثة جزءاً من عدة أوهام كانت تتربص بها بانتظار أن تكبر ولكنها منذ ذلك اليوم أصبحت تكره الفتيات اللواتي ينظفن ممحايات سبورة الطباشير.

داخل منزل آل نولان الجديد كان المطبخ هو غرفة الجلوس وغرفة الطعام وغرفة الطبخ. وعلى أحد جدرانه توجد نافذتان طويلتان وضيقتان فيما خصصت إحدى الفتحات في جدار آخر لوضع موقد فحم مصنوع من الحديد فوقه طبقات من الطوب المرجاني اللون وطبقة من الجص الأبيض. كان للموقد غطاء حجري غير قابل للاحتراق ورف مدفأة صخري يمكن لفرانسي أن ترسم عليه بالطبشور. إلى جانب الموقد يوجد مرجل للماء يصبح ساخناً عندما يتم إشعال النار في الموقد. ولطالما كانت فرانسي تجلس إلى جانب المرجل في الأيام الباردة وتضع ذارعيها حوله ثم تضغط بوجنتها على جداره الفضي الدافئ.

إلى جانب المرجل، كان يوجد حوضان للغسيل لهما غطاء خشبي، وكان يمكن رفع الفاصل ووصلهما ببعضهما ليصبحا حوضاً للاستحمام. إلا أنه لم يكن حوضاً جيداً ولطالما ارتد الغطاء إلى الأسفل ليضرب رأس فرانسي وهي تستحم. كما أن قاع الحوض كان مصنوعاً من حجارة خشنة. وكم كانت فرانسي في معظم الأوقات تخرج من الحوض وقد تقرحت قدماها. كذلك كان للحوض أربع حنفيات. لم يكن أي طفل يستطيع أن يتذكر وجودها كلما أراد رفع رأسه من مياه الصابون في الحوض ولطالما اصطدم رأس فرانسي بإحدى تلك الحنفيات كلما همّت برفعه فجأة من الماء تفادياً لدخول الصابون إلى عينيها. وقد بقيت فرانسي تحمل على ظهرها أثراً دائماً لجرح أصابها نتيجة الاصطدام بإحدى تلك الحنفيات.

إلى جوار المطبخ كانت هناك غرفتا نوم تفتح كل منهما على الأخرى، مع فتحتي تهوية مبنيتين داخل الجدران على شكل كفن. أما النوافذ فكانت صغيرة ولونها رمادي داكن. كان الأمر يتطلب استخدام مطرقة وإزميل لفتح نوافذ التهوية ولكن ما أن تفتحها حتى تواجهك هبة ريح باردة وشديدة الرطوبة. كان

لكل فتحة سقف شمسي زجاجي مائل وغير شفاف تحميه شبكة من الحديد خشية الكسر. أما جوانب الفتحات فكانت محاطة بشرائح من الحديد المموج. وكان هذا الترتيب يعتبر كافياً لإدخال ضوء النهار والهواء إلى غرف النوم ولكن زجاج الفتحة الثقيل وشبكة الحديد والأوساخ التي تراكمت عبر السنين كانت تمنع ضوء النهار من العبور. كما كانت الفتحات الجانبية مشبعة بالغبار والسخام وبيوت العناكب لدرجة يصعب معها دخول الهواء رغم أنها لم تكن تمنع دخول المطر والثلج. في الأيام العاصفة كان القاع الخشبي لفتحات التهوية يصبح مبللاً وعابقاً بالدخان وكأن رائحته رائحة القبور.

كانت فتحات التهوية هذه تعتبر اختراعاً رهيباً. فرغم كون النوافذ مغلقة، كان يمكنك سماع أحاديث الجيران من خلالها. كما شكلت مسرحاً للفئران حول قيعانها إضافة إلى كونها مصدراً لخطر الحريق إذ إن بإمكان أي شخص أن يقذف عود كبريت مشتعلاً ظناً منه أنه سيهبط في الفناء وأن يخطئ الرمي بحيث يدخل العود في فتحة التهوية ويسبب بإشعال النار فوراً داخل المنزل. كذلك شكلت قيعان تلك الفتحات مكباً لنفايات كثيرة أقلها رداءة كانت شفرات الحلاقة الصدئة وخرق القماش القذرة. ويعود السبب في ذلك إلى أن أحداً لا يمكنه إدخال جسمه عبر النافذة إلى الفتحة الضيقة لتنظيف قاعها. في إحدى المرات ألقت فرانسي نظرة إلى قاع فتحة التهوية وكان أول ما خطر على بالها موعظة القسيس حول المطهر. كانت فرانسي تعبر الممر المفضي إلى غرفة نومها وهي ترتعد وتغمض عينيها من الخوف.

كان الممر الأمامي يعتبر غرفة كاملة. فقد كانت نوافذه العالية الضيقة تفتح على الشارع وكان الطابق الثالث عالياً لدرجة يتحول فيها ضجيج الشارع إلى صوت خافت مريح. كذلك كانت هذه الغرفة تعتبر مكاناً مشرّفاً إذ كان لها بابها الخاص المفضي إلى الردهة. كما كان بالإمكان إدخال الضيوف إليها دون عبور غرف النوم من ناحية المطبخ. أما الجدران العالية فقد تمت تغطيتها بورق جدران لونه بني داكن تتخلله خطوط ذهبية اللون فيما غطت النوافذ من الداخل ستائر

مصنوعة من شرائح خشبية رقيقة تضيق كلما اقتربت من الجوانب. كانت فرانسي تمضي أوقاتاً سعيدة وهي تسحب هذه الستائر المعلقة إلى الأسفل ثم تراقبها وهي تنطوي وتعود إلى مكانها بلمسة إصبع. كان الأمر بالنسبة لها يشبه معجزة لا تتوقف. إذ كيف تستطيع هذه الستائر أن تغطي نافذة بأكملها وتحجب الضوء والهواء وهي في الوقت نفسه تستطيع أن تضغط حجمها باعتدال وتنطوي في خزانتها الصغيرة لتظهر أمام الأعين بكل براءة وهدوء.

إضافة إلى الموقد الرئيسي كان هناك موقد آخر من الرخام الأسود مبني داخل الجدار في أسفل الردهة. كان منظره يبدو كشمامة ضخمة مقطوعة نصفين، ونصفها المستدير من الخارج. كان الموقد مصنوعاً من عدة فتحات من غراء السمك حولها إطار رفيع من الحديد. لم تكن كاتي تستطيع إشعال النار في هذا الموقد إلا في أعياد الميلاد. وكانت فرانسي تشعر بسعادة غامرة وهي ترى جميع النوافذ تلمع عند إشعاله، وتنعم بالدفء وهي تراقب لون النوافذ يتحول من الأحمر الوردي إلى لون العنبر فيما الليل يوشك على الرحيل. وكانت تشعر أن أمها ترتكب خطيئة كبرى عندما تدخل وتشعل الغاز بحيث تطرد الظلال وتكبح الضوء في جوانب الموقد. كان هذا أمراً يزعجها كثيراً.

ولكن أروع ما في الغرفة الأمامية هو ذلك البيانو الذي شكّل أعجوبة توجب أن يصلي لها الإنسان كل حياته دون أن يعطيها حقها. كان ذلك البيانو ينتصب في الردهة الداخلية لمنزل آل نولان بأعجوبة حقيقية جاءت دون صلوات أو تمنيات. فقد كان متروكاً هناك من بعد أن هجره المستأجرون السابقون الذين لم يملكوا ما يكفي من المال لنقله.

في تلك الأيام كان تحريك البيانو يعتبر مشروعاً بحد ذاته. إذ كيف يمكن إنزال ذلك الشيء الضخم عبر الأدراج السحيقة الضيقة. كذلك كان الأمر يتوجب تحزيم البيانو وربطه وإخراجه من النوافذ عبر استخدام بكرات ضخمة موضوعة على السطح. ويترافق هذا العمل مع الكثير من الصياح والتنبيه وإشارات الأيدي من طرف متعهدي النقل. أحياناً كان رجال الشرطة يغلقون

الشارع بالحبال لإبعاد الحشود عن المكان فيما كان الأطفال يلعبون لعبة التهرب من المدرسة خلال عملية النقل. كان الأمر عبارة عن تظاهرة حاشدة من الأصوات والتهليلات والتعليقات بينما كان البيانو ينزل من النافذة ويتأرجح في الهواء إلى أن يعدل وضعه قبل هبوطه على الأرض.

كذلك كانت تكلفة النقل تصل إلى 15 دولاراً وهو رقم يعادل ثلاثة أضعاف تكلفة نقل الأثاث بأكمله. لذلك طلبت المالكة من كاتي أن تسمح لها بإبقاء البيانو في المنزل وقد رضيت كاتي بذلك بكل سرور. كذلك طلبت المرأة منها بأسى أن تحاول إبقاء أبواب غرف النوم مفتوحة خلال فصل الشتاء حتى لا يتعرض البيانو للرطوبة أو البرودة، بحيث يدخل بعض الدفء من المطبخ إلى الردهة لمنع حدوث ترسبات عليه.

– هل يمكنك العزف عليه؟ سألتها كاتي.

– كلا. أجابت المرأة بحزن. لا أحد في العائلة يعرف كيف يعزف عليه. أتمنى لو كنت أعرف.

– لماذا اشتريته إذن؟ سألتها كاتي.

– كان البيانو موجوداً في منزل إحدى العائلات الثرية وقد عرضوا بيعه بسعر بخس. رغبت فيه كثيراً رغم أني لا أجيد العزف عليه. كان جميلاً جداً ويعطي للغرفة بأكملها منظراً رائعاً.

وعدت كاتي المرأة بأن تعتني بالبيانو إلى أن ترسل أحداً لنقله ولكن وكما تبين فيما بعد لم ترسل المرأة أحداً لأجله وبقي البيانو الجميل في منزل آل نولان.

كان البيانو أنيقاً، ومصنوعاً من خشب مصقول يلمع بسواده. كذلك كانت قشرته الخارجية رقيقة ومقطعة في نمط جميل خلفه خيوط حريرية قديمة وردية اللون. لم يكن غطاؤه ينطوي بالتدريج مثل باقي الأغطية العامودية بل كان يلتف إلى الخلف ويتكئ على هيكل خشبي ولطيف. كان هناك شمعدان على كل من

جانبي البيانو وكان بالإمكان تركيب الشموع وإشعالها واللعب على ضوئها الذي يلقي ظلالاً حالمة على مفاتيح البيانو العاجية البيضاء، التي تظهر من تحت الغطاء.

عندما دخل آل نولان إلى الغرفة الأمامية من المنزل في أول جولة لهم فيه، كان البيانو أول شيء لفت انتباه فرانسي. حاولت أن تضع ذراعيها حوله ولكنها لم تستطع لضخامته واكتفت بأن تحضن كرسيه المقصب الذي أخذ لونه الوردي يبهت شيئاً فشيئاً. نظرت كاتي إلى البيانو بعينين متراقصتين، فقد لاحظت وجود بطاقة بيضاء في الطاقة السفلى المسطحة كتب عليها: دروس بيانو، وقد خطرت لها فكرة نتيجة لذلك.

جلس جوني على الكرسي السحري الذي كان يمكن أن يلفَّ في دائرة متكاملة، كما كان يمكن رفعه وإنزاله وفقاً لحجم الشخص الجالس. حاول أن يعزف عليه ولم يستطع بالطبع إذ لم يكن بإمكانه قراءة النوتات رغم معرفته ببعض الأوتار. كان بإمكانه أن يغني شيئاً ويضرب بأصابعه على أحد الأوتار ليبدو الأمر وكأنه موسيقى. ضرب وتراً ثانوياً ثم حدق في عيني طفلته الكبرى وابتسم ابتسامة ملتوية. ابتسمت له فرانسي وقلبها ينتظر شيئاً. ضرب جوني على الوتر الثانوي مرة أخرى وظل يضغط عليه حتى يسمع صداه الناعم ثم غنى بصوته الجهوري الصادق:

منحدرات ماكسويل تاون جميلة.

تواجه الندى باكراً.

وهناك كانت آني لوري.

تقدم لي وعداً صادقاً.

أشاحت فرانسي بوجهها كي لا يرى أبوها دموعها. كانت تخشى أن يسألها لماذا تبكين؟ لأنها لن تستطيع أن تجيبه. كانت تحبه وتحب البيانو ولكنها لم تكن تستطيع أن تجد حجةً لتلك الدموع.

تحدثت كاتي بصوت رقيق ظل جوني يفتقده طوال السنة السابقة، وسألت جوني:

– هل هذه الأغنية إيرلندية يا جوني؟

– إنها اسكتلندية.

– لم أسمعك تغنيها من قبل.

– كلا، أعتقد أنك لم تسمعيها من قبل. إنها فقط أغنية أعرفها ولكنني لم أغنها لأنها ليست من النوع التي يحب الناس أن يسمعوها في ذلك المكان الصاخب الذي أعمل فيه. قد يرغبون بسماع أغنية «اتصل بي في عصر يوم ماطر» ولكنهم حين يثملون لا يطلبون إلا أغنية «يا أدلين الحلوة».

استقرت العائلة بسرعة في منزلها الجديد. كان أثاثهم المألوف يبدو غريباً. جلست فرانسي على كرسي وقد أدهشها أنها تشعر بنفس ما كانت تشعر به في شارع لوريمر على أي كرسي. لماذا لم تشعر بأن الكرسي مختلف في حين أن وضعها هي قد اختلف؟

بدت الغرفة الأمامية من المنزل جميلة بعد أن رتبها أبوها وأمها. كانت هناك سجادة خضراء لامعة تحمل رسوماً لورود زهرية. كذلك كانت هناك ستائر بيضاء للنوافذ وطاولة لها سطح رخامي في وسط الغرفة إضافة إلى طقم أثاث مؤلف من ثلاث قطع تعلوه قماشة خضراء مخملية اللون. عند زاوية الغرفة توجد منصة من الخيزران تضم صوراً للأخوات الثلاث من عائلة روميلي وهن في عمر الطفولة مستلقيات على بطونهن فوق بساط من الفرو فيما تتكئ عماتهن كل على كتف زوجها ويقف الأزواج إلى جانبهن بشواربهم الكثيفة الضخمة.

كانت على المنصة أيضاً عدة هدايا تذكارية من الأقداح والفناجين الزهرية والزرقاء مرصوصة على الرفوف، تحمل تصاميم ملبّسة بقشور ذهبية اللون كتبت عليها كلمات مثل: «لا تنسوني» مع رسومات لورود أميركية حمراء جميلة، كما

كانت هناك عبارات أيضاً مثل «تذكرني» و«الصداقة الصادقة» محفورة باللون الذهبي. كانت تلك الفناجين الصغيرة تذكارات من صديقات كاتي القديمات ولم يكن مسموحاً لفرانسي أن تعبث بها.

عند قاع الرف، انتصبت صدفة محار بيضاء مجعدة لها لون زهري رقيق من الداخل. كان الأطفال مغرمين بها وقد أطلقوا عليها اسماً حنوناً هو توتسي. عندما كانت فرانسي تضعها على أذنها، كانت تسمع غناء عن البحر الواسع وكان جوني يرفعها أحياناً على طول ذراعها وينظر إليها برقة ويغني:

عند الشاطئ عثرت على صدفة

وضعتها عند أذني

واستمعت إليها بفرح بينما هي تغني

أغنية بحرية جميلة صافية.

لاحقاً، سنحت لفرانسي فرصة بأن ترى البحر لأول مرة عندما اصطحبها جوني إلى كانارسي. كان البحر مميزاً بالنسبة لها فقط في كونه يشبه بصوته صوت الزئير الناعم الذي يصدر عن توتسي كلما رفعتها إلى أذنها.

16

تشكل دكاكين الحي جزءاً مهماً من حياة الأطفال في المدينة. فهي وسيلة اتصالهم مع الموارد التي تحافظ على استمرار الحياة كما أنها تضم جميع الأشياء الجميلة التي يتوقون إليها إضافة إلى أشياء أخرى لا يمكنهم الحصول عليها ولكن يمكنهم أن يحلموا بها ويتمنوا امتلاكها.

أكثر ما أحبته فرانسي في الحي كان محل الرهن، ولكن هذا الحب لم يكن بسبب الكنوز المذهلة الموجودة خلف قضبان نوافذه، وليس بسبب مغامرات السيدات المتلفحات بالشالات، واللواتي يتسللن عبر مدخله الجانبي ولكن بسبب الكرات الذهبية الثلاث المعلقة على أعلى سقف مدخله، والتي كانت تلمع تحت أشعة الشمس أو تتأرجح بتراخٍ مع نسمات الهواء كأنها ثلاث تفاحات ذهبيات من الوزن الثقيل.

في أحد جوانب المكتب يوجد مخبز يبيع الكعك المغطى بحلوى الفراولة الحمراء وبالقشطة المخفوقة وهي حلوى مقصورة فقط على الأغنياء الذين يملكون ما يكفي لشرائها.

على الجانب الآخر تقع دكان غولندر للدهان وتوجد على واجهته الأمامية منصّة عُلِّقت عليها صفيحة فيها شق وثقب في القعر تتدلى منها صخرة مربوطة

بجنزير، كان هذا إثباتاً على قوة الإسمنت. البعض كان يقول إن الصفيحة مصنوعة من الحديد ولكنها مدهونة لتشبه طبقاً صينياً مشقوقاً. ولكن فرانسي كان تفضل الرواية القائلة إن هذه الصفيحة كانت في الحقيقة مكسورة سابقاً ومن ثم تم إعادتها إلى وضعها الأصلي عبر استخدام أعجوبة الإسمنت.

أما الدكان الأكثر إثارة فيقع وسط كوخ صغير كان موجوداً منذ عهد الهنود الذين كانوا يطوفون خلسة في وليامزبيرغ. كان شكل الكوخ يبعث على الغرابة وسط المباني، بنوافذه الصغيرة المنخفضة وسقفه الخشبي المائل. كما كان لهذا الدكان نافذة صغيرة عند واجهته يجلس خلفها رجل مهيب الشكل وأمامه طاولة يضع فوقها نوعاً من السيجار الطويل الرفيع والبني اللون. كان الرجل يبيع السيجار الواحد بنيكل، وكان يختار ورقة اللف بحذر ويعبئها بقطع من التبغ المخلوط ثم يلفها بشكل لائق بحيث تظهر نحيلة ومحكمة وذات زوايا مربعة عند طرفيها. كان الرجل حِرَفياً من الطراز القديم، يحتقر التقدم ويرفض وجود إضاءة بالغاز في متجره. أحياناً عندما كان الظلام يحل باكراً دون أن ينهي عمله في لف السيجار، كان يضيء شمعة ويواصل حتى ينهي العمل. خارج المتجر كان هناك تمثال خشبي لهندي يقف وقفة متحفزة على قاعدة خشبية، ويحمل فأساً في إحدى يديه وكومة من التبغ في اليد الأخرى بينما يرتدي صندلاً رومانياً مع رباطات تصل إلى ركبتيه وتنورة قصيرة مصنوعة من القش وقبعة حربية مدهونة جميعها بألوان حمراء وزرقاء وصفراء زاهية. كان صاحب المتجر يدهنه أربع مرات كل سنة ويدخله إلى المتجر كلما أمطرت السماء فيما كان أطفال الحي يطلقون على هذا التمثال الهندي اسم «العمة ميمي».

ومن بين المتاجر التي كانت تثير إعجاب فرانسي أيضاً كان ذلك المتجر الذي لا يبيع شيئاً سوى الشاي والقهوة والبهارات. وهو متجر متميز برفوفه وصناديقه المصقولة الغريبة الشكل والتي تعبق بالروائح المثيرة. كان في المتجر ما يقارب اثني عشر صندوقاً قرمزية اللون لحفظ القهوة وقد كتبت عليها بالحبر الصيني كلمات جسورة مثل: قهوة برازيلية، قهوة أرجنتينية، قهوة تركية وقهوة

مخلوطة. أما عبوات الشاي فكانت أصغر حجماً وتبدو أجمل بسطحها المنحدر وقد كتبت عليها أسماء مثل شاي أوولنغ، شاي فورموزا، شاي برتقالي، شاي صيني أسود وشاي بطعم زهر اللوز وشاي بالياسمين وشاي إيرلندي... إلخ. كذلك كانت البهارات والتوابل موضوعة في عبوات صغيرة الحجم فوق الرفوف الخلفية لمنصة الاستقبال وكانت مرتبة بالأسماء: قرفة، كبش قرنفل، زنجبيل، بهارات كاملة، جوزة الطيب، كاري، قرون فلفل، ميرامية، زعتر، سمسم وكان يتم طحن هذه البهارات قبل بيعها في مطحنة صغيرة مخصصة لها.

كذلك كانت هناك مطحنة يدوية ضخمة للقهوة، توضع الحبوب في قادوس نحاسي لامع ثم تدار العجلة يدوياً حيث يبدأ طحن الحبوب وتصدر الآلة أصوات قرقعة وهي تصب القهوة المطحونة في علبة قرمزية اللون تشبه المغرفة وموضوعة في الخلف.

كان آل نولان يطحنون قهوتهم في منزلهم، وكانت فرانسي تحب رؤية أمها وهي تجلس بكياسة في المطبخ وهي تضع مطحنة القهوة بين ركبتيها وتحرك يد الآلة بحركة عصبية من صدغها الأيمن وفي الوقت نفسه تتحدث بحماس مع والدها فيما تعبق الغرفة برائحة القهوة الطازجة.

كان بائع الشاي في الدكان يستخدم ميزاناً رائعاً هو عبارة عن صفيحتين من النحاس اللامع، يعمل على تنظيفهما وفركهما كل يوم حتى تظهرا وكأنهما مصنوعتان من الذهب. كانت فرانسي تستمتع بمشاهدته وهو يزن لها رطلاً من القهوة أو مقداراً من الفلفل فيضع معياراً فضياً على إحدى الصفيحتين والبضاعة على الصفيحة الأخرى ثم يبدأ بإضافة أو إنقاص البضاعة الموضوعة بواسطة ملعقة فضية شيئاً فشيئاً حتى يعدل الميزان. كانت هذه اللحظة تشكل بالنسبة لفرانسي متعة لا تضاهيها متعة وهي تراقب كفتي الميزان وقد تساوتا تماماً حيث تشعر بسلام هادئ وكأنه لا يمكن أن يحدث شيء خطأ في هذه الدنيا عندما تكون الأمور موزونة بهذا الشكل.

أما سر الأسرار بالنسبة لفرانسي فكان دكاناً ذا نافذة واحدة يعمل فيه رجل صيني له ضفيرة من الشعر تلتف حول رأسه. وكان يتركها هكذا، لكي يتمكن من العودة إلى الصين كما فسرت لها أمها، لأنه إذا قطعها لن يتمكن من العودة أبداً. كان الرجل يغسل القمصان في دكانه الصغير وعندما تحضر فرانسي إلى الدكان لتعطيه تعليمات حول غسل القمصان كان يستمع لها بصمت وهو يسير جيئة وإياباً ويضع يديه في أكمام سترته بينما يبقي عينيه في الأرض كأنه أحد حكماء الزمان. كانت فرانسي تظن أنه يصغي لها من كل قلبه ولكن الحقيقة أنه لم يكن يفهم شيئاً من اللغة الإنكليزية سوى كلمتين هما «خذي القميص».

عندما أحضرت فرانسي قميص أبيها المتسخ ذات مرة، أخرج الرجل الصيني ورقة مربعة غريبة ثم غطّس فرشاة صغيرة في وعاء من الحبر الهندي وخربش على الورقة ثم أعطاها هذه الوصفة السحرية كبدل لقميص متسخ. كانت الصفقة رائعة بالنسبة لفرانسي.

كان الدكان يبدو نظيفاً من الداخل ويعبق برائحة طيبة كرائحة الورد في غرفة حارة. كان الرجل يقوم بعملية الغسل بطريقة غامضة ربما في عمق الليل لأنه كان يقضي النهار كله من السابعة صباحاً وحتى العاشرة ليلاً وهو يكوي القمصان بمكواة سوداء تعمل على البنزين بحيث تبقى ساخنة دائماً. لم تكن فرانسي تعلم بهذا الأمر بل كانت تظن أنه جزء من السحر الذي يتميز به العرق الصيني بحيث كان باستطاعته أن يستخدم المكواة دون أن يحمّيها على المدفأة. كانت لديها نظرية غامضة حول قدرته على إخراج الحرارة من مادة يستخدمها بدل النشا في كيّ القمصان والياقات.

عندما أعطته فرانسي الورقة التي خربش لها عليها سابقاً إضافة إلى عشرة سنتات، ناولها قميصاً نظيفاً ومطوياً إضافة إلى حبتي فاكهة صينية. كانت فرانسي تحبها كثيراً بسبب سهولة تقشيرها وطعمها الحلو الدسم. داخل الحبة كانت هناك بذرة صلبة لم يتمكن أحد من كسرها أبداً. كان يقال إن داخل تلك البذرة توجد

بذرة أصغر وداخل البذرة الأصغر توجد بذرة أصغر منها أيضاً وهكذا حتى يصل بك الأمر إلى عدم القدرة على رؤية البذور الداخلية إلا بعدسة مكبرة ثم بعد ذلك لا تستطيع أن ترى شيئاً ولكن كان هناك دائماً بذور أصغر وأصغر في الداخل. كانت هذه أول تجربة لفرانسي مع عالم اللانهاية.

كانت أفضل الأوقات بالنسبة لفرانسي هي عندما يريد الرجل أن يعيد لها فكّة أو يرد عملة أصغر. كان يحضر إطاراً خشبياً صغيراً معلقاً بقضبان رفيعة تحتوي على كرات صفراء وزرقاء وحمراء وخضراء اللون. ثم يزلق الكرات على القضبان النحاسية ثم يفكر بسرعة ويعيدها إلى مكانها ويعلن مثلاً: تسعة وثلاثين سنتاً. كانت هذه الكرات تخبره تماماً كم يتوجب عليه أن يتقاضى من ثمن القميص وكم من الفكة عليه أن يرد إلى الزبون.

كانت فرانسي تتمنى أن تكون صينية وكانت تعتمد على ذلك من خلال تناول الفاكهة الصينية التي يقدمها لها. وكم كانت رغبتها شديدة في معرفة سر أداء المكوى الذي لا يحتاج إلى تسخين على المدفأة أو سر تلك الخربشات الصغيرة بالحبر الهندي على قطعة الورق والتي تبدو وكأنها أجنحة فراشات. كان هذا بالنسبة لفرانسي سر الشرق الكبير في بروكلين.

17

«دروس بيانو»، كلمات ساحرة ضجّ بها منزل آل نولان. إذ ما أن استقر الأمر بالعائلة حتى استدعت كاتي السيدة التي تقول بطاقتها إنها تعطي دروساً في البيانو. كانت هناك آنستان من عائلة تينمور الأولى مس ليزي وهي التي تعطي دروس العزف والثانية مس ماجي التي تعمل على صقل الصوت. كان ثمن الدرس الواحد يصل إلى 25 سنتاً ولكن كاتي اقترحت عمل صفقة بهذا الخصوص فهي ستقوم بتنظيف منزل آل تينمور لمدة ساعة مقابل درس بيانو كل أسبوع. إلا أن مس ليزي ترددت قليلاً مدعيّة بأن ساعتها أغلى ثمناً من ساعة كاتي. ردّت عليها كاتي قائلة بأن الوقت هو الوقت وأخيراً قبلت مس ليزي بهذه الحجة وتم وضع الترتيبات المناسبة لمثل هذا التبادل.

حان الوقت الموعود للدرس الأول وطُلب من فرانسي ونيلي أن يجلسا في الغرفة الأمامية خلال الدرس وأن يفتحا عينيهما وأذنيهما جيداً. كذلك تم وضع مقعد للمدرِّسة وجلس الطفلان بجانب بعضهما البعض على الطرف الآخر من البيانو فيما قامت كاتي بتعديل وضع المقعد بعصبية وأخذ الثلاثة ينتظرون.

وصلت مس تينمور عند الساعة الخامسة تماماً ورغم أنها تسكن في الطابق السفلي إلا أنها كانت ترتدي زياً رسمياً وكأنها قادمة عبر الشارع. كانت تضع

خماراً أنيقاً حول وجهها بينما كانت قبعتها المصنوعة من صدر وجناح طائر أحمر مخرومة بدبوسين. حدقت فرانسي في تلك القبعة المتوحشة ولكن أمها استدعتها إلى غرفة النوم وأبلغتها أن هذا ليس طائراً وإنما بضع ريش لطيور ملصقة ببعضها البعض ونبهتها بأن تتوقف عن التحديق في القبعة. ولكن فرانسي ورغم تقبلها لما قالته أمها ظلت تعود كل فترة للتحديق في تلك القبعة.

أحضرت الآنسة تينمور معها كل شيء ما عدا البيانو. كان معها ساعة فيها منبّه وبندول معطوب. كانت الساعة تشير إلى الخامسة ولكنها ثبتتها عند السادسة ونصبتها فوق البيانو. ثم استغلت جزءاً من الوقت الثمين لتخلع قفازها الرمادي المشدود وتنفخ على كل إصبع من أصابعها ثم تدلكها جيداً قبل أن ترخيها على البيانو. بعد ذلك فكت خمارها ورمته خلف قبعتها. ثم ثنت أصابعها بإشراقة ونظرت إلى الساعة. سادها شعور بالارتياح لأنها استطاعت كسب ما يكفي من الدقائق. بعد ذلك شغلت البندول وعدّلت جلستها و... بدأ الدرس.

شعرت فرانسي بدهشة شديدة وهي ترى البندول يعمل حتى إنها وجدت صعوبة في التركيز على الإصغاء للآنسة تينمور وبالكاد استطاعت أن تلاحظ الطريقة التي وضعت بها يدي والدتها على البيانو. كانت فرانسي تنسج أحلامها وهي تستمع إلى دقة البندول الرتيبة ولكن المريحة. أما نيلي فقد بقيت عيناه الزرقاوان تلاحقان قضيب البندول المتأرجح حتى أدخل نفسه في حالة من النوم المغناطيسي اللاواعي. ارتخت عضلات فمه وانزلق شعره الأشقر فوق كتفيه. وخرجت من فمه فقاعة بينما هو يتنفس نائماً. لم تجرؤ كاتي أن توقظه خشية أن تساور الآنسة تينمور الشكوك أنها تعطي دروساً لثلاثة أشخاص بسعر شخص واحد.

ظل البندول يدق بانسجام والساعة تنقر بإزعاج فيما راحت الآنسة تينمور وكأنها لا تثق في البندول، تردد واحد اثنين ثلاثة ... وهكذا.. في الوقت نفسه كانت أصابع كاتي المتورمة من كثرة العمل تكافح بعناد لتتقن أول نوتاتها. مر الوقت وساد الظلام الغرفة. فجأة دق منبه الساعة ممزقاً حالة الهدوء. قفز قلب

فرانسي ووقع نيلي المسكين عن مقعده. انتهى الدرس الأول. وتدافعت كلمات الشكر والامتنان من فم كاتي للآنسة تينمور وهي تقول:

– حتى لو لم أتعلم درساً آخر فإن بإمكاني أن أستمر بما تعلمت منك. إنك معلمة جيدة.

ورغم أن الآنسة تينمور سرّت لكلمات الإطراء إلا أنها أجابت قائلة: لن أحاسبك على الطفلين ولكنني أريدك أن تعلمي فقط أنك لم ولن تخدعيني. احمرت وجنتا كاتي فيما نظر الطفلان إلى الأرض خجلاً من اكتشاف أمرهما. أردفت الآنسة تينمور قائلة: سوف أسمح للطفلين بالبقاء معنا في الغرفة.

شكرتها كاتي مرة أخرى، ولكن الآنسة تينمور وقفت وانتظرت، أكدت لها كاتي موعد حضورها إلى منزلها للتنظيف ولكن الآنسة تينمور بقيت تنتظر. عندها شعرت كاتي أن هناك شيئاً متوقعاً منها فسألتها أخيراً.

نعم؟

احمرت وجنتا الآنسة تينمور ولكنها ردت بكبرياء: في العادة عندما أعطي دروساً في البيانو، تقدم لي سيدات البيوت فنجاناً من الشاي بعدما أنتهي من الدرس. وضعت يدها على صدرها وتنهدت بغموض وهي تشير إلى الأدراج التي صعدتها.

– هل تشربين القهوة؟ سألتها كاتي بسرعة. ليس لدينا شاي.

– بكل سرور ردّت الآنسة تينمور بارتياح.

هرعت كاتي إلى المطبخ وغلت القهوة ثم وضعت كعكة حلوى وملعقة في صحن لتقدمها للآنسة تينمور. في ذلك الوقت كان نيلي يغط في النوم على الأريكة فيما كانت فرانسي تتبادل النظرات مع الآنسة تينمور. وأخيراً سألتها الآنسة تينمور.

– ما الذي تفكرين به يا فتاتي الصغيرة.

- أنا فقط أفكر.

- أحياناً أراك تجلسين على حافة المزراب لساعات طويلة. ما الـذي يـدور في خلدك حينذاك؟

- لا شيء. أنا فقط أروي قصصاً لنفسي.

نظرت الآنسة تينمور إليها بحدة وهي تقول بنبرة بدت وكأنها أمـر ولـيس مجرد تصريح: أيتها الفتاة الصغيرة ستصبحين كاتبة قصص عندما تكبرين.

- «نعم يا سيدتي» وافقت فرانسي على كلامها بأدب.

دخلت كاتي وهي تحمل صينية القهوة وقالت موجهـة حـديثها إلى الآنـسة «أنا آسفة إذا لم تكن القهوة بالجودة التي اعتدت عليها ولكـن هـذا مـا يوجـد في منزلنا منها».

«إنها جيدة جداً» أجابت الآنسة تينمور وهي تتذوقها بلـذة وتحـاول أن لا تجرعها مرة واحدة.

في الحقيقـة كـان آل تينمـور يعيـشون عـلى الـشاي الـذي يـشربونه عنـد تلاميذهم فلم تكن بضعة دروس بيانو يومياً بمعدل ربع دولار لـدرس الواحـد تعتبر دخلاً مزدهراً لهم. كانت معظم السيدات يقدمن لهن شاياً رخيـصاً وبعـض قطع البسكويت. وكنّ يعلمن أن من الأدب تقـديم الـشاي لهـن ولكـن دون أن تكون لديهن نية لتقديم وجبة طعام إضافة إلى ما يدفعونه ثمناً للـدروس. لـذلك السبب كانت الآنسة تينمور تتطلع بشوق إلى إعطاء الدرس لدى آل نـولان فقـد كانت قهوتهم رائعة وكانت هناك قطعة كعك أو ساندويش مـن الـسجق جـاهز لتلتهمه.

بعد كل درس كانت كاتي تعيد أمام الطفلين ما تعلمته وكانت تـدفعهما إلى ممارسة العزف لمدة نصف ساعة يومياً. ومع مرور الزمن تعلم الثلاثة العزف على البيانو.

عندما علم جوني أن الآنسة ماغي تينمور تعطي دروساً في الأداء الصوتي، فكّر أن يحذو حذو كاتي. وهكذا تطوع لإصلاح إطار زجاج مكسور في إحدى نوافذ منزل آل تينمور مقابل درسين في الأداء الصوتي لفرانسي. ولكن جوني الذي لم يكن قد عمل في حياته على إصلاح إطار نافذة أحضر مطرقة ومفكاً وأخرج الإطار بأكمله من قفصه وتوقف عند ذلك، إذ لم يكن له أية خبرة تذكر أو أية معرفة فيما عليه أن يفعل فيما بعد. نظر إلى الإطار المكسور وكان هذا أبعد ما يمكنه الوصول إليه. كانت لديه رغبة صادقة في إصلاحه ولكنه لم يكن يملك أية إمكانيات. وفيما هو يحاول جاهداً أن يفعل شيئاً كان هواء الشتاء البارد يتدفق من النافذة إلى داخل المنزل. في النهاية انكسر أحد ألواح الزجاج وفشلت الصفقة. اضطر آل تينمور إلى إحضار أحد العاملين في إصلاح النوافذ لإتمام المهمة فيما اضطرت كاتي إلى تنظيف المنزل مرتين دون أجر مقابل لوح الزجاج المكسور وفقدت فرانسي فرصة أخذ دروس في الأداء الصوتي إلى الأبد.

18

ظلت فرانسي تتلهف دائماً للدخول إلى المدرسة. كانت ترغب في كل الأشياء التي اعتقدت أنها ستحصل عليها مع بدء الدراسة. وكان شعورها بالوحدة كطفلة يجعلها تتوق إلى رفقة أطفال آخرين. أرادت أن تشرب من حنفيات المياه المقلوبة في ساحة المدرسة. كانت فرانسي تعتقد أن هذه الحنفيات تصب مياه الصودا بدلاً من مياه الشرب العادية. ولطالما سمعت أمها وأباها وهما يتحدثان عن غرف الدراسة وعن الخارطة التي تتدلى على الجدار كالظل. ولكن الأهم من كل شيء أنها كانت ترغب في الحصول على قرطاسية مثل دفتر ملاحظات، وأوراق للكتابة ومقلمة لها غطاء منزلج وأقلام جديدة وممحاة ومبراة مصنوعة على شكل مدفع وممسحة أقلام ومسطرة خشبية بطول ست بوصات.

قبل المدرسة، كان لا بد من أخذ المطاعيم. كان الأمر رهيباً كونه قانوناً وضعته السلطات التي حاولت أن تشرح للفقراء والأميين أن التطعيم يعني حقن الشخص بنوع من جراثيم الجدري غير المؤذية من أجل إكسابه مناعة ضد الجراثيم المؤذية والقاتلة، إلا أن الأهالي لم يصدقوها وكل ما فهموه من شرحها هو أنها ستحقن جراثيم في جسد طفل سليم. وقد ذهب بعض الأهالي الذين ولدوا في الخارج إلى حد رفض السماح لهذه السلطات بتطعيم أبنائهم، وهكذا

منعتهم السلطات من دخول المدرسة ومن ثم لاحقتهم قانونياً لأنهم لم يسجلوا أبناءهم في المدارس. كان هؤلاء يحتجون متسائلين: أية بلاد حرة هذه؟ كيف يجبرك القانون على تعليم أطفالك ومن ثم يعرض حياتهم للخطر من أجل أن يدخلوا المدارس؟ ويقولون لك إن عليك أن تعيش طويلاً. كانت النساء يأتين بأطفالهن إلى مراكز التطعيم وهن يبكين وكأنهن يأخذن الأبرياء إلى ساحة الذبح وكان الأطفال يصيحون رعباً من منظر الإبرة فيما تنتظر أمهاتهم في الحجرة المجاورة وهن يلطمن وجوههن بشالاتهن وكأنهن ينحن على ميت.

في ذلك الوقت، كانت فرانسي في سن السابعة ونيلي في السادسة من العمر. وكانت كاتي قد أخرت فرانسي سنة على موعد دخول المدرسة لكي يدخل الطفلان معاً بحيث يستطيعان حماية أنفسهما من الأطفال الأكبر سناً، وفي يوم سبت مروع دخلت كاتي إلى غرفة نوم الطفلين للتحدث معهما وإعطائهما الإرشادات قبل ذهابها إلى العمل. أيقظتهما بهدوء وبدأت تتحدث:

عليكما أن تنهضا الآن وتغسلا وجهيكما جيداً وعند الساعة الحادية عشرة تذهبان إلى مركز الصحة العامة، وتطلبان من الممرضات هناك أن يقمن بتطعيمكما لأنكما ستدخلان المدرسة في أيلول (سبتمبر).

دبت الرعشة في جسم فرانسي وانفجر نيلي باكياً من الخوف.

- هل ستأتين معنا يا أمي؟ ناشدتها فرانسي.

- إن عليّ أن أذهب إلى العمل. من سيقوم بعملي إذا لم أذهب؟ سألتها كاتي وهي تحاول أن تخفي وخز ضميرها بالسخط على اضطرارها للعمل.

صمتت فرانسي ولم تنبس بكلمة كانت كاتي تعلم أنها تخذلها. فالواجب يُحتِّم عليها أن تذهب معهما لتشعرهما بالراحة والطمأنينة بحضورها ولكنها كانت تعلم أيضاً أنها لن تتحمل الأمر. ومع ذلك كان لا بد من تطعيمهما سواء حضرت معهما أم لم تحضر. حاولت أن تقنع ضميرها بأن هذا العالم صعب ومر وأن عليهما أن يعتادا على العيش فيه ويصبحا أكثر صلابة وقدرة على الاهتمام بنفسيهما.

- إذن هل سيأتي بابا معنا ... سألت فرانسي متأملة.

- بابا موجود في مقر الاتحاد ينتظر الحصول على عمل ولن يعود إلى البيت طوال اليوم. لقد أصبحتما كباراً بما فيه الكفاية لتذهبا وحدكما، كما أن الأمر لن يكون مؤذياً.

ارتفع صوت نواح نيلي وبالكاد استطاعت كاتي أن تتحمل الأمر. فقد كانت تحب هذا الطفل كثيراً وكان من بين أهم أسباب عدم حضورها معهما هو أنها لا تريد أن تراه وهو يتألم حتى ولو كان الأمر يتعلق فقط بوخزة إبرة. كادت كاتي أن تصل إلى قرار بينها وبين نفسها بالذهاب معهما. ولكن لا! إذا فعلت ذلك فستخسر أجر نصف يوم عمل مما سيضطرها إلى التعويض عن ذلك صباحاً كاملاً يوم الأحد. ولا شك أنها ستمرض بعد ذلك. سوف يتدبران أمرهما بدونها... قررت كاتي الذهاب إلى العمل وغادرت المنزل.

حاولت فرانسي أن تهدئ من روع أخيها نيلي. فقد كان بعض الأولاد الكبار في الحي قد أخبروه أن العاملين في مركز الصحة العامة يقطعون أيدي الأطفال. أخذته فرانسي إلى فناء الدار لكي تبعد عنه هذه الأفكار وراح الاثنان يلعبان بالطين ويصنعان منه أشكالاً. وقد نسيا في خضم هذا اللعب أن يغتسلا كما طلبت منهما أمهما كما كادا ينسيان الموعد عند الساعة الحادية عشرة. كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة عندما أطلت السيدة غاديس، جارتهما من النافذة لتبلغهما أن أمهما طلبت منها تذكيرهما بالذهاب إلى المركز عند الساعة الحادية عشرة. أنهى نيلي صنع آخر شكل من الطين ورواه من دموعه فيما أخذته فرانسي من يده وسار الاثنان نحو ناصية الشارع.

لدى وصولهما إلى المركز، جلس الطفلان على مقعد الانتظار. إلى جوارهما كانت تجلس أمٌّ يهودية تمسك ابنها الضخم البالغ من العمر ستة أعوام وتبكي فيما هي تقبّل جبينه بين الفينة والأخرى. كانت هناك أمهات أخريات يجلسن عابسات وهن ينتظرن دور أطفالهن. في الداخل الذي يفصله عن غرفة الانتظار

باب زجاجي غير شفاف حيث كانت تدور عملية التطعيم الرهيبة. وكانت الصيحات تتعالى بانتظام ويتخللها زعيق حاد إلى أن يخرج طفل شاحب الوجه يلف قطعة من الشاش حول ذراعه اليسرى. كانت كل أم تهرع إلى طفلها وتضمه وهي تلعن وتتوعد بقبضة يدها الباب الزجاجي غير الشفاف ثم تركض إلى الخارج بعيداً عن غرفة التعذيب. دخلت فرانسي إلى الغرفة وهي ترتجف. لم تكن قد رأت من قبل خلال حياتها الصغيرة أي طبيب أو ممرضة. كان الزي الأبيض الذي يرتديه العاملون في المركز إضافة إلى منظر الأدوات الوحشية اللامعة الموضوعة على الصفيحة إلى جانب علبة المناديل الورقية ورائحة مواد التعقيم وخاصة ذلك المعقم الضبابي الموضوع داخل علبة رسم عليها حليب أحمر، تترك لسانها معقوداً من الخوف.

رفعت الممرضة كم قميص فرانسي ثم مسحت جزءاً من ذراعها الأيسر بخرقة نظيفة. شاهدت فرانسي الطبيب ذا الزي الأبيض يتقدم نحوها حاملاً تلك الإبرة المتوحشة. كان كلما اقترب منها يبدو أضخم وأضخم إلى أن ظهر لها على شكل إبرة ضخمة. أغمضت فرانسي عينيها تنتظر الموت ولكن شيئاً لم يحدث ولم تشعر بشيء. فتحت عينيها ببطء دون أن تجرؤ حتى على التأمل بأن الأمر قد انتهى ولكنها فوجئت ولشدة أساها أن الطبيب ما يزال واقفاً وبيده الإبرة الكبيرة يحدق في ذراعها الذي ظهر بلون بني بسبب اللعب بالطين. سمعت فرانسي الطبيب يتحدث إلى الممرضة: قذارة قذارة... قذارة من الصباح وحتى المساء أنا أعرف أنهم فقراء ولكن بإمكانهم أن يغتسلوا فالماء مجاني والصابون رخيص. فقط انظري إلى ذراعها يا أخت.

نظرت الممرضة إلى ذراع فرانسي وصاحت رعباً. كانت فرانسي تقف أمامها وقد احمرّ وجهها كالنار خجلاً. كان الطبيب من خريجي جامعة هارفارد ويعمل كمتدرب في مستشفى الضاحية وكان مجبراً أن يحضر كل أسبوع ولعدة ساعات إلى إحدى العيادات الثلاث الموجودة في الضاحية فيما هو يخطط للعمل في عيادة راقية في مدينة بوسطن بعد أن ينهي سنته كطبيب متدرب. وكان يكتب لخطيبته

في بوسطن وهي من عائلة راقية اجتماعياً ويصف عمله في عيادات بروكلين الفقيرة بأنه في «المطهر»، وهو مكان بين الجنة والجحيم في الديانة المسيحية.

كانت الممرضة من سكان وليامزبيرغ وكان يمكن أن تستدل على ذلك من لهجتها فقد جاءت إلى أمريكا كطفلة لعائلة من المهاجرين البولنديين وكانت طموحةً جداً حيث عملت في دكان لبيع الحلويات وظلت تذهب إلى المدرسة ليلاً إلى أن تمكنت بعد ذلك من أن تتدرب وتعمل كممرضة. كانت تأمل أن تتزوج طبيباً يوماً ما ولم تكن ترغب بأن يعلم أحد أنها جاءت من ضاحية فقيرة.

بعد أن انتهت نوبة الغضب عند الطبيب، وقفت فرانسي ورأسها متدلٍّ إلى الأسفل. «كانت فتاة قذرة» هذا هو ما قصده الطبيب. كان يتحدث إلى الممرضة بصوت منخفض ويتساءل كيف يمكن لهذا النوع من الناس أن يعيش وأضاف أن من الأفضل أن يتم تعقيم هؤلاء الناس حتى لا يلدوا أبداً. تساءلت فرانسي هل هذا الكلام يعني أنه يريد لها أن تموت أو أنه سيفعل شيئاً ما ليجعلها تموت بسبب يديها اللتين توسختا نتيجة اللعب بالطين.

نظرت فرانسي إلى الممرضة. كانت النساء جميعهن بالنسبة لها مثل أمها، والخالتين سيسي وإيفي. ظنت أن الممرضة ستقول شيئاً مثل: «ربما أن أم هذه الطفلة تعمل ولم يكن لديها الوقت لتغسلها هذا الصباح... أو أن تقول: أنت تعلم أيها الطبيب، الأطفال يلعبون دائماً بالطين ولكن الممرضة لم تقل شيئاً مثل هذا بل كل ما قالته هو: إنه شيء رهيب أنا أؤيدك يا سيدي الطبيب. لا يوجد عذر لهؤلاء الناس لأن يكونوا قذرين بهذا الشكل».

إن الشخص الذي يتمكن من إخراج نفسه من بيئة متدنية اجتماعياً عبر التزلف يجد نفسه أمام خيارين: فهو بإمكانه أن ينسى أو أن يترفع عن النسيان ولا ينسى أبداً هؤلاء الذين تركهم وراءه خلال تسلقه الصعب للسلم الاجتماعي، فيظل يتفهمهم ويشفق عليهم. ولكن ممرضتنا هذه اختارت الطريق الأول أي النسيان. فهي تقف هنا، وهي تعلم تماماً أنها بعد عدة سنين سيظل

ضميرها مسكوناً بالأسى الذي يظهر على وجه هذه الطفلة الفقيرة النحيلة وأنها سوف تتمنى لو أنها قالت شيئاً من باب العطف والرحمة لكي تنقذ روحها الخالدة. كانت تعلم أن ما فعلته قد قزَّمها وجعلها تشعر بالحقارة لنفسها ولكنها لم تكن تملك الشجاعة لتفعل غير ذلك.

نعود إلى فرانسي التي عندما وخزتها الإبرة لم تشعر بها أبداً. فقد كان الألم الذي نتج عن كلمات الطبيب يهز جسدها ويدفعها إلى فقدان الشعور. وفيما كانت الممرضة تلف الشاش حول يدها والطبيب يضع معداته في جهاز التعقيم ويخرج إبرة جديدة تكلمت فرانسي...

تكلمت كما لم تتكلم من قبل. قالت لهما: «إن أخي هو الطفل التالي أرجو ألا تتفاجؤوا لأن يده متسخة كيدي كما أنكم لستم ملزمين بأن تقولوا له ما قلتموه لي». حدق الاثنان في هذه القطعة من الإنسانية التي تحولت فجأة إلى خطيب بليغ. كان صوت فرانسي متحشرجاً من الأسى والدموع حين أردفت قائلة أرجو أن لا تقولوا أمامه ما قلتموه أمامي لأن هذا لن ينفع بشيء، فهو صبي ولا يهمه إن كان قذراً. استدارت نحو الباب وتعثرت قليلاً قبل أن تغادر الغرفة وتترك الطبيب والممرضة مشدوهين.

سمعت الطبيب يقول وهي خارجة: لم أكن أعتقد أنها تفهم ما أقول. ثم سمعت الممرضة تجاوبه وهي تتنهد: آه حسناً.

عادت كاتي إلى المنزل عند موعد الغداء وكان الطفلان قد عادا من حفلة التطعيم. أخذت تنظر إلى أذرعهما الملفوفة بالشاش وعيونهما الحزينة حين سألتها فرانسي بصوت عاطفي يثير الشفقة: «لماذا يا أمي لماذا لماذا يفعلون بنا هكذا؟ يقولون أشياء ثم يغرزون الإبر في أذرعنا؟».

«إنه التطعيم». أجابت كاتي بحزم والآن وقد انتهى الأمر أعتقد أنه كان شيئاً جيداً إذ إن بإمكانك أن تعرفي يدك اليمنى من اليسرى. فاليد اليمنى هي التي تكتبين بها أما اليسرى فهي التي تجعلك تقولين «آه آه».

لاقى هذا التفسير رضاً لدى فرانسي لأنها كانت تجد صعوبة في تحديد يدها اليمنى ويدها اليسرى. فقد كانت عسراوية تأكل وترسم الصور بيدها اليسرى وكانت كاتي تتدخل دائماً لتنقل الطبشورة أو الإبرة من يدها اليسرى إلى اليمنى.

بعد الشرح الذي تلقته من أمها حول التطعيم، أصبحت فرانسي تعتقد أنه كان أمراً رائعاً فقد كان ثمناً بخساً مقابل حل مشكلتها الكبرى حول معرفة اليد اليمنى من اليسرى. وهكذا بدأت فرانسي باستخدام يدها اليمنى بعد التطعيم ولم تعد تواجه مشكلة بعد ذلك.

تعرضت فرانسي للحمّى في تلك الليلة التي تلت التطعيم كما كان موقع حقن الإبرة في ذراعها يجعلها تحس بألم. ولما أخبرت أمها أحست كاتي بالخطر وأصدرت لها تعليمات مشددة بأن لا تحك مكان الحقن أبداً !

- لماذا لا؟ سألت فرانسي.

- لأنك إذا فعلت ذلك ستنتفخ يدك ويتحول لونها إلى الأسود ثم تسقط ! لذلك لا تحكيها أبداً.

لم تقصد كاتي أن تروع الطفلة. فقد كانت هي نفسها خائفة إذ اعتقدت أن أي لمس خاطئ لليد سيعرضها لتسمم الدم، ولكنها أرادت أن تخيف فرانسي كي تتوقف عن حك ذراعها.

وهكذا وجدت فرانسي نفسها مضطرة للانتباه كي لا تحك ذراعها رغم الألم. ولكن القلق ظل يساورها إلى أن جاء موعد النوم في اليوم التالي. قبل أن تنسل في الفراش رفعت فرانسي لفة الشاش لتنظر إلى الجرح وكم دبّ فيها الرعب عندما شاهدت مكان غرز الإبرة منتفخاً ولونه أخضر غامق يخرج منه قيح أصفر اللون.

هي لم تحكه، كانت تعرف أنها لم تحكه ولكن... انتظر ربما حكّته خلال اليوم في الليلة السابقة.. نعم أظن أن هذا ما حدث. خافت فرانسي أن تخبر أمها لأنها سوف توبخها بشدة وتقول لها: لقد قلت لك لا تحكيها ولكنك لا تسمعين!

كانت تلك الليلة ليلة أحد ولم يكن والدها في البيت فقد كان يعمل ليلاً. لم تستطع فرانسي النوم. نهضت من سريرها الصغير وذهبت إلى الغرفة الأمامية وجلست عند النافذة. ثم أسندت رأسها على ذراعيها وأخذت تنتظر الموت.

في الثالثة صباحاً سمعت صوت عربة شارع غراهام تقف عند زاوية الشارع. كان هذا يعني أن أحداً سينزل منها. مالت باتجاه خارج النافذة. نعم إنه أبي، نزلت إلى الشارع لتستقبله، كان يسير نحو البيت بخطواته الراقصة وهو يطلق صفارة بلحن أغنية «يا حبيبتي الرجل في القمر». كان منظره وهو يرتدي بدلة التوكسيدو وقبعة سباق الخيل ويحمل مريول عمله كنادل تحت ذراعه يشكل بالنسبة لفرانسي شيئاً يشبه الحياة نفسها. نادته عندما وصل إلى باب المنزل. نظر إليها ثم رفع قبعته بتحية مؤدبة. أدخلته فرانسي من باب المطبخ وسألها بمرح:

– ماذا تفعلين حتى ساعة متأخرة من الليل أيتها الآنسة الجميلة؟ إنها ليست ليلة السبت أظنك تعرفين ذلك.

– كنت أجلس عند النافذة.. همست فرانسي أنتظر ذراعي حتى تسقط.

أطلق جوني ضحكة صغيرة ثم أغلق الباب المفضي إلى غرف النوم حين أخذت فرانسي تشرح له عن ذراعها. أشعل الغاز ثم رفع لفّة الشاش عن ذراع فرانسي. كاد يتقيأ لدى مشاهدته منظر ذراعها المتقيح والمتورم ولكنه لم يشعرها بذلك أبداً.

– لماذا أنت خائفة؟ هذا لا شيء يا صغيرتي، لو أنك رأيت ذراعي عندما تم تطعيمي. كانت منتفخة أكثر منك بمرتين وألوانها حمراء وبيضاء وزرقاء بدلاً من اللونين الأخضر والأصفر. والآن انظري إليها كم هي قوية.. لم تسقط أبداً. كان يكذب عليها لأنه لم يأخذ أي تطعيم في حياته.

صبّ جوني ماءً دافئاً في حوض صغير ثم أضاف بضع نقاط من حمض الكربوليك وغسل الجرح القبيح مرة تلو مرة. جفلت فرانسي عندما لسعها

الحمض ولكن جوني طمأنها بأن اللسعة تعني أن الجرح يلتئم. كان يغني أغنية عاطفية بينما هو يغسل الجرح، لم تكن فرانسي تفهم منها شيئاً.

نظر حوله باحثاً عن قطعة قماش نظيفة لكي يلفها مكان الشاش ولما لم يجد، خلع سترته وقميصه ثم مزّق قطعة من قميصه الداخلي ولفها حول الجرح:

- قميصك الداخلي.. ما يزال بحالة جيدة. احتجت فرانسي.

- كما أنه مليء بالثقوب.. على أية حال. أجابها جوني.

لفّ قطعة القماش حول جرحها. كانت رائحة القماش مثل القميص تعبق بالدفء وبالسجائر ولكن الأمر كان مريحاً بالنسبة للطفلة فقد كانت رائحة القميص تعني لها الحماية والمحبة.

- لقد أصبحت بحالة جيدة أيتها الآنسة الجميلة. من الذي أعطاك فكرة أن ذراعك سيسقط. قال جوني.

- أمي قالت لي إنها ستسقط إذا بقيت أحكّها. أظن أني حككتها خلال النوم.

- ربما.

قبلها أبوها على خدها النحيل الرقيق قائلاً: والآن عودي إلى السرير.

عادت فرانسي إلى سريرها ونامت ملء جفونها. عند الصباح خفّت الحمى ثم توقفت وعادت ذراعها إلى وضعها الطبيعي بعد عدة أيام.

بعد أن عادت فرانسي إلى سريرها سحب جوني سيجاراً وراح يدخن ثم نزع ثيابه بهدوء وانسلّ إلى جانب كاتي في الفراش. كانت نائمة ولكنها أحست بوجوده، وفي إحدى المرات النادرة التي أظهرت فيها عواطفها رمت ذراعها على صدره. رفع جوني ذراعها برفق وابتعد قدر ما يستطيع إلى الطرف الآخر من السرير ثم قرّب جسده نحو الجدار وطوى يديه خلف رأسه واستلقى. ولكنه ظل طوال الليل يحدق في الظلام.

19

دخلت فرانسي إلى المدرسة وهي تتوقع أشياء عظيمة. فبما أن التطعيم وحده علمها فوراً كيف تميز اليد اليمنى من اليسرى، إذن لا بد أن هناك أعاجيب أكبر وأعظم تنتظرها في المدرسة. كانت تظن أنها ومنذ اليوم الأول ستعود إلى البيت وهي تعرف القراءة والكتابة. ولكنها للأسف عادت في ذلك اليوم وأنفها دامٍ نتيجة قيام أحد الأولاد الكبار بضرب رأسها على الحافة الحجرية لحوض ماء الشِّرب عندما حاولت أن تشرب من الحنفية ماء لم يكن مثلما توقعته ماء صودا بل ماءً عادياً.

خاب أمل فرانسي عندما أجبروها على مشاركة طفلة أخرى في المقعد الدراسي المخصص أصلاً لشخص واحد. كانت ترغب في مقعد لها وحدها. وعندما قام المراقب بإعطائها قلماً في الصباح، أخذته باعتزاز ولكن لتعيده بعد ذلك إلى مراقب آخر عند الساعة الثالثة.

لم يكد يمر على وجودها في المدرسة نصف يوم حتى أدركت فرانسي تماماً أنها لن تكون محظية أبداً لدى أية معلمة. فهذا الامتياز محصور فقط في مجموعة قليلة من الفتيات، اللواتي يتنعمن بشعر منسق لامع وثياب نظيفة ناضرة وعقد شعر حريرية جديدة. إنهن فتيات العائلات الميسورة من أصحاب المحلات في

الحي. لاحظت فرانسي كيف أن المعلمة مس بريغز تبتسم لهن وتُجلسهن في أماكن مختارة من الصف الأمامي، كل منهن على مقعد. إذ إن مثل هؤلاء المحظيات لا يشاركن أحداً في مقاعدهن. كذلك كان صوت مس بريغز حنوناً عندما تتحدث مع هؤلاء الفتيات في حين أنه ينقلب مزمجراً عندما يكون الحديث مع الأغلبية الباقية من الفتيات اللواتي يأتين من عائلات فقيرة.

تعلمت فرانسي في ذلك اليوم الأول من المدرسة كما تعلّم باقي الأطفال من طبقتها أشياء أكثر مما كانت تتوقع أو يتوقعون. تعلمت النظام الديمقراطي الأكبر المتبع في المدرسة. ولكم أربكها وآلمها ذلك الموقف الذي تتخذه المعلمة من كراهية لها وللأطفال من طبقتها لا لسبب إلا لكونهم فقراء. كانت المعلمة تتصرف وكأنه لا حق للفتيات مثلها أن يدخلن إلى المدارس بل إن المدرسة اضطرت إلى إدخالهن مجبرة، وهي تفعل ذلك فقط من باب تسيير الأمور. كان موقف المعلمة ينطوي على الحسد كونهن حظين ببعض الفتات من التعليم تماماً مثل موقف الطبيب الذي تصرف وكأنما لا يوجد حق لأشخاص من طينة فرانسي حتى بالحياة.

قد يبدو الأمر أن هؤلاء الأطفال غير المرغوب فيهم يمكن أن يتحالفوا معاً ليشكلوا جسداً واحداً ضد الذين يقفون ضدهم. ولكن الأمر لم يكن كذلك. كان هؤلاء يكرهون بعضهم البعض أكثر مما تكرههم المعلمة حتى إنهم كانوا يقلدون طريقة زمجرة المعلمة عندما يتحدثون إلى بعضهم البعض.

كان هناك دائماً طفل سيء الحظ تختاره المعلمة ليكون كبش الفداء. وكان هذا الطفل أكثر المعرضين للإزعاج والسخرية ونفث الحقد من قِبَل المعلمة. وما أن يعلم باقي الأطفال أن هذا هو الطفل الذي اختارته المعلمة ليكون مضرب عصاها، ينقلب عليه باقي الأطفال ويأخذون بترداد كلام المعلمة ضده. وفي أغلب الأحيان كانوا يتوددون إلى الفتيات المقربات من المعلمة لعلمهن بأنهن يصبحن أقرب إلى العرش بهذه الطريقة.

ثلاثة آلاف طفل كانوا يحتشدون في تلك البناية القبيحة المسماة مدرسة والتي لا تكاد مرافقها تكفي لألف فقط. وكثيرة هي القصص والشائعات القذرة التي كان الأطفال يتناقلونها بينهم. إحداها أن المعلمة مس فايفر وهي شقراء بيضاء البشرة وذات ضحكة مقهقهة عالية كانت تتسلل إلى الدور السفلي لتضاجع البواب المساعد وكانت كلما أرادت أن تفعل ذلك تعيّن عريفاً للصف وتدعي أنها ذاهبة إلى المكتب. أما الإشاعة الثانية الرائجة بين الأطفال الصغار الذين كانوا أكثر الضحايا تضرراً فهي أن المديرة وهي سيدة في أواسط العمر قاسية القلب، ثقيلة ومتوحشة ترتدي ثياباً لماعة وتفوح منها دائماً رائحة خمرة الجن الخام كانت تحضر الأطفال المشاغبين إلى مكتبها وتطلب من الذكور خلع بناطيلهم لتضربهم على أقفيتهم بعصاها المصنوعة من الراتان. أما الإناث فكن يضربن وهن مرتديات ملابسهن.

بالطبع لم يكن العقاب الجسدي مسموحاً به في المدارس ولكن من الذي سيخبر أو يبلّغ إذا وقع الأمر؟ بالتأكيد ليس الأطفال الذين يتعرضون للضرب لأن التقليد المتبع في الحي كان يقضي أنه إذا ما أبلغ عن تعرض طفل للضرب في المدرسة فإنه سيتلقى عقاباً جسدياً آخر في منزله لأنه أساء التصرف هناك. لذلك كان الأطفال يتغاضون عن أي تبليغ بالضرب ويكتفون بعقاب واحد كأهون الشرّين.

ولكن الأمر البشع في مثل هذه القصص هو أنها كانت حقيقية بقدر ما كانت قذرة. والصفة الوحيدة التي يمكن إعطاؤها لمثل هذه القصص في المدارس الحكومية هي القسوة والوحشية. وفي سنوات 1908 و1909 لم يكن أحد في وليامزبيرغ قد سمع بعد بعلم النفس عند الأطفال وكانت متطلبات الوصول إلى وظيفة معلم أمراً سهلاً، فأي خريج ثانوي يمكنه الحصول على شهادة معلم بعد سنتين من التدريب في معهد للمعلمين. ونادراً ما كان هناك معلمون ملتزمون أو مهنيون في عملهم. كان مجال التعليم من بين الوظائف القليلة المتاحة للخريجين. كما كان مردوده أفضل من مردود العمل في المصانع ناهيك عن أشهر العطلة في

الصيف وامتياز الحصول على راتب تقاعدي. بالنسبة للنساء فقد كن يخترن التعليم لأن أحداً لم يتقدم للزواج بهن، إذ لم يكن مسموحاً للمرأة المتزوجة أن تصبح معلمة ولذلك كانت معظم المعلمات من غير المتزوجات اللواتي يعانين من عصبية المزاج ومن فراغ في حياتهن العاطفية ونقص في الحب وكن ينفثن هذه العقد في وجه الأطفال بطرق ملتوية واستبدادية.

لم يكن غريباً أن أقسى المعلمات كن أولئك اللواتي أتين من منازل تشبه في وضعها الاجتماعي منازل الأطفال الفقراء. فقد بدا أنهن كن يمارسن المرارة والحرمان التي عانين منها في خلفيات حياتهن الفقيرة والمريرة، ضد هؤلاء الأطفال المساكين الذين جاؤوا من البيئة نفسها. بالطبع لم يكن هذا الأمر ينطبق على كل المعلمات. فقد كانت هناك معلمات يشعرن مع الأطفال ويعانين معهم ويحاولن مساعدتهم ولكن مثل هؤلاء لم يكنّ ليستمررن كثيراً في عملهن كمعلمات. وقد كن إما أن يتزوجن بسرعة ويتركن المهنة أو يهجرن وظائفهن نتيجة الإساءات التي يتعرضن لها من زميلاتهن المعلمات الأخريات.

كانت مشكلة الذهاب إلى الحمامات أو كما كان متعارفاً عليه بلفظ لطيف «قضاء الحاجة»، تعتبر مشكلة مقيتة ومروعة. فقد كان يُطلب من الأطفال أن يقضوا حاجاتهم قبل أن يتركوا منازلهم في الصباح ويصبروا حتى فترة الغداء عند الظهر. كان من المفترض أن تكون هناك فرصة بين الدروس ولكن لم يكن باستطاعة الأطفال الاستفادة من تلك الفرصة لقضاء حاجاتهم لأن ضغط الحشد كان يمنع الطفل من الاقتراب من المراحيض التي كان عددها عشرة مقابل خمسمئة طالب. وإذا ما أسعف الطفل الحظ بالوصول إلى باب الحمام فإنه سيجد عشرة من عتاة الطلاب في المدرسة (البلطجية) يحتلون المكان على المدخل ويمنعون الطلاب الآخرين من الدخول. كان هؤلاء قساة القلوب لا يصغون إلى مناشدات والتماسات جموع الأطفال المحتشدين لقضاء حاجاتهم. بل كان بعضهم يطلب سنتاً مقابل إدخال أي طفل وهو ثمن يندر أن تجد من يستطيع دفعه. كان هؤلاء العتاة لا يرخون قبضتهم عن أبواب الحمامات المتأرجحة حتى

يقرع الجرس معلناً انتهاء وقت الفرصة. لم يستطع أحد أن يجيب على سؤال: ما هي المتعة التي كان هؤلاء يجدونها في أعمالهم المروعة هذه؟ لم يجد هؤلاء أبداً من يعاقبهم لأنه ومنذ بداية المدرسة لم تدخل معلمة واحدة إلى حمامات الأطفال كما لم يكن الأطفال يجرؤون على التبليغ عنهم لأن أي فرد منهم يفعل ذلك ومهما كان صغيراً في السن فسيلقى العذاب والضرب من قِبَل الشخص الذي ورد فيه التبليغ وقد تصل قسوة العقاب حتى الموت.

عملياً، كان يسمح للطفل بمغادرة غرفة الدراسة إذا طلب ذلك. كان هناك نظام خاص متبع لتجنب أي حياء بهذا الخصوص فرفع إصبع واحد يعني أن الطفل يريد الخروج لوقت قصير، ورفع إصبعين يعني أن المسألة ستطول قليلاً، ولكن المعلمات ذوات القلوب القاسية كن يؤكدن لبعضهن البعض أن الأمر حجة وليس حاجة، أي حجة للطفل للخروج من الصف وليس حاجة يريد أن يقضيها. لذلك كن نادراً ما يسمحن للأطفال بالخروج لعلمهن أن لديهم متسعاً من الوقت لفعل ذلك خلال الفرصة.

ولكن وكما لاحظت فرانسي، فقد كان يسمح للأطفال المحظيين والمدللين من الذين يجلسون في المقاعد الأمامية أن يخرجوا متى شاؤوا. أما بالنسبة لباقي الأطفال فقد استطاع نصفهم التكيف مع آراء المعلمات بهذا الخصوص بينما ظل النصف الآخر يبول داخل ثيابه.

استطاعت الخالة سيسي أن ترتِّب مسألة خروج فرانسي من الصف لقضاء الحاجة. وكانت قد حرمت من رؤية الطفلين لمدة طويلة منذ أن منعها جوني وكاتي من زيارة منزلهما مرة أخرى. كانت في شوق شديد للطفلين، وقد علمت أنهما دخلا المدرسة وأرادت أن تعرف كيف تسير أمورهما.

في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني تباطأ الوضع الاقتصادي في البلاد وتم تسريح سيسي من العمل. وهكذا وجدت الوقت للتسكع حول شارع المدرسة عند موعد خروج الأطفال بحيث تقابل الطفلين ويظهر الأمر وكأنه عن طريق

الصدفة فيما لو أبلغا والديهما. وسط الحشود، تمكنت سيسي من رؤية نيلي أولاً. كان أحد الأولاد الكبار قد نزع عنه قبعته ورماها أرضاً ثم داس عليها وولى هارباً. أمسكت سيسي بيد نيلي وهي تصيح بصوت أجش ولكنه استطاع لي ذراعه والإفلات منها راكضاً نحو أسفل الشارع. أدركت سيسي أنه قد بدأ يكبر.

أما فرانسي فقد لفَّت سيسي بذراعها عندما رأتها وقبلتها. اصطحبتها سيسي إلى دكان الحلوى القريب واشترت لها بقيمة سنت بوظة بالشوكولاته ثم دعتها إلى الجلوس بجانبها حتى تحدثها عن سير الأمور في المدرسة. عرضت عليها فرانسي الكتاب التمهيدي ودفتر الواجبات مع الأحرف التي كتبتها. أبدت سيسي إعجابها وتأثرها ولكنها حدقت مطولاً في وجه الطفلة النحيل ولاحظت أنها كانت ترتجف. لم يكن اللباس الذي ترتديه كافياً لدرء برد نوفمبر (تشرين الثاني). كانت ترتدي ثوباً قطنياً وكنزة مهلهلة وجوارب قطنية رفيعة. ضمتها إلى صدرها بذراعها علّها تمنحها بعض الدفء.

– فرانسي يا صغيرتي، إنك ترتجفين كورقة شجر. قالت لها.

لم تكن فرانسي قد سمعت هذا التعبير من قبل، إلا أنه دفعها للتفكير وأخذت تنظر إلى الشجرة الصغيرة التي تنمو وسط الحوض الإسمنتي إلى جانب منزلهم. كان ما زال عليها بعض الأوراق الجافة تحاول البقاء معلقة بينما الهواء يهزها. «ترتجفين كورقة الشجر». خزّنت فرانسي الكلمة في رأسها.

سألتها سيسي: ما الأمر يا فرانسي إنك باردة كالجليد.

لم ترغب فرانسي بأن تخبرها بالأمر في البداية ولكنها وأمام ملاطفة سيسي لها أخفت وجهها الخجل عند رقبة سيسي وهمست لها شيئاً.

– آه.. لا عجب أنك ترتجفين! لماذا لم تطلبي ...

– إن المعلمة لا تنظر إلينا عندما نرفع أصابعنا طلباً للخروج.

– حسناً لا تقلقي بهذا الشأن. الكل يتعرض لمثل هذه الأمور حتى ملكة إنكلترا تعرضت له عندما كانت فتاة صغيرة.

ولكن هل كانت ملكة إنكلترا تشعر بالخجل وتتحسس من هذا الأمر. بكت فرانسي مرة بهدوء ومرة بصخب. وانهالت من عينيها دموع الخجل والخوف. كانت خائفة من العودة إلى البيت خشية أن توبخها أمها.

– «إن أمك لن توبخك»، قالت لها سيسي. «إن مثل هذه الحادثة يمكن أن تحدث مع أية فتاة بعمرك. لا تقولي ذلك على لساني ولكن أمك كانت تبلل ثيابها وهي صغيرة وكذلك كانت جدتك. ليس هذا بشيء جديد في العالم ولست أول من يحدث منه شيء كهذا».

– ولكني كبيرة على مثل هذا الأمر. الأطفال فقط يبولون على أنفسهم. إن أمي ستوبخني أمام عيني نيلي.

– أخبريها الأمر بنفسك فوراً قبل أن تكتشفه بنفسها وعديها أنك لن تفعليها مرة أخرى. لن تعيبك على ذلك. قالت سيسي.

– لا يمكنني أن أعدها لأن الأمر قد يحصل مرة أخرى بسبب رفض المعلمة السماح لنا بالخروج.

– من الآن فصاعداً، سوف تسمح لك المعلمة بالخروج في أي وقت تشائين، أنت تؤمنين بقول خالتك سيسي، أليس كذلك؟

– نـ... نعم ولكن كيف تعرفين أن ذلك سيحصل.

– سوف أضيء شمعة لك في الكنيسة اليوم.

شعرت فرانسي ببعض العزاء بعد هذا الوعد وعندما عادت إلى البيت وأخبرت أمها وبختها كاتي ولكن بشكل عادي ولكن فرانسي كانت مسلحة بالقصة التي روتها لها الخالة سيسي حول كون أمها وجدتها قد تعرضتا لمثل هذا الأمر. في اليوم التالي وقبل موعد ابتداء الدروس بعشر دقائق، كانت سيسي تواجه المعلمة داخل غرفة الصف.

– هناك فتاة صغيرة تدعى فرانسي نولان في صفك.. بدأت سيسي الكلام.

- فرانسيس نولان! قالت المعلمة وهي تحاول أن تصلح لفظ الاسم.

- هل هي تلميذة نجيبة؟

- نـ.. نعم.

- هل هي حسنة التصرف.

- من الأفضل لها أن تكون كذلك.

قربت سيسي وجهها من وجه المعلمة مس بريغز وهنا أصبح صوتها أكثر انخفاضاً ونعومة من قبل ولكن لسبب ما أرجعت مس بريغز وجهها إلى الخلف. قالت سيسي:

- فقط أردت أن أسألك إذا كانت فرانسي تلميذة حسنة التصرف.

- نعم ردّت المعلمة بسرعة.

- أنا أمها. قالت سيسي وهي تكذب.

- لا.

- نعم.

- هل هناك شيء ترغبين في معرفته عن دراسة الطفلة يا سيدة نولان.

- هل وصل إلى علمك من قبل أن فرانسي تعاني من مشاكل في الكلى؟

- في الكلية؟

- لقد قال لها الطبيب إنها إذا طلبت الذهاب إلى الحمام ورفض أحدهم السماح لها فإنها قد تسقط ميتة بسبب عدم قدرة كليتيها على تحمل الضغط.

- إنك تبالغين بالتأكيد.

- هل ترغبين في رؤيتها تسقط ميتة في الصف؟

- بالطبع لا ولكن ...

– وهل ترغبين أن تذهبي إلى مركز الشرطة لتقفي أمام الطبيب والقاضي وتقولي إنك قمت بمنعها من الذهاب إلى الحمام؟

هل كانت سيسي تكذب؟ ... لم تستطع المعلمة مس بريغز أن تجزم بذلك. كان شيئاً غريباً أن المرأة أي الأم قالت ذلك بطريقة هادئة، عاطفية وناعمة، لم تسمع مثلها من قبل. في تلك اللحظة شاهدت سيسي من النافذة أحد رجال الشرطة يسير في الطريق. كان شرطياً ضخم الجثة. أشارت سيسي إلى الرجل موجهة حديثها للمعلمة: أترين هذا الشرطي؟ أومأت المعلمة بالإيجاب ولم تتردد سيسي بالقول... إنه زوجي.

– والد فرانسيس؟

– ومن غيره، اقتربت سيسي من النافذة وصاحت: يوهو... جوني.

التفت الشرطي إلى مكان الصوت في الأعلى مندهشاً فناولته سيسي قبلة على الهواء. لوهلة ظن الشرطي أن إحدى المعلمات قد جن جنونها ولكن إحساسه الفطري طمأنه أنها واحدة من المعلمات الأصغر سناً التي ظلت تحاول منذ مدة طويلة التحرش به عاطفياً. أخيراً جمع شجاعته وردّ عليها بقبلة أخرى في الهواء ثم رفع قبعته بأدب وتابع سيره وهو يصفر بأغنية «في مرقص الشيطان». بالطبع أنا شيطان أمام النساء! فكّر قليلاً ثم قال لنفسه: أنا كذلك ولدي ستة أطفال في المنزل؟

جحظت عينا المعلمة بريغز من الدهشة. كان شرطياً وسيماً قوي البنية. في هذه اللحظة دخلت إحدى الفتيات المحظيات وهي تحمل علبة حلوى ملفوفة بطريقة أنيقة وقدمتها إلى المعلمة. استقبلتها المعلمة بفرح وقبّلتها على خدها. بالطبع لم تفت تلك الملاحظة على سيسي التي تملك ذهناً حاداً يلتقط مثل هذه الأمور «على الطاير» كما يقولون باللغة العامية.

– اسمعي يا سيدتي المعلمة. قالت سيسي: لا أظن أنك تعتقدين أننا نملك الكثير من المال؟

- بالتأكيد لم أكن أفكر...

- إننا قوم لا نحب الظهور والآن إن عيد الميلاد يقترب... قالت سيسي بطريقة تحاول أن تفهمها شيئاً.

- ربما ... أذعنت المعلمة قائلة: لم أستطع أن أرى فرانسيس دائماً وهي ترفع إصبعها.

- أين تجلس هي؟ ربما أنك لا ترينها جيداً؟

أشارت المعلمة إلى مقعد مظلم في الخلف فأردفت سيسي:

- ربما إذا جلست أقرب إلى الأمام سيصبح بإمكانك أن تريها بشكل أفضل.

- إن ترتيبات الجلوس قد تم الانتهاء منها.

- إن عيد الميلاد قادم.

- سأرى ما يمكنني أن أفعله.

- أرجو ذلك وأرجو أن تفعلي الأمر بشكل جيد... قالت سيسي وهي تسير نحو الباب ثم ما لبثت أن التفتت إليها وهي تقول: ليس فقط لأن عيد الميلاد قادم ولكن زوجي لن يرحمك أبداً إذا جاء هنا ووجدك تعاملينها بشكل سيء.

بعد هذه المقابلة بين المعلمة والأهل، لم تعد فرانسي تواجه أية مشكلة، وحتى لو رفعت إصبعها بشكل خجول كانت المس بريغز تراها وتسمح لها بالخروج، حتى إنها أجلستها في مقعد أمامي لفترة من الوقت. ولكن عندما حلّ عيد الميلاد ولم تتلقّ المعلمة أية هدية ثمينة أعادتها إلى المقعد الخلفي المظلم.

لم تعلم فرانسي ولا كاتي أبداً بالحديث الذي دار بين سيسي والمعلمة ولكن فرانسي لم تعد تخجل، على الأقل. فحتى ولو لم تكن المس بريغز تعاملها بشكل

جيد إلا أنها لم تسئ معاملتها. بالطبع أدركت المس بريغز أن ما قالته هذه المرأة كان سخيفاً ولكن لماذا المجازفة؟ صحيح أنها لم تكن تحب الأطفال ولكنها لم تكن شيطانة أيضاً فهي لا ترغب أبداً بمشاهدة طفل يسقط ميتاً على الأرض أمام عينيها.

بعد أسابيع قليلة، طلبت سيسي من إحدى الفتيات اللواتي يعملن معها أن تكتب بطاقة فيها رسالة لكاتي تطلب فيها من أختها أن تنسى ما حدث وأن تسمح لها بزيارتها في المنزل لرؤية الطفلين بين الحين والآخر، ولكن كاتي تجاهلت البطاقة.

هنا تدخلت الوالدة ماري روميني لصالح سيسي ونبهت كاتي متسائلة:

- ما هو هذا الشيء الرهيب الذي يحول بينك وبين رؤية أختك؟

- لا يمكنني أن أخبرك. قالت كاتي.

- إن التسامح هو نعمة قيِّمة وهو لن يكلفك شيئاً.

- إن لديّ طرقي الخاصة. قالت كاتي.

- نعم... ردت أمها موافقة وتنهدت دون أن تقول كلمة أخرى بعد ذلك.

- لم تكن كاتي لتعترف بالأمور ولكنها كانت تفتقد سيسي. كان تفتقد إحساسها الأرعن الصادق وطريقتها الحادة في تصحيح الأمور. لم تكن إيفي تذكر أختها سيسي لدى زيارتها كاتي وخاصة بعد محاولة أمها الوحيدة للمصالحة بينهما. وكذلك لم تذكر الأم اسم سيسي أمامها مرة أخرى. ولكن كاتي كانت تعلم عن أخبار أختها بواسطة أحد المخبرين الرسميين في العائلة ويعمل وسيطاً في شركة تأمين. كان آل روميلي جميعهم يتعاملون مع شركة التأمين ذاتها وكان هذا الوسيط يجمع النقود منهم كل أسبوع وينقل الأخبار والقصص لكل منهم. في أحد الأيام أخبرها الرجل أن سيسي قد حظيت بمولود ولكنه لم يستطع التأمين

عليه لأنه توفي بعد ساعتين من ولادته. شعرت كاتي بالخجل مـن نفـسها لكونها تصرفت بقسوة مع سيسي المسكينة.

- في المرة التالية التي ترى فيها أختي... قالت كاتي للرجل أرجو أن تبلغها بأن لا تتصرف وكأنها غريبة عنا. نقل الرجل الرسالة لسيسي.

كانت رسالة سماح وعادت سيسي مرة أخرى لتزور عائلة نولان.

20

منذ اليـوم الأول لـدخول الطفلـين إلى المدرسـة، بـدأ الـصراع بـين كـاتي والأمراض الطفيلية وغير الطفيليـة التـي تـصيب الأولاد. كـان صراعـاً شرسـاً وسريعاً ولكنه تكلـل بالنجـاح ففـي أجـواء المـدارس المكتظـة بالأطفـال، كـان الأطفال يتعرضون وبكل براءة لالتقاط العدوى مـن بعـضهم الـبعض. لم يكـن الخطأ خطأهم ولكنهم مع ذلك كانوا يتعرضون لأكثر الطرق التي يمكن أن يمـر فيها الطفل إذلالاً في معالجة الأمر.

كل أسبوع كانت ممرضة المدرسة تأتي وتقف في الصف وظهرها إلى النافذة فيما تصطف الفتيات الصغيرات أمامها ليرفعن عصابات شعورهن وينحنـين إلى الأمام لكي تتفقد شعورهن بعصا رفيعة وطويلة. وإذا تبين وجود قمل أو سيبان كان يطلب من الفتاة أن تقف جانباً وفي نهاية الامتحان كان يـتم إجبـار الفتيـات المصابات على الوقوف أمام فتيات الصف كالمنبوذات فيما تقوم الممرضـة بإعطـاء محاضرة حول مدى قذارة هؤلاء الفتيات ووجوب تجنبهن. بعد ذلـك يـتم طـرد الفتيات المصابات ليوم واحد على أن تقـوم أمهـاتهن بإحـضار مـرهم أزرق مـن صيدلية كنايب في الحي ومعالجة رؤوسهن. ولدى عودتهن إلى المدرسـة في اليـوم

التالي، كن يتعرضن للسخرية والتعذيب من نظيراتهن حتى إن كل فتاة مصابة كانت تُزفُّ إلى البيت ووراءها مجموعة من الفتيات يتهكمن عليها بنشيد يقول:

«قذرة قذرة. المعلمة تقول إنك قذرة. عليك الذهاب إلى البيت. عليك الذهاب إلى البيت لأنك قذرة».

قد يظهر الفحص في الأسبوع التالي أن الفتاة المصابة قد برئت تماماً. وفي مثل هذه الحالة تبدأ هي بتعذيب الأخريات المصابات متناسية أنها هي نفسها قد تعرضت للسخرية والتعذيب من قبل. لم تتعلم الفتيات الرحمة من مصائبهن لذلك لم يكن هناك معنى للمعاناة.

بالنسبة لكاتي، لم يكن في حياتها متسع لمشاكل أخرى أو مجال لقلق إضافي. لم تكن لتتقبل ذلك، ففي اليوم الذي جاءت فيه فرانسي تخبرها أنها جلست إلى جانب فتاة أظهر فحص اليوم التالي أن رأسها يعبق بالقمل والسيبان، تحركت كاتي فوراً للعمل فقامت بفرك رأس فرانسي بمعجون قوي أصفر اللون وفي اليوم التالي غطست رأسها في إناء يحتوي على الكاز ثم مشطت لها شعرها بعنف وربطت العصابة بشدة حول رأسها حتى برزت عروقها من رأسها وأوصتها أن تبتعد عن قناديل الغاز المشتعلة وأرسلتها إلى المدرسة.

ظلت رائحة الكاز تعبق من فرانسي في غرفة الصف حتى إن الفتاة التي تجلس إلى جانبها في المقعد ابتعدت عنها إلى طرف المقعد كما أرسلت المعلمة ملاحظة إلى كاتي تطلب منها عدم استخدام الكاز في تنظيف رأس طفلتها ولكن كاتي تجاهلت الملاحظة واستمرت في فرك رأس فرانسي بالمعجون الأصفر ودهن شعرها بالكاز.

وعندما تفشى وباء «أبو كعب» أو التهاب الغدة النكفية في المدرسة تحركت كاتي بسرعة ضد الأمراض المنقولة وقامت بوضع أكياس من الصوف الناعم في كل منها قطعة ثوم وربطتها على رقبتي طفليها تحت القمصان.

حضرت فرانسي إلى المدرسة وهي تعبق برائحتي الكاز والثوم. كان الجميع يتجنبها حتى إنهم تركوا حولها مساحة خالية في الفرصة، وفي المناطق المزدحمة كان الناس يبتعدون عن أولاد نولان.

وقد نجح الأمر، سواء كانت المسألة تتعلق بتعويذة سحرية في الثوم أو أن بخار الكاز قتل الطفيليات أو أن تجنب الأطفال الاقتراب من فرانسي ونيلي قد أبعد عنهما فرص الإصابة بالمرض، أو قدرتهما الجسدية على مقاومة المرض ساعدتهما على ذلك. ربما يصعب التأكد من ذلك، ولكن ما كان أكيداً هو أن طفلي كاتي لم يمرضا مرة واحدة خلال وجودهما في المدرسة. لم يتعرضا لنوبات رشح شديدة ولا لقمل ولا لسيبان. ومع أن فرانسي تحولت إلى شخص منبوذ من الجميع بسبب رائحتها المتنتة إلا أنها اعتادت على البقاء وحيدة كما اعتادت على السير وحدها وعلى كونها شخصاً مختلفاً عن الآخرين، ومع ذلك فإنها لم تعانِ كثيراً من هذا الأمر.

21

رغم كل المشاكل والوحشية والتعاسة التي واجهتها فرانسي في المدرسة إلا أنها بقيت تحبها. فقد كان الروتين الصارم الذي تخضع له العديد من الفتيات في المدرسة واللواتي يقمن جميعاً بالعمل نفسه، يبعث في نفس فرانسي شعوراً بالأمان. كانت تشعر أنه جزء محدد من أمر ما أو من مجتمع التأم شمله تحت قيادة واحدة ولسبب واحد. كان آل نولان أشخاصاً فردانيين لا يطلبون شيئاً إلا ما هو ضروري ليعينهم على الحياة في هذا العالم. كانوا يتبعون مقاييس خاصة بهم في العيش ولم يلتزموا بأية معايير تتبعها فئة اجتماعية معينة. وكان هذا الأمر يعتبر جيداً في صنع الأشخاص الفردانيين ولكنه يعتبر أمراً محيِّراً بالنسبة لطفل صغير. لهذا السبب شعرت فرانسي بالأمان والسلامة في المدرسة. فرغم وحشية الروتين وبشاعته إلا أنها كانت مدرسة ذات هدف وتقدم.

لم تكن المدرسة دائماً مصدر تعاسة وقلة راحة. كانت هناك لحظات مجيدة تمتد لنصف ساعة كل أسبوع عندما يحضر السيد مورتون إلى صف فرانسي لتعليم الفتيات الموسيقى. كان السيد مورتون أستاذاً متخصصاً يتجول في معظم مدارس الحي وكان الوقت وقت فرصة عندما ظهر. وهو يرتدي معطفاً مشقوق الذيل وربطة عنق منتفخة ولكن الشيء الأروع كان في شخصيته. فالسيد

مورتون رجل نشيط مرح يحب الحياة ويبدو وكأنه إله نزل من بين الغيوم، يحب الأطفال ويتفهم مشاكلهم ويعاملهم بشهامة وحيوية. وكان هؤلاء يحبونه كثيراً ويهيمون به وكذلك الأمر بالنسبة للمعلمات. وكانت تسود المدرسة يوم مجيئه روح احتفالية، إذ ترتدي المعلمات أفضل ثيابهن ويصبحن أكثر أدباً مع الأطفال وأحياناً يجدلن شعورهن ويرششن بعض العطر. هكذا كان تأثير السيد مورتون على هؤلاء السيدات. كان يصل إلى المدرسة كالزوبعة، يفتح الباب على مصراعيه ويدخل وثوبه الذيلي يرفل خلفه ثم يقفز إلى منبر الصف ويحدق فيه الجميع مبتسماً ويردد بصوت مرح: حسناً حسناً... فيما الأطفال الجالسون في الصف يتضاحكون سعادة والمعلمة تبتسم وتبتسم.

يكتب السيد مورتون نوتات على اللوح ثم يرسم لهذه لنوتات أرجلاً تبدو فيها وكأنها خارجة عن الميزان. بعدها يرسم نوتة مسطحة على شكل «همبتي دمبتي» وهي دمية سمينة معروفة لدى الأطفال تليها نوتة حادة يخرج منها أنف يشبه حبة الشمندر. وفي معظم الوقت ينفجر بغناء عفوي مثل الطير. أحياناً كان يفيض بالسعادة حتى لم يكن باستطاعته أن يمسك نفسه فيضطر إلى الرقص بمرح لكي يخفف من تدفقها.

كان يعلمهم الموسيقى بشكل جيد دون أن يعوا هم ذلك. إذ يضع كلمات خاصة به حول المعزوفات الكلاسيكية العظيمة ويعطيها أسماء مثل لولابي وسيرينيد وأغنية الشارع وأغنية يوم مشمس... وهكذا. وكانت أصوات الأطفال تهتف بقوة في معزوفة هاندل لارغو التي كانوا يعرفونها فقط بعنوان «ترنيمة». كما ظل الأولاد الصغار يرددون قطعاً من سمفونية دفوراك «العالم الجديد» حتى وهم يلعبون بـ (الكلل). وإذا ما سألتهم عن اسم الأغنية فسيجيبونك بأنها «عائدون إلى البيت». كانوا يلعبون الكرة وهم يهمهمون بأغنية «فرقة كورس الجنود» لفاوست والتي أطلقوا عليها اسم «مجد».

كانت هناك أيضاً المعلمة بيرنستون. لم تكن محبوبة بالقدر الذي أحب الأطفال فيه السيد مورتون ولكنها حظيت بإعجاب شديد. والمس بيرنستون

هي معلمة متخصصة بالرسم كانت تحضر إلى المدرسة مرة في الأسبوع، وتبدو وكأنها قادمة من عالم آخر هو عالم الثياب الجميلة والألوان الخضراء الخفيفة والعقيق الأحمر. كان وجهها جميلاً ناعماً ومثلها مثل السيد مورتون، كانت تحب تلك الحشود من الأطفال الفقراء غير المرغوب فيهم أكثر من الأطفال المحظيين.

لذلك لم تكن تحظى بحب المعلمات، كانوا يتوددون لها عندما تتحدث إليهم ثم لا يلبثون أن يحملقوا فيها غير راضين عندما تدير ظهرها لهم. في الحقيقة كانوا يشعرون بالغيرة من سحرها ولطفها وانجذاب الرجال إليها فقد كانت امرأة مشرقة دافئة تضج بالأنوثة. كما كانوا يعلمون أنها لا تنام وحدها في الليل بينما لا يجدن هنا بديلاً إلا النوم وحدهن.

كانت تتحدث بنعومة وبصوت موسيقي واضح كما كانت يداها جميلتين وسريعتين عند استخدام اللوح والطبشور. كان هناك سحر في الطريقة التي تلوي فيها ذراعها عندما تحمل القلم. لفّة واحدة وترسم تفاحة، لفّتان وتجد أمامك يد طفل تمسك بالتفاحة. لم تكن تعطي دروساً في الأيام الماطرة، بل كانت تأخذ قطعة من الورق وعصا صغيرة من الفحم وترسم عليها أكثر الأطفال فقراً في الغرفة. كان بإمكانك رؤية عظمة البراءة وحدّة الطفولة في ذلك الوجه... كانت المس بيرنستون إنسانة عظيمة.

شكل هذان المعلمان ما يشبه تبر الذهب والفضة في نهر طيني بالنسبة لأيام الدراسة، وهي أيام كانت تمر على الأطفال مرهقة مملة في ساعاتها حيث كانوا يجبرون على الجلوس متصلبين على مقاعدهم وأيديهم معقودة خلف ظهورهم فيما المعلمة تقرأ كتاباً أخفته في حجرها. لو أن جميع المعلمات كانوا مثل المس بيرنستون أو السيد مورتون لأحست فرانسي بأن المدرسة هي الجنة. ولكن الأمر كان مقبولاً على أية حال. فقد كان لا بد من وجود الظلام والمياه الموحلة لكي تتمكن الشمس من إبراز خلفيتها المشرقة والمجيدة.

22

إنها للحظة ساحرة حينما يكتشف الطفل أن بإمكانه قراءة المواد المطبوعة. لفترة من الوقت، ظلت فرانسي تتهجى الحرف وتلفظه ثم تضع الألفاظ معاً لتركب كلمة ذات معنى. ولكنها في أحد الأيام نظرت إلى الصفحة ووجدت أن كلمة فأر تحمل معنى فورياً بالنسبة لها. نظرت إلى الكلمة ومرت صورة الفأر الرمادي في ذهنها. ولما نظرت أيضاً إلى كلمة «حصان» أحست بأنها تسمع أقدامه وهي تضرب الأرض ورأت انعكاس أشعة الشمس وهي تلمع على جسده. بعد ذلك وصلت فجأة إلى كلمة يركض وأخذت تلهث بصعوبة وكأنها هي التي تركض. وهكذا أزيل الحاجز بين اللفظ الفردي لكل حرف وبين المعنى الكامل للكلمة وأخذت الكلمات المطبوعة تعني لها شيئاً منذ الوهلة الأولى. قرأت فرانسي عدة صفحات بسرعة حتى إنها كادت تشعر بالإعياء من شدة الإثارة. أرادت أن تصرخ عالياً وتعلن أنها تعرف القراءة... تعرف كيف تقرأ.

منذ ذلك الوقت، أصبح عالم القراءة عالمها. لن تعود وحيدة بعد اليوم ولن تفتقد غياب الصداقات الحميمة، فقد أصبحت الكتب هي صديقاتها. وهناك لكل مزاج يمر عليها كتاب ملائم. فهناك كتب الشعر للرفقة الهادئة، وكتب المغامرات عندما تمل من الهدوء. كما أن هناك قصص الحب عندما تدخل سن المراهقة

وكتب السير الذاتية عندما ترغب في الاقتراب من شخص ما. في ذلك اليوم الذي أدركت فيه أن بإمكانها القراءة أقسمت بأن تقرأ كتاباً كل يوم في حياتها.

كانت تحب الأرقام والمجاميع. لذلك صممت لعبة يُمثِّل فيها كل رقم فرداً من أفراد العائلة وكان كل جواب يجمع بين العائلة وقصة ما. كان رقم صفر يعني طفلاً في ذراعها والرقم واحد طفلة تتعلم المشي يسهل التعامل معها، أما الرقم 2 فيمثل طفلاً يستطيع المشي والتحدث قليلاً ويستطيع الدخول إلى الحياة العائلية دون مشاكل تذكر. بعده يأتي الرقم 3 ويمثل فتاة في عمر فرانسي ناعمة ولطيفة وتعمل ضمن العائلة أو ضمن المجموع لتسهل الأمور تماماً كما تفعل الأم. رقم 6 يمثل الأب وهو أشد صلابة من الجميع ولكنه عادل جداً في تعامله. ولكن الرقم 7 رقم مزعج ودنيء وهو يمثل جداً عجوزاً غريب الأطوار لا يمكن الاعتماد عليه. الرقم 8 هو الجدة وهو رقم صلب ولكن يسهل تفهمه. أما الأشد صعوبة فهو الرقم 9 فهو يمثل الضيوف ويصعب جداً إدخاله في الحياة العائلية.

عندما تقوم فرانسي بجمع الأحرف، تصنع من المجموع قصة تلائم النتيجة. فإذا كان المجموع 924 فإن هذا يعني أن الولد والبنت هم تحت رعاية ضيف من الضيوف حتى تعود العائلة من الخارج. وإذا كان المجموع 1024 فإن هذا يعني أن الأطفال الصغار يلعبون معاً في فناء البيت. الرقم 62 يعني أن الأب يأخذ ابنه الصغير في نزهة سيراً على الأقدام بينما يعني الرقم 50 أن الأم قد أخذت الطفلة في نزهة داخل عربتها لتتنسم الهواء. ويعني الرقم 78 أن الجد والجدة يجلسان في البيت قرب موقد النار في ليلة الشتاء. كل مجموع فردي من الأحرف كان يعني تشكيلة جديدة ولا توجد قصص متشابهة أبداً في هذا المجال.

استخدمت فرانسي هذه اللعبة حتى في علم الجبر. مثلاً الحرف X كان يعني صديقة الولد التي دخلت على حياة العائلة وزادتها تعقيداً. الرقم Y يعني صديق الفتاة الذي يتسبب بالمشاكل. وهكذا كانت الرياضيات تمثل بالنسبة لفرانسي شيئاً إنسانياً دافئاً يحتل معظم ساعات وقتها حين تكون وحيدة.

23

مضت أيام المدرسة، بعضها لم يخلُ من الوحشية والـذل وتحطيم القلـوب وبعضها بقي مشرقاً جميلاً بسبب وجود المس بيرنستون والسيد مورتون وكـذلك سحر تعلم أشياء جديدة.

في أحد أيام السبت من شهر أكتـوبر (تـشرين أول) وفـيها كانـت فرانـسي تتمشى، وجدت نفسها في حي لم تألفه من قبل. هذا الحي لا يضم مباني من شقق متعددة ولا مخازن مهلهلة رثة كالتي في حيّها بل كانت هناك منازل قديمـة تعـود في تاريخها إلى اليوم الذي دخـل فيـه واشـنطن بجيوشـه إلى لونـغ آيلنـد. منـازل متداعية تحيط بها أسيجة وبوابات من النوع الذي ظلت فرانسي تتمنى أن تتأرجح عليها. كذلك كانت هنـاك ورود خريفيـة مزهـرة في الـساحات الأماميـة لتلـك البيوت، وأشجار القيقب التـي بـدأ الخريـف يلـوِّن أطرافهـا بـاللونين الأصـفر والنهدي. وقف ذلك الحي أمامها بصمت ورزانة وهدوء تحـت أشـعة الـشمس وكأنه يحثها على التأمل ويبعث فيها سلاماً عميقاً هادئاً عريقـاً لا حـد لـه. بـدت فرانسي وهي تدخل هذا الحي سعيدة مثـل «ألـيس» في بـلاد العجائـب، وكأنهـا تدخل في مرآة سحرية إلى أرض فاتنة مسحورة.

سارت قدماً حتى وصلت إلى مدرسة قديمة تلمع أحجارها المصنوعة من الطوب تحت شمس ظهيرة ذلك اليوم. لم يكن هناك سياج حول المدرسة فيما غطى العشب ملاعبها التي لم تكن إسمنتية أيضاً. عبر المدرسة بدت المنطقة ريفية فاتنة تعج بالمروج المغطاة بنباتات مثل عصا الذهب ذات الزهور الصفراء وزهور النجمية والبرسيم.

وثب قلب فرانسي دهشة. هذه هي المدرسة التي ترغب في الدخول إليها ولكن كيف؟ طالما أن القانون يقف ضد التسجيل في مدرسة خارجة عن الحي الذي تعيش فيه. كما أن أهلها قد يضطرون إلى نقل مكان سكنهم إلى هذا الحي إذا أرادت أن تدخل هذه المدرسة. كانت فرانسي تعلم تماماً أن أمها لن تغير مكان السكن لمجرد أن فرانسي تميل إلى الذهاب لمدرسة في حي آخر. سارت عائدة إلى البيت ببطء وهي تُقلِّب الأمر في رأسها الصغير.

في تلك الليلة، جلست فرانسي تنتظر عودة والدها من عمله. عاد جوني إلى المنزل ليلاً وهو يصفر لحن أغنية «مولي مالون». جلست فرانسي معه على المائدة وهو يلتهم ما أحضره من المأكولات البحرية ثم انتظرت حتى أشعل سيجاره الأخير وبدأت تروي له كل شيء عن تلك المدرسة. نظر إليها وأومأ برأسه ثم قال: سنرى غداً.

– أتعني أن بإمكاننا أن ننتقل إلى ذلك الحي القريب من تلك المدرسة. سألته فرانسي.

– كلا، ولكن لا بد من وجود طريقة أخرى ... سوف أذهب معك إلى هناك غداً وسنرى ما يمكننا أن نفعله.

لم تستطع فرانسي النوم تلك الليلة من شدة الإثارة. نهضت من فراشها عند الساعة السابعة ولكن جوني كان ما يزال يغطّ في نوم عميق. انتظرت بفارغ الصبر وكلما سمعت منه تنهيدة دخلت إلى الغرفة لترى إذا كان قد استيقظ.

عند الظهر، استفاق جوني من غفوته وجلست العائلة لتناول طعام الغداء. بقيت فرانسي تنظر إلى أبيها ولكنه لم يبدِ أية إشارة. ربما نسي الأمر؟ كلا لأنه وبينما كانت كاتي تصب القهوة قال بلا مبالاة:

– أظن أنني سأذهب في نزهة على الأقدام بعد قليل أنا والسيدة الصغيرة.

وثب قلب فرانسي وقد أدركت أن أباها لم ينسَ. انتظرت حتى تسمع إجابة أمها لأنها قد تسأل لماذا، وقد تعترض وقد تقول إنها سترافقهما ولكن أياً من هذا لم يحدث فيما أجابت أمها قائلة: لا بأس.

قامت فرانسي بغسل الأطباق ثم ذهبت إلى دكان الحلويات لتشتري جريدة يوم الأحد ثم إلى دكان بيع السيجار لتشتري زجاجة بيرة كورونا لأبيها. كان جوني يقرأ الصحيفة بأكملها حتى الأخبار الاجتماعية التي غالباً لا تهمه. إلا أن الأسوأ من هذا أنه كان يعلّق على كل خبر يقرؤه ليناقش أمها فيه. بين الفينة والأخرى كان يضع الصحيفة جانباً ويلتفت إلى أمها ويقول: هناك أشياء طريفة تذكرها الصحف هذه الأيام، خذي مثلاً هذا الخبر.. كادت فرانسي تبكي وهي تنتظر.

حلّت الساعة الرابعة بعد الظهر، وصل السيجار إلى آخره وتوزعت أوراق الصحيفة على الأرض فيما أخذت كاتي نيلي وذهبت لزيارة أمها بعد أن ملّت من كثرة التحليلات الصحفية.

سارت فرانسي مع أبيها يداً بيد. كان يرتدي بذلته الوحيدة، التوكسيدو وقبعته المستديرة وكان منظره يبدو مهيباً في ذلك اليوم الدافئ من شهر أكتوبر/ تشرين الأول حيث اجتمع دفء الشمس مع النسمات ليحمل نكهة المحيط إلى كل زاوية من زوايا المنطقة. سارا عبر عدة بنايات ثم استدارا عند الزاوية ليجدا نفسيهما في الحي الآخر. فقط في ضاحية منبسطة يمكن أن تجد مثل هذا الانقسام الحاد. ففي هذا الحي تعيش عائلات من الجيل الخامس والسادس للأميركيين بينما في الحي الذي يسكنه آل نولان يندر أن تجد أحداً مولوداً في أميركا وإذا وُجد فسيكون مَعْلَماً من معالم الحي.

في الحقيقة كانت فرانسي هي الوحيدة في مدرستها والمولودة من أبوين مولودين أيضاً في أميركا. مع بداية الفصل تفقدت المعلمة قائمة التلاميذ وسألت كل طفل عن نسبه وجاءت الأجوبة على المعيار التالي:

– أنا أميركية من أصل بولندي. أبي مولود في وارسو، أو

– أنا أميركية من أصل إيرلندي أبي وأمي ولدا في كاونتي كورك.

وعندما نادت المعلمة فرانسي أجابتها بفخر «أنا أميركية».

– أنا أعرف أنك أميركية. أجابتها المعلمة بغضب، ولكن ما هي جنسيتك؟

– أنا أميركية. أجابت فرانسي بإصرار وقد ازدادت لهجتها فخراً.

– هل ستخبريني من أين جاء أهلك أم أرسلك إلى المديرة.

– إن والدي أميركيان وقد وُلدا في بروكلين. أجابت فرانسي.

التفت جميع الأطفال إلى تلك الفتاة الصغيرة التي لم يأت أهلها من بلدان أخرى عندها همهمت المعلمة: بروكلين؟ وقالت: حسناً أظن أنك أميركية.

شعرت فرانسي بالسعادة والفخر. وقالت في قرارة نفسها: ما أروع بروكلين، إن مجرد كونك مولوداً فيها يجعلك أميركياً.

أخبرها والدها عن هذا الحي الغريب الذي جاء سكانه إلى أميركا منذ أكثر من مئة سنة. أخبرها كيف أن معظمهم قدموا من اسكتلندا أو إنكلترا وويلز وقد عمل الرجال كنجارين وصانعي خزائن كما عملوا في المعادن كالذهب والفضة والنحاس.

وعد جوني فرانسي أن يأخذها يوماً إلى القسم الإسباني من بروكلين حيث يعمل الرجال في صناعة السيجار ويدفع كل منهم عدة سنتات لاستئجار شخص يقرأ لهم قصصاً مسلية وراقية بينما هم يعملون.

كان الشارع هادئاً في يوم الأحد، وبينما هما يسيران شاهدت فرانسي ورقة تسقط من إحدى الأشجار فخطت مسرعة لكي تمسك بها. كان لون الورقة

قرمزياً وطرفها بلون الذهب. حدقت فرانسي في الورقة وهي تتساءل إذا كانت ستشاهد شيئاً بهذه الروعة والجمال فيما بعد. مرت بهما امرأة عند زاوية الشارع، كانت ترتدي وشاحاً طويلاً من الريش وقد بدا وجهها أحمر من كثرة مساحيق التجميل التي استخدمتها. ابتسمت لجوني وسألته:

- هل تشعر بالوحدة يا سيد؟

نظر جوني إليها لوهلة قبل أن يجيب بلطف:

- كلا يا أختي.

- هل أنت متأكد؟ سألته بدلع.

- نعم متأكد. أجابها بلطف.

سارت المرأة في طريقها بينما رجعت فرانسي إلى الوراء وأمسكت بيد أبيها وسألته بحماس:

- هل هذه المرأة سيئة؟

- كلا.

- ولكنها بدت سيئة.

- الناس السيئون قليلون ولكن هناك عدداً كبيراً من الناس غير محظوظين.

- ولكنها كانت كلها مطلية بمساحيق التجميل و..

- كانت واحدة من أولئك اللواتي شهدن أياماً أفضل... بدا وكأنه أعجب بجوابه. وتابع يقول: «نعم ربما تكون قد رأت أياماً أفضل». صمت قليلاً وغرق في حالة من التفكير بينما استمرت فرانسي في تخطيه والتقاط أوراق الأشجار الساقطة.

وصل الاثنان إلى المدرسة المعنية وراحت فرانسي تريها لأبيها وقد طغت عليها مشاعر الفخر والإعجاب. كانت الشمس في فترة العصر قد أدفأت أحجار

الطوب الناعمة اللون والنوافذ ذات الإطارات الصغيرة التي بدت وكأنها ترقص تحت أشعة الشمس. نظر جوني مطولاً إلى المدرسة ثم قال:

- نعم هذه هي المدرسة ... هذه هي.

بعد ذلك، بدا وكأنه قد تأثر من المشهد فراح يضع كلماته في أغنية. أمسك بقبعته المهترئة ووضعها على جهة قلبه ثم وقف منتصباً أمام المدرسة وأنشد:

أيام الدراسة أيام الدراسة

أيتها الأيام الذهبية العزيزة

حيث القراءة والكتابة والرياضيات...

بالنسبة لأي عابر سبيل غريب قد يبدو الأمر سخيفاً وهو يرى جوني واقفاً هناك، يرتدي بدلة التوكسيدو المائلة إلى اللون الأخضر والمصنوعة من الكتان النقي، وممسكاً بيد طفلة نحيلة رثة الملابس، يغني أغنية تافهة دون أن يعي ما يقول في وسط الشارع ولكن بالنسبة لفرانسي كان الأمر صحيحاً وجميلاً.

عبرا الشارع باتجاه المروج التي يسميها العامة قطع الأراضي. جمعت فرانسي ضمة من ورود نبات عصا الذهب ونبات النجمية لتأخذها معها إلى المنزل. أخبرها جوني أن المكان كان في يوم من الأيام مقبرة للهنود الحمر، كما أخبرها أنه خلال صغره كان يأتي إلى هنا ليجمع رؤوس سهام قديمة. اقترحت فرانسي أن يبحثا عن هذه الرؤوس لجمعها ولكن بحثهما انتهى بعد نصف ساعة دون أن يعثرا على واحدة. بدا ذلك غريباً لفرانسي وأخذت تضحك فيما اعترف لها أبوها بأن المنطقة قد لا تكون مقبرة هندية قديمة وبأن أحدهم قد أخبره هذه القصة. كان على حق لأنه هو نفسه اخترع القصة برمتها.

حان وقت العودة إلى المنزل وانهمرت الدموع من عيني فرانسي الصغيرتين لأن أباها لم يقل شيئاً بخصوص إدخالها إلى المدرسة الجديدة. رأى جوني الدموع وبدأ يجهز خطة فورية.

- سوف أقول لك ماذا سنفعل يا صغيرتي. سنتجول قليلاً في المنطقة ونختار منزلاً جميلاً ونأخذ رقمه. ثم سأكتب لمديرتك وأخبرها أننا سننتقل إلى هذا المنزل وأطلب منها نقلك إلى هذه المدرسة.

سارا قليلاً إلى أن عثرا على بيت مؤلف من طابق واحد أبيض اللون وله سقف مائل وفناء تنمو فيه أزهار الأقحوان المتأخرة عن موسمها. نقل أبوها عنوان البيت بانتباه وقال:

- أنت تعلمين أن ما سنفعله هو خطأ.

- هل هو كذلك يا أبي؟

- ولكنه خطأ الغرض منه الحصول على شيء أكثر صحة.

- مثل الكذبة البيضاء.

- مثل الكذبة التي تساعد أحدهم. لذلك عليك أن تصلحي الخطأ بأن تضاعفي العمل الصحيح. لا يجب عليك أن تتأخري أو أن تسيئي التصرف.

- سوف أكون دائماً جيدة التصرف إذا أتيح لي أن أذهب إلى هذه المدرسة.

- نعم والآن سأريك طريقاً تصلين بها إلى المدرسة عبر حديقة صغيرة أنا أعرف مكانها تماماً. نعم يا سيدتي أنا أعرف مكانها تماماً.

أخذها إلى الحديقة وأراها كيف يمكن أن تسير فيها بشكل قطري حتى تصل إلى المدرسة.

- «إن هذه الطريق ستجعلك سعيدة إذ إن بإمكانك مشاهدة تغير الفصول وأنت تعبرين من هنا. ما رأيك في ذلك؟».

أجابته فرانسي وقد تذكرت ما قرأته لها أمها مرة: «إن كأسي يفيض» وقد عنت ما قالته تماماً.

عندما سمعت كاتي عن الخطة قالت لزوجها: على رسلك ولكن لا تقحمني في هذا الأمر. إذا جاءت الشرطة واعتقلتك بتهمة إعطاء عنوان كاذب

فسأقول لهم بكل صراحة: لا علاقة لي بذلك. إن كل المدارس تشبه بعضها بحسناتها وسيئاتها. لا أدري لماذا ترغب فرانسي في التغيير. هناك دائماً واجبات مدرسية مهما تغيرت المدارس.

- إذن لقد اتفقنا. قال جوني: خذي سنتاً يا فرانسي واذهبي إلى محل الحلوى القريب واشتري لي ورقة ومغلفاً.

بسرعة لا مثيل لها ذهبت فرانسي إلى المحل وعادت تحمل الورقة والمغلف. كتب جوني على الورقة أن فرانسي ستذهب للعيش عند أقارب يعيشون في هذا العنوان وطلب من المدرسة نقلها. ثم أضاف أن نيلي سيبقى مع أهله وأنه ليس بحاجة لنقل. بعد ذلك وقّع اسمه ورسم خطاً تحته ليعطيه صفة رسمية.

في صباح اليوم التالي، سلّمت فرانسي المغلف إلى المديرة وهي ترتجف. قرأته المديرة وتنحنحت قليلاً ثم كتبت تقريراً بالنقل وسلّمته إلى فرانسي وهي تقول لها: اذهبي، على أية حال، إن المدرسة مزدحمة بما فيه الكفاية.

قدَّمت فرانسي نفسها والتقرير الذي بيدها إلى مدير المدرسة الجديدة الذي صافحها وتمنى لها السعادة في المكان الجديد. بعد ذلك أخذها أحد المراقبين إلى غرفة الصف. عندما دخلت فرانسي إلى الصف، توقف الأستاذ عن التدريس وقدّمها إلى باقي الطلاب. نظرت فرانسي إلى المقاعد التي تجلس عليها الفتيات الصغيرات. كانت كلها مقاعد بالية ولكنها نظيفة، تم تحديد مقعد لها وبدأت حياتها في المدرسة الجديدة.

لم يكن أساتذة وتلاميذ المدرسة هنا بالوحشية التي تميز بها نظراؤهم في المدرسة القديمة. نعم بعض التلاميذ كانوا أنذالاً ولكنها نذالة طبيعية في بعض الأطفال وليست حملة مدروسة. معظم الأحيان كان الأساتذة يفقدون صبرهم ولكن دون أن يتصرفوا بوحشية، كما لم يكن هناك أي عقاب بدني في المدرسة. معظم الأهالي كانوا أميركيين جداً واعين للحقوق التي منحهم إياها الدستور بأن يتقبلوا الظلم باعتدال. كذلك لم يكن بالإمكان إرهابهم واستغلالهم مثلما يحدث مع المهاجرين الجدد أو أبناء الجيل الثاني من الأميركيين.

وجدت فرانسي أن الشعور المختلف الذي ألمّ بها في هذه المدرسة قد جاء بشكل رئيسي من بوّاب المدرسة. كان البواب رجلاً أحمر اللون، ذا شعر أبيض يبعث على الهيبة حتى إن المدير نفسه كان يناديه بالسيد جينسون. كان للسيد جينسون أولاد وأحفاد كثيرون، يحبهم جميعاً، كما كان يعتبر أباً لجميع أطفال المدرسة. في الأيام الماطرة عندما كان التلاميذ يأتون مبللين إلى المدرسة، يصر جينسون على إنزالهم إلى غرفة الموقد ليجففوا أنفسهم. كان يطلب منهم خلع أحذيتهم وتعليق جواربهم حتى تجف. كانت الأحذية البالية تصطف بانتظام أمام الموقد.

كان الأمر مسلياً في غرفة الموقد. فالجدران مطلية باللون الأبيض ومنظر الموقد يبعث على الراحة والطمأنينة. كذلك كانت النوافذ عالية. وكانت فرانسي تحب الجلوس هناك والاستمتاع بالدفء ومراقبة ألسنة اللهب البرتقالية والزرقاء وهي تتراقص فوق طبقة من قطع الفحم الصغيرة. كان السيد جينسون يترك غرفة الموقد مفتوحة بينما كان التلاميذ يجففون ثيابهم. وكانت فرانسي تخرج باكراً من المنزل في الأيام الماطرة وتسير ببطء لكي تبتل تماماً وتنعم ببعض الدفء في غرفة الموقد.

لم تكن خطوة السيد جينسون بإبقاء التلاميذ خارج الصف حتى تجف ثيابهم وأحذيتهم خطوة مألوفة أو تقليدية ولكن الجميع كان يرغب في تلك الخطوة ويحترمها بعيداً عن الشكوى. وقد سمعت فرانسي الكثير من القصص عن السيد جينسون، وكان مما سمعته أنه درس في كلية وأنه أعلى درجة علمية من المدير. كما سمعت أنه بعد أن تزوج ورُزق بأطفال قرر أن بإمكانه تحصيل راتب أكبر إذا عمل كمهندس للمدرسة بدلاً من أن يكون معلماً، ولكن مهما كان الأمر فقد ظلّ الرجل يتمتع بمحبة واحترام الجميع. رأته فرانسي مرة جالساً في غرفة المدير، وهو يرتدي ثياب العمل ويجلس عاقداً قدميه يتحدث في شؤون السياسة، وعلمت فرانسي أن المدير كان ينزل في كثير من الأوقات إلى غرفة الموقد حيث يعمل السيد جينسون ليجلس ويحادثه لفترة من الوقت بينما هو يدخن غليونه.

عندما كان أحد التلاميذ يتصرف بشكل سيء، لم يكن يرسل إلى غرفة المدير لينال (علقة) بل إلى غرفة السيد جينسون لكي يتحدث معه. لم يقم السيد

جينسون بتوبيخ أي تلميذ خلال عمله بل كـان يحدثـه عـن ابنـه الأصـغر الـذي اشتهر لكونـه راميـاً للكـرة في فريـق بـروكلين للعبـة البيـسبول ثـم يحدثـه عـن الديمقراطية وعن المواطنة الصالحة وعن العالم الطيب الذي يعمل فيـه كـل فـرد للصالح العام. بعد الحديث كان الولد يتغير ولا يعود ليسبب أية مشكلة.

عند التخريج، كان التلاميذ يطلبون مـن المـدير أن يوقِّـع بخـط يـده عـلى الصفحة الأولى من دفاتر مذكراتهم احتراماً منهم لمركزه ولكـنهم كـانوا يتمنـون توقيع السيد جينسون أكثر، وكان هو يوقِّع دائماً على الصفحة الثانية. وبيـنما كـان المدير يوقِّع بسرعة وبدون انتظام، كان السيد جينسون يوقع بطريقة احتفالية كأنه يعطي للموضوع أهمية كبيرة إذ يأخذ الدفتر إلى مكتبه ويشعل الـضوء ثـم يـضع نظاراته ويختار قلماً يغطه في الحبر ويحدق به ثم يمسحه ويغطُّه في الحبر مرة أخرى قبل أن يوقِّع بإمضاء منمق وحذر حتى ينشف الحبر. كان توقيعه هـو الأجمـل في الدفتر. وإذا وجدت في نفسك الجرأة لتسأله فسيأخذ الدفتر إلى منزل ويطلب من ابنه الذي ينتمي إلى فريق دودجرز للبيسبول أن يوقِّع أيضاً. كان هذا يعتـبر أمـراً رائعاً بالنسبة للأولاد ولكن الفتيات لم يبدين اهتماماً بتوقيع الابن.

يجدر الذكر هنا أن كتابة السيد جينسون كانت من الروعة بحيث إنـه كـان يوكل إليه كتابة جميع الشهادات.

كان السيد مورتون والسيدة بيرنستون يأتيان إلى هذه المدرسة أيضاً. وكـان يحلو للسيد جينسون حضور حصصهما دائماً فيأتي ويحـشر نفـسه في أحـد المقاعـد الخلفية للاستمتاع بدروسهما. وفي أيام البرد كان يستضيف السيد مورتون والـسيدة بيرنستون في غرفة الموقد لتناول فنجـان مـن القهـوة الـساخنة قبـل أن يـذهبا إلى المدرسة التالية. كان يملك غازاً وأجهزة لصنع القهوة يضعها على المائدة وكانـت قهوته دائماً سوداء قوية يقدمها في فناجين ثقيلة، تلقى رضاً لدى الجميع فيباركون له روحه الطيبة. شعرت فرانسي بالسعادة في هذه المدرسة وظلت حريـصة جـداً على أن تكون فتاة طيبة. كانت كلما مرت بالقرب مـن المنـزل الـذي ادّعـت أنهـا تعيش فيه، تنظر بامتنان وتأثر حتى إنها كانت تجمع الأوراق والنفايات المتطـايرة

حوله في أيام الريح وترميها في سلة المهملات الموضوعة أمامه. وفي الأيام التي كان فيها جامع القمامة يلقي بكيس النفايات الفارغ عند الممر بدلاً من فناء الدار كانت فرانسي تجمع الكيس وتعلقه على وتد السياج. وكان أهل البيت ينظرون إليها على أنها طفلة هادئة ولكنها معقدة من ناحية الترتيب والنظافة.

أحبت فرانسي تلك المدرسة ورغم أنها كانت تضطر للسير عبر 48 مجموعة بنايات كل يوم إلا أنها كانت تحب المشي وتترك المنزل باكراً في الصباح قبل نيلي لتعود متأخرة أيضاً. لم يكن هذا الأمر يضايقها إلا قليلاً عند موعد الغداء فقد كانت هناك 12 مجموعة من البنايات تقطعها في الذهاب إلى المنزل عند الظهر ثم العودة إلى المدرسة وكل ذلك خلال ساعة واحدة بحيث لم يكن لديها وقت كافٍ لتناول الطعام. لم تكن أمها تسمح لها بأخذ الطعام معها وكانت تبرر ذلك بقولها:

إن هذا سيجعلها تنقطع عن عائلتها في وقت مبكر. إنها ما تزال طفلة وعليها أن تتصرف كطفلة أي أن تأتي إلى البيت وتعود إلى المدرسة كما يفعل باقي الأطفال. لم يكن إرسالها إلى تلك المدرسة البعيدة من تدبيري، ألم تخترها هي بنفسها؟

- ولكن يا كاتي إنها مدرسة جيدة. يجيب أبوها.

- إذن دعها تأخذ الطالح مع الصالح.

ولكن فرانسي حلّت مشكلة طعام الغداء. كان لديها خمس دقائق لتناول الغداء وهذا الوقت كافٍ لتناول ساندويش وأكله على طريق العودة إلى المدرسة. لم تكن تشعر أنها مغلوبة أبداً بل كانت سعيدة في المدرسة لدرجة أنها كانت مستعدة لدفع الثمن مقابل تلك السعادة.

كان دخولها تلك المدرسة أمراً جيداً فقد أظهر لها أن هناك عوالم أخرى غير ذلك العالم الذي ولدت فيه وأن هذه العوالم الأخرى ليست بعيدة عن متناول يدها.

24

كانت فرانسي تعد السنين العابرة، ليس بالأيام أو بالأشهر بل بالعطل التي كانت تمر. إذ تبدأ السنة الدراسية عندها في الرابع من تموز/ يوليو وهو تاريخ العطلة الأولى التي تأتي بعد انتهاء المدرسة. وقبل أسبوع من هذا التاريخ تبدأ بتجميع المفرقعات النارية الصغيرة ووضعها في صندوق تحت السرير. كل سنت متوفر كان يذهب لشراء مثل هذه المفرقعات. كانت تسحب الصندوق عشر مرات في اليوم على الأقل لتعيد ترتيب المفرقعات وتنظر مطولاً إلى ذلك النسيج الأحمر الباهت والساق الملفوفة بخيط أبيض، وتتساءل كيف يتم صنعها. كانت من حين لآخر تشم رائحة المادة القادحة للنار التي كان البائع يقدمها مجاناً مع كل دفعة شراء والتي حين يتم إشعالها تحترق لعدة ساعات لكي تستخدم في إشعال المفرقعات.

جاء اليوم المشهود، ولكنها ترددت في إشعالها. شعرت أن امتلاك هذه المفرقعات أفضل من استخدامها. في الأيام التي كان من الصعب فيها الحصول على مفرقعات بسبب نقص السنتات، كانت فرانسي ونيلي يجمعان أكياساً من الورق في يوم الرابع من تموز/ يوليو ويملآنها بالماء ثم يحكمان إغلاق فتحاتها العليا ليلقياها من سطح المنزل على الشارع السفلي. كان صوت اصطدامها

بالأرض يشبه صوت المفرقعات. لكن المارين وعابري السبيل كانوا يشعرون بالسخط والغضب عندما يسقط أحد الأكياس ويكاد يصطدم بهم، ومع ذلك كان هؤلاء يتقبلون الأمر دون أي احتجاج لعلمهم أن هذه هي الطريقة التي يحتفل فيها أطفال الفقراء في يوم الرابع من تموز/ يوليو.

العطلة التالية كانت عطلة «الهالوين» أو عيد جميع القديسين. قام نيلي بدهن وجهه بالسخام ووضع قبعته على رأسه معكوسة إلى الخلف فيما ارتدى معطفه معكوساً إلى الداخل. ملأ نيلي فردة طويلة من جوارب أمه بالرماد وراح يجوب الشوارع مع أفراد شلّته وهو يلوّح بالكيس ويطلق أصواتاً خشنة بين الحين والحين. أما فرانسي فراحت تتجول مع فتيات صغيرات أخريات في الشوارع وهي تحمل قطعاً من الطبشور الأبيض وترسم بسرعة صليباً أبيض على ظهر كل شخص يلبس معطف ويمر بها. كان الأطفال يمارسون هذه الطقوس دون أن يفهموا معناها. كانوا يتذكرون الرمز ولكن السبب ظل منسياً. قد تكون هذه الطقوس متوارثة منذ العصور الوسطى عندما كان يتم وضع علامة على كل بيت للإشارة إلى أن الطاعون قد ضربه. ولعل بعض الأشخاص المتوحشين في ذلك العصر كانوا يضعون علامات على منازل أناس أبرياء كنوع من المزاح السيئ. وقد استمرت هذه الممارسة عبر القرون إلى أن تحولت إلى شيء مشوّه لا معنى له مثل طقوس «الهالوين».

لكن أعظم الأعياد بالنسبة لفرانسي كان يوم الانتخابات. والسبب يعود إلى كونه مناسبة تشمل الحي بأكمله دون جميع المناسبات الأخرى. ربما يصوّت العديد من الناس في مناطق أخرى من البلاد ولكن لا شيء مثل التصويت في بروكلين أو هكذا كانت تظن فرانسي.

في إحدى جولاته مع فرانسي، أشار جوني إلى مطعم يسمى «بيت المحار» يقع على شارع شولز في بناية قديمة يعود بناؤها إلى مائة سنة سابقة عندما كان الزعيم الهندي الأحمر تاماني يجول بنفسه مع محاربيه في المنطقة متسللاً خوفاً من أن يقع في أيدي البيض. كان المطعم مشهوراً على مستوى البلاد بوجبات المحار التي

يقدمها، ولكن كان هناك شيء آخر يجعل من هذا المكان مشهوراً بهذا الشكل. فقد كان يعتبر مقر الاجتماعات السرية لعدد من السياسيين المعروفين بسياسيي «قاعة المدينة» «سيتي هول». كان أفراد هذا الحزب يلتقون في جلسات سرية داخل قاعة طعام خاصة يأكلون المحار الطازج ويتداولون في أمور الانتخابات: من سينتخبون ومن سيسقطون.

غالباً ما كانت فرانسي تمر بذلك المكان وتشعر برعشة عندما تنظر إليه. لم يكن يحمل أي اسم على بابه كما أن نوافذه كانت فارغة إلا من نبتة سرخس مزروعة في قدر من الفخار ونصف ستارة من الكتّان البني اللون مركبة على أوتاد نحاسية خلف القدر. في إحدى المرات رأت فرانسي باب المطعم مفتوحاً ليدخل منه أحدهم. ألقت نظرة خاطفة على غرفة المدخل. كان ضوؤها خافتاً مع وجود مصابيح ذات ظل حمراء، بينما ينبعث منها دخان كثيف لأنواع مختلفة من السيجار.

كانت فرانسي تشارك بعض أطفال الحي في طقوس شبيهة بالانتخابات دون أن تعي معناها. ففي يوم الانتخابات، تقف في الصف وتضع يديها على كتفي الطفل الذي يقف أمامها ثم يرقص الجميع رقصة الأفعى وهم يتجولون في الشارع ويغنون.

تاماني تاماني

يجلس الزعيم الكبير في خيمته

يحيي المحاربين في زحفهم للنصر

تاماني تاماني

كانت فرانسي تصغي باهتمام إلى النقاش الذي يدور بين أمها وأبيها حول مزايا وأخطاء كل حزب. كان أبوها نصيراً متحمساً للحزب الديمقراطي ولكن أمها لم تكن تلقي بالاً لذلك بل كانت تنتقد الحزب وتقول لجوني: إنك تلقي صوتك في القمامة.

– لا تقولي هذا يا كاتي، يجيب أبوها محتجاً، في كل الأحوال فإن هذا الحزب يفعل أشياء جيدة لصالح الناس.

– يمكنني أن أتخيل ذلك ... تجيبه أمها بازدراء.

– كل ما يطلبونه هو صوت رجل العائلة وانظري ماذا يقدمون في المقابل.

– سمِّ لي شيئاً واحداً يقدمونه.

– حسناً إذا أردت مشورة حول قضية قانونية، فأنت لا تحتاجين إلى الذهاب لمحامٍ بل إلى ممثلك في مجلس النواب.

– تماماً مثل حكاية الأعمى الذي يقود الأعمى.

– ألا تصدقين. قد يكونون أغبياء في العديد من الأمور ولكنهم يعرفون أوضاع المدينة سابقاً ولاحقاً.

– ارفع دعوى على المدينة في أمر ما وانظر إلى أي مدى سوف يساعدك ممثلك في المجلس.

– خذي مثلاً مصلحة الخدمة المدنية. قال جوني وهو يحاول أن يوجه الجدال نحن زاوية أخرى، هم يعلمون مواعيد امتحانات الشرطة ورجال الإطفاء وسعاة البريد وهم دائماً ينبئون من يصوِّت لهم بهذه المواعيد إذا كان مهتماً.

– لقد تقدم زوج السيدة لافي لامتحان سعاة البريد منذ ثلاث سنوات وما يزال حتى اليوم يعمل على شاحنة.

– آه هذا لأنه يصوِّت للحزب الجمهوري. لو أنه كان ديمقراطياً لوضعوا اسمه على رأس القائمة. لقد سمعت عن معلمة أرادت الانتقال إلى مدرسة أخرى وقد ساعدها في ذلك ممثلها في المجلس.

– لماذا؟ ما لم تكن جميلة.

- ليس هذا هو بيت القصيد ولكنها كانت خطوة ذكية فالمعلمون هم الذين يربون أصحاب الأصوات المستقبلية. هذه المعلمة مثلاً سوف تتحدث بالخير دائماً عن ممثلها في المجلس وكل ولد سوف يكبر ويصوِّت يوماً ما.

- لماذا.

- لأنه امتياز.

- امتياز؟ هه. ردت كاتي بسخرية.

- الآن على سبيل المثال إذا كان لديك كلب صغير ومات. ماذا تفعلين؟

- ماذا أفعل بكلب صغير في مكان مثل هذا، في البداية.

- ألا يمكنك أن تدعي وجود كلب صغير لديك؟ فقط من أجل الحوار؟

- حسناً إن كلبي الصغير قد مات. ماذا بعد؟

- تذهبين إلى القيادة وسيأخذه منك الشباب هناك. افرضي أن فرانسي أرادت أن تحصل على أوراق عمل ولكنها ما تزال صغيرة لذلك.

- سوف يحضرونها لها... على ما أعتقد.

- بالتأكيد.

- هل تعتقد أن من الصحيح أن تفعل ذلك وتترك أطفالاً صغاراً يعملون في المصانع؟

- حسناً لنفرض أن لديك ولداً سيئاً لا ينفع للدراسة ويتسكع طوال النهار دون أن يسمح له القانون بالعلم. أليس من الأفضل أن تزوِّري له أوراق عمل؟

- في هذه الحالة نعم. قالت كاتي بإذعان.

- انظري إلى جميع تلك الوظائف التي يحصل عليها من يصوت لهم.

– أنت تعلم كيف يحصلون عليها.. أليس كذلك؟ إنهم يقومون بالتفتيش في المصنع ويتغاضون عن حقيقة مخالفته للقوانين وبالطبع يردُّ لهم مدير المصنع الجميل عبر إبلاغهم متى سيحتاج رجالاً للعمل وهكذا يحصل ممثلو مجلس النواب على فضل العثور على وظائف للناس.

– خذي حالة أخرى ... رجل له أقارب في البلاد الأصلية ولكنه لا يستطيع جلبهم إلى أميركا بسبب وجود معوقات، حسناً إن ممثل مجلس النواب يمكنه أن يعالج هذا الأمر.

– بالطبع إنهم يحضرونهم كأجانب هنا ثم يساعدونهم على البدء بمعاملات المواطنة وبعد ذلك يبلغونهم أن عليهم التصويت للديمقراطيين وإلا فإنهم سيعيدونهم من حيث أتوا.

– مهما تقولين. يظل تعامل ممثلي المجلس جيداً مع الفقراء. إذا مرض أحدهم ووجد أنه ليس في استطاعته دفع إيجار منزل. هل تظنين أنهم سيتركونه عرضة للطرد من قِبَل المالك، كلا أبداً إذا كان ديمقراطياً.

– أعتقد أن معظم المالكين هم من الجمهوريين إذن. قالت كاتي.

– كلا، إن النظام يعمل في كلا الطريقين. لنفرض أن المالك قد تنازع مع أحد المستأجرين، وقام الأخير بإعطائه لكمة على أنفه بدلاً من الإيجار. ماذا يحصل. يقوم الحزب بطرده لصالح المالك.

– إن ما يقدمه ممثل المجلس للناس يأخذه منهم مضاعفاً. انتظر حتى يسمحوا للنساء بالتصويت.

هنا قاطعها جوني ضاحكاً، ولكنها استمرت:

– أنت لا تؤمن أن هذا سيحدث؟

سوف يأتي ذلك اليوم، سجِّل كلماتي جيداً، سوف نضع جميع هؤلاء السياسيين الفاسدين في مكانهم الصحيح... خلف القضبان.

- إذا جاء ذلك اليوم الذي تصوِّت فيه النساء، فإنك سوف تـذهبين معـي يداً بيد وتنتخبين كما أنتخب... أحاطها بذراعه ثم ضمها إليه بسرعة.

ابتسمت كاتي له ولكن لم يفت فرانسي أنها كانت ابتسامة جانبية تماماً مثـل ابتسامة تلك المرأة في الصورة المعلقة في قاعة المدرسة. تلك الصورة التي يسمونها مونا ليزا.

كان ممثلو مجلس النواب يعلمون أن قوتهم تنبع من حقيقة تعلـيم الأطفـال منذ نعومة أظفارهم على طرق الحزب. كان أغبى المعلمين يملك مـن الفطنـة مـا يكفي لكي يعلم أن ابن المدرسة اليوم هو الذي سيصوِّت غداً. لذلك كان الحزب يـستميل الأولاد وحتـى البنـات إلى جانبـه. ورغـم أن تـصويت المـرأة لم يكـن مسموحاً به في ذلك الـزمن إلا أن الـسياسيين كـانوا يعلمـون مـدى تـأثير نـساء بروكلين على رجالهم. إذا ربيت طفلة صغيرة على طريق الحزب فإنها عندما تكـبر وتتزوج ستدفع زوجها للتصويت مباشرة للحزب. من أجل ذلك كانت مؤسسة ماتي موهاني تأخذ الأطفال وأهاليهم في رحلات صيفية. ورغـم أن كـاتي كانـت تمقت تلك المنظمة إلا أنها لم تجد سبباً لعدم الاستفادة منهـا وقـضاء وقـت ممتـع. وعندما سمعت فرانسي أنهم سيذهبون إلى تلك الرحلة، شـعرت بإثـارة شـديدة تماماً مثل الإثارة التي يشعر بها طفل في العاشرة من العمـر فهـي لم يـسبق لهـا أن ذهبت في نزهة بالقارب.

رفض جوني الذهاب ولم يفهم لماذا أرادت كاتي ذلك.

- أنا ذاهبة لأني أحب الحياة... كان التبرير غريباً.

- إذا كانت هذه ما تسميها الحياة فأنا لا أريدها.

ومع ذلك، ذهب جوني إلى الرحلة. كان يتصور أن رحلة القارب سـتكون تثقيفية وأراد أن يكون جاهزاً لتثقيف الأولاد. كان يومـاً شـديد الحـر والقـارب يغص بالتلاميذ المهتاجين من شدة الإثارة وهم يقفزون إلى الأعـلى وإلى الأسـفل ويحاولون أن يوقعوا أنفسهم في نهر هدسون. ظلت فرانسي تحدِّق في المياه الجارية

إلى أن أصيبت لأول مرة بصداع في رأسها. راح جوني يحدث أطفاله عن هندريك هدسون الذي أبحر في هذا النهر منذ زمن قديم وتساءلت فرانسي إذا كان السيد هدسون قد شعر مثلها بوجع في معدته. في مقدمة القارب جلست كاتي ترتدي ثوباً أصفر اللون كانت قد اقترضته من الخالة إيفي وقبعة مصنوعة من القش لونها أخضر مزرقٌ. بدت جميلة وهي تتحدث مع الناس حولها كانوا يتضاحكون فقد كانت كاتي محدثة لبقة يحب الناس الاستماع إليها.

في وقت لاحق من بعد الظهر، رسا القارب قرب واد مغطى بالأشجار في شمالي الولاية ونزل الديمقراطيون من القارب وأخذوا الأطفال في نزهة ليشتروا ما يشاؤون بالتذاكر التي معهم. قبل أسبوع من الرحلة كان كل طفل قد حصل على شريط من عشر تذاكر كتب عليها «هوت دوغ» «ماء الصودا» و«نزهة» وهكذا... كان فرانسي ونيلي قد حصلا على هذا الشريط ولكن فرانسي قامرت بشريطها مع بعض الأولاد المخادعين الذين راهنوها على لعبة كلل ولما كانت فرانسي ضعيفة في هذه اللعبة فقد خسرت جميع تذاكرها. في المقابل كان لدى نيلي ثلاثة شرائط ولما طلبت فرانسي من أمها أن تعطيها إحدى شرائط نيلي انتهزت الأم الفرصة وألقت غليها موعظة حول مساوئ القمار والرهان.

- كان لديك تذاكر ولكنك اعتقدت أنك ذكية جداً وتستطيعين الحصول على شيء لا حق لك به. عندما يقامر الناس، لا يفكرون بشيء سوى الربح. إنهم لا يفكرون بالخسارة ولكن تذكري هذه الكلمات: هناك شخص سيخسر ومن المرجح أن يكون أنت أو زميلك الذي يلعب ضدك. إذا تعلمت هذا الدرس جيداً فإنك تكونين قد دفعت ثمناً قليلاً لمعلومات تثقيفية عالية.

كانت أمها على حق وكانت فرانسي تعلم ذلك ولكنها لم تكن سعيدة بذلك فقد كانت ترغب في الذهاب إلى نزهة مع باقي الأطفال وكذلك في شرب ماء الصودا. وقفت أمام منصة بيع ساندويشات «الهوت دوغ» وقلبها يقطر حزناً وهي ترى باقي الأطفال يحشون بطونهم بتلك الساندويشات الرائعة. توقف رجل ليسألها. وكان يرتدي زي رجال الشرطة مع بعض الإفراط في اللون الذهبي.

– أليس لديك تذاكر أيتها الطفلة الصغيرة؟

– لقد نسيتها ... أجابت فرانسي كاذبة.

– بالطبع وأنا كذلك لم أكن أجيد لعبة الكلل. سحب الرجل ثلاثة شرائط من جعبته قائلاً: إننا نحسب دائماً أن هناك من يخسر كل سنة ولكن ليس بالعادة فتيات لأن الفتيات يحتفظن بما يحصلن عليه. أخذت فرانسي التذاكر وشكرت الرجل ولكن بينما كانت تهم بالذهاب استوقفها متسائلاً:

– هل هذه هي أمك التي تجلس هناك بالقبعة الخضراء.

– نعم.

انتظرت فرانسي السؤال التالي ولما لم يسأل الرجل سألته هي:

– لماذا؟

فأجابها: هل تصلّين كل ليلة للوردة الصغيرة وتطلبين منها حين تكبرين أن تعطيك نصف الجمال الذي لدى أمك ... افعلي ذلك الآن.

– وهذا الذي يجلس إلى جانبها هو أبي.

انتظرت فرانسي أن تسمع من الرجل بأن أباها جميل أيضاً ولكنه حدّق في جوني ولم يقل شيئاً. عندها ولّت فرانسي راكضة.

كان عليها أن تبلّغ أمها عن مكان وجودها كل نصف ساعة خلال النهار، وعندما عادت في تلك المرة وجدت أباها جالساً يشرب البيرة المجانية التي كانت توزع من برميل ضخم. هنا حاولت أمها مداعبتها قائلة:

– إنك مثل خالتك سيسي تحبين التحدث مع الرجال الذين يرتدون زي الشرطة.

– لقد أعطاني تذاكر.

– رأيت ذلك .. أجابت كاتي بعفوية ثم سألتها: وماذا سألك؟

– سألني إذا كنت أنت أمي ...

لم تشأ فرانسي أن تخبرها ما قاله حول كونها جميلة.

– نعم هذا ما ظننت.

حدقت كاتي في يديها، كانتا خشنتين حمراوين ومعرقتين. تناولت كاتي قفازين قطنيتين من محفظتها ورغم الحر في ذلك اليوم إلا أنها ارتدتهما وهي تتنهد:

– إنني أعمل كثيراً لدرجة تجعلني أنسى أحياناً أنني امرأة.

دهشت فرانسي وهي تسمع كلام أمها. كانت هذه الكلمات أقرب إلى الشكوى ولم تكن قد سمعت منها شكوى من قبل. تساءلت لماذا شعرت أمها فجأة بالخجل من منظر يديها. وفيما هي تنسل مبتعدة سمعت أمها تسأل السيدة الجالسة إلى جوارها:

– من هو هذا الرجل الذي يقف هناك ... الذي يرتدي زي الشرطة وينظر إلى هنا؟

– إنه الرقيب مايكل ماكشين. غريب أنك لا تعرفينه لأنه ينتمي إلى نفس منطقتك الانتخابية.

استمر يوم الفرح. كان هناك برميل من البيرة على طرف كل مائدة طويلة. وكانت البيرة تقدم مجاناً لجميع الديمقراطيين. أما فرانسي فراحت تركض وتصيح مثل باقي الأطفال. كانت البيرة تسيل مثل مزاريب بروكلين بعد ليلة مطر. كما كانت هناك فرقة موسيقية تعزف بعزم شديد وتغني أغاني «راقصي كيري» و«عندما تبتسم العيون الإيرلندية» و«هاريجان هذا أنا» و«نهر شانون وأغنية نيويورك الشعبية الخاصة» و«أرصفة نيويورك».

كان قائد الفرقة يعلن عن كل اختيار، «والآن ستعزف فرقة ماتي ماهوني الأغنية الفلانية»، وكانت كل أغنية تنتهي بتحية يطلقها أعضاء الفرقة بصوت واحد تحية لماتي ماهوني، ومع كل كأس من الجعة كان الحضور يرددون مع تحيات

ماتي ماهوني فيما كان كل نشاط يحمل اسم ماتي ماهوني مثل سباق ماتي ماهوني، سباق ماهوني للفستق وهكذا. قبل أن ينتهي النهار كانت فرانسي قد توصلت إلى قناعة بأن ماتي ماهوني إنسان عظيم.

في ساعة متأخرة من العصر، خطرت لفرانسي فكرة بأن عليها أن تعثر على السيد ماهوني وتشكره شخصياً على هذا اليوم الرائع. بحثت مطولاً وسألت طويلاً ولكن شيئاً غريباً حدث. لم يكن أحد يعرف ماتي ماهوني ولم يره أحد. بالتأكيد لم يكن هو ضمن الرحلة. كان حضوره طاغياً في كل مكان ولكنه لم يكن مرئياً. أخبرها أحد الأشخاص أن لا وجود لماتي ماهوني وأن هذا الاسم يطلق على أي شخص يترأس المنظمة الحزبية. قال لها هذا الشخص: إني أصوِّت مباشرة للديمقراطيين منذ أربعين سنة ويبدو لي أن المرشح كان دائماً الشخص نفسه «ماتي ماهوني» أو ربما هو شخص آخر يحمل الاسم نفسه. أنا لا أعلم من هو أيتها الفتاة الصغيرة. كل ما أعرفه هو أنني أصوت للديمقراطيين.

تميزت رحلة العودة تحت ضوء القمر في نهر هدسون بالمشادات التي اندلعت بين الرجال فيما عانى معظم الأطفال من المرض وحروق الشمس والحك. نام نيلي في حضن أمه فيما بقيت فرانسي مستيقظة على سطح القارب تستمتع إلى حديث أمها وأبيها.

– هل سبق وعرفت الرقيب ماكشين؟ سألت كاتي.

– أنا أعرف من هو. إنهم يطلقون عليه اسم الشرطي الشريف. الحزب يضع عينه عليه ولا أستبعد إذا ما رشحوه يوماً ما ليكون ممثلاً في مجلس النواب.

ردّ الرجل الجالس إلى جوار جوني وهو يلمس ذراعه: أعتقد أن الأصح أنهم سيرشحونه لمنصب مفوض للشرطة.

– ماذا عن حياته؟ سألت كاتي.

– إنها تشبه قصص المهاجرين جميعاً، جاء من إيرلندا قبل خمس وعشرين عاماً ولم يكن يحمل إلا صندوق ثيابه على ظهره. ثم عمل كملاكم ثم درس ليالي

طويلة ليدخل قوة الشرطة. وقد تابع دراسته ونجح في امتحاناته حتى وصل إلى رتبة رقيب. قال جوني.

- أفترض أنه قد تزوج امرأة مثقفة ساعدته في حياته.

- كلا، في حقيقة الأمر، عندما وصل إلى هنا، تبنته عائلة إيرلندية وأبقته عندها حتى تمكن من الوقوف على قدميه. كان لدى العائلة ابنة تزوجت من شخص غبي حاول أن يرافق غيرها بعد انتهاء شهر العسل وانتهى به الأمر لأن يتورط في مشاجرة ويُقتل. حسناً كانت الفتاة حاملاً ولم يكن بالإمكان إقناع الجيران بسهولة أنها متزوجة. بدا وكأن العار سيلحق بالعائلة ولكن ماكشين تزوجها وسجّل الصبي باسمه كنوع من رد الجميل إلى العائلة. لم يكن زواجاً عن حب ولكنه يعاملها معاملة حسنة كما أسمع.

- هل أنجبا أطفالاً؟

- أربعة عشر كما سمعت.

- أربعة عشر.

نعم، ولكنه ربّى أربعة فقط فقد مات الباقون في صغرهم. ولدوا جميعاً ومعهم داء السل كما يبدو، فقد ورثوا هذا المرض عن أمهم التي أصيبت به بعد أن لحقتها عدوى من إحدى الفتيات.

- لقد تلقى من المشاكل أكثر من نصيبه.. قال جوني بتأمل ولكنه بقي رجلاً طيباً.

- هل ما تزال زوجته حية؟ على ما أظن.

- نعم ولكنها مريضة جداً، يقولون إنها لن تعيش طويلاً.

- آه إن أمثالها يعيشون طويلاً.

- كاتي .. بدا جوني مصدوماً من الملاحظة التي أبدتها زوجته.

– أنا لا أكترث، أنا لا ألومها لأنها تزوجت غبياً وأنجبت منه. هذا شيء يخصها ولكنني ألومها لأنها لم تأخذ أدويتها في الوقت المناسب. لماذا تسبب كل هذه المشاكل لرجل طيب؟

– ليست هذه طريقة للحديث.

– أرجو أن تموت وتموت سريعاً.

– هش .. اصمتي يا كاتي.

– نعم أتمنى ذلك حتى يتزوج مرة أخرى من امرأة مرحة تنجب له أطفالاً يمكنهم أن يعيشوا. هذا حق لكل رجل.

صمت جوني ولم ينبس بعدها ببنت شفة ولكن شعوراً غامضاً بالخوف أخذ ينمو في صدر فرانسي وهي تصغي لحديث أمها. نهضت وذهبت إلى أبيها وأمسكت بيده ثم شدّت عليها. تحت ضوء أشعة القمر بدت عينا جوني مفتوحتين على وسعهما وبدا مدهوشاً. سحب الطفلة إليه وضمّها بشدة ولكنه لم ينطق سوى عبارة واحدة:

انظري إلى القمر وهو يسير على الماء.

بعد الرحلة بفترة قصيرة بدأت المنظمة تجهز ليوم الانتخابات. قامت بتوزيع أزرار بيضاء لامعة تحمل صورة ماتي على أطفال الحي. حصلت فرانسي على أحد الأزرار وراحت تحدق في الوجه البارز على الزر. كان ماتي ماهوني قد تحول ليصبح شيئاً غامضاً بالنسبة لفرانسي بحيث احتل مكان الروح القدس. فهو شخص لا يُرى ولكن الجميع يشعر بحضوره. كانت الصورة تظهره كرجل لطيف الوجه له شعر أسود وشاربان يشبهان مقود الدراجة الهوائية، تماماً مثل وجه أي سياسي جديد. تمنت فرانسي لو أنها تراه مرة مجسداً أمامها.

أثارت تلك الأزرار زوبعة من الصخب بين الأطفال. وكان هؤلاء يتبادلونها بدل الألعاب والنقود. فقد باع نيلي إحدى لعبه مقابل عشرة أزرار فيما قام غيمبي

بائع الحلوى بتبديل 15 زراً من أزرار فرانسي مقابل ما قيمته سنت من الحلوى (كان لديه ترتيب بأن يعيد الأزرار إلى المنظمة مقابل بعض النقود). ظلت فرانسي تبحث عن ماتي. كان موجوداً في كل مكان. الأولاد يلعبون الكرة بالأزرار التي تحمل صورته. وصوره منتشرة في مسارات السيارات وقيعان الأسيجة ومواسير المجاري حتى إنها وجدت صورة له في بقايا محتويات جيوب نيلي.

في الكنيسة رأت فرانسي صديقها بنكي بيركنز يضع زرين من أزرار ماتي ماهوني في صينية جمع النقود بدلاً من بنسين أعطتهما له أمه ليضعهما في الصينية ثم رأته بعد ذلك يتوجه إلى دكان الحلوى بعد الصلاة ويشتري أربعة سجائر مصنوعة من الحلوى. كانت فرانسي ترى صورة ماتي في كل مكان ولكنها لم تره هو أبداً.

قبل أسبوع من الانتخابات، ذهبت فرانسي مع نيلي وأولاد الحي لجمع الحطب من أجل إشعال نارٍ كبيرة للاحتفال بيوم الانتخابات وقد ساعدت أخاها على تخزين الحطب في قبو المنزل.

يوم الانتخابات، استيقظت فرانسي باكراً ورأت رجلاً يقرع باب منزلهم وينادي: نولان.

- نعم. رد أبوها.

- نلتقي عند صناديق الاقتراع الساعة الحادية عشرة. كان يتكلم وهو يتفقد اسم جوني على القائمة. قدم سيجاراً لجوني مع تحيات ماتي ماهوني ثم ذهب إلى منزل ديمقراطي آخر.

- أما كنت لتذهب إلى ذلك المكان لو لم يخبروك بذلك؟ سألت فرانسي.

- نعم ولكن لكل منا وقت محدد بحيث يكون الانتخاب منظماً حسب المواعيد كي لا يأتي الجميع في مجموعة واحدة.

- لماذا؟ أصرّت فرانسي على السؤال.

– لأنه ... حاول جوني أن يتجنب الإجابة.

– سوف أقول لك لماذا. تدخلت أمها ... إنهم يريدون أن يعرفوا من صوّت ومن لم يصوِّت وكيف تم ذلك. إنهم يعرفون موعد تصويت كل رجل وويل للذي لا يظهر للتصويت من أجل ماتي.

أشعل جوني سيجار ماتي وردّ قائلاً: إن النساء لا يعرفن شيئاً عن الانتخابات.

ساعدت فرانسي أخاها نيلي في جر الحطب إلى الخارج ليلة الانتخابات. وحمله الاثنان إلى أكبر نار أشعلت في الحي. اصطفت فرانسي مع باقي الأطفال وراحوا يرقصون رقصة الهنود الحمر حول النار ويغنون تاماني وعندما خمدت النار قام الأطفال بغزو عربات اليد التي يملكها التجار اليهود وسرقوا بعض البطاطا لكي يشووها على رماد النار. كانوا يطلقون على البطاطا المشوية اسم «ميكيز». لم يكن هناك ما يكفي من البطاطا. لذلك لم تنل فرانسي شيئاً.

وقفت في الشارع تراقب العائدين وقد انتشرت ملاءة من نافذة إلى نافذة في منزل يقع على الزاوية. كان هناك مصباح سحري يضيء الشارع ويظهر الأشكال على الملاءة. وكلما كان عدد جديد من العائدين يمر تأخذ فرانسي بمناداة الأطفال الآخرين وهي تصيح:

«بلاد أخرى سمعنا عنها».

كانت صورة ماتي تظهر على الشاشة بين الفترة والأخرى وكانت الجموع تحييه بصوت أجش. في تلك السنة تم انتخاب رئيس من الحزب الديمقراطي وأعيد انتخاب حاكم الولاية الديمقراطي ولكن كل ما علمته فرانسي هو أن ماتي ماهوني قد عاد مرة أخرى.

بعد الانتخابات، نسي السياسيون وعودهم وتمتعوا براحة مكتسبة حتى بداية العام الجديد حيث بدؤوا يعملون من أجل الانتخابات القادمة. كان يوم

الثاني من يناير (كانون الثاني) يوم السيدات في مقر الحزب الديمقراطي. في ذلك اليوم دون غيره كان يتم استقبال السيدات في ذلك المقر المقتصر بشكل مشدد على الرجال، وتقدم لهن أقداح الشيري والكعك. كان المقر يشهد طوال النهار تدفق السيدات وظل رجال ماتي يستقبلونهن بكل احترام وأدب. لم يظهر ماتي أبداً ولكن معظم السيدات تركن بطاقات صغيرة مزينة تحمل أسماءهن، في صحن زجاجي موضوع على المائدة، بينما هن خارجات من القاعة.

لم يمنع كره كاتي للسياسيين من أن تحضر هذا الحفل السنوي. ارتدت بذلتها الرمادية المشدودة والمزخرفة وقبعتها الخضراء المخملية المائلة باتجاه عينها اليمين وانطلقت نحو الحفل. عند الباب كان هناك أحد الخطاطين وقد أقام منصة مؤقتة خارج مركز قيادة الحزب. طلبت كاتي منه أن يكتب بطاقة باسم السيدة قرينة جون نولان وأن يرسم عليها وروداً وصوراً للملائكة يزحفون من بين الكلمات. دفعت ثمنها عشرة سنتات كانت من المفروض أن تذهب إلى الحصالة ولكن كاتي تصورت أن بإمكانها أن تكون مسرفة مرة في السنة.

كيف كان الحفل هذه السنة؟ سألها جوني.

– كالعادة! الفعاليات القديمة ذاتها. كانت هناك نساء عديدات يرتدين ثياباً جديدة. أكاد أراهن اشترينها لهذه المناسبة. بالطبع كانت المومسات يرتدين أفضل الثياب. قالتها كاتي بطريقتها الصريحة والمباشرة وأضافت: «وكالعادة أيضاً كان عددهن أكثر من عدد النسوة المحترمات ربما بنسبة 2:1».

25

كان جوني يملك نظريات في الحياة، إحداها تقول إن الحيـاة هـي أكـبر ممـا يتحمله لذلك انغمس أكثر وأكثر في معاقرة الخمر علـه ينـساها. كانـت فرانـسي تعرف تماماً متى يكون أبوها مثقلاً في الشرب عن دون العادة فهو يسير بخطـوط أكثر استقامة حين عودته على البيت أو يسير ببطء وانتباه عند الجوانـب ويـصبح هادئاً جداً عندما يثمل، لا يشاغب ولا يغني ولا يتحول إلى شخص عاطفي، بـل يتحول إلى مفكر. الناس الذين لا يعرفونه جيداً يظنـون أنـه ثمـل عنـدما يكـون صاحياً. لكنه على العكس كان يمـلأ الـدنيا غنـاءً وإثـارة عنـدما يكـون صـاحياً وعندما يثمل يظن الناس أنه شخص هادئ مفكر لا يتدخل في شؤون أحد.

ولكن فرانسي كانت تشعر بالخوف من فترات الثمالة هذه، لـيس لأسـباب أخلاقية ولكن لأنها لا تعود تعرفه. فهو حين يكـون ثمـلاً لا يكلمهـا ولا يكلـم أحداً بل ينظر إليها بعينـي شـخص غريـب ويـدير وجهـه بعيـداً عنـدما تكلمـه زوجته.

عندما يتجاوز مرحلة الشرب يعتنق نظرية أنه يتوجب عليـه أن يكـون أبـاً أفضل لطفليه ويشعر أن عليه تعليمهما أشياء جديدة. لـذلك يتوقـف لفـترة عـن الشرب وينخرط في عمل دؤوب يكرس فيه جُلّ وقته لفرانسي ونيلي. كان يحمـل

الأفكار نفسها التي تحملها أم كاتي «ماري روميلي» عن التعليم، فهو يريد أن يعلمهما كل ما يعرفه حتى إذا ما وصلا إلى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة يكونان قد امتلكا من العلم ما يوازي علم شخص في عمر الثلاثين. كان يتصور أنهما بعد ذلك سيتابعان تعلم ما يختارانه بحيث إنهما عندما يصلان إلى سن الثلاثين يكون ذكاؤهما ضعف أولئك الذين في عمرهما. شعر أنهم بحاجة لدروس في الجغرافيا، والتربية المدنية وعلم الاجتماع. وهكذا قرر اصطحابهما إلى جادة بوشويك.

وجادة بوشويك هي شارع عريض راقٍ من شوارع بروكلين القديمة، تحيط به الأشجار ومنازل الأغنياء المبنية من أحجار الجرانيت الضخمة، ذات الشرفات الحجرية الطويلة عند مداخلها. هنا في جادة بوشويك يعيش السياسيون الكبار والعائلات الثرية من أصحاب المصانع والمهاجرون الميسورون الذين جاؤوا إلى البلاد مع ركاب الدرجة الأولى في السفن. هؤلاء أحضروا معهم أموالهم وتماثيلهم ورسوماتهم الزيتية إلى أمريكا واستقروا في بروكلين.

أخذت السيارات تدخل حيز الاستعمال ولكن معظم هذه العائلات ظلت متعلقة بخيولها الأنيقة وعرباتها الفخمة. شرح الأب لفرانسي وهو يشير إلى تلك العربات عن كافة أجهزتها وظلت فرانسي تراقبها برهبة وهي تشق الطريق.

كانت هناك أنواع أنيقة مصقولة ومبطنة بخصل من الساتان الأبيض، تعلوها مظلة كبيرة مهدبة لاستخدام السيدات الرقيقات. وكذلك أنواع أخرى مجدولة لها مقعدان طويلان على كل جهة يجلس عليهما الأطفال الميسورون ويجرها مهر من نوع شتلاند. حدقت فرانسي في تلك السيدة القديرة التي كانت ترافق الأطفال. إنها تمثل نساء من عالم آخر يرتدين الأغطية التي تغطي الكتفين والقبعات المنشّاة ويجلسن بشكل جانبي على المقعد بينما هن يقدن المهور.

رأت فرانسي عربة ذات مقعدين. كانت عربة عملية جداً يجرها حصان واحد عالي الخطوات ويقوده شباب صغار مفرطون في الأناقة يرتدون قفازات

أطفال أطرافها مردودة إلى الخلف لكي تبدو مثل ثنية مقلوبة. كذلك كانت هناك عربات عائلية يقودها فريق قدير. إلا أن هذه العربات لم تترك انطباعاً هاماً لدى فرانسي لأن معظم أصحاب حوانيت دفن الموتى في وليامزبيرغ يملكون مثلها. ولكن أكثر ما أحبته كانت تلك العربات ذات المقعد الواحد والعجلتين. كم هي ساحرة بعجلتيها وبابها المضحك الذي يغلق وحده عندما يجلس الراكب في المقعد. ببراءتها الطفولية اعتقدت فرانسي أن الأبواب تحمي الركاب من روث الخيول المتطاير. لو كنت رجلاً، فكرت فرانسي لنفسها، فإن هذه هي المهنة التي سأعمل فيها، أن أقود إحدى هذه العربات. آه ما أحلى أن أجلس عالياً وأمسك سوطاً قوياً بيدي. أو أرتدي ذلك المعطف العظيم ذا الأزرار الضخمة والقبة المخملية والقبعة العالية ذات الشريط المعقود داخل العصابة. أخذت فرانسي تقلد صيحات السائقين بصوت منخفض:

هل تريد عربة يا سيدي؟ عربة؟ قال جوني موجهاً حديثه لابنته: أي إنسان يأخذه حلمه الشخصي في الديمقراطية يمكنه أن يركب هذه العربات ذات العجلتين ولكن بشرط أن يملك المال لذلك. وهكذا ترين أننا نعيش في بلاد حرة هنا.

– ما هو الحر فيها إذا كان عليك أن تدفع؟ سألته فرانسي.

– إنها حرة بالطريقة التالية: إذا كنت تملكين المال فإن بإمكانك أن تركبي في هذه العربات كائناً من كنت. في البلدان الأصلية (أوروبا) لا يسمح لبعض الناس بالركوب حتى ولو كان معهم المال الكافي لذلك. أجابها أبوها.

– ألن تكون البلاد أكثر حرية إذا استطعنا الركوب فيها مجاناً؟ قالت فرانسي بإلحاح.

– كلا.

– لماذا؟

- لأن هذا يعني أننا أصبحنا اشتراكيين. أجابها أبوها بنشوة انتصار ثم أردف: ونحن هنا لا نرغب بالاشتراكية.

- لماذا؟

- لأن لدينا الديمقراطية وهي أفضل نظام موجود، أكدّ لها جوني.

سرت شائعات بأن رئيس بلدية نيويورك القادم سوف يكون من سكان جادة بوشويك في بروكلين. حركت هذه الشائعات شعور جوني فالتفت إلى فرانسي قائلاً: انظري أمام وخلف هذه البنايات يا فرانسي وبيّني لي أين يعيش محافظ نيويورك المقبل.

نظرت فرانسي مطولاً ولكنها عادت وخفضت رأسها قائلة: لا أعرف يا أبي.

- هناك أعلن جوني وكأنه ينفخ لحناً في بوق. يوماً ما سيكون لهذا البيت عامودان يعلوهما مصباحان عند أسفل شرفته الأمامية. حيثما تجولت في هذه المدنية العظيمة ومررت على منزل له عامودان ومصباحان فستعرفين أن محافظ أهم مدينة في العالم يعيش هنا.

- لماذا يحتاج إلى عمودين ومصباحين يا أبي؟

- لأن هذه هي أميركا وفي مثل هذه البلاد... تابع جوني بغموض ولكن بنفس وطني: أنت تعرفين أن الحكومة هي من الشعب وإلى الشعب ومن أجل الشعب ومثل هذه الحكومة لن تختفي عن الأرض كما اختفت حكومات البلدان الأصلية. بدأ يهمهم بغناء خفيف ثم ما لبث أن انجرف مع مشاعره وانطلق يغني بصوت أعلى بمشاركة فرانسي:

أنت علم قديم عظيم
أنت علم عالٍ

وسوف تظل تلوح في سلام...

حدّق الناس في جوني بفضول حتى إن إحدى السيدات اللطيفات رمت له بعشرة سنتات.

في ذاكرة فرانسي قصة أخرى لجادة بوشويك ترتبط بعبير الأزهار. هناك أزهار وأزهار في جادة بوشويك، والشوارع خالية من العربات فيما المارة يحتشدون على الأرصفة والشرطة يحاولون إبقاءهم في الخلف. تشتد رائحة الأزهار ثم يظهر موكب مؤلف من رجال شرطة يمتطون أحصنتهم ووراءهم سيارة كبيرة مكشوفة يجلس فيها رجل لطيف حول عنقه إكليل من الزهور. بعض الناس كانوا يبكون فرحاً وهم ينظرون إليه. أمسكت فرانسي بيد أبيها بشدة وهي تصغي للناس حولها يتحدثون:

– فقط تصور أنه كان من أولاد بروكلين أيضاً.

– نعم.

– نعم وهو يعيش هنا في جادة بوشويك.

– انظروا إليه انظروا إليه. صاحت إحدى النساء. لقد أصبح شيئاً عظيماً وما زال يعتبر نفسه رجلاً عادياً مثل زوجي... ولكنه أجمل قليلاً.

– لا بد أن الجو بارد جداً هناك، أتساءل إذا لم يتجمد... من البرد. قال رجل فاسق.

فجأة نقر رجل شديد النحول على كتف جوني وسأله: هل تؤمن فعلاً بأن هناك قطباً يبرز على قمة العالم.

– بالتأكيد. أجابه جوني. ألم يذهب هناك ويتجول ويرفع العلم الأميركي فوقه. في هذه اللحظة صاح أحد الأولاد... «ها هو قد وصل».

– أوو.

تأثرت فرانسي كثيراً من هول الإعجاب الذي اجتاح الحشود عندما مـرت بهم السيارة وهم واقفون على الرصيف. وبلغ من تأثرها أن انجرفـت مـع التيـار وراحت تصيح:

- تحية للدكتور كوك، تحية لبروكلين.

26

معظم الأطفال الذين ترعرعوا في بروكلين قبيل الحرب العالمية الأولى يتذكرون يوم عيد الشكر في ذلك الزمن بعطف خاص. فقد كان هو اليوم الذي ينطلق فيه الأطفال ليطرقوا الأبواب بعنف وهم يرتدون أزياء وأقنعة.

كان ثمن القناع يصل إلى عشرة سنتات لذا اختارت فرانسي قناعها بحذر شديد. اشترت قناعاً يمثل رجلاً صينياً أصفر اللون وله شاربان طويلان فيما ارتدى نيلي قناعاً أبيض اللون يمثل رأس ميت وله أسنان سوداء عابسة. أما الأب فقد وصل في آخر دقيقة ومعه قرن معدني لكل منهما، الأحمر لفرانسي والأخضر لنيلي.

لكم أمضت فرانسي من الوقت وهي تلبِّس نيلي زيّ العيد. ارتدى نيلي أحد أثواب أمه التي لم تكن تحتاج إليها، وشقّه على طول الكاحل الأمامي لكي يستطيع السير وظل يجر وراءه القطعة غير المشقوقة حتى أصبحت قذرة. ولم ينسَ أن يحشو منطقة الصدر من الأمام بصحف ملفوفة حتى يصنع منها صدراً عارماً. كان حذاؤه البالي يحمل رأساً معدنياً ويبرز من أسفل الجهة الأمامية للثوب. وحتى لا يتجمد من البرد ارتدى كنزة فوق الثوب ولبس قناع الموت على وجهه ثم وضع إحدى قبعات والده المهترئة على رأسه إلا أنها كانت كبيرة الحجم مما اضطره إلى تثبيتها على أذنيه.

ارتدت فرانسي إحدى صداري أمها الصفراء اللون وتنورة زرقاء فاتحة ووشاحاً أحمر. ركزت القناع الصيني على عصابة حمراء فوق رأسها ثم ربطته بأسفل ذقنها وألبستها أمها قبعة صوف مصنوعة على شكل جورب لكي تغطي بها رأسها من البرد فقد كان ذلك اليوم بارداً. بعد ذلك وضعت فرانسي حبتي جوز في سلة عيد الفصح الغابر حتى تستخدمها كطعم ومن ثم انطلق الطفلان.

كان الشارع يعج بالأطفال الذين يرتدون الأقنعة والأزياء الغريبة. وكانت أصوات قرقعة القرون المعدنية تحدث جلبة تصم الآذان. بعض الأطفال كانوا أفقر من أن يشتروا قناعاً بعشرة سنتات لذلك قاموا بصبغ وجوههم باللون الأسود بواسطة الفحم المحروق. البعض الآخر ممن كان أهلهم أفضل حالاً اشتروا أزياء من المخازن. منهم من ارتدى أزياء الهنود الحمر، أو رعاة البقر أو ثياب صانعات الأجبان في هولندا. القليل منهم لفّ خرقة أو قطعة قماش بالية حول جسده وأطلق عليها اسم زي العيد.

انضمت فرانسي إلى مجموعة صغيرة وراحت تتجول معهم. بعض أصحاب الدكاكين أغلقوا أبوابهم في وجوه الأطفال ولكن معظمهم احتفظوا بأشياء ليقدموها لهم. صاحب محل الحلوى مثلاً ظل طوال عدة أسابيع يجمع قطع الحلوى المكسّرة ويضعها في أكياس لتوزيعها على الأطفال الذين جاؤوا يطلبونها. كان عليه أن يفعل ذلك لأن الأطفال هم زبائنه الأساسيون ولا يريد أن يقاطعوه في حالة أساء لهم. كذلك فعل المخبز بتوزيع قطع من الكعك وبائع الخضار الذي وزّع ما تبقى لديه من الموز والتفاح نصف المضروب. كان هؤلاء مدركين لحقيقة أن الأطفال يشكلون مسوقي الحي وأنهم لن يناصروا من لم يناصرهم. بعض المحلات التي لا تستفيد شيئاً من الأطفال لم يغلقها أصحابها ولم يعطوا شيئاً سوى بضع محاضرات للأطفال حول مساوئ التسول. هذه المحلات كانت تتعرض لطرق الأبواب المتواصل من قِبَل الأطفال كما جرت العادة في ذلك العيد.

مع حلول الظهيرة، انتهى كـل شيء. شـعرت فرانـسي بالتعـب مـن زيهـا المجهد كما أن قناعها أصبح متجعداً (فهـو مـصنوع مـن شـاش رخـيص منـشّى ومجفف ليصبح على شكل قالب). كان أحد الأولاد قد نزع عنهـا قرنهـا المعـدني وكسره على ركبته إلى قطعتين. التقت بنيلي وقد غطى الدم أنفه نتيجة عراكـه مـع ولد آخر حاول أن ينتزع منه سلته. لم يقل نيلي من الذي انتـصر في النـزاع ولكنـه كان يحمل سلة الولد الآخر إلى جانب سلته. سار الاثنـان إلى المنـزل حيـث كـان بانتظارهما غداءٌ رائع بمناسبة عيد الشكر يتألف من اللحـم المشوي والمعكرونـة المصنوعة في البيت. بعدها أمضيا طـوال فـترة العـصر وهمـا يـستمعان إلى أبـيهما يحدثهما عن ذكريات أيام عيد الشكر عندما كان ولداً في مثل عمرهما.

حدث ذلك يوم عيد الشكر عندما أطلقت فرانسي كذبتها الأولى وهي أنها اكتشفت أنها كاتبة جيدة، وعقدت الأمر بأن تصبح كذلك.

في اليوم الذي سبق يوم عيد الشكر، جرت بعض المسابقات في غرفة صف فرانسي. كانت هناك أربع فتيات يقرأن أشعاراً لعيد الشكر وكل منهن تحمل في يدها رمزاً لهذا اليوم. الأولى حملت كوز ذرة ناشفاً والثانية رجل ديـك رومـي والثالثـة سلة تفاح والرابعة كعكة قرع ثمنها خمسة سنتات وبحجم صحن فنجان صغير.

بعد التمارين، ألقت الفتاتان بكوز الذرة ورجل الديك في القمامة ووضعت المعلمة سلة التفاح جانباً لتأخذها إلى المنزل وسألت إذا كان أحد يرغب في كعكة القرع. سال اللعاب في ثلاثين فماً وكادت ثلاثون يداً ترتفع في الهواء ولكن هؤلاء وعلى الرغم من أن معظمهم يعـانون الفقـر والجـوع إلا أن أنفـسهم عـزّت بـأن يتقبلوا طعاماً صدقة. وعندما لم يجب أحد أمرت المعلمة برمي الكعكة خارجاً.

لم تتحمل فرانسي الأمر، كانت كعكة قرع رائعة ولم تكن هي قد ذاقتها مـن قبل. بالنسبة لها، كانت كعكة القرع تذكرها بالمستوطنين الذين يركبون العربـات المغطاة وبالمقاتلين الهنود. وكانت تتلهف لتذوقها وفي لحظة سريعـة لفقـت كذبـة ورفعت يدها.

– أنا سعيدة أن هناك أحداً يرغب في تلك الكعكة. قالت المعلمة.

– أنا لا أريدها لنفسي، قالت فرانسي وهي تكذب باعتزاز: أنا أعرف عائلة فقيرة وأريد أن أعطيها لهم.

– جيد جداً هذه هي الروح الحقيقية لروح عيد الشكر.

التهمت فرانسي الكعكة وهي عائدة إلى البيت ولكنها لم تتمتع بها ربما لأن ضميرها أنّبها أو لأن طعمها لم يكن مألوفاً بل بدا وكأنه طعم صابون. في يوم الإثنين التالي سألتها المعلمة إذا كانت العائلة الفقيرة قد تمتعت بالكعكة فأجابت: نعم لقد أعجبتهم. ثم لاحظت فرانسي أن المعلمة بدت مهتمة بالأمر فقامت بتركيب قصة حول هذه العائلة فقالت: إن لدى العائلة فتاتين لهما جدولتان ذهبيتان وعينان زرقاوان.

– وماذا أيضاً؟ قالت المعلمة.

– وهما توأمان أيضاً.

– رائع.

أحست فرانسي وكأن إلهاماً حلّ عليها فتابعت قائلة إحداهما اسمها باميلا والأخرى كاميلا (هذان الاسمان كانت فرانسي قد اختارتهما للعبتيها).

– وهما فقيرتان جداً؟ سألت المعلمة.

– نعم فقيرتان جداً لم تأكلا منذ ثلاثة أيام وكانتا ستموتان جوعاً كما قال الطبيب لو لم أحضر لهما الكعكة.

– لقد كانت كعكة صغيرة جداً لا يمكنها أن تنقذ حياة شخصين.

شعرت فرانسي أنها شطحت في كذبتها. كرهت نفسها لأنها اخترعت ذلك الهراء ولكن المعلمة انحنت ووضعت ذراعيها حول فرانسي. لاحظت فرانسي أن عينيها مغرورقتان بالدموع فكادت تتقطع ندماً بينما الدمع المرير ينهمر من عينيها.

– لقد كانت هذه كذبة كبيرة، اعترفت أمام المعلمة ثم أردفت:

– أنا أكلت الكعكة.

– أنا أعلم ذلك. أجابت المعلمة.

– لا ترسلي رسالة إلى أهلي. قالت فرانسي متوسلة وقد غلبها التفكير بالعنوان الذي لم يكن صحيحاً.

– لن أعاقبك لأن لك مخيلة رائعة. ردت المعلمة ثم أخذت تشرح لها بهدوء عن الفرق بين الكذبة والقصة. فقالت: الكذبة هي شيء تقولينه لأنك سيئة أو جبانة ولكن القصة هي شيء تصنعينه من أمر قد يكون حدث إلا أنك لا تخبرين القصة كما حدثت بل كما تظنين أنه ينبغي أن تحدث.

فيما كانت المعلمة تتحدث، شعرت فرانسي بأن هماً كبيراً قد انزاح عن صدرها. كانت قد اعتادت المبالغة في الحديث عن الأشياء ولم تكن تروي حقيقة ما حدث بل تعطي للقصة لوناً وتتجه بها نحو الإثارة والدراما. كانت كاتي تشعر بالانزعاج من هذا الميل لدى فرانسي وظلت تنبهها بأن تقول الحقيقة الصافية وأن تتوقف عن التخيل ولكن فرانسي لم تستطع أن تترك الحقيقة بدون ديكور. كان عليها أن تضع بعض التبهيرات فيها.

على الرغم من أن كاتي كان لديها مثل هذا الميل في تلوين الأحداث وعلى الرغم من أن جوني نفسه كان يعيش في عالم من نصف الأحلام إلا أنهما حاولا أن يقمعا تلك النزعات في طفلتهما. ربما كان لديهما سبب مقنع، ربما كانا يعرفان أن هذه الموهبة في التخيل أعطت لوناً وردياً لحياة الفقر والعوز التي كانا يعيشانها وجعلتهما أكثر قدرة على تحملها. ربما كانت كاتي تعتقد أنهما لو تخلصا من هذه النزعة لأصبح ذهنهما أكثر صفاءً وأكثر قدرة على رؤية حقيقة الأشياء وعندها يشمئزان من هذه الحقيقة ويسعيان لطريقة من أجل تحسينها.

دائماً كانت فرانسي تستذكر ما قالته لها تلك المعلمة الطيبة:

أتعرفين يا فرانسي هناك أناس عديدون يعتقدون أن هـذه القـصص التـي ترويها هي مجرد أكاذيب مروعة لأنها ليست الحقيقة التي يراها الناس كحقيقـة. في المستقبل عندما يحدث أمر، قومي بإبلاغ الأمر كما حـصل ولكـن اكتبـي عـلى ورقة جانبية كيف تظنين أنه كان سيحدث. قولي الحقيقـة واكتبـي القـصة وبهـذه الطريقة لا تقعين في مغالطة.

كانت هذه أفضل نصيحة تلقتها فرانـسي في حياتهـا، فقـد كانـت الحقيقـة والخيال متداخلين في ذهنها تماماً مـثلما همـا متـداخلان في ذهـن طفـل يعـيش في وحدة لدرجة أنها لم تكن تدرك أياً منهما هو الآخر. ولكن المعلمة جعلت الأمرين واضحين في ذهنها. منذ ذلك الوقت كتبت قصصاً صغيرة حول أمـور شـاهدتها أو شعرت بها أو فعلتها. ومع مرور الوقت أصبحت تـروي الحقيقـة ولكـن مـع تبهير بسيط للقصص.

كان عمر فرانسي عشر سنوات عندما وجدت أول منفس لها في الكتابـة. لم يكن هناك إلا تأثير قليل لما كتبتـه ولكـن المهـم في الأمـر هـو أن محاولتهـا كتابـة القصص وضعتها مباشرة على الحد الفاصل بين الحقيقة والخيال. ولو أنهـا لم تجـد ذلك المنفس في الكتابة لكانت أصبحت في كبرها كذابة مروعة.

27

كان عيد الميلاد مناسبة ساحرة في بروكلين وكان حضوره واضحاً في الأجواء حتى قبل موعده بزمن طويل. أول الغيث كان السيد مورتون الذي يبدأ بتعليم أطفال المدارس أناشيد عيد الميلاد ولكن أول المؤشرات المؤكدة على قرب موعده هي واجهات المحلات والمخازن.

عليك أن تكون طفلاً لكي تدرك مدى روعة أن تمتلئ واجهات المخازن بالألعاب والمزالج ولعب الفتيات. بالنسبة لفرانسي كانت فرصة مشاهدة هذه الألعاب عبر الواجهات توازي عملياً الحصول على لعبة حقيقية. ولكم كانت تشعر بالإثارة عندما تمر عبر ناصية أحد الشوارع وتجد مخزناً آخراً وقد أكمل حلّته لاستقبال عيد الميلاد. زجاج الواجهات النظيف اللامع والقطن المنثور كالغبار النجمي على السجاد إضافة للعب الفتيات الصغيرات ذوات الشعر الجميل، بمختلف التسريحات والألوان وخاصة ذلك اللون الذي كانت فرانسي تعشقه: لون القهوة مع القشطة. كانوا يصبغون وجوه تلك اللعب ويلبسونها أزياء لم ترَ مثلها فرانسي في حياتها على الأرض. كانت تلك اللعب تقف باستقامة وسط علب الكرتون مثبتة بظهر العلبة بقطع لاصقة حول أعناقها وكواحلها. ما أجمل تلك العيون الزرقاء العميقة ذات الرموش الكثيفة وهي تحدق من خلال

الواجهة في عيون المارين من الفتيات الصغار وتسرق قلوبهن وكأنها تسألهن «أرجوك ألا تريدين أن تكوني أمي؟» لم تكن فرانسي قد اقتنت لعباً مثل هذه. كانت اللعبة الوحيدة لديها طولها بوصتان وثمنها نيكل واحد.

أما المزالج فهي التي تحقق حلم الأطفال في الجنة - مزلجة جديدة تحمل رسمة وردة زرقاء ذات أوراق خضراء مشرقة - قطعتا المزلجة المطليتان بلون الأبنوس الأسود - عمود المقود المصنوع من الخشب الصلب والمصقول بطريقة لامعة، ولا تنسَ الأسماء المحفورة عليها «روزبد، ماغنوليا، سنوكنغ، فلاير». فكرت فرانسي وهي تنظر إلى الواجهة التي تحتوي هذه المزالج: لو أني أستطيع الحصول على واحدة منها فإني لن أطلب من ربي شيئاً آخر طوال العمر.

كانت هناك مزالج أخرى مصنوعة من معدن النيكل البراق ومخططة بصفوف من الجلد البني الجيد ولها عجلات مطلية بالفضة وقادرة على الانزلاق. ربما لا تحتاج كي تنطلق بها إلا أن تأخذ نفساً ومن ثم تنطلق. كانت العجلات معروضة في الواجهة وقد تقاطعت مع بعضها البعض وسط أجواء ميلادية من القطن المنثور أسفلها وحولها.

كذلك كانت هناك أشياء أخرى رائعة. لم تستطع فرانسي أن تتحمل الإثارة وأخذ رأسها يدور تأثراً بما ترى وبما تفكر به من قصص ستحبكها حول هذه اللعب المتناثرة في واجهات المحلات.

بدأت أشجار عيد الميلاد تفد إلى الحي أسبوعاً قبل العيد. كانت أغصانها مشدودة بالحبال لتسهيل الشحن. استأجر البائعون مساحات صغيرة على أرصفة المحلات ومدوا حبالاً حول الموقع لكي تستند عليها الأشجار. وظلوا طوال النهار يصعدون وينزلون الشارع ذا الجهة الواحدة ينفخون على أصابعهم التي جمّدها البرد ويأملون أن يتوقف الزبائن عندهم لشراء بضاعتهم. البعض من هؤلاء الزبائن كان يطلب حجز شجرة له ليأخذها آخر النهار والبعض الآخر كان يتوقف ليساوم على السعر أو يتفقد الأشجار أو يفكر بشرائها أم لا. ولكن

معظم المارة كانوا يتوقفون ليلمسوا الأشجار أو يفركوا أيديهم بأوراقها الوبرية من أجل تنشق عبقها الطيب. كان الهواء بارداً ساكناً يعبق برائحة الصنوبر والحمضيات التي لا تظهر عادة في المحلات إلا في فترة عيد الميلاد وتسبغ على الشارع مشهداً رائعاً ولو لفترة قصيرة.

ولكن كانت هناك عادة قاسية في الحي، تتعلق بأشجار عيد الميلاد التي لا تباع حتى ليلة الميلاد. كانت الفكرة السائدة أنك إذا انتظرت حتى هذا الموعد فإنك لن تضطر أن تشتري شجرة بل ستأخذها مجاناً لأنه لن يكون أمام البائعين حل إلا التخلص منها. في الواقع كانت هذه الفكرة صحيحة.

ففي ليلة ميلاد مخلصنا الحبيب، يتجمع الأطفال حول الأماكن التي توجد فيها أشجار غير مباعة. ويأخذ البائع برمي تلك الأشجار بدءاً بالأكبر منها. عند ذلك يتسارع الأطفال لالتقاط هذه الأشجار فإذا نجح طفل بالتقاطها، يكون قد حصل على شجرة مجانية وإذا أخطأ أو وقع فقد أضاع فرصة. فقط الأطفال الأقوياء وبعض الفتيان كانوا يتلقفون الأشجار الكبيرة أما الآخرون فكانوا ينتظرون بدهاء أن ترمى إليهم شجرة أو يتلقفوها بينما يظل الأطفال الصغار كامنين ينتظرون الأشجار الصغيرة جداً بارتفاع قدم واحد وعندما يلتقطونها يصيحون بهجة وفرحاً.

ليلة ذلك الميلاد، كانت فرانسي قد بلغت العاشرة من العمر ونيلي التاسعة، لذلك سمحت لهما أمهما بالنزول إلى الشارع وخوض أول تجربة لهما في الحصول على شجرة مجاناً. كانت فرانسي قد اختارت شجرتها وأمضت طوال فترة العصر تصلي إلى جانبها كي لا يشتريها أحد. عند حلول منتصف الليل كانت الشجرة ولفرحة فرانسي ما تزال مكانها. كانت الشجرة الأكبر في الحي والأعلى سعراً. لذلك لم يستطع أحد شراءها، كان طولها يقارب العشرة أقدام وأغصانها مربوطة بحبل أبيض ولها قمة رائعة في الأعلى.

التقط البائع الشجرة في البداية وقبل أن تتمكن فرانسي من النطق تصدى لها فتى ضخم في سن الثامنة عشرة يدعى بنكي بيركينز وطلب من الرجل أن

يرمي له الشجرة، اشمأز الرجل من الطريقة التي تحداه بها بنكي والتفت حوله سائلاً:

– هل هناك أحد آخر يريد أن يجرب حظه.

تقدمت فرانسي إلى الأمام وقالت: نعم أنا يا سيدي.

أطلق الرجل قهقهة ساخرة فيما راح الأطفال يضحكون ضحكات مكبوتة ووقف بعض الكبار يقهقهون متوقعين حدوث أمر مسلٍ.

– إنك صغيرة جداً على هذا. قال البائع معترضاً.

– أنا وأخي معاً إننا لسنا ضعيفين معاً.

سحبت فرانسي أخاها نيلي إلى الأمام فيما نظر إليهما الرجل متأملاً: فتاة نحيفة في العاشرة بخدين ضئيلين ترك الجوع فيهما تجاويف واضحة، ولكن بذقن مستديرة صغيرة تنضح بالطفولة، وولد صغير له شعر أشقر وعينان زرقاوان.. نيلي نولان يقف ببراءة وثقة.

– اثنان .. ليس عدلاً. صاح بنكي.

– أغلق فمك القذر. صاح به الرجل الذي كان يملك كل النفوذ في مثل هذه الساعة وهذان الصغيران يملكان شجاعة كبيرة. ابتعدوا لأني سوف أمنح هذين الطفلين فرصة لأخذ هذه الشجرة.

ابتعد الآخرون وشكلوا صفاً متعرجاً. فيما وقف نيلي وفرانسي في نهاية الخط ووقف الرجل الضخم مع شجرته الضخمة في الجهة المقابلة. كان المشهد يشبه شكل قمع بشري تقف فرانسي وأخوها الصغير في آخر طرفه. لوى الرجل ذراعيه إلى الخلف استعداداً لقذف الشجرة الضخمة ولكنه لاحظ مدى ضآلة الجهدين اللذين يقفان استعداداً لتلقفها. لوهلة شعر الرجل وكأن روحاً مسيحية حقة قد حلت به.

- «يا يسوع المسيح»... شعر بروح تناديه بأسى... لماذا لا أعطيهما الشجرة وأتمنى لهما عيد ميلاد سعيد وليذهبا في شأنهما؟ ماذا تعني الشجرة بالنسبة لي. لا أستطيع أن أبيعها هذه السنة ولن تبقى للسنة القادمة.

راقبه الطفلان وهو غارق في تلك اللحظة من التفكير ولكنه عاد بعد قليل وتعقّل وأخذ يفكر بمنطق: «إذا أعطيتهما الشجرة فسأضطر أن أفعل ذلك مع الآخرين لأنهم سيتوقعون مني أن أفعل معهم مثلما فعلت مع الطفلين. وفي السنة القادمة لن يشتري أحد مني شجرة بل سينتظرون ليأخذوها على طبق من فضة عند حلول ليلة عيد الميلاد. أنا لا أملك مالاً كثيراً لكي أسخى بتلك الشجرة مقابل لا شيء. كلا أنا لست كذلك. ينبغي لي أن أفكر في نفسي وفي أطفالي». أخيراً وصل إلى نتيجة: إن على هذين الطفلين أن يعيشا في هذا العالم وأن يعتادا عليه. عليهما أن يعلما كيف يعاقبان وكيف يتلقيان العقاب. وأقسم بالمسيح أن هذا العالم اللعين لا يفهم إلا لغة الأخذ... خذ خذ خذ... طوال الوقت. صاح الرجل بينما هو يقذف الشجرة بكل قوته: إنه عالم ملعون من الرب... عالم نتن قذر... رأت فرانسي الشجرة تغادر يدي الرجل. مرت لحظة أو نصف لحظة لم يعد فيها للمكان أو الزمان معنى. وقف العالم بأكمله أمامها مثل شيء معتم وحشي يطير في الهواء. كانت الشجرة تتوجه نحوها وكأنها تمحو من رأسها أية ذكرى بقيت فيه منذ وُلدت على هذه الدنيا. لم يبق هناك سوى الظلمة الحادة وشيء يتضخم كلما اقترب منها. ترنحت فرانسي عندما اصطدمت بها وركع نيلي على قدميه ولكنها جذبته بقوة إلى الأعلى قبل أن يلمس الأرض. كان هناك حفيف هائل قبل أن تستقر الشجرة. كل شيء كان مظلماً أخضراً وشائكاً، تبع ذلك ألم حاد شعرت به فرانسي على جانب رأسها حيث استقر جذع الشجرة التي صدمتها. أحست بنيلي يرتجف.

جاء بعض الصبيان الكبار ليسحبوا الشجرة عنهما، ووجدوا فرانسي وأخاها واقفين باستقامة، يداً بيد. كان الدم يسيل من بعض الخدوش في وجه فرانسي. ظهر وجه نيلي بوضوح الآن طفولياً بريئاً. شعره الأشقر وعيناه

الزرقاوان ومنظر الدم الأحمر القاني جعلته يبدو طفلاً بكل معنى الكلمة ولكنه كان يبتسم وكذلك فرانسي. هل ربحا أكبر شجرة في الحي؟ نعم! صاح بعض الصبية «تحية تحية» فيما صفق الكبار لهما وأثنى عليهما صاحب الشجرة وهو يزعق.

– والآن بحق جهنم اذهبا من هنا بشجرتكما أيها الشقيان الصغيران.

كانت فرانسي معتادة على سماع الشتائم منذ تعلمت أول الكلام. لم تكن الشتائم والتجديفات تعني شيئاً بالنسبة لهؤلاء الناس. كانت فقط تمثل تعابير عاطفية لقوم يعجزون عن الإدلاء بمشاعرهم بمفردات صحيحة. كانت تلك الشتائم الصغيرة تشكل نوعاً من اللهجة المحلية. فالعبارة يمكن أن تعني أشياء كثيرة وفقاً للتعابير وللنبرة المستخدمة في الكلام. وهكذا عندما سمعت فرانسي كلمة الشقيين الصغيرين، لم تتمالك إلا أن تبتسم مرتعشة لهذا الرجل اللطيف، كانت تعلم تماماً أن هذه الكلمات تعني وداعاً ليبارك الله لكما بهذه الشجرة.

لم يكن جر الشجرة إلى البيت أمراً سهلاً. كان عليهما أن يسحباها شبراً شبراً. حاول أحد الصبية عرقلتهما بأن أخذ يصيح «إلى المركب هيا رحلة مجانية من سيصعد إلى الدفة ليسحبه هذان الصغيران». إلا أنه كما يبدو سئم من اللعبة وتركهما وشأنهما.

كان من الجيد أن عملية سحب الشجرة استغرقتهما وقتاً طويلاً لأنها، وبطريقة ما، أطالت من مدة نشوتهما بالانتصار الذي حققاه. فقد لمعت عينا فرانسي عندما سمعت سيدة مارة بالطريق تقول: لم أرَ بحياتي مثل هذه الشجرة الضخمة، وكذلك عندما ناداهما أحد الرجال: أيها الصغيران هل سرقتما بنكاً لتحصلا على مثل هذه الشجرة؟ حتى الشرطي الذي يقف على الناصية، أوقفهما قليلاً وتفقد الشجرة ثم عرض عليهما شراءها مقابل عشرة سنتات وربما خمسة عشر إذا نقلاها إلى منزله. ورغم معرفتها أنه كان يمزح إلا أن فرانسي شعرت بفخر كبير وهي تجيبه: لن أبيعها حتى ولو بدولار. أطرق رأسه وقال لها: إنك

حمقاء لأنك لم تستغلي هذه الفرصة ثم رفع السعر إلى ربع دولار ولكن فرانسي ظلت تبتسم له وتومئ برأسها رافضة.

كان المشهد يبدو وكأنه مقطوعة من إحدى مسرحيات عيد الميلاد، مكانها ناصية الشارع وزمانها ليلة عيد ميلاد شديدة البرودة وشخصياتها: شرطي لطيف وفرانسي التي بدت وكأنها تحفظ الحوار جيداً. كان الشرطي يدلي بتلميحاته بشكل صحيح ومباشر فيما كانت فرانسي تلتقط هذه التلميحات بسعادة فيما كانت تعليمات المسرح تقتضي بأن تبتسم بين كل حديث.

اضطر الطفلان أن يناديا أباهما لمساعدتهما على نقل الشجرة صعوداً عبر الأدراج الضيقة. نزل جوني مهرولاً، ولفرحة فرانسي كان نزوله مباشراً وبخط مستقيم وليس جانبياً مما يعني أنه ليس ثملاً.

كانت الدهشة التي أبداها الأب عند رؤيته للشجرة تحمل إطراءً وتشجيعاً كبيرين. فقد تظاهر في البداية أنه لا يصدق أن الشجرة لهما ولكم تمتعت فرانسي وهي تحاول إقناعه بغير ذلك رغم معرفتها بأن الأمر كله لا يتعدى حدود التظاهر. راح أبوها يشد من الأمام وفرانسي ونيلي يدفعان من الخلف إلى أن تمكنوا من حشر الشجرة عبر الدرجات الثلاث الضيقة. استولى على جوني فرح شديد وراح يغني دون أن يهتم بأن الوقت قد تعدى أواخر الليل. انطلق بأغنية ليلة مقدسة وتردد صوته واضحاً وعذباً بين الجدران الضيقة. أخذ نفساً عميقاً ثم انطلق بصوت أكثر عذوبة. تلا ذلك أصوات قرقعة أبواب الجيران وتجمع لبعض العائلات على الدرجات، فرحين ودهشين لهذا الصوت العذب وغير المتوقع الذي أضاف نكهة طيبة إلى تلك اللحظة من حياتهم.

رأت فرانسي الأختين تينمور وهما تقفان على مدخل دارهما وقد علا الشيب رأسيهما وظهر ثوبا النوم تحت دثارهما الفضفاض. أخذا يرددان الأغنية مع جوني فيما وقفت «فلوس غاديس» وأمها وأخوها هيني المريض بالسل على عتبة الدار. كان هيني يبكي وعندما رآه جوني تحول إلى الغناء بدون انتظام لظنه أن هيني يشعر بالحزن الشديد.

كانت فلوسي بكامل ثيابها وأناقتها بانتظار أن يصحبها أحدهم إلى حفلة تنكرية تبدأ مباشرة بعد منتصف الليل. وقفت هناك بزي الرقص وهي ترتدي جوارب حريرية سوداء شفافة وحذاء له كعب ملفوف برباط وكذلك رباط أحمر مشدود على ركبتها وتلوح بقناع أسود في يدها. ابتسمت لجوني ثم وضعت يدها على خصرها وانثنت بطريقة مغرية مقابل مقبض الباب. كانت تحاول أن تدفع هيني إلى الابتسام أكثر من أي شيء آخر ولكن جوني قال لها:

«فلوس، ليس لدينا ملاك نضعه على قمة شجرة الميلاد، ما رأيك أن تتطوعي لذلك». كانت فلوس على وشك أن ترد عليه برد مضحك وقذر كأن تقول إن الهواء سيطيِّر سرواها الداخلي إذا وقفت في ذلك الارتفاع ولكنها غيّرت رأيها وتراجعت على هذا الكلام، ربما كان هناك شيء في تلك الشجرة الفخورة الضخمة التي تحولت بعد الجر إلى زاوية متواضعة، أو لعلها ابتسامة الطفلين أو النية الطيبة النادرة لدى الجيران أم تلك الأضواء الخافتة في الردهات. كل هذا ربما جعلها تشعر بالخجل من ردِّها الذي لم تقله لذلك وجدت نفسها تقول بكل هدوء:

- أوه أنت تجيد المزاح يا جوني نولان.

وقفت كاتي وحيدة في أعلى الدرجة وقد شبكت يديها أمامها، تصغي إلى الغناء وتراقب التقدم البطيء الذي يتم أسفل الدرجات. كانت منغمسة في تفكير عميق.

«إنهم يظنون أن هذا أمر جيد»، راحت تفكر ... إنه أمر جيد أن يحصلا على شجرة مقابل لا شيء وأن يريا أباهما يغني وجيرانهما فرحين. لعلهما يظنان أنهما محظوظان جداً لأنهما حيان ولأن عيد الميلاد عاد مرة أخرى. إنهما لا يريان أننا نعيش في شارع قذر وفي بيت قذر وسط جيران ليسوا بالجيدين. وجوني والطفلان لا يستطيعون أن يروا كم هو مثير للشفقة أن يصنع الجيران سعادة من تلك القذارة والتفاهة. يجب أن يخرج أطفالي من هذا الجو. يجب أن يتخطيا المستوى الذي وصل إليه جوني أو وصلت إليه أنا أو وصل إليه هؤلاء الذين

حولنا. ولكن كيف سيتم ذلك؟ إن قراءة صفحة من كتاب كل يوم وتوفير عدة سنتات في حصالة الصفيح ليس كافياً.. النقود! هل ستجعل الأمر أفضل بالنسبة لهم؟ نعم ربما تجعله أسهل ولكنها ليست كافية. إن مكغاريتي يملك حانة عند ناصية الشارع ويملك كذلك نقوداً كثيرة وزوجته تضع على أذنيها أقراطاً ماسية ولكن أولادها ليسوا بذكاء أولادي. إنهم شرهون وقذرون تجاه الآخرين لأنهم يسخرون منهم بطريقة مهينة ويتبجحون بما يملكونه. لقد رأيت ابنة مكغاريتي تلتهم كيساً من الحلوى على قارعة الطريق فيما وقف حولها عدد من الأطفال الجياع يراقبونها بأسى. كانت قلوبهم تبكي وهم ينظرون إليها. وعندما شبعت ألقت الكيس في المجاري بدلاً من أن تعطيه لهم... كلا المسألة لا تتعلق بالنقود فقط. إن ابنة مكغاريتي ترتدي طوقاً جديداً ثمنه 50 سنتاً كل يوم. إن مبلغاً كهذا يكفي لإطعامنا نحن الأربعة يوماً كاملاً ولكن... شعرها خفيف ولونها أحمر شاحب. أما نيلي فرغم قبعته القديمة والمثقوبة إلا أنه يملك شعراً ذهبياً كثيفاً يمكن تجديله. وكذلك الأمر بالنسبة لفرانسي ابنتي فهي لا تلبس طوقاً ولكن شعرها طويل براق. هل تستطيع النقود أن تشتري أشياء مثل هذه؟ كلا! إذن لا بد من وجود شيء أكبر من النقود. الآنسة جاكسون تدرِّس طوعاً في بيت الفقراء وهي تفعل ذلك من باب الصدقة وتعيش في غرفة صغيرة على سطح إحدى البنايات كما أنها لا تملك إلا ثوباً واحداً تبقيه نظيفاً ومكوياً على الدوام. إنها تنظر في عينيك عندما تكلمك وعندما تستمع إليها تشعر إن كنت مريضاً وتعافيت. هي تفهم الدنيا تماماً ويمكنها أن تعيش في وسط أقذر الأحياء وتبقى نظيفة أنيقة كأنها ممثلة في مسرحية. تنظر إليها ولكن تخشى أن تلمسها لرقّتها وأدبها. هناك فرق كبير بينها وبين السيدة مكغاريتي التي تملك المال الكثير ولكنها سمينة وتتصرف بطريقة سيئة مع سائقي الشاحنات الذين يحضرون الجعة لزوجها. ما هو هذا الفرق بينها وبين الآنسة جاكسون التي لا تملك مالاً؟

جاء الجواب إلى كاتي بسيطاً جعلها تشعر بومضة دهشة تشبه جرعة ألم مرت عبر رأسها. التعليم! هذا هو! الفرق هو في التعليم. هو الذي سيسحبهم

من هذا الوسط الفقير البائس. والبرهان؟ أن الآنسة جاكسون متعلمة مثقفة فيما السيدة مكغاريتي ليست كذلك. نعم هذا ما ظلت أمها ماري روميلي تقول لها طوال هذه السنوات دون أن تصل بوضوح إلى الكلمة السحرية: التعليم.

ظلت هذه الأفكار تراود كاتي وهي تراقب الأطفال يكافحون عبر درجات المنزل ليرفعوا الشجرة إلى الأعلى. كانت أصواتهم الطفولية هي التي دفعتها للتفكير بمسألة التعليم.

عادت كاتي للتفكير: إن فرانسي ذكية يجب أن تدخل المدرسة الثانوية وربما أبعد من ذلك. إنها تحب الدراسة وستصبح إنسانة مهمة يوماً ما ولكنها سوف تبتعد عني عندما تصبح متعلمة... إنها تبتعد عني بينما هي تكبر الآن. هي لا تحبني مثلما يحبني نيلي. أشعر أنها تبتعد عني وأنها لا تفهمني. كل ما تفهمه أيضاً هو أنني لا أفهمها. ربما عندما تصبح متعلمة سوف تخجل من كوني هكذا ومن طريقة حديثي ولكنها لن تُظهر هذا الخجل لأن شخصيتها أكبر من ذلك. على العكس هي ستحاول أن تغيِّرني وتحاول أن تدفعني لأحيا بطريقة أفضل، لكنني سوف أصدها لأنني أعلم أن مستواها أصبح أعلى مني. سوف تتعلم أشياء كثيرة فيما هي تكبر. سوف تعرف ما هي الأمور التي تجعلها سعيدة. ستكتشف أنني لا أحبها مثلما أحب نيلي وأنا لا أستطيع أن أغير هذا الأمر. إنها لن تفهم ذلك رغم أني أعتقد أحياناً أنها تعرف ذلك منذ الآن. لقد بدأت تبتعد عني منذ الآن وستكافح من أجل ذلك فيما بعد. لقد كان تغييرها للمدرسة أول خطوة تتخذها في الابتعاد عني ولكن نيلي لن يتركني أبداً. لهذا السبب أحبه أكثر. سوف يتعلق بي ويفهمني. أنا أريده أن يصبح طبيباً. يجب أن يصبح طبيباً، وأريده أن يعزف على الكمان أيضاً. إنه يملك موهبة موسيقية ورثها عن أبيه. لقد برز في عزف البيانو أكثر من فرانسي ومني. إذا لم يستطع أن يغني، لن يتجمع حوله هؤلاء الرجال الذين يقدمون له المشروب. على أية حال ماذا ينفعه الغناء إذا لم يجعل لحاله أو حالنا أفضل. الأمر مختلف مع الصبي. سوف يتعلم وسأفكر بطرق كثيرة لأعلمه. إن جوني لن يبقى معنا طويلاً، يا إلهي العزيز.. لقد أحببته كثيراً في

السابق وما زلت أحياناً أحبه ولكنه عديم القيمة. سامحني يا إلهي إني اكتشفت ذلك.

وهكذا اكتشفت كاتي كل شيء في لحظات... خلال فترة صعودهم على الدرجات، كانوا ينظرون إليها وهم يتسلقون الدرج ويدفعون الشجرة الكبيرة عبره، ينظرون إلى وجهها الناعم الجميل دون أن يدركوا أبداً مدى الألم الذي يدور في وجدانها.

نصبوا الشجرة في الغرفة الأمامية بعد أن فرشوا أسفلها ملاءة لتقي السجادة ذات الورود الزهرية من الأوراق الإبرية المتساقطة. ثم وضعوا الشجرة داخل دلو كبير مصنوع من الصفيح وصُفّت داخله أحجار الطوب لإبقاء الشجرة في وضع عامودي. وعندما تم تفكيك الحبال عنها، امتدت أغصانها لتغطي مساحة الغرفة بأكملها. بعض الأغصان تدلت فوق البيانو وغطت المقاعد، لم يكن لدى العائلة أية نقود لشراء زينة أو أضواء للشجرة ولكن وجودها واقفة في المنزل كان يكفي. كانت الغرفة باردة فهذه السنة شهدت أوضاعاً اقتصادية تعيسة بالنسبة للعائلة، لم تمكنها من شراء ما يكفي من الفحم لإشعال الموقد في الغرفة الأمامية. ومع ذلك كانت الغرفة الباردة نظيفة تعبق برائحة طيبة.

كل يوم من ذلك الأسبوع، كانت فرانسي تدخل إلى البيت وترتدي كنزتها وقبعتها وتجلس تحت الشجرة مستمتعة برائحتها ولونها الأخضر الغامق. ولم تنسَ أن تخترع قصة حول الشجرة الكبيرة الغامضة المسجونة في دلو غسيل معدني داخل الغرفة الأمامية لإحدى الشقق.

رغم الفقر الذي لم يفارقهم في ذلك العام، إلا أن عيد الميلاد جاء لطيفاً كريماً لم يخلُ من الهدايا للأطفال. أهدتهم أمهم زوج سراويل تحتية طويلة مصنوعة من الصوف وأقراطاً وقميصين من الصوف أيضاً طويلي الأكمام. كما أهدتها الخالة إيفي لعبة دومينو وقد تولى أبوهما تعليمهما طريقة اللعب إلا أن نيلي لم يستسغ اللعبة فظل الأب يلعب مع فرانسي ويتظاهر بالمرارة كلما خسر.

الجدة ماري روميلي أحضرت لكل منهما وشاحاً يوضع على الكتف إلا أنهما لم يكونا وشاحين عاديين، فقد صنعتهما هي بيديها بعد أن قصّت قطعتين من الصوف الأحمر البراق، وطرزت على إحداهما صليباً مزخرفاً من الغزل القطني الأزرق اللامع وعلى الآخر قلباً ذهبياً مع أشواك بنية. كان هناك خنجر أسود يخترق القلب ونقطتا دم تقطران من الخنجر. أما الصليب والقلب فكانا صغيري الحجم، وقد حاكتهما بقطب صغيرة جداً لا تكاد ترى. قبل أن تقدمهما إلى الطفلين ربطتهما بخيط مشد ولم تنسَ أن تمر على القسيس ليباركهما. كذلك فعلت عندما مررت الوشاح على رقبة فرانسي إذ أخذت تصلي وتبارك ثم قالت أدعو إلى الله أن ترعاك ملائكته دائماً.

أما الخالة سيسي فقد أهدت فرانسي رزمة صغيرة. عندما فتحتها فرانسي وجدت بداخلها علبة كبريت هشة مصنوعة من ورق مجعد ومرشوشة برذاذ نهدي اللون فتحت فرانسي علبة الكبريت فوجدت فيها عشرة أقراص ملفوفة بنسيج وردي. فيما بعد تبين لها أن هذه الأقراص تحتوي على عشرة سنتات بلون الذهب. شرحت لها سيسي أنها رشّت الأقراص برذاذ طلاء ذهبي اللون وبعض قطرات من زيت الموز وقامت بطلاء كل قطعة منها. أحبت فرانسي هدية خالتها سيسي أكثر من أية هدية أخرى. ولعلها فتحت علبة الكبريت عشرات المرات خلال ساعة من تلقيها الهدية إذ كانت تجد متعة كبيرة في حمل العلبة وتفحص داخلها الخشبي الناصع الرقيق. كانت تلك السنتات الملفوفة بنسيج يشبه الحلم، أمراً قريباً من المعجزة بالنسبة لها. وقد اتفق الجميع على أن هذه السنتات أجمل من أن تُنفق. ولكن فرانسي أضاعت اثنتين منها خلال النهار. لذلك اقترحت عليها أمها أن تضع الباقي في الحصالة المعدنية ووعدتها بأن تعيدها لها عندما تفتح الحصالة. كانت فرانسي متأكدة من أن كلام أمها صحيح، ومع ذلك كان من المؤلم أن تودع هذه السنتات في ظلام الحصالة الدامس.

بقي الآن دور الأب. كان جوني يحتفظ لفرانسي بهدية خاصة هي عبارة عن بطاقة بريدية رسمت عليها صورة كنيسة. إلا أن هذه الكنيسة لم تكن عادية.

فسقفها مصنوع من مسحوق غراء السمك مما جعله أكثر إشراقاً ولمعاناً من الثلج الحقيقي. كذلك كانت إطارات نوافذها مصنوعة من مربعات صغيرة من الورق البرتقالي اللامع. أما السحر الذي يكتنف هذه البطاقة فهو أنها حين ترفعها فرانسي إلى الأعلى يتسرب الضوء عبر إطارات النوافذ ويلقي ظلالاً ذهبية على الثلج البراق. في حقيقة الأمر كانت بطاقة رائعة الجمال. ولما لم يكن هناك شيء مكتوب على البطاقة. فقد اقترحت الأم أن تحتفظ بها فرانسي للسنة القادمة علها تجد أحداً يستحق أن تبعثها له.

- «آه كلا» قالت فرانسي وهي تضم البطاقة بشدة إلى صدرها.

ضحكت الأم وقالت لها: عليك أن تتعلمي كيف تتقبلين النكتة يا فرانسي وإلا فستكون الحياة صعبة عليك.

- إن عيد الميلاد ليس يوماً لإعطاء الدروس. قال الأب.

- آه ولكنه يوم مناسب لكي تسكر أليس كذلك؟ ردت الأم بغضب.

- لم أتناول سوى كأسين يا كاتي.. رد جوني بعطف، إني أستحق معاملة خاصة في عيد الميلاد.

ذهبت فرانسي إلى غرفة النوم وأغلقت الباب. لم تكن تحتمل قيام أمها بتوبيخ أبيها.

قبيل العشاء قامت فرانسي بتوزيع الهدايا التي جلبتها لأهلها. كانت قد أحضرت لأمها مشبك دبابيس للقبعات. وقد صنعته من أنبوب ابتاعته من مخزن أدوية كنايب وغطته بشرائط الساتان الأزرق مع كشكش على الجوانب ثم خيّطت شريط أطفال على سقفه. كان الغرض منه أن يُعلَّق على جانب الخزانة ويمسك بدبابيس القبعات.

أهدت فرانسي لأبيها سلسلة للساعة صنعتها من ملف للخيوط، أدخلت فيه أربعة مسامير عند الرأس ولفّت رباطي أحذية حول المسامير تاركة جيباً

مزخرفة للساعة تخرج من قاع الملف. لم يكن جوني يملك ساعة، ولكنه ربط وصلة حنفية معدنية مصنوعة من الحديد وعلّق السلسلة بها ثم وضعها في جيب صدريته حتى تظهر وكأنها ساعة.

ولم تنس فرانسي أن تحضر لنيلي هدية رائعة هي عبارة عن مسدس يطلق الكلل ثمنه خمسة سنتات، ولكنه بدا وكأنه حجر كريم ضخم. كان لدى نيلي علبة مليئة بالكلل بألوان زرقاء وبنية ولكنها كانت مصنوعة من الطين وتباع كل عشرين منها بسنت واحد. إلا أن نيلي لم يكن يملك مسدس إطلاق جيداً، مما حرمه من الدخول في مباريات وألعاب جدية. راقبته فرانسي وهو يلوي سبابته حول الكلة ويثبتها بإبهامه من الخلف. كان الأمر رائعاً وطبيعياً وقد شعرت فرانسي بسعادة أكبر لأنها اختارت هذه الهدية بدلاً من بندقية إطلاق صغيرة ثمنها نيكل كانت تفكر بشرائها له.

ألقى نيلي الكلة في جيبه وأعلن للجميع أن لديه هدايا لهم أيضاً. هرع إلى غرفة نومه وزحف تحت الفراش ليخرج كيساً دبقاً رماه باتجاه أمه وهو يقول: وزّعي الهدايا على ذوقك ثم وقف صامتاً عند زاوية الغرفة. فتحت كاتي الكيس، كان يحتوي على حلوى لكل منهم. قامت وقبلته معلنة أنها أجمل هدية تلقتها. حاولت فرانسي بكل جهد أن لا تشعر بالغيرة لأن أمها أطرت على هدايا نيلي أكثر من هداياها.

في ذلك الأسبوع كذبت فرانسي مرة أخرى فقد أحضرت الخالة إيفي تذكرتين لحضور حفل تنظمه جمعية بروتستانتية لمنفعة الفقراء من جميع الأديان. كانت قاعة الحفل تضم شجرة عيد ميلاد مزينة على المسرح إضافة إلى مسرحية ميلادية وأغانٍ وهدايا لكل طفل. ولكن كاتي لم تتقبل وجود أطفال كاثوليك مثل طفليها في حفل بروتستانتي. إلا أن إيفي طلبت منها أن تكون أكثر تسامحاً وأخيراً رضخت كاتي وسمحت للطفلين بالذهاب إلى الحفل.

أقيم الحفل في قاعة ضخمة حيث جلس الأولاد في جهة والفتيات في جهة أخرى. كان احتفالاً ممتعاً رغم الملل الذي أصاب الأطفال من جراء المسرحية

الدينية التي شابها الكثير من الرتابة. بعد المسرحية قامت السيدات بتوزيع الهدايا على الأطفال. حصلت الفتيات على رقع شطرنج والأولاد على ألعاب حظ. وبعد فترة قصيرة من الغناء دخلت إحدى السيدات إلى المسرح وأعلنت عن مفاجأة خاصة.

كانت المفاجأة فتاة صغيرة لطيفة ترتدي ثوباً رائعاً وتحمل لعبة جميلة طولها قدم ولها شعر أصفر حقيقي وعينان زرقاوان تفتحان وتغلقان برموش حقيقية. أدخلت السيدة الفتاة إلى المسرح ثم بدأت بإلقاء كلمة قالت فيها:

«هذه الفتاة تدعى ماري». ابتسمت ماري وانحنت للجمهور أمامها. ابتسمت الفتيات الصغيرات لها من بين الموجودين وصفر بعض الأولاد الكبار بحماس فيما تابعت السيدة كلمتها قائلة: لقد ابتاعت أم ماري هذه اللعبة وصممت لها ثياباً مشابهة تماماً للثياب التي ترتديها ماري.

خطت ماري خطوة إلى الأمام ورفعت اللعبة عالياً في الهواء ثم سلمتها إلى السيدة بينما هي تنحني وتمد فستانها أماماً احتراماً للجمهور. لاحظت فرانسي أن ثياب اللعبة تشبه تماماً ثياب الفتاة، كان ثوبها أزرق وطوق شعرها نهدياً وحذاؤها جلدياً مفتوحاً وجواربها بيضاء حريرية. كان كل شيء فيها يشبه ثياب ماري الجميلة.

والآن قالت السيدة هذه اللعبة اسمها ماري وقد سميت كذلك على اسم الفتاة الصغيرة اللطيفة التي ستعطيها لأحد ما. مرة أخرى ابتسمت ماري بأدب فيما تابعت السيدة. تريد ماري أن تعطي اللعبة لفتاة فقيرة من بين الحضور اسمها ماري. سرت همهمة سريعة بين الحضور مثل موجة هواء فجائية. الكل كان يسأل عن فتاة قصيرة اسمها ماري.

علت الهمهمة بين الموجودين فقد كان هناك على الأقل مئة فتاة يدعين ماري ولكن صفة الفقر لم تناسب أياً منهن. لن تقف أي ماري مهما كانت رغبتها شديدة في اللعبة لتعلن نفسها رمزاً للفتيات الفقيرات بين الحضور. همست

الفتيات لبعضهن البعض بأنهن لسن فقيرات وبأن لديهن لعباً أفضل مـن اللعبـة التي بيد الفتاة وثياباً أجمل من ثيابها ولكـنهن لم يـشعرن بميـل إلى إلبـاس لعـبهن مثلها. جلست فرانسي بصمت ولكن قلبها كان يغلي شغفاً بتلك اللعبة.

ماذا؟ قالت السيدة «ألا يوجد أية ماري هنا؟» انتظرت قليلاً قبل أن تعلـق مرة أخرى ولكن دون جواب. عندها قالت بأسف: إنه لأمر مؤسف أنه لا يوجد أية ماري هنـا. إن مـاري سـتعود بلعبتهـا إلى منزلهـا. ابتـسمت الفتـاة الـصغيرة وانحنت للموجودين ثم استدارت لتترك المسرح مع لعبتها.

لم تستطع فرانسي أن تتحمل أكثر من ذلك. كان الأمر بالنسبة لها مشابهاً لما حدث سابقاً مع المعلمة التي أرادت أن ترمـي كعكـة القـرع في سـلة المهمـلات. وقفت فجأة ورفعت يدها عالياً في الهواء. رأتها السيدة وطلبت من الفتاة الصغيرة البقاء على المسرح ثم صاحت.

آه لدينا ماري هنا... إنها خجولة ولكنهـا مـاري.. اصـعدي يـا مـاري إلى المسرح. بحياء شديد سارت فرانسي عبر الممر الطويل بين صفوف الحضور حتى وصلت إلى المسرح. هناك تعثرت بالدرج مما أطلق قهقهات الأولاد والفتيات.

- ما اسمك؟ سألتها السيدة.

- اسمي ماري فرانسيس نولان، ردّت فرانسي هامسةً.

- أرجو أن ترفعي صوتك وتنظري إلى الجمهور. قالت المرأة.

كانت فرانسي تشعر بالخزي والأسى ولكنها مع ذلك وقفت أمام الحضور وقالت بصوت عال: اسمي ماري فرانسيس نولان. نظرت إلى الوجـوه أمامهـا. وقد بدت وكأنها بالونات منفوخة. كانت فرانسي تظـن أنهـا إذا اسـتمرت تنظـر إليها فستمتد هذه الوجوه كالبالونات إلى السقف.

تقدمت الفتاة الـصغيرة الجميلـة ووضـعت اللعبـة بـين ذراعـي فرانـسي. حضنت فرانسي اللعبة بذراعيها وكأنها كانت بانتظارها منذ أمد طويل وأنها نمت

في حجمها خصيصاً لاحتضان هذه اللعبة. مدت الفتاة الصغيرة يدها لمصافحة فرانسي، ورغم الإحراج الذي كانت تشعر به فرانسي إلا أنها لاحظت تلك اليد الناعمة البيضاء ذات العروق النحيلة الزرقاء الشاحبة والأظافر البيضاوية التي كانت تلمع مثل صدف بحري نهدي اللون.

وفيما عادت فرانسي إلى مقعدها، عادت السيدة إلى الكلام قائلة: ها أنتم قد رأيتم مثالاً على روح عيد الميلاد الحقيقية. إن ماري الصغيرة هي فتاة غنية جداً وقد تلقت ألعاباً جميلة في عيد الميلاد ولكنها لم تكن أنانية إذ رغبت أن تعطي الفرح لفتاة فقيرة مثل ماري لذلك أعطتها هذه اللعبة التي تدعى ماري أيضاً.

غرغرت عينا فرانسي بدموع حارة. لماذا عليهم أن يقولوا إنني فقيرة. لماذا لم يعطوني اللعبة وينسوا موضوع أنني فقيرة وأنها غنية؟

لم يكن هذا ما يخجل فرانسي فقط. فبينما كانت عائدة في الممر الطويل، كانت بعض الفتيات تميل إلى جهتها وتهمس: متسولة متسولة.. كان هذه الكلمات تلاحقها عبر الممر حتى مقعدها. هؤلاء الفتيات كن يشعرن أنهن أغنى من فرانسي. كن فقيرات مثلها ولكنهن كن يملكن شيئاً لا تملكه هي وهو الكبرياء. وكانت فرانسي تعلم ذلك، لذلك لم تندم على الكذبة التي قالتها ولن تندم لأنها حصلت على اللعبة بادعاء مزيف. كانت تدفع ثمن كذبتها وثمن اللعبة بالتنازل عن كبريائها.

تذكرت ما قالته لها المعلمة بأن تكتب كذبتها بدلاً من أن تقولها. ربما كان عليها أن لا تكذب من أجل الحصول على اللعبة وأن تكتفي بكتابة قصة عنها بدلاً من ذلك، ولكن كلا ثم كلا. إن الحصول على اللعبة أفضل من أية قصة تكتب عنها. عندما وقف الحضور لينشدوا أنشودة الختام أنزلت فرانسي وجهها إلى الأسفل بالقرب من وجه اللعبة. اشتمت رائحة خفيفة وباردة لطلاء صيني. كانت تلك الرائحة الرائعة التي لا تُنسى تصدر عن شعر اللعبة المطلي باللون الأصفر ممزوجةً بذلك الشعور السماوي الكامن في نسيج ثيابها. لامست الرموش

الحقيقية للعبة خد فرانسي التي ارتعشت من الفرحة. كان الطلاب ينشدون مقطع:

فوق أرض الأحرار

ومنازل الشجعان

أمسكت فرانسي بإحدى يدي اللعبة بشدة. أحست بخفقان في نبض إبهامها وخافت أن تكون قد نزعت يد اللعبة. كانت تظن فعلاً أن اللعبة حقيقية.

أخبرت أمها أن اللعبة كانت جائزة لها ولم تجرؤ على قول الحقيقة لأن أمها كانت تكره أي شيء يأتي من باب الصدقة. ولو علمت بالأمر لقذفت باللعبة إلى الخارج. التزم نيلي الصمت ولم يشِ بها. في عصر ذلك اليوم كتبت فرانسي قصة عن فتاة صغيرة رغبت بشدة أن تمتلك لعبة لدرجة أنها كانت تنوي أن تتخلى عن روحها الخالدة إلى المطهر وبشكل أبدي مقابل الحصول على اللعبة. كانت قصة قوية لدرجة أن فرانسي حين قرأتها مرة أخرى فكرت قائلة لنفسها: الأمر لا بأس به بالنسبة للفتاة في القصة ولكنه لم يغير شيئاً في شعوري نحو الأفضل. فكرت في الاعتراف الذي يتوجب عليها أن تقر به يوم السبت أمام القسيس. وقررت أنه مهما كان العقاب الذي سيفرضه عليها القسيس فإنها ستضاعفه ثلاث مرات طوعاً.. ومع ذلك لم يتحسن شعورها.

ثم تذكرت شيئاً قد تستطيع أن تحول الكذبة إلى حقيقة. كانت تعلم أن الأطفال الكاثوليك حين يتم تثبيت عمادهم يأخذون اسم أحد القديسين كاسم وسط لهم. يا له من حل بسيط، سوف تقول لأمها أن تسميها في تثبيت العماد ماري. في تلك الليلة وبعد أن أنهت قراءة صفحة من الإنجيل وصفحة من كتاب شيكسبير التفتت فرانسي إلى أمها طالبة النصح.

– يا أمي عندما يحين موعد تثبيت العماد هل يمكن أن يكون اسمي الوسط ماري.

- كلا.

هبط قلب فرانسي من الخوف وسألت أمها: لماذا؟

- لأنك حين تعمدت أطلقنا عليك اسم فرانسي تيمناً بابنة آندي.

- أنا أعلم ذلك.

- ولكن اسمك كان في الحقيقة ماري وذلك تيمناً باسم أمي. إن اسمك الحقيقي هو ماري فرانسيس نولان.

في تلك الليلة أخذت فرانسي لعبتها معها إلى السرير ونامت هادئة كي لا تزعجها وظلت تستيقظ بين الحين والآخر طوال الليل وتهمس في أذن اللعبة ماري... ماري ثم تلمس حذاءها الدقيق بإصبعها بخفة. ارتعشت عندما شعرت برقة جلدها النحيل الناعم.

كانت هذه أول وآخر لعبة تملكها فرانسي.

28

بالنسبة لكاتي، كان المستقبل شيئاً قريباً. كانت تـردد دائـماً أن عيـد المـيلاد سيكون هنا قبل أن تعرفوا به. أو تقول عند بداية العطلـة الـصيفية: سـوف تبـدأ المدرسة قبل أن تعرفوا بها. في فصل الربيـع عنـدما تخلـصت فرانـسي مـن ثوبهـا المدرسي الطويل ورمته بعيداً، أخذته أمها جانباً وقالت لها: سوف تحتاجينـه مـرة أخرى قريباً جداً. إن الشتاء سيكون هنا قبل أن تعرفي بـه. مـا الـذي كانـت الأم تتحدث عنه؟ لقد بدأ الربيع لتوه ولن يعود الشتاء مرة أخرى.

لا يملك الطفل الصغير فكـرة كاملـة عـن المستقبل. بالنـسبة لـه، يعتـبر الأسبوع القادم هو أبعد ما يصل إليه المستقبل والسنة التي تفصل بين عيد مـيلاد وآخر هي الأبدية، هكذا كان الوقت مع فرانسي إلى أن بلغت الحادية عـشرة مـن العمر.

ما بين عيد ميلادها الحادي عشر والثاني عشر، تغيرت الأشياء مع فرانـسي وبدأ المستقبل يصل سريعاً. قصرت الأيام وبدت الأسابيع وكأن أيامها أصبحت أقل عدداً. توفي هيني غاديس وكانت لوفاته علاقة بالوقت. إذ لطالما سـمعت أن هيني سيموت لدرجة أنها آمنت أخيراً بأنه سيموت فعلاً ولكن ما سـمعته يعـود

لوقت طويل جداً. والآن جاء هذا الوقت الطويل إلى نهايته وأصبح هـذا الـشيء الذي يسمى المستقبل، حاضراً وسيصبح ماضياً بعد قليل. تساءلت فرانسي هـل كان يجب أن يموت أحدهم لكي يفهم الطفل بوضوح ما هـو المستقبل؟ ولكـن لا! لقد توفي جدها روميلي عندما كانت في سن التاسعة أي أسبوع قبل الاحتفـال بتناول القربان المقدس الأول لها، وحسبما تتذكر فإن عيد الميلاد بدا بعيداً جـداً في ذلك الوقت.

الآن أخذت الأشياء تتغير بسرعة لدرجة جعلت الأمور تختلط عليها. كبر نيلي فجأة وهو الذي كان يصغرها بسنة وأصبح أطول منها. كما انتقلـت مـودي دونافان من الحي وعندما عادت بعد ثلاثة أشهر وجدت فرانسي أنهـا أصـبحت شخصاً مختلفاً. لقد تطورت قليلاً لتصبح امرأة أكبر خلال الأشهر الثلاثة.

كانت فرانسي تؤمن بأن أمها تظل دائماً على حق ولكنها اكتشفت أنها تخطئ من حين لآخر. كما اكتشفت أن بعض الأمور التي كانت تحبها كثيراً في طبع أبيها، يعتبرها الآخرون شيئاً مضحكاً. لم يعد الميزان في دكان الشاي يلمع كالسابق، كما أن الصناديق التي يحفظ فيها الشاي أصبحت مهترئة وممزقة.

توقفت عن مراقبة السيد توموني وهو عائد إلى منزله في ليـالي الـسبت مـن رحلاته الليلية طلباً للمتعة في نيويورك. فجأة أصبحت تعتقد أن من السخافة أن يعيش هكذا ويذهب إلى نيويورك ثم يعود ملهوفاً إلى منزلـه. كـان يملـك المـال، لماذا إذن لا يذهب ليعيش في نيويورك طالما أنه يحبها لهذه الدرجة.

كل شيء أخذ يتغير. دبّ الرعب في قلب فرانسي وأخذت تشعر أن عالمهـا قد بدأ ينسلّ بعيداً عنها، ولكن ما الذي سيحل محله؟ ما الذي اختلـف عـلى أيـة حال؟ ما زالت تقرأ صفحة من الكتاب المقدس وصـفحة مـن كتـاب شيكـسبير كالعادة كل ليلة، وما زالت تمارس العزف عـلى البيـانو سـاعة كـل يـوم وتـضع السنتات في حصالة الصفيح. ما زال دكـان الخـردة موجـوداً وكـذلك الـدكاكين الأخرى ما تزال على حالها. لم يتغير شيء ولكن هي التي كانت تتغير.

أخبرت أباها بالأمر فطلب منها أن تخرج لسانها ثم جّس معصمها وهز برأسه قائلاً بحزن:

- إن لديك وضعاً سيئاً.

- ماذا؟

- إنك تكبرين.

هذا هو إذن ما أفسد الأشياء.. إنها تنمو وتكبر. لقد أفسد هذا الأمر تلك اللعبة الرائعة التي كانت تستمتع بها عندما لم يكن هناك شيء يأكلونه في المنزل. عندما كانت النقود تشح والطعام ينقص وكانت كاتي والأطفال يتظاهرون بأنهم مكتشفون علقوا في القطب الشمالي داخل كهف والعاصفة تضرب في الخارج دون أن يتبقى لديهم إلا القليل من الطعام. كان عليهم أن يتدبروا الأمر ريثما تأتي النجدة. كانت كاتي تقسّم بينهم ما تبقى من الطعام في الخزانة وتسميه حصصاً وعندما يبقى الأطفال جياعاً بعد الوجبة تصيح فيهم: «بعض الشجاعة يا رجالي سوف تصل النجدة قريباً». وعندما يأتي قريباً وتذهب أمها لتبتاع بعض الطعام بما حصلت عليه من نقود أو تشتري كعكة للاحتفال بالمناسبة وتغرس في الكعكة علماً وتقول: أيها الرجال لقد انتصرنا ووصلنا إلى القطب الشمالي.

في إحدى الأيام التي شهدت مثل هذه القصص سألت فرانسي أمها:

- عندما يجوع المكتشفون ويعانون هكذا، لا بد أن يكون هناك سبب، أليس كذلك؟

لا بد أن هناك شيئاً عظيماً ينتج عن ذلك... إنهم يكتشفون القطب الشمالي ولكن ما هو الشيء العظيم الذي نحصل نحن عليه بعد جوع مثل هذا؟

بدت كاتي متعبة جداً بشكل فجائي أمام السؤال ولكنها ردّت بكلمات لم تفهمها فرانسي في ذلك الوقت.. قالت: إنك ستكتشفين الصيد داخل هذه المعاناة...إذن لقد أفسدت عملية النمو المسرح بالنسبة لفرانسي - حسناً ليس

المسرح بالضبط ولكن المسرحيات. اكتشفت أنها لم تعد راضية عن الطريقة التي تحدث فيه الأمور عبر قطار العمر.

كانت فرانسي تحب المسرح كثيراً ولطالما أرادت أن تصبح عازفة أرغن ثم معلمة مدرسة. وبعد تناولها القربان المقدس الأول في الكنيسة أرادت أن تصبح راهبة وفي سن الحادية عشرة رغبت بشدة أن تصبح ممثلة.

حتى ولو لم يكن أولاد حي وليامزبيرغ يعرفون شيئاً فإنهم يعرفون مسارحهم تماماً. ففي تلك الأيام كان هناك عدد لا بأس به من الفِرَق المسرحية التي تجول في الحي. كانت هناك فرقة بلانيز وكورس بايتون وفيليبس ليسيوم. وهؤلاء الأخيرون كانوا يقفون عند ناصية الشارع. وقد ظل سكان الحي يطلقون عليهم اسم لايس ثم تغير إلى لاوس. كانت فرانسي تذهب إلى هناك كل عصر يوم سبت (ما عدا في الصيف لأنهم كانوا يغلقون المسرح) كلما وجدت معها ما يكفي من النقود. وكانت تجلس في بهو الانتظار وتقف ساعة في الطابور من أجل أن تحصل على مقعد في الصف الأمامي قبل أن يبدأ العرض.

كانت فرانسي تعشق هارولد كلارنس، قائد الفرقة. ولطالما انتظرت عند باب المسرح بعد عرض السبت الصباحي لتتبعه نحو منزله المتداعي المبني من الحجر البني حيث يعيش في غرفة مفروشة متواضعة. حتى في الشارع كان هارولد رجلاً يتمتع بمشية ممثل قديم صلب الرجلين وذي وجه طفولي زهري اللون كأنه مدهون بشحمة طازجة. كان يمشي الهوينى، مرحاً لا ينظر يمنة ولا يسرى ويدخن سيجاراً أنيقاً سرعان ما يرميه قبل الدخول إلى المنزل لأن مالكة الدار لم تكن تسمح له بالتدخين في غرف إيجارها. كانت فرانسي تقف على الرصيف وتنظر بهيبة إلى قمع السيجار ثم تنزع الورقة عنها وتلفها حول إصبعها كالخاتم لمدة أسبوع متظاهرة بأنه خاتم خطبة.

في أحد أيام السبت قدم هارولد وفرقته مسرحية «عشيقة القس» حيث يقع القس الوسيم في القرية بحب السيدة جيري مورهاوس، بطلة المسرحية. تقرر

البطلة أن تبحث عن عمل في أحد محلات البقالة. ولكن كانت هناك امرأة شريرة تحب القس الشاب وتريد أن توقع بالبطلة. تدخل المرأة الشريرة إلى البقالة وهي تختال زهواً بثيابها الأنيقة التي تختلف عن ثياب أهل القرى وبالماسات اللامعة التي تزين يديها وتأمر البطلة بأن تجهز لها نصف كيلو من القهوة ثم تأمرها بصوت حازم أن تطحنها. عند هذه الكلمة يبدأ الجمهور بالهمهمة استنكاراً لما تقول لأنهم يعلمون أن البطلة الناعمة الرقيقة لا تملك القوة الكافية لتدير عجلة الطحن الضخمة، كما يعلمون أيضاً أن عملها مشروط بقدرتها على طحن القهوة. توسلت البطلة إلى المرأة الشريرة بأن تعفيها من الطحن وأخبرتها كم هي بحاجة إلى العمل في الدكان ولكن الشريرة ظلت تردد «اطحنيها». حاولت بكل قوتها أن تدير العجلة ولكن دون جدوى. وعندما بدا أن كل شيء قد ضاع، يدخل القس الوسيم (هارولد) بوجهه الزهري وثوبه الكنسي ويسيطر على الوضع. يرمي قبعته العريضة بحركة درامية على المسرح ثم يتقدم نحو آلة الطحن ويدير العجلة وينقذ البطلة. يسود صمت رهيب فيما تعبق رائحة القهوة المطحونة في أرجاء المسرح ثم يدور هرج ومرج عندما تظهر القهوة الحقيقية الواقعية في المسرح. لعل الحضور قد شاهدوا القهوة تطحن آلاف المرات ولم يتنبهوا لها ولكنها على المسرح تأخذ منحنىً ثورياً. تصك الشريرة على أسنانها وتقول: لقد أحبطت مرة أخرى. يعانق هارولد جيري ووجههما للمسرح فيما تغلق الشاشة عند هذا المشهد.

لم تنضم فرانسي خلال الاستراحة إلى باقي الأولاد وهم على مقاعدهم يبصقون على الأثرياء أمثال الشريرة بل راحت تفكر في الوضع الذي شاهدته على المسرح. لقد كان رائعاً أن البطل تمكن من الوصول في الوقت المناسب لطحن القهوة ولكن ماذا كان سيحصل لو لم يصل. لا بد أنهم سيطردون البطلة من عملها... حسناً وماذا بعد؟ بعد أن تجوع بما فيه الكفاية تذهب وتجد لها مهنة أخرى، ربما تضطر إلى مسح الأرضيات مثل أمها أو تواعد الرجال مثلما تفعل فلوس غاديس. لقد كان عملها في البقالة مهماً فقط لأنهم يريدون أن يجعلوه كذلك في المسرحية.

لم تشعر فرانسي بالرضا أيضاً من المسرحية التي شاهدتها يوم السبت اللاحق. «حسناً»: لقد وصل الحبيب الذي بقي ضائعاً لمدة طويلة إلى البيت في الوقت المناسب لدفع الرهن ولكن ماذا كان سيحصل لو علق في الطريق ولم يستطع الوصول في الوقت المناسب. سوف يقوم المالك بإعطائهم مهلة ثلاثين يوماً للدفع قبل طردهم. على الأقل هكذا كانت تجري الأمور في بروكلين، خلال ذلك الشهر لا بد أن يحدث شيء ما وحتى لو أنهم اضطروا إلى إخلاء البيت بعد طردهم فإنهم سيحاولون أن يحسنوا وضعهم ما استطاعوا. سوف تضطر البطلة الجميلة إلى العمل في أحد المصانع بينما يقوم أخوها الحساس بجمع الأوراق في الخارج وتعمل الأم في التنظيف اليومي. هذا سيمنحهم القدرة على العيش، أنا أراهن أنهم سيعيشون، إن الموت لا يأتي بسهولة.

ما لم تفهمه فرانسي هو لماذا لم تتزوج البطلة من الشرير؟ لأنها في هذه الحالة سوف تتمكن من دفع الإيجار، كما أن مما لا شك فيه أن رجلاً على استعداد لتحمل كل هذه المشاكل من أجلها، لا يمكن تجاهله أو إنكار أنه يحبها. على الأقل كان حولها طوال الوقت الذي كان فيه حبيبها البطل يواصل مسعاه الفاشل.

كتبت فرانسي نصها الخاص بهذه المسرحية.. ماذا كان سيحدث لو كتبت القصة ضمن حوارات. ووجدت أن هذه الطريقة في الكتابة سهلة نوعاً ما. عندما تكتب قصة كقصة عليك أن تشرح لماذا يكون الناس مثلما هم عليه ولكن عندما تكتبها على شكل حوارات فإنك لا تضطر لهذا الشرح لأن ما يقوله الناس يشرح ما هم عليه. لم تجد فرانسي أية مشكلة في تغيير رأيها في مسألة العمل الذي ترغب فيه. مرة أخرى غيّرت أفكارها حول ما تريد أن تصبح عليه في المستقبل. قررت أنها لا تريد أن تصبح ممثلة ولكن كاتبة مسرحيات.

29

في صيف ذلك العام نفسه، استولت على جوني فكرة أن طفليه يكـبران ولم يريا بعد المحيط الكبير الذي يغسل شـواطئ بـروكلين. شـعر جـوني أن عليـه أن يركب البحر في سفينة. لذلك قرر أن يأخذهما في رحلة بمركب تجديف إلى كانارسي ويريهما صيد السمك من عمق المياه. لم يكن قد قام بصيد الأسـماك مـن قبـل بـل حتى ولم يكن قد ركب زورق تجديف أيضاً. فقط الفكرة داهمته واقتنع بها.

دخلت الفكرة في رأس جوني بشكل غريب، ودفعه هـذا المنطـق إلى تبنـي فكرة أخذ تيللي الصغيرة معه إلى الرحلة. وتيللي هي طفلة الجيران، وتبلغ الرابعـة من العمر ولم يكن جوني قد التقاها أبداً. ورغم ذلك فقد تملكته فكرة أنه يتوجب عليه أن يفعل شيئاً ليفرح قلبها بسبب ما عانته من أخيها «غاسي». هكذا تكونت فكرة الذهاب إلى كانارسي.

وغاسي هو طفل في السادسة من العمر أصـبح أسـطورة مظلمـة في الحـي بسبب قصته الشهيرة التي سنرويها هنا: غاسي طفل فظ مـزعج لـه شـفة سـفلية ضخمة أكبر من شفته العليا. ولد طبيعياً مثل باقي الأطفال ورضع من ثدي أمـه ولكن بعد ذلك توقف الشبه بينه وبين باقي الأطفال، الأحياء منهم والأموات.

فقد حاولت أمه أن تفطمه وهو في الشهر التاسع من العمر ولكنه رفض ذلك واعتكف في سريره محتجاً رافضاً الرضاعة من الزجاجة أو تناول الطعام والماء. وهكذا اضطرت أمه للعودة إلى إرضاعه بعد أن خشيت عليه أن يموت جوعاً وعطشاً. عاد غاسي يرضع رغم معارضة الجميع رافضاً أي نوع من الطعام عدا حليب أمه إلى أن بلغ الثانية من العمر. حينها توقف حليب أمه لأنها حملت بطفل جديد. عاد غاسي إلى العبوس والتذمر ولكنه ظل ينتظر تسعة أشهر رافضاً شرب حليب الأبقار ومكتفياً بشرب القهوة السوداء.

ولدت الطفلة تيللي وعاد الحليب إلى صدر الأم. وهنا جن جنون غاسي عندما رأى أمه ترضع الطفلة. انبطح على الأرض يصيح ويضرب رأسه بالأرضية وبقي معتصماً عن الأكل والذهاب إلى الحمام أربعة أيام، حتى أصابه إنهاك شديد واضطرت أمه من الخوف أن تعيده إلى الرضاعة بعد أن ظنت أن رضعة واحدة لن تضر. ولكن تبين فيما بعد أنها ارتكبت خطأً كبيراً، فقد تحول إلى شيطان شرس بعد أن حرم من الرضاعة تلك المدة الطويلة ولم يفلت ثديها أبداً. ومنذ ذلك اليوم أخذ غاسي يرضع جميع ما في صدر أمه من حليب واضطرت المسكينة إلى إرضاع الطفلة المريضة تيللي من الزجاجة.

بلغ غاسي الثالثة من العمر وكان مظهره كمظهر طفل أكبر من عمره. ولكنه مثله مثل باقي الأطفال كان يرتدي بنطلونات قصيرة وأحذية ثقيلة ذات حواف نحاسية عند الأظافر. كان يركض نحو أمه في اللحظة التي يراها فيه تخلع ثوبها ويقف وهو يرضع واضعاً مرفقه على ركبة أمه وقدماه معقودتان فيما عيناه تجوب الغرفة. لم يكن منظره وهو يرضع واقفاً بالمشهد الفذ لأن ثديي أمه كانا ضخمين يتدليان حتى حجرها. كان منظره يبدو مرعباً وهو يرضع واقفاً كأنه رجل يقف على حاجز البار وفي فمه سيجار ضخم شاحب.

اكتشف الجيران أمر غاسي ودارت النقاشات الهامسة بينهم حول حالته المضنية. أشيع أن والد غاسي رفض النوم مع زوجته مدعياً أنها تلد وحوشاً.

حاولت المرأة المسكينة مراراً وتكراراً أن تفطم غاسي. فقد أصبح جسمه أضخم من أن يرضع واقترب عمره من الرابعة. كانت الأم تخشى أن لا تخرج أسنانه الثانية مستقيمة.

في أحد الأيام قررت أن تدهن ثديها الأيسر بالسواد. أحضرت قطعة قماش ومسحتها بداخل الموقد ثم أقفلت غرفة النوم على نفسها ودهنت ثديها بالقطعة السوداء. بعدها أخذت أحمر الشفاه ورسمت فماً قبيحاً له أسنان مخيفة حول الحلمة. ارتدت ثوبها وزررته وذهبت لتجلس في المطبخ على الكرسي الهزاز قرب النافذة حيث كانت الرضاعة تجري. عندما رآها غاسي رمى الكلة من يده تحت المجلى وقفز نحوها لتناول الطعام عاقداً رجليه وواضعاً مرفقه عند ركبتها كما يفعل دائماً. انتظر غاسي قليلاً ثم قال لأمه بتملق: غاسي يريد أن يرضع.

- حاضر :أجابت أمه.

- حسناً إن غاسي يرغب في رضعة لطيفة.

نزعت ثوبها فجأة وقذفت الثدي المرعب في وجهه. جمد غاسي مكانه من الخوف ثم ولى هارباً وهو يزعق واختبأ تحت سريره حيث بقي 24 ساعة. عندما خرج أخيراً من تحت السرير عاد إلى شرب القهوة السوداء. ومنذ ذلك الوقت أصبح يرتعد خوفاً كلما نظرت عيناه إلى صدر أمه. أخيراً فطم غاسي.

أعلنت الأم نجاحها لجميع أهالي الحي وأصبحت هذه الطريقة موضة جديدة في فطام الأطفال أطلق عليها «طريقة غاسي في فطام الأطفال». وصلت القصة إلى مسامع جوني وعلى الفور أقصى غاسي من ذهنه بازدراء وأصبح قلقاً بخصوص الصغيرة تيللي. كان يعتقد أنها حرمت من شيء شديد الأهمية وأنها قد تنمو لتصبح معاقة، كما أن رحلة في المركب إلى كانارسي يمكن أن تمسح عنها بعض الضرر الذي تسبب به أخوها غريب الأطوار. أرسل جوني فرانسي لتسأل أم الطفلة إذا كان باستطاعتها السماح لها بالذهاب معهم في هذه الرحلة وقد وافقت الأم المنهكة بكل سرور.

في يوم الأحد التالي، انطلق جوني والأطفال الثلاثة إلى كانارسي. كانت فرانسي في سن الحادية عشرة ونيلي في العاشرة وكانت الصغيرة تيللي بالكاد قد تجاوزت سن الثالثة من العمر. ارتدى جوني بذلته التوكسيدو وقبعته وياقته الجديدة وصدريته فيما ارتدى الطفلان فرانسي ونيلي ثيابهما اليومية. أما تيللي فقد ألبستها أمها للمناسبة السعيدة ثوباً رخيصاً ولكنه جميل وأنيق.

خلال رحلتهم على متن المركب، جلسوا جميعاً في المقعد الأمامي وتصادق جوني مع الملاّح من خلال حديث سياسي. نزل الجميع في كارناسي وهي المحطة الأخيرة وساروا نحو رصيف فيه كوخ صغير. كان هناك مركبان مثقلان بالماء يهتزان إلى الأعلى والأسفل ولكنهما مربوطان إلى الرصيف. كما كانت على الكوخ لوحة تقول: عدة صيد ومراكب للإيجار.

تحت اللوحة كانت هناك لوحة أكبر تقول: هنا يباع سمك طازج يمكنك أخذه للبيت.

أخذ جوني يتحدث إلى الرجل المسؤول عن الكوخ، وكعادته تصادق معه ودعاه الرجل إلى الكوخ لتناول كأس من الخمر مؤكداً أنه مفيد لطرد النعاس وأنه لا يتناول مثل هذه الجرعة إلا في نوبات الليل.

فيما كان جوني داخل الكوخ يحاول طرد النعاس بالخمر، وقف نيلي وفرانسي يتساءلان كيف يمكن أن تستخدم هذه الجرعة في نوبة ليلية، بينما وقفت تيللي الصغيرة بينهما بصمت.

خرج جوني من الكوخ وبيده سنارة وعلبة صفيح صدئة مليئة بالطين والديدان. قام الرجل اللطيف بفك حبل مركب التجديف الأفضل ثم وضع الحبل بيد جوني وبعد أن تمنى له حظاً سعيداً في الصيد عاد إلى كوخه.

وضع جوني عدة الصيد في أسفل المركب وساعد الأولاد على الصعود إليه ثم جثم على ظهر المركب وبيده ما تبقى من الحبل وراح يعطيهم إرشادات حول المراكب.

«هناك دائماً طرق خاطئة وطرق صحيحة في الصعود إلى المركب» قال جوني وهو الذي لم يختبر ركوب المراكب في حياته سوى مرة واحدة في قارب للنزهات البحرية، ثم تابع: «الطريقة الصحيحة هي أن تعطي المركب دفعة في الماء ثم تقفز إليه قبل أن يدخل في البحر تماماً مثلما سأفعل الآن».

وقف مستقيماً ودفع المركب أمامه ثم قفز ولكنه سقط في الماء. حدّق الأطفال فيه وقد جمَّدهم الرعب. ماذا حدث؟ لقد كان بابا واقفاً على سطح المركب قبل ثوانٍ ولكنه الآن في وسط المياه. لحسن حظه لم يصل الماء إلى شاربه أو إلى قبعته الأنيقة التي كانت ما تزال على رأسه. حدّق جوني في الأطفال وقد اعترته الدهشة مثلما اعترتهم وقال: إياكم أن يضحك أحدكم أيها الأولاد الملاعين.

تسلق جوني إلى المركب وكاد أن يقلبه. لم يجرؤ أحد على الضحك عالياً ولكن فرانسي ضحكت في الخفاء من كل قلبها حتى أوجعتها ضلوعها. لم يجرؤ نيلي أن ينظر إلى أخته، كان يعلم أنه إذا تلاقت عيناهما فسينفجر ضاحكاً أما تيللي الصغيرة فقد بقيت صامتة. أخذ جوني يجدف نحو البحر صامتاً باعتزاز رغم حالة الفوضى التي اعترت ثيابه وخاصة ياقته وصدريته. خلع جوني الياقة والصدرية ورماهما في القارب. بعد قليل وصلوا إلى مكان، اعتقد جوني أنه مكان مناسب للتوقف. أعلن أنه سيرمي المرساة. نظروا جميعاً إليه ليروا ماذا تعني هذه الكلمات الرومانسية ولكن خيبتهم كانت كبيرة عندما اكتشفوا أن الأمر لا يتعدى رمي الحبل وقطعة حديد مربوطة إليه في البحر.

برعب شديد، راقب الأولاد جوني وهو يعلّق دودة شاحبة على طرف الصنارة. لقد بدأت عملية الصيد. وهي عملية تبدأ بربط الطعم على طرف السنارة ثم قذف السنارة في الماء والانتظار قليلاً وبعد ذلك يتم سحب السنارة ولكن بلا سمكة ولا دودة، ثم يكرر الأمر مرة أخرى وهكذا ...

أصبحت الشمس أكثر لمعاناً وشدة وتحولت بدلة جوني التوكسيدو إلى ثوب مجعد مخضر اللون. بدأ الأولاد يشعرون بحدة الشمس. بعد مضي بضع

ساعات أعلن جوني أن الوقت قد حان لتناول الطعام. شعر الجميع بالراحة والسعادة لسماع ذلك النبأ. قام جوني فوراً بلملمة عدة الصيد ثم رفع المرساة وبدأ يجدف. في البداية بدا القارب وكأنه يدور في دوائر مما دفعه بعيداً في البحر ولكن في نهاية الأمر استطاع جوني أن يصل بالقارب إلى الشاطئ بعيداً عدة ياردات عن موقعه الأصلي. ربط القارب وطلب من الأطفال الانتظار ريثما يعد لهم وجبة غداء رائعة.

عاد بعد قليل يهز جوانبه في السير حاملاً ساندويشات الهوت دوغ وفطائر التوت وعصير الفراولة. جلس الجميع في المركب المتأرجح المربوط إلى الرصيف يتأملون في المياه الخضراء اللون التي تفوح برائحة شبيهة برائحة السمك المتحلل. ثم بدأوا يأكلون. كان جوني قد شرب بعض الخمر قبل الانطلاق في البحر مما جعله يشعر بالندم لأنه زعق عليهم بعد سقوطه في الماء. لذلك قال لهم إن بإمكانهم الآن أن يضحكوا على سقطته إذا هم رغبوا بذلك. لم يستطيعوا الضحك فقد فات الوقت على ذلك ولكن فرانسي شعرت أن أباها كان رائعاً في تلك الملاحظة.

«هذه هي الحياة» قال جوني: «بعيداً عن جموع الناس المزعجة... لا شيء أجمل من أن تكون على متن مركب في البحر.. لقد ابتعدنا عن كل هذا»، أنهى جوني كلامه بصوت خافت.

بعد تناول طعام الغداء الفاخر، عاد بهم جوني إلى البحر. كان العرق ينهمر من أسفل قبعته وشاربه، حتى بدأ الشمع الذي وضعه لتثبيت شاربه يذوب مخلّفاً بعض الشعيرات الصغيرة على شفته العليا. ومع ذلك فقد كان جوني يشعر بسعادة غامرة وهو يغني «نبحر، نبحر مع حد الشراع الرئيسي».

راح يجدف ويجدف والمركب يدور في دوائر دون أن يتمكن من الدخول إلى عمق البحر. تدريجياً بدأت القروح تظهر على يديه. ترك التجديف وأعلن أنهم سيعودون إلى الشاطئ ثم عاد إلى التجديف مرة أخرى وعاد المركب يدور في

دوائر أخذت تصغر قليلاً قليلاً حتى وصل بهم المركب إلى الرصيف. لم يلاحظ أبداً أن وجوه الأطفال قد تبقعت باللون الأخضر في الأمكنة التي لم تضربهم بها الشمس فيما تبقعت باللون الأحمر الفاقع في مناطق أخرى. لم تشفع ساندويشات الهوت دوغ والعصائر والفطائر والديدان العالقة في السنارة في تغيير أمزجتهم.

عند الرصيف، قفز جوني من المركب وحذا الأطفال حذوه. تمكنت فرانسي ونيلي من القفز إلى البر ولكن الصغيرة تيللي وقعت في الماء. عندها رمى جوني نفسه على سطح المركب وسحبها من الماء. كانت مبللة تماماً وثوبها في حالة من الفوضى والبلل. ورغم شدة الحرارة، خلع جوني بذلته التوكسيدو ولفّها حول الصغيرة تاركاً أكمامها في الرمل. بعد ذلك ربت قليلاً على ظهرها وراح يغني لها. لم تفهم الصغيرة تيللي ماذا حدث في ذلك اليوم. لم تفهم لماذا وضعوها في المركب ولماذا وقعت في الماء ولماذا أصيب الرجل بكل هذا القلق عليها؟ ومع ذلك بقيت صامتة ولم تقل شيئاً.

عندما شعر جوني أنها ارتاحت قليلاً، أجلسها وعاد إلى الكوخ لأخذ جرعة من الخمر. اشترى جوني من الرجل ثلاث سمكات كل منها بربع دولار وخرج وقد لفّ السمك الرطب بورق صحف. أخبر ولديه أنه كان قد وعد أمهما بأن يحضر إلى المنزل سمكاً طازجاً حديث الصيد.

«الشيء المهم» قال جوني «هو أنني قد أحضرت إلى البيت سمكاً تم صيده في كانارسي. ليس مهماً من اصطاده ولكن المهم هو أننا ذهبنا للصيد وأحضرنا سمكاً إلى المنزل».

فهم الأطفال أنه يريد من أمهم أن تعتقد بأنه هو الذي اصطاد السمك. دون أن يطلب منهم أن يكذبوا بشكل مباشر، فقد طلب منهم أن لا يثيروا ضجة حول حقيقة الأمر.

ركبوا في إحدى الحافلات التي تضم مقاعد طويلة ومتقابلة. كان منظرهم مثيراً للغرابة. أولاً كان جوني يجلس هنا ببنطاله المجعد الأخضر المليء بملح

البحر، وقميصه الداخلي ذي الثقوب الكبيرة وقبعته التي تقف على رأسه بدون انتظام وأخيراً شاربه الأعوج. ثم تيللي الصغيرة القابعة داخل معطفه الذي يقطر منه الماء المالح ليكوِّن بركة صغيرة على الأرضية. وبعد ذلك فرانسي ونيلي وقد تبقّع وجههما باللون الأحمر، وهما يجلسان بصرامة ويحاولان تجنب المرض.

كان الناس يصعدون إلى الحافلة ويجلسون بعيداً عنهم ثم يحدقون بهم باستغراب. كان جوني يجلس مستقيماً واضعاً السمك في حجره، يحاول أن يبعد عن تفكيره تلك الثقوب الكبيرة البارزة في قميصه الداخلي المكشوف للعيان. وينظر إلى أعلى رؤوس الركاب مدعياً قراءة إعلان عن أحد أدوية الإسهال.

تزايد عدد الركاب وازدحمت الحافلة ولكن أحداً لم يجلس إلى جانبهم. أخيراً انزلقت إحدى السمكات الثلاث ووجدت طريقها خارج الصحيفة لتسقط على الأرض منبطحة فوق الغبار. كان المنظر رهيباً بالنسبة للصغيرة تيللي وهي تحدق في عيني السمكة البراقتين. لم تقل شيئاً ولكنها تقيأت بهدوء فوق بدلة جوني التوكسيدو. وبدا أن نيلي وفرانسي كانا ينتظران هذه الإشارة وتقيأ الاثنان. جلس جوني متحيراً لا يدري ماذا يفعل، وفي حجره سمكتان وتحت قدمه سمكة أخرى وعيناه تتطلعان في إعلان المسهلات.

أخيراً انتهت الرحلة المروعة ووصلوا إلى البيت. أخذ جوني الطفلة تيللي إلى منزلها وهو يشعر أن أمامه مسؤولية شرح ما حدث ولكن أمها لم تفسح له مجالاً للشرح. فقد دب بها الرعب لدى رؤية ابنتها والماء يقطر منها. أخذت تزعق ثم انتزعت بذلة جوني عن جسد الطفلة ورمتها في وجهه وهي تصيح «أنت جاك القاتل». حاول جوني عبثاً أن يفسر ما حدث ولكن الأم لم تصغ له أبداً فيما بقيت الطفلة تيللي صامتة. أخيراً استجمع جوني قوته ومرر عبارة قال فيها:

- يا سيدتي أعتقد أن ابنتك تعاني من فقدان القدرة على النطق. راحت المرأة تصيح بشكل هستيري لدى سماعها كلمات جوني.

- أنت فعلتها ... أنت فعلتها ...

– ألا يمكنك أن تحثيها عل قول شيء؟

أخذت المرأة الطفلة وراحت تنهرها وتهزها وهي تصيح: تكلمي قولي شيئاً... أخيراً فتحت الطفلة فمها وابتسمت لجوني قائلة: شكراً.

لم يمر الأمر بسهولة على جوني حتى في البيت. فقد نال تقريعاً شديداً من زوجته التي اتهمته بأنه إنسان غير مناسب لرعاية أطفال. كان الطفلان المعنيان منهكين بين نوبات من الحمى والسخونة، وبين الألم الناتج عن ضربة الشمس. كادت كاتي أن تجهش بالبكاء عندما شاهدت حطام بدلة جوني، لأن تنظيفها سيكلف قرابة الدولار كما أنها لن تعود إلى سابق عهدها. أما السمكات الثلاث فكانت في حالة تحلل متقدم واضطرت كاتي إلى إلقائها في سلة القمامة.

ذهب الطفلان إلى الفراش. ورغم نوبات الحمى والغثيان التي ظلا يشعران بها إلا أنهما دفنا رأسيهما تحت الغطاء وراحا يضحكان بصمت. كان السرير يهتز من الضحكات وهما يستذكران مشهد سقوط أبيهما في الماء.

جلس جوني عند نافذة المطبخ حتى ساعة متأخرة من الليل وهو يحاول أن يفهم لماذا حدثت معه كل هذه الأخطاء. لقد غنى كثيراً عن السفن والبحر وعن الموج المتأرجح هنا وهناك. وهو يتساءل الآن لماذا لم تسِر الأمور كما وصفتها الأغاني. كان يجب أن يعود الأطفال منتعشين مبتهجين وقد طغى عليهما حب البحر. كان يجب أن يعود بسمك كثير، لماذا؟ لماذا إذن سارت الأمور على الشكل الذي سارت عليه وليس كما في الأغنيات؟ لماذا كان عليه أن يبتلي بقروح يدين وأن يفسد بذلته وأن يصاب بضربة شمس ودوار وغثيان وفوق هذا كله سمك متعفن؟ لماذا لم تتفهم والدة تيللي نواياه الطيبة ولم تتغاضَ عن النتائج. لم يستطع أن يفهم لماذا؟ لقد خانته أغنيات البحر.

30

اليوم أصبحت امرأة.. كتبت فرانسي في دفتر مذكراتها ذات صيف بلغت فيه الثالثة عشرة من العمر. نظرت إلى العبارة التي كتبتها ثم هرشت رجلها بيدها في مكان لسعة ناموسة. عاودت النظر إلى رجليها الطويلتين الرفيعتين واللتين لم تأخذا شكلاً بعد ومسحت العبارة لتبدأ الكتابة من جديد. قريباً سوف أصبح امرأة. نظرت إلى صدرها الذي كان لا يزال مسطحاً كلوح غسيل وانتزعت الصفحة من كتاب المذكرات وبدأت تكتب على صفحة جديدة.

«عدم التحمل» كتبت فرانسي وهي تضغط بشدة على القلم... هو أمر يسبب الحروب والمذابح والصلب والإعدامات، كما أنه يجعل الناس قساة في التعامل مع أطفالهم الصغار وحتى مع بعضهم البعض. إنه المسؤول عن كل الشرور وأعمال العنف والرعب وتحطيم القلوب والنفوس في هذا العالم.

قرأت الكلمات التي كتبتها بصوت عالٍ. بدا صوتها وكأنه خارج من علبة صفيح. أو كأنه قد فقد حيويته. أغلقت الكتاب ووضعته جانباً.

كان يوم السبت في ذلك الصيف يوماً مشهوداً ينبغي أن تسجله في دفتر مذكراتها على أنه أحد أسعد أيام حياتها، فقد رأت اسمها مطبوعاً لأول مرة.

حيث كانت المدرسة قد أصدرت مجلة في نهاية السنة ضمت أفضل قصة كتبت في صفوف الإنشاء من كل مرحلة. كان موضوع فرانسي بعنوان «وقت الشتاء» وكان قد اختير كأفضل موضوع في صف المرحلة السابعة. انتظرت فرانسي يوم السبت حتى تتمكن من الحصول على عشرة سنتات لشراء المجلة. في اليوم السابق كانت المدرسة قد أغلقت أبوابها وخشيت فرانسي أن لا تتمكن من الحصول على المجلة ولكن السيد جينسون أبلغها أنه يعمل يوم السبت وأنها إذا أحضرت السنتات العشرة فسيعطيها المجلة.

في وقت مبكر من عصر ذلك اليوم، وقفت فرانسي أمام باب منزلها وأمامها المجلة مفتوحة على الصفحة التي تضم قصتها. كانت تأمل أن يمر أحد كي تريه المجلة.

قبل ذلك، وفي وقت الغداء، فتحت المجلة أمام أمها وأرتها الموضوع ولكن أمها كانت مضطرة للعودة بسرعة إلى العمل ولم تتمكن من قراءته. ربما ذكرت الموضوع أمام أمها خمس مرات خلال الغداء لكي تنبهها إلى أن قصتها قد نُشرت في المجلة ولكن أمها قالت لها أخيراً بعد أن ضاقت بها ذرعاً:

- نعم نعم أنا أعلم. لقد رأيته وسوف تكون هناك قصص كثيرة مطبوعة حتى إنك ستعتادين على الأمر. لا تجعلي الأمر يلهيك عن أمور أخرى. هناك أطباق بحاجة إلى التنظيف.

أمضى أبوها ذلك النهار في مقر الاتحاد ولم يتسنَّ له قراءة قصتها حتى يوم الأحد. ولكن فرانسي كانت تعلم أنه سيشعر بالسرور إذا عرف الخبر، لذلك وقفت على الشارع وهي تتأبط مجلتها دون أن تجعلها تفلت لحظة من يدها. بين فترة وأخرى كانت تلقي نظرة على المجلة وتقرأ اسمها مطبوعاً. لم تفسح للإثارة مجالاً كي تهدأ فقد ظل الحماس يتملكها تماماً.

شاهدت إحدى الجارات وتدعى جوانا خارجة من باب بيتها القريب لتأخذ طفلها في فسحة على عربته. سمعت صوت لهاث صادر من بعض ربّات

البيوت اللواتي توقفن للثرثرة على الرصيف بينما هن يرحن ويجئن للتسوق. كما بدا الأمر فإن جوانا لم تكن متزوجة ولكنها وقعت في مشكلة وحملت وأنجبت طفلة غير شرعية كما كانوا يقولون في الحي. هؤلاء النسوة الطيبات كن يشعرن أن جوانا لا تملك الحق في التصرف كأم فخورة تظهر طفلتها غير الشرعية في وضح النهار. كان عليها حسب رأيهن أن تخبئها في مكان ما في الظلام.

كانت فرانسي تشعر بالفضول تجاه جوانا وطفلتها لكثرة ما سمعت أمها وأباها يتحدثان بقصتها. حدّقت في الطفلة فيما العربة تمر أمامها. كانت طفلة جميلة تجلس بسعادة وسط عربتها. ربما كانت جوانا فتاة سيئة ولكنها حافظت على طفلتها نظيفة وسعيدة وربما أفضل مما تحافظ تلك النسوة الطيبات على أطفالهن. كانت الطفلة تضع قبعة جميلة مكشكشة وترتدي ثوباً أبيض نظيفاً وصدرية تحت ذقنها كي لا يقع الطعام على ثيابها. كذلك كانت العربة نظيفة ومزينة بذوق وحنان.

كانت جوانا تعمل في المصنع فيما أمها ترعى طفلتها حين غيابها ولكن الأم كانت تخجل أن تخرج الطفلة أمام الناس. لذلك كانت عطلة نهاية الأسبوع تشكل متنفساً للطفلة إذ إن جوانا لا تعمل خلال العطلة.

نعم، قررت فرانسي أنها طفلة جميلة تشبه جوانا. تذكرت فرانسي كيف وصفها أبوها بينما هو يتحدث عنها مع أمها.

كان يقول: لها بشرة مثل بتلة المغنوليا (بالطبع لم يكن جوني قد رأى وردة المغنوليا في حياته). أما شعرها فأسود مثل جناح الغراب (لم يكن جوني قد رأى مثل هذا الغراب أبداً). وعيناها عميقتان داكنتان مثل برك الغابات (لم يرَ جوني بركة في غابة من قبل ولعل البركة الوحيدة التي رآها هي تلك التي كان الرجال يرمون بها عشرة سنتات والذي يستطيع معرفة عددها في الماء يحصد كل السنتات فيها. ومع ذلك فقد كان وصف أبيها دقيقاً. كانت جوانا فتاة جميلة.

«ربما» قالت كاتي «ولكن ماذا نفعها جمالها؟ إنه لعنة بالنسبة للفتاة. لقد سمعت أن أمها لم تكن متزوجة أيضاً رغم أنها أنجبت طفلين واليوم ابنها يقضي

عقوبة في سجن سنغ سنغ فيما ابنتها تجر هذه الطفلة. لا بد أن فيهم عرقاً سيئاً ولا جدوى من الشعور بالشفقة عليهم». «بالطبع» أضافت كاتي بطريقة تفصل الحديث الجديد عن الحديث السابق، وقد كانت بارعة في ذلك، هذا ليس من شأني ولا حاجة لي أن أتدخل في الأمر لا من بعيد ولا من قريب. لا أحتاج لأن أخرج إلى الفتاة وأبصق في وجهها لأنها ارتكبت خطيئة ولا أحتاج لأن أحضرها إلى منزلي وأتبناها لأنها أخطأت أيضاً. لقد عانت من الألم ما يكفي حتى أنجبت هذه الطفلة وكأنها كانت متزوجة. إذا كانت فتاة طيبة فإنها سوف تتعلم من هذا الألم وهذا العار اللذين واكباها ولن تقع في الخطأ مرة أخرى. أما إذا كانت سيئة بطبيعتها فلن تأبه للطريقة التي يعاملها بها الناس. لذلك لو كنت مكانك يا جوني لما شعرت بكل هذا الأسف عليها. فجأة استدارت نحو فرانسي وهي تقول: ليكن ما حصل لجوانا درساً لكِ.

أمضت فرانسي عصر ذلك اليوم تراقب جوانا تروح جيئة وإياباً وهي تجر العربة. تساءلت كيف يمكن أن تكون جوانا درساً لها. جوانا تبدو فخورة بطفلتها.. هل الدرس يكمن هنا؟ جوانا عمرها سبعة عشر عاماً وهي ودودة مع الجميع وترغب من الجميع أن يبادلوها الود. ابتسمت جوانا للنساء الطيبات العابسات ولكن ابتسامتها ضاعت في الهواء عندما رأتهن يعبسن في وجهها. ابتسمت للأطفال الذين يلعبون في الشارع. بعضهم رد عليها الابتسامة.. ابتسمت لفرانسي ورغم أن الأخيرة كانت ترغب بأن ترد لها الابتسامة إلا أنها لم تفعل. هل الدرس هو أن لا تكون ودوداً مع فتيات مثل جوانا؟

بدت ربات البيوت الطيبات، وأيديهن مليئة بأكياس الخضار وقطع اللحوم الملفوفة بالورق، وكأن لا شيء يعملنه إلا القليل في عصر ذلك اليوم. فقد بقين يتجمعن بين الحين والآخر ويتهامسن بين بعضهن البعض. كان الهمس يتوقف عند مرور جوانا ليعاود نشاطه بقوة بعد عبورها.

في كل مرة كانت جوانا تمر فيها، تحمر وجنتاها أكثر وأكثر ولكن رأسها كان يزداد شموخاً وتنورتها تتماوج خلفها بتحدٍّ وإباء. توقفت أكثر من العادة

لكي تعدل الغطاء على طفلتها. لا بد أنها كانت تثير جنون هؤلاء النسوة كلما داعبت خد طفلتها أو ابتسمت لها. كيف تجرؤ على ذلك؟ كيف تجرؤ أن تتصرف وكأن لها الحق في ذلك؟.. هكذا كان تفكيرهن بها...

العديد من هؤلاء النسوة أنجبن أطفالهن بعد صراخ وعذاب.. والعديد منهن كن يكرهن أزواجهن الذين ينامون إلى جانبهن في الليل. لم يعدن يشعرن بالفرحة من ممارسة الحب بل كن يتحملن هذا الأمر بصرامة وخوف من أن ينتج عنه طفل آخر. هذا الإذعان المؤلم جعل صورة الرجال بالنسبة لهن صورة قبيحة وحشية. لقد أصبحت ممارسة الحب بالنسبة لهن عملاً وحشياً، كلما انتهى بسرعة كان أفضل. ربما كن يكرهن هذه الفتاة لأن حبها لوالد الطفلة لم يكن على شاكلة حبهن.

كانت جوانا تدرك كرههن لها ولكنها لم تكن لتذل نفسها أمامهن. لم تكن لتستسلم وتخبئ طفلتها خلف الأبواب. كان لا بد من حدوث أمر ما وقد حدث. فقد انفجرت النسوة أولاً إذ لم يعد باستطاعتهن التحمل أكثر من ذلك. لا بد لهن من فعل شيء. في المرة التالية التي مرَّت بها جوانا. صاحت إحدى السيدات وهي سيدة قوية مفتولة العضلات.

– ألا تشعرين بالخجل من نفسك؟

– من ماذا؟ سألتها جوانا.

أغاظ جوابها المرأة... «من ماذا؟» سألتها.. التفتت إلى امرأة أخرى وقالت أنا سأقول لك من ماذا لأنك ألحقت العار والأذية بنفسك. ليس لك الحق في أن تستعرضي في الشارع مع ابنتك غير الشرعية بينما الأطفال الأبرياء يرونك.

– أظن أن هذه البلاد بلاد حرة. قالت جوانا.

– ليست حرة لأمثالك. اخرجي من هذا الشارع. اخرجي من هذا الشارع.

- حاولي أن ترغميني على ذلك.

- اخرجي من الشارع أيتها العاهرة... أمرتها المرأة مفتولة العضلات.

جاء جواب جوانا وهي ترتجف:

- أرجو أن تنتبهي لما تقولينه.

- «ليس عليّ أن أنتبه لشيء أقوله لأي عابر سبيل». أجابت إحدى النسوة.

توقف أحد الرجال العابرين لحظة ثم لمس ذراع جوانا قائلاً:

- اسمعي يا أختاه لماذا لا تعودين إلى منزلك وتتركين هؤلاء المحاربات يهدأن قليلاً... لن تستطيعي التغلب عليهن.

أبعدت جوانا يده عنها قائلة: لا تتدخل فيما لا يعنيك.

- أنا أتحدث معك بنية طيبة.. أعتذر إذا أسأت إليك... قالها الرجل ومضى في سبيله.

- لماذا لا تذهبين معه. صاحت المرأة الضخمة بسخرية. قد تحصلين منه على ربع دولار.. ضحكت النسوة الأخريات.

- إنكن جميعاً تشعرن بالحسد. قالت جوانا بتحدٍّ.

- إنها تقول إننا نحسدها. قالت المرأة.. نحسدك على ماذا؟

- أنتن تحسدنني لأن الرجال يحبوني.. من حسن حظك أنك وجدت لك زوجاً.. قالت جوانا مخاطبة المرأة الضخمة، وإلا من أين لك أن تحصلي على رجل.. أنا أراهن أن زوجك يبصق عليك بعدما تنتهيان.. أراهن أن هذا ما يفعله.

أيتها العاهرة.. راحت المرأة تصيح بطريقة هستيرية ثم وكما هي الفطرة في الإنسان منذ أيام المسيح تناولت حجراً وقذفتها به.

كانت هذه إشارة للنسوة الأخريات كي يبدأن برجمها بالحجارة. إحدى النسوة رمت عليها قطعة من روث الخيل.. انهالت الحجارة عليها.. إحدى الحجارة الحادة الطرف أخطأت طريقها وأصابت جبين الطفلة. تدفق الدم من رأس الطفلة وامتلأت صدريتها بالبقع الحمراء.. غريزياً أخذت الطفلة تئن ورفعت ذراعيها لتحضن أمها.

توقفت النسوة عن رمي الحجارة، البعض منهن كن على وشك الرجم إلا أنهن أسقطن الحجارة من أيديهن فجأة.. ساد شعور بالخجل بينهن. لم يكنّ بصدد إيذاء الطفلة. أردن فقط أن يطردن جوانا من الشارع. تفرقت النسوة وانسلت كل منهن إلى بيتها بهدوء.. والأطفال الذين توقفوا عن اللعب ليشاهدوا ما حدث عادوا إلى اللعب مرة أخرى.

رفعت جوانا الطفلة من العربة وهي تئن بهدوء كأنها لا تملك الحق بأن تبكي بصوت عال. بكت جوانا وضغطت خدها على وجه طفلتها فاختلطت دموعها بدماء الطفلة. لقد انتصرت النسوة وعادت جوانا إلى المنزل حاملة الطفلة وغير آبهةٍ للعربة التي بقيت واقفة في منتصف الرصيف.

شهدت فرانسي كل هذا وسمعت كل كلمة قيلت. تذكرت كيف ابتسمت لها جوانا وكيف أشاحت برأسها دون أن ترد ابتسامتها. الآن بدأت تشعر بالمعاناة. لماذا لم ترد الابتسامة؟ سوف تظل تعاني طيلة سنين حياتها كلما تذكرت أنها لم ترد لجوانا الابتسامة.

بدأ بعض الأولاد الصغار يلعبون لعبة المطاردة حول العربة ويلاحقون بعضهم البعض وهم يجرّونها. عملت فرانسي على تفريقهم وجرَّت العربة نحو بيت جوانا وشغّلت المكابح لإبقائها واقفة هناك. كان هناك عرف متبع بعدم تخريب أي شيء يقف على باب صاحبه.

كانت لا تزال تمسك بالمجلة. وقفت إلى جانب العربة وقرأت اسمها المطبوع مرة أخرى.. وقت الشتاء بكلمات فرانسي نولان. أرادت فرانسي أن

تضحي بشيء مقابل الألم الذي سببته لجوانا عندما لم ترد لها الابتسامة. فكرت بالقصة التي كتبتها.. كانت فخورة جداً بها ومتحمسة جداً لتريها لأبيها وللخالتين إيفي وسيسي. أرادت أن تبقي المجلة معها دائماً كي تشعر بذلك الإحساس الدافئ حين تنظر إليها. إذا أعطت المجلة لأحد فلن تتمكن من الحصول على نسخة غيرها أبداً ولكنها مع ذلك أدخلت المجلة تحت وسادة الطفلة وتركتها مفتوحة على الصفحة التي كتبت فيها قصتها.

لاحظت وجود بعض بقع الدم على وسادة الطفلة البيضاء. لاح لها وجه الطفلة ونقاط الدم تقطر من وجهها والطريقة التي فتحت فيها ذراعيها لتحملها أمها. شعرت بموجة أخرى من الألم تتدفق في أحشائها، وتتركها أضعف من ذي قبل. تبعتها موجة أخرى ثم تراجعت. سارت فرانسي نحو قبو بيتها وجلست في أكثر الزوايا ظلمة على كوم من أكياس الخيش وانتظرت حتى تنتهي هذه الموجات من الألم. كانت ترتجف مع كل موجة تمر. بقيت جالسة تنتظر توقف هذه الموجات. إذا لم تتوقف.. فإنها سوف تموت...

بعد فترة من الوقت أخذت موجات الألم تضعف شيئاً فشيئاً وتتباعد الفترات بين كل واحدة. بدأت تفكر.. لقد تعلمت الدرس من جوانا ولكنه لم يكن الدرس الذي أرادت منها أمها أن تتعلمه.

راحت تتذكر ما تعرفه عن جوانا.. تذكرت أنها كانت تمر ببيتها وهي عائدة من المكتبة ليلاً وتراها هي وصديقها الشاب يجلسان متقاربين في الدهليز الضيق. تذكرت الشاب وهو يداعب شعر جوانا الجميل بحنان فيما جوانا ترفع يدها لتلمس وجنته. كان وجه جوانا يبدو مسالماً وحالماً تحت ضوء الشارع. من هناك دخل العار إلى البيت وجاءت الطفلة لماذا؟ لماذا؟ لقد كانت البداية ناعمة حنونة وسليمة - لماذا؟

كانت فرانسي تعلم أن إحدى النسوة اللواتي كن يقذفن الحجارة قد أنجبت طفلاً بعد ثلاثة أشهر فقط من زواجها. حينها كانت فرانسي تقف مع

مجموعة من الأطفال عند الناصية وتراقب الجمع وهم يدخلون الكنيسة. كان بطن العروس منتفخاً وواضحاً تحت ثوب الطهارة الذي ترتديه وهي تركب العربة المستأجرة لهذا الخصوص. رأت فرانسي أبا العروس وهو يمسك بشدة بذراع العريس الذي بدا حزيناً وقد برزت ظلال سوداء تحت عينيه.

لم يكن لجوانا أب ولا أقارب من الرجال. لم يكن هناك أحد ليشد على ذراع صديقها الشاب وهما في الطريق إلى مذبح الكنيسة. هذه كانت إذن جريمة جوانا. ليست جريمتها أنها سيئة أو أنها فعلت فعلاً مشيناً بل إنها لم تكن تملك ما يكفي من الذكاء والفطنة لكي تسحب الفتى معها إلى الكنيسة... هكذا قررت فرانسي.

لم تكن هناك طريقة أمام فرانسي لتعرف القصة برمتها. في حقيقة الأمر أن الشاب أحب جوانا وكان عازماً على الزواج منها لاحقاً لأنه، وكما يقول الناس، أوقعها في مشكلة. ولكنه عندما صارح أمه وأخواته الثلاث بالأمر، بدا وكأنهن يرفضن ذلك تماماً.

- لا تكن أحمق.. إنها سيئة.. كل عائلتها سيئة.. إلى جانب ذلك كيف ستعرف أنك أنت أبو الطفل؟ إذا كانت قد نامت معك فلا بد أنها نامت مع غيرك. آه إن النساء مخادعات.. إننا نعلم ذلك فنحن من النساء أيضاً. إنك طيب القلب وقد صدّقت كلامها بأنك أنت الأب.. إنها تكذب.. لا تجعلها تخدعك يا أخي. إذا كان لا بد لك من الزواج فتزوج فتاة طيبة حسنة الخلق لا تنام مع الرجال إلا حين تتزوج في الكنيسة ويقول القسيس كلمته. إذا تزوجت من هذه الفتاة فإنك لن تكون ابناً لنا ولا أخاً لنا ولن نستطيع أبداً أن تثبت أن الطفل طفلك، وهذا أمر سيظل يقلقك حتى في عملك لأنك لن تعرف من الذي سينسلّ في سريرك بعد أن تغادر المنزل في الصباح. نعم يا ابني نعم يا أخي هكذا تفعل النساء. نحن نعرف ذلك فنحن ننتمي إلى جنس النساء.

ترك الشاب المجال لأمه وأخواته كي يقنعوه بترك الفتاة تواجه مصيرها وحدها. أعطينه نقوداً وغرفة خاصة به ووظيفة جديدة في جيرسي ورفضن إبلاغ جوانا عن مكانه. لم يرها مرة أخرى وأنجبت جوانا الطفلة دون زواج.

مرت كل هذه الأفكار والذكريات برأس فرانسي. توقفت موجات الألم ولكن فرانسي اكتشفت أن هناك أمراً في داخلها يؤلمها.. أصيبت بالرعب وراحت تضغط بيدها على منطقة قلبها وتحاول أن تتحسس شيئاً حاداً يخزها تحت اللحم. سمعت أباها يغني مراراً عن القلب وعن القلوب المنكسرة والقلوب التي تتألم والقلوب التي ترقص والقلوب التي تقفز من الفرح والقلوب المثقلة من الحزن والأسى والتي تنقلب أو تتوقف. كانت فرانسي تؤمن تماماً أن قلبها يفعل كل هذه الأشياء واشتد بها الرعب لمجرد التفكير بأن قلبها قد انفطر حزناً على طفلة جوانا وأن الدم أخذ يخرج من قلبها ويتدفق من جسدها.

صعدت الدرج إلى منزلها ونظرت في المرآة. كان السواد يغطي أسفل عينيها والصداع يضرب رأسها. استلقت على الكنبة الجلدية القديمة في المطبخ وراحت تنتظر عودة أمها.

أخبرت أمها بما جرى معها في القبو ولكنها لم تقل شيئاً عن جوانا. تنهدت كاتي وقالت: لقد جاءتك مبكرة.. ما زلت في الثالثة عشرة وكنت أظن أنها ستتأخر سنة أخرى. لقد جاءتني أنا في سن الخامسة عشرة.

– إذن هل ما يجري لي هو حقيقة؟

– إنه أمر طبيعي يحدث مع كل النساء.

– أنا لست امرأة بعد.

– ولكن هذا يعني أنك تنقلبين من فتاة إلى امرأة.

– هل تعتقدين أن هذه الحالة ستختفي؟

– بعد بضعة أيام قليلة ولكنها ستعود لك بعد شهر.

– وإلى متى.

– إلى وقت طويل حتى تصبحي في الأربعين أو ربما الخمسين. تمتمت قائلة: لقد أنجبتني أمي وهي في عمر الخمسين.

– آه إنه شيء يتعلق بإنجاب الأطفال.

– نعم تذكري دائماً أن تكوني امرأة جيدة السيرة لأنك قد تنجبين طفلاً الآن...

مرت صورة جوانا وطفلتها كوميض في ذهن فرانسي فيما تابعت أمها:

– لا يجب أن تسمحي للأولاد بأن يقبّلوك.

– أهكذا يُنجب الأطفال؟

– كلا، ولكن ما يجعلك تنجبين الأطفال يبدأ عادة من قبلة...

أضافت أمها قائلة: تذكري ما حدث لجوانا. لم تكن كاتي تعلم بما حدث في الشارع ولكن قصة جوانا قفزت في ذهنها. دفعت هذه الكلمات فرانسي لأن تعتقد أن أمها تملك قوة بصيرة رهيبة مما جعلها تنظر إليها باحترام جديد.

تذكري جوانا. تذكري جوانا... إن فرانسي لا يمكن أن تنسى. ولكنها منذ ذلك الحين ظلت تستذكر النسوة اللواتي كن يرجمن جوانا بالحجارة. بدأت تكره النساء وتخاف من طرقهن الشيطانية وتخوّن غرائزهن.. كذلك بدأت تحقد على خيانتهن ووحشيتهن مع بعضهن البعض. من بين جميع اللواتي كن يرجمن بالحجارة لم تجرؤ واحدة أن تقول كلمة عطف بحق الفتاة حتى لا تلوّث بجريرة جوانا. وحده الرجل عابر السبيل تكلم بنبرة حنونة معها.

كل النساء يجمع بينهن أمر مشترك. جميعهن عانين من الألم الشديد عند إنجابهن لأطفالهن. هذا الأمر يجب أن يشكل لحمة بينهن ويجعلهن أكثر محبة وحماية لبعضهن البعض ضد عالم الرجال، ولكن الأمر ليس كذلك. يبدو كأن آلام الولادة الرهيبة جعلت قلوبهن ونفوسهن أصغر وأضيق. فصرن يقفن معاً فقط للدوس على نساء أخريات سواء برمي الحجارة أو بالنميمة. بدا وكأن هذا هو الانتماء الوحيد الذي يجمعهن.

الرجال مختلفون! قد يكرهون بعضهم البعض ولكنهم يقفون معاً في مواجهة العالم وفي مواجهة أية امرأة تريد أن توقعهم في شراكها.

فتحت فرانسي الدفتر الذي تستخدمه لكتابة مذكراتها وتركت سطراً فارغاً تحت العبارة التي كتبتها سابقاً حول عدم التحمل ثم أكلمت .

طالما أنا على قيد الحياة.. لن أتخذ امرأة صديقة لي. لن أثق بأية امرأة مرة أخرى.. ربما فقط أمي وخالتيّ إيفي وسيسي.

31

في ذلك العام الذي بلغت فيه فرانسي الثالثة عشرة من العمر وقـع حـدثان هامان، فقد اندلعت الحرب في أوروبا ووقع حصان في غرام الخالة إيفي.

ظل زوج إيفي وحصانه درامر عدوّين لدودين لثمانيـة أعـوام. كـان زوج إيفي يسيء معاملة الحصان، ويرفسه ويقرصه ويشتمه ويشد عليه اللجـام، وقـد بادله الحصان الإساءة بالإساءة. كـان الحـصان في الـسابق يعـرف طريقـه جيـداً ويعرف أين يتوقف حين يريد العم ويلي فليتمان تسليم شحنة حليب، وقد جرت العادة أن يعاود الانطلاق بعد توقفه حالما يصعد العم فليتمان إلى العربة ولكنـه في الآونة الأخيرة كان يغـادر المكـان في اللحظـة التـي ينـزل فيهـا فليـتمان لتـسليم الحليب، ويضطر الأخير إلى اللهاث وراءه مسافة بنايتين أو ثلاث حتى يلحق به.

كان فليتمان ينهي توزيع الحليب مع حلول وقت الظهيرة، يعود بعـدها إلى البيت لتناول طعام الغداء ومعه الحصان والعربة حيث يودعهما الإسطبل بانتظار أن يغسلهما فيما بعد. ولكن الحصان كان يخبئ له دائماً خدعة رعنـاء. فـما أن يبـدأ العم فليتمان بغسل بطنه حتى يبول عليه. وكان الجميـع ينتظـرون تلـك اللحظـة حتى يضحكوا من كل قلوبهم. بالطبع هذا الأمر لم يرق لفليتمان. لذلك تحول إلى غسل الحصان أمام مدخل البيت وليس في الإسطبل. كان هـذا الأمـر مقبـولاً في

الصيف ولكنه يصبح صعباً على الحصان في الشتاء. لذلك كانت إيفي تنزل إليه لتبلغه بأنه حرام عليه أن يغسل درامر خارج المنزل في هذا البرد القارص والماء البارد. بدا وكأن الحصان كان يدرك أن إيفي تعطف عليه. لذلك كانت كلما دخلت في جدال مع زوجها حول الموضوع يصهل الحصان بحنان ويضع رأسه على كتفها.

في أحد أيام البرد الشديد، قرر درامر أن يأخذ الأمر بيده أو كما قالتها الخالة إيفي أن يضعه شخصياً في قدميه. كانت فرانسي تستمتع بشدة وهي تصغي إلى تلك الرواية على لسان الخالة إيفي. لا أحد يمكنه أن يروي قصة مثلما ترويها إيفي. كانت تحبكها من جميع النواحي، حتى أفكار الحصان كانت تدخلها بطريقة ما وكأنها تعلم تماماً ما الذي يدور في ذهنه. وفيما يلي الرواية بأكلمها كما روتها الخالة إيفي:

«كان ويلي يغسل الحصان في الشارع بالماء البارد والصابون الأصفر القاسي. وكان الحصان يرتجف من البرد فيما وقفت إيفي تراقب المشهد من النافذة. انحنى ويلي ليغسل بطن الحصان، وفي هذه اللحظة توتر الحصان قليلاً فظن ويلي أنه سيبول عليه كما فعل في السابق. كان الأمر أكثر من أن يتحمله رجل محرج وضعيف مثل ويلي. لذلك جذب الحصان نحوه ووخزه في بطنه فما كان من الآخر إلا أن رفع قدمه ورفسه في رأسه. عندها تدحرج ويلي على الأرض وفقد وعيه.

ركضت إيفي نحو الشارع بينما راح الحصان يصهل مبتهجاً عندما رآها ولكنها لم تلقِ بالاً له. حاولت إيفي سحب ويلي من تحت الحصان ولما رآها الأخير راح يسير بالعربة إلى الأمام. ربما أراد أن يفسح الطريق لها لكي تسحبه أو أراد أن يسحقه بأن يمرر العربة فوقه ويقضي عليه. في هذه اللحظة صاحت إيفي فتوقف درامر في الوقت المناسب.

أحد الأولاد الصغار ذهب لينادي الشرطة الذين طلبوا بدورهم سيارة إسعاف. لم يستطع الطبيب الذي حضر في سيارة الإسعاف أن يجزم إذا كان

فليتهان قد أصيب بكسر أو بارتجاج في الجمجمة لذلك قرر نقله إلى مستشفى جرين بوينت.

وجدت إيفي نفسها أمام حصان وعربة مليئة بزجاجات الحليب الفارغة، وكان عليها إدخال كل هذا إلى الإسطبل. لم تكن إيفي قد جرّت حصان في حياتها ولكن لم يكن هناك سبب يمنعها من ذلك. لذلك ارتدت أحد أفرهولات العمل التي يرتديها زوجها ولفّت منديلاً حول عنقها وتسلقت إلى مقعد العربة ثم أمسكت بالأعنة وصاحت: إلى البيت يا درامر.. التفت الحصان إلى الوراء ونظر إليها نظرة حنونة ثم سار فرحاً إلى الإسطبل.

كان من حسن حظها أنه يعرف الطريق جيداً. إذ لم يكن لدى إيفي أدنى فكرة عن مكان الإسطبل كما أن الحصان كان ذكياً فقد ظل يتوقف عند كل تقاطع وينتظر حتى تتفقد إيفي الشارع صعوداً ونزولاً وإذا كان الأمر على ما يرام تنادي إيفي.. إلى الأمام يا ولد. وحين تمر عربة أو مركبة تصيح إيفي: انتظر دقيقة يا ولد. وهكذا وصل الإثنان إلى الإسطبل دون أية مشكلة واصطف الحصان مكانه جذلاً مرتاحاً. فوجئ السائقون بوجود امرأة تقود العربة إلى الإسطبل وسرت حالة من الهياج بينهم مما حدا بمدير الإسطبل لأن يهرع إلى إيفي التي أخبرته بما حدث.

لقد كنت أعلم أن مثل هذا الأمر سيحدث يوماً ما. لم يكن فليتهان يحب هذا الحصان ولا الحصان كان يحبه.. حسناً علينا أن نوظّف مكانه شخصاً آخر.

خشيت إيفي أن يفقد زوجها وظيفته. لذلك سألت المدير إذا كان بإمكانها أن تأخذ محل زوجها ريثما يتعافى ويخرج من المستشفى. وكانت حجتها في ذلك أن الحليب يوزع خلال الظلام ولا أحد سيعرف إذا كان السائق امرأة أو رجلاً. سخر المدير منها ولكنها ألحّت عليه متوسلة وأبلغته كم هما بحاجة إلى مبلغ العشرين دولاراً وخمسة سنتات كل أسبوع.

بدت جميلة وجريئة وهي تتوسل. وهكذا اضطر المدير للإذعان وإعطائها قائمة بأسماء الزبائن. ثم أخبرها أن الشباب في الإسطبل سيقومون بتحميل

العربة. كان الحصان يعرف طريقه جيداً لذلك لم يكن الأمر صعباً. اقترح أحد السواقين أن تصطحب معها كلب الحراسة في الإسطبل لحمايتها من سارقي الحليب. وافق المدير على ذلك ثم أبلغها أن عليها العودة إلى الإسطبل عند الثانية بعد الظهر. وهكذا أصبحت إيفي أول موزعة حليب في المنطقة.

سارت الأمور مع إيفي على ما يرام حتى إن جميع الرجال في الإسطبل أحبوها. فقد أجادت في عملها أفضل من السيد فليتمان ورغم صفاتها العملية إلا أنها كانت ناعمة تنضح بالأنوثة وقد نالت إعجاب الرجال بطريقة كلامها الهامس كما أن الحصان كان سعيداً ومتعاوناً جداً. ظل يقف بشكل أوتوماتيكي أمام كل منزل عميل ولم يكن يتحرك قبل أن يراها تجلس بأمان على المقعد.

ومثلما كان يفعل زوجها، كانت تعود عند الظهيرة إلى المنزل لتناول الغداء. ولما كان الطقس بارداً فقد كانت تجلب لحافاً وتلفه حول درامر حتى لا يصاب بالبرد فيما هو ينتظرها، وكانت تسخن له الشوفان قبل أن تطعمه لأن الطعام البارد يمكن أن يسبب له الإزعاج والمرض. وكم استمتع الحصان بتناول الشوفان الساخن وعلى الأخص قطعة التفاح أو السكر التي كانت تلقمه إياها بعد أن ينتهي من طعامه.

اعتقدت إيفي أن غسل الحصان في الشارع في الأيام الباردة ليس أمراً سليماً. لذلك كانت تأخذه لتغسله في الإسطبل. كما أنها بدلت نوع الصابون لأن الصابون الأصفر، كما اعتقدت، يؤذي جسده. عرض الرجال في الإسطبل مساعدتها في الغسل ولكنها أبت بإصرار إلا أن تغسله بيدها. وقد حدث وأن دخل اثنان من الرجال في عراك حول من سيغسل عربتها ولكن إيفي حلّت المشكلة بأن طلبت منهما أن يغسلها أحدهما بالتناوب يوماً بعد يوم.

كانت إيفي تسخن الماء على الغاز في مكتب المدير قبل أن تغسل درامر. إذ لم تكن ترضى بأن تغسله بالماء البارد. كانت تغسله بالصابون المعطّر وتنشفه بحذر وتأنٍ. لم يرتكب الحصان أي خطأ خلال غسلها له بل كان يصهل ويشخر

فرحاً ويموج جسمه بفرحة شهوانية بينما إيفي تفركه حتى ينشف. وعندما كانت تصل إلى منطقة صدره كان يريح رأسه الضخم على كتفها الصغير. لم يكن هناك شك أبداً في أن الحصان قد وقع في غرام الخالة إيفي.

عندما استعاد فليتمان عافيته وعاد على العمل رفض الحصان مغادرة الإسطبل برفقته. وكان على المدير أن يسلِّم فليتمان توزيعات أخرى وحصاناً آخر ولكن درامر أبى أن يخرج مع أي سائق آخر. وقد كاد المدير أن يقرر بيعه لولا فكرة خطرت له. من بين السائقين كان هناك سائق شاب مخنث يتحدث بطريقة صبيانية. قرر المدير تسليم هذا الشاب عربة فليتمان وبدا درامر وكأنه راضٍ بالأمر وتقبل الخروج مع هذا الشاب الذي يتصرف كالنساء.

وهكذا عاد درامر إلى عمله من جديد ولكنه كان كلما عبر الشارع يتوقف عند بوابة منزل إيفي ويرفض العودة إلى الإسطبل قبل أن تنزل إيفي وتعطيه نصف تفاحة أو قطعة سكر ثم تفرك أنفه قائلة: «أيها الولد الطيب».

- «إنه حصان مضحك».. قالت فرانسي بعد أن سمعت القصة.

- ربما كان مضحكاً، أجابت الخالة إيفي، ولكنه بالتأكيد كان يعرف تماماً ما الذي يريده.

32

استهلت فرانسي مذكراتها في عيدها الثالث عشر بكتابة العبارة التالية:

15 ديسمبر (كانون أول): اليوم أدخل عمر المراهقة.. أتساءل ماذا تخبئ لي هذه السنة؟

ولكن السنة لم تأتِ لها إلا بالقليل وفقاً لمذكراتها التي ظلت تشح وتشح مع مرور العام. كانت قد تحمست للبدء بكتابة المذكرات لأن قصص أبطالها الخياليين أبقت على تلك المذكرات حية بالأفكار الخصبة والمتلهفة. ظنت فرانسي أن مذكراتها ستكون كذلك، ولكن فيما خلا بعض الملاحظات الرومانسية المتعلقة بالممثل هارولد كلارنس، بقيت المذكرات الأخرى في حدود النثر العادي، ولكن مع نهاية العام أعادت تقليب الأوراق متفحصة كتاباتها هنا وهناك.

8 كانون الثاني (يناير): تملك الجدة روميلي صندوقاً جميلاً منحوتاً، كان جدها الأكبر في النمسا قد صنعه قبل مائة سنة، كما تملك ثوباً أسود اللون وتنورة بيضاء وحذاء وجوارب. وتقول الجدة إن هذه الثياب هي التي ترغب أن تُدفن بها حين تموت لأنها لا تريد أن تلف في كفن. فيما يقول العم ويلي فليتمان أنه

يرغب بأن تُحرق جثته بعد موته وأن يُرش رماده من أعلى تمثال الحرية. وهو يعتقد أنه سيكون طيراً في الحياة التالية وأن هذه الطريقة تشكل بداية جيدة بالنسبة له. وتردّ الخالة إيفي أنه لا داعي لأن ينتظر ذلك بعد موته لأنه حالياً يشبه طير الوقواق. ضحكت لدى سماعي هذا الوصف ولكن أمي أنّبتني على الضحك. إني أتساءل هل الحرق أفضل من الدفن.

10 كانون الثاني (يناير): والدي مريض اليوم.

21 مارس (آذار): سرق نيلي بعض زهور الصفصاف الأميركي من حديقة ماكارين وأهداها لغريتشن هان. تقول أمي إنه ما زال صغيراً للتفكير بالفتيات وإنه يوجد وقت كافٍ لذلك فيما بعد.

2 إبريل (نيسان): لم يعمل والدي منذ ثلاثة أسابيع، يبدو أن هناك مشكلة في يديه فهما يرتجفان بحيث لا يمكنه حمل شيء.

20 إبريل (نيسان): تقول الخالة سيسي إنها سوف تُرزق بطفل. أنا لا أصدق هذا لأن بطنها مسطح. سمعتها تقول لأمي إنها تحمل الطفل في ظهرها. أنا أتساءل ما معنى هذا؟

8 مايو (أيار): أبي اليوم مريض.

9 مايو (أيار): ذهب أبي إلى العمل ليلاً ولكنه اضطر للعودة إلى المنزل لأن أصحاب العمل ليسوا بحاجة إليه.

12 مايو (أيار): لم يعمل والدي منذ شهر. نيلي أراد أن يجهز أوراقه للعمل ويترك المدرسة ولكن والدتي رفضت.

15 مايو (أيار): عمل والدي الليلة وقال إنه سيتحمل مسؤولية الأمور من الآن وصاعداً. وبخ نيلي لأنه حضّر أوراق العمل.

17 مايو (أيار): عاد والدي إلى المنزل مريضاً. بعض الأولاد ظلوا يلاحقونه في الشارع ويسخرون منه.. أنا أكره الأولاد.

20 مايو (أيار): وجد نيلي طريقاً لبيع الصحف. هو لا يريدني أن أساعده في ذلك.

28 مايو (أيار): لم ينخز كارني خدّي اليوم بل نخز شيئاً آخر. أعتقد أنني صرت كبيرة على بيع الخردوات.

30 مايو (أيار): قالت المعلمة جارندر إن المدرسة ستقوم بنشر موضوعي الشتائي الرابح في المجلة.

2 يونيو (حزيران): عاد والدي مريضاً اليوم، عملت أنا ونيلي على مساعدة أمي لكي نمكنه من صعود الدرج. بكى أبي.

4 يونيو (حزيران): حصلت على درجة (أ) في موضوعي الإنشائي اليوم. كان عنوان الموضوع «طموحي» ولكنني ارتكبت خطأً واحداً. كتبت كلمة كاتب مسرحيات بطريقة خاطئة ولكن السيدة جارندر عدلّت الإملاء.

7 يونيو (حزيران): أحضر رجلان أبي إلى المنزل اليوم. كان مريضاً ولم تكن أمي موجودة. وضعت أبي على السرير وقدّمت له قهوة سوداء. عندما عادت أمي قالت لي: لقد فعلت الشيء الصحيح.

12 يونيو (حزيران): أعطتني الآنسة تينمور درساً حول مقطوعة شوبرت الموسيقية اليوم ولكن أمي سبقتني بعزف مقطوعة نجمة تانهاوزر الليلية. يقول نيلي إنه يسبقنا نحن الاثنتين فهو يستطيع عزف مقطوعة فرقة ألكسندر راغ تايم دون دفتر نوتات.

20 يونيو (حزيران): ذهبت إلى أحد العروض بعنوان فتاة الغرب الذهبي. كان أفضل عرض رأيته وخاصة عندما بدأ الدم يقطر من السقف.

21 يونيو (حزيران): غاب أبي لليلتين. لم نعرف أين ذهب ولكنه عاد مريضاً.

22 يونيو (حزيران): قلبت والدتي فرشتي اليوم وعثرت على دفتر مذكراتي وقرأت ما بداخله. في كل مرة كانت تجد كلمة «سكران» كانت تمحوها

وتكتب مكانها «مريض». كنت محظوظة لأنني لم أكتب شيئاً عن أمي في الدفتر. إذا رزقت بأطفال فلن أقرأ مذكراتهم لأنه يحق للطفل بعض الخصوصية في حياته. إذا عثرت أمي على الدفتر مرة أخرى وقرأته، ربما تدرك هذه الملاحظة.

23 يونيو (حزيران): يقول نيلي إن لديه صديقة وتقول أمي إنه ما زال صغيراً على ذلك.. أنا أتساءل.

25 يونيو (حزيران): زارنا العم ويلي والخالة إيفي وكذلك الخالة سيسي وصديقها جون. شرب العم ويلي الكثير من الجعة وراح يبكي. قال إن الحصان الجديد الذي استلمه للعمل ويدعى بيسي يفعل أسوأ من أن يبول عليه. وبختني أمي لأني انفجرت بالضحك.

27 يونيو (نيسان): أنهينا قراءة الإنجيل اليوم وعلينا أن نبدأ من جديد. كذلك أنهينا قراءة شيكسبير للمرة الرابعة.

1 يوليو (تموز): عدم التحمل...

وضعت فرانسي يدها على العبارة لكي تخفي الكلمات. أحست لوهلة أن موجات الألم ستعود لها مرة أخرى ولكن الشعور مضى دون شيء. قلبت الصفحة وقرأت عبارة أخرى.

4 يوليو (تموز): أحضر الرقيب ماكشين أبي اليوم إلى المنزل. لم يكن أبي قد اعتقل كما حسبنا في البداية ولكنه كان مريضاً. أعطى الرقيب ماكشين لي ولنيلي ربع دولار لكل منا ولكن أمي أجبرتنا أن نعيدهما له.

5 يوليو (تموز): ما زال أبي مريضاً.. هل سيتمكن من العمل مرة أخرى؟ أنا أتساءل.

6 يوليو (تموز) بدأنا نلعب لعبة القطب الشمالي مرة أخرى.

7 يوليو (تموز): لعبة القطب الشمالي.

8 يوليو (تموز): لعبة القطب الشمالي.

9 يوليو (تموز): لعبة القطب الشمالي.. لم يأت أحد لنجدتنا بعد.

10 يوليو (تموز): فتحنا حصالة الصفيح اليوم. كان فيها ثمانية دولارات وعشرون سنتاً. سنتاتي الذهبية تحولت إلى اللون الأسود.

20 يوليو (تموز): ذهبت جميع النقود التي كانت في الحصالة. عملت أمي على غسل بعض الثياب للسيدة مكغاريتي ولما جئت أساعدها في الكي ثقبت إحدى الأكمام. منعتني أمي من الكي مرة أخرى.

23 يوليو (تموز): استلمت عملاً في مطعم هندلر خلال عطلة الصيف. كنت أغسل الأطباق خلال أزمة فترة الغداء والعشاء. كنت أستخدم مقداراً من الصابون الناعم الموضوع في البرميل. في يوم الاثنين يأتي رجل ليجمع ثلاثة براميل من قطع الدهن ويحضر برميلاً مليئاً بالصابون الناعم يوم الأربعاء. لا شيء يُبدَّد في هذا العالم. كنت أحصل على دولارين في الأسبوع إضافة إلى وجبات الطعام. لم يكن عملاً شاقاً ولكنني أكره ذلك الصابون.

24 يوليو (تموز): قالت أمي إنني سأصبح امرأة دون أن أعرف.. أتساءل عن ذلك.

28 يوليو (تموز): فلوس غاديس وفرانك سوف يتزوجان حالما يحصل على زيادة في راتبه. يقول فرانك إنه بحسب الطريقة التي يسير فيها الرئيس ويلسون فإننا سندخل الحرب دون أن ندري. يقول فرانك إنه سيتزوج لأنه يريد زوجة وأولاداً حتى لا يأخذوه إلى الحرب حين تقع. وتقول فلوسي إن هذا ليس صحيحاً وإن المسألة مسألة حب حقيقي بينهما.. أنا أتساءل.. ما زلت أذكر كيف كانت فلوسي تلاحقه قبل سنوات حين كان يغسل حصانه.

29 يوليو (تموز): لم يكن أبي مريضاً اليوم.. سوف يحصل على وظيفة، قال إن على أمي أن تتوقف عن غسل ثياب السيدة مكغاريتي وإن عليّ أن أترك عملي. يقول إنه سيصبح غنياً وإننا سنذهب جميعاً للعيش في الريف.

10 أغسطس (آب): تقول سيسي إنها على وشك أن تلد طفلاً.. أنا أتساءل فهي ما تزال مسطحة البطن مثل الفطيرة.

17 أغسطس (آب): يعمل أبي منذ ثلاثة أسابيع. لقد تمكنا من تناول وجبات عشاء رائعة.

18 أغسطس (آب): أبي مريض.

19 أغسطس (آب): أبي مريض لأنه فقد وظيفته.. رفض السيد هندلر أن يعيد توظيفي في المطعم. يقول إنني شخص لا يُعتمد عليه.

1 سبتمبر (أيلول): زارنا العم ويلي والخالة إيفي الليلة. غنى العم ويلي أغنية فرانكي وجوني وأضاف إليها كلمات بذيئة. وقفت الخالة إيفي على الكرسي ولكمته في أنفه.. وبختني أمي لأنني انفجرت ضاحكة.

10 سبتمبر (أيلول): بدأت سنتي الأخيرة في المدرسة. قالت المعلمة جارندر إنني إذا استمريت في الحصول على علامة (أ) في المواضيع الإنشائية فإنها قد تسمح لي بكتابة مسرحية التخرج. خطرت لي فكرة رائعة. سوف تكون هناك فتاة في ثوب أبيض، يتدلى شعرها على ظهرها وسنطلق عليها اسم «القدر». سوف تدخل فتيات أخريات إلى المسرح ويخبرنها ماذا يردن من الحياة. سوف يخبرهن القدر ما الذي سوف يحصلن عليه. في النهاية ترفع فتاة تلبس ثوباً أزرق ذراعيها وتقول «هل الحياة تستحق أن نحياها». وسوف تجيء مجموعة من الفتيات ويقلن نعم... طبعاً المسرحية ستكون في إطار إيقاعي. أخبرت والدي عن المسرحية ولكنه كان مريضاً جداً ولم يستطع أن يفهمها.. مسكين أبي.

18 سبتمبر (أيلول): سالت أمي إذا كان بإمكاني أن أقص شعري ولكنها رفضت قائلة إن الشعر هو تاج المرأة. هل يعني هذا أنها تتوقع مني أن أصبح امرأة قريباً؟ أنا أتمنى ذلك لأنني أريد أن أصبح سيدة نفسي وأقص شعري حين أشعر أنني أرغب بذلك.

24 سبتمبر (أيلول): عندما دخلت لأستحم ليلاً. اكتشفت أنني أتحول إلى امرأة.. لقد حان الوقت.

25 أكتوبر (تشرين أول): سوف أكون سعيدة جداً عندما أملأ هذا الدفتر. لقد تعبت من كتابة المذكرات.. لا يحصل شيء هام أبداً.

وصلت فرانسي إلى العبارة الأخيرة. بقيت صفحة واحدة فارغة فقط. حسناً سوف تملؤها قريباً وبعدها ينتهي الدفتر ولن تشغل نفسها بكتابة مذكرات مرة أخرى. غطّت قلمها في الحبر وكتبت.

2 نوفمبر (تشرين الثاني): الجنس شيء يدخل في حياة الإنسان بشكل ثابت. يكتب الناس ضده ويعظ رجال الدين ضده حتى إنهم يضعون قوانين ضده ولكنه يستمر على حاله. كل الفتيات في المدرسة لا يتحدثن إلا عن موضوع الجنس والفتيان. إنهن يشعرن بفضول شديد نحوه.. هل أشعر أنا بفضول نحو الجنس؟

درست عبارتها الأخيرة بعناية ولكنها شعرت بثقل في رمشها الأيمن. لذلك محت الجملة وكتبت مكانها.. أشعر بفضول نحو الجنس.

33

نعم، كان لدى أطفال وليامزبيرغ الذين بلغوا سن المراهقة فضول كبير نحو الجنس. لم ينقطع حديثهم عنه وغالباً ما كانوا يكشفون لبعضهم البعض عن أعضائهم الجنسية. كما ذهب الأمر ببعض المنافقين منهم إلى ممارسة ألعاب مراوغة مثل لعبة الطبيب أو لعبة «بيت بيوت»، والقليل منهم ممن لم تكن تكبح جماحهم أية محرمات، كانوا يدخلون في ألعاب قذرة.

لم يكن التهامس حول موضوع الجنس يهدأ في ذلك الحي. وعندما كان الأطفال يسألون أهاليهم عن هذا الموضوع، يتحير هؤلاء ويرتبكون في الإجابة لأنهم لم يكونوا على معرفة بالكلمات المناسبة التي تستخدم في شرح هذه المواضيع. المتزوجون يستخدمون عبارات سرية خاصة فيما بينهم ويتبادلونها على سرير النوم في هدوء الليل. ومع ذلك لم يخلُ الأمر من وجود بعض الأمهات الشجاعات اللواتي كن يذكرن تلك الكلمات في وضح النهار ويشرحنها لأطفالهن. أما هؤلاء الأطفال فكانوا بدورهم عندما يكبرون يبتدعون كلمات أخرى لم يكونوا ليذكروها أمام أطفالهم.

لم تكن كاتي نولان امرأة جبانة لا جسدياً ولا ذهنياً بل كانت تعالج كل مشكلة ببراعة تامة. لذلك لم تتحدث طوعاً عن الجنس لابنتها فرانسي ولكن

عندما كانت الأخيرة تسألها، كانت تجيبها بأفضل ما تستطيع. في إحدى المرات، اتفق نيلي وفرانسي وكانا حينها ما يزالان طفلين صغيرين أن يطرحا على أمهما بعض الأسئلة. وقف الاثنان أمامها ذات يوم وتولت فرانسي النطق فقالت:

- ماما.. من أين أتينا؟

- لقد منحكما الله لي.. أجابتها أمها.

كان على فرانسي أن تتوقف عن السؤال هنا فالأطفال الكاثوليك يكتفون غالباً بذلك الجواب ولكن فرانسي وجهت سؤالها التالي الأكثر التصاقاً بالواقع:

- كيف منحنا الله لك؟

- لا أستطيع أن أجيب على ذلك لأنني سأضطر إلى استخدام الكثير من الكلمات الكبيرة التي لن يفهمها أطفال في عمركم... أجابت أمها.

- قولي هذه الكلمات ولنرَ إذا كنا لا نستطيع أن نفهمها.. عاودت فرانسي الكلام.

- لو أنك كنت تفهمينها لما اضطررت لأن أقولها لك..

- قوليها بطريقة لطيفة.. أخبرينا كيف يجيء الأطفال إلى هذا العالم؟

- كلا إنك ما تزالين صغيرة على هذا.. لو أني أخبرتك لذهبت تنشرين الخبر لجميع الأطفال الذين تعرفينهم وستأتي أمهاتهم ليعاتبنني وليتهمنني بأنني امرأة قذرة الكلام وستنشب نزاعات بيني وبينهن.

- حسناً أخبريني يا ماما ما هو الاختلاف بين الولد والبنت؟

فكرت الأم قليلاً ثم أردفت: الاختلاف الأكبر هو أن الفتاة تجلس عندما تذهب إلى الحمام بينما يبقى الولد واقفاً.

- ولكني يا أمي.. أنا أقف عندما أذهب إلى ذلك الحمام المعتم لأني أخاف.. أجابت فرانسي.

- وأنا كذلك.. اعترف نيلي أنا أجلس عندما ...

قاطعت أمها الحديث وهي تقول: حسناً ! هناك شيء من الرجل في كل امرأة وشيء من المرأة في كل رجل.

أنهت هذه العبارة الحديث لأنها بدت محيرة للطفلين بحيث قررا أن لا يذهبا أبعد من ذلك.

عندما بدأت فرانسي تكتب في مذكراتها أنها أخذت تتحول إلى امرأة، ذهبت إلى أمها لتشبع فضولها من مسألة الجنس وقد أخبرتها كاتي بهدوء وتروٍّ كل ما تعرفه عن هذا الموضوع. اضطرت كاتي أحياناً خلال الحديث إلى استخدام بعض الكلمات التي تعتبر قذرة ولكن هذا لم يمنعها من أن تتابع الحديث بشجاعة ودون وجل لأنها لم تكن تعرف كلمات غيرها تدل عليها. في تلك الأيام لم تكن هناك كتب متوفرة لدى أناس مثل كاتي لكي تطّلع على ثقافة جنسية صحيحة. ورغم الكلمات الصريحة والعبارات البيتية التي استخدمتها إلا أن تفسيراتها لم تكن لتثير أي اشمئزاز في نفس فرانسي.

في الحقيقة، كانت فرانسي أفضل حظاً من أطفال الحي. فقد عرفت كل ما تريد أن تعرفه في الوقت الذي كان عليها أن تعرفه ولم تضطر إلى التسلل خلسة في الممرات المظلمة الضيقة مع نظيراتها من الفتيات لتبادل تلك المعلومات تحت مظلة الشعور بالذنب كما أنها لم تضطر لتعلم الأشياء بطريقة مشوهة.

إذا كان موضوع الجنس العادي يشكل أمراً غامضاً في الحي فإن موضوع الجنس الجنائي كان كتاباً مفتوحاً. ففي تلك المناطق الحضرية الفقيرة والمزدحمة يشكل شيطان الاعتداء الجنسي كابوساً مرعباً بالنسبة للأهالي. ويبدو أن لكل حي قصة من هذا النوع. في ذلك العام الذي بلغت فيه فرانسي من الرابعة عشرة، كانت هناك قصة حول هذا الموضوع تدور في وليامزبيرغ. فقد ظل هناك شخص يتحرش بالفتيات الصغيرات منذ مدة طويلة دون أن يتمكن الشرطة من القبض عليه رغم بحثهم المتواصل. ويعزو الناس أحد أسباب عدم القبض عليه

إلى أنه عندما كان يهاجم إحدى الفتيات، كان أهلها يبقون الأمر طي الكتمان حتى لا يعيِّرهم أحد أو أن ينظر الناس إلى الفتاة نظرة تمييزية تجعل من الصعب عليها معاودة حياتها الطبيعية واللعب براحة مع سائر أطفال الحي.

في أحد الأيام، وصل نبأ عن مقتل فتاة صغيرة تسكن في نفس مجمع البنايات حيث تعيش عائلة فرانسي. كان عمرها سبع سنوات وكانت معروفة بهدوئها وطاعتها وأدبها. عندما لم تعد الفتاة من المدرسة، بدأ القلق يساور الأم ولكنها ظنت أن ابنتها قد توقفت في مكان ما للعب. بعد العشاء، ذهبت تبحث عنها وتسأل الأطفال الذين تلعب بالعادة معهم ولكن أحداً لم يكن قد رآها منذ غادرت المدرسة.

سرت موجة من الرعب في الحي وأخذ الأهالي يستدعون أطفالهم من الشوارع ويغلقون عليهم الأبواب. جاء الرقيب ماكشين ومعه ستة من رجال الشرطة وشرعوا بتمشيط الأسطح والأقبية. وفي النهاية عثروا على الطفلة بمساعدة أخيها وهو شاب جلف الطباع في السابعة عشرة من العمر. كان جسدها الصغير ملقى بالقرب من عربة ألعاب مكسورة في قبو منزل مجاور، وثوبها ممزق فيما كانت ثيابها الداخلية وحذاؤها وجواربها الحمراء، كلها ملقاة على كوم من الرماد. تم إخضاع الأخ للاستجواب وظهرت إجاباته استفزازية ومتلعثمة. تم اعتقاله تحت طائلة الشبهة ولكن ماكشين لم يكن مغفلاً فقد كان اعتقاله نوعاً من إيهام القاتل الحقيقي أنه ليس في دائرة الخطر. كان ماكشين يعلم أن القاتل سوف يشعر بالأمان ويضرب مرة أخرى ولكن هذه المرة سيكون الشرطة له بالمرصاد.

بدأ الأهالي ينشطون في مسألة الجنس (إلى الجحيم بكل البحث عن عبارات مناسبة) وحذروا أطفالهم من مخاطر الاعتداءات الجنسية الشيطانية ومن أخذ الحلوى من الغرباء أو التحدث معهم. وقفت الأمهات على مداخل المنازل لملاقاة أطفالهن لدى عودتهم من المدرسة وتحولت الشوارع إلى مناطق مهجورة،

وعمّ القلق والخوف لدى الأهالي لدرجة أن جوني حصل على مسدس خوفاً على ابنته فرانسي.

كان لجوني صديق يدعى بيرت يعمل كحارس ليلي في البنك المجاور. وبيرت هذا رجل في الأربعين من العمر متزوج من فتاة عمرها نصف عمره لذلك كان يشعر بغيرة مجنونة عليها. راودت بيرت الشكوك في أنها على علاقة مع عشيق تلتقيه ليلاً عندما يكون هو مناوباً على حراسة البنك. أصابه هذا الموضوع بكآبة شديدة إلى أن وصل إلى نتيجة أنه سيشعر بالراحة إذا تأكد له الأمر. كان عازماً على تبديل هذا الشك المدمر للروح بالحقيقة المدمرة للقلب. وهكذا ظل بيرت يتسلل عائداً إلى منزله في ساعات مختلفة من الليل فيما صديقه جوني يحرس البنك مكانه. كانت بين الاثنين إشارات فعندما يشعر بيرت أن عليه الذهاب لتفقد الوضع يطلب من الشرطي المناوب أن يقرع جرس بيت نولان ثلاث مرات. وإذا كان جوني في البيت حين وصول الإشارة، فإنه يقفز من سريره مثل رجل الإطفاء ويرتدي ثيابه بسرعة ويهرع إلى البنك وكأن حياته تعتمد على ذلك.

في كل ليلة وبعد أن يتسلل الحارس إلى منزله ويجلس جوني على سرير بيرت ويتحسس المسدس الضخم تحت وسادته الرقيقة. كان يأمل أن يحاول أحدهم سرقة البنك لكي يتدخل وينقذ المال ويصبح بطلاً. ولكن ساعات الليل كانت تمر مملة دون حدث يذكر حتى إنه لم تحدث إثارته عثور الحارس على عشيق في سرير زوجته الشابة. كانت المرأة تنام وحيدة وتغط في نوم عميق كلما تسلل زوجها إلى الشقة.

عندما سمع جوني حكاية الاغتصاب والقتل، ذهب إلى البنك يسأل صديقه الحارس إذا كان لديه مسدس آخر.

– بالتأكيد... لماذا؟

– أريد أن أستقرضه منك يا بيرت.

– لماذا يا جوني؟

– هناك قاتل طليق.. ذلك الذي قتل الفتاة الصغيرة قرب منزلنا.

– أتمنى أن يقبضوا عليه.. هذا اللعين.

– إن لدي ابنة صغيرة يا بيرت.

– نعم نعم أعلم يا جوني.

– لذلك أريدك أن تعيرني مسدساً.

– إن هذا ضد قانون سوليفان.

– أليس ذهابك من هنا ليلاً وتركي أحرس مكانك ضد القانون أيضاً؟ كيف لك أن تعرف أنني لست لصاً؟

– أوه كلا يا جوني.

– أتصور أننا إذا خرقنا قانوناً فإن بإمكاننا خرق آخر.

– حسناً.. حسناً سوف أعيرك إياه.

فتح بيرت درجاً وسحب منه مسدساً ثم قال:

– والآن سأريك كيف تستخدمه. عندما تريد أن تقتل شخصاً، صوِّب هكذا.. ثم أطلق النار.

كان بيرت يتحدث وهو يوجه المسدس نحو جوني.

بدوره استل جوني المسدس ووجهه نحو بيرت قائلاً... «دعني أجربه».

– بالطبع فأنا لم أطلق النار من هذا المسدس اللعين حتى الآن.

– هذه أول مرة أمسك فيها مسدس بيدي... قال جوني.

– «كن حذراً إذن».. قال الحارس بهدوء: «إنه محشو».

اقشعر بدن جوني قليلاً وأنزل المسدس بحذر ثم قال:

– قل لي يا بيرت... أنا لم أكن أعرف... كنا سنقتل بعضنا البعض.

- يا للمسيح... إنك على حق أجاب بيرت مرعداً.

- حركة من إصبعك ويموت الرجل... قال جوني.

- جوني... لا أظن أنك تفكر في قتل نفسك.

- كلا سأترك هذا العمل لأحد السكارى.. ضحك جوني ثم توقف فجأة وفيما هو يغادر المكان قال بيرت:

- أعلمني إذا أمسكت بالمجرم.

- سأفعل ذلك. قال جوني.

- حسناً إلى اللقاء.

- إلى اللقاء يا بيرت.

لدى عودته إلى البيت، جمع جوني عائلته حوله وشرح لهم عن المسدس محذراً فرانسي ونيلي من لمسه قائلاً إن هذه الأسطوانة الصغيرة يمكن أن تقتل خمسة أشخاص. قال لهم بطريقة درامية.

اعتبرت فرانسي المسدس شيئاً شبيهاً بإصبع ضخم مغرٍ، يدعو إلى الموت ويأتي به مسرعاً وكم كانت سعادتها بالغة حين أبعده والدها عن نظرها وخبأه تحت وسادته.

ظل المسدس تحت وسادة جوني شهراً كاملاً لم يلمسه أحد. لم تحصل أية أحداث أخرى في الحي وبدا وكأن الشيطان قد ابتعد. عادت الأمهات إلى الاسترخاء قليلاً إلا أن قلة منهن وبينهن كاتي استمرين في مراقبة مداخل البنايات والممرات ساعة عودة أطفالهن من المدرسة. كان القاتل بالعادة يتسكع ليلاً بين الممرات الضيقة لاصطياد ضحاياه. وكانت كاتي تشعر أنها لن تخسر شيئاً إذا ظلت حذرة.

ولكن عندما بات الناس على بعض الطمأنينة، ضرب القاتل ضربته مرة أخرى.

في عصر أحد الأيام وبينما كانت كاتي تنظف ردهات المنزل المجاور لها سمعت أصوات أطفال في الشارع وعلمت أن أولاد المدارس قد بدؤوا يعودون إلى منازلهم. تساءلت إذا كان من الضروري أن تخرج لتراقب المداخل كما اعتادت أن تفعل ريثما تعود فرانسي. قالت لنفسها إن فرانسي في سن الرابعة عشرة الآن وهي كبيرة بما فيه الكفاية لكي تعتني بنفسها. كذلك فإن القاتل يهاجم الفتيات في عمر السادسة أو السابعة. ربما تم القبض عليه في أحد الأحياء الأخرى وأودع السجن ومع ذلك... ترددت قليلاً ثم قررت العودة إلى المنزل فهي بحاجة لقطعة صابون طازجة خلال ساعة وبإمكانها صيد عصفورين بحجر واحد إذا حصلت عليه الآن.

نظرت إلى أعلى وأسفل الشارع. اعتراها بعض الضيق لأنها لم ترَ فرانسي بين الأطفال القادمين. ولكنها تذكرت أن فرانسي تذهب إلى مدرسة أبعد وتصل إلى البيت متأخرة قليلاً. وصلت كاتي إلى المنزل واحتست بعض القهوة الساخنة. وجلست تنتظر. ينبغي أن تصل فرانسي الآن حتى يرتاح بالها. ذهبت إلى غرفة النوم لترى إذا كان المسدس ما يزال مكانه تحت الوسادة. بالطبع كان هناك، شعرت أنها حمقاء ثم أنهت قهوتها وأحضرت قطعة الصابون الصفراء وعادت إلى عملها.

عادت فرانسي إلى المنزل في الوقت المحدد. فتحت باب الردهة ونظرت إلى الأسفل ثم إلى الأعلى ولما لم تجد أحداً، أغلقت الباب الخشبي الصلب وراءها. الآن أصبحت الردهة معتمة. سارت عبر الممر القصير نحو الأدراج وما أن وضعت قدمها على الدرجة الأولى حتى شاهدته !

خرج من مخبئه الصغير تحت الدرج الذي يفضي إلى القبو. سار بهدوء ولكن بخطوات قوية. كان نحيلاً قصيراً يرتدي بذلة داكنة وبالية وقميصاً بلا قبة ولا ربطة. كان شعره الكثيف ينسدل على جبهته حتى يكاد يغطي رمشيه. وكان أنفه يشبه المنقار وفمه كالخيط النحيل وسط وجهه. أدركت فرانسي تماماً منظر

عينيه الرطبتين. وبعد أن نظرت إليه جيداً تسمَّرت رجلاها في الأرض ولم تستطع رفعهما كي تخطو خطوتها التالية. تعلقت يداها بشعبتين من شعب الدرابزين. ولكن ما جمّدها في الحقيقة كان منظر الرجل وهو يتقدم نحوها وقد فتح ثيابه الداخلية السفلى. حدقت فرانسي في الجزء المكشوف من جسده وأصابها الشلل من الرعب. كان ذلك الجزء أبيض اللون مثل الدود مقارنة بوجهه الشاحب الداكن القبيح. شعرت بغثيان شبيه بذلك الذي أصابها عندما شاهدت سرباً من يرقات الحشرات البيضاء السمينة تزحف فوق جثة فأر متعفنة. حاولت أن تصيح.. ماما.. ماما.. ولكن حلقها أغلق تماماً ولم يخرج منه سوى الهواء. كان الأمر شبيهاً بحلم مرعب تحاول فيه أن تصيح دون أن يخرج لك صوت. لم تستطع الحراك. شعرت بألم في يديها من شدة قبضتها على الدرابزين. تساءلت لماذا لا ترخي قبضتها المشدودة عليه والآن ها هو يتقدم نحوها ولا تستطيع الهرب. يا إلهي أخذت تصلي ربما حضر أحد السكان.

في تلك اللحظة، كانت كاتي تنزل الأدراج بهدوء وبيدها قطعة الصابون الصفراء. ما أن وصلت إلى حافة الدرج الأخير حتى شاهدت الرجل يتقدم نحو فرانسي التي كانت متجمدة عند شعب الدرابزين. لم تصدر كاتي أي صوت ولم يرها الرجل. استدارت وصعدت إلى غرفة نومها وفتحت الباب المقفول بخفة بعد أن تناولت المفتاح من تحت السجادة الصغيرة عند المدخل ثم وضعت قطعة الصابون على المغسلة دون أن تعي قيمة الوقت وتناولت المسدس من تحت الوسادة وصوبته وهي تضعه تحت مريولها ثم ركضت نحو الأدراج وهي بهذا الوضع.

في تلك اللحظة كان القاتل قد وصل إلى قاع الأدراج. قفز عن درجتين ثم رمى إحدى ذراعيه حول رقبة فرانسي بخفة كالقط وضغط بيده على فمها حتى لا تصرخ.

بعد ذلك ألقى بيده الأخرى حول خصرها وبدأ يشد ثيابها إلى الأسفل، انزلق جسده ولمس طرفه العاري رجل فرانسي. اهتزت رجلها كأن لهباً من النار

قد أصابها. حركت فرانسي رجليها وأخذت ترفس وتكافح. هنا ضغط المجرم المنحرف بجسده عليها بعد أن حشرها عند الدرابزين. بدأ يفك قبضة يدها عن الدرابزين إصبعاً إصبعاً حتى تمكن من إفلات يدها وضغطها وراء ظهرها ثم بدأ يفك اليد الأخرى.

سمعت فرانسي صوتاً ونظرت إلى الأعلى. رأت أمها تنزل الدرجة راكضة. كانت كاتي تركض بدون توازن لأن كلتا يديها كانتا ممسكتين بالمسدس تحت المريول. رآها الرجل ولكنه لم يرَ المسدس. بتردد أرخى قبضته عن فرانسي وتراجع خطوتين ولكنه ظل يحدق بكاتي. وقفت فرانسي مكانها وهي تمسك بشعبة الدرابزين دون أن تتمكن من أن تفتح يدها. نزل الرجل الأدراج وسار وظهره للجدار باتجاه باب القبو. توقفت كاتي، وركعت على إحدى الدرجات ثم رفعت المسدس من تحت المريول ووضعته بين شعبتي الدرابزين. صوبت نحو الجزء المكشوف من جسده وضغطت على الزناد.

سمع صوت انفجار عالٍ ثم رائحة ثياب محروقة فقد اخترقت الطلقة مريول كاتي حيث كانت تخبئ المسدس وحرقت جزءاً منه. في المقابل كان المجرم يلوي شفته لتكشف أسناناً قذرة ثم يضع يده على معدته ويسقط. فتح ذراعيه بينما جسده يضرب بالأرض والدم ينفر ليغطي ذلك الجزء الدودي الأبيض من جسده. كان مكان الثقب يعبق بالدخان.

من بعيد خرجت أصوات زعيق النساء وطرطقة الأبواب والأرجل المهرولة نحو الردهة. تدفق الناس من الشارع نحو مدخل البيت الذي تحوَّل في لحظة إلى مكان مزدحم لا يستطيع أحد أن يدخل أو يخرج منه.

أمسكت كاتي بيد فرانسي وحاولت أن تسحبها ولكن يدي الطفلة ظلّتا مسمرتين إلى الدرابزين. لم تستطع حتى أن تفتح أصابعها. بحركة بائسة ضربت كاتي على معصم فرانسي بالمسدس، ما دفعها إلى إرخاء قبضتها. سحبتها كاتي بسرعة عبر الردهة وهي تشاهد أعداداً من النساء يخرجن من بيوتهن متوجهات نحوها.

– ماذا حدث؟ ماذا حدث؟ صاحت النسوة.

– لا بأس.. لا بأس... ردّت كاتي «كل شيء على ما يرام الآن».

ظلت فرانسي تتعثر وهي تصعد الدرج حتى اضطرت كاتي إلى جرِّها وهي على ركبتيها حتى الغرفة الأخيرة ثم أضجعتها على الكنبة في المطبخ وأقفلت الباب ووضعت المسدس إلى جانب قطعة الصابون. لمست يدها صدفة فوهة المسدس. كانت ساخنة كالنار مما أثار فيها الرعب. لم تكن كاتي تعرف شيئاً عن المسدسات ولم تطلق النار في حياتها. لذلك ظنت أن الحرارة قد تدفع المسدس إلى أن ينطلق وحده. فتحت غطاء الغسالة وألقت المسدس في الماء بين الثياب المبتلة ثم ألقت قطعة وراءه حتى يختلط بالثياب وعادت إلى فرانسي لتسألها:

– هل آذاك يا فرانسي؟

– «كلا» أجابت فرانسي وهي تئن .. فقط ... لمس رجلي.

–أين.

أشارت فرانسي إلى مكان فوق أحد جواربها الزرقاء. كان الجلد أبيض ليس فيه أية علة. نظرت فرانسي إلى رجلها بدهشة. كانت تظن أن جلدها قد تآكل.

– لا يوجد شيء. قالت أمها.

– نعم ولكني ما زلت أشعر مكان لمسته... راحت فرانسي تئن وتبكي بجنون أريد أن أقطع رجلي.

تدفق الناس وقد استبد بهم الفضول الشديد لمعرفة ما حدث. ولكن كاتي تجاهلتهم وأبقت الباب مقفلاً. أجبرت فرانسي على شرب فنجان ساخن من القهوة ثم راحت تسير في الغرفة جيئة وإياباً. كانت ترتجف إذ لم تكن تعرف ما هي الخطوة التالية.

في ذلك الوقت كان نيلي يتسكع في الشارع عندما سمع صوت الطلقة النارية ورأى الناس يتجمهرون باتجاه الممر المفضي إلى منزلهم. هرع يركض ليشق

طريقه بين الناس ونظر من فوق الدرابزين حيث شاهد القاتل مكوَّماً على الأرضية. كانت النسوة تمزقن ثيابه ويدسن على جسده بأكعابهن. بعضهن كان يرفسه ويبصق عليه. كن جميعهن يزعقن ويطلقن اللعنات ضده. اقترب نيلي منهن وسمع اسم إحداهن تلفظ اسم أخته... فرانسي نولان.

- نعم فرانسي نولان.

- هل أنت متأكدة أنها فرانسي نولان.

- لقد رأيتها.

- جاءت أمها و...

- فرانسيس نولان.

سمع نيلي صفارة سيارة الإسعاف فظن أن فرانسي قد قُتلت. ركض صعوداً عبر الدرج وهو يبكي وراح يقرع الباب بشدة ويصيح: أدخليني يا أمي أدخليني.

أدخلته كاتي إلى المطبخ وعندما رأى فرانسي مستلقية على الكنبة راح يصيح بأعلى صوته. في المقابل أخذت فرانسي تصيح أيضاً. هنا صاحت كاتي بهما «توقفا توقفا» وراحت تهز نيلي حتى توقف عن البكاء.

- اذهب ونادِ أباك... ابحث عنه حتى تجده.

عثر نيلي على أبيه في بار مكغاريتي. كان جوني على وشك أن يستقر بعد أن أمضى العصر بطوله يشرب ببطء. عندما سمع قصة نيلي رمى الكأس وهرع إلى المنزل معه. لم يستطيعا الدخول. فقد كانت سيارة الإسعاف تغلق الباب وكان هناك أربعة من رجال الشرطة يشقون طريقهم عبر الحشد وهم يحاولون إدخال الطبيب إلى المنزل.

دخل جوني ونيلي إلى المنزل عبر الباب المجاور وقفزا فوق الشيك نحو الفناء ثم تسلقا سلم الحريق. عندما شاهدت كاتي قبعة جوني خلف النافذة

زعقت وهرعت لتحضر المسدس ولكن لحسن حظ جوني كانت قد نسيت أين وضعته.

ركض جوني نحو فرانسي ورفعها بين ذراعيه مثل طفل رضيع وراح يهزها بنعومة طالباً منها أن تحاول النوم ولكن فرانسي ظلت تصر أن يقطعوا رجلها.

- هل نال منها؟ سأل جوني.

- كلا أنا التي نلت منه. أجابت كاتي متجهمة.

- هل أطلقت عليه النار من المسدس؟

- بماذا إذن؟ أرته الثقب في المريول.

- هل أطلقت النار جيداً.

- لقد فعلت أفضل ما استطعت ولكن فرانسي تتحدث طوال الوقت عن رجلها لقد.. نظرت باتجاه نيلي.

- حسناً أنت تعلم لقد لمس رجلها. أشارت إلى المكان.. نظر جوني ولم يرَ شيئاً فيما تابعت كاتي قائلة: من المؤسف ما حدث لها.. لأنها ستظل تتذكر ما حدث وقد لا تتزوج أبداً إذا بقيت تتذكر.

- سوف نصلح هذه الرجل.. وعدها جوني ثم وضع فرانسي على الكنبة وأحضر غاز الكربوليك ومسح البقعة التي لمس فيها المجرم رجلها بشدة. استقبلت فرانسي الألم الناتج عن الأسيد القوي بترحاب. شعرت أن الشر الذي نتج عن لمسة الرجل قد ولّى. دق أحدهم على الباب. لم يجب أحد منهم إذ لم يكونوا راغبين في دخول أي غريب في هذا الوقت ولكن صوتاً إيرلندياً جهورياً جاء من وراء الباب: افتحوا الباب نحن رجال القانون.. افتحوه الآن.

فتحت كاتي الباب ودخل أحد رجال الشرطة ومعه طبيب يحمل كيساً. أشار الشرطي إلى فرانسي قائلاً:

- هذه هي الطفلة التي حاول النيل منها.

- نعم.

- على الطبيب أن يقوم بفحصها.

- أنا لن أسمح بهذا. قالت كاتي محتجة.

- إنه القانون أجابها الشرطي بهدوء.

وهكذا سارت كاتي برفقة الطبيب إلى غرفة النوم وهما يحملان فرانسي واضطرت الطفلة المرعوبة أن تخضع لهذا الفحص المذل. أجرى الطبيب الأنيق فحصاً سريعاً ودقيقاً ثم اعتدل في جلسته وأعاد معداته إلى الكيس قائلاً:

- إنها على ما يرام، لم يستطع النيل منها.. ثم تناول معصمها المتورم بيده وسأل:

- كيف حدث الأمر.

- لقد اضطررت إلى ضرب معصمها بكعب المسدس حتى تفلت قبضتها عن الدرابزين.. قالت كاتي.

لاحظ الطبيب وجود كدمة على ركبتها وسأل:

- ما هذا.

- لقد اضطررت إلى جرّها عبر القاعة.

بعد ذلك لاحظ وجود حرق على كاحلها فصاح:

- وما هذا بحق السماء؟

- هذا مكان ما غسل أبوها رجلها بحمض الكربوليك. إنه المكان الذي لمسها فيه الرجل.

– يا إلهي.. صاح الطبيب.. إنكم تحاولون أن تتسببوا لها بحروق من الدرجة الثالثة. فتح كيسه مرة أخرى ووضع مرهماً مبرِّداً مكان الحرق ثم لفّه بعناية بلفافة طبية.

يا إلهي.. قال مرة أخرى.. بين الاثنين منكما، عانت الفتاة من ضرر أكثر مما عانت من المجرم. ربت على خد فرانسي وعلى ثوبها قائلاً: سوف تكونين بخير يا فتاتي.. سأعطيك دواء كي تنامي جيداً وعندما تستيقظين، تذكري الأمر وكأنه حلم مزعج انتهى... الأمر كله حلم مزعج فقط. أتسمعين.

– نعم يا سيدي، ردت فرانسي بامتنان ولكنها عندما شاهدت الإبرة في يد الطبيب استذكرت شيئاً من الماضي وعاودها القلق.. هل ذراعي نظيفة؟ هل سيقول...

– إنك فتاة شجاعة. قالها الطبيب وهو يغرز الإبرة.

فكرت فرانسي قليلاً.. إن الطبيب إلى جانبي فلماذا أقلق؟ على الفور انتقلت إلى نوم عميق بعد إبرة المنوم التي حقنها إياها الطبيب.

خرج الطبيب مع كاتي من المطبخ فيما بقي جوني والشرطي جالسين على الطاولة. كان الشرطي يسجل بقلم صغير بضع ملاحظات على دفتره.

– هل الفتاة بخير؟ سأل الشرطي الطبيب.

– نعم.. إنها على ما يرام.. فقط هي تعاني من الصدمة ومن التدخل الخاطئ للأهل. غمز بعينه إلى الشرطي وأردف: عندما تستيقظ، قال وهو يلتفت إلى كاتي أصري عليها أن الأمر لا يتعدى كونه حلماً مزعجاً ولا تتحدثي عنه إلا في هذه الصيغة.

– كم أدين لك يا دكتور؟ سأل جوني.

– لا شيء يا صديقي هذا على حساب المدينة.

- شكراً. همس جوني.

لاحظ الطبيب يدي جوني وهما ترتجفان. سحب زجاجة صغيرة من جيبه ودفعها إلى جوني قائلاً: خذ اشرب.. وأصر على ذلك. بعد أن شرب جوني كمية لا بأس بها مرر الطبيب الزجاجة إلى كاتي قائلاً: وأنت أيضاً يا سيدتي.. تبدين وكأنك بحاجة لهذا.. شربت كاتي أيضاً وهنا تدخل الشرطي مازحاً.

- وماذا تظنني.. يتيم؟

مرّر الطبيب الكأس له وبعد أن شرب حتى آخر قطرة تنهد قليلاً والتفت إلى جوني سائلاً.

- والآن أين تخفي هذا المسدس.

- تحت وسادتي.

- أحضره.. عليّ أن أسلّمه إلى المركز.

صعدت كاتي إلى غرفة النوم لتحضر المسدس، وقد نسيت تماماً أنها وضعته في حوض الغسيل وعندما عادت كان القلق يغمرها.

- ماذا إنه ليس هناك.

ضحك الشرطي: بالطبع لقد أخذته من هناك لتطلقين النار.

مرّ وقت طويل قبل أن تتذكر كاتي أنها ألقته في حوض الغسيل. أحضرت المسدس وسلمته إلى الشرطي الذي مسحه بدوره وأخرج الطلقات منه ثم سأل جوني.

- هل لديك ترخيص بهذا؟

- كلا.

- إن هذا يجعل الأمور أصعب.

- إنه ليس مسدسي.

- من أعطاك إياه؟

- لا أحد.

لم يرد جوني أن يتسبب بمشكلة لصديقه الحارس.

- كيف وصل إليك إذن؟

- وجدته. نعم لقد عثرت عليه في القناة.

- مزيّت ومعد للإطلاق؟

- بكل أمانة.

- هل هذه هي قصتك؟

- نعم هذه هي قصتي.

لا بأس بالنسبة لي ولكن حاول أن تصر على هذه القصة.

أطلق سائق الإسعاف زاموراً ليعلن أنه قد عاد بعد أن نقل الرجل إلى المستشفى وبدأ الطبيب يستعد للخروج عندما سألت كاتي:

- المستشفى؟ أنا لم أقتله؟

- ليس تماماً ! قال الطبيب، سوف نجعله يقف ليسير إلى كرسي الإعدام الكهربائي على قدميه.

- أنا آسفة لقد عنيت أن أقتله.

- لقد أدلى بإفادة قبل أن يفقد الوعي.. قال الشرطي، واعترف أنه قتل تلك الفتاة الصغيرة من الحي المجاور كما اعترف بأنه مسؤول عن جريمتين أخريين. لن أفاجأ إذا حصلت على ترقية عندما يسمع المفوض القصة.

- أنا أتمنى ذلك. قالت كاتي، بصراحة أتمنى أن يحصل أحد على نتيجة جيدة من هذا كله.

عندما استيقظت فرانسي في اليوم التالي كان أبوها بانتظارها عند السرير ليخبرها أنها مرت بحلم مزعج. ومع مرور الزمن أصبح الأمر يبدو كحلم بالنسبة لفرانسي ولم يعلق منه شيء مؤلم في ذاكرتها. لعل رعبها الجسدي جمّد مشاعرها وإحساساتها. كان الرعب الذي واجهته على الدرج قصير المدى.. ربما دقائق ثلاث فقط وقد فعل الرعب فعله كمخدر وبقيت الأحداث التي تلت ذلك ضبابية في ذهنها نتيجة تلك الإبرة المنومة. حتى الجلسة التي أعقبت في المحكمة بدت وكأنها قصة في مسرحية تلعب هي فيها دوراً بسيطاً رغم أنها اضطرت إلى إعادة سرد القصة مرة أخرى.

كانت هناك جلسة استماع ولكن كاتي كانت قد أبلغت مسبقاً أن الأمر لا يتعدى كونه شأناً مهنياً. لم تتذكر فرانسي إلا القليل مما حدث وروت هي وكاتي قصتهما باختصار. لم تكن هناك حاجة للكثير من الكلام.

قالت فرانسي في شهادتها:

كنت عائدة من المدرسة وعندما دخلت في الردهة خرج هذا الرجل وأمسك بي قبل أن أصرخ. وفيما كان يحاول جرِّي على الدرج نزلت أمي من فوق.

أما كاتي فقالت:

نزلت الدرج ورأيت الرجل يجرُّ ابنتي. عدت إلى الغرفة وتناولت المسدس ثم نزلت وأطلقت عليه النار فيما كان يحاول التسلل إلى القبو.

تساءلت فرانسي فيما إذا كانوا سيعتقلون أمها لأنها أطلقت النار على رجل ولكن كلا... انتهت الجلسة بأن صافح القاضي يدي أمها ويديها أيضاً.

أمر مهم حدث بالنسبة للصحف. فقد تناهت إلى مسامع أحد مراسلي الصحف المغمورين أنباء القصة من خلال اطلاعه على التقارير الليلية لمراكز الشرطة. وقد أورد القصة في نصف عامود بإحدى صفحات جريدة بروكلين إلا

أن الأمر اختلط عليه بالأسماء فوضع اسم عائلة الشرطي بدل عائلة نولان وجاء في الخبر:

قامت السيد أولبري من وليامزبيرغ بإطلاق النار على أحد المتسللين داخل ردهة منزلها. في اليوم التالي أوردت صحيفتان من نيويورك الخبر ولكنهما ذكرتا أن السيدة أوليري من وليامزبيرغ تعرضت لإطلاق نار من قِبَل متسلل في ردهة منزلها.

مع الوقت، ذوت القصة في عالم الماضي مع أن كاتي أصبحت بطلة في الحي. ولكن مع مرور الزمن أيضاً نسي الناس قصة المجرم المنحرف وبقي عالقاً في ذاكرتهم أن كاتي قتلت رجلاً وسرى بين الجميع خلال الحديث عنها أنها شخص لا ينبغي الدخول معه في عراك وأن بإمكانها إطلاق النار على أي شخص بمجرد أن نظرت إليه.

ترك حمض الكربوليك أثراً على رجل فرانسي ولكنه تقلص مع الزمن حتى أصبح في حجم قطعة العشرة سنتات، وتعودت فرانسي على وجوده حتى إنها نادراً ما كانت تنظر إليه عندما كبرت.

بعد أيام قلائل من وقوع الحادث جاء الرقيب ماكشين لزيارة كاتي. رآها تجر حاوية صغيرة من الرماد عبر الرصيف، اشتعل قلبه شفقة عليها وأسرع ليساعدها. شكرته كاتي ثم نظرت إليه وتذكرت أنها رأته يوم رحلة ماتي ماهوني كما تذكرت أنه هو الذي سأل فرانسي: هل هذه أمك؟ في المرة الأخيرة التي أحضر فيها جوني سكراناً إلى البيت بعد أن عجز عن السير وحده علمت كاتي أن السيدة ماكشين موجودة في مصح لمرض السل غير القابل للعلاج كما علمت أنها لن تعيش طويلاً: هل سيتزوج مرة أخرى يا ترى؟ بالطبع ! قالت كاتي لنفسها وهي تجيب على سؤالها إنه رجل بهي الطلعة، شامخ القوام يعمل في وظيفة جيدة ولا شك في أنه سيقع في شراك امرأة ما. رفع قبعته وهو يتكلم معها.

- سيدة نولان إنني أشكرك باسمي وباسم رجال الشرطة في المركز على مساعدتك لنا في القبض على هذا المجرم.

- على الرحب السعة. أجابت كاتي بشكل تقليدي.

- ولكي نعبر عن امتناننا يرغب الشباب في إهدائك هذا المغلف !

- نقود .. سألت كاتي.

- إنها كذلك.

- إذن احتفظ بها.

- بالتأكيد إنك سوف تحتاجينها وزوجك عاطل على العمل. ربما يحتاجها أطفالك.

- هذا ليس من شأنك أيها الرقيب ماكشين. أنت ترى أنني أعمل بجد ولسنا بحاجة إلى منَّة من أحد.

- كما تشائين.

أعاد الرقيب المغلف إلى جيبه وهو ينظر إليها ويقول لنفسه: هذه امرأة حقيقية. وجه جميل وقوام أجمل وشعر أشقر وبشرة بيضاء ناعمة وفوق كل هذا شجاعة واعتزاز يساويان ست نساء من جنسها.

أنا رجل في مقتبل العمر. عمري خمسة وأربعون وهي ما تزال فتية (كانت كاتي في الحادية والثلاثين ولكنها بدت أصغر من ذلك بكثير). كلانا يعاني من زواج متعثر وسوء حظ. كان ماكشين يعلم أن جوني لن يُعمَّر طويلاً بالطريقة التي يحيا فيها. كان يشفق عليه كما يشفق على زوجته المريضة مولي ولم يكن ليؤذي أحداً منهما أو يفكر بخيانة زوجته. قال لنفسه: أنا آمل من كل قلبي أن لا يلحق ضرر بأي منهما ولكن إلى متى سيبقيان أحياء.. كم سنة؟ سنتان.. خمس. حسناً ! لقد انتظرت طويلاً دون أمل بالسعادة وبالتأكيد فإن بإمكاني أن أنتظر أكثر.

شكرها مرة أخرى وودعها مصافحاً وهـو يفكـر لنفـسه: سـوف تكـونين زوجتي يوماً ما.. أقسم بالله على ذلك.

لم تعلم كاتي ماذا كان يدور بخلده أو ربما كانت تعلم... مـن يـدري ! لأن شيئاً دفعها لكي تناديه بعدما استدار ليذهب.

- أتمنى يوماً ما أن تكون سعيداً لأنك تستحق ذلك أيها الرقيب ماكشين.

34

عندما سمعت فرانسي خالتها سيسي تخبر أمها بأنها على وشـك أن تحـصل على طفل تساءلت لماذا لا تقول بأنها ستلد طفلاً مثلما تقول باقي النساء، ولكنهـا اكتشفت فيما بعد أن هناك سبباً لاختلاف الكلمات.

كانت سيسي قد تزوجت ثلاثة رجال، وكان لها عـشرة شـواهد لأضرحـة صغيرة في بقعة صغيرة داخل مقبرة سانت جون في منطقة تلال السرو وقد كتـب على كل ضريح تاريخ الوفاة وهو نفسه تاريخ الولادة. سيـسي اليـوم في الخامـسة والثلاثين من العمر وقد استبد بها اليأس لأن يكون لـديها أطفـال ولكـم تحـدث جوني وكاتي حول هذا الموضوع وأبـديا تخـوفهما مـن أن تقـوم سيـسي ذات يـوم بخطف طفل.

أرادت سيسي أن تتبنى طفلاً ولكن زوجها الأخير لم يكن يرغب في سـماع ذلك وكان يقول:

- أنا لا أريد أن أعيل ولداً غير شرعـي لأي رجـل آخـر... هكـذا كانـت طريقته في طرح الموضوع.

ولكن سيسي كان تجيبه بتملق:

- ولكن ألا ترغب بأن يكون لديك أطفال يا حبيبي.

- بالطبع أرغب بذلك ولكن يجب أن يكونوا أطفالي وليس أطفال غبي آخر.. كان يجيبها دون أن يدرك أنه بهذا الجواب يهين نفسه عن غير قصد.

في معظم الأمور كان جون عجينة طرية بيد سيسي ولكنه في هذا الأمر كان يرفض أن يذعن لها. فإذا كان لا بد من طفل فإنه لن يكون طفل رجل آخر. كان يصر على هذا الموقف وكانت سيسي تعلم أنه جاد في ذلك لدرجة أنها كانت تحترم موقفه ولكن رغبتها في الحصول على طفل كانت أشد.

بالصدفة، سمعت سيسي عن فتاة جميلة تعيش في ماسبث، عمرها ستة عشر عاماً، كانت قد وقعت في ورطة مع أحد الرجال المتزوجين وانتهى بها الأمر إلى أن تحمل وقد أصبحت اليوم على وشك أن تلد طفلاً. كان أهلها قد جاؤوا حديثاً من صقلية وأغلقوا عليها في غرفة مظلمة حتى لا يرى الجيران عارها المتضخم. وكان والدها يطعمها الخبز والماء فقط لاعتقاده بأن هذا من شأنه أن يضعف الجنين فيموت حين ولادته. ولم يكن يترك بيد والدتها الحنون أية نقود حتى لا تشفق عليها وتطعمها خلال غيابه في العمل. كان يحضر لها كيساً من مشتريات البقالة لدى عودته من العمل ويحرص أن لا يتم تمرير شيء من هذا الكيس إلى الفتاة. وبعد أن تأكل العائلة، يمرر إلى الفتاة حصتها وهي عبارة عن نصف رغيف من الخبز وإبريق ماء.

أصيبت سيسي بالصدمة لدى سماعها تلك القصة وتألمت لهذه المعاملة الوحشية والتجويع لفتاة مسكينة وقعت في الخطأ. راحت تفكر في خطة مبنية على أساس أن أهل الفتاة سيكونون راغبين بل ومسرورين إذا تخلصوا من الطفل بأن يعطوه لأحد ساعة مولده. وهكذا قررت أن تتعرف على هؤلاء الأهل وإذا وجدتهم أشخاص أصحاء وعاديين فإنها لن تتردد في أن تعرض عليهم أن تتبنى الطفل.

رفضت الأم أن تدخلها إلى المنزل عندما اتصلت بها سيسي، ولكن سيسي عادت في اليوم التالي وقد وضعت على ثوبها شارة. قرعت الباب ولما فتحت الأم

الباب جزئياً، أشارت سيسي بصرامة إلى الشارة وطلبت من الأم أن تدخلها. أصيبت الأم بالرعب لظنها أن سيسي تابعة لدائرة الهجرة فأدخلتها فوراً. لم تكن الأم لتستطيع قراءة ما هو مكتوب على الشارة التي تحمل الكلمات التالية «مفتشة دواجن».

من هنا أمسكت سيسي بزمام الأمر. كانت الفتاة التي ستصبح أماً مرتعبة ولكن متحدية في موقفها، كذلك كانت نحيلة جداً نتيجة التجويع الذي لحق بها. هددت سيسي والدة الفتاة بالاعتقال إذا لم تحسن معاملة الفتاة ولكن الأم وبلهجة إنكليزية مكسرة ودموع لم تتوقف أخبرت سيسي عن العار الذي لحق بالعائلة وعن خطة الأب في تجويع الفتاة وبالتالي قتل الجنين. تحدثت سيسي مطولاً مع الأم ومع الابنة لوسيا. كان الأمر في معظمه مسرحية استطاعت سيسي في نهايتها إفهامهما أنها عازمة على أخذ الطفل من العائلة لحظة ولادته. وعندما فهمت الأم الموضوع في نهاية الأمر غمرت يد سيسي بالقبلات ومنذ ذلك اليوم أصبحت سيسي صديقة العائلة لا بل معبودتها.

بعد أن غادر زوجها للعمل في الصباح، قامت سيسي بتنظيف الشقة وطبخت وجبة للوسيا ثم أخذتها لبيت العائلة الإيطالية. أطعمت لوسيا وجبة مؤلفة من خليط أطعمة ألمانية وإيرلندية. كان لديها نظرية تقول إن الجنين إذا استطاع أن يأكل من هذا الطعام فإنه سيولد بصفات أقل إيطالية.

اعتنت سيسي جيداً بلوسيا وفي الأيام التي كان الجو فيها لطيفاً، كانت تأخذها إلى المتنزه وتجلسها لتتمتع بالشمس. خلال تلك الفترة من العلاقة غير العادية، كانت سيسي صديقة حميمة ورفيقة ممتعة للفتاة. وقد أحبتها الفتاة كثيراً لأنها شعرت أنها الوحيدة في هذا العالم الجديد التي عاملتها بحنان ولطف. أحبت العائلة كلها سيسي (بالطبع ما عدا الأب الذي لم يكن يعلم حتى عن وجودها) وقد رضيت الأم وباقي الأولاد أن يدخلوا في تلك المؤامرة بسعادة ودون علم أبيهم. وكانوا يعيدون حبس لوسيا في الغرفة المظلمة كلما سمعوا خطوات الأب على درج البيت.

لم تكن العائلة على دراية كبيرة باللغة الإنكليزية ولم تكن سيسي كذلك تفهم أو تتكلم الإيطالية، ولكن مع مرور الأشهر تعلمت العائلة منها بعض الإنكليزية كما تعلمت هي منهم بعض الإيطالية وأصبح بإمكانهم التفاهم مع بعضهم البعض. لم تذكر سيسي اسمها لهم أبداً وكانوا هم يسمونها نجمة الحرية تيمناً بتلك السيدة التي تحمل مشعلاً والتي كانت أول تمثال يشاهدونه لدى نزولهم إلى بر أميركا.

اعتنت سيسي بلوسيا وبالعائلة وبالجنين الذي لم يولد بعد. وعندما تم الاتفاق على كل شيء، أعلنت سيسي الخبر لعائلتها وأصدقائها ولكن أحداً لم يأبه لهذا الخبر فقد اعتادوا على سيسي وقصصها عن إنجاب الأطفال.

عثرت سيسي على قابلة مغمورة ودفعت لها مقدماً من أجل أن تقوم بتوليد الفتاة. كما أعطتها ورقة كانت قد طلبت من كاتي أن تكتب عليها اسمها واسم زوجها واسم سيسي قبل الزواج. أخبرت سيسي القابلة أن عليها تسليم تلك الورقة للهيئة الصحية مباشرة بعد الولادة. وقد افترضت القابلة المسكينة التي لا تتحدث اللغة الإيطالية ولا تفهمها (حرصت سيسي على تلك النقطة تماماً قبل أن تستأجرها) أن الأسماء التي سلِّمت لها هي أسماء الأم والأب. لقد أرادت سيسي من ذلك أن تكون شهادة الولادة منظمة ومعتمدة.

كانت سيسي تتصرف وكأن أمر ولادتها بالنيابة أمر واقعي. راحت تقلِّد مرض الصباح الذي يصيب الحوامل في الأسابيع الأولى وعندما أخبرتها لوسيا أنها بدأت تشعر بحركة الطفل الحي أخبرت سيسي زوجها بدورها أنها تشعر ذلك. في عصر اليوم الذي بدأت فيه لوسيا تعاني آلام المخاض عادت سيسي إلى المنزل والتزمت الفراش. عندما عاد زوجها من عمله أخبرته أن الطفل على وشك أن يولد. نظر إليها زوجها متأملاً: كانت أنيقة مثل راقصة باليه. حاول أن يناقشها في الأمر ولكنها واجهته بإصرار شديد فما كان منه إلا أن ذهب وأحضر أمها. نظرت ماري روميلي إلى ابنتها وقالت لها إن من المستحيل أن يكون في بطنها

جنين ولكن سيسي أطلقت صيحة دموية وقالت إن الألم يكاد يقتلها. نظرت إليها ماري بإمعان. لم تستطع معرفة ما يدور في رأس سيسي، ولكنها كانت تعرف أن الجدال معها لا يجدي نفعاً. فإذا قالت سيسي إنها ستلد طفلاً فإنها ستحصل على طفل.. هذا كل ما في الأمر.

احتج زوجها قائلاً:

– ولكن انظري إليها كم هي نحيلة.. لا يوجد طفل أبداً في داخلها ألا ترين.

– ربما سيخرج الطفل من رأسها. إنه كبير بما يكفي كما ترى.. قالت ماري روميلي.

– آه.. إن رأسها لا يأتي بمثل هذه الأشياء.

هنا تدخلت سيسي متسائلة: من أنت لتقول هذا.. ألم تلد السيدة العذراء بدون رجل. إذا كان باستطاعتها أن تفعل ذلك فإني أستطيع ذلك بطريقة أسهل أيضاً كوني متزوجة ولدي رجل.

– من يدري؟ سألت ماري ثم التفتت إلى الزوج المحرج وقالت له بلطف: «هناك أمور كثيرة لا يفهمها الرجال». نظر إليها الرجل وقد بدا فكره مشوشاً وفي غاية الاضطراب، ولكنها حثته على أن ينسى الأمر كله وأن يتناول عشاءً جيداً. سوف تقوم هي بطبخه له ومن ثم يذهب إلى سريره وينام جيداً.

استلقى الرجل إلى جانب زوجته طوال الليل وقد غلبته الحيرة على أمره. لم يستطع النوم بينما هو يستيقظ من حين لآخر ويتكىء على مرفقه ويحدق بها أو يمرر يديه فوق معدتها المنبسطة. أما سيسي فقد نامت ملء عينيها طوال الليل.

عندما غادر للعمل في صباح اليوم التالي، أبلغته سيسي أنه سيكون أباً عند عودته في المساء.

– أنا أستسلم، صاح الرجل المعذب وذهب إلى عمله في مكتب المجلات الرخيصة.

هرعت سيسي إلى منزل لوسيا. كان الجنين قد برز إلى الحياة بعد ساعة من ذهاب الأب. كانت طفلة جميلة، شعرت سيسي بسعادة غامرة وطلبت من لوسيا أن ترضع الطفلة لعشرة أيام وبعد ذلك ستأخذها هي إلى البيت. غادرت سيسي منزل العائلة وابتاعت دجاجة مشوية وفطيرة خبز ثم عادت وأعطتها إلى الأم لتطبخ الدجاجة على الطريقة الإيطالية. بعد ذلك أحضرت زجاجة نبيذ إيطالي من بقال إيطالي مجاور وتناول الجميع عشاءً فاخراً كان بمثابة احتفال بقدوم الطفلة. كان الجميع سعداء وعادت معدة لوسيا منبسطة كالسابق ولم يعد هناك أي أثر للعار. عاد كل شيء إلى طبيعته أو أنه سيعود عندما تأخذ سيسي الطفلة.

ظلت سيسي تغسل الطفلة كل ساعة. غيرت لها ثيابها وعصابة رأسها ثلاث مرات في اليوم. أما الحفاضات فكانت تغيرها كل خمس دقائق سواء كانت الطفلة بحاجة لذلك أم لا. كذلك غسلن لوسيا وأبقتها نظيفة جميلة ثم مشطت شعرها حتى أصبح يلمع كالساتان، ولكنها لم تكمل عملها تماماً فقد كان عليها أن تغادر المنزل قبل عودة الأب.

عاد الأب وذهب إلى الغرفة المظلمة ليعطي لوسيا وجبتها من الطعام الزهيد، ولكنه عندما أضاء المصباح وجد أمامه لوسيا مشرقة متألقة وطفلة سمينة سليمة تنام إلى جانبها. عقدت الدهشة لسانه. كل هذا نتيجة الخبز والماء. دبّ الرعب في قلبه. بدا الأمر وكأنه معجزة، لا بد أن السيدة العذراء تدخلت لتحمي الأم الشابة فلطالما صنعت عجائب مثل هذه في إيطاليا. لعلها ستعاقبه لأنه عامل شخصاً من لحمه ودمه بهذه القسوة. قام على الفور وقد انسحق فؤاده بإحضار طبق من السباغيتي طافح حتى رمّته وقدَّمه لها. ولكن لوسيا رفضت قائلة إنها اعتادت على الخبز والماء ووقفت الأم مع لوسيا مؤكدة أن الخبز والماء قد أنتجا طفلاً سليماً. اختمرت الفكرة تماماً في رأس الأب بأن الأمر كله حدث بفضل معجزة. حاول جاهداً أن يكون لطيفاً مع لوسيا ولكن العائلة كلها تصدت لمعاقبته ولم يسمح أحد منهم له أن يتصرف بلطف مع ابنته.

كانت سيسي مستلقية بسلام على سريرها عندما دخل زوجها إلى المنـزل في المساء وسألها مازحاً.

– هل ولدت طفلاً اليوم؟

– نعم أجابته بصوت ضعيف.

– آه تابعي حديثك؟

– لقد ولد بعد ساعة من مغادرتك المنزل في الصباح.

– لم يحدث ذلك.

– بل حدث وأقسم على ذلك.

التفت حول الغرفة ثم سألها: وأين هو إذن؟

– إنه في الخداج بمستشفى جزيرة كوني.

– أين؟..

– لقد ولد سباعياً كما تعلم وكان يزن ثلاثة باوندات فقـط لـذلك لم يظهـر عليّ الحبل.

– إنك تكذبين.

– حالما أستعيد عافيتي سآخذك إلى جزيرة كوني وأريك إيـاه في الـصندوق الزجاجي.

– ما الذي تحاولين أن تفعليه؟.. هل تريدين دفعي إلى الجنون؟

– سوف أحضره إلى المنزل في غـضون عـشرة أيـام، حالمـا تنبـت أظـافره. خطرت لها هذه الفكرة في اللحظة وللتو.

– ماذا حدث لك يا سيسي؟ إنك تعلمين جيداً أنك لم تنجبـي طفـلاً هـذا الصباح.

– لقد أنجبت طفلاً وزنه ثلاثة باوندات وقد وضعوه في الخداج لكي لا يموت وسوف أسترده منهم خلال عشرة أيام.

– أنا أستسلم.. أنا أستسلم.

خرج من المنزل وذهب إلى البار ليشرب حتى الثمالة.

بعد عشرة أيام من ذلك التاريخ، أحضرت سيسي الطفلة إلى المنزل. كان وزنها 11 باوند. وقف زوجها ليدافع عن موقفه للمرة الأخيرة.

– إنها تبدو سمينة جداً لطفلة عمرها عشرة أيام.

– إنك رجل ضخم أيضاً يا حبيبي.. همست له بدلع خفيف. ورأت بوضوح علامة الرضا تظهر على وجهه. أحاطته بذراعها وهمست في أذنه.. «أنا بخير الآن» إذا أردت أن تنام معي.

– أتعرفين .. إنها تشبهني قليلاً.

– وخاصة حول الأذنين همست سيسي بدلع شديد.

عادت العائلة الإيطالية إلى إيطاليا بعد أشهر قليلة. كانوا سعداء لمغادرة هذا العالم الجديد الذي لم يأت لهم إلا بالأسى والفقر والعار ولم تسمع سيسي عنهم مرة أخرى.

كان الجميع على علم بأن الطفلة ليست طفلة سيسي ولا يمكن أن تكون ولكنها التزمت بالقصة وبقيت تصر عليها. ولما لم يجد أحد تفسيراً غير ذلك فقد قبل الجميع بها. هناك أمور غريبة كثيرة تحدث في هذا العالم ولعل هذا الأمر أحدها. أطلقت سيسي على الطفلة اسم سارة وعمّدتها ولكن الجميع صاروا ينادونها مع مرور الوقت «سيسي الصغيرة».

كانت كاتي الوحيدة التي أخبرتها سيسي بحقيقة الطفلة. فقد وثقت بها عندما طلبت منها أن تكتب الأسماء على شهادة الميلاد. آه ولكن فرانسي كانت

تعلم أيضاً، فكم من مرة استيقظت في الليل على أصوات كاتي وسيسي وهما تتحدثان بالأمر في المطبخ. صحيح أنها عرفت السر ولكن فرانسي كانت تقسم دائماً أن تحفظ سر خالتها سيسي.

كان جوني هو الشخص الوحيد (خارج العائلة الإيطالية) الذي علم بالأمر. فقد أخبرته كاتي ولطالما تحدثا بالأمر عندما كانا يظنان أن فرانسي قد أخلدت للنوم. ولكن جوني وقف مدافعاً عن موقف زوج سيسي.

- إنها لعبة قذرة تلعبها امرأة على رجل .. أي رجل. على أحد أن يخبره. سوف أخبره أنا.

- كلا. قالت كاتي بحزم. إنه رجل سعيد فاتركه بحاله.

- سعيد؟ ومعه طفلة رجل آخر فُرضت عليه.. أنا لا أرى ذلك.

- إنه مجنون بحب سيسي ويخشى دائماً أن تتركه. أظنه سيموت إذا تركته وأنت تعرف سيسي.. لقد تنقلت من رجل إلى آخر ومن زوج إلى آخر وظلت تحاول أن تنجب طفلاً وكانت على وشك أن تترك هذا الأخير لولا أن جاءت الظروف لها بهذا الطفل. سوف تصبح سيسي امرأة أخرى من الآن فصاعداً. تذكر كلماتي جيداً.. سوف تستقر سيسي وتهدأ أخيراً وستصبح زوجة أفضل مما يستحق. ومن هو جون هذا على أي حال... قالت وكأنها تقاطع حديثها.. سوف تصبح أماً رائعة وستكون هذه الطفلة عالمها. لن تحتاج للبحث عن رجال آخرين.. لذلك لا تعبث بهذا الموضوع يا جوني.

- أنتن بنات روميلي تملكن عمقاً أكثر منا نحن الرجال.. قال جوني وكأنه يقرر شيئاً ولكن فكرة خطرت له فجأة فسألها:

- إنك لم تفعلي هذا بي.. أليس كذلك؟

دون أن تجيبه، أيقظت كاتي طفليها من النوم وجعلتهما يقفان أمامه في ثياب النوم البيضاء وقالت بحزم:

- انظر إليهما.

نظر جوني إلى ابنه.. كان كمن ينظر في مرآة ولكن بحجم أصغر. نظر إلى فرانسي. كان لها وجه كاتي وملامحها ولكن أكثر وقاراً، ما عدا عينيها فقد كانتا تماماً مثل عيني جوني. فجأة، التقطت فرانسي طبقاً ووضعته جهة قلبها بالطريقة نفسها التي كان جوني يفعلها حين يغني ثم غنت إحدى أغانيه:

يسمونها سالي الطائشة

لأنها نوع خاص من الأشخاص

كانت لها نفس تعابير جوني وإيماءاته.

- «أنا أعلم أنا أعلم»... همس جوني ثم قبّل طفليه وربت على مؤخرة كل منهما وطلب منهما الذهاب إلى النوم. بعد مغادرة الطفلين، سحبت كاتي رأس جوني باتجاهها وهمست له بشيء ولكنه انتفض وكأنه تفاجأ بشيء وقال:

- كلا.. قالها بصوت.

- نعم يا جوني، أجابته بهدوء.. ارتدى قبعته وهمّ بالخروج.

- إلى أين أنت ذاهب يا جوني.

- أنا خارج.

- جوني أرجوك لا تعد إلى البيت.. نظرت باتجاه باب غرفة النوم.

- كلا يا كاتي لن أعود أنا أعدك.. قبّلها بلطف وانطلق خارجاً.

استيقظت فرانسي في منتصف الليل وهي تتساءل ما الذي أيقظها من نومها. آه أبي لم يعد إلى البيت بعد.. هذا هو ما أيقظها.. لم تكن لتنام جيداً حتى تعلم أنه عاد إلى البيت. أخذت تفكر بعد أن تملكت منها اليقظة.. فكرت بطفلة سيسي وبالولادة وبالموت.. لم تكن تريد أن تفكر بالموت. وكيف أن كل مولود سوف يموت. فيما هي تصارع أفكارها حول الموت سمعت صوت أبيها وهو

يصعد الدرج ويغني بنعومة. سرت فيها رعشة عندما أدركت أنه يغني المقطع الأخير من أغنية «مولي مالوني».. لم يكن ليغني هذا المقطع أبداً.. لماذا؟

لقد ماتت من الحمى

ولم يستطع إنقاذها أحد

وهكذا خسرتها

مولي مالوني الحلوة

لم تتحرك فرانسي قيد أنملة. فقد كانت القاعدة أن تفتح أمها الباب عندما يأتي الأب لأنها لا تريد أن توقظ الطفلين من نومهما. كانت الأغنية على وشك أن تنتهي ولكن أمها لم تسمعها.. ولم تستيقظ. نهضت فرانسي من فراشها مسرعة. كانت الأغنية قد انتهت قبل أن تصل إلى الباب لتفتحه.. عندما فتحته كان أبوها واقفاً بهدوء وقبعته بيده. كان ينظر مباشرة إليها ولكن فوق رأسها.

- لقد ربحت يا أبي. قالت له.

- هل ربحت؟.. سألها وهو يدخل الغرفة دون أن ينظر إليها.

- لقد أنهيت الأغنية.

- نعم لقد أنهيتها على ما أظن.. جلس على المقعد المقابل للنافذة.

- أبي..

- أطفئي المصباح وعودي إلى النوم (كان المصباح مضاءً بانتظار عودته).

أطفأت المصباح وسألته بتردد:

- أبي هل أنت مريض؟

- كلا أنا لست سكراناً، قالها بوضوح وسط الظلام. علمت فرانسي أنه يقول الحقيقة ولكنها عندما عادت إلى فراشها دفنت رأسها تحت الوسادة، ودون أن تعرف السبب أجهشت بالبكاء.

35

مرة أخرى، عاد الأسبوع الذي يسبق عيد الميلاد، وكانت فرانسي قد احتفلت للتو بعيد ميلادها الرابع عشر. أما نيلي فكان ينتظر أن يصبح في الثالثة عشر من العمر في أقرب فرصة. هذه المرة لم يبدُ عيد الميلاد وكأنه سيمر بخير. كان هناك أمر غريب بشأن جوني، فقد توقف عن شرب الخمر. عادة ما كان جوني يتوقف عن الشرب عندما كان يعمل ولكنه اليوم لا يعمل ولا يشرب والغرابة لا تكمن في أنه لم يعد يشرب ولكن في أنه يتصرف وكأنه شارب.

لم يكن قد تكلم مع أحد من عائلته منذ أسبوعين. تستذكر فرانسي أن آخر مرة تحدث إليها والدها كانت عندما عاد في تلك الليلة رزيناً هادئاً يغني ذلك المقطع الأخير من أغنية «مولي مالوني». وفي الحقيقة أنه لم يغنِ أبداً منذ تلك الليلة. كان يدخل ويخرج دون أن يتكلم. كان يبقى في الخارج حتى ساعات متأخرة من الليل ولكنه كان يعود رزيناً هادئاً دون أن يعرف أحد أين كان يقضي وقته. كانت يداه ترتجفان بشدة وبالكاد كان يستطيع حمل الشوكة حين يأكل. فجأة أصبح يبدو وكأنه عجوز قد تقدم به العمر.

بالأمس نظر إليهم وهو يتناول عشاءه وكأنه يريد أن يقول شيئاً. ولكنه بدلاً من الحديث أغمض عينيه لبرهة وذهب إلى غرفة النوم. لم تعد له ساعات

منتظمة لعمل أي شيء. كان يأتي ويذهب في ساعات غريبة من الليل والنهار. وعندما يكون في البيت يقضي وقته مستلقياً على سريره مرتدياً كامل ثيابه وعيناه مغلقتان.

كانت كاتي تمضي الوقت شاحبة وهادئة ولكن نذيراً بالشر أو بمأساة ستقع كان يحوم بداخلها. أصبح وجهها نحيلاً وبرزت أسفل وجنتيها فراغات كثيرة رغم أن جسمها أصبح أكثر امتلاءً.

في ذلك الأسبوع الذي سبق عيد الميلاد، عثرت كاتي على وظيفة إضافية. لذلك كانت تستيقظ في وقت أبكر وتنهي عملها في تنظيف الشقق بوقت أسرع حتى تستطيع أن تسرع بعد الظهر في الوصول إلى متجر غولرنغ الواقع في نهاية الحي البولندي لشارع جراند حيث تعمل من الساعة الرابعة حتى السابعة في تقديم القهوة والساندويشات للبائعات اللواتي لم يكن يسمح لهن بالذهاب لتناول العشاء نتيجة الازدحام الذي يحصل في عيد الميلاد. كانت العائلة بحاجة ماسة إلى تلك السنتات الخمسة والسبعين التي تحصل عليها كل يوم من عملها في المتجر.

كانت الساعة تقارب السابعة عندما عاد نيلي من عمله في توزيع الصحف وعادت فرانسي من المكتبة. لم تكن النار مشتعلة في الموقد مما اضطرهما إلى انتظار عودة الأم ومعها بعض النقود لشراء حزمة حطب. كان الاثنان يرتديان معطفيهما وقبعتيهما بسبب البرد في المنزل. قامت فرانسي بإدخال الغسيل المعلق على الحبل في الخارج. كانت الثياب قد تجمدت مكونة أشكالاً غريبة يصعب إدخالها من النافذة.

– دعيني أتدبر الأمر، قال نيلي مشيراً إلى قطعة ثياب داخلية متجمدة. كانت رجلا البنطلون قد تجمدتا منفرجتين في اتجاهين معاكسين، وكم حاول نيلي جاهداً أن يعيدهما إلى وضع يسهل إدخال البنطلون من النافذة ولكن دون جدوى.

– سوف أكسر هاتين الرجلتين اللعينتين. قالت فرانسي وهي تصارع لكسرهما ثم شدتهما إلى الداخل. كانت تبدو مثل أمها كاتي في ذلك الموقف.

– فرانسي.

– نعم.

– لقد لعنتِ

– أعلم ذلك.

– إن الله سمعك.

– آه لا بأس.

– نعم لقد فعل ذلك، إنه يرى ويسمع كل شيء.

– نيلي، هل تؤمن أنه ينظر مباشرة إلى ما يحدث داخل هذه الغرفة.

– أنا أراهنك على ذلك.

– لا تصدق ذلك إنه مشغول بما فيه الكفاية بمراقبة وقوع عصافير الدوري ويهتم ببرعمين صغيرين يتحولان إلى ورود ولن يجد الوقت الكافي ليتحقق من أمرنا.

– لا تقولي هذا الكلام يا فرانسي.

– بل سأقوله. إذا أراد أن يتطلع عبر نوافذ المساكن كما تقول فسيرى كيف هي الأمور هنا.. سيرى أن البيت بارد ولا يوجد فيه طعام وسيرى أن أمي ليست قوية بما فيه الكفاية لكي تعمل بهذا الشكل، وسيرى حالة أبي ويعمل شيئاً من أجله نعم..

فرانسي.. لم يقل نيلي شيئاً ولكنه كان يتلفت حوله منزعجاً، وقد شعرت فرانسي أنه غير مرتاح وفكرت لنفسها: لقد كبر في السن ولم أعد أستطيع مضايقته ثم قالت:

- حسناً يا نيلي كما تشاء.

راح الاثنان يتحدثان في مواضيع أخرى بانتظار عودة أمهما.

عادت كاتي مسرعة إلى المنزل وهي تحمل في يدها رزمة من الحطب اشترتها بثمن بخس، إضافة إلى علبة من الحليب المكثف وثلاث حبات موز. قامت فوراً بإشعال النار في الموقد بعد أن ملأته بأوراق الصحف وقطع الحطب.

- حسناً أيها الأطفال.. أظن أن عشاءنا الليلة سيكون دقيق الشوفان.

- مرة أخرى.. قالت فرانسي وهي تتأوه.

- لن تكون سيئة هذه المرة لأن لدينا حليباً مكثفاً سنضيفه إلى الدقيق.

- لماذا لا تقطعين حبات الموز إلى شرائح وتطحنينها مع الدقيق. اقترحت فرانسي.

- كلا أنا أريد أن آكل موزتي كما هي.. قال نيلي محتجاً.

أنهت كاتي الجدال بأن قالت لهما:

- سأعطي لكل واحد منكما موزته ليأكلها كما يشاء.

عندما انتهت من طبخ دقيق الشوفان، ملأت كاتي طبقين من الحساء ووضعتهما على المائدة ثم فتحت ثقبين في علبة الحليب ووضعت العلبة إلى جانب الطبقين.

- ألا تريدين أن تأكلي يا أماه.. سأل نيلي.

- سآكل فيما بعد، لست جائعة الآن.. أجابت كاتي وهي تتنهد.

- يا أمي، إذا كنت لا تشعرين بميل للأكل الآن، لماذا لا تعزفين شيئاً على البيانو لكي نشعر أننا في مطعم. قالت فرانسي.

- إن الغرفة الأمامية باردة.

- أشعلي موقد الزيت. صاح الطفلان.

- حسناً.. حسناً.

حملت كاتي معها موقد الزيت بعد أن تناولته من الخزانة ثم قالت:

- أنتما تعلمان أنني لا أعزف جيداً.

- إن عزفك رائع يا أماه وأنا أقول هذا بكل صدق.. ردت فرانسي. شعرت كاتي بالسرور ثم انحنت لتشعل موقد الزيت وسألتهما.

- ماذا تريداني أن أعزف؟

- اعزفي.. تعالي أيتها الأوراق الصغيرة. قالت فرانسي.

- كلا اعزفي مرحباً بالربيع الجميل. صاح نيلي.

- سوف أعزف «الأوراق الصغيرة» في البداية لأني لم أهدِ فرانسي شيئا في عيد ميلادها..

ذهبت كاتي إلى غرفة المدخل الأمامية الباردة.

- أظن أنني سأقطِّع موزتي شرائح فوق الحساء. سوف أشرِّحها لتكون رفيعة وهكذا أشعر أنها كثيرة. قالت فرانسي.

- أما أنا فسآكل قطعتي كما هي وببطء حتى أشعر بها لوقت أطول.

بدأت كاتي العزف. كان السيد مورتون هو من علّم الأطفال هذه المعزوفة. كانت هذه أغنية فرانسي المفضلة لذلك انسجمت معها وأخذت تغني:

تعالي أيتها الصغيرة مع الريح يوماً ما

تعالي إلى المروج والعبي معي

وضعي عليك ثوبك الأحمر وثوبك الذهبي.

– آه إنها أغنية للأطفال.. قال نيلي مقاطعاً. توقفت فرانسي عن الغناء وعندما انتهت كاتي من عزف المقطوعة بدأت تعزف قطعة روبنشتاين «ميلودي إن إف» وكان السيد مورتون قد علّمها للأطفال أيضاً تحت اسم «مرحباً أيها الربيع الجميل». هنا بدأ نيلي يغني:

مرحباً أيها الربيع الجميل نرحب بك بأغنية.

فجأة انخفض صوت نيلي من صوت صادح إلى صوت خفيض. ضحكت فرانسي وبعد حين لم يعد نيلي يستطيع أن يتابع الغناء فقد أخذ يضحك أيضاً.

– أنت تعلم ماذا كانت ستقول ماما لو أنها كانت جالسة هنا.. قالت فرانسي.

– ماذا؟

– ستقول: .. سيكون الربيع هنا قبل أن تعرفوا ذلك.. ضحك الاثنان.

– إن عيد الميلاد قريب، علّق نيلي.

– أتذكر عندما كنا أطفالاً، قالت فرانسي التي كانت قد أنهت عامها الثالث عشر من العمر.. أتذكر كيف كنا نشتم رائحة عيد الميلاد.

– لنرَ إذا كنا ما زلنا نستطيع أن نشم رائحته.. قال نيلي باندفاع ثم فتح النافذة ومدّ أنفه إلى الخارج.

– كيف هي رائحته؟ قالت فرانسي.

– أنا أشم الثلج. أتذكرين عندما كنا أطفالاً كيف كنا ننظر إلى السماء ونصيح: أيها الولد الذي تلبس الريش، انفض بعض ريشك من السماء.. ثم تابع نيلي: وعندما كان الثلج ينهمر كنا نظن أن طفل الريش يقف هناك في الأعلى..

– دعني أشم.. قالت فرانسي فجأة ثم مدت أنفها من فتحة النافذة وقالت: نعم أنا أستطيع أن أشمه.. إن له رائحة كقشر البرتقال وأشجار عيد الميلاد مجتمعة.

أغلق الاثنان النافذة، فقد كان البرد شديداً.

– أنا لم أخبر أحداً عما حدث عندما استلمت تلك اللعبة بعد أن ادّعيت أن اسمك ماري.

– كلا، قالت فرانسي بامتنان ثم أردفت: وأنا لم أخبر أحداً أيضاً عنك عندما صنعت سيجارة من بقايا تفل القهوة ودخنتها ثم وقعت على قميصك محترقة وتركت فيه ثقباً كبيراً، أتذكر كيف ساعدتك على إخفاء الأمر.

– أتعلمين يا فرانسي.. قال نيلي.. «لقد عثرت أمي على ذلك القميص وقطّبته مكان الثقب ولكنها لم تسألني عنه أبداً».

– إن أمي عجيبة، ردت فرانسي ثم راح الاثنان يتندران حول طرق أمهما الغامضة. كانت النار قد بدأت تخمد في الموقد ولكن غرفة المطبخ كانت ما تزال دافئة. جلس نيلي على طرف الموقد الأقل حرارة ولكم حذرته أمه من الجلوس على الموقد الساخن، ولكنه لم يأبه لكلامها. كان يحب أن يظل ظهره حامياً.

كان الطفلان في غاية السعادة، فقد أكلا حتى شبعا، وكان المطبخ دافئاً وأمهما تعزف لهما.. شعرا بالأمان والراحة وراحا يستذكران أعياد الميلاد السابقة أو كما كانت فرانسي تقول: «الأيام القديمة».

فيما هما يتحدثان، قرع أحدهم الباب «إنه أبي» قالت فرانسي.

– كلا إن أبي يغني دائماً عندما يصعد الدرج حتى نعرف أنه هو. قال نيلي.

– يا نيلي إن أبي لم يعد يغني منذ تلك الليلة.

عاد القرع على الباب وسمع الأطفال صوت جوني يصيح: أدخلوني.. كان يقرع الباب وكأنه يريد تحطيمه. هرعت كاتي من غرفة المدخل. كانت عيناها تبدوان داكنتين وسط وجهها الأبيض. فتحت الباب ودلف جوني مسرعاً. نظر الجميع إليه مشدوهين. كانت ثيابه قذرة وقبعته مسحوقة وكأنه كان ينام في

مزراب مياه. لم يكن يرتدي أي معطف أو قفازات كعادته. كانت يداه حمراوين ترتجفان. اندفع إلى المائدة وجلس وهو يقول:

- كلا أنا لست ثملاً.

- لا أحد يقول.. بدأت كاتي بالحديث ولكنه قاطعها قائلاً وهو يضرب بيده على الطاولة.

- أخيراً انتهيت منها.. أنا أكرهها.. أكرهها.. أكرهها...

كانوا يعلمون أنه يقول الحقيقة..

تابع جوني.. أنا لم ألمس منها نقطة واحدة منذ تلك الليلة.. انفجر صائحاً.. ولكن لا أحد يريد أن يصدقني.. لا أحد..

- خذ يا جوني. قالت كاتي هي تحاول تهدئته.

- ما الأمر يا أبي؟ سألت فرانسي.

- شش لا تزعجي أباك، قالت كاتي ثم وجهت حديثها إلى جوني:

هناك بعض القهوة، تركتها لك منذ الصباح. إنها لذيذة وساخنة كما أن لدينا بعض الحليب الليلة.. كنت أنتظر عودتك حتى نتعشى معاً.. صبّت كاتي القهوة وقال نيلي:

- لقد أكلنا نحن للتو.

- شش.. قالت كاتي وهي تصب الحليب في القهوة وتجلس مقابل جوني.. اشرب يا جوني. إنها ساخنة.

حدّق جوني في فنجان القهوة ثم دفعه بعيداً عنه قبل أن يسقط على الأرض. شهقت كاتي وهي تنظر إليه وقد دفن رأسه في وجهه وراح يبكي ويتشنج.

- ما الأمر يا جوني.. ما الأمر سألته وهي تحاول تهدئته.. وأخيراً تكلم:

– لقد قذفوا بي خارج مبنى نقابة النادلين اليوم.. قالوا إنني غبي سكير وإنهم لن يعطوا لي أي عمل ما حييت. حاول أن يضبط تشنجاته للحظة ثم أردف بصوت ملؤه الرعب.. ما حييت.. وعاد يبكي ويجهش بمرارة.. «يريدون أن أسلمهم زر النقابة». وضع يده على الزر الأبيض والأخضر في طية سترته. شعرت فرانسي بضيق في حنجرتها وهي تستذكر كيف كان يضع الزر دائماً ويعتبره زينة أو وردة في صدره. كان فخوراً لكونه في النقابة.. تابع جوني يقول: «ولكنني لن أستسلم لهم».

– إن هذا لا شيء يا جوني.. خذ بعض الراحة وسوف تنهض على قدميك وسيكونون سعداء حين تعود لهم.. إنك نادل جيد وأفضل مغن لديهم.

– لم أعد كذلك.. لم أعد أستطيع الغناء يا كاتي.. إنهم يهزؤون بي الآن حين أغني.. لقد تركوني أعمل لديهم في الوظائف الأخيرة لكي يثيروا ضحك الموجودين.. لقد وصل الأمر إلى هنا.. لقد انتهيت.

بكى جوني كأنه لا يريد أن يتوقف عن البكاء.

أرادت فرانسي أن تهرع إلى غرفة نومها وتدفن رأسها تحت الوسادة. بدأت تتجه نحو الباب حين رأتها أمها وصاحت بحدة:

– ابقي هنا.. ثم عادت لتتحدث مع أبيها:

– تعال يا جوني.. استرح قليلاً وسوف تشعر أنك أفضل.. إن موقد الزيت مشتعل وسوف أضعه لك في غرفة النوم لتنعم بالدفء وسأبقى معك حتى تنام. وضعت ذراعيها حوله ثم رفعتها بلطف وصعدت إلى غرفة النوم وهي تبكي بصمت. نادت كاتي طفليها وقالت لهما:

– سوف أبقى مع بابا لفترة. تابعا أحاديثكما أو تابعا ما كنتما تفعلانه.

حدّق الأطفال بها بصمت:

– لماذا تنظران إليّ هكذا؟ انفجرت بالصوت.. لا شيء يهم.

أشاح الطفلان بنظرهما عنها فيما ذهبت هي لتحضر موقد الزيت. لم تنظر فرانسي ونيلي إلى بعضهما البعض لفترة من الوقت وأخيراً قال نيلي:

- هل تريدين أن تتحدثي عن أيام زمان.

- كلا، أجابت فرانسي.

36

توفي جوني بعد ثلاثة أيام.

ليلة وفاته ذهب لينام في فراشه وبقيت كاتي إلى جانبه حتى أغمض عينيه. ثم ذهبت لتنام إلى جانب فرانسي حتى لا تزعجه. استيقظ جوني في الليل وارتدى ثيابه وخرج ولم يعد في الليلة التالية. في اليوم التالي بدؤوا يبحثون عنه. بحثوا في كل الأماكن التي كان يرتادها ولكنه لم يكن هناك ولم يكن قد ارتادها منذ أسبوع.

في الليلة التالية، حضر الرقيب ماكشين ليأخذ كاتي إلى مستشفى كاثوليكي مجاور. وفي الطريق أبلغها بلطف عما حدث لجوني. أخبرها أنهم عثروا عليه في صباح تلك الليلة مكوَّماً في أحد المداخل. كان غائباً عن الوعي عندما عثر عليه أحد رجال الشرطة. كان يرتدي بذلة التوكسيدو فوق ثيابه الداخلية وعندما شاهد الشرطي ميدالية سانت أنتوني حول عنقه نقله في سيارة الإسعاف إلى مستشفى كاثوليكي. لم يكن معه ما يحدد هويته. لاحقاً كتب الشرطي تقريره في المركز ذاكراً فيه أوصاف الرجل الذي عثر عليه. وخلال قراءته للتقرير اطّلع ماكشين على أوصاف الرجل وأنبأته الحاسة السادسة أنه جوني فذهب إلى المستشفى وهناك كان جوني نولان على أحد الأسرَّة. كان ما زال حياً عندما

وصلت كاتي. وكان يعاني من التهاب رئوي حاد وقد أبلغها الطبيب أن لا فرصة أمامه للحياة، وأن مسألة موته مسألة ساعات لأنه قد دخل في الغيبوبة التي تسبق الموت. كان سرير جوني داخل ردهة تشبه ممراً طويلاً وتضم 50 سريراً آخر. شكرت كاتي ماكشين وودعته. غادر ماكشين وهو يشعر أنها تريد أن تبقى مع جوني وحدها.

كانت هناك شاشة تدل على وقوع الوفاة. جلست كاتي على كرسي وبقيت إلى جانبه طوال النهار. كان يتنفس بخشونة وقد بدت على وجنتيه آثار دموع جافة. لم يفتح عينيه أبداً ولم ينطق كلمة واحدة مع زوجته وقبل حلول الليل توفي جوني.

عادت كاتي إلى بيتها ليلاً ولم تشأ أن تخبر الطفلين حتى الصباح. قالت لنفسها: لأدعهما يتمتعان بنوم هانئ الليلة. أخبرتهما فقط أن أباهما في المستشفى وأنه مريض ولم تزد حرفاً واحداً على ذلك. كان في نظراتها شيء أحبط الطفلين ومنعهما من طرح الأسئلة مع طلوع الفجر، استيقظت فرانسي ونظرت عبر باب غرفة النوم الضيقة. رأت أمها جالسة بقرب سرير نيلي تتأمل في وجهه. كانت عيناها داكنتين وكأنها قضت الليل كله جالسة هناك. عندما شاهدت فرانسي أبلغتها أن تنهض وترتدي ثيابها فوراً ثم هزّت نيلي برفق كي توقظه وأخبرته الشيء نفس ثم ذهبت إلى المطبخ.

كانت غرفة النوم رمادية باردة حتى إن فرانسي وقفت ترتجف في ثيابها. انتظرت مجيء نيلي إذ إنها لم ترغب في رؤية أمها وحدها. كانت كاتي تجلس عند النافذة عندما حضر الاثنان ووقفا ينتظرانها.

– إن أباكما قد مات.. قالت كاتي.

وقفت فرانسي فاقدة الحس. لم يصدر عنها أي شعور بالدهشة أو الحزن أو حتى أي شيء. ما قالته أمها لم يكن يحمل أي معنى.

– لا يجب أن تبكيا عليه.. قالت كاتي بلهجة الأمر، لقد انحلت مشكلته ولعله أكثر حظاً منا.. لم يكن لكلامها أي وقع أو معنى أيضاً.

في المستشفى كان هناك أحد المرضين المتعاونين مع حانوتي لـدفن المـوتى مقابل أجر. كان الممرض يبلِّغ الحانوتي عن أي وفاة تحصل وكـان هـذا الحـانوتي يتميز عن باقي منافسيه بأنه كان يلاحق عمله فيما كان الآخرون ينتظرون أن يـأتي العمل إليهم. في صباح اليوم التالي جاء هذا الرجل النشيط إلى منزل كاتي.

– سيدة نولان.. قال بعد أن اختلس النظر إلى قطعة الورق التي مررها لـه الممرض وعليها اسم المتوفى وعنوانه.. إني أشاركك الحزن على وفاة زوجـك. إن ما حصل لك سيحصل لنا جميعاً.

– ماذا تريد.. سألته كاتي بوقاحة.

– أريد أن أكون صديقك.. أسرع بتكملة الجملة حتى لا تفهم خطأً. هناك تفاصيل تتعلق بجثة... نظر إلى الورقـة بسرعة ثـم أردف.. بالسيد نـولان. أنـا أطلب منك كصديق يقدم العزاء في وقت عصيب. أريدك أن تتركي الأمر بيدي.

فهمت كاتي مراد الرجل وسألته مباشرة.

– كم تتقاضى ثمن جنازة بسيطة؟

– لا تقلقي بالنسبة للتكـاليف، قـال وهـو يحـاول تجنـب إعطـاء جـواب صريح. لقد كنت أكنّ كل احترام للسيد نولان (لم يره في حياته) وسـوف أتعهـد شخصياً بأن تكون له جنازة رائعة.. لا تقلقي بالنسبة للنقود.

– لن أقلق لأنه لا يوجد ما أقلق عليه.

بلل شفتيه.. وردّ قائلاً: بعيداً عن أموال التأمين بالطبع؟ كان هـذا سـؤالاً وليس تصريحاً.

– هناك تأمين ولكنه قليل.. ردت كاتي.

– آه.. فرك يديه بحبور ثم تابع.. هنا أستطيع أن أقدم المساعدة. هناك خط أحمر يرتبط بتحصيل أموال التأمين فالمسألة قد تأخذ وقتاً طويلاً قبـل التحـصيل.

دعيني أهتم بهذا الأمر وما عليك إلا أن توقعّي ورقة تحويل بوليصة التأمين إليّ وعندها سوف أعجِّل بالأمر وأحصِّل منهم نقود البوليصة.

معظم الحانوتيين كانوا يقدمون هذه الخدمة. كانت نوعاً من الخداع لمعرفة قيمة نقود البوليصة. وحين يعرفون القيمة، يضعون السعر وهو عادة ما يستهلك 80٪ من قيمة البوليصة. كانوا يتركون بعض النقود لأهل الميت لكي يبتاعوا ثياب الحداد وما شابهها.

أحضرت كاتي البوليصة وما أن وضعتها على الطاولة حتى اختلست عينه الخبيرة قيمتها. كانت 200 دولار.. ولكنه تصرّف كأنه لم يرها. بعد أن وقّعت كاتي على الورقة راح يتحدث بمواضيع أخرى ثم وصل إلى نقطة أخذ القرار فقال:

– سأخبرك ماذا سأفعل يا سيدة نولان. سوف أقدم للجنازة عربة درجة أولى بأربعة مقاعد مع تابوت بيدين مصنعتين من معدن النيكل وكل هذا بمائة وخمسة وسبعين دولاراً. أنا عادة أتقاضى مائتين وخمسين ولكني لا أريد أن أربح منك.

– لماذا تفعل ذلك إذن؟ سألته كاتي.

لم يتأثر وجهه أبداً بل أجاب: أنا أفعل ذلك لأني أحببت السيد نولان. كان رجلاً رائعاً ومتفانياً في عمله.. لاحظ نظرة الدهشة التي بدت على كاتي.

– أنا لا أعرف.. ترددت قليلاً.. إن مبلغ 175 دولاراً هو..

– بالطبع.. قاطعها قائلاً: هذا يشمل تكاليف القداس.

– حسناً.. أجابت كاتي بتراخٍ فقد أتعبها الكلام معه.

أخذ الحانوتي البوليصة وادعى أنه يقرؤها للمرة الأولى: آه إنها بقيمة 200 دولار. هذا يعني أنك ستحصلين على 25 دولاراً بعد الجنازة.. حسناً أنا أقول إن

بعض النقود قد تنفع في ساعة مثل هذه.. ضحك ضحكة خافتة دلالة على التفهم ثم قال: سوف أعطيك المبلغ مقدماً. مدّ يده في جيبه وتناول 25 دولار ووضعها أمامها على الطاولة.

شكرته كاتي.. كانت تعلم أنه لا يخدعها لذلك لم تحتج فالأمور تجري هكذا هنا والرجل لا يفعل شيئاً إلا العمل بما تقتضيه مهنته. طلب منها أن تحضر شهادة وفاة من الطبيب المسؤول في المستشفى.. ثم أردف.

– وأرجوك أن تخبريهم أني سأحضر لاستلام الجثة.. أعني السيد نولان.

عندما ذهبت كاتي إلى المستشفى مرة أخرى، أخذوها إلى مكتب الطبيب حيث كان قسيس الرعية ينتظر. كان يحاول إعطاء المعلومات من أجل تعبئة شهادة الوفاة ولكنه عندما رأى كاتي، باركها بصليبه ثم صافحها وقال للطبيب:

– سوف تعطيك السيدة نولان معلومات أفضل.

طرح الطبيب عدة أسئلة ضرورية مثل الاسم الكامل، ومكان الولادة وتاريخها في النهاية سألته كاتي:

– ما الذي تكتبه هنا؟ هل تكتب سبب وفاته.

– إن سبب وفاته هي التعاطي الشديد للكحول والتهاب الرئة.

– لقد قالوا إنه مات بسبب التهاب الرئة.

– كان هذا هو السبب المشار لوفاته، ولكن تعاطيه الشديد للكحول كان عاملاً هاماً في حدوث الوفاة، وإذا شئت أن تعرفي الحقيقة فإنه ربما كان العامل الرئيسي.

– أنا لا أريدك أن تكتب هذا.. قالت كاتي ببطء وثبات.. لا أريدك أن تكتب أنه مات بسبب تعاطيه للكحول.. أكتب أنه مات بسبب التهاب الرئة.

– يا سيدتي إن عليّ أن أكتب الحقيقة.

– إنه ميت ! ماذا يمكن أن يعني لك سبب الوفاة؟

– إن القانون يتطلب ..

– اسمع جيداً.. إن لدي طفلين رائعين سوف يكبران ليصبحا شيئاً في هذه الدنيا. ليست غلطتهما أن والدهما مات بسبب ما قلته. إن الأمر يعني لي الكثير إذا استطعت أن أقول لهما إن والدكما توفي بسبب التهاب الرئة وحدها.

هنا تدخل القسيس موجهاً حديثه نحو الطبيب:

– إن بإمكانك أن تفعل هذا دون أن تلحق الضرر بنفسك وفي الوقت نفسه تسدي خدمة إلى الآخرين. لا يجب أن نجلد الرجل المسكين، فقد مات وانتهى أمره. اكتب أن السبب هو التهاب الرئة ولن تكون كاذباً في ذلك كما أن السيدة هنا ستظل تذكرك في صلواتها لمدة طويلة قادمة. أضاف القسيس بكلمات بدت عملية: إلى جانب ذلك، إن الأمر لن ينزع الجلد عن أسنانك.

فجأة، تذكر الطبيب أن القسيس هو عضو في هيئة إدارة المستشفى وأنه يرغب بأن يترأس إدارة المستشفى كطبيب يعمل فيها.

– حسناً.. وافق الطبيب سوف أفعل ذلك ولكن إياكم أن تنشروا الخبر. اعتبريها خدمة شخصية لك يا ابنتي.. عبأ الطبيب مكان الخانة التي تقول سبب الموت: التهاب الرئة.

ولم يظهر في أي سجل بعد ذلك أن جون نولان توفي بسبب السكر.

استخدمت كاتي الدولارات الخمسة والعشرين في شراء ثياب الحداد، اشترت لنيلي بذلة سوداء وبنطلوناً طويلاً وكان هذا أول بنطلون طويل يلبسه. كان قلبه محطةً صراع بين الفخر والمتعة والأسى. ابتاعت كاتي لنفسها قبعة سوداء جديدة وحجاباً للأرامل طوله ثلاثة أقدام وفقاً للعادة السارية في بروكلين، كما اشترت لفرانسي حذاءً جديداً كانت تحتاج إليه منذ أمد طويل. لم تشترِ لفرانسي ثوباً أسود لأنها كانت تنمو بسرعة وقد يصبح صغيراً عليها في الشتاء القادم.

اكتفت فرانسي حسب رأي أمها بثوبها الأخضر القديم مع عصابة سوداء حول الذراع. هذا الأمر أسعد فرانسي لأنها لا تحب اللون الأسود وكانت تخشى أن تجبرها أمها على لبس السواد. ما تبقى من النقود تم إيداعه في حصالة الصفيح أو بنك العائلة.

جاء الحانوتي ليبلغهم أن جوني قد نُقل إلى ردهة الجنازة وأنهم سيحضرونه إلى المنزل ليلاً ولكن كاتي طلبت منه أن لا يعطيها أية تفاصيل أخرى.. هنا وقعت الصدمة.

- سيدة نولان يجب أن أحصل على ثمن القطعة التي سيدفن فيها السيد نولان.

- أية قطعة.

- في المقبرة أحتاج إلى ذلك لكي يتم فتح القبر.

- ولكنني ظننت أن هذا الثمن مشمول في المئة والخمسة وسبعين دولاراً.

- كلا كلا كلا أبداً لقد قدمت لك صفقة جيدة.. لقد كلفني الكفن ..

- أنا لا أحبك ولا أحب الطريقة التي تعمل ولكن.. أردفت كاتي بطريقتها الرائعة في فصل الحديث: أظن أن على أحد أن يدفن الموتى.. ما هي كلفة القبر.

- عشرون دولاراً.

- من أين سآتي بهذا المبلغ.. توقفت قليلاً ثم نادت فرانسي.

- فرانسي أحضري المفك.

عملت الاثنتان على فتح علبة الصفيح. كان فيها 18 دولاراً و62 سنتاً.

- هذا لا يكفي قال الحانوتي ولكنني سوف ألغي الباقي.. مد يده لتناول النقود ولكن كاتي قالت له سوف أدفع لك المبلغ بكامله ولكني لن أعطيك إياه قبل أن يكون صك القطعة في يدي.

حاول الرجل أن يحاجج ويجادل ولكنه في النهاية انصرف وهو يعدها بإحضار الصك. في حين أرسلت كاتي فرانسي لمنزل سيسي لكي تستدين دولارين. وعندما عاد الحانوتي ومعه صك القطعة تذكرت كاتي شيئاً كانت أمها قد قالته منذ أربعة عشرة عاماً، بأن تقرأ كل شيء يصلها بهدوء وبطء ثم طلبت من طفليها أن يقرآه. وقف الحانوتي أولاً على قدم واحدة ثم على الأخرى وعندما تأكدت كاتي والأطفال أن الصك صحيح سلموا النقود للحانوتي.

– لماذا تظنين أنني أخدعكم.. يا سيدة نولان؟ سألها الحانوتي بأسى بينما كان يضع النقود في جيبه.

– لماذا يخدع الناس بعضهم البعض على أية حال؟ سألته في معرض ردّها.. ومع ذلك فهم يفعلون ذلك.

كانت علبة الصفيح موضوعة وسط المائدة. كان عمرها أربعة عشر عاماً وقد بدت وكأن الزمن قد أتى عليها.

– هل تريدين أن أعيد تثبيته بالمسامير يا أماه؟ سألت فرانسي.

– كلا.. قالت أمها بهدوء، لن أحتاج إليها بعد اليوم.. كما ترى فنحن نملك قطعة أرض الآن.. قالت هذا ووضعت الصك على رأس علبة الصفيح النجمية.

بقيت فرانسي ونيلي في المطبخ طوال الوقت الذي كانت فيه جثة أبيهما مسجاة في الغرفة الأمامية، حتى إنهما ناما في المطبخ. لم يرغبا أن يريا أباهما في الكفن. تفهمت كاتي الأمر ولم تصر عليهما أن يأتيا ليلقيا نظرة أخيرة على أبيهما.

كان البيت يعج بالورود. حتى إن نقابة النادلين الذين طردوا جوني قبل أسبوع أرسلوا باقة قرنفل بيضاء ضخمة مع شريط نهدي ملتف بشكل قطري حولها وكلمات مذهبة تقول «أخونا». كذلك فعل رجال شرطة المنطقة الذين لم ينسوا كيف قبض آل نولان على القاتل، وأرسلوا صليباً من الورد الأحمر. وأرسل

الرقيب ماكشين حزمة من الزنبق، وبعث آل روميلي وجيرانهم وروداً كثيرة كما جاءت ورود من العشرات من أصدقاء لجوني لم تسمع بهم كاتي أبداً وأرسل مكغاريتي، صاحب الحانة إكليلاً من ورق الغار الاصطناعي.

- سوف أرميها في سلة المهملات. قالت إيفي باستحقار وهي تقرأ البطاقة.

- كلا. قالت كاتي بلطف: لا ألوم مكغاريتي أبداً.. لم يكن على جوني أن يذهب هناك (كان جوني مديناً لمكغاريتي بثمانية وثلاثين دولاراً حين وفاته، ولسبب ما لم يخبر صاحب الحانة كاتي بالأمر بل ألغى الدين بصمت).

كانت الشقة تعبق بروائح الورود والزنابق والقرنفل.. فيما بعد، بقيت فرانسي تكره هذه الورود، ولكن كاتي شعرت بالسعادة لأن العديد من الناس فكروا بجوني.

قبل لحظات من إغلاق التابوت على جثة جوني، دخلت كاتي إلى المطبخ ووضعت يدها على كتف فرانسي وقالت بصوت خافت.

- لقد سمعت بعض الجيران يتهامسون بأنك لا تريدين أن تلقي نظرة أخيرة على أبيك لأنه لم يكن أباً صالحاً.

- لقد كان أباً صالحاً. قالت فرانسي بشدة.

- نعم.. لقد كان كذلك، أكدت كاتي وانتظرت الطفلين كي يتخذا قراراً.

- تعال يا نيلي، لنسر يداً بيد. انطلق الاثنان لرؤية أبيهما. نظر نيلي بسرعة ثم هرب من الغرفة خشية أن يجهش بالبكاء. ولكن فرانسي وقفت أمام الجثة وعيناها على الأرض خوفاً من أن تنظر إلى أبيها. أخيراً رفعت عينيها ولم تكن تصدق أن أباها ليس حياً. كان يرتدي بذلته التوكسيدو، نظيفة ومكوية وكذلك قبعته وربطة عنقه وعلى حضنه وردة قرنفل وشعار النقابة. كان شعره ذهبياً لامعاً، ومجدلاً كما لم يكن من قبل. أحد أقفال التابوت كان خارج مساره وبدا وكأنه سقط على جانب من جبهته. كانت عيناه مغلقتين وكأنه نائم نوماً خفيفاً.

بدا شاباً، أنيقاً يعتني بنفسه جيداً. لاحظت فرانسي لأول مرة أناقة رموشه المقوّسة. كذلك كان شاربه ولكن الأهم أن وجهه كان يغمره ارتياح شديد وكأن الأسى والقلق قد غادراه إلى الأبد. كان عمر جوني 34 سنة عندما توفي ولكنه بدا الآن أكثر شباباً وكأنه فتى في سن العشرين. كانت يداه معقودتين حول صليب فضي، وقد ظهر بياض حول إصبعه الثالث حيث كان يضع الخاتم الذي أهدته إياه كاتي يوم زواجهما (كانت كاتي قد انتزعته لتخبئه لنيلي عندما يكبر). كان غريباً أن ترى يدي أبيها هادئتين فقد ظلتا ترتجفان طوال الفترة الأخيرة من حياته. لاحظت فرانسي أصابعه المستدقة الأطراف والطويلة وعندما حدقت جيداً في يديه ظنّت أنهما تتحركان. ارتعدت فرانسي من الخوف وأرادت أن تهرب ولكن الغرفة كانت مليئة بالناس. كانوا جميعاً يراقبونها.. لعلهم سيقولون لو هربت أنها فعلت ذلك لأنه .. كلا لقد كان أباً صالحاً.. وضعت يدها على شعره وأزاحت القفل الساقط على جبهته إلى مكانه. في تلك اللحظة اقتربت الخالة سيسي ووضعت ذراعها حول فرانسي وهمست: «لقد حان الوقت».. تراجعت فرانسي لكي تقف مع أمها بينما كانوا يغلقون التابوت.

في الكنيسة، حيث أقيمت صلاة الجنازة، ركعت فرانسي إلى جانب أمها من جهة وركع نيلي من الجهة الثانية. أبقت فرانسي عينيها في الأرض حتى لا تضطر إلى النظر إلى التابوت المغطى بالورود والموضوع على منصبة أمام المذبح. اختلست نظرة إلى أمها. كانت كاتي راكعة تحدق إلى الأمام. بدا وجهها أبيض هادئاً تحت الخمار.

عندما نزل القسيس ودار حول التابوت يرش الماء المقدس على زواياه الأربع سمع الجميع نواحاً شديداً لامرأة تجلس عند الممر. التفتت كاتي بحدة وقد تملكتها الغيرة حتى في ساعة موت مثل هذه، لترى من هي تلك المرأة التي تجرأت أن تبكي بهذه الشدة على جوني. نظرت إليها جيداً ثم أشاحت بوجهها وقد تفجرت في ذهنها أفكار متفرقة كأنها قطع أوراق ممزقة.

كانت تلك المرأة هيلدي أودير وبدت أكبر من سنها وكأن مسحوقاً أبيض رُشّ على شعرها الأصفر.. ولكنها ليست أكبر مني كثيراً. ربما هي الآن في الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين. كان عمرها 18 عندما كان عمري 17.. اذهبي في طريقك يا هيلدي، إنه رجلي أنا كاتي روميلي.. هيلدي هيلدي، إنك أعز صديقاتي وأنا لست صديقة جيدة. ما كان يجب أن آخذه منك ولكن اذهبي في طريقك.. دعيها تبكي دعيها تبكي.. فكرت كاتي قليلاً إن من أحب جوني يجب أن يبكي عليه.. أنا لا يمكنني أن أبكي لأدعها تبكي إذن..

ركبت كاتي وأمها ومعها الطفلان العربة الأولى خلف النعش باتجاه المقبرة. كانت فرانسي سعيدة لأنها لم تستطع رؤية العربة التي تحمل النعش بل رأت العربة التي سارت خلفهم وكان فيها كل من الخالتين سيسي وإيفي وحدهما. لم يستطع زوجاهما المجيء لأنهما يعملان وبقيت الجدة ماري روميلي في البيت لترعى طفل سيسي الجديد. تمنت فرانسي لو أنها كانت في العربة التي تتبعهم. ناحت روثي نولان وبكيت طوال الطريق فيما جلست كاتي في صمت كالحجر. كانت رائحة العربة تعبق بروث الخيل والقش الرطب وقد تسببت الرائحة وقرب العربات والعودة والتوتر في إحساس فرانسي بشعور غير مألوف بالمرض.

كان يوماً رمادياً، تغطيه الغيوم وتنفث الريح الباردة في أرجائه. تحت أقدام فرانسي تكومت دوامات من الغبار المتجمد. من مسافة قريبة وأمام قبر محفور منذ أسبوع كان هناك رجال ينزعون الورود عن الإطارات المعدنية للحزم ويكومونها فوق القبر. كانوا يعملون بمنهجية منتظمة، يكوِّمون الورود الذابلة في جهة والأسلاك المعدنية من جهة أخرى. كانت هذه بالنسبة لهم مهنة شرعية فهم يشترون هذه الأكوام من مسؤولي المقبرة ويعيدون بيعها لمحلات الزهور لاستخدامها مرات ومرات، لم يشكُ أحد لأن الرجال كانوا دقيقين جداً في عملهم ولا ينزعون إلا الورود الذابلة تماماً؟

وضع أحدهم كومة تراب رطب في يد فرانسي. رأت نيلي وأمها واقفين على حافة القبر، يرميان التراب بداخله. مشت ببطء نحو الحافة، وأغمضت

عينيها ثم فتحت يدها ببطء وسمعت صوت سقطة التراب بعد ثوانٍ. أعاد لها هذا الصوت الشعور بالمرض مرة أخرى.

بعد الدفن، ذهبت العربات في اتجاهات مختلفة وذهب من كان في الجنازة كل إلى بيته. عادت روثي نولان بصحبة بعض من يسكنون إلى جوارها. لم تودع أحداً وبقيت طوال المراسم ترفض التحدث إلى كاتي أو إلى الأطفال. في طريق العودة لم يكن في العربة مكان لخمسة أشخاص لذلك جلست فرانسي في حضن خالتها إيفي. ساد الصمت طوال الطريق رغم أن الخالة إيفي حاولت أن تنعش معنوياتهم ببعض القصص الجديدة حول العم ويلي وحصانه ولكن أحداً لم يبتسم لأن أحداً لم يكن يستمع.

أوقفت كاتي العربة عند دكّان الحلاق، التي تقع حول زاوية منزلهم.

- اذهبي هناك واحضري كأس أبيك.

- أي كأس.. لم تفهم فرانسي ما الذي تعينه أمها بالكأس.

- فقط اطلبي الكأس.

نزلت فرانسي إلى الدكان. كان هناك حلاقون ولكن دون زبائن. كان أحد الحلاقين يجلس على كرسي في الصف المقابل للجدار فيما أرخى كاحله الأيسر على ركبته اليمنى وهو يعزف على آلة موسيقية معزوفة «أو سولي ميو». عرفت فرانسي الأغنية فقد علمهم إياها السيد مورتون تحت عنوان «شروق الشمس». أما الحلاق الثاني فكان يجلس في أحد كراسي الحلاقة ينظر إلى نفسه في المرآة. نزل من كرسيه عندما دخلت الفتاة.

- نعم... سألها.

- أريد كأس والدي.

- وما اسمه؟

- جوني نولان.

آه نعم أنا آسف.. تنهد وهو يتناول كأساً من بين صف من الكؤوس الموضوعة على الرف. كان كأساً سميكاً أبيض اللون كتب عليه بكلمات مذهبة ومزخرفة اسم جوني نولان. كان في قاع الكأس قطعة صابون أبيض وفرشاة حلاقة قديمة. رفع الصابونة والفرشاة ووضعها في كأس أكبر ثم غسل كأس جوني.

فيما كانت فرانسي تنتظر، ألقت نظرة حولها. لم تكن قد شاهدت دكان حلاقة من قبل. كانت رائحة الصابون والمناشف النظيفة والغار تعبق في المكان كما كان هناك سخان على الغاز يصدر صوت هسهسة برفق. أنهى الحلاق الأول أغنيته ثم عاد ليغنيها من جديد. كان صوت الآلة الموسيقية حزيناً وسط الدكان الدافئ. غنت فرانسي في ذهنها كلمات الأغنية كما علمها إياها السيد مورتون.

يا عزيزتي أي شيء أجمل

من يوم مشمس

لقد مرت العاصفة أخيراً

والسماء عادت زرقاء صافية.

لكلٍّ منا حياته السرية.. قالت لنفسها. لم يتحدث أبي أبداً عن دكان الحلاقة. لقد اشترى جوني النيِّق كأسه الخاص مقلداً الرجال الأفضل حالاً. لم يكن يرضى أن يحلق في أي كأس سوى كأسه. كان يأتي إلى هنا ثلاث مرات في الأسبوع عندما كان يحمل نقوداً ويجلس في أحد هذه المقاعد وينظر في المرآة ويتحدث مع الحلاق.. ربما حول فيما لو كان لدى بروكلين فريق كرة جيد أو هل سيربح الديمقراطيون كالعادة. ربما غنى فيما كان الحلاق الثاني يعزف على آلته الموسيقية، «نعم أنا متأكدة أنه كان يغني»، تساءلت فرانسي ربما فيما هو ينتظر كان يقرأ مجلة «البوليس» الملقاة على أحد المقاعد.

ناولها الحلاق الكأس بعد غسله وهو يقول: لقد كان جوني نولان شخصاً رائعاً. قولي لأمك إنني حلاقه الذي أقول هذا الكلام.

- شكراً. همست فرانسي بامتنان ثم خرجت بعد أن أغلقت الباب على صوت الموسيقى الحزين.

في العربة، قدّمت فرانسي الكأس إلى كاتي ولكن أمها قالت لها: هذا لكِ لأن نيلي سيحصل على خاتم أبيه.

نظرت فرانسي إلى اسم أبيها المكتوب بالذهب على الكأس وهمست بامتنان مرة أخرى خلال خمس دقائق: شكراً.

عاش جوني على وجه الأرض أربعاً وثلاثين سنة. قبل أسبوع فقط، كان يسير في هذه الشوارع والآن لم يبقَ منه سوى هذا الكأس والخاتم ومريولين غير مكويين في البيت يشهدان أن هذا الرجل عاش على وجه الأرض. لم يكن هناك أية أشياء أخرى تُذكّر بجوني فقد دُفن بثيابه التي كان يملكها ودُفنت معه أزراره وخاصة ذلك الزر الذهبي ذي الأربعة عشر قيراطاً.

عندما عادوا إلى المنزل وجدوا الجيران في الداخل وقد قاموا بترتيب البيت وتنظيفه. كانوا قد أعادوا الأثاث مكانه وتم تنظيف الأرضية من الورود الذابلة. كذلك كانت النوافذ مفتوحة لتهوية الغرف. كان الجيران قد أحضروا بعض الفحم وأشعلوا ناراً في موقد المطبخ ووضعوا ملاءة بيضاء على المائدة. أحضرت فتيات آل تينمور كعكة من صنعهم ووضعتها على المائدة مشرَّحة وجاهزة للأكل. كذلك أحضرت فلوس غلاديس وأمها كمية من النقانق المقطعة. كان لا بد من وضعها في طبقين لأن الكمية كانت كبيرة. كذلك كانت هناك سلة من شرائح خبز الشوفان فيها وضعت فناجين القهوة على المائدة، بانتظار إبريق من القهوة كان يغلي على الموقد كما وضع أحدهم إبريقاً آخر مليئاً بالزبدة.

كل هذا فعله الجيران فيما كان آل نولان يودعون أباهم في المقبرة. بعد ذلك خرجوا وأقفلوا الباب وتركوا المفتاح تحت سجادة المدخل.

جلست الخالة سيسي والخالة إيفي وكاتي وفرانسي ونيلي على الطاولة وصبّت الخالة إيفي القهوة فيما بقيت كاتي تنظر مطولاً إلى فنجانها. تذكرت المرة الأخيرة التي جلس فيها جوني على هذه الطاولة. فعلت تماماً مثلما فعل جوني.. دفعت الفنجان بيدها بعيداً ثم وضعت رأسها وأجهشت ببكاء شديد ملؤه التشنج والأسى. وضعت سيسي ذراعيها حولها وتكلمت بصوت هادئ لطيف:

لا تبكي يا كاتي وإلا فإن هذا الطفل الذي ستلدينه قريباً سيأتي حزيناً إلى هذا العالم.

37

بقيت كاتي في سريرها طوال النهار الذي تـلا يـوم الجنـازة فـيما ظـل نـيلي وفرانسي يتجولان حول المنزل في حالة من الصدمة والدهشة. عند المساء قامت كاتي وحضّرت لهما العشاء ثم حثتهما بعد الأكـل للخـروج في نزهـة سيراً عـلى الأقدام لعلهما في حاجة إلى استنشاق بعض الهواء.

سارت فرانسي ونيلي صعوداً عبر شارع غراهام باتجاه برودواي. كان الجـو بارداً معتماً ولكن دون ثلج فيما كانت الشوارع خالية. مرت ثلاثة أيـام عـلى عيـد الميلاد وكان معظم الأطفـال في منـازلهم يلعبـون بلعـبهم الجديـدة. أمـا أضـواء الشارع فكانت مكشوفة ولامعة. ومن البحر هبـت ريـح شـديدة الـبرودة فـوق الأرض. كان تيارها يكوِّم قطع الأوراق في دوامات ويقذفها في مزاريب المياه.

خرج الطفلان من طور الطفولة منذ أيام قليلة. فقد مرّ عيد الميلاد دون أن ينتبه له أحد حيث إن والدهما توفي يوم عيد الميلاد حتى إن عيد ميلاد نيلي الثالث عشر مرّ دون ملاحظة في الأيام القليلة الأخيرة.

سار الاثنان حتـى وصـلا إلى واجهـة مبنـى كبـير يـشع بالأضـواء لأحـد المسارح الكبرى. توقّفـا بموجـب حـبهما للقـراءة ومعـرفتهما بهـا ليقـرآ لائحـة

النشاطات المسرحية في ذلك الأسبوع. وعند النشاط السادس قرآ إعلاناً بأحرف كبيرة يقول:

هنا في الأسبوع القادم.. شونسي أوزبورن.. مغن عذب لأغانٍ عذبة.. لا تجعلوه يفوتكم. مغن عذب.. مغن عذب.

لم تكن فرانسي قد أراقت دمعة منذ وفاة والدها، وكذلك نيلي ولكنها شعرت الآن أن جميع الدموع التي تجمدت في حلقها قد شكلت ورماً كبيراً آخذاً بالنمو. شعرت أنها إذا لم توقف هذا الورم قريباً وتحوله إلى دموع فإنه سيخنقها حتى الموت. نظرت إلى نيلي.. كانت الدموع تنهمر من عينيه فلم تتمالك نفسها حتى أجهشت بالبكاء.

وصلا إلى شارع جانبي معتم وجلسا على الرصيف ثم مددا رجليهما في مزراب الماء على جانب الشارع. ورغم أن نيلي كان يبكي إلا أنه لم ينسَ أن يفرش منديله على الأرضية حتى لا تعلق الأوساخ في بنطلونه. جلسا متقاربين بسبب البرد والوحدة وبكيا بصمت في ذلك الشارع البارد المعتم وفي النهاية وبعد أن نفدت الدموع بدءا يتحدثان.

- نيلي.. لماذا كان يجب أن يموت بابا؟

- أظن أن الله أراده أن يموت.

- لماذا؟

- ربما لكي يعاقبه.

- يعاقبه على ماذا؟

- لا أدري.. رد عليها نيلي بأسى.

- هل تؤمن أن الله هو الذي جاء ببابا إلى هذا العالم.

- نعم.

– إذن لقد أراد له أن يحيا أليس كذلك؟

– أظن ذلك.

– إذن لماذا جعله يموت بهذه السرعة.

– ربما لكي يعاقبه.. أجاب نيلي تلقائياً دون أن يعرف إذا كان هناك جواب آخر.

– إذا كان هذا صحيحاً.. فما نفعه؟ لقد مات بابا وهو لا يعرف أنه يعاقب. لقد خلقه الله على الشكل الذي هو عليه ثم قال له إياك أن تفعل شيئاً.. أراهنك أنه قال له هذا.

– لعل من غير السليم أن تتكلمي عن الله بهذه الطريقة. قال نيلي بحذر.

– يقولون إن الله عظيم. قالت فرانسي بازدراء.. وإنه يعرف كل شيء، وإن بإمكانه أن يفعل كل شيء. إذا كان بهذه العظمة، لماذا لم يساعد أبي بدلاً من معاقبته كما قلت.

– أنا قلت ربما. قال نيلي.

– إذا كان الله مسؤولاً عن هذا العالم.. أردفت فرانسي، عن الشمس والقمر والنجوم وجميع الطيور والأشجار والورود والحيوانات والناس.. هل تظن أنه سيكون مشغولاً جداً أو مهماً جداً ليصرف وقتاً طويلاً على معاقبة رجل واحد.. رجل مثل بابا.

– أنا لا أظن أن من السليم أن تتكلمي عن الله هكذا، قال نيلي بضيق، إنه قد يميتك في أية لحظة.

– إذن دعه يفعل ذلك، ردت فرانسي بشدة، دعه يميتني هنا في هذا المزراب حيث أجلس.

انتظر الاثنان بخوف ولكن شيئاً لم يحدث. وعندما عاودت فرانسي الكلام، كانت نبرتها أهدأ من ذي قبل.

– أنا أؤمن بالله، ويسوع المسيح وأمه العذراء المقدسة. لقد كان يسوع طفلاً حياً يوماً ما يمشي حافياً بلا حذاء مثلما نفعل في أيام الصيف. لقد رأيت صورة له وهو صغير. لم يكن يرتدي حذاءً وعندما أصبح رجلاً، عمل في صيد الأسماك تماماً مثلما عمل أبي مرة وقد استطاعوا أن ينالوا منه لأنهم لم يستطيعوا النيل من الله. إن يسوع لم يعاقب الناس، بل كان يعلم أحوالهم لذلك أنا أؤمن به.

رسم الاثنان على وجههما إشارة الصليب كما يفعل معظم الكاثوليك عند ذكر اسم يسوع المسيح ثم بعد ذلك وضعت فرانسي يدها على ركبة نيلي وقالت له هامسة:

– نيلي.. لن أخبر أحداً سواك ولكنني لم أعد أؤمن بالله.

– أريد أن أعود إلى البيت. قال نيلي وهو يرتجف.

دخل الاثنان إلى البيت، ولاحظت كاتي وجهيهما المسالمين المتعبين وقالت لنفسها.. «أظن أنهما بكيا كثيراً وأخرجا الحزن من قلبيهما».

نظرت فرانسي إلى أمها ثم أشاحت بوجهها بعيداً وقالت لنفسها: أظنها بكت وبكت كثيراً حين كنا في الخارج. لم يذكر أي منهما البكاء أمام الآخر.

– لقد ظننت أنكما ستعودان إلى البيت وقد أنهككما البرد، لذلك جهزت لكما مفاجأة دافئة.

– ما هي؟ سأل نيلي.

– سوف ترى.

كانت المفاجأة كأساً من الشوكولاته الحارة لكل منهما، مصنوعة من الكاكاو والحليب المكثف والماء المغلي. صبت كاتي تلك المادة الكثيفة في الفناجين ثم قالت:

- وهذا ليس كل شيء.. فتحت أحد الأكياس الورقية المعلقة في مريولها وأخرجت منه ثلاث قطع من الحلوى الهلامية «مارش ميلوز» ثم وضعت قطعة في كل كأس.

- صاح الاثنان في وقت واحد بنشوة غامرة «شوكولاته ساخنة»..

كان هذا شيئاً خاصاً جداً لا يشربونه إلا في مناسبات أعياد الميلاد.

إن أمي شخص مميز.. قالت فرانسي لنفسها فيما هي تحمل الملعقة والكأس وتراقب حبات الهلام الأبيض وهي تذوب في الشوكولاته الساخنة. إن أمي تعلم أنا كنا نبكي ولكنها لم تطرح أسئلة حول الموضوع. إنها لا تفعل ذلك أبداً.. أخيراً وجدت فرانسي الكلمة المناسبة التي يمكن أن تصف فيها أمها «إنها لا ترتبك».

كلا لم ترتبك كاتي أبداً. عندما كانت تستخدم يديها الجميلتين والمتعبتين كانت تستخدمها بكل ثقة سواء أرادت أن تعيد وردة مكسورة إلى إناء الماء بحركة واحدة أو تعصر خرقة للمسح بحركة ثابتة. اليد اليمنى إلى الداخل واليسرى إلى الخارج بتزامن رائع وعندما تتكلم، كانت تنطق الكلمات البسيطة ولكن السليمة فيما أفكارها تسير بطريق واضح لا يعرف التراجع.

كانت كاتي تقول: لقد كبر نيلي ولم يعد من المناسب أن ينام في الغرفة نفسها مع أخته.. لذلك لقد جهزت لك الغرفة.. ترددت قليلاً قبل أن تلفظ الكلمات التالية ثم تابعت: التي كنا نستخدمها أنا وأبوك. إنها غرفة نوم نيلي الآن.

قفزت عينا نيلي نحو أمه.. غرفة له وحده.. إنه حلم تحقق لا بل حلمان.. بنطلون طويل وغرفة.. عاد الحزن إلى عينيه قليلاً حين استذكر كيف وصلت إليه هذه الأشياء.

- وأنا سأشاركك الغرفة يا فرانسي.. قالت كاتي ذلك بفطرة مؤدبة بدلاً من أن تقول: أنت ستشاركيني الغرفة.

قالت فرانسي لنفسها وقد دبت فيها موجة من الغيرة: أتمنى لو أن لي غرفة وحدي ولكن ماما على حق، لا يمكن لنيلي أن ينام معها في الغرفة لذلك لا بد من أن تكون له غرفة وحده.

أدركت كاتي بذكائها الأفكار التي تدور في رأس فرانسي فاستدركت قائلة: وعندما يعود الدفء مرة أخرى، فإن بإمكان فرانسي أن تستخدم الغرفة الأمامية. سوف نضع سريرها هناك مع غطاء لطيف وستصبح الغرفة كأنها غرفة جلوس خاصة بها. هل يعجبك هذا يا فرانسي؟

– بالطبع يا أمي لا بأس بذلك.

بعد قليل قالت كاتي: لقد نسينا قراءات الليالي السابقة.. سوف نعاود ذلك الآن.

فإذن ستعود الأمور كسابق عهدها.. فكرت فرانسي قليلاً وقد اعترتها دهشة فيما هي ترفع الكتاب المقدس عن رفّ الموقد.

– وبما أننا لم نحتفل بعيد الميلاد هذه السنة فسنترك القطعة التي كان يتوجب علينا أن نقرأها في تلك الفترة ونبدأ بالقطعة التي تتحدث عن ميلاد الطفل يسوع. سوف نتبادل الأدوار في القراءة. ابدئي يا فرانسي.

قرأت فرانسي: وهكذا كان، أنه بينما هما هناك تقرر أن يولد الطفل فأنجبت ولدها الأول ولفّته في القماط ووضعته في المذود لأنه لم يكن هناك مكان لهما في الخان.

تنهدت كاتي بحدة فتوقفت فرانسي عن القراءة ونظرت إلى أمها متسائلة:

– لا شيء. قالت كاتي: تابعي القراءة.

كلا.. لا شيء، فكرت كاتي.. إنه الوقت الذي يتوجب فيه أن أحس بالحياة. مرة أخرى تقلّب الجنين داخلها.. هل توقف عن الشرب لأنه كان يعلم أن هناك طفلاً قادماً.. تساءلت كاتي بصمت لقد همست له بأنهما سينعمان بطفل

جديد. هل حاول أن يصبح مختلفاً عندما علم بذلك! وعندما علم هل جاءت وفاته لأنه حاول أن يصبح رجلاً أفضل، آه جوني.. جوني.. تنهدت مرة أخرى.

قرأ الثلاثة، كل بدوره حول ميلاد يسوع المسيح، كان كل منهم يفكر بجوني الذي مات ولكنهم أبقوا أفكارهم في داخلهم.

عندما أصبح الطفلان جاهزين للذهاب إلى النوم، فعلت كاتي شيئاً غير عادي. لم تكن كاتي امرأة تعبر عن عواطفها علناً. وهذا ما جعل الأمر غير عادي. فقد قرّبت الطفلين إليها وقبلتهما متمنية لهما نوماً سعيداً ثم قالت: من الآن فصاعداً سأكون أنا أمكما وأباكما.

38

قبل انتهاء عطلة عيد الميلاد بوقت قليل، أخبرت فرانسي أمها أنها لن تعود إلى المدرسة..

- لماذا؟ ألا تحبين المدرسة؟ سألتها الأم.

- كلا أنا أحبها ولكنني في سن الرابعة عشرة الآن ويمكنني أن أقدم أوراق عملي بسهولة.

- لماذا تريدين أن تعملي؟

- لكي أساعد في المنزل.

- كلا يا فرانسي، أريدك أن تعودي إلى المدرسة وتتخرجي، لم يبقَ سوى أشهر قليلة وسوف يكون حزيران/ يونيو هنا قبل أن تشعري به. يمكنك أن تقدمي أوراق العمل لهذا الصيف وربما نيلي أيضاً ولكن كلاكما يجب أن يذهب إلى المدرسة في الخريف لذلك انسي هذا الموضوع.

- ولكن يا أمي كيف سنتدبر أمرنا هذا الصيف.

- سوف نتدبر.

لم تكن كاتي واثقة مما قالته كما حاولت أن تظهر. كانت تفتقد إلى جوني في أكثر من أمر. صحيح أن جوني لم يعمل أبداً بشكل متواصل ومنتظم ولكن كانت هناك دائماً تلك الوظائف غير المتوقعة ليالي السبت أو الأحد والتي كان يجني فيها ثلاثة دولارات. أيضاً عندما كانت الأمور تسوء كانت لدى جوني طريقة في إخراجهم من الوضع السيئ ولكن الآن لم يعد هناك جوني.

بدأت كاتي تحصي مداخيلها.. الإيجار يدفع طالما بقيت الشقق الثلاث نظيفة، كذلك كان هناك دولار ونصف أسبوعياً من عمل نيلي. هذا سيبقي لديهم فحماً للدفء إذا أشعلوا الموقد فقط في الليل. ولكن انتظر هناك 20 سنتاً أسبوعياً تدفع للتأمين (كانت كاتي قد أمّنت على نفسها بعشرة سنتات وعلى الأطفال بنيكل أسبوعياً) لا بأس، ربما كمية أقل من الفحم والذهاب أبكر إلى السرير قد يعالج هذا الوضع. الثياب؟ لا يوجد مجال للتفكير فيها الآن. لحسن الحظ فإن فرانسي ونيلي يملكان الآن أحذية جديدة كما أن لدى نيلي بدلة جديدة أيضاً. يبقى السؤال الأكبر: الطعام؟ ربما تسمح لها السيد مكغاريتي بالغسل مرة أخرى. هذا يعني دولاراً أسبوعياً وربما بعض أعمال التنظيف من هنا وهناك.. نعم سوف نتدبر الأمر.

سارت الأمور على ما يرام حتى نهاية آذار/ مارس. مع حلول ذلك الوقت أصبحت كاتي ثقيلة الخطى فالطفل سيولد في أيار.. كانت السيدات اللواتي تعمل لديهن يجفلن أو يبعدن أنظارهن كلما شاهدوها، وبطنها إلى الأم تقف أمام لوح الكوي في مطابخهن أو تزحف على يديها وركبتيها لتنظيف الأرضية. كن يساعدنها شفقة عليها ولكنهن أدركن أنهن يدفعن للمرأة التي تنظف فيما يقمن هن بمعظم العمل، لذلك أخبرنها واحدة تلو الأخرى أنهن لم يعدن بحاجة لخدماتها.

جاء يوم لم تكن كاتي تملك 20 سنتاً لتدفعها إلى محصِّل التأمين. كان الرجل صديقاً قديماً لآل روميلي وعلى دراية بأحوال كاتي.

– أنا أكره أن أراهم يبطلون بوليصتك يا سيدة نولان، خاصة بعد أن استطعت الاحتفاظ بها طوال هذه السنين.. قال لها الرجل.

– لن يبطلوها لأنني تخلفت قليلاً عن الدفع؟

– أنا لن أبطلها ولكن الشركة ستفعل. اسمعي لماذا لا توقفين تأمين الطفلين؟

– لم أكن أعرف أنني أستطيع فعل ذلك.

– قليل من الناس يعرفون..

وهكذا توقفوا عن دفع الأقساط للأولاد واحتفظت الأم بتأمينها. مر الوقت وبقيت الشركة تحتفظ بالنقود..

– سوف أخسر عملي لو عرفوا أنني أخبرتك بذلك ولكن انظري كيف أرى هذه المسألة: لقد أمّنت أباك وأمك وجميع نساء آل روميلي وأزواجهن وأطفالهن و.. لا أدري.. أنا أنقل عدداً كبيراً من الرسائل جيئة وإياباً حول أوضاعكم سواء في المرض أو الولادة أو الوفاة.. لقد أصبحت أشعر أنني جزء من عائلتكم.

– لا يمكننا أن نتدبر أمرنا بدونك.

– إليك ما تفعلينه يا سيدة نولان.. حوّلي بوليصتي الطفلين إلى نقود ولكن احتفظي ببوليصتك. إذا حدث شيء لأحد الطفلين لا سمح الله فإن بإمكانك تدبير أمر دفنه ولكن إذا حصل مكروه لك، لا سمح الله أيضاً فإنهما لن يستطيعا دفنك بدون نقود التأمين أليس كذلك؟

– كلا لا يستطيعان .. إن عليّ أن أبقي على بوليصتي. لا أريد أن أدفن في حقل بعيد إن هذا شيء لا يستطيعون تحمله، لا هما ولا أطفالهما ولا أطفال أطفالهم. لذلك سآخذ بنصيحتك.. قل لي ماذا يجب عليّ أن أفعل؟

بفضل الخمسة والعشرين دولاراً التي حصلت عليها كاتي من بوليصتي الطفلين، تمكنت من الصمود حتى آخر شهر نيسان (إبريل). بعد خمسة أسابيع سيولد الطفل وبعد ثمانية أسابيع سيتخرج الأطفال من المدرسة. ما يزال أمامها ثمانية أسابيع أخرى لتتدبر الأمر.

جلست نساء عائلة روميلي الثلاث حول مائدة المطبخ وكأنهن في مؤتمر. قالت إيفي:

- كنت سأساعدك لو استطعت ولكن كما تعلمين فإن ويل لم يعد كالسابق بعد أن رفسه الحصان كما أنه ما زال جديداً على المدير وأموره لا تسير على ما يرام مع الرجال هناك حتى إن جميع الخيول ترفض الذهاب معه. لقد وضعوه الآن للعمل في الإسطبل، في تنظيف الروث والنفايات والزجاجات المكسورة كما خفضوا راتبه إلى 18 دولاراً في الشهر وهو رقم صعب مع وجود ثلاثة أطفال. إنني أحاول أن أجد عملاً في تنظيف البيوت.

- لو أني أستطيع التفكير بطريقة أخرى. قالت سيسي.

- كلا، ردّت كاتي بحزم، إنك تفعلين بما فهي الكفاية مع وجود أمي معك في البيت.

- هذا صحيح، لقد كنا نقلق عليها كثيراً أنا وكاتي حين كانت تعيش وحدها في غرفة واحدة وتعمل بالتنظيف لتكسب بضعة سنتات.

- إن أمي ليست مشكلة على الإطلاق ولا تكلفني شيئاً.. قالت سيسي كما أن زوجي لا يمانع بوجودها حولنا. بالطبع هو لا يحصل إلا على عشرين دولاراً أسبوعياً والآن لدينا طفل. وقد حاولت أن أعود إلى وظيفتي القديمة ولكن أمي أصبحت متقدمة جداً في السن ولا تستطيع رعاية الطفل والعناية بالبيت. إنها في الثالثة والثمانين الآن. يمكنني أن أعمل ولكن عليّ أن أستأجر أحداً للعناية بأمي وبالطفل. لو كان لدي عمل لاستطعت مساعدتك يا كاتي.

- لا يمكنك يا سيسي.. لا توجد طريقة.. قالت كاتي.

- هناك شيء واحد يمكننا أن نفعله.. قالت إيفي، أخرجي فرانسي من المدرسة ودعيها تجهز أوراق عملها.

- ولكنني أريدها أن تتخرج. إن طفليّ سيكونان أول أطفال في عائلة نولان يحصلان على شهادات.

- لا يمكنك أن تأكلي شهادة. قالت إيفي.

- أليس لديك أصدقاء من الرجال يمكنهم أن يساعدوك.. إنك امرأة جميلة جداً كما تعلمين.

- سوف يكون لها أصدقاء عندما تستعيد شكلها الطبيعي بعد الولادة. فكرت كاتي قليلاً بالرقيب ماكشين ثم قالت:

- كلا، ليس لديّ أصدقاء من الرجال.. كان هناك دائماً جوني ولا أحد غيره.

- أعتقد أن إيفي على حق.. قررت سيسي.. أنا أكره أن أقول هذا ولكن عليك أن تخرجي فرانسي للعمل.

- إذا تركت المدرسة دون تخرّج فلن تستطيع العودة إلى المدرسة الثانوية أبداً.. قالت كاتي محتجة.

- حسناً، قالت إيفي، هناك دائماً الجمعيات الخيرية الكاثوليكية.

- عندما يأتي الزمن الذي ندور فيه لجمع سلال المعونة فسوف أغلق الأبواب والنوافذ وأنتظر حتى ينام الأطفال ثم أطلق الغاز في كل المنزل.

- لا تقولي هذا، أجابت إيفي بحدة، إنك تريدين أن تعيشي أليس كذلك؟

- نعم ولكني أريد أن أعيش لشيء ما. لا أريد أن أعيش لأحصل على الصدقات التي تعطيني ما يكفي من الطاقة لأبحث عن صدقات أخرى.

– إذن فنحن نعود مرة أخرى إلى المربع الأول، قالت إيفي. إن على فرانسي أن تعمل. لا يوجد أمامك إلا فرانسي لأن نيلي ما يزال في الثالثة عشرة من العمر ولن يقبلوا أن يعطوه أوراق عمل.

وضعت سيسي يديها على ذراع كاتي..

– لن يكون الأمر بهذا الهول. إن فرانسي فتاة ذكية وتقرأ كثيراً وسوف تستطيع تثقيف نفسها.

وقفت إيفي استعداداً للذهاب.. اسمعوا، يجب أن أذهب، ثم وضعت قطعة 50 سنتاً على الطاولة وهي تتوقع رفض كاتي لذلك وقالت بتحدٍّ:

– هذه ليست هدية كما تعتقدين.. أنا أتوقع أن تعيديها لي يوماً ما. ابتسمت كاتي فقالت:

– لا ضرورة لأن تصبحي هكذا. ليس لدي مانع من أخذ نقود من أختي.

اختصرت سيسي الطريق وفيما هي تقبِّل وجنة كاتي مودعة، وضعت دولاراً في جيب مريولها وقالت:

– أرسلي لي إذا احتجت إليّ وسأوافيك فوراً حتى ولو كان الوقت منتصف الليل ولكن أرسلي نيلي. إن إرسال فتاة مثل فرانسي ليس آمناً ليلاً في تلك الشوارع المظلمة وعبر أحواض الفحم.

جلست كاتي وحدها على طاولة المطبخ حتى ساعة متأخرة من الليل. قالت لنفسها أحتاج إلى شهرين. فقط شهرين. «يا إلهي.. أعطني القدرة على الصمود لشهرين. إنه وقت قصير سيكون خلاله طفلي قد وُلد والطفلان تخرجا من المدرسة وسأعود لأسيطر على ذهني وعلى جسدي. لا أريد أن أطلب منك شيئاً ولكن جسدي الآن يسيطر عليّ وأريد منك المساعدة.. شهرين فقط».. انتظرت قليلاً حتى تشعر بذلك الإشعاع الدافئ الذي عادة ما تشعر به عندما تقيم اتصالاً مع الله. ولكن لم يظهر أي إشعاع. أعادت الكرة مرة أخرى.

«أيتها السيدة العذراء أم يسوع أنت تعلمين بحالنا لقد كان لديك طفل.. لم يحدث شيء». وضعت الدولار الذي أخذته من سيسي وقطعة الخمسين سنتاً التي أعطتها إياها إيفي على الطاولة.. هذه ستكفينا ثلاثة أيام وبعد ذلك.. ومن دون أن تعي ما تفعل همست قائلة: جوني.. أينما كنت.. انهض بنفسك مرة أخرى.. مرة أخرى.. انتظرت قليلاً وفي هذه المرة جاءها الإشعاع.

لقد فعلها جوني مرة أخرى.

لم يستطع مكغاريتي صاحب الحانة أن ينزع جوني من تفكيره، ليس لأن ضميره كان حياً. كلا أبداً! فهو لم يرغم أحداً على الدخول إلى الحانة. وفيما عدا مفاصل الأبواب التي كانت مزيّتة بشكل جيد بحيث تفتح بسهولة عند أول لمسة، لم تكن هناك أية إغراءات يقدمها تميزه عن الحانات الأخرى. فطعامه المجاني لم يكن أفضل من غيره ولم يكن يقدم أية عروض تسلية معينة عدا تلك التي كان يسهم فيها عملاؤه.. كلا لم يكن الأمر يتعلق بضميره.

ولكنه كان يفتقد جوني. هذا كل ما في الأمر.. لم تكن المسألة مسألة نقود أيضاً لأن جوني مدين له ولكنه كان يجب أن يكون جوني حوله لأنه كان يسبغ بعض الرقي على المكان. كان شيئاً مميزاً أن ترى ذلك الشاب الأنيق يقف بكياسة على البار وسط سائقي الشاحنات وحفاري الطرق.. بالتأكيد أقرّ مكغاريتي.. كان جوني يشرب أكثر ما تتحمل صحته، ولكنه إن لم يشرب هنا فسيشرب في مكان آخر. كما أنه لم يكن سكيراً عربيداً ولم يكن يلعن ويشتم بعد تناول عدة كؤوس.. نعم لقد كان جوني شخصاً لا بأس به.

كان الشيء الذي يفتقده مكغاريتي هو الطريقة التي كان جوني يتكلم بها. ولطالما خطر في ذهنه السؤال: كيف يتحدث هذا الرجل.. لماذا كان يخبرني كل تلك القصص عن حقول القطن في الجنوب أو عن شواطئ الشمس في بلاد العرب وفرنسا وكأنه كان هناك ولم يصل إلى هذه المعلومات عن طريق أغانيه التي يعرفها. «لقد كنت أحب أن أسمعه يتحدث عن تلك المناطق النائية ولكن الأفضل من كل شيء.. كنت أحب أن أسمعه يتحدث عن عائلته».

كان مكغاريتي يحلم بعائلته.. هذه العائلة الحلم كانت تعيش بعيداً عن الحانة.. بعيداً لدرجة أنه كان عليه أن يركب العربة ليعود إلى البيت في الصباح الباكر بعد أن يغلق الحانة حيث تنتظره زوجة أحلامه وقد جهزت له القهوة الساخنة وبعض قطع الحلوى.. بعد الأكل، كانا يتحدثان حول أشياء أخرى غير موضوع الحانة. كذلك كان لدى مكغاريتي أحلام بأطفال .. أطفال نظيفين، جميلين أذكياء يكبرون وهم خجلون قليلاً من مهنة أبيهم كصاحب حانة. كان فخوراً بالخجل الذي يشعر به أطفاله لأن هذا كان يعني أن لديهم القدرة ليصبحوا أطفالاً مهذبين ومصقولي التفكير.

حسناً.. كان هذا حلمه في الزواج ثم تزوج ماي. كانت فتاة جذابة شهوانية، شعرها أحمر وفمها واسع ولكنها تحولت بعد الزواج لتصبح امرأة عنيدة فضفاضة يطلقون على من مثلها في بروكلين «فتيات الحانات». مرت سنتان على زواج مكغاريتي والأمور تبدو على ما يرام إلى أن استيقظ ذات يوم واكتشف أنها ليست كذلك. أبت ماي أن تتغير لتصبح زوجة أحلامه. كانت تحب الحانة وقد أصرت أن يعيشا في غرفة مستأجرة فوقها. لم تكن تحب منزلهما في فلاشينغ ولم تكن ترغب في القيام بأية أعمال منزلية. كانت تريد فقط أن تجلس في الغرفة الخلفية للحانة ليلاً نهاراً تشرب وتمازح العملاء فيما بقي أولادها في الشوارع يتسكعون مثل قطاع الطرق ويتبجحون بأن أباهم يملك حانة. ولعل ما زاد إحباطه أنهم كانوا يتفاخرون بوجود الحانة.

كان يعلم أن ماي تخونه ولكنه لم يأبه لذلك طالما أن الأمر لا يتعدى حدود الضحك عليه والتحدث وراء ظهره من قِبَل الرجال. فارقته الغيرة منذ سنين عندما فارقته الشهوة تجاه ماي وتدريجياً أصبح لا يأبه فيما لو نام معها أو نام مع أية امرأة أخرى، إلى حد ما اقترن الحديث الجيد في ذهنه مع الجنس الجيد. كان يريد امرأة يستطيع أن يتحدث إليها ويخبرها بما يفكر وفي الوقت نفسه أن تتحدث هي إليه بدفء وحكمة وحميمية. إذا استطاع أن يجد هذه المرأة فإنه سيعيد رجولته بطريقته المرتبكة الصامتة. أراد اتحاداً للذهن والروح مع الجسد. ومع

مرور السنين أصبحت هذه الحاجة إلى التحدث مع امرأة تفهمه ويفهمها هوساً في رأسه.

من خلال عمله، كان يراقب الطبيعة الإنسانية وقد وصل عبر هذه المراقبة إلى استنتاجات معينة، إلا أن هذه الاستنتاجات كانت تفتقر إلى الأصالة والحكمة. ولعلها في حقيقة الأمر كانت متعبة رغم ما تعنيه له من أهمية كونه اكتشفها بنفسه. في السنين الأولى لزواجه، حاول أن يخبر ماي عن هذه الاستنتاجات ولكن جلّ ما كانت تقوله هو «يمكنني أن أتخيل».. وهكذا، تدريجياً لم يستطيع مكغاريتي أن يشاركها بما يجول بداخله وبالتالي فقد القدرة لأن يكون زوجاً لها إضافة إلى أنها لم تكن مخلصة له.

كان مكغاريتي يعيش وفي روحه تجثم خطيئة كبرى، كان يكره أطفاله. فابنته آيرين كانت في عمر فرانسي، شعرها أحمر شاحب ولديها التهاب في باطن العين جعل لون عينيها أحمر دائماً بحيث يمكن أن يُطلق عليها اسم الفتاة الحمراء. كذلك كانت آيرين فتاة غبية وسيئة المعشر وقد فشلت كثيراً في المدرسة وأعادت صفوفها عدة مرات لدرجة أنها اليوم في سن الرابعة عشرة، أي بعمر فرانسي وما تزال في الصف السادس. أما ابنه جيم، وهو في العاشرة من العمر فلم تكن فيه صفة مميزة على الإطلاق سوى أن ردفيه كانا عريضين جداً لكي يثبتا بنطاله.

كان لمكغاريتي حلم آخر وهو أن تأتي ماي يوماً ما إليه وتعترف بأن أطفاله ليسوا منه. وكان هذا الحلم يشعره بالسعادة. كان يشعر أنه ربما سيحب هؤلاء الأطفال لو عرف أنهم أطفال رجل آخر لأنه حينها سيتمكن من النظر إلى حقارتهم وغبائهم بشكل موضوعي، ما سيجعله يشفق عليهم ويساعدهم ولكن طالما بقوا أطفاله فسيظل يكرههم لأنه كان يرى فيهم أسوأ خصال لديه ولدى ماي.

في السنين الثماني التي كان فيها جوني يتعامل مع حانة مكغاريتي، كان جوني يمدح كاتي كثيراً أمامه ويطري على طفليه بفخر واعتزاز وكان مكغاريتي

يجد متعة في لعب لعبة سرية خلال تلك السنوات الثماني، إذ كان يدعي لنفسه أنه جوني وأنه هو (أي مكغاريتي) الذي يتحدث عن زوجته وأطفاله.

قال له جوني مرة بفخر فيما هو يسحب ورقة من جيبه:

- أريد أن أريك شيئاً. لقد كتبت ابنتي الصغيرة موضوع إنشاء في المدرسة وحصلت على تقدير (أ) عليه. إنها لا تزال في العاشرة من العمر. اسمع أريد أن أقرأه لك.

وفيما كان جوني يقرأ كان مكغاريتي يتخيل أن التي كتبت القصة هي ابنته. مرة أخرى أحضر له جوني زوجاً من المساند المصنوعة من الخشب والتي تستخدم لتثبيت الكتب. قال له إن ابنه نيلي قد صنعها في المدرسة.

- إن ابني جيمي صنع هذه في المدرسة، قال مكغاريتي لنفسه بفخر وهو يتفحص المساند. وفي حادث آخر سأل مكغاريتي جوني محاولاً دفعه للحديث:

- هل تعتقد أننا سنخوض الحرب يا جوني؟

- شيء غريب، أجابه جوني، لقد قضينا هذا الصباح أنا وكاتي نتحدث حول هذا الموضوع وقد استطعت في النهاية إقناعها بأن ويلسون لن يقحمنا في مثل هذا المعترك.

كيف سيكون الأمر.. فكر ماغاريتي لو أنه وماي جلسا طوال الليل يتحدثان حول هذا الموضوع؟ وكيف سيكون الأمر لو أنها قالت: أنت على حق يا جيم؟ ولكنه لم يكن يعرف كيف سيكون الأمر لأنه يعرف تماماً أن مثل هذا الأمر لن يحدث.

وهكذا عندما مات جوني، ضاعت جميع أحلام مكغاريتي. حاول أن يلعب اللعبة بنفسه ولكنه لم يفلح. كان يحتاج إلى شخص مثل جوني حتى يبدأ من جديد.

في الوقت الذي كانت فيه الأخوات الثلاث جالسات يتحدثن في مطبخ كاتي كان مكغاريتي قد توصل إلى فكرة. كان يملك من المال أكثر مما يستطيع

إنفاقه ولا شيءآخر. ربما من خلال طفلي جوني يمكنه أن يجد طريقة لعودة أحلامه. كانت الشكوك تساوره بأن كاتي في مأزق مالي. ربما إذا استطاع تأمين عمل سهل لطفلي جوني بعد المدرسة يستطيع أن يساعدهما. الله يعلم أنه يستطيع أن يفعل ذلك وقد يحصل على شيء في المقابل. لا بد أنهم سيتحدثون معه بالطريقة نفسها التي كانوا يتحدثون فيها مع أبيهم.

أخبر ماي أنه سيذهب لرؤية كاتي بخصوص عمل للطفلين، ولكن ماي أخبرته وهي تضحك أنه سيطرد من المنزل. ومع ذلك فقد كان رأي مكغاريتي مختلفاً. وفيما هو يحلق ذقنه تذكر ذلك اليوم الذي جاءت فيه كاتي إليه لتشكره على وضعه إكليلاً من الزهور على قبر زوجها.

بعد جنازة جوني زارت كاتي كل من أرسل ورداً لتؤدي واجب الشكر. سارت مباشرة عبر البوابة الأمامية لحانة مكغاريتي متجاهلة الإشارة المكتوبة على المدخل الجانبي «مدخل السيدات» والرجال المتسكعين داخل البار، ثم اتجهت فوراً إلى حيث كان يقف مكغاريتي الذي ما أن رآها حتى شمّر الطرف السفلي من مريوله وأدخله في حزامه دلالة على أنه خارج العمل الآن ثم خرج من خلف البار لملاقاتها.

- لقد جئت لأشكرك على إكليل الورد. قالت كاتي.

- آه ذلك قال لها، وقد بدت عليه علامات الارتياح. فقد كان يظن أنها جاءت لتوبخه.

- لقد كان تقديراً عميقاً للمشاعر منك.

- لقد أحببت جوني.

- أعرف ذلك.. قالت ثم مدّت يدها.. نظر إليها للحظات وهو يقف صامتاً قبل أن يدرك أنها مدت يدها لتصافحه.. صافحها بشدة وهو يقول:

- أرجو أن تسامحيني.

– لماذا.. أجابته كاتي. لقد كان جوني رجلاً أبيض، حراً، تعدى الواحدة والعشرين من العمر. ثم استدارت وغادرت الحانة..

لا! قرر مكغاريتي أن مثل هذه المرأة لن تطرده إذا جاءها بنية طيبة.

جلس مرتبكاً على أحد مقاعد المطبخ ليتحدث إلى كاتي. كان من المفترض أن يكون الطفلان مشغولين في تحضير واجباتهما المدرسية ولكن فرانسي التي أرخت رأسها على الكتاب بطريقة مخادعة كانت تستمع إلى حديث السيد مكغاريتي.

– لقد تحدثت مع زوجتي وقد وافقتني الرأي على أن بإمكاننا تشغيل ابنتك – ليس عملاً شاقاً كما تعلمين.. فقط ترتيب الأسرّة وغسيل بعض الأطباق. إن بإمكاني أن أجد للصبي عملاً في تقشير البيض وقطع الأجبان من أجل الطعام المجاني مساءً. لن يكون قريباً من البار أبداً بل سيقتصر عمله في المطبخ الخلفي فقط. ولن يعمل أي منهما كثيراً. فقط ساعة أو ما قارب ذلك بعد المدرسة ونصف نهار يوم السبت وسأعطي كلاً منهما دولارين أسبوعياً.

قفز قلب كاتي «أربعة دولارات أسبوعياً» ودولار ونصف من بيع الصحف..هكذا سيبقى الاثنان في المدرسة وسيكون هناك ما يكفي للطعام وستمر هذه الأزمة.

– ما قولك يا سيدة نولان؟ سألها مكغاريتي.

– الأمر يعود للطفلين.

– حسناً.. وجه الكلام لهما.. ماذا تقولان.

تظاهرت فرانسي بأنها ترفع رأسها عن الكتاب وسألته:

– ماذا قلت.

– هل ترغبين بمساعدة السيدة مكغاريتي في أعمال البيت.

– نعم يا سيدي. أجابت فرانسي.

– وأنت؟ نظر إلى نيلي.

– نعم يا سيدي. أجاب نيلي.

إذن فقد استقر الأمر. التفت إلى كاتي مضيفاً: بالطبع سيكون هذا الترتيب مؤقتاً حتى نجد امرأة تتولى أمر البيت وشؤون المطبخ.

– أنا أفضل أيضاً أن يكون مؤقتاً. قالت كاتي.

– قد تحتاجين لبعض المال الآن.. مدّ يده إلى جيبه. لذلك سوف أدفع لكم أجرة الأسبوع الأول مقدماً.

– كلا يا سيد مكغاريتي إذا استحقا النقود فإني سأترك لهما ميزة جمعها وإحضارها إلى المنزل بنفسيهما مع نهاية الأسبوع.

– حسناً، ولكنه بدلاً من أن يرفع يده من جيبه، أغلقها على مجموعة من الأوراق النقدية ثم فكر قليلاً.. إن لدي الكثير من النقود التي لا تشتري لي شيئاً وهم لا يملكون شيئاً.. خطرت له فكرة.

– سيدة نولان أنت تعلمين أنه كان بيني وبين جوني عمل. كنت أعطيه أجره وكان يحول الإكراميات التي يأخذها لي. عندما توفي كان له عندي بعض النقود. سحب كومة الأوراق النقدية.. كانت كثيرة حتى إن عيون فرانسي جحظت وهي ترى كل هذه النقود. كان مكغاريتي يريد أن يقول إن لجوني اثني عشر دولاراً كمستحقات لديه ومن ثم يعطي هذا المبلغ لكاتي. ونظر إلى كاتي وهو يفك قطعة المطاط عن النقود.. لسبب ما اضيقّت عيناه وغيّر رأيه بالنسبة للاثني عشر دولار. كان يعلم أنها لن تصدقه بالطبع. المبلغ ليس كبيراً فقط دولاران ولكنهما ليسا لي بل لجوني. سحب من جيبه دولارين ووضعهما على الطاولة.

أطرقت كاتي برأسها وقالت: أنا أعلم أنك لست مديناً لنا بشيء، بل في الحقيقة أن جوني مدين لك. أحس بالخجل لأنه كذب وأعاد حزمة النقود إلى جيبه.. بدا غير مرتاح والنقود تضغط على فخذيه، ولكن كاتي قالت له:

- ولكن يا سيد مكغاريتي أنا أشكرك كثيراً على نواياك الطيبة.

شعر بالارتياح لكلمات كاتي الأخيرة وأفلت هذا الشعور بالراحة عقدة لسانه فراح يتحدث عن أيام صباه في إيرلندا وعن أمه وأبيه وإخوانه وأخواته الكثر وعن زواج أحلامه. أخبرها عن كل شيء كان يخزنه في رأسه منذ سنين. لم يذكر زوجته وأطفاله أبداً بل أبعد ذكرهم تماماً عن الحديث. أخبرها عن جوني وكيف كان يخبره كل يوم عن زوجته وأطفاله.

- خذي مثلاً هذه الستائر.. قال مكغاريتي وهو يؤشر بيده الثقيلة باتجاه الستائر التي يمكن اعتبارها نصف ستائر مصنوعة من القطن ومرسوماً عليها ورد أحمر.. لقد أخبرني جوني كيف مزّق ثوباً قديماً من أثوابك وصنع منه تلك الستائر.. قال إن المطبخ بدا رائعاً وكأنك تجلس في عربة للغجر.

كانت فرانسي تستمع للحديث وقد هجرت التظاهر بالدرس تماماً.. وعندما لفظ السيد مكغاريتي عبارة «عربة الغجر» قفزت في ذهنها فكرة.. إذن لقد قال أبي ذلك وكنت أظن أنه لم يلاحظ تلك الستائر. لقد روى شيئاً لطيفاً حول الستائر لهذا الرجل. شعرت وهي تسمع هذه القصة عن جوني أنه لم يمت. حدّقت في السيد مكغاريتي باهتمام كبير. كان رجلاً قصيراً مربوع الجسم، يداه غليظتان ورقبته قصيرة حمراء وشعره خفيف.. لا يمكن لأحد أن يخمّن.. فكرت فرانسي.. وهي تنظر إلى هذا الرجل كم هو مختلف من الداخل.

تكلم مكغاريتي دون توقف لمدة ساعتين. كانت كاتي تصغي بانتباه ولكن ليس لكلامه عن نفسه بل لحديثه عن جوني. وكانت كلما توقف ليأخذ نفساً تجيبه بكلمات انتقالية مثل «نعم...» أو «ماذا» أو «وبعد ذلك». وعندما كان يتعثر بكلمة ما كانت تساعده بإعطائه كلمة مناسبة تلقى عنده القبول والامتنان.

فيما هو يتكلم، حدث شيء مذهل، فقد شعر السيد مكغاريتي أن رجولته قد أخذت تتحرك بداخله، لم يكن لذلك أية علاقة بوجود كاتي معه في الغرفة نفسها فقد كان جسدها منتخفاً ومشوهاً نتيجة الحمل. في الحقيقة كان منظرها مجفلاً له. لم يكن الأمر بسبب المرأة نفسها ولكن نتيجة الحديث معها.

بدأ الظلام يخيم على الغرفة.. عندها توقف السيد مكغاريتي عن الحديث، بدا متعباً منهكاً ولكن ذهنه كان بعيداً عن التعب.. كان يشعر بالسلام في قرارة نفسه لولا إدراكه أن عليه أن يعود إلى عمله.. فالحانة الآن مليئة بالرجال العائدين إلى منازلهم من أماكن عملهم. معظمهم كانوا يتوقفون في الحانة لتناول بعض الشراب والطعام. لم يكن يحب أن يرى ماي وراء البار وأمامها حشد من الرجال... وقف على قدميه ببطء:

– سيدة نولان، قال وقد بدا عليه الارتباك وهو يعدِّل قبعته البنية:

– هل أستطيع أن آتي إليك بين فترة وأخرى للتحدث.

أطرقت كاتي برأسها ببطء.

– فقط للتحدث، كرر مكغاريتي.

– كلا يا سيد مكغاريتي. أجابت كاتي، بكل ما استطاعت من اللطف والأدب.

أطلق تنهيدة من صدره وسار في طريقه.

كانت فرانسي سعيدة لكونها مشغولة بعمل ما، فقد ساعدها هذا على أن لا تشعر بشدة فقدانها لأبيها. كانت تستيقظ مع نيلي في السادسة صباحاً وكان الاثنان يساعدان أمهما لمدة ساعتين في تنظيف وترتيب البيت قبل الذهاب إلى المدرسة. لم يكن باستطاعة أمهما أن تعمل الآن. كانت فرانسي تلمِّع الأواني النحاسية في الغرف الثلاث وتنظف كل درابزين بشريطة مزينة. أما نيلي فكان يمسح أرضية القبو وسجادات الدرج. كانا يتساعدان على حمل صفائح الرماد

على الرصيف. كان الأمر صعباً بسبب ثقل الصفائح، لذلك خطرت لفرانسي فكرة تقضي بأن ترمي الرماد على أرضية القبو ثم تعيد تعبئته بواسطة دلاء الفحم. سار الأمر على ما يرام حتى لو تطلب ذلك القيام بعدة رحلات من أسفل إلى الأعلى وبالعكس.. لم يبق لكاتي إلا مشمعات الأرضيات في الردهات كي تمسحها وقد تطوع لذلك ثلاثة من المستأجرين إلى أن تلد كاتي طفلها وقد ساعدها ذلك كثيراً.

بعد المدرسة كان على الطفلين أن يذهبوا إلى الكنيسة لتلقي الإرشادات. قد كان موعد تلقيهما القربان بموجب المذهب الكاثوليكي. سيحلّ في الربيع بعد ذلك. كانا يذهبان للعمل لدى آل مكغاريتي. كان العمل سهلاً كما وعدهما وكانت فرانسي ترتب الأسرَّة وتغسل بعض الأطباق وتمسح الغرف وكان الأمر ينتهي في أقل من ساعة.

كذلك كان لنيلي جدول عمله مثل فرانسي إضافة إلى توزيع الصحف. أحياناً لم يكن يعود إلى البيت لتناول العشاء قبل الثامنة مساءً. عمل في المطبخ الخلفي لبار مكغاريتي وكان عمله يتطلب تقشير أربع دزينات من البيض المسلوق وتقطيع الأجبان في مكعبات صغيرة وغرز نكاشة أسنان في كل قطعة وبعد ذلك تقطيع القطع الكبيرة من الخضار المخللة في شرائح طولية.

انتظر مكغاريتي بضعة أيام حتى يعتاد الطفلان على العمل ثم قرر أن الوقت قد حان لكي يتحدث معهم كما كان يفعل مع جوني. دخل إلى المطبخ وجلس يراقب نيلي وهو يعمل.

- إنه نسخة طبق الأصل عن أبيه.. انتظر طويلاً حتى يعتاد الصبي على وجوده ثم سأله:

- هل صنعت مساند خشبية للكتب مؤخراً.

- كلا كلا يا سيدي، أجاب نيلي مندهشاً من السؤال الغريب.

انتظر مكغاريتي قليلاً.. لماذا لم يبدأ الصبي بالحديث. أخذ نيلي يسرع بتقشير البيض.. حاول مكغاريني مرة أخرى أن يسأله:

– هل تعتقد أن ويلسون سيبقينا بعيدين عن هذه الحرب؟

– لا أعرف يا سيدي. أجاب نيلي.

انتظر مكغاريتي طويلاً فيما كان نيلي يعتقد أنه يراقب عمله. لذلك حاول أن يرضيه ما استطاع فعمل بسرعة وأنهى عمله قبل الموعد ثم وضع آخر بيضة قشّرها في الإناء الزجاجي الواسع ونظر إلى الأعلى. ظن مكغاريتي أنه سيبدأ الحديث ولكن نيلي قال متسائلاً:

– هل تريدني أن أعمل شيئاً آخر يا سيدي؟

– كلا هذا كل شيء، انتظر مكغاريتي قليلاً.

– إذن أظن أنني سأغادر. قال نيلي.

– حسناً يا بني! تنهد مكغاريتي وراقب الصبي وهو يغادر من الباب الخلفي. لو أنه فقط يستدير ويحدثني بشيء شخصي.. ولكن الفتى لم يستدر.

حاول مكغاريتي مع فرانسي في اليوم التالي. عاد إلى منزله وجلس قريباً منها دون أن ينبس ببنت شفة. شعرت فرانسي بالخوف وراحت تمسح الأرضية باتجاه الباب.. إذا جاء نحوي سوف أهرب إلى الخارج.. قالت لنفسها ولكن السيد مكغاريتي بقي جالساً بهدوء لمدة طويلة ظاناً أنها سوف تعتاد عليه. لم يكن يدري أنه أخافها.

– هل حصلت على علامة (أ) في موضوع إنشائي كتبته مؤخراً؟

سألها مكغاريتي.

– كلا يا سيدي.

انتظر قليلاً ثم سألها:

- هل تعتقدين أننا سنشارك في الحرب؟

- لا أدري يا سيدي.. ردت متلعثمة واقتربت أكثر من الباب.

فكر قليلاً.. أظن أنني أخيفها. ربما تظنني مثل ذلك الرجل الذي فاجأها في الردهة.. وقف ثم قال بصوت عالٍ.

- لا تخافي .. أنا ذاهب.. يمكنك أن تقفلي الباب ورائي إذا رغبت بذلك.

- حاضر يا سيدي..

فكرت قليلاً بعد ذهابه، لا بد أنه يرغب في الحديث ولكن ليس لدي شيء أقوله له.

في إحدى المرات جاءت السيدة مكغاريتي. كانت فرانسي حينها جاثمة على ركبتيها تحاول أن تنزع بعض القاذورات عن أنابيب المياه تحت المجلى.

قالت لها ماي: انهضي يا بنيتي وانسي الموضوع.. بحق الله لا تقتلي نفسك في العمل سوف تبقى هذه الشقة قائمة لمدة طويلة بعد موتي وموتك.

تناولت قطعة من حلوى «الجيلو» الوردي من الثلاجة وقطعتها نصفين ثم وضعت قطعة في كل طبق وزينتها ببعض الكريما المخفوقة ووضعت الطبقين على الطاولة ونادت على فرانسي لتأكل.

- لست جائعة يا سيدتي. قالت فرانسي وهي تكذب.

- كلي على أية حال لتكوني اجتماعية على الأقل. قالت ماي.

كانت هذه أول مرة تأكل فيها فرانسي حلوى الجيلو مع الكريما المخفوقة. كانت رائعة وكان عليها أن تتذكر آداب المائدة وأن لا تلتهمها بسرعة. كانت تفكر وهي تأكل أن السيدة مكغاريتي لا بأس بها وكذلك السيد مكغاريتي.. فقط أظن أنهما لا يليقان ببعضهما البعض.

جلست ماي والسيد مكغاريتي على المائدة المستديرة في آخر الحانة يتناولان عشاءهما المعتاد والسريع بصمت. فجأة ودون توقع وضعت يدها على ذراعه. ارتجف قليلاً أمام هذه الحركة غير المتوقعة. حدّق بعينيه الصغيرتين في عينيها السوداوين الواسعتين ورأى فيهما مشاعر شفقة.

– لن ينجح الأمر يا جيم . قالت له برقّة.. شعر بنشوة تسري في أضلاعه.. إنها تعرف.. إنها تعرف.. لماذا.. إنها تفهم.

– هناك مثل قديم يقول: المال لا يشتري كل شيء.

– أنا أعلم ذلك، سوف أتركهما بحالهما إذن.

– انتظر أسبوعين آخرين حتى تلد أمهما.. أكرمهما قليلاً.. قالت ذلك ونهضت متجهة إلى البار.

جلس مكغاريتي وقد مزّقته مشاعره.. «لقد تحدثنا سوية».. قالها لنفسه مندهشاً.. لم نذكر أية أسماء ولم نقل شيئاً محدداً بالكلمات ولكنني كنت أعلم بماذا تفكر وكانت هي تعلم أيضاً بماذا أفكر أنا.. قام مسرعاً ليلحق بزوجته أراد أن يثبت ذلك التفاهم بأية طريقة. رأى ماي واقفة عند طرف البار. كان أحد سائقي الخيل وهو رجل ضخم يلف ذراعه حول وسطها ويهمس شيئاً في أذنها وكانت هي تضع يدها على فمها كي لا تفلت منها ضحكة. عندما اقترب مكغاريتي، رفع الرجل يده عن خصرها بتراخٍ وانسحب ليجالس بعض الرجال من شاكلته. واقترب مكغاريتي حتى وصل خلف البار ونظر في عيني زوجته. كانتا فارغتين من أي إحساس وليس فيهما أي أثر لفهم.. طأطأ مكغاريتي رأسه وعاد إلى إحباطه القديم بينما هو يبدأ بعمله المسائي.

كانت ماري روميلي قد بدأت تهرم ولم تعد تستطيع أن تسير في بروكلين وحدها. كانت ترغب في رؤية كاتي قبل أن يعزلها العمر، لذلك سلمت الرجل الذي يحصِّل أقساط بوليصة التأمين رسالة شفهية تقول فيها:

- عندما تلد امرأة، يمسك الموت بتلابيبها لفترة من الوقت وأحياناً لا يتركها. أرجوك أن تخبر ابنتي الصغرى أنني أريد أن أراها مرة قبل أن يحين موعد ولادتها.

أبلغ المحصِّل كاتي بفحوى الرسالة. وفي يوم الأحد الذي تلا، ذهبت كاتي لرؤية أمها مصطحبة فرانسي معها. طلب منها نيلي راجياً أن تعفيه من الزيارة لأن لديه لعبة بيسبول في الملعب وقد وعد الشباب أن يقوم بدور الرامي.

يتميز مطبخ بيت سيسي بوسعه ودفئه وإضاءته الشمسية إضافة إلى نظافته الكاملة. كانت الجدة روميلي جالسة قرب الموقد على كرسي هزاز صغير، وكان هذا الكرسي هو قطعة الأثاث الوحيدة التي أحضرتها معها من النمسا بعد أن ظلت قرب موقد عائلتها لأكثر من مائة عام.

جلس زوج سيسي عند النافذة يحمل الطفلة بيده ويسقيها الحليب بالزجاج. دخلت كاتي وفرانسي وسلما على الجدة وسيسي ثم سلما عليه.

- مرحباً يا جون، قالت كاتي.

- مرحباً كاتي، أجابها جون.

- مرحباً أيها العم جون.

- مرحباً فرانسي.

لم يقل كلمة أخرى طوال فترة الزيارة. كانت فرانسي تحدِّق به وتتساءل هل سيكون زوجاً مؤقتاً كما تعتقد العائلة من بين أزواج سيسي وعشاقها. تساءلت فرانسي إذا كان هو نفسه يشعر أنه مؤقت. كان اسمه الحقيقي ستيف ولكن سيسي كانت تنادي جميع أزواجها وعشاقها باسم جون. وعندما كانت العائلة تتحدث عنه كان الاسم المألوف لديهم دائماً جون أو جون سيسي. تساءلت فرانسي أيضاً إذا كان الرجال في مكان العمل بدار النشر ينادونه جون.. هل احتج يوماً؟.. هل قال يوماً: اسمعي يا سيسي أنا اسمي ستيف وليس جون وأخبري أخواتك أن ينادينني باسم ستيف أيضاً.

– سيسي لقد أصبحت أكثر بدانة. قالت كاتي.

– من الطبيعي لأي امرأة أن تكسب وزناً زائداً بعد الولادة أجابت سيسي بكل ثقة ثم ابتسمت لفرانسي وسألتها:

– هل تحبين أن تحملي الطفلة.

– بالطبع نعم...

دون أن ينطق حرفاً واحداً نهض زوج سيسي الطويل وسلَّم الطفلة والزجاجة إلى فرانسي ثم مشى إلى خارج الغرفة بصمت. لم يعلق أحد على خروجه.

جلست فرانسي في مقعده الخالي. لم تكن قد حملت بيدها طفلاً من قبل، لمست وجنة الطفل الرقيقة المستديرة تماماً مثلما كانت تفعل جوانا. أحست برعشة في أطراف أصابعها، امتدت إلى ذراعها وعبر كامل جسدها.. عندما أكبر.. سوف يكون لي دائماً طفل جديد في المنزل.. هكذا قررت فرانسي.

بينما هي تحمل الطفل، سمعت والدتها وجدتها تتحدثان وراقبت سيسي وهي تخلط ما يكفي مؤونة شهر من المعكرونة. سحبت سيسي إناءً مليئاً بعجينة جامدة صفراء اللون وفردتها مسطحة بالمرقاق ثم لفّت العجينة المرققة وقطعتها على شكل شرائح بسُمك الورق. بعد ذلك بسطت الشرائح وعلقتها على منصبة مصنوعة من عيدان وتدية رقيقة معلقة أمام موقد المطبخ. كانت هذه طريقة تجفيف المعكرونة.

شعرت فرانسي أن هناك شيئاً مختلفاً بالنسبة لسيسي. لم تعد الخالة سيسي كما كانت سابقاً. ليس الأمر لأنها أصبحت أقل نحافة من العادة ولكنها لم تعد تتصرف كما كان يبدو عليها سابقاً. كان هذا الأمر يحيِّر فرانسي.

أرادت الجدة ماري روميلي أن تسمع جميع الأخبار من كاتي، وقد أخبرتها الأخيرة كل شيء بدءاً من النهاية وعودة إلى البداية. أخبرتها عن عمل الطفلين

لدى مكغاريتي وكيف أن النقود التي يجلبانها قد ساعدتها على تدبير أمورهما ثم عادت وأخبرتها عن مكغاريتي الذي جاء وجلس معها في المطبخ وحدثها عن جوني ثم أنهت حديثها بالقول:

– أقول لك يا أماه لو أن مكغاريتي لم يفعل ما فعله لما كنت أدري ما يمكن أن يحدث لنا. لقد كانت معنوياتي في الحضيض وقد صلّيت عدة ليالٍ قبل ذلك كي يساعدني جوني.. إنه تفكير أحمق..أنا أعلم ذلك.

– ليس أحمق.. لقد سمعك وساعدك. قالت الأم.

– الشبح لا يساعد أحداً يا أماه. قالت سيسي.

– الأشباح ليست تلك التي تدخل عبر الأبواب المغلقة، قالت لها أمها. لقد تحدثت كاتي كيف كان زوجها يتحدث إلى صاحب الحانة. في كل هذه الأعوام كان جوني يعطي للرجل جزءاً من نفسه وعندما طلبت كاتي المساعدة من جوني تجمعت هذه الأجزاء في قلب الرجل وكان جوني موجوداً فيها فهرع لمساعدتها.

فكرت فرانسي بالأمر مليّاً، إذا كان الأمر كذلك فإن السيد مكغاريتي أعاد لنا تلك الأجزاء من أبي عندما تحدَّث ملياً عنه. لا يوجد شيء من أبي فيه الآن. ربما هذا هو السبب الذي يجعلنا لا نستطيع التحدث معه مثلما كان يرغب.

عندما حان موعد العودة إلى البيت، أعطت سيسي لكاتي علبة مليئة بالمعكرونة، وفيما كانت فرانسي تُقبِّل جدتها مودّعة ضمّتها ماري روميلي إليها وهمست لها قائلة بلغتها الخاصة:

– في الشهر القادم، قدِّمي لأمك أكثر ما تستطيعين من الطاعة والاحترام لأنها ستكون بحاجة إلى الكثير من الحب والتفهم.

لم تفهم فرانسي كلمة واحدة مما قالته جدتها ولكنها أومأت برأسها مجيبة:

– نعم يا جدتي.

بينما هما عائدتان إلى المنزل في العربة، أمسكت فرانسي بعلبـة المعكرونـة في حضنها لأن أمها كانت بلا حضن الآن. وفي الطريق غرقت فرانسي بالتفكير: إذا كان ما قالته الجدة صحيحاً فإن هذا يعني أن لا أحد يموت. لقد رحل أبي ولكنـه ما زال هنا بطرق كثيرة. هو موجود في نيلي الذي يشبهه تماماً وفي أمي التي عرفتـه لوقت طويل وفي أمه التي بدأت به وما تزال حية تُرزق. ربما سيكون لي يومـاً مـا طفل يشبه أبي ويحمل كل صفاته الطيبة مـا عـدا الـشرب. وهـذا الطفـل سـيكبر وسيكون له طفل أيضاً وهكذا. ربما لا يوجد موت حقيقي. ذهبت أفكارها باتجاه مكغاريتي. لن يصدق أحد أنه كان يحمـل جـزءاً مـن أبي في داخلـه - فكـرت في السيدة مكغاريتي وكيف أنهـا عاملتهـا بلطـف ودعتهـا لتأكـل حلـوى الجيلـو. خطرت لها فكرة.. عرفت فجأة ما الذي تغير في الخالة سيسي فسألت أمها:

- إن الخالة سيسي لم تعد تستخدم ذلك العطر القـوي.. ألـيس كـذلك يـا أماه؟

- كلا إنها لا تحتاج لذلك بعد اليوم.

- لماذا؟

- لأن لديها طفلاً الآن ورجلاً يرعاها ويرعى الطفل.

أرادت فرانسي أن تسأل أكثر ولكنها لاحظت أن عينـي أمهـا عـلى وشـك الإغلاق وأن رأسها قد مال على المقعد. كانت تبدو شاحبة متعبـة لـذلك قـررت فرانسي أن لا تزعجها بالأسئلة وأن تحاول أن تكتشف الأمر بنفسها..

قالت لنفسها: لا بد أن هذا العطر القوي يرتبط بطريقة ما بالمرأة التي تريد أن تنجب طفلاً وأن تحظى برجل يعطيها ذلك الطفل ويرعاها ويرعـاه. أبعـدت عنها تلك القطعة من المعرفة مع سائر المعلومات التي كانت تجمعها.

بدأت فرانسي تشعر بصداع ولكنها لم تعرف هل هو بـسبب الإثـارة التـي شعرت بها حين حملت الطفل بيدها أم بسبب اهتزاز العربة أو بسبب الفكرة التي

تكونت لديها حول أبيها أو ما اكتشفته عن عطر خالتها سيسي. ربما السبب هو استيقاظها باكراً جداً في الصباح وكونها مشغولة طوال النهار أو أن هذا الوقت من الشهر هو الوقت الملائم لحدوث الصداع.

- حسناً! قررت فرانسي أعتقد أن سبب الصداع هو الحياة وليس شيئاً آخر.

- لا تكوني سخيفة.. قالت لها أمها بهدوء وهي ما تزال ترخي برأسها على مقعد العربة وتغمض عينيها. لقد كان مطبخ الخالة سيسي دافئاً جداً. أنا أشعر بصداع أيضاً.

قفزت فرانسي من مقعدها.. هل أصبحت أمها قادرة على قراءة ما يجول في رأسها حتى وهي مغمضة عينيها.. ولكنها تذكرت أنها كانت غارقة في الأفكار وأن الفكرة الأخيرة انطلقت منها بصوت عال. ضحكت ولأول مرة منذ وفاة والدها وكذلك فعلت أمها فقد فتحت عينيها وابتسمت.

39

في أيار/ مايو من ذلك العام تـم تثبيـت عـماد نـيلي وفرانـسي عـبر تنـاولهما القربان المقدس لأول مرة كما هو شائع عند الكاثوليك المسيحيين. كانت فرانـسي آنذاك في سن الرابعة عشر والنصف بينما كان نيلي يصغرها بعام. في هـذه المناسـبة قامت سيسي وهي الخبيرة في شؤون الخياطة بإحضار ثوب من الموسلين الأبـيض لكي ترتديه فرانسي يوم تثبيت العماد فيما اشـترت كيتـي لفرانـسي حـذاءً أبـيض وجوارب بيضاء مصنوعة من الحرير. كـان هـذا أول عهـد لفرانـسي بـالجوارب الحريرية. أما نيلي فقد ارتدى البذلة السوداء التي كان قـد ارتـداها سـابقاً خـلال جنازة والده.

كانت هناك خرافة تدور في المنطقة بأن أية ثلاث أمنيات تطلبهـا في ذلـك اليوم سوف تتحقق. الأولى يجب أن تكون أمنية مستحيلة، والثانية أمنية يمكنـك تحقيقها بنفسك، أما الثالثة فتتعلق بوضعك عنـدما تكـبر. كانـت أمنيـة فرانـسي الأولى أن يتحول شعرها البني المستقيم إلى شعر ذهبي جعدي مثل شعر نيلي. أمـا الأمنية الثانية بأن يكون لها صوت رخيم مثل أمها وخالتيها إيفـي وسيـسي فـيما تمنت ثالثاً أن تسـافر حول العالم حين تكبر. بالنسبة لنـيلي كانـت أمنيتـه الأولى أن يصبح ثرياً جداً والثانية أن يحصل على علامات جيدة في شهادته المدرسية والثالثة أن يشرب الخمر مثل أبيه عندما يكبر.

كذلك كان هناك ميثاق غليظ في بروكلين ينص على أن الأطفال يجب أن تؤخذ لهم صور من قبل مصور محترف في مناسبة تثبيت عمادهم. لم تكن كاتي لتقدر على دفع ثمن الصور وكان عليها أن تكتفي بترك فلوسي غاديس التي كانت تملك كاميرا ذات صندوق بأن تأخذ صوراً للطفلين. طلبت منهما فلوسي أن يقفا على حافة المدخل وأخذت لهما صورة دون أن تنتبه إلى العربة التي مرت تقرقع خلف الطفلين لحظة التقاط الصورة. قامت فلوسي بتكبير الصورة ووضعها في إطار ثم قدمتها لفرانسي شخصياً يوم تثبيت العماد.

كانت سيسي حاضرة عندما وصلت الصورة. رفعت كاتي الصورة فيما راح الجميع يتفحصها من خلف كتف كاتي. لم تكن فرانسي قد خضعت لأي تصوير من قبل ولأول مرة شاهدت نفسها كما يراها الآخرون. كانت تقف جامدة مستقيمة على حافة الرصيف وظهرها يلاصق المزراب بينما كان ثوبها يرفرف مع الهواء. أما نيلي فقد كان واقفاً إلى جانبها وقد بدا فتىً ثرياً وسيماً في بذلته السوداء المكوية حديثاً. كان أطول منها قليلاً. كانت الشمس لحظة التقاط الصورة تنسدل من فوق أسطح المنازل بحيث بدت وكأن نيلي في داخلها فيما ظهر وجهه صافياً براقاً. أما فرانسي فكانت تقف في الظل وبدا وجهها داكناً وغاضباً. وفي خلفية الصورة ظهرت العربة المهترئة التي كانت تمر في تلك اللحظة.

قالت سيسي: «أراهنكم أنه لا توجد في العالم صورة تثبيت عماد فيها عربة إلا هذه فقط».

- إنها صورة جيدة.. قالت كاتي.. الطفلان يبدوان طبيعيين في هذه الصورة أكثر مما لو أخذت لهم أمام زجاج الكنيسة. قامت كاتي بتعليق الصورة فوق الموقد.

- ما هو الاسم الذي اتخذته في تثبيت العماد؟ سألت سيسي.

- اسم أبي أنا اليوم أدعى كورنيليوس جون نولان.

- إن هذا اسم يليق بطبيب جراح. علّقت كاتي.

- وأنا اتخذت اسم أمي، قالت فرانسي باهتمام، اسمي الكامل الآن هو ماري فرانسيس كاثرين نولان. انتظرت فرانسي لتسمع تعليق أمها ولكن أمها لم تقل إن هذا الاسم يليق بكاتبة.

- هل لديك صور لجوني؟ سألت سيسي.

- كلا فقط تلك الصورة التي التقطناها يوم زواجنا... لماذا؟

- لا شيء ولكن الأيام تمر بسرعة، أليس كذلك؟

- نعم، أجابت كاتي وهي تتنهد... آه هذا شيء مؤكد.

انتهت مراسم تثبيت العماد ولم تعد فرانسي تتلقى أية إرشادات جديدة. كان لديها ساعة إضافية كل يوم تخصصها للقصة التي كانت تكتبها كي تبرهن للمعلمة غارندر وهي المعلمة الجديدة للغة الإنكليزية أنها تعرف شيئاً عن الجمال.

منذ وفاة والدها، اضطرت فرانسي لأن توقف الكتابة عن الطيور والأشجار وعن انطباعاتها. ولأنها كانت تفتقد أباها كثيراً راحت تكتب قصصاً صغيرة عنه حاولت أن تظهر فيها أنه وعلى الرغم من نواقصه إلا أنه كان أباً رائعاً وإنساناً حنوناً. كتبت ثلاث قصص نالت عليها درجة (د) بدلاً من (أ) التي اعتادت نيلها. أما القصة الرابعة فقد جاءها الرد من المعلمة بعبارة «أرجو أن تبقي في الصف بعد انتهاء اليوم الدراسي».

عاد الأطفال جميعاً إلى منازلهم وبقيت المعلمة غارندر وفرانسي وحدهما في غرفة الصف التي تحتوي على قاموس ضخم. على مكتب المعلمة غاردنر كانت هناك أوراق القصص الأربع التي كتبتها فرانسي.

- ما الذي جرى لكتابتك يا فرانسيس؟ سألتها المعلمة.

- لا أدري.

– لقد كنت من أفضل التلاميذ وكانت كتاباتك جميلة وممتعة ولكن هذه الكتابات الأخيرة ... أشارت إلى القصص بازدراء.

– لقد كنت أراجع تهجئة الألفاظ ووجدت صعوبة في إصلاح الخط و.. قالت فرانسيس، ولكن المعلمة قاطعتها قائلة:

– أنا أتحدث عن المواضيع.

– لقد قلت لنا إن باستطاعتنا اختيار المواضيع.

– نعم ولكن ليس مواضيع قبيحة مثل الفقر والجوع والسكر. نحن ندرك جميعنا أن هذه الأمور موجودة ولكننا لا نكتب عنها.

– ما الذي نكتب عنه إذن؟ ردت فرانسي على المعلمة بأسلوبها نفسه.

– إن الإنسان يبحث في مخيلته فيجد فيه الجمال! إن الكاتب هو مثل الفنان ينبغي أن يسعى إلى الجمال دائماً.؟

– ما هو الجمال؟ سألت فرانسي.

– لا يحضرني تعريف أفضل من ذلك الذي ذكره كيتس، الجمال هو الحقيقة والحقيقة هي الجمال.

استجمعت فرانسي كل شجاعتها وردت:

– ولكن هذه القصص هي الحقيقة.

– هراء. انفجرت المعلمة غاردنر بصوت عالٍ ثم خففت من حدة صوتها وتابعت قائلة: إننا نعني بكلمة الحقيقة أشياء مثل النجوم الموجودة هناك دائماً، أو الشمس التي تسطع على الدوام، وكذلك شهامة الرجال ومحبة الأم وحب الوطن.. أنهت عبارتها بصوت خافت.

– لقد فهمت. قالت فرانسي.

وفيما تابعت المعلمة غاردنر حديثها كانت فرانسي ترد عليها في ذهنها بمرارة.

إن السكر ليس حقيقة ولا هو جمال.. إنه شر ومكانه في السجن وليس في القصص. أما الفقر فليس له عذر. هناك عمل كافٍ لمن يرغب. إن الناس يصبحون فقراء لأنهم كسالى ولا يرغبون في العمل ولا يوجد شيء جميل في الكسل.

(تخيل أمي كسولة) قالت فرانسي في ذهنها فيما تابعت المعلمة: كما أن الجوع ليس جميلاً وهو غير ضروري فلدينا العديد من دور الصدقات المنظمة ولا يحتاج أحد لكي يجوع.

شدت فرانسي على أسنانها. كانت أمها تكره كلمة صدقة أكثر من أية كلمة أخرى في اللغة وقد ربت أولادها على كراهية هذه الكلمة أيضاً.

- والآن أنا لست امرأة أرستقراطية.. قالت المعلمة غارندر، ولا أنا من عائلة ثرية. كان والدي قساً يتقاضى راتباً ضئيلاً.

(ولكنه كان راتباً يا معلمة غاردنر) قالت فرانسي في سرها.

وكانت المساعدة الوحيدة التي تلقتها والدتي هي من خادمتين غير مدربتين جاءتا من الريف.

(آه. لقد كنت فقيرة يا معلمة غاردنر.. فقيرة مع خدم) ظلت فرانسي تقول في سرّها.

- لقد أردت أن أذهب إلى جامعة الولاية ولكننا لم نملك ما يكفي. لذلك أرسلني والدي إلى كلية صغيرة تابعة للطائفة.

(نعم ولكن اعترفي بأنه لم يكن لديك مشكلة في الذهاب إلى الكلية)، ردت فرانسي في السر فيما تابعت المعلمة غاردنر.

– وصدقيني لا بد أن تكوني فقيرة لتذهبي إلى مثل هذه الكلية. أنا أعلم ما هو الجوع أيضاً. لقد مرت علينا أوقات توقف فيها راتب والدي ولم يكن لدينا نقود تكفي لشراء طعام. في إحدى المرات عشنا على الخبز والشاي ثلاثة أيام.

(إذن فأنت تعرفين ما معنى الجوع أيضاً).

– ولكني سوف أعتبر نفسي شخصاً مملاً وكسولاً إذا بقيت لا أكتب عن شيء سوى كوني أعاني الجوع والفقر، أليس كذلك.

لم تجب فرانسي.

– أليس كذلك؟ كررت المعلمة.

– نعم يا سيدتي.

والآن إلى مسرحيتك من أجل التخرج، تناولت المعلمة مخطوطة رقيقة من درج مكتبها.. وأردفت قائلة: إن بعض الأجزاء في المسرحية جيدة جداً بالتأكيد ولكنك ابتعدت عن النص في أجزاء أخرى.. «على سبيل المثال»، قامت بقلب الصفحة «هنا يقول «القدر»: أنت يا «شاب» ما هو طموحك ويجيب الفتى: أنا أريد أن أعالج الناس أن أجمع الأجساد المكسرة للرجال وأعيد لحمتها والآن هذه فكرة رائعة يا فرانسيس ولكنك أفسدتها هنا عندما كتبت هذا ما لن تفعله وهذا ما ستفعل: يشرق الضوء على رجل عجوز يلحم قعر منفضة ويقول: آه لقد ظننت مرة أنك ستكون من يلحم أجساد الرجال والآن أنا ألحم... رفعت المعلمة غارندر نظرها فجأة ثم سألت:

– إنك لم تقصدي هنا أن تكون العبارة مضحكة أليس كذلك؟

– آه كلا يا سيدتي.

– بعد حديثنا هذا سوف ترين لماذا لا يمكنك عرض مسرحيتك في حفل التخرج.

– حسناً ... شعرت فرانسي بقلبها يتحطم.

– والآن إن بياتريس وليامز لديها فكرة لطيفة. هناك جنية تلوِّح بعصاها والأولاد والبنات يخرجون بزي موحد وهناك زي لكل عطلة في السنة وكل منهم يلقي قصيدة صغيرة حول العطلة التي يمثلها. إنها فكرة رائعة ولكن بياتريس للأسف لا تستطيع أن تنظم السجع. ألا ترغبين بأن تأخذي هذه الفكرة وتكتبي قصائد لها. إن بياتريس لن تكترث لذلك ويمكننا أن نعلِّق مذكرة ضمن البرنامج تقول إن الفكرة هي فكرتها.. إن هذا منصف أليس كذلك؟

– نعم يا سيدتي ولكنني لا أريد أن أستخدم أفكارها بل أفكاري أنا.

– إن هذا جدير بالثناء بالطبع.. حسناً لن أصرّ كثيراً.. وقفت المعلمة ثم أردفت: لقد أمضيت كل هذا الوقت معك لأنني أؤمن بصدق أنك إنسانة واعدة. والآن بعد أن أنهينا الحديث أنا متأكدة أنك لن تعودي لكتابة هذه القصص الصغيرة القذرة.

– قذرة ! فكرت فرانسي في معنى هذه الكلمة فهي لم ترد في قاموسها من قبل.

– ماذا تعني كلمة قذرة؟ سألت فرانسي.

– ماذا قلت لك عندما لا تعرفين معنى كلمة... قالت لها المعلمة بطريقة غنائية تهريجية.

– آه ... لقد نسيت، عادت فرانسي على قاموسها الضخم لتبحث عن معنى كلمة قذر. آه إنها تعني وسخ، فكرت بوالدها وهو يرتدي بذلته الجديدة وياقته المكوية كل يوم وكذلك حذاءه المهترئ الذي كان يلمِّعه مرتين في اليوم. قذر ! لقد كان لوالدي كأسه الخاص للحلاقة في دكان الحلاقة، والآن هناك معنى آخر للكلمة «دنيء» آه، مرت عنها فرانسي لأنها لم تفهمها، المعنى التالي: ضخم! لقد كان والدي راقصاً جسمه أنيق نحيف وسريع لم يكن ضخماً.. المعنى التالي نذل! لماذا تذكرت فرانسي مئات التصرفات الرقيقة والكريمة لوالدها. تذكرت

كيف كان الجميع يحبونه. أحست بالنار تلهب وجهها من الغضب. لم تعد تستطيع أن تقرأ الكلمات فقد أصبح لون الصفحة أحمر أمام عينيها. التفتت إلى المعلمة غارندر ووجهها يستشيط غضباً:

- «إياك وأن تستخدمي هذه الكلمة معنا».

- معنا ! سألتها المعلمة غارندر وهي مرتبكة. نحن نتكلم عن مواضيعك الإنشائية! ماذا بك يا فرانسيس، كان صوتها يبدو وكأنها أصيبت بصدمة، أنا متفاجئة جداً بفتاة مثلك حسنة التصرف. ماذا ستقول أمك لو علمت أنك تصرفت بوقاحة مع معلمتك؟

أصيبت فرانسي بالرعب. إن التصرف بوقاحة مع المعلمة يعني ذنباً يستحق إرسال الطالب إلى إصلاحية في بروكلين. أرجوك اعذريني، أرجوك اعذريني رددتها فرانسي بذلك، أنا لم أقصد ذلك.

- أنا أفهم تماماً ما تقولين. أجابتها المعلمة بلطف ثم وضعت ذراعها حولها برفق وسارت معها نحو الباب. لقد أثرت عليك كثيراً هذه المحادثة بيننا . أنا أرى الآن أن كلمة قذر هي كلمة قبيحة وأنا سعيدة أنك نبهتني لعدم استخدامها إن هذا يدل على أنك تفهمين. ربما لن تحبيني بعد اليوم ولكن أرجوك أن تكوني واثقة أنني تحدثت إليك لصالحك. يوماً ما سوف تتذكرين ما قلته وستشكرينني على ذلك.

تمنت فرانسي أن يتوقف الكبار عن ترداد هذه العبارة أمامها. لقد أصبح وزن كلمات الشكر التي ستردّدها في المستقبل يثقل كاهلها منذ الآن. تصورت أن عليها أن تمضي أفضل أيام شبابها وهي تركض وراء هؤلاء الكبار لتشكرهم كلما تذكرت وتبلغهم أنهم كانوا على حق.

أعادت لها المواضيع القذرة والمسرحية وهي تردد: عندما تعودين إلى المنزل احرقي هذه الأوراق في الموقد. أشعلي عود الكبريت بيدك وبينما تلتهم النار صفحاتها قولي: إنني أحرق القبح، إنني أحرق القبح.

في طريق عودتها من المدرسة إلى المنزل حاولت فرانسي أن تتخيل ما حدث. كانت تعلم أن المعلمة غارندر ليست سيئة فقد تكلمت معها لصالحها إلا أنها لم تبدُ لطيفة بالنسبة لفرانسي. بدأت تتفهم أن حياتها قد تبدو مقززة بالنسبة لبعض المثقفين. تساءلت هل ستخجل من ماضيها عندما تصبح مثقفة. هل ستخجل من الناس الذين حولها أو من أبيها الأنيق الحنون ذي القلب الطيب المتفهم؟ أم هل ستخجل من أمها الشجاعة الصادقة التي ظلت تفتخر بأمها رغم أن الجدة لم تكن تقرأ أو تكتب أم هل ستخجل من نيلي الذي كان دائماً فتىً صادقاً؟ كلا كلا إذا كانت الثقافة ستجعلها تخجل مما كانت عليه فهي لا ترغب منها شيئاً. أقسمت قائلة: سوف أري المعلمة غاردنر... سأريها أن لدي خيالاً. سوف أفعل ذلك بالتأكيد.

بدأت تكتب روايتها منذ ذلك اليوم، كانت بطلة القصة تدعى شيري نولا وهي فتاة وجدت وعاشت في ثراء ورفاهية عمياء. أطلقت على القصة اسم هذه أنا وكنت قصة غير حقيقية عن حياة فرانسي.

كتبت فرانسي عشرين صفحة حتى الآن. ذكرت فيها تفاصيل دقيقة عن الأثاث الفاخر في منزل شيري كما وصفت بحماس مفرط ثيابها الأنيقة الرائعة والغالية الثمن وكذلك الأطعمة الرائعة التي كانت تتناولها.

عندما انتهت من كتابة الرواية، خططت فرانسي كي تسأل جون زوج خالتها سيسي أن ينشرها لها في مكان عمله. كما راود فرانسي ذلك الحلم الرائع: كيف سيكون الحال عندما تقدم الكتاب إلى المعلمة غاردنر. كان المشهد كله حاضراً في ذهنها وأخذت تحضر للحوار الذي سيدور مع المعلمة غاردنر.

- فرانسي، بينما هي تقدم الكتاب للسيدة غاردنر، أعتقد أنك ستجدين شيئاً قذراً هنا. أرجو أن تعتبريها ورقة هذا الفصل كما آمل أن لا تمانعي في نشرها.

يسقط فك المعلمة غادرنر مفتوحاً ولكن فرانسي لا تعيرها انتباهاً.

إن من الأسهل أن تقرئيه طباعة أليس كذلك.

بينما تقرؤه المعلمة غاردنر تحدق فرانسي من النافذة بلا مبالاة.

– المعلمة غاردنر (بعد أن قرأته).

– ماذا يا فرانسي إن هذا رائع.

– ما هو؟ (بدت وكأنها تحاول أن تتذكر).

آه الرواية لقد كتبتها بسرعة في لحظات قليلة الكتابة لا تأخذ وقتاً طويلاً عندما تكتبين عن أشياء لا تعرفين عنها شيئاً. أما عندما تكتبين عن أشياء حقيقية فالأمر يستغرق وقتاً أطول لأن عليك أن تعيشيها أولاً.

مسحت فرانسي هذه العبارة. لم تكن ترغب بأن تشك المعلمة غاردنر بأن شعورها مجروح لذلك أعادت كتابتها.

– فرانسي ماذا (تستذكر).

آه الرواية أنا سعيدة لأنها أعجبتك.

– المعلمة غارندر بوداعة: فرانسي هل يمكنني أن أطلب توقيعك عليها؟

– بالطبع.

تناول المعلمة غارندر قلمها الحبر وتقدمه لفرانسي ورأسه موجهاً نحوها. تكتب فرانسي: مع تحيات م. فرانسيس. كي. نولان

– المعلمة غارندر (تتأمل التوقيع)

يا له من توقيع مميز.

– فرانسي: إنه فقط اسمي الشرعي.

المعلمة غارندر بوداعة: فرانسيس؟

فرانسي: أرجوك أن تشعري بالحرية في التحدث معي كما الأيام الخوالي.

المعلمـة غارنـدر: هـل يمكنني أن أطلـب منـك أن تكتبـي إلى صـديقتي ميورييل غارندر فوق توقيعك.

فرانسي: بعد وقفة قصيرة.

– ولِمَ لا؟

ثم مع ابتسامة ملتوية.

لقد كنت أكتب دائماً ما كنت تطلبينه مني.

– المعلمة غاردنر بهمسة خفيفة (شكراً).

– فرانـسي: أيتهـا المعلمـة غارنـدر، لم يعـد الأمـر هامـاً الآن ولكـن هـل بإمكانك أن تضعي لي علامة على هذا العمل؟... فقط من أجل الأيام الخوالي.

تتناول المعلمة غارندر قلماً أحمر وتكتب درجة (أ).

كان حلماً وردياً لدرجة أن فرانسي بدأت الفصل التالي مـن الكتـاب وهـي ترتجف من الإثارة. سوف تكتب وتكتب وتنهي العمل حتى يتحقق الحلم.

كتبت ما يلي:

– باركر... سألت شيري نولا خادمتهـا الخاصـة: مـا الـذي سـيقدمه لنـا الطباخ الليلة من الطعام؟

– أعتقد أن الطعام الليلة سيكون صدر حجل مع هليون وفطراً مـستورداً مع حلوى أناناس بالكريما يا آنسة شيري.

– يبدو كئيباً بطريقة فظيعة ... أجابت شيري معلِّقة.

– نعم يا آنسة شيري. وافقتها الخادمة باحترام.

– أتعلمين يا باركر أريد أن أفرض إحدى نزواتي.

– إن نزواتك هي أوامر في البيت.

- أريد أن أرى كمية من الحلويات الخفيفة وأختار طعامي من بينها، أرجوك أن تحضري لي كعكة شارلوت وكعكة فراولة وبعض البوظة ... ولتكن من الشوكولاته، كذلك 12 قطعة من حلوى أصابع الست وصندوق من الشوكولاته الفرنسية.

- حاضر يا آنسة شيري.

سقطت نقطة ماء على الصفحة. نظرت فرانسي إلى الأعلى ... لكن السقف لا يسرِّب الماء. كان ذلك لعاباً يسيل من فمها .. لقد أنهكها الجوع. ذهبت إلى الموقد وكشفت غطاء الوعاء. لم يكن فيه إلا عظمة شاحبة يحيط بها الماء. كان هناك بعض الخبز في صندوق الخبز كانت قطعة خبز يابسة ولكنها أفضل من لا شيء. قطعت منها شريحة ثم صبت بعض القهوة وراحت تغط الخبز في القهوة كي تليِّنه. وبينما هي تتناول طعامها قرأت ما كانت قد كتبته وهنا اكتشفت أمراً مذهلاً.

انظري هنا يا فرانسيس نولان .. كانت تكلم نفسها .. في هذه القصة أنت تكتبين تماماً ما كنت قد كتبته في تلك القصص التي لم تعجب المعلمة غارندر. إنك هنا تكتبين عن الجوع الشديد ولكنك تكتبين عنه بطريقة ملتوية وسخيفة.

مزّقت فرانسي أوراق الكتاب وقد استبد بها الغضب ثم ألقت الأوراق في الموقد. وعندما بدأت ألسنة اللهب تلتهمها، ازداد غضبها وركضت لتحضر صندوق القصص من تحت سريرها. وضعت القصص الأربع التي كتبتها عن أبيها جانباً وألقت الباقي في الموقد، كانت بهذا تحرق جميع مواضيعه الجميلة التي نالت عليها درجة (أ)، ظهرت عبارات القصص أمامها قبل أن تحرقها النيران: «شجرة حور عملاقة، طويلة وعالية، رزينة وهادئة، ترتفع نحو السماء»... ثم عبارة أخرى «تتقوس السماوات الزرقاء برقة فوقنا ... إنه يوم مثالي من أيام شهر أكتوبر (تشرين أول) ...» ثم نهاية عبارة أخرى: «تبدو ورود نبتة الخطمية وكأنها غروب شفاف أما ورود العايق فتبدو وكأنها حشود من الجنّات».

أنا لم أرَ شجرة حور بحياتي وأقرأ أحياناً عن السماء المقوسة كما أنني لم أرَ هذه الورود إلا في فهرس البذور. لقد كنت أنال درجة (أ) لأنني كنت أكذب. حركت الأوراق كي تسارع في حرقها وفيما هي تتحول إلى رماد راحت تغني: أنا أحرق القبح، أنا أحرق القبح. وفيما كانت آخر ألسنة اللهب تخمد في الموقد أعلنت بطريقة درامية وهي توجه حديثها لإبريق الماء المغلي: هنا ينتهي مستقبلي في الكتابة.

فجأة شعرت بالخوف والوحدة. أرادت أن ترى أباها لا يمكن أن يكون ميتاً لا يمكن .. بعد قليل سوف يصعد الدرج بسرعة وهو يغني «مولي مالوني» وسوف تفتح هي له الباب وعندها سيقول لها: مرحباً أيتها السيدة الجميلة، وسوف تقول له: يا أبي لقد شهدت حلماً مروِّعاً. حلمت أنك ميت ثم ستخبره بما قالته المعلمة غارندر وسوف يجد الكلمات المناسبة لإقناعها بأن كل شيء على ما يرام. انتظرت وهي تصغي .. ربما كان الأمر حلماً ولكن كلا كلا لا يدوم حلم طوال هذه المدة .. لقد كان حقيقياً .. لقد ولّى أبي إلى الأبد.

وضعت رأسها على الطاولة وغرقت في البكاء .. إن أمي لا تحبني مثلما تحب نيلي ... حاولت وحاولت مراراً أن أجعلها تحبني .. أنا أجلس إلى جانبها وأذهب حيث تذهب وأفعل كل ما تطلب مني أن أفعله ولكنني لا أستطيع أن أجعلها تحبني بالطريقة التي أحبني فيها أبي.

تذكرت وجه أمها في العربة عندما ألقت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها. تذكرت كيف كانت أمها تبدو شاحبة ومتعبة. لقد كانت تحبها.. بالطبع تحبها ولكنها لم تكن لتستطيع أن تُظهر هذا الحب كما أظهره أبوها. إن أمي امرأة فاضلة. ها هي تنتظر مولودها في أية لحظة ولم تتوقف عن العمل. لنفرض أن أمي ماتت وهي تنجب الطفل، شعرت فرانسي بدمها يتجمد عند هذه الفكرة. ماذا ستفعل هي ونيلي بدون أمها، إلى أين سيذهبان؟ إن إيفي وسيسي فقيرتان ولا يمكنهما أن يعيلاهما. لا يوجد مكان لهما للعيش ولا أحد لهما في هذا العالم إلا أمهما.

يا إلهي العزيز .. أخذت فرانسي تصلي لا تدع أمي تموت. أنا أعلم أنني أخبرت نيلي بأني لا أؤمن بك ولكن أنا أؤمن بك. لقد قلت ذلك فقط ... لا تعاقب أمي .. إنها لم تفعل شيئاً. سوف أهبك كتاباتي ولن أكتب قصة أخرى أبداً إذا تركتها تعيش ... يا مريم المقدسة اطلبي من ابنك يسوع أن يطلب من الله أن يحفظ أمي.

شعرت فرانسي أن صلاتها بلا فائدة. إن الله سيتذكر أنها قالت مرة إنها لا تؤمن به وسيعاقبها بأخذ أمها كما أخذ أباها. أصيبت برعب شديد وكأنها في حالة هستيريا راحت تفكر بأمها وكأنها ميتة. خرجت مهرولة من الشقة لتبحث عن أمها. لم تكن كاتي تنظف هناك. دخلت إلى المنزل الثاني وصعدت الدرج مسرعة وهي تنادي ماما ماما، ولكن كاتي لم تكن أيضاً في ذلك المنزل، تابعت صعودها إلى الطابق الثالث والأخير. أمي ليست على الطابق الأول ولا الثاني. لم يبق إلا طابق واحد وإذا لم أجدها فيه فستكون قد ماتت.

صاحت بصوت كالزعيق: ماما ماما.

- أنا هنا ردّت كاتي بصوت هادئ من الطابق الثالث... لا تزعقي هكذا.

شعرت فرانسي براحة شديدة فهي لم تنهرْ ولم ترغب أن تشعر أمها بأنها كانت تبكي. بحثت عن منديل ولما لم تجد واحداً مسحت دموعها بمعطفها وسارت صعوداً بهدوء.

- مرحباً يا أماه.

- هل حدث شيء لنيلي؟

- كلا يا أماه (إنها تفكر بنيلي قبل كل شيء).

- حسناً مرحباً إذن. قالت كاتي وهي تبتسم. أحست بأن خطأ ما قد حدث لفرانسي في المدرسة وسبّب لها إزعاجاً كبيراً. حسناً إذا أرادت أن تتحدث فسوف...

قاطع فرانسي حبل أفكارها بسؤال مفاجئ:

- هل تحبينني يا أماه؟

- سوف أكون إنسانة غريبة إذا لم أحب أطفالي ! أليس كذلك؟

- هل تظنين أنني جميلة المنظر مثل نيلي ! انتظرت بقلق جواب أمها لأنها كانت تعلم أن أمها لا تكذب، ولكن الجواب استغرق وقتاً طويلاً.

- إن لك يدين جميلتين وشعراً كثيفاً طويلاً ورائعاً.

- ولكن هل تظنين أنني مثل نيلي في جمال الهيئة؟ أصرت فرانسي على السؤال وكأنها ترغب بأن تسمع أمها وهي تكذب.

- اسمعي يا فرانسي أنا أعلم أنك تحاولين الوصول إلى شيء ما بطريقة ملتوية وأنا متعبة جداً حتى أستطيع تصور ما الذي تريدينه. اصبري قليلاً حتى يأتي الطفل إلى الحياة. أنا أحبك وأحب نيلي وأظن أنكما طفلان جميلان والآن أرجوك حاولي أن لا تثيري قلقي.

أحست فرانسي فؤادها ينسحق. ولوت الشفقة قلبها وهي تنظر إلى أمها الحامل تزحف على يديها ورجليها وهي تنظف الأرضية. ركعت إلى جانب أمها وقالت:

- انهضي يا أماه ودعيني أكمل تنظيف هذه القاعة. لدي وقت كاف.

وضعت فرانسي يدها في دلو الماء ولكن كاتي صاحت بشدة.. «لا» ثم سحبت يد فرانسي من الدلو وجففتها بمريولها.

لا تضعي يدك في هذا الماء. إنه يحتوي على صودا ومواد قلوية. انظري ماذا فعل بيديّ، فتحت يديها وأرتهما لفرانسي. كانتا مليئتين بندوب ناتجة عن العمل.. أنا لا أريد أن تصبح يداك مثل يدي. أريدهما أن تبقيا جميلتين كما أنني على وشك الانتهاء من العمل.

– إذا لم أستطع مساعدتك هل يمكنني أن أجلس على الدرج وأراقب؟

– إذا لم يكن لديك شيء أفضل تفعلينه؟

جلست فرانسي تراقب أمها، كانت سعيدة لكونها هنا وكون أمها على قيد الحياة. وحتى صوت فرك الأرضية كان بالنسبة لها صوتاً سعيداً يشعرها بالأمان. أصغت إلى صوت المكنسة والممسحة وحركة الدلو وهو ينقل من مكان لآخر.

– أليس هناك أية صديقة تتحدثين معها؟

– كلا أنا أكره النساء.

– هذا ليس طبيعياً. قد يكون جيداً التحدث إلى بعض الفتيات من جيلك.

– هل لديك صديقات يا أماه؟

– كلا أنا أكره النساء. ردت كاتي.

– أترين ! إنك مثلي تماماً.

– نعم ولكن كان لي صديقة في الماضي ومن خلالها تعرفت على أبيك. أترين، بعض الصديقات يجئن في الوقت المناسب ... قالت مازحة.

كانت إسفنجة الفرك على وشك أن تجف... اذهبي في طريقك وأنا أذهب في طريقي ... تابعت كاتي وهي تحاول أن تكافح دموعها. إنك بحاجة لأصدقاء لأنك لا تتحدثين إلا معي ومع نيلي ولا تفعلين إلا القراءة وكتابة القصص.

– لقد أقلعت عن الكتابة.

علمت كاتي أن أي خطأ حصل مع فرانسي لا بد أنه مرتبط بمواضيعها الإنشائية.

– هل حصلت على علامة سيئة في الإنشاء اليوم؟

– كلا! ردت فرانسي كاذبة، وقد أدهشها كيف أن أمها استطاعت أن تخمِّن السبب. نهضت قائلة: أظن أنه موعد ذهابي إلى مكغاريتي قد حان !

– انتظري، وضعت كاتي الإسفنجة والممسحة في الدلو. لقد انتهيت من عمل اليوم. مدت يدها قائلة .. ساعديني كي أنهض.

أمسكت فرانسي بيدي أمها فيما رفعت كاتي جسمها بتثاقل:

حسناً حان موعد العودة إلى البيت يا فرانسي.

حملت فرانسي الدلو فيما أمسكت كاتي بالدرابزين ووضعت ذراعها حول كتف فرانسي متكئة عليها وهي تنزل الدرج. سارت فرنسي بهدوء لتوازي خطوات أمها.

– فرانسي إنني أتوقع مجيء الطفل في أي يوم من الآن وسوف أشعر براحة أكثر إذا بقيت غير بعيدة عني. ظلي قريبة وعندما أكون في العمل مرّي وتفقديني من حين لآخر. أنا بخير ولكني أعتمد عليك كثيراً في هذا الأمر وليس على نيلي لأن الأولاد لا يتمتعون بشيء في مثل هذه الأوقات. أنا بحاجة ماسة إلى وجودك قربي وسوف أشعر بالأمان إذا فعلت ذلك.

شعرت فرانسي بحنان شديد تجاه أمها:

– لن أبتعد عنك أبداً يا أماه. قالت لها..

– هذه هي ابنتي الطيبة، شدت كاتي على كتفها.

ربما .. قالت فرانسي لنفسها.. ربما أنها لا تحبني مثلما تحب نيلي ولكنها بحاجة لي الآن أكثر منه وأظن أن الحاجة إليك هي مثل المحبة، بل ربما إنها أفضل.

40

لمدة يومين ظلت فرانسي تأتي إلى المنزل لتناول الغداء ولا تعود إلى المدرسة، فقد كانت أمها تلازم السرير. أرادت أن تحضر الخالة سيسي أو الخالة إيفي ولكن أمها قالت لها إن الوقت لم يحن بعد. وقد تم إبلاغ نيلي أن يعود إلى المدرسة بعد الغداء.

شعرت فرانسي بأنها المسؤولة الوحيدة عن الوضع في المنزل. لذلك عملت على تنظيف الشقة وجهزت الطعام وخططت للعشاء وظلت كل عشر دقائق تظهر قرب وسادة أمها لتسألها إذا كانت بحاجة لشرب بعض الماء.

بعد الساعة الثالثة، دخل نيلي مسرعاً إلى المنزل ورمى بكتبه في الزاوية متسائلاً إذا كان الوقت قد حان ليسرع بمناداة أحد. ابتسمت كاتي أمام حماسته وقالت له إنه لا فائدة من جلب إيفي أو سيسي بعيداً عن شؤونهما الخاصة إلا عند الضرورة. ذهب نيلي للعمل بعد أن طلبت منه أمه أن يسأل السيد مكغاريتي إذا كان بإمكانه أن يحل محل فرانسي أيضاً في العمل لأنها مضطرة للبقاء مع أمها في المنزل. بالطبع وافق مكغاريتي وساعد الفتى في عمله لدرجة أن نيلي أنهى عمله باكراً في الرابعة والنصف.

تناول الجميع العشاء مبكراً وأسرع نيلي لينهي توزيع الصحف كي يعود مبكراً أيضاً. لم تطلب كاتي شيئاً سوى فنجان من الشاي الساخن، ولكنها لم تشربه مما أقلق فرانسي لأنها لم تأكل شيئاً أيضاً. بعد عودة نيلي، أحضرت فرانسي وعاءً من اليخنة المطهوة الساخنة وحاولت أن تقنع أمها بأن تأكل ولكن كاتي وبختها وطلبت منها أن تتركها وحدها قائلة: حين أريد أن آكل سوف أطلب منك ذلك. أعادت فرانسي الطعام إلى القدر وهي تحاول أن تكبح دموعها. فقد كانت ترغب في المساعدة فقط ولم تكن تتوقع ردة فعل مثل هذه. إلا أن أمها نادتها بعد قليل وسألتها بهدوء:

– كم الساعة الآن.

– خمس دقائق قبل السادسة

– هل أنت متأكدة أن الساعة لا تتباطأ.

– كلا يا أماه.

– ربما هي تسير بسرعة إذن.

بدت كاتي قلقة جداً لدرجة أن فرانسي ذهبت لتلقي نظرة من النافذة على ساعة بائع المجوهرات وورونوف المطلة على الشارع.

–إن ساعتنا صحيحة. أكدت فرانسي.

– هل حل الظلام في الخارج؟ سألتها كاتي لأنه لم يكن بإمكانها معرفة ذلك لأنه حتى مع وجود قمر مشع لا يدخل حجرتها إلا ضوء رمادي باهت عبر نافذة السقف.

– كلا ما زال هناك ضوء للنهار في الخارج.

– لقد حل الظلام في الغرفة. قالت كاتي بغيظ.

– سوف أضيء لك شمعة الليل.

ملاصقاً للجدار كان يوجد رف عليه تمثال من الجص للسيدة العذراء وهي ترتدي ثوباً أزرق ويداها ممدودتان للتضرع. وعند قدم التمثال يوجد وعاء زجاجي أحمر سميك فيه شمع أصفر وفتيلة. كان ضوء الشمعة يلمع بتراخٍ عبر الزجاج السميك.

– كم الساعة الآن؟ سألت كاتي بعد قليل.

– عشر دقائق بعد السادسة.

– هل أنت متأكدة أن الساعة تعمل بشكل سليم؟

– إنها دقيقة جداً.

بدت كاتي راضية ومع ذلك لم تمضِ خمس دقائق أخرى حتى سألت مرة أخرى عن الوقت. بدا وكأنها على موعد هام وأنها تخشى أن تتأخر عنه.

في الساعة السادسة والنصف، أبلغتها فرانسي عن الوقت وأضافت أن نيلي سيعود خلال ساعة. هنا قالت كاتي:

– لحظة وصوله، أرسليه في طلب الخالة إيفي. قولي له أن لا يأخذ وقتاً طويلاً في السير، أعطه نيكل كي يستقل عربة. قولي له أن يحضر إيفي لأن منزلها أقرب من منزل سيسي.

– يا أماه لنفترض أن الطفل سيأتي فجأة وأنا لا أعرف ماذا أفعل؟

– لا يمكن أن أكون محظوظة لهذه الدرجة. أعني أن يأتي الطفل فجأة.. كم الساعة الآن؟

– خمس وعشرون دقيقة قبل السابعة.

– هل هذا أكيد؟

– نعم أنا متأكدة يا أماه. حتى ولو كان نيلي صبياً، فلعل من الأفضل أن يبقى هو معك بدلاً مني.

– لماذا؟

– لأنه كان دائماً مصدر راحة وعزاء لـك.. قالـت فرانـسي ذلـك دون أي حساس بالغيبة أو المكر. كان فقط تصريحاً بسيطاً صادقاً..

– بينما أنا لا أعرف الكلمات الصحيحة التي ينبغي أن أقولها لكي أجعلـك تشعرين بشكل أفضل.

– كم الساعة الآن؟

– أربع وعشرون دقيقة قبل السابعة.

صمتت كاتي لفترة طويلة وعندما تكلمت. خرجت كلماتها هادئـة وكأنهـا تكلم نفسها:

– كلا لا يجب أن يكون الرجال هنا في وقـت كهـذا ومـع ذلـك تـرغمهم نساؤهم على أن يبقوا إلى جانبهم. إنهـن يـردن مـنهم أن يـسمعوا كـل آنّـة وكـل صرخة وأن يروا كل نقطة دم ويسمعوا كل صوت ألم في أجسادهن. ما هي هـذه المتعة العوجاء التي يحصلن عليها عبر جعـل رجـالهن يعـانون معهـن؟ وكـأنهن ينتقمن لأن الله خلقهن نساء، كم الساعة الآن؟.. لم تنتظر كاتي الجواب بل تابعت حديثها: قبل أن يتـزوجن، ربـما يـصبن بـالجنون إذا شـاهدهن أحـد وشـعرهن ملفوف أو مجعّد أو بدون مشدات على خصورهن ولكنهن عندما يلدن يرغبن في أن يراهن أزواجهن في أقبح وضع يكنّ فيه. أنا لا أفهم لمـاذا. لا أعـرف لمـاذا. إن الرجل يفكر في الألم والعذاب الذي يتسبب فيه لامرأته بسبب كونهما معـاً وهـذا التفكير لن يفيده بشيء بل يؤذيه. ولهذا السبب يتحول الرجال إلى الخيانة بعـد... بالكاد كانت كاتي تدرك ما تقوله، كانت تفتقد جوني بـشكل هائـل وربـما دفعهـا هذا إلى التفكير بهذه الطريقة من أجـل تبريـر عـدم وجـوده إلى جانبهـا.. ولكـن مقابل ذلك فإنك إذا كنت تحب شخصاً فسوف تفضل أن تعاني من الألم وحـدك لكي تجنّبه الألم. لذلك أبقي زوجك خارج المنزل عندما يحين موعد الولادة.

– نعم يا أمي الساعة الآن خمس دقائق بعد السابعة. قالت فرانسي.

– أنظري إذا جاء نيلي.

خرجت فرانسي لترى إذا كان نيلي في المنطقة، ولكنه لم يكن قد عاد بعد. أخبرت فرانسي أمها بذلك فيما سرح ذهن كاتي إلى العبارة التي ذكرتها فرانسي حول كون نيلي مصدر عزاء وراحة لها، قالت موجهة حديثها إل ابنتها:

– كلا يا فرانسي إنك أنت مصدر راحتي وعزائي الآن.. تنهدت قليلاً ثم قالت: إذا كان المولود ذكراً فنسميه جوني.

– سوف يكون هذا رائعاً عندما نصبح أربعة في البيت.

– نعم.. هو كذلك..

صمتت كاتي بعد ذلك ولم تقل كلمة واحدة لفترة من الوقت. وعندما سألت مرة أخرى «كم الساعة» أجابتها فرانسي إنها السابعة والربع وأن نيلي سيكون هنا قريباً. طلبت كاتي منها أن تجمع بيجامة نيلي وفرشاة أسنانه ومنشفة نظيفة وبعض الصابون وتلفّها في ورقة صحيفة لأن نيلي سيقضي هذه الليلة في منزل إيفي.

خرجت فرانسي مرتين إلى الشارع لتراقب عودة نيلي ومعها حزمة الأغراض الملفوفة بورقة الصحيفة. جاء نيلي راكضاً وقبل أن يصل إلى المنزل لاقته عند الشارع وأعطته الحزمة وأجرة عربة النقل والإرشادات وأخبرته أن يسرع.

– كيف حال ماما؟

– إنها بخير.

– هل أنت متأكدة؟

– بالتأكيد.. أسرع.. إني أسمع صوت عربة قادمة.

ركض نيلي ليلحق بالعربة فيما عادت فرانسي لترى وجه أمها وقد بلله العرق الشديد فيما ظهرت بقعة دم عند شفتها السفلى وكأنها عضت عليها.

- ماما.. ماما، هرعت تصيح وهي تهز بيد أمها وتقربها إلى وجنتها.

- اعصري قطعة قماش بعد أن تغطيها بالماء البارد وامسحي وجهي بها.. همست كاتي.

فعلت فرانسي كما طلبت منها أمها، بعدها عادت كاتي لتتابع حديثها الذي يبدو أنها لم تنهه..

- بالطبع إنك مصدر راحة لي.. ذهب تفكيرها باتجاه شيء بدا لا صلة له بالموضوع ثم أكملت.

- لقد نويت دائماً أن أقرأ مواضيعك الإنشائية ذات الدرجة (أ) ولكني لم أكن أجد الوقت الكافي والآن ليس لدي الوقت أيضاً.. هل تمانعين لو قرأتها لي.

- لا أستطيع يا أماه لقد أحرقتها كلها.

- لقد فكرت في هذه المواضيع جيداً وكتبت عنها وقدمتها لمعلمتك ونلت عليها علامات جيدة ثم فكرت بها أكثر ثم بعد ذلك أحرقتها.. وطوال ذلك الوقت لم تسنح لي الفرصة لأقرأ أياً منها.

- لا بأس يا أماه.. إنها لم تكن مواضيع جيدة على أية حال.

- إن الأمر يؤلم ضميري.

- لم تكن جيدة يا أماه، وأنا أعلم أنك كنت مشغولة جداً.

فكرت كاتي لنفسها.. ولكنني كنت دائماً أجد الوقت لنيلي وأهتم بما يفعله حتى إني كنت أخلق الوقت له.. كانت تفكر بصوت عالٍ ومن ثم تابعت.. ولكن نيلي بحاجة إلى تشجيع.. إنك تستطيعين أن تتدبري أمرك بما تملكينه في داخلك مثلي أنا تماماً ولكن هو.. إنه يحتاج إلى دعم من الخارج.

– لا بأس يا أماه. كررت فرانسي.

– لم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئاً يختلف عما فعلت.. قالت كاتي، ولكن الأمر سيبقى ليقلق ضميري .. كم هي الساعة الآن.

– السابعة والنصف تقريباً.

أعطني المنشفة مرة أخرى يا فرانسي.. كانت كاتي تبدو وكأنها تريد أن تركز ذهنها على شيء تتعلق به.. ولم يبق شيء من هذه المواضيع لتقرئيه لي.

فكرت فرانسي في الموضوع الرابع الذي كتبته حول أبيها وما قالته المعلمة غارندر عندما عرضته عليها..

أجابت.. كلا.

– إذن اقرئي لي شيئاً من كتاب شيكسبير..

أحضرت فرانسي الكتاب.

– اقرئي من عند عبارة.. وكانت ليلة مثل هذه.. إني أرغب أن أبقي في ذهني شيئاً جميلاً قبل مجيء الطفل.

كانت الكتابة صغيرة جداً بحيث اضطرت فرانسي إلى إنارة قنديل الغاز لرؤية الحروف ومع توهج الضوء، ألقت نظرة جيدة على وجه أمها. بدت شبيهة بالجدة ماري روميلي وهي متألمة.. أبعدت كاتي وجهها عن الضوء فقامت فرانسي بإطفائه بسرعة.

– لقد قرأنا هذه المسرحيات عدة مرات يا أماه لدرجة أني أصبحت أحفظها عن ظهر قلب.. أنا لا أحتاج إلى الضوء أو إلى الكتاب.. اسمعي..

بدأت تنشد:

القمر يشع لامعاً في ليلة مثل هذه

عندما يُقبِّل الريح العذب الأشجار برقة

دون أن يصدر عنا أي صوت

في ليلة مثل هذه.. ترويلوس

- كم الساعة الآن

- السابعة وأربعون دقيقة

صعد إلى جدران طروادة

وأرسل تنهيدة صوب الخيام اليونانية

حيث تقضي كريسيدا الليل

- وهل استطعت معرفة من هو ترويلوس هذا ومن هي كريسيدا؟

- نعم يا أماه.

- عليك أن تخبريني يوماً ما عندما يكون لدي الوقت للإصغاء.

- سوف أفعل ذلك يا أماه.

أخذت كاتي تئن ومسحت فرانسي العرق عن جبينها مرة أخرى. مدّت كاتي يديها كما فعلت في ذلك اليوم في الردهة. أمسكت فرانسي بيديها ونشطت لها قدميها. راحت كاتي تشد حتى ظنت فرانسي أن ذراعيها ستخرجان من تجويفهما. بعد ذلك ارتخت كاتي قليلاً وأفلتت يديها.

مرت الساعة التالية وفرانسي تقرأ المقاطع التي تحفظها عن ظهر قلب «خطبة بورتيا»، «خطاب جنازة مارك أنطوني»، «غداً وغداً» وهي المقاطع الواضحة التي يمكن تذكرها في مسرحيات شيكسبير. في بعض الأحيان كانت كاتي تطرح سؤالاً وأحياناً تضع يديها على وجهها وتئن ولكنها ظلت بدون إدراك لما تفعله أو دون أن تلقي بالاً للجواب، تسأل عن الوقت. كانت فرانسي تمسح

وجهها بين فترة وأخرى، ربما ثلاث أو أربع مرات في تلك الساعة. مدّت كاتي يديها لفرانسي.

عندما وصلت إيفي في الساعة الثامنة والنصف، شعرت فرانسي بارتياح لا يوصف. أعلنت إيفي وهي تهرع إلى غرفة النوم أن سيسي ستلحقها خلال نصف ساعة. نظرة واحدة إلى كاتي كانت كفيلة بأن تجعلها تنزع الملاءة عن سرير فرانسي وتعقدها عند أحد أطراف أحد أعمدة السرير ثم تضع الطرف الآخر في يد كاتي وهي تقول: شدي على هذا الطرف من باب التغيير.

– ما هي الساعة الآن؟ همست كاتي بعد أن شدّت بقوة على طرف الملاءة لدرجة أن العرق عاد ليملأ وجهها مرة أخرى.

– وماذا يهمك من الوقت، أجابت إيفي بمرح، لن تذهبي إلى أي مكان.

هيأت كاتي فمها لابتسامة ولكن نوبة ألم مسحت الابتسامة عن وجهها. يمكننا أن نستخدم ضوءاً أفضل.. قررت إيفي.

– نعم لكن ضوء الغاز يضايق عينيها.. قالت فرانسي معترضة.

سحبت إيفي الكرة الزجاجية من موقعها الثابت في الردهة وطلتها بالصابون من الخارج ثم علقتها إلى جانب ضوء الغاز المثبت في غرفة النوم. وعندما أضاءت الأخير جاء ضوؤه ناعماً وبدون وهج. ورغم أن الزمن كان ليلة دافئة من ليالي شهر مايو (أيار) إلا أن إيفي أشعلت ناراً في الموقد وراحت تعطي الأوامر لفرانسي. هرعت فرانسي لتملأ الغلاية بالماء ووضعتها فوق النار ثم فركت حوض الغسيل المصقول وصبّت زجاجة من الزيت الحلو فيها ثم أسندتها خلف الموقد. بعدها رفعت الثياب التي كانت معدة للغسيل من السلة ولفّت السلة بملاءة قديمة ولكن نظيفة ووضعت السلة على مقعدين قرب الموقد أيضاً. أما إيفي فوضعت جميع الأطباق في الموقد من أجل أن تسخن ثم طلبت من فرانسي أن تضع الأطباق الساخنة في السلة ثم ترفعها حين تبرد لكي تضع بدلاً منها أطباقاً ساخنة أخرى.

- هل لدى أمك أية ثياب للأطفال؟ سألت إيفي.

- أي نوع من الناس تظنيننا؟ ردّت فرانسي بازدراء ثم عرضت أمامها تشكيلة متواضعة مؤلفة من أربعة قمصان نوم يدوية الصنع وأربع عصابات وعشر حفاضات مهدّبة يدوياً وأربعة قمصان رثّة كانت هي ونيلي يرتديانها حين كانا طفلين صغيرين.

- لقد صنعت كل هذا بنفسي ما عدا القمصان.. أكدت فرانسي بفخر واعتزاز.

- آه.. أرى أن أمك تتوقع طفلاً ذكراً.. علّقت إيفي على العرض وهي تتفحص قطبة على شكل ريشة زرقاء فوق ثياب النوم.. ثم قالت:

- حسناً.. سوف نرى.

وصلت سيسي ودخلت الأختان إلى غرفة النوم بعد أن طلبتا من فرانسي أن تنتظر في الخارج.

جثمت فرانسي خارجاً وهي تصغي لحديثهما:

- لقد حان الوقت لكي نستدعي القابلة. قالت سيسي، هل تعلم فرانسي عنوانها؟.

- لم أعد الترتيبات لذلك.. لا يوجد في المنزل خمسة دولارات لأعطي القابلة أجرها.

- حسناً يمكنني أنا وسيسي أن نجمع المال اللازم إذا.. لم تتابع إيفي جملتها لأن سيسي اعترضت قائلة:

- اسمعي لقد حملت بعشرة أولاد.. كلا أحد عشر وأنت بثلاثة وكاتي باثنين، ما يجعل مجموع ما حملنا به 16 طفلاً.. أظن أن لدينا ما يكفي من المعرفة لنقوم بمهمة التوليد.

– حسناً لنقم بذلك.. قررت إيفي.

بعد ذلك قامت الأختان بإغلاق باب الغرفة ولكن فرانسي ظلت تسمع أصواتهما دون أن تفهم ما يقولانه.. لم يرق لها أن تقوم خالتاها بإغلاق الباب وإبقائها خارجاً، خاصة أنها كانت مسؤولة تماماً عن الوضع قبل مجيئهما. رفعت الأطباق الباردة من السلة ووضعتها في الموقد ثم بدلتها بأطباق ساخنة. كانت تشعر وكأنها وحيدة في هذا العالم وكم تمنت لو أن نيلي كان إلى جانبها لكي يتحدثا عن الأيام القديمة.

فتحت فرانسي عينيها مجفلة. لا يمكن أن يكون النعاس قد غلبني. فكّرت قليلاً ثم هرعت لتتفقد الأطباق.. كانت باردة.. أسرعت بتبديلها فالسلة يجب أن تبقى دافئة لاستقبال الطفل. أصغت إلى الأصوات الصادرة من غرفة النوم. لقد تغيرت الأصوات.. لم تعد هناك حركة هادئة وحديث خفيف. بدا الأمر وكأن خالتيها تركضان جيئة وإياباً وبخطوات قصيرة وسريعة وتتحدثان بعبارات مقتضبة.. نظرت إلى الساعة.. إنها التاسعة والنصف.. خرجت إيفي من الغرفة وأغلقت الباب وراءها.

– خذي يا فرانسي هذه خمسون سنتاً. اذهبي واشتري ربع باوند من الزبدة الحلوة وعلبة من البسكويت المالح وحبتي برتقال أبو صرة. قولي للرجل إنك تريدين برتقال أبو صُرّة.. وإن هذا ضروري لسيدة مريضة.

– ولكن الحوانيت جميعها مغلقة.

– انزلي باتجاه جوتاون (بلدة اليهود) إنهم لا يغلقون حوانيتهم.

– سوف أذهب في الصباح، تململت فرانسي.

– افعلي كما أقول لك. ردت إيفي بحزم.

ذهبت فرانسي لشراء الأغراض رغم أنفها ولكن وبينما كانت تهبط الدور الأخير من الأدراج سمعت زعيقاً خشناً خارجاً من حلق إنسان. توقفت مترددة

هل تعود أم تتابع السير ثم تذكرت الأمر الصارم الذي أصدرته الخالة إيفي واستمرت في نزول الأدراج. ولكنها ما أن وصلت إلى الباب حتى سمعت زعيقاً آخر كأنه يصدر عن شخص معذب.. لم يهدأ بالها حتى صارت في الشارع.

في إحدى الشقق المجاورة، كان أحد سائقي الخيول وهو رجل قبيح المنظر يأمر زوجته دون رغبتها بتجهيز السرير لكي ينام معها ولكنه عندما سمع أول صرخة لكاتي لم يرق له الأمر وما أن سمع الصرخة التالية حتى صاح يا إلهي أرجو أن لا تبقيني مستيقظاً طوال الليل. كانت عروسه الصغيرة تبكي فيما هي تخلع ثيابها.

كانت فلوسي غاديس وأمها جالستين في المطبخ. الأولى تخيط ثوباً آخر من الساتان الأبيض تحضيراً لزواجها الذي تأخر من فرانك فيما جلست السيدة غاديس تخيط جوارب رمادية لابنها هيني. كان هيني قد مات ولكن أمه التي عملت طوال حياتها على حياكة جواربه لم تستطع أن تتخلى عن هذه العادة. سمعت السيدة غاديس الصرخة الأولى وسقطت منها إحدى الغرز.

قالت فلوسي: إن الرجال ينالون المتعة فيما تنال النساء الألم.. لم تجب أمها ولكنها ارتعشت عندما سمعت صرخة كاتي التالية.

– يبدو الأمر مسلياً، قالت فلوسي، أن تحيكي ثوباً بكمّين.

– نعم..

استمرت الاثنتان بالعمل صامتتين إلى أن تكلمت فلوسي مرة أخرى:

– أنا أتساءل هل يستحق الأطفال كل هذا العذاب من أجلهم؟

فكرت السيدة غاديس بابنها المتوفى وبذراع ابنتها المشلولة ولم تقل شيئاً بل انشغلت بمحاولة العثور على الغرزة التي أسقطتها سابقاً وركزت على التقاطها.

أما عانستا عائلة تينمور فكانتا مستلقيتين على سريرهما الصلب. أمسكت كل منهما بيد الأخرى عندما سمعتا صرخة كاتي.

– هل سمعت يا أختاه؟ قالت ماغي.

– لقد حان وقتها. أجابتها ليزي.

– لهذا السبب.. لم أتزوج بهارفي حين طلب مني الزواج. منذ زمن كنت خائفة من هذا الأمر.. خائفة جداً.

– لا أدري.. أجابت ليزي، أحياناً أفكر أن من الأفضل أن تعاني من التعاسة المريرة وأن تكافحي وتصري وتعاني ذلك الألم الرهيب، بدلاً من أن تظلي.. آمنة. انتظرت حتى اختفت الصرخة الثانية ثم تابعت:

– على الأقل إنها تعرف أنها حية.

لم تجد ماغي جواباً لذلك.

كانت الشقة المقابلة من الردهة حيث يعيش آل نولان فارغة فيما كانت الشقة الباقية في المنزل مشغولة من قِبَل ملاكم بولندي وزوجته وأطفاله الأربعة. كان يملأ قدحاً من الجعة على المائدة عندما سمع صرخة كاتي.

– نساء.. همهم بازدراء.

– اسكت. زجرت زوجته.

جميع النساء اللواتي كن في الشقق المجاورة بقين يشعرن بالتوتر كلما صرخت كاتي. كن يشعرن بمعاناتها وكان هذا الأمر هو الشيء الوحيد الذي يجمع النساء في تلك الناحية في شيء مشترك. فقد كن جميعهن يعرفن تماماً ما هو ألم الولادة.

كان على فرانسي أن تسير مسافة طويلة صعوداً عبر جادة مانهاتن قبل أن تعثر على حانوت لبيع الألبان يملكه يهودي. بعده بحثت عن دكان آخر لشراء البسكويت المملح ومن ثم عثرت على كشك لبيع الفواكه يبيع برتقال أبو صرة. في طريق عودتها، ألقت نظرة عاجلة على الساعة الكبيرة فوق مخزن كنايب

للأدوية ولاحظت أنها اقتربت من العاشرة والنصف. لم تكن تهتم بالوقت فيما عدا أنه بدا مهماً بالنسبة لأمها.

عندما دخلت إلى المطبخ شعرت بتغيير كبير. كان هناك إحساس جديد بهدوء ورائحة يصعب تحديدها، رائحة جديدة، عاطرة وباهتة. كانت سيسي تقف وظهرها إلى السلة.

- ماذا تظنين؟.. لقد أصبح لديك أخت.

- وأمي.

- إنها بخير.

- لهذا السبب أرسلتموني إلى المتجر؟

- لقد فكرنا أنك تعرفين الكثير بالنسبة لفتاة في سن الرابعة عشرة. قالت إيفي وهي خارجة من غرفة النوم.

- أنا أريد أن أعرف شيئاً واحداً، قالت فرانسي بحدة.. هل هي أمي التي طلبت أن أخرج؟

- نعم يا فرانسي.. هي التي طلبت، قالت سيسي برقة، قالت شيئاً يتعلق بعدم إيذاء الذين تحبهم.

- حسناً.. قالت فرانسي وقد هدأ بالها.

- ألا تريدين أن تري الطفلة؟

ابتعدت سيسي جانباً فيما رفعت فرانسي الغطاء عن رأس الطفلة. كانت طفلة جميلة بيضاء البشرة، شعرها أجعد أسود يتسدل من جبهتها.. تماماً مثل أمها. فتحت الطفلة عينيها لوهلة ولاحظت فرانسي لونهما الأزرق الحليبي. شرحت لها سيسي أن جميع المواليد الجدد يملكون عيوناً زرقاء ربما تتحول إلى اللون البني الغامق بلون القهوة عندما يكبرون.

- إنها تشبه ماما، قررت فرانسي.

- هذا ما ظنناه. أجابت سيسي.

- هل هي في حالة جيدة؟

- بل ممتازة. أجابتها إيفي.

- ليست مشوهة أو ما شابه ذلك؟

- بالتأكيد لا. من أين جئت بهذه الأفكار؟

لم تخبر فرانسي خالتها إيفي كيف أنها كانت خائفة بأن يولد الطفل مشوهاً لأن أمها ظلت تعمل على يديها وركبتيها حتى الدقائق الأخيرة.

- هل يمكنني أن أرى أمي؟ سألت فرانسي بتواضع وهي تشعر أنها غريبة في بيتها.

- يمكنك أن تأخذي هذا الطبق لها.

حملت فرانسي الطبق وكان فيه قطعتان من البسكويت المملح والمغمس بالزبدة ودخلت على أمها.

- مرحباً أماه.

- مرحباً فرانسي.

لقد عادت أمها مثلما كانت سابقاً ولكنها تبدو متعبة جداً حتى إنها لم تستطع أن ترفع رأسها. لذلك اضطرت فرانسي إلى حمل طبق البسكويت فيما كانت تأكل.

بعد أن انتهت من الطعام. وقفت فرانسي تحمل الطبق الفارغ فيما التزمت أمها الصمت. شعرت فرانسي أنها وأمها عادتا غريبتين مرة أخرى. اختفت تلك المشاعر الحميمة التي سادت علاقتهما في الأيام الأخيرة.

- كنت قد اخترت اسماً لطفل ذكر يا أماه.

- نعم ولكن ليس لدي مانع في أن يكون المولود أنثى.

- إنها جميلة.

- سيكون لديها شعر أجعد أسود.

كان شعر نيلي أشقر أجعد أيضاً. مسكينة فرانسي هي الوحيدة التي كان شعرها أملس وبنياً.

- أنا أحب الشعر الأملس والبني.. قالت فرانسي بتحدٍّ. كانت متلهفة لمعرفة اسم الطفلة ولكن أمها بدت غريبة عنها لدرجة أنها لم ترغب بأن تسألها عن ذلك صراحة.

- هل أكتب المعلومات لأرسلها إلى الهيئة الصحية؟

- كلا، سيرسلها القسيس عندما يعمِّد الطفلة.

- آه.

لاحظت كاتي إحساساً بالإحباط في نبرة فرانسي فاستدركت قائلة:

- ولكن احضري الحبر والكتاب لأني أريدك أن تكتبي اسمها.

سحبت فرانسي الإنجيل الذي كانت سيسي قد سرقته قبل خمس عشرة سنة من رف الموقد في الفندق ونظرت إلى الإدخالات الأربعة المكتوبة على الورقة الأولى. كانت الإدخالات الثلاثة الأولى مكتوبة بخط جوني:

1 يناير/ كانون الثاني 1901 (تزوجا) كاترين روميلي وجون نولان.

15 ديسمبر/ كانون الأول 1901 (ولدت) فرانسيس نولان.

23 ديسمبر/ كانون الأول 1902 (ولد) كورنيليوس نولان.

أما الإدخال الرابع فكان مكتوباً بخط يد كاتي المائل.

25 ديسمبر/ كانون الأول 1915 (توفي) جون نولان عن عمر 34 سنة.

لحقت إيفي وسيسي بفرانسي إلى غرفة النوم. فقد كانت الأختان متلهفتين أيضاً لمعرفة اسم المولودة.. سارة؟ إيفا؟ روث؟ إليزابيث؟

- اكتبي.. أملت عليها كاتي.

28 مايو (أيار) 1916 (ولدت).. غطَّت فرانسي القلم في زجاجة الحبر فيما تابعت كاتي.. آني لوري نولان.

- آني إنه اسم عادي همهمت سيسي.

- لماذا يا كاتي لماذا؟ سألت إيفي بهدوء.

- إنها أغنية غنّاها جوني في إحدى المرات.

فيما كانت فرانسي تكتب، سمعت من جديد والدها وهو يغني:

وهناك كانت آني لوري..

نادت بابا فيما تابعت كاتي تقول كانت هذه أغنية قال عنها جوني إنها تنتمي إلى عالم أفضل. لا بد أنه كان سيرغب أن يسمي الطفلة اسماً نابعاً من إحدى أغنياته.

- إن لوري اسم جميل، قالت فرانسي، وهكذا أصبح اسم الطفلة «لوري».

41

كانت لوري طفلة طيبة، تنام معظم الوقت باطمئنان وهدوء وعندما تكون مستيقظة تمضي الوقت هادئة تحاول أن تركز عينيها البنيتين الصغيرتين على قبضة يدها الدقيقة.

أرضعت كاتي الطفلة، ولم يكن السبب فقط فطرياً كما هو معمول به ولكن النقود لم تكن متوفرة لشراء حليب طازج. ولما لم يكن بمقدورها أن تترك الطفلة وحدها فقد كان عليها أن تبدأ عملها من الخامسة صباحاً، وتشرع بتنظيف المنزلين الآخرين أولاً حتى الساعة التاسعة وهو موعد مغادرة فرانسي ونيلي إلى المدرسة. بعدها تقوم بتنظيف بيتها تاركة باب الشقة مفتوحاً جزئياً حتى تسمع لوري في حال بكت. بعد العشاء كانت كاتي تنسل مباشرة إلى الفراش ولم تكن فرانسي ترى أمها إلا قليلاً وكأنها ليست موجودة.

لم يتخلَّ مكغاريتي عنهم بعد ولادة الطفلة كما كان قد خطط. فقد كان يحتاجهم فعلاً هذه المرة لأن عمله بدأ يشهد ازدهاراً كبيراً مع حلول ربيع عام 1916 كانت حانته مزدحمة طوال الوقت. وكانت البلاد تشهد في تلك الفترة تغيرات كبيرة وكان على عملائه، مثلما يفعل الأميركيون في أي مكان، أن يلتقوا

في مكان ما لمناقشة الأمور. ولم يكن هناك سوى حانته لكي تحضن تلك اللقاءات.. كانت حانة الرجل الفقير.

كانت فرانسي تعمل في الشقة التي تقع فوق الحانة وتسمع أحياناً أصوات العملاء المرتفعة عبر ألواح الأرضية الرقيقة. ولطالما توقفت قليلاً لتصغي إلى هذه الأصوات. نعم، كان العالم يتغير بسرعة وكانت هي تعلم أن الذي يتغير هو العالم وليست هي. سمعت العالم وهو يتغير عبر إصغائها إلى الأصوات:

- إنها حقيقة.. سوف يوقفون صناعة المشروبات الروحية وما هي إلا بضع سنين حتى تنتهي من البلد.

- إن الرجل الذي يعمل بجد يملك الحق في شرب الجعة.

- قل هذا للرئيس وسنرى إلى أين يمكنك أن تصل.

- هذه البلاد للشعب. إذا لم يرد الشعب أن يوقف المشروب فلن يُوقف.

- بالتأكيد البلاد للشعب ولكنهم سيدفعون بمسألة منع المشروب إلى داخل حلقك.

- بحق المسيح.. سوف أقوم بصناعة نبيذي الخاص إذن. لقد كان والدي يفعل ذلك في البلاد الأصلية.. خذ كمية من العنب و...

- اسمع يا رجل.. لن يمنحوا المرأة حق التصويت أبداً.

- لا تراهن على ذلك.

- إذا حصل ذلك فعلى زوجتي أن تعطي صوتها لمن أعطيه أنا وإلا فسأكسر عنقها.

- إن زوجتي عجوز لن تذهب إلى التصويت وتختلط مع زمرة من الأغبياء والسكِّيرين.

– رئيس امرأة.. يمكن أن يحصل.

– لا يمكنهم أن يسمحوا لامرأة بإدارة الحكومة.

– هناك واحدة تديرها الآن.

– إلى الجحيم يا رجل.

– لا يمكن لويلسون أن يدير ظهره ويذهب إلى الحمام ما لم يطلب الإذن من السيدة ويلسون.

– إن ويلسون نفسه هو عجوز شمطاء.

– إنه يبقينا بعيدين عن الحرب.

– أستاذ الكلية هذا؟

– إن ما نحن بحاجة إليه في البيت الأبيض هو وجود سياسي متزن وليس أستاذ مدرسة.

– جاءت السيارات.. قريباً سيصبح الحصان جزءاً من الماضي. إن هذا الرجل في ديترويت يصنع سيارات رخيصة الثمن بحيث يستطيع غداً أي رجل عامل أن يشتري واحدة منها.

– عامل يقود سيارته الخاصة.. لا بد أنك ستعيش طويلاً.

– طائرات إنها بدعة وجنون.. لن تصمد طويلاً.

– إن الرماة المتنقلين باقون هنا والمسارح تغلق واحداً تلو الآخر في بروكلين. خذ مني فأنا أفضل مشاهدة تشارلي تشابلين في أي يوم بدلاً من مسرحية كورست بايتون التي تذهب إليها زوجتي.

– اللاسلكي.. إنه أعظم شيء تم اختراعه. فالكلمات تسير عبر الهواء، تصوَّر، بدون أسلاك. لا يحتاج الأمر إلا إلى آلة لالتقاط الصوت وسماعات..

– إنهم يطلقون عليه اسم نوم الشفق والمرأة لا تشعر شيئاً عندما يأتي الطفل. عندما أخبر هذا الصديق زوجتي قالت إن الوقت قد حان لاختراع شيء مثل هذا.

– ما الذي تقوله.. لقد ولّى عهد أضواء الغاز. لقد أصبحوا يوصلون الكهرباء حتى لأرخص الشقق.

– لا أدري ما الذي أصاب الشباب اليوم.. إنهم يرقصون كالمجانين كلهم يرقصون ويرقصون ويرقصون.

– وهكذا بدّلت اسمي من شولتز إلى سكوت. سألني القاضي لماذا تريد أن تفعل ذلك إن شولتز اسم جيد، كان هذا القاضي نفسه ألمانياً أترى؟ أقول لك يا ماك، لقد كلمته بهذه الطريقة، ولم أحسب حساباً سواء كان قاضياً أم لم يكن.. لقد انتهيت من البلاد الأصلية.. أقول لك، بعدما فعلوه بالأطفال البلجيك فإني لا أريد أن أكون جزءاً من ألمانيا. أنا أميركي الآن وأقول إنني أريد اسماً أميركياً.

– ونحن نتجه مباشرة نحو الحرب، يا رجل، أنا أرى ذلك قادماً.

– كل ما علينا فعله هو أن ننتخب ويلسون هذا الخريف فهو سيبقينا بعيدين عن الحرب.

– لا تراهن على وعودهم في الحملات عندما يأتي رئيس ديمقراطي، فإن هذا يعني رئيس حرب.

– لنكولن كان جمهورياً.

– ولكن زعيم الجنوب كان ديمقراطياً وهم الذين أشعلوا الحرب الأهلية.

– أريد أن أسألك إلى متى ستتحمل ذلك؟ لقد أغرق هؤلاء الأنذال سفينة أخرى من سفننا.. كم سفينة يجب أن يغرقوا قبل أن نهب ونذهب إليهم لنذيقهم الويل.

– علينا أن نبقى خارج الحرب.. إن البلاد تسير جيداً. دعهم يخوضون حروبهم دون أن يزجّونا فيها.

– نحن لا نريد الحرب.

– لقد أعلنت الحرب وأنا سأسجل في اليوم التالي.

– يمكنك أن تقول هذا فأنت قد جاوزت الخمسين ولن يأخذوك إلى الحرب.

– أفضل أن أذهب إلى السجن بدلاً من الذهاب إلى الحرب.

– على الرجل أن يقاتل دفاعاً عما يظن أنه صحيح.. سوف أكون سعيداً إذا ذهبت للحرب.

– ليس هناك ما أقلق عليه، فلديّ فتاق مزدوج.

دع الحرب تأتي .. إنهم بحاجة إلينا نحن العُمّال لكي نبني سفنهم ونصنع بنادقهم. سوف يحتاجون إلى المزارع ليوفر لهم الغذاء. ثم راقبهم وهم يتسكعون حولنا. سوف يتمكن عُمّال الولايات المتحدة من الإمساك بهؤلاء الرأسماليين من خُنّاقهم. لن يُملوا علينا ما يريدون بل نحن الذين سنملي عليهم. بحق المسيح سوف نجعلهم يقلقون. لن تأتي الحرب باكراً بما يكفي ليناسبني.

– مثلما أقول لك، كل شيء في هذه الدنيا هو آلات. لقد سمعت نكتة في ذاك اليوم. رجل وزوجته.. كانا ذاهبين لإحضار الطعام والثياب.. وكل ذلك من الآلات. يقفون أمام آلة لصنع الأطفال ويضع الرجل نقوداً فيها هنا ليخرج الطفل من هناك. ويلتفت الرجل حوله ويقول: يا ليت الأيام الخوالي تعود.

الأيام الخوالي.. نعم – أعتقد أنها ولّت إلى الأبد.

املأ الكؤوس مرة أخرى يا جيم.

كلما كانت فرانسي تقف خلال مسحها للأرضية كي تصغي لما يحدث في الطابق الأسفل كانت تحاول أن تجمع هذه المعلومات كلها مع بعضها البعض. حاولت أن تفهم هذا العالم الذي يدور حولها في فوضى واضطراب. بدا لها أن العالم بأكمله قد تغير منذ اليوم الذي ولدت فيه لوري وحتى يوم تخريجها.

42

بالكاد وجدت فرانسي الوقت حتى تعتاد على لوري، حتى جاءت ليلة التخرج. لم تستطيع كاتي حضور الحفلتين لذلك قررت أن تذهب إلى حفلة نيلي وقد كان قرارها صائباً، إذ لا يجب أن يحرم نيلي من أن تحضر أمه حفلة تخرجه بسبب قرار فرانسي تغيير المدرسة. أبدت فرانسي تفهماً للأمر ولكن هذا لم يمنع شعورها ببعض المرارة والألم. لو أن بابا كان حياً لجاء لحضور حفلة تخرجها. تم ترتيب الأمر بأن تذهب سيسي مع فرانسي فيما تبقى إيفي في المنزل لرعاية لوري.

في الليلة الأخيرة من شهر يونيو (حزيران) 1916، سارت فرانسي للمرة الأخيرة نحو المدرسة التي أحبتها كثيراً. وإلى جانبها سارت سيسي هادئة رزينة بعد أن غيّرها مجيء الطفلة. مر اثنان من رجال الإطفاء ولم تعرهما سيسي أي انتباه بعد أن كانت في السابق لا تستطيع مقاومة أي رجل يرتدي مثل هذا الزي. تمنّت فرانسي لو أن سيسي لم تتغير. فقد ترك هذا التغير لديها شعوراً بالوحدة. عندما شاهدت الرجلين، شدت يدها على يد سيسي فضغطت عليها سيسي في المقابل. هنا شعرت فرانسي بالارتياح لأن سيسي ما زالت سيسي من الداخل.

جلس الخريجون في الجزء الأمامي من المسرح بينما جلس الضيوف في الخلف. ألقى المدير خطبة جادة أمام الخريجين شرح لهم فيها كيف أنهم سينتقلون

إلى عالم مضطرب وكيف أن عليهم أن يبنوا عالماً جديداً بعد الحرب التي من المؤكد أنها ستصل إلى أميركا. كذلك حثّهم على استكمال تعليمهم العالي لكي يكونوا أفضل استعداداً وتجهيزاً لبناء العالم. تأثرت فرانسي كثيراً بالخطبة وأقسمت في قلبها أنها ستساعد على حمل الشعلة كما قال مديرها.

بعد ذلك جاءت مسرحية التخريج وانشغلت عينا فرانسي بدموع لم تنهمر. ومع استمرار الحوار في المسرحية قالت فرانسي لنفسها: إن مسرحيتي كانت ستكون أفضل. كنت سأخرج صفيحة الرماد خارجاً، كنت سأفعل كل ما قالته المعلمة لو أنها تركتني أكتب المسرحية.

بعد المسرحية اصطف الخريجون لاستلام شهاداتهم لكي يصبحوا أخيراً خريجين. تخلل ذلك أداء قسم الولاء للعلم وأغنية العلم المرصّع بالنجوم.

والآن جاء دور عذاب فرانسي. فقد جرت العادة أن تقدم للخريجات باقات ورد ولما كان الورد غير مسموح به داخل المسرح فقد كان تسليم الورد يتم في غرف الصفوف حيث يضعه الأساتذة على مقعد كل طالبة متخرجة.

كان على فرانسي أن تعود إلى غرفة الصف لإحضار شهادتها وعلبة الأقلام وكتاب المذكرات من طاولة مقعدها. وقفت خارج الغرفة بعصبية وهي تستعد لهذه المحنة، فقد كانت تعلم أن مقعدها هو الوحيد الذي لن تكون فيه زهور لأنها لم تخبر أمها عن هذا التقليد المتبع خشية أن يكلفها ذلك نقوداً هي أجدر أن تُنفق على أمور أهم من هذه.

أخيراً قررت أن تعبر المحنة. دخلت إلى الصف وسارت باتجاه مكتب المعلمة دون أن تجرؤ على الالتفات إلى مقعدها الدراسي. كان الجو يعبق برائحة الأزهار وتناهت إلى مسامعها أصوات الفتيات وهن يتحدثن ويتضاحكن حول الأزهار التي حصلن عليها. سمعت عبارات متبادلة بينهن تنم عن الإعجاب والشعور بالفخر.

استلمت تقريرها السنوي. كانت هناك أربع علامات بدرجة (أ) وعلامة واحدة بدرجة (-ج). كانت العلامة الأخيرة هي علامة اللغة الإنكليزية. طوال الوقت كانت فرانسي تعتبر أفضل كاتبة في المدرسة والآن بالكاد استطاعت أن تنجح في اللغة الإنكليزية. فجأة انتابها شعور بالكراهية للمدرسة ولجميع المعلمين والمعلمات، خاصة السيدة غادرنر ولم تعد تأبه لمسألة الورد. إنه تقليد سخيف على أية حال.. سوف أعود إلى مقعدي وأجمع أشيائي وإذا حاول أحد أن يعلّق عليّ فسأخرسه ثم سأخرج من المدرسة إلى الأبد ولن أودع أحداً. رفعت عينيها لتنظر إلى المقعد الخالي من الأزهار لأنه بالتأكيد سيكون مقعدها ولكن كانت هناك أزهار على كل مقعد.

هرعت فرانسي إلى مقعدها وهي تظن أن إحدى الفتيات قد وضعت باقتها هناك بانتظار أن تأخذها فيما بعد. كان في نية فرانسي أن تأخذ الباقة وتسلمها إلى صاحبتها قائلة: هل تمانعين لو سمحت أن تأخذي باقتك فأنا أريد أن أخرج بعض الأشياء من طاولة مقعدي.

رفعت فرانسي باقة الورد. كان فيها أكثر من 24 وردة حمراء موضوعة داخل حزمة من ورق نبتة الخنشار. جمعت الباقة في يدها مثلما تفعل باقي الفتيات وتظاهرت لبرهة أن الباقة لها. ولما نظرت باحثة عن اسم صاحبة الباقة وجدت اسمها على البطاقة وقد كُتب عليها: إلى فرانسي بمناسبة تخرجها.. كل الحب.. بابا. كانت العبارة مكتوبة على البطاقة بخط جميل وبنفس لون الحبر الموجود في المنزل. لا بد أن الأمر حلم.. طويل طويل اختلط عليها.. لوري هي حلم والعمل لدى مكغاريتي. ومسرحية التخرج والعلامة السيئة في اللغة الإنكليزية.. كله حلم استيقظت منه الآن وسيعود كل شيء إلى ما عليه.. بابا سيكون بانتظاري في الردهة.

ولكن لم يكن أحد في الردهة سوى الخالة سيسي.

- إذن فأبي ميت. قالت لخالتها.

- نعم وقد مضى على وفاته ستة أشهر الآن.

- ولكن هذا غير ممكن.. لقد أرسل لي وروداً.

- لقد أعطاني أبوك هذه البطاقة يا فرانسي قبل عام ومعها دولاران وقال لي: عندما تتخرج فرانسي، أرسلي لها بعض الأزهار في حال نسيت.

انفجرت فرانسي بالبكاء، لم يكن السبب فقط إدراكها أن الأمر لم يكن حلماً بل لأن التوتر غلب عليها نتيجة عملها الشاق طوال الوقت وقلقها على أمها ونتيجة عدم قدرتها على كتابة مسرحية التخرج والعلامة السيئة التي حصلت عليها في اللغة الإنكليزية وأخيراً نتيجة لكونها هيأت نفسها جيداً لعدم وجود ورود على مقعدها.

أخذتها سيسي إلى الحمام ودفعتها داخل إحدى غرفه وهي تقول: ابكي الآن وبصوت عالٍ وأسرعي لأن أمك سوف تقلق علينا إن لم نعد بسرعة إلى المنزل.

وقفت فرانسي داخل غرفة الحمام تبكي وتشهق وهي تحمل الورود الحمراء في يديها. كانت كلما سمعت باب الحمام يفتح، تفيِّض الماء من صندوق النياغرا حتى يخفي صوت الماء بكاءها وتشنجها. بعد قليل شعرت بالراحة وخرجت لتجد أن الخالة سيسي قد جهزت لها منديلاً مبللاً بالماء البارد لتمسح به وجهها وعينيها. سألتها سيسي إذا كانت تشعر الآن أفضل. أومأت لها فرانسي بالإيجاب ورجتها أن تنتظرها قليلاً ريثما تودع زميلاتها.

ذهبت إلى غرفة المدير الذي صافحها قائلاً:

- لا تنسي يا فرانسي مدرستك القديمة، قومي بزيارتنا بين الحين والآخر.

- سوف أفعل ذلك، وعدته فرانسي ثم انطلقت لتودع معلمة الصف.

- سوف نفتقدك يا فرانسي.. قالت المعلمة.

تناولت فرانسي مقلمتها وكتاب المذكرات من طاولة مقعدها وودعت زميلاتها اللواتي احتشدن حولها. وضعت إحداهن ذراعها حول خصر فرانسي فيما قبلتها اثنتان أخريان على وجنتيها فيما تبادلن جميعهن معها رسائل وداعية.

– تعالي إلى بيتي زيارة يا فرانسي.

– اكتبي لي يا فرانسي وأخبريني عن أحوالك.

– فرانسي لقد أصبح لدينا هاتف الآن، رني على هاتفي من حين لآخر، رنّي على هاتفي غداً.

– اكتبي لي شيئاً في دفتر المذكرات يا فرانسي.. لكي أبيعه عندما تصبحين مشهورة.

– أنا ذاهبة إلى مخيم صيفي وسأترك لك عنواني. اكتبي لي يا فرانسي أتسمعين؟

– وأنا سألتحق بالمدرسة العليا للبنات في أيلول/ سبتمبر تعالي عندي هناك يا فرانسي.

– كلا تعالي إلى مدرسة البنات في الضاحية الشرقية.

– مدرسة البنات.

– الضاحية الشرقية.

– إن مدرسة إيراسموس هول هي الأفضل تعالي هناك يا فرانسي. كوني معي وسوف نصبح صديقتين خلال الدراسة. لن يكون لدي صديقة سواك إذا أتيت.

– فرانسي إنك لم تدعيني أبداً أكتب في دفتر مذكراتك.

– وأنا أيضاً.

– أعطني هذا لأكتب شيئاً.

جميعهن كتبن لفرانسي في الدفتر الخالي.. «إنهن لطيفات» فكرت فرانسي كان من الممكن أن أصبح صديقة لهن معظم الوقت. كنت أظنهن لا يرغبن في صداقتي. لا بد أنني كنت على خطأ.

كتبت الفتيات أشياء كثيرة في كتاب مذكرات فرانسي. بعض الكتابات كانت قليلة وغير مقروءة، وبعضها مفككة وغير منتظمة ولكنها كانت كلها كتابات أطفال.. كانت فرانسي تقرأ بينما هن يكتبن:

أتمنى لك الحظ والسعادة.
أتمنى أن يكون طفلك الأول ذكراً.
وعندما يبدأ شعره بالتجعد.
أتمنى لك عندئذ طفلة أنثى.
فلورنس فيتزجيرالد
عندما تتزوجين
ويعاندك زوجك
أضربيه بالقضيب
واطلبي الطلاق
جيني لي
عندما يسدل الظلام ستارته
ويثقبها بنجمة
تذكري أنني ما زلت صديقتك
حتى ولو كنت بعيدة
نورين أوليري

اختارت بياتريس وليامز الصفحة الأخيرة وكتبت:

هنا في آخر الكتاب وبعيداً عن النظر أكتب اسمي نكاية فقط.

ووقعت تحت الكتابة عبارة:

زميلتك الكاتبة بياتريس وليامز

فكرت فرانسي بالعبارة، كانت ما تزال تشعر بالغيرة بسبب المسرحية.

خرجت فرانسي أخيراً من حفلة التوديع وعندما أصبحت في الردهة طلبت الإذن من خالتها لتوديع أخير.

- لقد استغرقت عملية تخرجك وقتاً طويلاً احتجت سيسي ولكن عن نية طيبة.

كانت المعلمة غارندر تجلس على مكتبها في غرفتها الشديدة الإضاءة. كانت وحدها لم يودّعها أحد لأنها لم تكن محبوبة. نظرت بحماس عندما رأت فرانسي تدخل إلى غرفتها.

- إذن لقد حضرت لتودعي معلمة اللغة الإنكليزية العجوز.. قالت بسرور.

- نعم يا سيدتي.

لم تترك المعلمة غارندر الأمور عند هذا الحد. فقد كان عليها أن تتصرف كمعلمة.

- بالنسبة لعلامتك. إنك لم تقدمي عملاً جيداً هذا الفصل، وكان عليّ أن أسجلك راسبة ولكنني في اللحظة الأخيرة قررت أن أكتب لك «ناجحة» لأني لم أشأ أن أحرمك من التخرج.. انتظرت قليلاً ولكن فرانسي بقيت صامتة.

- حسناً، ألا تريدين أن تشكريني.

- شكراً أيتها المعلمة غارندر.

– هل ما زلت تذكرين حديثنا الصغير.

– نعم.

– إذن لماذا انقلبت عنيدة ولم تسلّمي واجباتك.

لم يكن لدى فرانسي شيء لتقوله لأن المعلمة غارندر لن تفهم ماذا ستقول وهي لن تستطيع أن تشرحه لها لذلك مدّت يدها مصافحة وهي تقول: وداعاً يا سيدة غارندر.

ذهلت المعلمة من ردّة الفعل ولكنها قالت: وداعاً إذن.. سوف يأتي وقت تدركين فيه أنني كنت على حق يا فرانسيس..

التزمت فرانسي الصمت.

– أليس كذلك؟ قالت المعلمة غارندر بحدة.

– نعم يا سيدتي. وخرجت فرانسي من الغرفة.

لم تعد تكره المعلمة غارندر بعد ذلك ولم تحبها أيضاً ولكن شعرت بالأسف لها فهي لا تملك شيئاً في هذه الدنيا إلا ثقتها بأنها على حق.

كان المعلم جينسون واقفاً على أدراج مدخل المدرسة يصافح كل الفتيات ويقول لكل واحدة منهن: وداعاً ليباركك الله ولكنه عندما ودّع فرانسي أضاف قائلاً:

– كوني إنسانة جيدة واعملي بجد لكي ينعكس عملك إيجابياً على المدرسة.

وعدته فرانسي بذلك.

في طريق العودة إلى المنزل، قالت سيسي:

– اسمعي دعينا لا نخبر أمك من أرسل الورد لأنها سوف تبدأ التذكر وهي الآن على وشك أن تتجاوز محنة وفاة أبيك بعد مجيء لوري.

اتفقت الاثنتان على القول إن سيسي هي التي اشترت الزهور فيما نزعت فرانسي البطاقة عن الباقة ووضعتها في مقلمتها.

عندما أخبرتا أمها عن الورود قالت:

- يا سيسي ما كان يجدر بك أن تنفقي نقودك هكذا.. ولكن فرانسي شعرت بأن أمها كانت في منتهى السعادة.

أبدى الجميع إعجابهم بشهادتي نيلي وفرانسي رغم أن شهادة فرانسي حازت على الأفضلية في الجمال نتيجة الكتابة الرائعة للسيد جينسون.

- إنها الشهادات الأولى في عائلة نولان. قالت كاتي.

- وآمل أنها لن تكون الأخيرة. قالت سيسي.

- سوف أعمل جاهدة لكي يحصل كل من أطفالي على ثلاث شهادات.

قالت إيفي.. شهادة المدرسة وشهادة الثانوية وشهادة الكلية خلال خمس وعشرين سنة، قالت سيسي، سوف يكون لدى عائلتنا كومة من الشهادات بهذا العلو.. ثم وقفت على إصبع قدمها وأخذت تقيس ستة أقدام من الأرضية إلى الأعلى.

تفقدت كاتي الشهادات مرة أخرى. كان نيلي قد أحرز (ب) في السلوك وكذلك في الرياضة بينما حصل على (ج) في باقي المواضيع. قالت كاتي:

- هذا جيد يا بني. تفحصت شهادة فرانسي ومرت عن العلامات الأربع بدرجة (أ) فيما ركّزت على علامة (ج).

- فرانسي أنا متفاجئة. كيف حدث هذا؟

- يا أمي أنا لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع.

- وفي اللغة الإنكليزية.. الموضوع المفضل.

رفعت فرانسي نبرة صوتها قليلاً وهي تجيب:

- ماما لا أريد أن أتحدث في الموضوع.

- لقد كنت دائماً تكتبين أفضل المواضيع الإنشائية في المدرسة، قالت كاتي موجهة حديثها إلى أختيها.

- ماما. قالتها فرانسي فيما يشبه شيئاً مضحكاً.

- توقفي يا كاتي. أمرتها سيسي بحدة.

- حسناً.. استسلمت كاتي وقد أدركت فجأة أنها ضايقت الفتاة وانتابها شعور بالخجل من نفسها.

تدخلت إيفي لتغير الموضوع.

- هل سيكون لدينا احتفال أم لا؟ سألت إيفي.

- سوف أضع قبعتي على رأسي.. أنا جاهزة. قالت كاتي.

بقيت سيسي مع لوري فيما ذهبت إيفي وكاتي والطفلان إلى محل شيفلي لشراء البوظة والاحتفال. كان المكان يعج بحفلات التخريج. الأولاد يحملون شهاداتهم والفتيات يحملن باقات الورد. كان هناك بعض الأمهات أو الآباء أو كلاهما على الطاولات. عثرت عائلة نولان على طاولة غير مشغولة في نهاية القاعة.

كان المكان خليطاً من صيحات الأولاد، وضحكات الأهل وتحركات النادلين السريعة بين الموائد. بعض الأولاد كانوا في سن الثالثة عشرة، وأقل منهم في سن الخامسة عشرة، ولكن معظمهم كانوا في سن فرانسي الرابعة عشرة. كما أن معظم الفتيان كانوا من زملاء نيلي وكان صياحهم الصاخب المرح يدوي عبر القاعة. بالكاد كانت فرانسي تعرف الفتيات ولكنها كانت تلوِّح لهن بمرح وكأنهن كانوا من أعز صديقاتها.

كانت فرانسي فخورة بأمها. فجميع الأمهات الأخريات كان شعرهن قد بدأ يتلون باللون الرمادي وكن معظمهن بدينات لدرجة أن جوانبهن كانت تنزلق على أطراف المقاعد بينما كانت كاتي رشيقة ولا تبدو أبداً وكأنها تخطو في سن الثالثة والثلاثين، بشرتها ناعمة صافية وشعرها أسود أجعد كما كان من قبل. «ألبسها ثوباً أبيض». قالت فرانسي لنفسها، وضع في يدها باقة زهور وستبدو وكأنها خريجة جديدة في الرابعة عشرة من العمر، فيما عدا ذلك الخط الذي تعمق بين عينيها بعد وفاة بابا.

جاء النادل وقدموا له الطلبات. كان في ذهن فرانسي لائحة طويلة لجميع النكهات وكانت تراجع تلك القائمة كي تقول إنها تذوقت جميع الأنواع الموجودة في العالم. كانت نكهة الأناناس هي التي طلبتها، أما نيلي فطلب بوظة بالشوكولاته فيما طلبت إيفي وكاتي بوظة عادية بالفانيلا.

راحت إيفي تختلق قصصاً حول الناس المتواجدين في المكان، ما أغرق فرانسي ونيلي بالضحك. ولكن فرانسي ظلت تدرس وجه أمها من حين لآخر. لم تضحك كاتي على نكات الخالة إيفي بل راحت تأكل البوظة ببطء فيما الخط بين عينيها يتعمق أكثر. أدركت فرانسي أن أمها غارقة في التفكير بشيء ما!

وفعلاً تكلمت كاتي قائلة: إن طفليّ يملكان من العلم في عمر الثالثة عشرة والرابعة عشرة أكثر مما أملك أنا في عمر الثانية والثلاثين. ومع ذلك فإن هذا لا يكفي. كلما فكرت كم كنت جاهلة وأنا في عمرهما، نعم وحتى حين تزوجت وأنجبت طفلاً. تصوروا أنني كنت أؤمن بسحر الساحرات وما كانت القابلة تخبرني عنه حول تلك المرأة في سوق السمك. لقد سبقني طفلاي ولم يكونا أبداً جاهلين.

والآن لقد وصلت بهم حتى التخرج من المدرسة الابتدائية ولكني لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك لهما. جميع خططي.. أن يصبح نيلي طبيباً وفرانسي في الكلية.. لا أستطيع أن أمضي بها الآن وهذه الطفلة الجديدة... ! هل يملكان

من العلم ما يكفي لكي ينطلقا وحدهما؟ لا أحد لي.. شيكسبير.. الإنجيل.. إنهما يعرفان كيف يعزفان على البيانو ولكنهما توقفا عن التمارين الآن. لقد علمتهما أن يكونا نظيفين وصادقين وأن لا يتقبلا صدقة من أحد ولكن هل هذا كافٍ. سوف يصبح لهما مدير، عليهما أن يرضياه غداً وأشخاص عليهما أن يتماشيا معهم وسوف يعبران في دروب أخرى.. ربما تكون سيئة أو جيدة.

لن يجلسا معي خلال الليل إذا كانا يعملان طوال النهار. سيقضي نيلي الليل مع أصدقائه وتقضيه فرانسي في القراءة ربما في المكتبة أو ربما تذهب إلى محاضرة أو عرض أو حفلة موسيقية. بالطبع ستبقى لدي الطفلة لوري وستكون لها بداية أفضل وعندما تتخرج سيساعدها الاثنان الكبيران لكي تصل إلى الثانوية. يجب عليّ أن أفعل للوري أفضل مما فعلت للاثنين الكبيرين فهما لم يتمتعا بأكل كافٍ أو بلباس مناسب. إن أفضل ما فعلته لهما لم يكن كافياً والآن توجب عليهما أن يدخلا إلى سوق العمل وهما ما يزالان طفلين. آه لو كان بإمكاني أن أدخلهما إلى المدرسة الثانوية هذا الخريف. يا إلهي أرجوك خذ مني عشرين سنة من عمري. سوف أعمل ليلاً نهاراً ولكن.. بالطبع لن أستطيع ذلك. لا بد أن يبقى أحد مع الطفلة.

قطعت عليها أفكارها، موجة من الغناء سرت عبر القاعة فقد بدأ أحدهم بأغنية شعبية ضد الحرب وتولى الباقون تكملتها.

أنا لم أربِّ ولدي ليكون جندياً.

ربيته ليصبح مصدر اعتزازي وفرحي...

عادت كاتي إلى أفكارها.. لا يوجد أحد ليساعدنا.. لا أحد.. فكرت قليلاً بالرقيب ماكشين. فقد أرسل سلة كبيرة من الفاكهة عندما ولدت لوري. كانت تعلم أنه سوف يتقاعد من سلك الشرطة في أيلول/ سبتمبر وأنه سيترشح لملء مقعد عضو في الجمعية التشريعية عن دائرة كوينز التي يعيش فيها، في الانتخابات

القادمة. الجميع متأكدون أنه سينجح. لقد سمعت مؤخراً أن زوجته مريضة جداً وأنها لن تعيش لترى زوجها منتخباً.

لاحظت فرانسي أو خمّنت أن أمها تفكر بالرقيب ماكشين واستذكرت كيف ارتدت أمها القفازات القطنية خلال الرحلة منذ زمن طويل عندما نظر إليها الرقيب ماكشين. إنه يحبها.. فكرت فرانسي، أنا أتساءل إذا كانت هي تعرف ذلك، إنها تبدو وكأنها تعرف كل شيء. أكاد أراهن أن بإمكانها أن تتزوجه إذا أرادت ذلك ولكنني لن أناديه أبداً بابا. لقد مات أبي ومهما يكن الرجل الذي ستتزوجه أمي فإنه سيبقى بالنسبة لي السيد فلان الفلاني.

كانت الأغنية الشعبية على وشك الانتهاء.

لن تكون هناك حروب اليوم

إذا قررت الأمهات أن يقلن

أنا لم أربِّ ابني ليصبح جندياً

نيلي ما يزال في الثالثة عشرة، إذا وصلت الحرب إلى هنا فإنها ستنتهي قبل أن يصبح كبيراً بما فيه الكفاية ليأخذوه إليها.. الحمد لله.

هنا بدأت الخالة إيفي تغني لهم برقة وهي تسخر من الأغنية:

من يجرؤ أن يضع شارباً على كتفه.

- خالتي إيفي.. أنت رهيبة.. قالت فرانسي فيما هي ونيلي غارقان في الضحك. خرجت كاتي من أفكارها ونظرت إليهم ثم ابتسمت. بعدها جاء النادل ووضع الفاتورة على المائدة وصمت الجميع وهم يراقبون كاتي.

- أرجو أن لا تكون غبية وتعطيه إكراميات.

- هل تعلم أمي أنه ينبغي لها أن تترك نيكل من الإكراميات.. فكّر نيلي قليلاً ثم قال: آمل ذلك.

– مهما تفعل أمي.. فكرت فرانسي.. فإنها ستفعل الشيء الصحيح.

لم تجر العادة أن يقوم أحد بمنح الإكراميات في محلات البوظة، ما عدا في الحفلات الخاصة كانت الفاتورة 30 سنتاً وكان في حقيبة كاتي خمسون سنتاً وضعتها على الفاتورة. جاء النادل وأخذها ثم عاد ومعه أربع نيكلات.. وضعها في صف واحد على المائدة. تسكع قليلاً بقربها وهو ينتظر أن تلتقط كاتي ثلاثة منهم وتترك له واحدة. كان هناك أربعة أزواج من العيون تراقب كاتي.. أربعة نيكلات، أربعة أرغفة من الخبز فكّرت قليلاً. لم تتردد كاتي أبداً وهي تضع يديها على النقود وبحركة واثقة من يدها دفعت النيكلات الأربعة نحو النادل قائلة بكبرياء: احتفظ بالباقي.

كانت فرانسي تود أن تقف على المقعد وتهتف: إن ماما امرأة عظيمة.. ظلت تردد ذلك في قلبها فيما تناول النادل النيكلات الأربعة وانطلق سعيداً.

– كاتي إن هذا جنون. احتجت إيفي، أراهن أن هذا كل ما تملكينه.

– هو كذلك ولكنه آخر تخرج لنا أيضاً.

– سوف يدفع لنا مكغاريتي أربعة دولارات غداً.. قالت فرانسي وهي تحاول الدفاع عن أمها.

– لن يكون هناك نقود بعد تلك الدولارات الأربعة حتى تعثروا على عمل. قالت إيفي.

– أنا لا أبالي، قالت كاتي، لمرة واحدة أحببت أن أشعر أنني مليونيرة وإذا كان ثمن هذا الشعور 20 سنتاً فإنه رخيص.

تذكرت إيفي كيف تركت كاتي ابنتها فرانسي تتخلص من القهوة في المجلى ولم تقل شيئاً بعد ذلك.. كانت هناك أشياء كثيرة لا تفهمها في أختها.

بدأ الجمع ينفض.. جاء آلبي سيدمور إلى طاولتهم وآلبي هو شاب طويل الرجلين وابن لأحد أصحاب البقالات الميسورين:

– هل تذهبين معي إلى السينما غداً يا فرانسي؟ سألها وبنفس واحد ثم أردف بسرعة: على حسابي.

كانت إحدى دور السينما قد سمحت للخريجين بحضور عرض صباحي يوم السبت بقيمة نيكل لكل اثنين على شرط أن يُحضرا معهما شهادتهما كإثبات.

نظرت فرانسي إلى أمها التي أومأت لها بالقبول.

– بالتأكيد يا آلبي. قالت فرانسي موافقة.

– إذن أراك غداً. قال ذلك وانسحب.

– هذا موعدك الأول. قالت إيفي.. عليك أن تتمني أمنية.. مدت إصبعها الصغير ولوته حتى تربط فرانسي إصبعها بها.. قالت فرانسي متمنية:

– أتمنى أن أرتدي دائماً ثوباً أبيض وأحمل ورداً حمراء وأن نعطي النقود كما فعلنا الليلة.

الكتاب الرابع

43

– لديك الآن فكرة عن العمل.. قالت كبيرة العاملات لفرانسي. مع مرور الوقت سوف تصبحين عاملة كفوءة في نزع الأوراق عن سيقان الورود. غادرت السيدة وتركت فرانسي وحدها في أول ساعة لها وأول يوم وأول وظيفة.

وفقاً للتعليمات التي أملتها السيدة، اختارت فرانسي بيدها اليسرى قطعة سلك بطول قدم وفي الوقت نفسه انتزعت بيدها اليمنى قطعة صغير من الورق الأخضر الداكن. بللت طرف القطعة بقطعة إسفنج مبللة ثم وباستخدام إبهامها واثنين من أصابعها في كل يد كآلة لف، لفّت الورقة على السلك ووضعت السلك الملفوف جانباً.. وهكذا صنعت أول ساق.

في فترات الراحة كان مارك وهو فتى ذا وجه منمش يوزع السيقان على عاملات أخريات يلصقن بتلات الورود بالساق الملفوف بالورق. كانت هناك فتاة أخرى تربط كأس الزهرة تحت الوردة وتسلمها إلى فتاة تعمل إلى جانبها وتقوم بانتزاع ثلاث وريقات لامعة من بين حزمة من أوراق الشجر وتربطها بسلك إلى الساق ثم تسلم الوردة إلى آخر مرحلة لإتمام العمل حيث يقوم العامل بلف قطعة أثقل من الورق الأخضر حول كأس الزهرة وحتى أسفل الساق. وهكذا يصبح الساق والكأس والوردة والأوراق وحدة واحدة وكأنها قد نمت مع بعضها البعض.

شعرت فرانسي بألم في ظهرها يضرب حتى كتفيها. لا بد أنها قامت بتغطية ألف ساق ومن المؤكد أن وقت تناول الغداء قد حان. التفتت نحو الساعة وكم كانت دهشتها عندما اكتشفت أن ساعة واحدة فقط قد مضت على بدء العمل.

- أيتها الفتاة التي تراقب الساعات.. علّقت إحدى الفتيات بسخرية. نظرت إليها فرانسي مندهشة ولكنها لم تقل شيئاً.

بدأت تعتاد على إيقاع العمل وأصبح الأمر مع الوقت أكثر سهولة وأصبحت خطوات العمل تسير كما يلي: أولاً تضع جانباً السلك المغطى، أولاً ونصف تنتقي سلكاً جديداً وقطعة ورق، ثانياً تبل قطعة الورق ثم ثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً وسابعاً وثامناً وتاسعاً وعاشراً يكون السلك قد تغطى. فيما بعد أصبح إيقاع العمل يسير بشكل فطري. لم تعد تضطر إلى العد ولم يعد التركيز ضرورياً. أخذ ظهرها يرتاح رويداً رويداً وتوقف الألم في كتفها. شعرت بتحرر في ذهنها وبدأت تتصور الأشياء بشكل أفضل.

- إن هذا الأمر قد يأخذ مني حياة بأكملها.. فكرت قليلاً. أنا أعمل ثماني ساعات في اليوم لأحصل على نقود أشتري فيها طعاماً وأدفع بدل مكان للعيش ثم أعود في اليوم التالي لأغطي المزيد من الأسلاك. بعض الناس، ولدوا واستمروا في الحياة لكي يصلوا إلى وضع مثل هذا. بالطبع بعض هؤلاء الفتيات سيتزوجن، ربما سيتزوجن رجالاً يعيشون مثلهم هذه الطريقة في الحياة. ولكن ماذا سيكسبن؟ سوف يكسبن شخصاً يقمن بعض الحوارات معه بين فترات النوم والعمل. ولكنهن يعلمن أن هذا المكسب لن يستمر طويلاً. لقد رأيت العديد من الأزواج العاملين الذين لم يعد الحوار يدور بينهم إلا بالغضب والمرارة بعد مجيء الأطفال وتراكم الفواتير. لقد علق هؤلاء الناس لماذا؟ (تذكرت الحجج التي كانت جدتها تكررها) إنهم لا يملكون من الثقافة ما يكفي. شعرت فرانسي بالرعب ينمو في صدرها. لعلها لن تتمكن من تكملة دراستها في المدرسة الثانوية أو أنها لن تستطيع أن تحصل على تعليم أكثر مما حصلت عليه. لعلها

ستمضي باقي حياتها في تغطية الأسلاك. واحد واحد ونصف.. اثنان.. ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة.. دبَّ فيها ذلك الرعب المفرط الذي داهمها وهي في سن الحادية عشر ةعندما كانت تشاهد ذلك الرجل العجوز صاحب الأقدام القذرة في مخبز لوشر. وفي خضم حالة الرعب التي أصابتها راحت تسرع في إيقاع عملها بحيث تضطر للتركيز عليه دون أن يكون عندها وقت للتفكير.

– عروس جديدة، قالت لها إحدى العاملات بسخرية.

– هل تحاولين أن تتقربي من المدير؟ كان رأي عاملة أخرى.

فيما بعد أصبحت سرعتها أوتوماتيكية وذهنها طليقاً. راحت تدرس البنات العاملات على الطاولة الطويلة بشكل خفي. كانت هناك اثنتا عشرة منهن بولنديات وإيطاليات. كانت الصغرى منهن تبدو في عمر السادسة عشرة بينما أكبرهن كانت في الثلاثين وكن جميعهن داكنات البشرة. ولسبب غير مفهوم كن جميعهن يرتدين ثياباً سوداء، دون أن يدركن بالتأكيد مدى عدم ملاءمة اللون الأسود للبشرة الداكنة. كانت فرانسي هي الوحيدة التي ترتدي ثوباً قطنياً مما جعلها تشعر كطفلة سخيفة. لاحظت العاملات الفطنات نظراتها الخاطفة إليهن ورددن عليها بطريقتهن الخاصة في السخرية. كانت الفتاة التي تقف على رأس الطاولة هي التي بدأت.

– إحداهن على هذه الطاولة لها وجه قذر. قالت بصوت عالٍ.

– لست أنا أجابت الأخريات واحدة تلو الأخرى.

وعندما جاء دور فرانسي، توقفن جميعهن عن العمل ورحن ينتظرن جوابها. ولما لم تدرِ بماذا تجيب بقيت فرانسي صامتة.

– إن الفتاة الجديدة لا تقول شيئاً.. أعلنت رئيسة العصابة، فإذن هي التي تملك الوجه القذر.

احمرّ وجه فرانسي ولكنها استمرت في العمل بسرعة آملة أن ينسين الموضوع. إحداهن لها عنق قذر، بدأت اللعبة مرة أخرى وراحت الفتيات يجبن كل بدورها إلى أن جاء دور فرانسي التي قالت أيضاً:

– لست أنا ولكنها بدلاً من أن تهدئ من وتيرة عملها راحت تعطيهن مادة أكثر للعمل.

– تقول الفتاة الجديدة إن عنقها ليس قذراً.

– هي تقول ذلك.

– كيف لها أن تعرف؟ هل يمكنها أن ترى عنقها؟

– وهل ستعترف إذا كان قذراً.

– إنهن يردن مني أن أفعل شيئاً.. قالت فرانسي لنفسها بحيرة ولكن ماذا؟ هل يردن مني أن أفقد أعصابي وأكيل لهن اللعنات؟ هل يردن مني أن أترك هذه الوظيفة؟ أم هل يردن مني أن أبكي مثلما بكت تلك الفتاة الصغيرة منذ مدة عندما راقبتها وهي تمسح اللون الأسود.. مهما يكن ما يردنه فلن أفعله.. أحنت رأسها فوق الأسلاك وأطلقت العنان لسرعة أصابعها.

استمرت هذه اللعبة المرهقة طوال الفترة الصباحية ولم تهدأ إلا عندما كان يحضر مارك الفتى الموزِّع، إذ يتركن فرانسي جانباً ويبدأن به.

– أيتها الفتاة الجديدة انتبهي من مارك.. رحن يحذرنها، لقد اعتُقل مرتين بتهمة الاغتصاب ومرة بتهمة استعباد البيض.

كانت الاتهامات واضحة في سخريتها، فالكل يمكنه ملاحظة حركات مارك المخنثة، لاحظت فرانسي كيف كان الفتى التعس يحمرّ وجهه أمام كل ملاحظة ساخرة وشعرت بالأسف له.

انتهت فترة الصباح بعدما بدا أنها لن تنتهي وقرع الجرس معلناً موعد الغداء. توقفت الفتيات عن العمل وسحبن الأكياس الورقية التي يضعن فيها

الطعام ومزقنها ليفرشنها على شكل غطاء طاولة ثم فردن الساندويشات المتبّلة بالبصل فوقها وبدأن بالأكل.

كانت يدا فرانسي ساختنين ودبقتين. أرادت أن تغسل يديها قبل الأكل فسألت الفتاة التي تقف إلى جانبها عن مكان المغسلة.

– أنا لا أتكلم الإنكليزية، أجابتها الفتاة بلهجة غَرّة مبالغ فيها.

في الموقف التالي قالت فتاة أخرى ظلت تسخر من فرانسي منذ الصباح بلهجة إنكليزية اصطلاحية.

– ما هي المغسلة؟ سألت إحدى الفتيات البدينات.

– حيث يضعون الغسالات. أجابت أخرى.

في ذلك الوقت، كان مارك يجمع العلب، كان واقفاً عند المدخل ويداه محملتان بالعلب. بلع ريقه مرتين قبل أن تسمعه فرانسي يتكلم للمرة الأولى.

– لقد صلب يسوع المسيح من أجل أناس مثلكن.. قال بحرارة وأنتن ترفضن أن ترشدن الفتاة الجديدة إلى الحمامات.

حدقت فيه فرانسي وقد علت الدهشة محياها. ولكنها لم تحتمل فقد كان الوضع مضحكاً.. لم تتمالك نفسها فانفجرت بالضحك. بلع مارك ريقه مرة أخرى وغادر الردهة.. بعد ذلك تبدّل كل شيء.. سرت همهمة حول الطاولة.

– لقد ضحكت.

– الفتاة الجديدة ضحكت.

– ضحكت.

عقدت إحدى الفتيات الإيطاليات يدها بيد فرانسي وقالت:

– تعالي أيتها الفتاة الجديدة، سأريك أين الحمامات.

في الحمام، أدارت الفتاة صنبور المياه لفرانسي وضغطت على علبة الزجاج التي تضم صابوناً سائلاً وظلت تحوم حول فرانسي لتدلها على التفاصيل فيما هي تغسل يديها. عندما جاء وقت تنشيف اليدين مدت فرانسي يدها لتتناول منشفة لفافة بيضاء كان واضحاً أنها لم تُستعمل ولكن الفتاة سحبتها منها بسرعة قائلة:

– لا تستخدمي هذه المنشفة أيتها الفتاة الجديدة.

– لماذا إنها تبدو نظيفة. قالت فرانسي.

– إنها خطرة فبعض العاملات هنا مصابات بالسيلان. ربما تنتقل إليك العدوى إذا استخدمت المنشفة.

– ماذا أفعل إذن. قالت فرانسي وهي تحرك يديها المبلولتين.

– استخدمي ثوبك كما نفعل نحن.

جففت فرانسي يديها بثوبها وهي تنظر إلى المنشفة القاتلة بهلع.

عندما عادت إلى غرفة المشعل، وجدت فرانسي أن الفتيات قد فتحن كيس الورق خاصتها والذي يحتوي على ساندويشين من السجق كانت أمها قد حضّرتهما لها كما وجدت أن الفتيات قد وضعن لها حبة طماطم حمراء طازجة على كيسها المفروش. كن جميعهن يرحبن بها بابتسامة حتى إن الفتاة التي ظلت تسخر منها طوال النهار، مررت لها زجاجة ويسكي بعد أن شفّت منها جرعة طويلة.

– خذي جرعة أيتها الفتاة الجديدة، قالت لها بصوت آمر، إن هذه الساندويشات جافة عندما تنزل إلى الحلق.

تراجعت فرانسي ورفضت بسرعة ولكن الفتاة أضافت: اشربي إنه فقط شاي بارد. ولكن فرانسي التي كان ذهنها ما يزال مضطرباً من قصة منشفة الحمام هزّت رأسها بلطف وقالت: لا..

– آه، قالت الفتاة مستفسرة: أنا أعلم لماذا لا تريدين أن تشربي من الزجاجة لا بد أن أنستاسيا أدخلت الرعب في قلبك بقصتها في الحمام. لا تصدقيها أيتها

الفتاة الجديدة. إن قصة المنشفة اختراع من المدير كي لا نستخدم المناشف وكي يستطيع توفير دولارين كل أسبوع في المغسلة.

– ماذا؟ أنا لا أرى أياً منكن تستخدم المنشفة.

– يا للجحيم، إن لدينا فقط نصف ساعة للغداء. من الذي يريد أن يضيِّعها في غسل يديه. اشربي أيتها الفتاة الجديدة.

شربت فرانسي جرعة طويلة من الزجاجة. كان الشاي البارد قوياً ومنعشاً. شكرت فرانسي الفتاة ثم حاولت أن تشكر التي أعطتها حبة الطماطم ولكن الفتيات جميعهن أنكرن إعطاءها لها.

– ما الذي تتحدثين عنه.

– أية طماطم؟

– نحن لا نرى أية طماطم.

– لا بد أن الفتاة الجديدة أحضرت معها طماطم للغداء ولم تتذكرها.

وهكذا كنّ يحاولن إغاظتها ولكن هذه المرة بدفء ولطف. استمتعت فرانسي بفترة الغداء وكانت سعيدة لأنها اكتشفت ما الذي يردنه منها. فقد أردن منها أن تضحك. أمر بسيط وما أصعب اكتشافه.

مرت بقية النهار بسلام وقد أخبرتها الفتيات ألا تجهد نفسها في العمل لأنه عمل موسمي وسوف يتم التخلي عنهن عندما تنتهي الطلبات على الورود. شعرت فرانسي بالسرور لأن هؤلاء الفتيات الأقدم منها في العمل والأكثر خبرة قد أولينها ثقتهن وبدأت تبطئ طوعياً. مضت فترة بعد الظهر وهن يتبادلن النكات وقد ضحكت فرانسي على جميع نكاتهن سواء كانت النكتة مضحكة أو مجرد قذارة. شعرت بتأنيب في ضميرها لأنها شاركت الأخريات في السخرية من مارك «الشهيد» الذي لا يعرف أنه لو ضحك معهن مرة لذهبت عنه كل المشاكل التي يعانيها في المشغل.

كانت الساعة تقارب عدة دقائق من بعد الظهر يوم السبت. وقفت فرانسي عند آخر نقطة في محطة شارع فلاشنغ ببرودواي تنتظر نيلي. كانت تحمل مغلفاً فيه خمسة دولارات هي دفعتها الأسبوعية الأولى. كان نيلي يحمل خمسة دولارات أيضاً وقد اتفق الاثنان على أن يصلا إلى البيت معاً ويقيما احتفالاً لأمهما قبل إعطائها النقود.

عمل نيلي كمراسل في شركة مالية وسط نيويورك. وكان زوج سيسي قد دبّر له هذه الوظيفة عبر صديق له يعمل هناك حالياً. كانت فرانسي تغار من نيلي فقد ظل يعبر كل يوم جسر وليامزبيرغ ويذهب إلى المدينة الكبيرة الغريبة ويتناول غداءه في مطعم. في اليوم الأول عمل مثل فرانسي وأحضر معه كيس طعامه، ولكن الأولاد هناك سخروا منه ولقّبوه بالفتى الريفي من بروكلين.

وبعد ذلك صارت ماما تعطيه 15 سنتاً كل يوم ليأكل في المطعم. وقد أخبر فرانسي أنه يتناول غداءه في مطعم يسمى «الأوتومات» حيث يمكن للشخص أن يضع مبلغ نيكل في فتحة ماكنة القهوة ليتناول فنجاناً بحجم وسط من القهوة والحليب. كانت فرانسي تتمنى لو يتاح لها عبور الجسر إلى العمل وتناول الطعام في الأوتومات بدلاً من حمل الساندويشات معها من المنزل.

نزل نيلي من درجات القطار وهو يحمل طرداً منبسطاً تحت ذراعه. لاحظت فرانسي كيف يضع نيلي قدمه على الدرج في زاوية تضغط فيه قدمه بأكملها على الدرجة بدلاً من كعبه فقط. أعطته هذه الحركة نوعاً من الخطوة الواثقة. كان بابا ينزل الدرجات بهذه الطريقة. رفض نيلي أن يخبر فرانسي حول محتويات الطرد مبرراً الأمر أنه قد يفسد المفاجأة. توقف الاثنان عند بنك مجاور كان على وشك الإغلاق آخر النهار وطلبا من الشاب الجالس عند شباك صرف النقود أن يعطيهما دولارات جديدة بدل تلك القديمة التي يحملانها.

– لماذا تريدان دولارات جديدة. سألها الشاب.

- إنه راتبنا الأول وقد أحببنا أن نأخذه إلى أمنا على شكل نقود جديدة.. أجابته فرانسي لتشرح له الأمر.

- الراتب الأول، آه إن هذا مؤثر جداً. أتذكر عندما أخذت معي الراتب الأول إلى البيت. كنت حينها ولداً أعمل في مزرعة بمنهاست في لونغ آيلاند.. حسناً.. تابع الرجل حديثه حول ذكرياته فيما المراجعون يقفون في الصف وقد أعياهم الصبر. وأخيراً أنهى حديثه قائلاً: وعندما أعطيت النقود لأمي، تدفقت الدموع من عينيها.. نعم كان هناك دموع تقف في عينيها.

مزق الشاب لفّة تضم حزمة من الدولارات الجديدة وأعطى الطفلين بدل القديم ثم قال: وإليكما هذه الهدية. أعطى لكل منهما سنتاً جديداً يلمع كالذهب بعد أن سحب سنتين من جرار النقود. إنها سنتات جديدة موديل 1916 وهي الأولى في المنطقة. وفِّراها ولا تنفقاها. بعد ذلك تناول بنسين قديمين من جيبه ووضعهما في الدرج حتى لا يظهر هناك أي نقص. شكرته فرانسي واستدارت لتغادر. ما أن سارت خطوتين حتى سمعت الرجل الذي كان يقف وراءهما في الصف يقول:

- أتذكر حين أحضرت راتبي الأول إلى والدتي العجوز في المنزل.

فيما هما يغادران البنك، تساءلت فرانسي فيما لو كان كل شخص ممن يقفون في الصف وراءهما سيروي قصة راتبه الأول.

- كل شخص يعمل يملك هذا الشيء المشترك مع الجميع. فهم جميعاً يتذكرون راتبهم الأول.

- نعم.. وافقها نيلي.

عند ناصية الشارع رددت فرانسي كلمات الرجل: كانت هناك دموع تقف في عينيها. لم تكن قد سمعت بهذا التعبير الذي نال إعجابها الآن.

– كيف يمكن أن يحصل هذا؟ أراد نيلي أن يعرف كيف تقف الدموع في العيون.

– إنه لم يستخدم الكلمة بمعنى «وقفت». إنه تعبير يشبه في معناه كأن تقف في السرير طوال النهار.

– ولكن كلمة وقف لا تستخدم هكذا! قال نيلي.

– إنها كذلك ردّت فرانسي.. هنا في بروكلين يستخدمون كلمة وقف بمعنى كلمة بقي.

– أظن ذلك. وافقها نيلي.. دعينا نسير نزولاً عبر شارع منهاتن بدلاً من شارع غراهام.

– لدي فكرة يا نيلي. دعنا نصنع حصالة من الصفيح دون أن نخبر ماما وندقها بالمسامير في خزانتك. سوف نبدؤها بهذين السنتين وحين تعطينا ماما مصروفاً للجيب نضع فيها عشرة سنتات كل أسبوع. سوف نفتحها في عيد الميلاد ونشتري هدايا لماما وللوري.

– ولنا أيضاً.. اشترط نيلي.

– حسناً ! سوف أشتري هدية لك وأنت تشتري هدية لي. سوف أخبرك ماذا أريد عندما يحين الوقت.

سار الاثنان بخفة محاولين الابتعاد عن الأولاد المتسكعين حول دكاكين الخردة. التفتا إلى دكان كارني فيما هما يمران عبر شارع شولز ولاحظا الحشد خارج الدكان.

– أيها الأولاد. قال نيلي باستخفاف وهو يرنّ ببعض النقود في جيبه.

– هل تذكر يا نيلي عندما كنا نبيع الخردة.

– كان هذا منذ وقت طويل.

- نعم وافقته فرانسي، كان ذلك.. منذ أسبوعين فقط حيث حمّلا آخر نقلة لهما من الخردة لبيعها لكارني.

قدّم نيلي الطرد المسطح إلى أمه قائلاً: لك ولفرانسي. فتحته أمه كان فيه علبة تزن باونداً واحداً من مكسرات لوفت.

- لم أشترها من راتبي أيضاً.. قال نيلي معقباً بغموض. تركا أمهما تدخل غرفة النوم قليلاً ثم جهّزا الدولارات العشرة الجديدة ووضعاها على الطاولة ونَاديا أمهما.

- لك يا ماما. لوّحت فرانسي بيدها وهي تؤشر إلى النقود.

- ياه.. قالت، ماما لا أكاد أصدق.

- وهذا ليس كل شيء.. أضاف نيلي ثم أخرج 80 سنتاً من جيبه ووضعها على الطاولة. إنها نقود الإكراميات التي أتقاضاها حين أسرع في عملي. لقد وفّرتها طوال الأسبوع. كان لدي أكثر وقد اشتريت بعض الحلوى.

مررت كاتي النقود إلى نيلي قائلة:

- الإكراميات التي تحصل عليها هي لمصروفك (تماماً مثل بابا.. قالت فرانسي لنفسها).

- حسناً.. سوف أعطي فرانسي ربعه.

- كلا، قالت ماما ثم أحضرت معها خمسين سنتاً من فنجان مكسور وأعطتها لفرانسي.

- هذا هو مصروف فرانسي.. خمسون سنتاً في الأسبوع.

سرّت فرانسي كثيراً لهذا المبلغ الذي لم تكن تتوقعه. غمر الأولاد أمهما بالشكر فيما نظرت كاتي إلى الحلوى وإلى الدولارات الجديدة وثم إلى ولديها. عضت على شفتها ثم استدارت فجأة وذهبت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب خلفها.

- هل هي غاضبة من شيء؟ همس نيلي.

- كلا.. قالت فرانسي.. إنها ليست غاضبة بل هي لا ترغب في أن نراها تبكي.

- كيف تعرفين أنها ستبكي؟

- لأني.. نظرت فرانسي إلى النقود ثم تابعت.. رأيت الدموع تقف في عينيها.

44

لم يمضِ على عمل فرانسي في ذلك المشغل أسبوعان حتى جاء وقت التسريح تبادلت الفتيات النظرات بينما كان المدير يشرح أن الأمر سيستغرق عدة أيام فقط.

- عدة أيام هي ستة أشهر فسرت أنستاسيا حديثه لفرانسي.

تحوّلت الفتيات نحو مصنع غرين بوينت الذي كان بحاجة إلى أيدٍ عاملة لطلبات موسم الشتاء من أزهار البونسيتا وأكاليل نبتة الإيلكس. وعندما يأتي موعد التسريح من هناك أيضاً، كانت الفتيات يتحولن إلى مصنع آخر وهكذا دواليك. كنّ معروفات في بروكلين باسم العمالة المهاجرة التي تنتقل من منطقة إلى أخرى حسب الموسم.

حثّت الفتيات فرانسي كي تذهب معهن ولكنها أرادت أن تجرِّب عملاً آخر. فكّرت أنها طالما بحاجة إلى العمل فلماذا لا تجرب عدة أنواع مختلفة من الأعمال عبر تغيير عملها في كل فرصة، وهكذا يصبح بإمكانها أن تقول إنها جربت جميع أنواع الأعمال التي كانت متوفرة.

عثرت كاتي على إعلان في مجلة العالم حول طلب لوظيفة منظمة ملفات. ويقول الإعلان إن الفتاة المطلوبة يمكن أن تكون مبتدئة بعمر السادسة عشرة. اشترت فرانسي قطعة ورق رسائل ومغلفاً وعبأت طلباً للوظيفة وعنونته على صندوق البريد المذكور في الإعلان ورغم أنها كانت ما تزال في الرابعة عشر إلا أنها اتفقت مع أمها على قدرتها على الظهور بعمر السادسة عشر، وهكذا كتبت في الطلب أن عمرها ستة عشر عاماً.

لم يمر يومان حتى تلقت فرانسي جواباً مثيراً. كانت الرسالة مروّسة بصورة زوجين من المقصات موضوعين على صحيفة مطوية وإلى جانبهما وعاء من المعجون. كان المغلف مرسلاً من دائرة مراقبة الصحف التي تقع على شارع كانال في نيويورك وفيه رسالة تطلب من الآنسة نولان الحضور لإجراء مقابلة.

ذهبت سيسي مع فرانسي للتسوق وساعدتها على شراء ثوب يظهرها أكبر قليلاً مع زوج من الأحذية ذوات الكعب العالي. عندما جربت فرانسي قياس الثوب أمام أمها وسيسي، أقسمت الاثنتان أنها تبدو في السادسة عشرة لولا جدائل شعرها التي جعلتها تبدو طفولية جداً.

– ماما اسمحي لي أن أقصه قصيراً.. توسلت فرانسي إلى أمها.

– لقد استغرق نمو هذا الشعر أربعة عشر عاماً، قالت ماما، ولن أسمح لك بأن تقصيه.

– ماذا لقد سبقك الزمن.

– لماذا تريدين قصّه قصيراً مثل الأولاد؟ سألتها أمها.

– لأن الشعر القصير يسهل الاعتناء به. قالت فرانسي.

– إن الاعتناء بالشعر يجب أن يشكّل متعة للمرأة.

– ولكن يا كاتي.. احتجت سيسي إن جميع الفتيات هذه الأيام يظهرن بشعر قصير.

- إنهن حمقاوات إذن.. إن شعر المرأة هو سرّها تشبكه في النهار بدبوس وتفلته في الليل عندما تكون مع رجلها بحيث تظهر إشراقة وجهها. إن شعرها يجعل منها سراً خاصاً بالنسبة للرجل.

- في الليل جميع القطط تظهر رمادية. ردّت سيسي بمكر.

- لا تعجبني ملاحظاتك. أجابتها كاتي بحزم.

- سوف أظهر مثل إيرين كاسل بشعر قصير.. ألحّت فرانسي.

- إن نساء اليهود يجبرن على قصّ شعورهن عندما يتزوجن حتى لا ينظر رجل آخر إليهن. كذلك تفعل الراهبات من أجل إثبات أنهن قد انتهين من أمر الرجال. لماذا ينبغي لأية فتاة شابة أن تقص شعرها إذا لم يكن هناك ما يجبرها على ذلك؟

- حسناً، قالت فرانسي، ولكن عندما أبلغ الثامنة عشرة سوف أصبح سيدة نفسي وسترين.

- عندما تصبحين في الثامنة عشرة، يمكنك أن تحلقي جلدة رأسك ولن يهمني الأمر. أما حالياً.. قامت كاتي بربط جدلات فرانسي الثقيلة حول رأسها ثم شبكتها بدبابيس عظمية، بعد أن انتزعتها من رأسها هي..

هكذا.. رجعت خطوتين إلى الوراء وتأملت في ابنتها.

- إنها تبدو مثل تاج لامع.. أعلنت كاتي بطريقة مسرحية.

- إنها تبدو على الأقل في سن الثامنة عشرة. أذعنت سيسي.

نظرت فرانسي إلى المرآة وسرّها أنها تبدو أكبر سناً بعد الطريقة التي عقدت فيها أمها شعرها ولكنها لم تشأ أن تستسلم وتعترف بالأمر.

- سوف يلازمني الصداع طوال حياتي بسبب هذا الثقل من الشعر الذي أحمله حول رأسي. قالت فرانسي شاكية.

– كم أنت محظوظة إذا كان هذا هو السبب وراء صداعك.

في اليوم التالي رافق نيلي أخته إلى نيويورك. لاحظت فرانسي بينما كان القطار يدخل على جسر وليامزبيرغ بعد مغادرته لشارع مارسي أن العديد من الناس الجالسين في المركبات ينهضون من مقاعدهم بانسجام ثم يجلسون مرة أخرى.

– لماذا يفعلون ذلك يا نيلي؟

– عند أول نقطة من معبر الجسر يوجد بنك على سطحه ساعة ضخمة. الناس يقفون لإلقاء نظرة على الوقت بحيث يعرفون إذا كانوا متأخرين أم مبكرين إلى عملهم. أراهنك أن هناك مليون شخص ينظر إلى هذه الساعة كل يوم.

توقعت فرانسي أن تشعر ببعض الإثارة عند عبورها هذا الجسر للمرة الأولى ولكن الرحلة لم تكن بنصف الإثارة التي شعرت بها عندما ارتدت ثياب الكبار للمرة الأولى.

لم تستغرق المقابلة طويلاً وتم توظيف فرانسي تحت التجربة بدوام من الساعة التاسعة صباحاً وحتى الخامسة والنصف، مع نصف ساعة غداء وبأجرة سبعة دولارات أسبوعياً. في البداية أخذها المدير في جولة على الدائرة.

كان هناك عشر قارئات يجلسن على مكاتب طويلة مائلة وكانت الصحف ترد من جميع الولايات ويتم تقسيمها بينهن. في كل ساعة من النهار، كانت الصحف تتدفق على الدائرة من كل مدينة من ولايات الاتحاد. وكانت الفتيات يضعن علامات على المواضيع المطلوبة ويرفقنها برقم تعريفهن على رأس الصفحة الأولى.

بعد ذلك يتم جمع الصحف التي تحمل العلامة وتجلب إلى الطابعة التي تعمل على مطبعة يدوية تحمل جهاز تأريخ وتقوم الطابعة بتعديل التواريخ ثم

تدخل رقاقة تحمل اسم الصحيفة والمدينة والولاية التي تصدر فيها وتطبعه على قصاصات بعدد المواضيع التي تحمل العلامات.

بعد ذلك تنقل الصحف والقصاصات إلى القاطعة التي تقف أمام مكتب مائل وتقوم بقص المواضيع ذات العلامة بسكين حاد. (على الرغم من وجود صور لمقصين على ترويسة الرسالة إلا أنه لم يكن يوجد مقص واحد في المشغل). بعد القص تقوم القاطعة برمي الورق الزائد على الأرضية حتى يتكدس ويصبح بعد خمس عشرة دقيقة أكواماً من الورق تصل إلى حد خصرها.

بعد ذلك يتم تسليم المواضيع المقصوصة والقصاصات إلى الفتاة «الملصقة» التي تلصق القصاصات على المواضيع ثم يتم وضعها في ملف وتجمع وتوضع في مغلفات وترسل بالبريد.

اعتادت فرانسي على نظام الملفات بسهولة واستطاعت خلال أسبوعين حفظ الأسماء والعناوين في صندوق الملفات التي يقارب عددها الألفين. بعد ذلك تم وضعها تحت التدريب كقارئة، حيث أمضت أسبوعين لا تفعل شيئاً سوى دراسة بطاقات العملاء التي كانت تحمل تفصيلات أكثر من عناوين صندوق الملفات. بعد ذلك أجري لها اختبار غير رسمي لفحص قدرتها على حفظ الأنظمة. بعد اجتيازها للاختبار بنجاح تسلمت مهمة قراءة صحف ولاية أوكلاهوما. كان المدير يقرأ صحفها قبل تمريرها إلى القاطعة ويشير إلى الأخطاء. وعندما أصبحت خبيرة بما يكفي بحيث لم تعد بحاجة لأحد يتفقد من ورائها، أضيفت إليها مهمة قراءة صحف ولاية بنسلفانيا، تلتها صحف ولاية نيويورك حتى أصبح لديها صحف ثلاث ولايات لتقرأها. مع نهاية شهر أغسطس (آب) أصبحت فرانسي تقرأ من الصحف وتضع من العلامات أكثر من أية قارئة في الدائرة. كانت ما تزال جديدة على العمل ومفعمة بالنشاط ومهتمة بأن تُرضي مديرها كما كانت تملك عينين قويتين صافيتين (كانت القارئة الوحيدة التي لا تلبس نظارات) وقد طورت قدرتها على التقاط الصور في ذهنها بسرعة كبيرة بحيث أصبح بمقدورها

من نظرة واحدة إلى الصفحة أن تحدد فوراً ما إذا كانت هناك مقال وخبر ينبغي وضع علامة عليه. كانت تقرأ ما بين 180-200 صحيفة يومياً بينما كانت القارئة التي تليها في القدرة لا تتجاوز معدل 100-110 صحف.

نعم، أصبحت فرانسي القارئة الأسرع في الدائرة.. والأقل أجراً. إذ رغم أنهم قد رفعوا أجرها إلى عشرة دولارات في الأسبوع عندما حوّلوها إلى قارئة إلا أن الفتاة التي تليها كانت تحصل على 25 دولاراً في الأسبوع فيما كانت القارئات الأخريات يحصلن على 20 دولاراً أسبوعياً. ولكن فرانسي التي لم تكن على صداقة جيدة مع الفتيات الأخريات ولم تستطع كسب ثقتهن، لم تتمكن من معرفة ضآلة أجرها بالمقارنة معهن.

ولكن رغم أن فرانسي كانت تتمتع بقراءة الصحف وكانت فخورة بالعشرة دولارات التي تحصل عليها أسبوعياً إلا أنها لم تكن سعيدة. كان الذهاب للعمل في نيويورك يثيرها كما كان وجود وردة في إناء بني في المكتبة يثيرها أيضاً فقد كانت تتوقع أن تثيرها مدينة كبيرة مثل نيويورك مائة مرة أكثر.. ولكن الحال لم يكن كذلك.

كان الجسر أول إحباط لها. حينما كانت تنظر إليه من سطح منزلها، كانت تظن أن عبوره سيجعلها تشعر وكأنها في قصة خيالية تطير في الهواء، ولكن الواقع كان مختلفاً فالرحلة عبر الجسر لا تختلف عن السير في شوارع بروكلين. كان الجسر معبداً على الجانبين تماماً مثل شوارع برودواي كما أن مساراته كانت المسارات نفسها. لم تشعر بأي شعور مختلف بالنسبة للقطار وهو يمر فوق الجسر. لقد أحبطتها نيويورك ببناياتها الشاهقة وحشودها المزدحمة. فيما عدا ذلك، كانت لا تختلف كثيراً عن بروكلين. هل ستكون جميع الأمور الجديدة محبطة من الآن فصاعداً؟ راحت تتساءل.

كانت فرانسي قد درست خارطة الولايات المتحدة عدة مرات وعبرت سهولها وجبالها وصحاريها وأنهارها في خيالها. كان الأمر بالنسبة لها رائعاً ولكنها الآن أخذت تتساءل فيما لو كانت ستشعر بالإحباط أيضاً في واقع الأمر.

لنفترض، كما فكّرت، أنها رغبت بالقيام برحلة عبر هذه البلاد العظيمة. في هذه الحالة، ستبدأ رحلتها في السابعة صباحاً وتنطلق باتجاه الغرب واضعة قدماً أمام قدم من أجل قطع المسافة. وخلال مسيرتها غرباً، ستكون مشغولة بخطواتها ومدركة أن خطواتها هذه هي جزء من سلسلة من الخطوات بدأتها من بروكلين لدرجة أنها لن تفكر أبداً بكل تلك الجبال والأنهار والسهول والصحارى التي ستمر بها. كل ما سوف تلاحظه هو أن بعض الأشياء كانت غريبة لأنها تذكّرها ببروكلين وأن أشياء أخرى كانت غريبة أيضاً لأنها تختلف تماماً عن بروكلين. «أعتقد أنه لا يوجد شيء جديد إذن في هذا العالم.. قررت فرانسي بمرارة». وإذا كان هناك شيء جديد أو مختلف فإن جزءاً منه سيكون في بروكلين ولا بد أني قد اعتدت عليه لدرجة أني لن ألاحظه إذا مررت به. مثلها مثل الإسكندر الأكبر، شعرت فرانسي بالأسى لقناعتها بعدم وجود عوالم جديدة تستطيع أن تقهرها.

كيّفت نفسها مع إيقاع عمل الجزء من الثانية خلال رحلات عملها من وإلى نيويورك. كان الوصول إلى المكتب عبارة عن محنة عصيبة فإذا وصلت دقيقة قبل التاسعة، تصبح إنسانة حرة وإذا وصلت دقيقة بعد التاسعة يدب فيها القلق لأنها يمكن أن تجعل من نفسها كبش فداء أمام المدير إذا صادف أن يكون مزاجه سيئاً في ذلك اليوم. هكذا تعلمت طرق توفير أجزاء من الثواني. فقبل أن يتوقف القطار عند محطة نزولها كانت تشق طريقها إلى الباب لتكون أول من ينزل عند فتحه. بعد النزول، كانت تركض كالغزال ملتفّة حول الحشود بطرق دائرية لكي تكون أول من يصل إلى الأدراج التي تأخذها نحو الشارع. وفي طريقها نحو المكتب، كانت فرانسي تسير قريبة جداً من البنايات كي تعبر المقاطع بزاوية حادة توفر لها بعض الثواني. كذلك الأمر حين تقطع الشارع إذ كانت تقطعه عند الزوايا لكي توفر على نفسها السير على أجزاء من الرصيف يمكن أن تكلفها وقتاً. ولدى وصولها إلى البناية التي يوجد فيها المكتب، كانت فرانسي تندس في المصعد حتى لو نادى الرجل العامل في المصعد أنه أصبح مليئاً. كل هذه

المناورات كانت تجري لكي تصل دقيقة واحدة قبل التاسعة بدلاً من أن تصل دقيقة واحدة بعد التاسعة.

في أحد الأيام، غادرت فرانسي المنزل عشر دقائق أبكر مما اعتادت عليه. ولكنها ورغم عدم الحاجة لأن تسرع، ظلت تدفع بنفسها مسرعة لتنزل من القطار، وظلت تسير بخطوات طيارة وتخترق الشوارع بالطريقة نفسها التي توفّر لها بعض الأجزاء من الثواني وتندس في المصعد إلى أن وصلت إلى المكتب أبكر من الموعد بخمس عشرة دقيقة. كانت الغرفة الكبيرة فارغة ليس فيها سوى الصدى. شعرت فرانسي بالوحشة والضياع. وعندما اندفعت العاملات الأخريات. ثوانٍ قبل التاسعة، شعرت فرانسي بأنها خائنة. وفي اليوم التالي نامت عشر دقائق أطول وعادت إلى توقيتها السابق.

كانت الفتاة الوحيدة في الدائرة من بروكلين. الفتيات الأخريات كن من مناطق أخرى مثل منهاتن، هوبوكن، برونكس، إضافة إلى فتاة كانت تأتي من بايون في ولاية نيوجيرسي، كما كانت هناك أختان، من أقدم العاملات في المكتب أصلهما من ولاية أوهايو. في أول يوم عمل لفرانسي في المكتب قالت لها إحدى الأختين: إن لهجتك تدل على أنك من بروكلين. بدا الأمر بالنسبة لفرانسي وكأنه نوع من الاتهام وأصبحت منذ ذلك اليوم حريصة على طريقة حديثها إذ بدأت تلفظ الكلمات بحذر وتحاول أن تغير من لهجة بروكلين.

كان هناك شخصان فقط في ذلك المكتب يمكن لفرانسي أن تتحدث معهما دون ارتباك أو خجل. أحدهما كان مديرها وهو خريج من جامعة هارفارد، كلامه واضح بسيط ولفظه أقل تأثراً باللهجات المناطقية التي تتحدث بها معظم القارئات كونهن خريجات مدارس ثانوية وكونهن اعتدن على استخدام مفردات موسعة، اكتسبنها من خلال قراءتهن. أما الشخص الآخر فكان الآنسة أرمسترونغ وهي الوحيدة من بين الموظفات التي كانت قد تخرجت بشهادة من كلية جامعية.

كانت الآنسة أرمسترونغ قارئة خاصة بالمدينة، مكتبها بعيد عن الجميع ويقع في إحدى أفضل زوايا القاعة حيث توجد نافذتان تفتحان على الشمال والشرق وإضاءة جيدة للقراءة. لم تكن تقرأ سوى صحف مدن شيكاغو وبوسطن وفيلادلفيا ونيويورك. كل صباح كان يأتي مراسل خاص ويضع على مكتبها كل نسخة صدرت مباشرة بعد صدور هذه الصحف من المطابع. وعندما تنهي قراءة صحفها لم يكن مطلوباً منها أن تعود لتسهم في مشاركة الفتيات عملهن أو تساعد من تخلفت قليلاً منهن في إنهاء عملها. بل كانت تمضي وقتها لتحيك ثوبها أو لتجمّل أظافرها بانتظار النسخ التالية. كان أجرها هو الأعلى، ويصل إلى 30 دولاراً في الأسبوع ومع ذلك كانت الآنسة أرمسترونغ إنسانة لطيفة أبدت اهتماماً خاصاً بفرانسي ولطالما حاولت أن تجرها إلى حوار أو محادثة حتى لا تشعر بالوحدة.

في إحدى المرات، داخل غرفة الحمام، سمعت فرانسي ملاحظة حول الآنسة أرمسترونغ تقول إنها عشيقة المدير. كانت فرانسي تسمع بمثل هذه القصص رغم أنها لم تشاهد شيئاً منها. ولكنها بعد سماعها لهذا الخبر ذهبت فوراً لتفحص الآنسة أرمسترونغ عن قرب وتدرس وضعها كعشيقة. رأت أنها ليست جميلة. كان وجهها يكاد يشبه وجه القرد، وفمها عريض وأنفها مسطح سميك وجسدها متوسط الجمال أو مقبول. تأملت فرانسي في رجلي الآنسة أرمتسرونغ أيضاً، كانتا طويلتين، نحيلتين كأنهما قالبان منحوتان بإتقان. ترتدي فوقهما جوارب حريرية شفافة، لا يوجد فيها أية ثقوب. إضافة إلى حذاء ذي كعب عال خفيف يكسب قدميها المقوستين بشكل جميل منظراً أكثر جمالاً. إذن فهذا هو السر في العشيقة الجميلة، «رجلان جميلتان» استنتجت فرانسي ذلك ثم نظرت إلى رجليها الطويلتين النحيفتين.. لن أنجح في ذلك، قالت وهي تتنهد وتلزم نفسها بحياة بلا خطيئة.

كان هنا نوع من النظام الطبقي في الدائرة، يضم من بين الفتيات تلك التي تقوم بقص الأوراق، ثم الطابعة ثم تلك التي تلصق الأوراق، والتي تخرِّمها ومن

ثم الفتى الذي يعمل في التوزيع. كان هؤلاء يطلقن على أنفسهن، ولسبب ما، اسم النادي ويفترضن أن الموظفين الأعلى درجة منهن في التعليم ينظرون إليهن بازدراء، لذلك وكرد فعل منهن كن يحرّكن ما استطعن من المشاكل بينهم.

ولكن ولاءات فرانسي كانت منقسمة. فهي وفقاً لخلفيتها وثقافتها تنتمي إلى طبقة النادي ولكن قدرتها وذكاءها يجعلانها تنتمي إلى طبقة القارئات. كانت الفتيات من طبقة النادي يدركن وجود مثل هذا الانقسام لدى فرانسي ويحاولن أن يستخدمنها كوسيط بين الطبقتين. كن يخبرنها عن أية إشاعات تثير المشاكل، ويتوقعن منها أن تنقلها إلى القارئات لإثارة الضغائن. ولكن علاقة فرانسي مع القارئات لم تكن حميمة لدرجة تبادل النميمة بينها وبينهن. لذلك كانت الإشاعات تموت في مكانها.

في أحد الأيام، أخبرتها الفتاة التي تقوم بالقص، أن الآنسة آرمسترونغ ستترك العمل في شهر أيلول (سبتمبر). بالطبع افترضت فرانسي أن هذه إشاعة تم إطلاقها لإثارة الغيرة بين القارئات. فجميعهن كن يتوقعن استلام وظيفة قارئة المدينة بعد استقالة الآنسة أرمسترونغ. ولكن فرانسي كانت تفترض أن هذا الأمر مستحيل بالنسبة لها فهي فتاة في الرابعة عشرة لا تملك من المؤهلات العلمية إلا شهادة مدرسية ولا يمكنها أن تأخذ مكان شخصية مثل الآنسة أرمسترونغ، خريجة كلية جامعية، وعمرها ثلاثون سنة.

كان الوقت يقترب من نهاية شهر آب (أغسطس)، وكانت فرانسي قلقة لأن أمها لم تذكر شيئاً بالنسبة لدخولها إلى المدرسة الثانوية. كانت فرانسي تتوق بشدة إلى تكملة دراستها. فالحديث الذي ظل يدور بين أمها وخالاتها وجدتها طوال سنين حول تكملة تعليمها جعلها أكثر رغبة في ذلك. وليس هذا فقط، بل أوجد لها شعوراً بالنقص كونها تفتقر في وضعها الحالي إلى أي تعليم جدير.

استذكرت بشوق شديد تلك العبارات التي كتبتها فتيات المدرسة، في دفتر مذكراتها إبان حفل التخريج. أرادت أن تعود لتكون واحدة منهن فجميعهن كن

يعشن حياة شبيهة بحياتها. شعرت أن مكانها الطبيعي هو في المدرسة معهن وليس العمل والتنافس مع نساء أكبر منها سناً.

كذلك، لم تحب فرانسي العمل في نيويورك. كانت حشود الناس حولها تشعرها بالرهبة والوجل كما شعرت أنها تدفع إلى حياة لا تستطيع أن تدبر أمرها فيها ولكن أكثر الأمور التي كانت تخيفها في عملها بنيويورك هو زحمة القطارات.

أحياناً لم تكن تستطيع أن تحرك ذراعها وسط الازدحام في القطار. وفي إحدى المرات التي لم تكن قادرة فيها على إنزال ذراعها عن الممسك بسبب شدة الازدحام، شعرت بقبضة يد رجل تحكم عليها. حاولت الاستدارة والالتفاف ولكنها لم تستطع التملص من قبضته. وحتى عندما تأرجح القطار وتأرجحت هي مع المسافرين الآخرين، شعرت باشتداد قبضته. لم تستطع تحريك رأسها لترى قبضة من هذه. وقفت عاجزة يائسة تحاول أن تتحمل هذه الإهانة. كان بإمكانها الصياح أو الاحتجاج ولكنها خجلت أن تجلب انتباه الناس للمأزق التي هي فيه. بدا الأمر وكأنه لا نهاية له إلى أن خفت الحشود وانفض الازدحام واستطاعت أن تنسل بسرعة إلى مقطورة أخرى. بعد ذلك أصبحت فرانسي تشعر بالخوف كلما وقفت وسط ازدحام القطار.

في يوم من أيام الأحد، رافقت فرانسي أمها ومعهما لوري لزيارة جدتها. أخبرت فرانسي خالتها سيسي عن قصة الرجل في القطار. كانت تتوقع أن تقول لها سيسي شيئاً يريحها ولكن سيسي تعاملت مع الأمر وكأنه نكتة.

– إذن فهناك من قرصك في القطار.. لا ينبغي لذلك أن يضايقك، بل على العكس إنه يعني أنك أصبحت تكتسبين شكلاً أجمل وهناك من الرجال من لا يستطيع مقاومة مثل هذا الشكل. أقول لك، لا بد أنني كبرت في العمر. لقد مضى وقت طويل منذ أن تعرضت لقرصة من أحد في القطار. مرّت فترة كنت أعود فيها من ركوب القطار وقد تلون جسدي بالأزرق والأسود من كثرة القرص. قالت سيسي بفخر.

- هل هذا شيء تفخرين به؟ سألتها كاتي.

تجاهلت سيسي الملاحظة وتابعت قائلة.. سوف يأتي يوم يا فرانسي تصبحين في الخامسة والأربعين من العمر ويصبح شكلك مثل الكيس الذي توضع فيه عليقة الحصان وعندها سوف تنظرين إلى الوراء وتستذكرين تلك الأيام التي كان الرجال فيها يرغبون في قرصك.

- وإذا نظرت إلى الوراء، قالت لكاتي، فإن السبب سيعود إلى أنك وضعت هذا في ذهنها وليس لأن الأمر شيء رائع حتى يتذكره الإنسان.

التفتت إلى فرانسي وقالت: أما بالنسبة لك فإن عليك أن تتعلمي الوقوف في القطار دون الإمساك بأي مسند. أبقي يديك في الإسفل واحتفظي في جيبك بدبوس حاد وإذا شعرت بيد رجل تمتد إليك، اغرزي الدبوس جيداً في يده.

فعلت فرانسي كما أوصتها أمها، وقفت في القطار دون الإمساك بشيء وأبقت يدها قريبة من دبوس طويل لئيم في جيب معطفها وظلت تأمل أن يحاول أحدهم أن يقرصها حتى تستطيع أن تذيقه طعم الدبوس.

إن حديث سيسي عن شكل الجسم وعن الرجال مسلٍّ ولكني لا أحب أن يقرصني أحد في الخلف وعندما يصبح عمري 45 عاماً، فإني بالتأكيد أتمنى أن أنظر إلى الوراء لأستذكر شيئاً أفضل من قرصة رجل غريب. يجب على سيسي أن تخجل من نفسها.. كانت فرانسي تفكر في داخلها.

ما الذي يحدث معي على أية حال؟ ها أنا واقفة هنا أنتقد سيسي، وهي التي كانت عزيزة على قلبي. أنا غير راضية عن عملي في الوقت الذي يجب أن أشعر فيه أني محظوظة بهذا العمل الرائع. تخيل أن يدفع لك أحد أجراً على قراءة شيء فيما أنا أحب القراءة فعلاً. الجميع يظنون أن نيويورك هي أكثر المدن روعة في العالم بينما أنا لا أكاد أطيقها. يبدو لي أنني الشخص الأكثر إحباطاً في العالم. آه أتمنى لو أني أعود صغيرة كالسابق حين كان كل شيء يبدو رائعاً.

قبل يوم من مناسبة عيد العُمّال، استدعى المدير فرانسي إلى مكتبه الخاص وأبلغها أن الآنسة أرمسترونغ ستترك العمل لأنها ستتزوج. بلع ريقه وأضاف: في الحقيقة الآنسة أرمسترونغ ستتزوجني.

تلاشى مفهوم فرانسي حول موضوع العشيقة. كانت تؤمن أن الرجال لا يتزوجون عشيقاتهم وأنهم يلقونهن جانباً كما يلقون قفازات يد مهترئة. هكذا إذن فإن الآنسة أرمسترونغ ستصبح زوجة بدلاً من قفازة يد مهترئة.

حسناً، قال المدير، نحن سنكون بحاجة إلى قارئة للمدينة وقد اقترحت الآنسة أرمسترونغ نفسها أن تأخذي مكانها تحت التجربة يا آنسة نولان.

قفز قلب فرانسي.. قارئة المدينة.. الوظيفة التي يتمناها الجميع في المكتب. إذن لقد كانت الإشاعات التي سمعتها من فتيات «النادي» تحمل بعض الصحة.. هذا مفهوم آخر يتلاشى بعد أن كانت تفترض دائماً أن جميع الإشاعات باطلة.

كان المدير قد خطط أن يدفع لها 15 دولاراً في الأسبوع، معتقداً أن بإمكانه الحصول على قارئة جيدة في مستوى زوجته المستقبلية بنصف الأجر. «لا بد أن فتاة .. وبهذا العمر ستموت من الإثارة أمام مثل هذا المبلغ 15 دولاراً في الأسبوع». لقد قالت إن عمرها تعدى السادسة عشرة ولكنها تبدو لي في عمر الثالثة عشرة. على أي حال هذا ليس من شأني طالما أنها كفوءة. لن يمسني القانون إذا وظفت شخصاً تحت العمر القانوني. كل ما عليّ قوله إنها خدعتني وكذبت. كان المدير يحدث نفسه ثم قال موجهاً حديثه إلى فرانسي بلهجة رقيقة:

– هناك زيادة في الأجر.. ابتسمت فرانسي بسعادة..

وشعر هو ببعض القلق «هل يا ترى أعطيتها زيادة عما تتوقع؟» بسرعة حاول التغطية على هفوته مضيفاً: ستنالين زيادة صغيرة في الأجر بعد أن نرى عملك.

– لا أدري.. ردت فرانسي متشككة.

- لا بد أنها قد تعدت السادسة عشرة.. فكر المدير جازماً وأظن أنها سوف تطلب مني أجراً عالياً..

أجابها، استدراكاً للأمر، سوف أعطيك خمسة عشر دولار أسبوعياً كبداية.. ثم تردد قليلاً وقال لنفسه: «لن تنفعك طيبة قلبك» وستبدئين العمل في أكتوبر (تشرين أول). أرجع ظهره إلى الوراء في كرسيه وقد انتابه إحساس أنه كريم مثل رب العالمين نفسه.

ولكن فرانسي أجابته:

- لا أعتقد أنني سأبقى هنا مطولاً.

فكر قليلاً.. أعتقد أنها تحاول أن تبتزني لأعطيها المزيد.

سألها بصوتٍ عالٍ:

- لماذا؟

- لأني سوف أعود للدراسة بعد عيد العمال، على ما أعتقد.. كنت سأبلغك بذلك حالما تستقر خططي.

- ستكملين الدراسة في الكلية.

- كلا في المدرسة الثانوية.

- سأضطر أن أعيِّن بينسكي في هذه الوظيفة.. فكر لنفسه.

إنها في الخامسة والعشرين الآن وسوف تتوقع أن أدفع لها ثلاثين دولاراً. سوف أعود من حيث بدأت. إن نولان هذه أفضل من بينسكي أيضاً.. اللعنة على إيرما! من أين جاءت بفكرة أن على المرأة ألا تعمل بعد الزواج.. يمكنها أن تستمر في العمل وتبقي النقود داخل العائلة أو تشتري بها بيتاً..

عاد ليكلم فرانسي:

– أنا آسف لسماع ذلك. ليس لأني لا أوافق على تكملة الدراسة ولكني أعتبر قراءة الصحف ثقافة وتعليماً أيضاً. إنها تعليم معاصر ومتنامٍ، بينما الأمر في المدرسة لا يتعدى قراءة بعض الكتب. كتب ميتة.. قال لها بازدراء.

– لا بد لي أن أبحث الأمر مع والدتي.

– بكل سرور، أخبريها عن مديرك وعن الثقافة التي تكسبينها من القراءة هنا وقولي لها إنني قلت.. توقف قليلاً وأغمض عينيه لكي يستعد للقفزة التالية.. ثم تابع.. إنني سأدفع لك عشرين دولاراً كل أسبوع بدءاً من أول نوفمبر (تشرين الثاني).. وهكذا، أبعد الدفع شهراً آخر.

– إن هذه كمية كبيرة جداً من النقود.. أجابت فرانسي بكل صدق.

– إننا نؤمن أن علينا أن ندفع جيداً لعمالنا لكي يبقوا معنا. آه أرجوك يا آنسة نولان لا تذكري لأحد أجرك المستقبلي هذا لأنهم إذا اكتشفوا الأمر.. مد يده في إشارة تدل على أهمية الأمر وعبثيته في الوقت نفسه.. ثم قال: أنت تعلمين لا نريد نميمة أخرى في الحمامات.

شعرت فرانسي براحة بال وهي تؤكد له عزمها على الالتزام بما قاله، وأنها لن تخونه أبداً بإفساح المجال للإشاعات. عاد المدير إلى توقيع رسائل على مكتبه، مؤشراً إلى أن المقابلة قد انتهت ثم قال:

– هذا كل شيء يا آنسة نولان ولا بد لي أن أعرف قرارك بعد يوم من انتهاء عيد العمال.

– نعم يا سيدي، قالت فرانسي ثم غادرت المكان مصعوقة، 20 دولاراً في الأسبوع.. قبل شهرين فقط كانت سعيدة بحصولها على خمسة دولارات.. إن العم ويلي يحصل على 18 دولاراً أسبوعياً وهو الآن في عمر الأربعين. وزوج سيسي شخص ذكي فطن ويحصل على 25 دولاراً أسبوعياً، عدد قليل من الرجال في حيِّها يحصلون على 20 دولاراً أسبوعياً وبالطبع لديهم عائلات أيضاً.

كانت فرانسي تسير وهي تفكر بهذا الكلام.. «بهذه النقود سوف تطوي صفحة مشاكلنا، سنتمكن من استئجار منزل بثلاث غرف في مكان أفضل. ولن تضطر أمي للعمل بل ستبقى مع لوري. أظن أنني سأصبح إنسانة مهمة إذا استلمت عملاً مثل هذا. ولكنني أريد أن أعود إلى المدرسة».. تذكرت العزف المتواصل على نغمة التعليم في العائلة..

الجدة قالت: إن التعليم سيرفعك عالياً على وجه الأرض.

وإيفي قالت: إن كلاً من أولادي الثلاثة سيحصل على ثلاث شهادات.

وسيسي قالت: وعندما تموت أمي.. بعد عمر طويل إن شاء الله، وتصبح الطفلة في عمر يؤهلها للدخول إلى الحضانة، سأعود للعمل مرة أخرى وسأوفّر النقود حتى تكبر سيسي الصغيرة وبهذا أستطيع أن أسجِّلها في أفضل كلية.

وقالت أمي: ولا أريد لأطفالي أن يعيشوا هذه الحياة الصعبة التي أعيشها في عملي. إن التعليم سيتولى توجيه حياتهم لتكون أسهل.

ولكن الوظيفة التي أمامي جيدة.. حتى الآن على الأقل ولكن عيني ستصابان بالبلى بعد فترة. جميع القارئات القديمات يضعن النظارات على عيونهن وقد قالت الآنسة أرمسترونغ إن القارئة تبقى جيدة ما بقيت عيناها قويتين. هؤلاء القارئات كنّ سريعات عندما بدأن عملهن.. مثلي تماماً ولكنهن الآن يعانين من ضعف في عيونهن. يجب أن أحافظ على عيوني كي لا تتعب نتيجة هذه المهنة.

لو عرفت أمي أني سأتقاضى 20 دولاراً في الأسبوع، فإنها لن ترضى أن تعيدني إلى المدرسة وأنا لن ألومها على ذلك. لقد عشنا فقراء منذ أمد طويل وبقيت أمي عادلة منصفة في كل شيء إلا أني أخشى أن مثل هذه الكمية من النقود ستجعلها ترى الأشياء من منظور مختلف ولن تكون مخطئة بالتأكيد. لن أخبرها عن رفع الأجر إلى أن تتخذ قرارها بالنسبة للمدرسة.

سألت فرانسي أمها عن المدرسة. كانت إجابة كاتي: نعم وأن علينا أن نتحدث بالأمر.. سوف نتحدث بالأمر الليلة مباشرة بعد العشاء.

بعد الانتهاء من شرب القهوة في العشاء، أعلنت كاتي أن المدرسة سوف تفتح أبوابها في الأسبوع القادم. بالطبع كان الجميع يعرف ذلك وأضافت موجهة حديثها إلى الطفلين: أريد أن يذهب كلاكما إلى المدرسة الثانوية ولكني لن أستطيع إلا أن أرسل واحداً منكما هذا الخريف. لقد عملت جاهدة كي أوفّر كل سنت يدخلنا كي أستطيع أن أدفع أجرة المدرسة لكليكما في السنة القادمة.. انتظرت.. وانتظرت طويلاً ولكن أحداً من الأطفال لم يجبها.

- حسناً.. ألا تريدان الذهاب إلى المدرسة الثانوية؟

كانت شفتا فرانسي متصلبتين وهي تتكلم، لقد اعتمدت كثيراً على أمها ولذلك أرادت لكلماتها أن تترك انطباعاً جيداً. أجابت:

- نعم يا أمي أنا أريد أن أذهب إلى المدرسة أكثر من أي شيء آخر في حياتي.

- وأنا لا أريد أن أذهب، قال نيلي، لا ترغماني على ذلك، أنا أحب عملي وسوف أحصل على دولارين زيادة في الأجر مطلع السنة.

- ألا تريد أن تصبح طبيباً؟

- كلا أنا أريد أن أصبح سمساراً مالياً في البورصة وأحصل على نقود كثيرة مثل رؤسائي. سوف أدخل السوق المالي وأربح مليون دولار يوماً ما.

- إن ابني سيصبح طبيباً عظيماً.

- كيف لك أن تعرفي ذلك؟ يمكن أن أصبح مثل الدكتور هيولر في شارع موجر، ها هو يعمل في شقة مستأجرة في قبو بناية ويرتدي قميصاً قذراً مثلي.. على أية حال.. أنا أعرف بما فيه الكفاية ولست بحاجة للعودة إلى المدرسة.

- إن نيلي لا يريد العودة إلى المدرسة.. قالت كاتي ثم وجهت حديثها إلى فرانسي متوسلة، أنت تعلمين ما معنى هذا يا فرانسي.

عضت فرانسي على شفتها.. لن ينفعها البكاء بل ينبغي لها أن تحافظ على هدوئها وأن تبقي تفكيرها صافياً.

- إنه يعني يا أمي أن على نيلي أن يعود إلى المدرسة.

- أنا لن أعود، صاح نيلي، لن أعود مهما قلتما. أنا أعمل وأحصل على أجر وأريد أن أستمر في ذلك. أنا شخص لي موقعي الآن بين زملائي. إذا عدت إلى المدرسة فسأعود ولداً مراهقاً مرة أخرى. كذلك، أنتم بحاجة إلى النقود التي أحصّلها.. أليس كذلك يا أمي؟ لا نريد أن نعود فقراء مرة أخرى.

- سوف تعود إلى المدرسة، أعلنت كاتي بهدوء. إن ما تحصل عليه فرانسي يكفينا.

- لماذا تريدين إرغامه على العودة إلى المدرسة إذا كان لا يرغب في ذلك، صاحت فرانسي، وتبقينني أنا خارج المدرسة في حين أني أريد أن أعود.

- نعم ! وافق نيلي.

- لأني إذا لم أرغمه فإنه لن يعود إلى المدرسة، قالت الأم، في حين أنك يا فرانسي سوف تكافحين وتعودين إلى المدرسة بطريقة ما.

- لماذا أنت دائماً متأكدة؟ احتجت فرانسي.. خلال سنة سوف أصبح كبيرة على العودة إلى الدراسة.. إن نيلي ما يزال في الثالثة عشرة من العمر وسيبقى صغيراً بما يكفي للسنة القادمة.

- هراء سوف تصبحين في الخامسة عشرة في الخريف القادم.

- سبعة عشر.. عدّلت فرانسي.. سأدخل في الثامنة عشرة سأصبح كبيرة جداً لكي أبدأ من جديد.

- ما هذا الحديث السخيف؟

- ليس سخيفاً.. في عملي أنا أعتبر في السادسة عشرة وعليّ أن أتصرف وفق ذلك وليس كفتاة في الرابعة عشرة.. في العام القادم سأكون في الخامسة عشرة ولكن أكبر بسنتين في طريقة تصرفي وبذلك سأكون كبيرة جداً على التغيير والعودة إلى المدرسة لأصبح طالبة مدرسة.

- سوف يعود نيلي في الأسبوع القادم إلى المدرسة. قالت كاتي بحزم، وفرانسي في السنة القادمة.

- إني أكرهكما.. صاح نيلي.. وإذا ما أرغمتماني على العودة فسأهرب من البيت.. نعم سأفعل ذلك. هرع خارجاً وطرق الباب بقوة وراءه.

تحول وجه كاتي إلى الأسى وشعرت فرانسي بالأسف لها.

- لا تقلقي يا أماه.. لن يهرب إنه فقط يقول ذلك. أحست فرانسي بأن وجه أمها قد ارتاح قليلاً وأغاظها ذلك فتابعت قائلة:

- ولكني أنا التي سأهرب ولن أخلق ضجة حول الموضوع. عندما يأتي اليوم الذي لا تحتاجين فيه لنقودي. سوف أترك البيت.

- ماذا حدث لأطفالي الذين كانوا طيِّعين.. سألت كاتي بحدة.

- لقد غيرتنا السنون.. قالت كاتي متحيرة فيما شرحت فرانسي قائلة.. إننا لم نحصل على أوراق عمل من قبل.

- ولكن هذه الأوراق لم تكن سهلة المنال.. لقد طلب القسيس دولاراً عن كل شهادة تعميد وكان عليّ أن أذهب إلى قاعة المدينة معك. كنت أرضع لوري كل ساعتين ولم أتمكن من ذلك لذلك رأينا من السهل أن ندعي أنك في السادسة عشرة ونوفِّر على أنفسنا كل هذه الضجة.

- كان هذا الجزء صحيحاً ولكن الادعاء أني في السادسة عشرة جعلني أضطر لأن أكون كذلك فيما أنت ما تزالين تعاملينني وكأني في الثالثة عشرة.

- أتمنى لو كان أبوك هنا. لقد كان يفهمك في أشياء أنا لا أفهمك فيها.

شعرت فرانسي بالألم ولكنها بعد ذلك أخبرت أمها عن مضاعفة أجرها في شهر نوفمبر (تشرين الثاني).

- 20 دولاراً، فتحت كاتي فمها باستغراب.. «يا أنا» كان هذا تعبيرها العادي عندما تفاجأ بشيء.

- ومتى علمت عن ذلك؟

- يوم السبت.

- ولم تخبريني بذلك حتى الآن؟

- كلا.

- لقد اعتقدت أنك إذا قلت لي ذلك فإني سوف أقرر أن تبقي في العمل.

- نعم.

- ولكني لم أكن أعرف ذلك عندما قررت أن يذهب نيلي إلى المدرسة. يمكنك أن تلاحظي أنني فعلت ما هو صواب وأن النقود لم تؤثر في قراري.. ألا ترين ذلك، سألتها مناشدة.

- كلا لا أرى ذلك، أنا أرى فقط أنك تحابين نيلي أكثر مني. إنك ترتبين له كل شيء وتقولين لي إن بإمكاني أن أجد طريقة أتدبر بها.

يوماً ما سوف أخدعك يا أمي وسأفعل ما أظنه صواباً بالنسبة لي وقد لا يكون صواباً بالنسبة لك.

- أنا لست قلقة من ذلك فأنا أثق تماماً بحكمة ابنتي.. ردت كاتي بشهامة الإنسان البسيط لدرجة أن فرانسي شعرت بالخجل من نفسها.. ثم تابعت كاتي:

- وأنا أثق أيضاً بابني.. إنه غاضب الآن لأنه يشعر أنه سيفعل ما لا يحب فعله ولكنه سيتجاوز هذا الشعور وسيبدع في الدراسة.. إنه ولد طيب.

– نعم إنه ولد طيب.. قالت فرانسي بإذعان ولكن حتى لو كان ولداً سيئاً فإنك لن تلاحظي ذلك. أما بالنسبة لي.. تحول صوتها إلى التشنج وصمتت.

تنهدت كاتي بحدة ولكنها لم تقل شيئاً بل نهضت وبدأت تنظف الطاولة. مدت يدها لترفع فنجاناً ولاحظت فرانسي لأول مرة أن يد أمها مرتبكة. كانت ترتجف لدرجة أنها لم تستطع الإمساك بالفنجان. وضعت فرانسي الفنجان بيد أمها ولاحظت وجود شق حاد في الفنجان.

كانت عائلتنا مثل فنجان قوي.. فكرت فرانسي لنفسها.. كانت متجانسة ورزينة وتمسك بقدرها جيداً. وعندما توفي أبي ظهر أول شق فيها.. ولعل هذا النزاع الذي دار الليلة أظهر شقاً ثانياً. قريباً ستظهر شقوق كثيرة بحيث ينكسر الفنجان ونتشرذم نحن إلى قطع بدلاً من البقاء والصمود كجسد واحد. أنا لا أريد لهذا أن يحدث، ومع ذلك أنا أتعمد أن أصنع شقاً عميقاً. تنهدت فرانسي وجاءت تنهيدتها تماماً مثل أمها.

ذهبت كاتي إلى سلة الغسيل حيث كانت لوري تنام بهدوء وسلام رغم الكلام المرير الذي دار حولها. رأت فرانسي أن أمها ما زالت غير قادرة على التحكم بيديها. رفعت كاتي الطفلة من السلة وجلست في الكرسي الهزاز قرب النافذة وهي تحمل الطفلة بقوة وتهزها برفق.

هيمن على فرانسي شعور بالشفقة على أمها.. ما كان ينبغي أن أكون حقيرة لهذه الدرجة.. ماذا فعلت المسكينة أمي سوى العمل الشاق والتعب والآن تحولت إلى الطفلة لتجد فيها راحتها.. ربما تفكر الآن أن لوري التي تحبها وتعتمد عليها الآن سوف تنمو وتنقلب عليها عندما تكبر كما أفعل أنا.

وضعت يدها على خد أمها.. لا بأس يا أمي أنا لم أكن أعني ما قلته. إنك على صواب وسأفعل كما تقولين. إن نيلي سيعود إلى المدرسة وسنعمل أنا وأنت على تحقيق ذلك.

وضعت كاتي بدورها يدها على يد فرانسي وهي تقول:

- هذه هي ابنتي الطيبة.

- لا تغضبي مني يا أمي لأني كافحت ضدك في الكلام. أنت التي علمتني كيف أكافح من أجل ما أؤمن أنه صواب.. ومهما كلف الأمر. إنك ترغبين بأن أكون كذلك.

- أنا أعلم ذلك وأنا سعيدة جداً بأن لك القدرة على الكفاح من أجل ما ينبغي أن تحصلي عليه. سوف تخرجين دائماً وأنت على صواب. إنك تشبهينني من هذه الناحية.

لم تجب فرانسي ولكنها فرحت فيما قالته أمها وقالت لنفسها:

وهنا تكمن المشكلة برمّتها.. إننا متشابهتان جداً حتى يمكننا أن نتفهم بعضنا البعض لأننا لا نتفهم حتى أنفسنا. أنا وأبي كنا شخصين مختلفين تماماً وكنا نتفهم ذلك ونتفهم بعضنا البعض. ماما تفهم نيلي لأنه يختلف عنا. أتمنى لو كنت مثل نيلي.. مختلفة عنا.

- حسناً إذن فإن كل شيء على ما يرام بيننا؟ سألت كاتي بابتسامة.

- بالطبع، أجابت فرانسي مبتسمة أيضاً وقبلت وجنتي أمها. ولكن في الداخل، في أعماق القلب، كانت كل منهما تعلم أن الأمر ليس على ما يرام ولن يكون على ما يرام بينهما أبداً بعد اليوم.

45

عاد عيد الميلاد مرة أخرى ولكنه جاء هذه السنة وفي البيت نقود للهدايا وطعام كثير ودفء دائم. عندما دخلت فرانسي إلى البيت قادمة من ذلك الشارع البارد أحست بالدفء وكأنه ذراع عاشق يلفّها ويسحبها داخل الغرفة. تساءلت بالمناسبة كيف هي ذراع العاشق على أية حال!

شعرت فرانسي بالراحة كونها لن تعود إلى الدراسة بعد أن أدركت أن النقود التي ستجنيها ستجعل الحياة أسهل بالنسبة لهم. لقد كانت ماما منصفة جداً عندما بدأت فرانسي تحصل على أجر العشرين دولاراً. صارت أمها تعطيها خمسة دولارات أسبوعياً كمصروف لتنقلاتها وثيابها وطعام غدائها. كذلك كانت كاتي تضع خمسة دولارات أسبوعياً باسم فرانسي في حساب ببنك وليامزبيرغ للتوفير، وذلك من أجل دفع قسط الكلية في المستقبل، كما أوضحت. استطاعت كاتي أن تتدبر أمر البيت بالعشرة دولارات التي تبقت وبالدولار الذي كان نيلي يسهم به. لم يكن المبلغ كنزاً ولكن البضائع كانت رخيصة في عام 1916، مما ساعد آل نولان على تدبير أمورهم.

لم يكن دخول نيلي إلى المدرسة أمراً مزعجاً بالنسبة له. فقد شعر بسعادة كبيرة بعدما اكتشف أن العديد من أصدقائه القدامى قد التحقوا مثله بالمدرسة الثانوية للضاحية الشرقية. كذلك استمر نيلي في العمل بعد الظهر لدى مكغاريتي وكانت أمه تعطيه دولاراً كمصروف للجيب. كان نيلي ظاهرة في المدرسة إذ كان يمتلك نقوداً أكثر من معظم الأولاد كما كان يعرف يوليوس قيصر من جميع الجهات.

عندما فتحت العائلة صفيحة التوفير المعدنية، وجدوا فيها أربعة دولارات. أضاف نيلي دولاراً وفرانسي خمسة. وهكذا أصبح لديهم عشرة دولارات ينفقونها في عيد الميلاد لشراء الهدايا. ذهب ثلاثتهم للتسوق في عصر ذلك اليوم الذي سبق ليلة الميلاد وأخذوا لوري معهم.

ذهبوا في البداية لشراء قبعة جديدة لكاتي. وفي مخزن القبعات وقف الاثنان خلف كرسي الأم فيما كانت تحمل لوري على حضنها وراحا يجربان القبعات على رأسها. أرادت فرانسي أن تشتري لها قبعة خضراء مخملية ولكنهم لم يجدوا مثل ذلك اللون في وليامزبيرغ. كما أن كاتي كانت ترغب بشراء قبعة سوداء.

– نحن الذين سنشتري القبعة وليس أنت.. قالت لها فرانسي، وأنا أقول إنه يكفينا قبعات للحزن.

– جرّبي هذه القبعة الحمراء.. اقترح نيلي.

– كلا سوف أجرب تلك القبعة الخضراء الداكنة التي في نافذة العرض.

– إنها موضة جديدة ونحن نطلق عليها اسم «الطحلب الأخضر» وضعتها مباشرة على حاجب كاتي التي أزاحتها عن عينها بحركة سريعة من يدها.

– هذه هي.. قال نيلي محتفلاً.

– تبدين جميلة يا ماما.

– لقد أعجبتني.. قالت كاتي، كم ثمنها؟ سألت المرأة، التي بدورها أخذت نفساً عميقاً فيما استعد آل نولان لمعركة مساومة.

- الأمر هكذا.. بدأت المرأة.

- كم ثمنها؟ كررت كاتي بحزم.

- في نيويورك، مثل هذه القبعة تساوي عشرة دولارات ولكن.

- لو كنت أقدر على دفع عشرة دولارات لذهبت إلى نيويورك.

- هل هذه طريقة للكلام؟ إنها نسخة مطابقة تماماً لتلك التي في مخزن واناميكر ولكن تلك تباع بسبعة دولارات ونصف. سوف أعطيك قبعة مثلها بخمسة دولارات.

- لدي دولاران فقط لأنفقهما على شراء قبعة، قالت كاتي.

- اخرجي من مخزني.. صاحت المرأة بطريقة مسرحية.

- حسناً، حملت كاتي الطفلة ونهضت لتخرج.

- لا بد أنك على عجلة.. أعادتها المرأة إلى المقعد ثم قذفت القبعة في كيس ورقي بسرعة.. سأعطيك إياها بأربعة دولارات ونصف صدقيني إني لا أعطي مثل هذا السعر لحماتي.

- أنا أصدقك، قالت كاتي لنفسها، خاصة إذا كانت مثل حماتي ثم قالت لها بصوت عالٍ، القبعة رائعة ولكني لا أستطيع أن أدفع إلا دولارين. هناك العديد من مخازن القبعات. بالطبع ليست القبعات هناك بجودة هذه ولكنها جيدة بما يكفي لتحميني من الشمس والريح.

- أريدك أن تصغي إلي.. تكلمت المرأة بصوت عميق ورزين.

بالنسبة لليهود النقود هي كل شيء، بالنسبة لي الأمر مختلف. عندما يكون في مخزني قبعة جميلة وتأتيني زبونة جميلة، يتملكني شعور في داخلي.. الربح ليس كل شيء، وضعت يدها على جهة القلب.. أنا أعطي مجاناً.. وضعت الكيس في يد كاتي وهي تقول: خذي القبعة بأربعة دولارات.. هذه تكلفتها عليّ بالجملة.

تنهدت ثم تابعت: صدقيني لا يليق بي أن أكون امرأة أعمال، كان ينبغي أن أكون رسّامة.

استمرت المساومة إلى أن شعرت كاتي أن المرأة لن تخفض سعرها أكثر من دولارين ونصف. حاولت أن تختبرها بادعائها أنها ستخرج ولكن المرأة لم تحاول أن تستوقفها هذه المرة. أشارت فرانسي إلى نيلي الذي قام فوراً بإعطاء المرأة دولارين ونصفاً.

قالت لهم المرأة منذرة «لا تخبروا أحداً بالسعر الذي اشتريتم به هذه القبعة».

– لن نفعل ذلك. قالت فرانسي، ثم طلبت منها أن تضع القبعة في علبة.

– العلبة ثمنها عشرة سنتات، إنه سعر الجملة.

– الكيس يكفي، قالت كاتي معترضة.

– إنها هدية عيد ميلادك، قالت فرانسي، وينبغي لنا أن نقدمها لك في علبة.

دفع نيلي عشرة سنتات وقامت المرأة بلف القبعة بالورق ثم وضعتها في علبة وهي تقول:

– لقد بعتكم القبعة بسعر رخيص.. ينبغي أن تعودوا في المرة القادمة لشراء قبعة من هنا ولكن لا تتوقعوا مثل هذه المساومة مرة أخرى. ضحكت كاتي وهي تغادر فيما قالت المرأة مودعة:

– أرجو أن ترتديها وأنت بصحة جيدة.

– شكراً، قالت كاتي.

وفيما هي تغلق باب المخزن، همست المرأة لنفسها بمرارة:

– غوييم (غير يهود) ثم بصقت وراءهم.

على الطريق، قال نيلي: لا عجب أن انتظرت ماما خمس سنين لتشتري قبعة جديدة إذا كان الأمر يتطلب الدخول في معركة مثل هذه.

– معركة.. ماذا تقول؟ إنها متعة.

بعد ذلك، ذهبوا إلى مخزن سيغلر لشراء كنزة للوري كهدية عيد ميلاد وعندما رأى سيغلر فرانسي، انفلت لسانه بعتاب شديد !

– وهكذا أخيراً، عدت إلى مخزني مرة أخرى. ماذا حدث؟ هل عاملتك بسوء أو هل وجدت مكاناً أرخص وبضاعة مهترئة.. كلا.. التفت إلى كاتي مفسراً: لقد ظلت هذه الفتاة تأتي إلى مخزني لسنين عديدة كي تشتري لأبيها صدرية أو قبة ورقية. والآن إنها لم تدخل مخزني منذ سنة !

– لقد توفي والدها منذ سنة.. شرحت كاتي الأمر للبائع.

لطم الرجل على جبينه.. آه أنا وفمي الكبير.. أنا أعتذر بشدة.

– لا بأس، قالت كاتي برقة.

– هذا ما يحدث معي.. لا أحد يخبرني بما يحدث وأنا لم أعرف بالأمر حتى الآن.

– الأمر هكذا دائماً. أجابت كاتي.

– والآن عاود الرجل ليسأل بسرعة.. لنعد إلى العمل.. ماذا يمكنني أن أقدم لكم.

– أريد ثوباً لطفلة في الشهر السابع من العمر.

– لدي الحجم المناسب.

سحب ثوباً من الصوف أزرق اللون من أحد الصناديق ولكنه عندما قاسه على جسم لوري وصل الجزء العلوي منه إلى صرتها فيما لم يصل الجزء السفلي إلا

تحت ركبتيها بقليل. جربت عدة قياسات إلى أن عثر على حجم لعمر سنتين جاء مناسباً تماماً.. هنا انطلقت أسارير السيد سيغلر.

– إني أعمل في هذه المهنة منذ عشرين سنة. خمس عشرة منها في جراند ستريت وخمس في غراهام آمير ولم أر بحياتي طفلة في الشهر السابع من العمر بهذا الحجم. شعر آل نولان بفخر كبير، ولكن لم تحدث أية مساومات على السعر لأن أسعار سيغلر كانت واحدة. دفع نيلي ثلاثة دولارات وارتدت لوري الثوب. بدت جميلة وناعمة خاصة مع تلك القبعة المنسدلة حتى أذنيها. أبرز اللون الأزرق الزاهي لون بشرتها الوردي، بدت من الطريقة التي ابتسمت بها وكأنها فهمت ما يجري. كان سِنّاها الجديدان يلمعان وسط ابتسامتها. دندن السيد سيغلر فيما هم يخرجون متمنياً لها أن ترتدي الثوب بصحة جيدة. هذه المرة كان الدعاء صادقاً لم تلغه أية بصقة بعد أن خرجوا مثلما فعلت صاحبة مخزن القبعات.

عادت كاتي إلى المنزل مع الطفلة والقبعة الجديدة فيما تابعت فرانسي مع نيلي رحلة التسوق لعيد الميلاد. قاموا بشراء هدايا صغيرة لأبناء خالتهما إيفي من عائلة فليتمان وهدية لابنة سيسي ثم جاء دور هداياهما.

– سوف أقول لك ماذا أريد أن تشتري لي. قال نيلي.

– حسناً! .. ماذا تريد؟

– أريد واقيات للحذاء.

– واقيات للحذاء؟ سألت فرانسي بصوت مرتفع.

– نعم وبلون رمادي. أكد نيلي.

– إذا كان هذا ما تريده فلا بأس. قالت فرانسي متشككة.

– وحجم وسط أيضاً.

– كيف يمكنك أن تعرف الحجم.

– لقد دخلت إلى المخزن وجربتها أمس.

أعطى فرانسي دولاراً ونصفاً لتشتري لـه الواقيـات. طلبـت فرانـسي مـن البائع أن يلفها ويضعها في علبة وعندما نزلا إلى الشارع نظر الاثنـان إلى بعـضهما برزانة وقالت فرانسي:

- مني لك، أتمنى لك ميلاداً سعيداً.

- شكراً، أجاب نيلي بطريقة رسمية، والآن ماذا تريدين أنت؟

- أنا أريد طقماً أسود اللون للرقص رأيته في نافـذة عـرض ذلـك المخـزن بالقرب من جادة الاتحاد.

- هل هذه أشياء نسائية؟ سأل نيلي بعدم ارتياح.

- نعم حجم الخصر 24 وحجم الحوض 32 والثمن دولاران.

- اشتريه أنت. أنا لا أحب أن أسأل عن هذه الأشياء.

اشترت فرانسي طقـم الـرقص.. سرو الاً قـصيراً وصـدرية مـصنوعة مـن أطواق سوداء مشبوكة ببعضها البعض بواسطة شريط سـاتان أسـود. لم يعجـب الطقم نيلي ولكنه ردّد بعدم رضا بعد أن شكرته قائلاً: على الرحب والسعة.

مرّ الاثنان على سوق بيع أشجار عيد الميلاد عـلى الرصـيف وذكّرهـا نـيلي بالرجل الذي ألقى عليهما أكبر شجرة عيد ميلاد سائلاً: هل تتذكرين.

- هل أتذكر؟ بالطبع أتذكر كلما عاد لي الصداع من الجهـة التـي أصـابتني فيها الشجرة عندما ضربت برأسي.

- وهل تتذكرين الطريقة التي غنَّى فيها أبي عندما ساعدناه برفـع الـشجرة على الأدراج؟ عاد نيلي يسألها.

- عدة مرات، في ذلك اليوم، خطر جوني عـلى بـالها وفي كـل مـرة كانـت فرانسي تشعر بومضة من الرقة والحنان حلّت مكان الألم الذي كان يعتصرها كلما تذكرت أباها. فكرت لنفسها: هل بدأت أنساه؟ هـل سـيكون مـن الـصعب أن

أتذكر شيئاً عنه مع مرور الزمن. أظن أن الأمر مثلما قالت جدتي ماري روميلي: كل شيء يمر مع مرور الزمن. السنة الأولى تكون صعبة لأنها تتذكر فيها آخر تصويت قام به وآخر عيد شكر احتفل به معنا ولكن السنة الثانية تختلف قليلاً ومع مرور الزمن يصبح تذكره أصعب وأصعب.

- انظري.. أمسك نيلي بذراع فرانسي وأشار إلى شجرة تنوب طولها قدمان تنمو في حوض خشبي.

- إنها تنمو. صاحت فرانسي.

- وماذا تظنين.. كل الأشجار تنمو في البداية.

- أعلم ذلك، ومع ذلك فأنت ترى الأشجار مقطوعة دوماً وتظن أنها تنمو وهي مقطوعة.. هلّم نشتريها يا نيلي.

- إنها صغيرة جداً.

- نعم ولكن لها جذور.

عندما أحضرا الشجرة إلى البيت، تفحصتها كاتي وتعمقت الخطوط بين عينيها وهي تتأمل شيئاً فيها ثم قالت:

- نعم، بعد عيد الميلاد، سوف نضعها عند مهرب الحريق لكي تبقى في الشمس ومن ثم نرويها ونضيف إليها بعض روث الخيول كل شهر.

- كلا يا أماه، اعترضت فرانسي، لا يمكنك أن تلقي مهمة جمع روث الخيول علينا.

بالنسبة للأطفال الصغار، كان جمع روث الخيول يشكل أبغض الأعمال. كانت الجدة ماري روميلي تعتني برف من أزهار الغرنوق القرمزية اللون عند نافذتها. وقد حافظت تلك الأزهار على بريقها وقوتها لأن فرانسي ونيلي كانا يجوبان الشوارع كل شهر ليجمعا لها روث الخيول في علبة سيجار ويقبضان

ثمنها سنتين. ولكن فرانسي كانت تخجل من جمع روث الخيول وعندما احتجت لدى جدتها قالت لها:

– آه إن الدم يجري ضئيلاً في الجيل الثالث. عندما كنا في النمسا، كان إخوتي الطيبون يجمعون أحمال عربات من روث الخيول وكانوا رجالاً أقوياء ومحترمين.

– لا بد أنهم كانوا كذلك حتى يستطيعوا العمل بأشياء مثل هذه.. كانت فرانسي تجيب في ذهنها.

قالت كاتي: والآن بعد أن أصبحنا نملك شجرة، فإن علينا أن نعتني بها لكي تنمو. يمكنك أن تجمعي روث الخيول في الليل إذا كنت تخجلين.

– لم يعد هناك إلا القليل من الخيل الآن. لقد انتشرت السيارات مكانها وأصبح من الصعب أن نجد روث الخيل في الشوارع.

– اذهب إلى الشوارع المرصوفة بالحصى حيث لا تمر سيارات وإذا لم تجد روث خيول، ابحث عن حصان والحقه ثم اجمع من ورائه.

– يا للشؤم، احتج نيلي، أنا نادم أننا اشترينا هذه الشجرة.

– ما الذي يجري لنا؟ قالت فرانسي، نحن لم نعد نحيا مثل السابق. لدينا نقود الآن وكل ما علينا أن نفعله أن نعطي نيكلاً لأحد أولاد الحي وسيقوم بجمع روث الخيول لنا.

– نعم، وافق نيلي بارتياح.

– ولكني أعتقد أنكما تريدان الاعتناء بشجرتكما شخصياً.

– الفرق بين الغني والفقير.. قالت فرانسي، هو أن الفقير يعمل كل شيء بيده فيما يقوم الغني باستئجار أيدٍ لتعمل عنه. نحن لم نعد فقراء اليوم ويمكننا أن ندفع نقوداً لأشخاص كي يقوموا بالعمل عنا.

– إذن أنا أريد أن أبقى فقيرة، قالت كاتي، لأني أحب أن أستخدم يديّ.

كالعادة، شعر نيلي بالملل من النقاش الذي يدور بين أمه وأخته حول تصورات مختلفة للأمور، لذلك عمد إلى تغيير الموضوع قائلاً:

– أراهن أن لوري أصبحت بطول هذه الشجرة..

وهكذا رفعوا الطفلة من السلة وأسندوها بجانب الشجرة لقياس طولها.

– إن طولهما متساوٍ، قالت فرانسي وهي تقلد السيد سيغلر صاحب مخزن بيع الثياب.

– أتساءل من سينمو أسرع؟ قال نيلي.

– يا نيلي لم يكن لدينا أبداً حيوان أليف مثل قطة أو كلب. لذلك دعنا نجعل من هذه الشجرة حيواننا الأليف.

– آه لا يمكن للشجرة أن تكون حيواناً أليفاً.

– ولماذا لا.. إنها تعيش وتتنفس أليس كذلك؟ سوف نطلق عليها اسماً وليكن آني.. الشجرة هي آني والطفلة لوري والاثنتان تشكلان أغنية.

– أتعلمين؟ قال نيلي.

– كلا ماذا؟

– أنت مجنونة.

– أعلم ذلك.. أليس ذلك رائعاً. اليوم أنا لا أشعر أني الآنسة نولان التي ينبغي أن تكون في سن السابعة عشرة وتعمل كقارئة رئيسة في مكتب موديل بريس كليبنغ.. أنا الآن أعيش في تلك الأيام القديمة عندما كنت أدعك تحمل نقود الخردة. أشعر أنني فتاة صغيرة.

– وأنت كذلك. قالت كاتي، إنك فتاة صغيرة أصبح عمرها الآن خمسة عشر عاماً.

– آه لن تفكري هكذا عندما ترين الهدية التي أحضرها لي نيلي بمناسبة عيد الميلاد.

– الهدية التي أجبرتني على شرائها.. صحّح نيلي العبارة.

– حسناً اعرض أمام ماما الهدية التي أجبرتني أنت على شرائها لك أيها الذكي.. فقط أرِها إياها.

عندما عرض نيلي الهدية صاحت كاتي تماماً مثلما صاحت فرانسي من قبل.

– واقيات حذاء.

– نعم لكي يبقى كاحلاي دافئين.. قال نيلي.

عرضت فرانسي طقم الرقص أمام أمها التي فغرت فاها من الدهشة:

– هل تظنين أن هذا هو ما ترتديه النساء الذكيات؟

سألت فرانسي بأمل:

– إذا كان هذا ما يرتدينه فأنا متأكدة أن الأمر سينتهي بهم بمرض ذات الرئة والآن دعونا نرى ماذا لدينا للعشاء.

– ألا تريدين أن تحتجي أو تعترضي؟ سألتها فرانسي محبطة لأن أمها لم تعر للأمر أهمية كبيرة ولم تختلق ضجة حوله.

– كلا كل النسوة يمررن بهذه المرحلة من الثياب. أنت دخلت المرحلة باكراً وسوف تتعدينها قريباً..أظن أن علينا أن نسخن الحساء ونضيف إليه البطاطا واللحم.

صمتت فرانسي وقالت لنفسها بأسى: تظن ماما أنها تعرف كل شيء.

صباح يوم عيد الميلاد ذهبت العائلة جميعها لحضور القداس حيث كانت كاتي قد طلبت أن تقام صلاة عن روح جوني. بدت كاتي جميلة جداً بقبعتها

الجديدة وكذلك بدت الطفلة لوري في ثوبها الجديد. أما نيلي فقد ارتدى واقيات الحذاء الجيدة وأصرّ برجولة على أن يحمل هو الطفلة. فيما هم يعبرون شارع ستاغ، أطلق بعض الصبية الواقفين عند دكان الحلويات هتافات نحو نيلي. انقلب وجهه أحمر وكانت فرانسي على علم أنهم يسخرون من واقيات الحذاء التي يرتديها. أرادت أن تخفف عنه فقالت إنهم يسخرون لأنك تحمل الطفلة، وعرضت عليه أن تحملها هي ولكن نيلي رفض العرض فقد كان يعلم أنهم يستهزئون بواقيات حذائه وأن فرانسي عرضت ذلك للتخفيف عنه. شعر نيلي بالمرارة والضيق من وليامزبيرغ وقرر أن يعيد الواقيات إلى العلبة وأن لا يرتديها مرة أخرى حتى تنتقل العائلة إلى ضاحية ثانية.

كانت فرانسي ترتدي سروالها القصير وتسير وهي تكاد تتجمد من البرد. كلما هبت نسمة باردة تعبر من خلال ثوبها الرقيق. كانت تشعر وكأنها لا ترتدي ثياباً داخلية. آه.. قالت، أتمنى لو أني ارتديت سترة داخلية وسروالاً طويلاً.. لقد كانت أمي محقة، إن من يرتدي مثل هذه الثياب يمكن أن يصاب بالتهاب الرئة. أظن أني سأضع هذا الطقم جانباً حتى مجيء الصيف. داخل الكنيسة، احتلت العائلة مقعداً خشبياً طويلاً كاملاً ليضعوا لوري مستلقية بطولها عليه. كان بعض المصلين الذين جاؤوا متأخرين، يقتربون من المقعد وينحنون أو يجثون على ركبهم استعداداً للدخول ولكنهم يتفاجؤون بوجود الطفلة ممددة تحتل مكانين على المقعد فينظرون إلى كاتي عابسين فيما هي تجلس بثبات وترد على نظراتهم بعبوس مشابه.

كانت فرانسي تعتقد أن هذه الكنيسة هي الأجمل في بروكلين. فقد كان بناؤها من حجر رمادي وكان لها برجان توأمان يرتفعان بصفاء نحو السماء، أعلى من جميع البنايات الأخرى. في الداخل كان سقف الكنيسة معقوداً عالياً ونوافذها زجاجية ملونة وضيقة فيما كان المذبح مزخرفاً على شكل كاتدرائية مصغرة. كانت فرانسي تشعر بالفخر لوجود المذبح الذي في الوسط لأن زخارفه نحتت على يد جدها روميلي قبل أكثر من نصف قرن مضى. وكان الجد حينها ما يزال شاباً قدم مؤخراً من النمسا وفُرض عليه أن يؤدي هذا العمل للكنيسة

كجزء من ضريبة العشر. كان الجد روميلي رجلاً مقتصداً وقد استطاع جمع قطع الخشب التي زادت عن الحفر وأخذها معه إلى المنزل. هناك قام بتركيبها ولصقها ليصنع منها ثلاثة صلبان من هذا الخشب المبارك. وقد أعطت الجدة صليباً لكل من بناتها يوم زواجهن مع تعليمات بأن تعطي كل منهن صليبها لأول ابنة تولد لها من الجيل التالي.

كان الصليب الذي أخذته كاتي معلقاً على رف الموقد في المنزل وكان سيصبح من نصيب فرانسي عندما تتزوج وكم كانت فرانسي تشعر بالفخر والاعتزاز لأن هذا الصليب جاء من خشب هذا المذبح.

في ذلك اليوم من صلاة عيد الميلاد، كان المذبح مزيناً بباقات من أزهار البونسيتا القرمزية اللون التي تتناسب مع غصون أشجار التنوب المورقة وقد وضعت الشموع البيضاء الرفيعة بين أوراقها.

دخل القسيس إلى الكنيسة يتبعه خدمة القداس من الفتية. كان يرتدي فوق ثيابه الكهنوتية رداء كهنوتياً أبيض من الساتان مع صليب ذهبي من الأمام ومن الخلف. كانت فرانسي تعلم أن هذا الرداء الكهنوتي يرمز إلى اللباس النظيف الطاهر الذي من المفترض أن تكون حاكته السيدة العذراء والذي رفعوه عن جسد السيد المسيح قبل دق يديه بالمسامير وتعليقه على الصليب. وقد قيل حينها إن جنود الخيالة قد لعبوا رهاناً بالنرد عليه حتى لا يمزقوه قطعاً بينهم.

كانت فرانسي غارقة في تفكيرها لدرجة أنها لم تنتبه إلى بداية القداس، إلا أنها عادت والتقطت سيره بعد الترجمة التي تبعت اللغة اللاتينية.

«إليك يا إلهي سأمجّدك على لحن القيثار، لماذا أنت حزين يا روحي ولماذا تشعرين بالقلق نحو...». غنى القسيس بصوته الجهوري العميق.

أملي بالله لأني سأرفع له التمجيد. ردد الصبية خدمة القداس.

– المجد للأب والابن والروح القدس.

- كما كان في البدء هو الآن وسيبقى كذلك، عالم بلا نهاية.

آمين.. جاء الرد.

سوف أدخل مذبح الله.. أنشد القسيس

إلى الله الذي بعث الفرح في شبابي. جاء الجواب

مساعدتنا هي في اسم الله

الذي خلق السماوات والأرض

انحنى الكاهن وقرأ صلاة الاعتراف.

كانت فرانسي تؤمن من كل قلبها أن المذبح هو الخيالة وأن المسيح قد قدّم نفسه فدية مرة أخرى. كانت تستمتع إلى صلاة الذبيحة الإلهية «واحدة لجسده وواحدة لدمه» وهي تؤمن أن كلمات القسيس هي سيف يفصل بين الجسد والدم وكانت تعلم دون أن تجد تفسيراً لذلك أن المسيح حاضر هنا جسداً ودماً وروحاً وقداسة في النبيذ الموضوع في الكأس الذهبية وفي الخبز المسجى على الطبق الذهبي.

- إنه دين جميل.. تمتمت فرانسي، ليتني أستطيع أن أفهمه أكثر.. ولكن كلا لا أريد أن أفهمه بتاتاً. إنه جميل لأنه بقي دائماً سراً غامضاً تماماً مثلما هو الله. أحياناً أقول إنني لا أؤمن بالله ولكني أقوله فقط عندما أكون غاضبة منه. لأني أؤمن بالله وبالمسيح وبالسيدة العذراء مريم.. أنا كاثوليكية سيئة لأني لا أذهب لحضور القداس وأتذمر عندما أتلقى عقاباً ثقيلاً بعد الاعتراف لذنب لم أستطع تجنبه. ولكن سواء كنت سيئة أم جيدة فأنا سأبقى كاثوليكية ولن أكون شيئاً آخر.

بالطبع أنا لم أطلب أن أولد كاثوليكية أكثر مما لم أطلب أن أولد أميركية ولكني سعيدة أنني أملك كلتا الصفتين.

صعد القسيس الدرجات الملتوية المؤدية إلى منبر الوعظ وقال بصوت جهوري:

- إن صلواتكم مطلوبة لراحة نفس جون نولان.

نولان نولان ترددت الأصوات كالصدى تحت السقف المعقود وبصوت يشبه الهمس الحزين، ركع قرابة ألف شخص ليصلوا بإيجاز من أجل راحة نفس رجل واحد لا يعرفه إلا عشرة منهم على الأكثر. بدأت فرانسي تصلي لروح المعذبين في المطهر.

أيها المسيح الطيب، الذي ظل قلبه مشغولاً بعذابات الآخرين، انظر بعين الشفقة إلى روح عزيزنا في المطهر. أنت الذي أحببت الآخرين، اسمع صرختي من أجل الرحمة لروحه.

46

بعد عشر دقائق سندخل في عام 1917

جلست فرانسي إلى جانب أخيها وقد وضعا أقدامهما أمام الموقد. أما كاتي فذهبت لتستريح في غرفة نومها بعد أن أصدرت أوامر صارمة لهما بأن يناديا عليها كل خمس دقائق قبل موعد حلول منتصف الليل.

- لدي شعور.. قالت فرانسي متابعة حديثها، أن عام 1917 سيكون أهم من أية سنة مرت علينا من قبل.

- إنك ترددين الكلام نفسه كل سنة.. قال نيلي، في البداية قلت إن عام 1915 سيكون الأهم ثم عام 1916 والآن عام 1917.

- بل سيكون الأهم لسبب واحد هو أني سأصبح عام 1917 في السادسة عشرة عن حق وليس فقط في المكتب. كذلك هناك أمور هامة أخرى قد بدت للتو في هذه السنة، فصاحب الملك في بنايتنا بدأ يمدد الأسلاك وسوف يكون لدينا كهرباء بدل مصابيح الغاز في غضون أسابيع.

- هذا يناسبني.

– بعد ذلك سيقوم بتمزيق هذه المواقد ويضع مكانها تدفئة بالبخار.

– وا أسفاه كم سأفتقد هذا الموقد القديم. هل تذكرين كيف كنت في الأزمان القديمة؟ (قبل سنتين!) أجلس عليه.

– وكنت أظل خائفة أن تلتقطك النار.

– أشعر بميل إلى الجلوس على الموقد الآن.

– هيا افعلها.

جلس نيلي على الموقد بعيداً عن بيت النار. كان دافئاً ولكن ليس حاراً.

– أتذكر، تابعت فرانسي قائلة، كيف كنا نكتب تمارين الدراسة إلى جانب الموقد إلى أن أحضر بابا لنا ممحاة حقيقية للسبورة فصار حجر الموقد لوحاً لنا تماماً مثلما هو في المدرسة مع فارق واحد هو أنه سبورة ممددة وليس منصوباً على الحائط.

– نعم أذكر ذلك، لقد كان شيئاً من الماضي القديم ولكن انظري.. لا يمكنك الادعاء بأن عام 1917 سيكون مهماً فقط لأننا سنحصل على الكهرباء والتدفئة بالبخار لأن عدداً كبيراً من البيوت لديها مثل هذه الخدمات منذ سنين. الأمر ليس مهماً.

– ربما ولكن الشيء المهم في هذه السنة هو أننا سندخل الحرب.

– متى؟

– قريباً ربما في الأسبوع القادم أو الشهر القادم.

– كيف تعرفين ذلك؟

– أنا أقرأ الصحف كل يوم يا أخي.. أقرأ مائتين منها.

– ياه أتمنى لو أن الحرب تستمر حتى أكون كبيراً بما فيه الكفاية لألتحق بالبحرية.

– من الذي سيلتحق بالبحرية؟ نظر الاثنان حولهما مشدوهين.. كانت كاتي تقف عند مدخل الغرفة.

– نحن نتحدث فقط يا أماه.. قالت فرانسي.

– لقد نسيتما أن تناديانى. قالت أمها معاتبة، ظننت أنني سمعت صفارة لا بد أن العام الجديد قد حلّ.

فتحت فرانسي النافذة على مصراعيها.. كانت الليلة في الخارج ليلة صقيع بلا نسمة هواء. وكان كل شيء ساكناً. عبر المسافات، بدت جدران المنازل الخلفية سوداء وكئيبة. فيما هم واقفون عند النافذة، سمعوا قرع جرس الكنيسة المبتهج، بعد ذلك بدأت الأجراس تقرع، تلتها الصفافير وزعيق أحد أجراس الإنذار. ثم بدأت أصوات النوافذ المعتمة تفتح على عرضها وانطلقت الأبواق لتضيف إلى النغمات المتنافرة. بعضهم أطلق رصاصات فارغة وتعالى الصياح وأصوات القطط.

1917

هدأت الأصوات بعد قليل وامتلأ الجو بالانتظار إلى أن شرع أحدهم بالغناء:

هل ستنسى الصداقات القديمة

ولا تعود تخطر على البال. التقط آل نولان الأغنية وشرعوا بالغناء وانضم إليهم الجيران. راحوا جميعاً يغنون إلى أن دخلت فجأة على خط غنائهم أصوات مزعجة. كانت هناك مجموعة من الألمان ينشدون أغنية عن بيت الحديقة. صاح أحد الأشخاص: اصمتوا يا أصحاب الأصوات القبيحة. جاء الرد من الألمان بأن رفعوا أصواتهم أكثر وأكثر. في المقابل راح الإيرلنديون يرددون عالياً أغنية ساخرة عبر الساحات المعتمة في الشارع.

تقول الأغنية:

نعم هذه أغنية ملعونة.

أغنية ملعونة

أغنية ملعونة

وقبيحة

وقبيحة

وقبيحة...

بدأت النوافذ تغلق فيما انسحب اليهود والإيطاليون تاركين المعركة الغنائية مشتعلة بين الإيرلنديين والألمان. ظل الألمان يرفعون أصواتهم أعلى وأعلى وانضم إليهم المزيد من الأصوات إلى أن أسكتوا الإيرلنديين وانتصروا في النهاية.

قالت فرانسي وهي ترتجف:

- أنا لا أحب الألمان.. إنهم لحوحون عندما يريدون شيئاً كما أنهم يكونون دائماً سبّاقين.

عاد الهدوء إلى الليل.. أمسكت فرانسي بيد أمها وبيد نيلي واقترب ثلاثتهم من النافذة وصاحوا سنة جديدة سعيدة للجميع.

سادت برهة من الصمت إلى أن هدر صوت إيرلندي غليظ وسط الظلام.

- سنة جديدة سعيدة يا آل نولان.

- من يكون ذلك؟ قالت كاتي.

- سنة جديدة سعيدة أيها الإيرلندي الأرعن. صاح نيلي.

صفقت كاتي بعدها على فم نيلي وسحبته بعيداً فيما أغلقت فرانسي النافذة وراح الثلاثة يضحكون بشكل هستيري.

- والآن فعلتها.. قالت فرانسي وهي غارقة في الضحك حتى كادت تبكي.

- إنه يعرف من نحن وسيأتي إلى هنا للـ... للمشاجرة.. من يكون يا ترى؟

- إنـه بريـان العجـوز.. في الأسـبوع المـاضي شـتمني في الـساحة.. هـذا الإيرلندي القذر.

- هش.. قالت أمه، ألا تعلم أن ما تبـدأ بفعلـه أول الـسنة سـتظل تفعلـه طوال السنة.

- ولا ينبغي لك أن تنعتـه بالإيرلنـدي الأرعـن.. إلى جانـب ذلـك أنـت نفسك إيرلندي أرعن.

- وأنت كذلك. قال نيلي.

- كلنا إيرلنديون ما عدا ماما.

- أنا إيرلندية بالزواج. قالت كاتي.

- حسناً دعونا نشرب نخباً إيرلندياً في ليلة رأس السنة.

- ألا نستحق ذلك.. طالبت فرانسي.

- بالطبع.. قالت ماما، سوف أجهز شراباً.

كان مكغاريتي قد أهدى آل نولان زجاجة برانـدي قديمـة بمناسـبة عيـد الميلاد. قامت كاتي بصب بعض منها في ثلاث كؤوس طويلـة ثـم أكملـت بـاقي الكؤوس ببيض مخفوق وحليب وبعض السكر. طحنـت حبـة مـن بهـار جـوزة الطيب ورشتها فوق المزيج.

كانت يداها ثابتتين وهي تصب الشراب رغم أنها كانت تعتبر شرب الخمر تلك الليلة أمراً عصيباً فقد ظل القلق ينتابها خشية أن يرث أطفالهـا حـب أبـيهم للخمر والشراب، ولكم حاولت أن تصل إلى موقف ضد الشرب في العائلة ولكنهـا كانت تشعر أنها إذا أخذت تعظ ضده فإن الأطفال كـونهم أشخاصـاً فـرديين لا يمكن التنبؤ بتصرفاتهم قد يعتبرونه ممنوعاً ومرغوباً في الوقت نفـسه. مـن ناحيـة

أخرى إذا اتخذت موقفاً مخففاً منه فإنهم قد يعتبرونه أمراً عادياً. لذلك قررت أن لا تتخذ أي موقف لا ضده ولا معه بل أن تستمر وكأن التمتع به باعتدال في مواسم معينة لا أكثر ولا أقل هو الطريقة المثلى. حسناً.. إن ليلة رأس السنة هي أحد هذه المواسم. قدّمت كأساً لكل منهم.. الكثير يعتمد على ردات فعلهم.

– ما الذي سنشرب نخبه.. سألت فرانسي.

– لنشرب نخب الأمل، قالت كاتي، الأمل أن تبقى عائلتنا معاً كما هي الحال الليلة.

– انتظري.. قالت فرانسي، أحضري لوري لكي تكون معنا أيضاً.

رفعت كاتي الطفلة الصبورة النائمة من سريرها وأدخلتها إلى المطبخ الدافئ. فتحت لوري عينيها ورفعت رأسها كاشفة عن سنّين وسط ابتسامة مرتبكة ثم ما لبثت أن أحنت رأسها إلى الأسفل على كتف كاتي وعادت لتغط في النوم.

– والآن، قالت فرانسي وهي ترفع كأسها، نخب بقائنا معاً دائماً. طرق الثلاثة الكؤوس ببعضها البعض وشربوا.

تذوق نيلي الشراب ثم عبس قائلاً: أفضل أن أشرب الحليب. قام إلى المجلى وصب الشراب فيه ثم ملأ كأساً آخر بالحليب البارد فيما وقفت كاتي قلقة تراقب فرانسي وهي تفرغ كأسها كاملاً في حلقها.

– إنه جيد، قالت فرانسي، جيد وطيب، ولكنه ليس بنصف طيبة بوظة الفانيلا.

علامَ أقلق؟ قالت كاتي لنفسها.. بعد كل شيء إن فيها عرقاً من روميلي كما أن فيها عرقاً من نولان ونحن آل روميلي لا نشرب.

– نيلي هيا لنصعد إلى السطح، قالت فرانسي بتهور.. ونرى كيف يبدو العالم في مطلع هذه السنة.

- حسناً، قال نيلي موافقاً.

- البسا أحذيتكما أولاً صاحت كاتي.. ثم معطفيكما.

صعد الاثنان عبر السلم الخشبي المهزوز حتى وصلا إلى فتحة السقف حيث دفعها نيلي إلى الأعلى وخرجا إلى السطح.

كانت ليلة شديدة الصقيع.. الهواء بارد ساكن بلا نسمة.. النجوم لامعة تبدو وكأنها معلقة أسفل السماء. لم يكن هناك الكثير منها مما جعل السماء تبدو بلون أزرق داكن. كذلك لم يكن هناك قمر رغم أن ضوء النجوم كان أفضل من ضوء أي قمر.

وقفت فرانسي على طرف أصابعها ومدّت ذراعيها واسعاً وهي تصيح:

- آه أريد أن أمسكها كلها.. أريد أن أمسك الليل كله. بارد بلا رياح، والنجوم القريبة المشعة. أريد أن أمسكها بقوة وأشد عليها حتى تصيح قائلة: دعيني أذهب دعيني أذهب.

- لا تقفي قريباً من الحافة، قال نيلي بقلق، قد تقعين من السطح.

- أريد أحداً، فكرت فرانسي بيأس، أريد أحداً أضمه إليّ وأريد أكثر من تلك الضمّة.. أريده أن يفهم كيف هو شعوري في لحظة مثل هذه على أن يكون هذا الفهم جزءاً من الضمة. أنا أحب ماما ونيلي ولوري ولكني أريد شخصاً أحبه بطريقة مختلفة عن الطريقة التي أحبهم فيها. لو أني تحدثت إلى أمي بهذا الموضوع فستجيبني بنعم.. حسناً عندما ينتابك ذلك الشعور، لا تتسكعي بين الأزقة المظلمة مع الفتيان. سوف تقلق لأنها ستظن أنني سأصبح مثل خالتي سيسي. ولكن الأمر ليس مثل حالة سيسي. فأنا أهتم بشخص يفهمني أكثر مما أهتم بشخص يضمني. لو أني أخبرت إيفي أو سيسي فإنهما ستقولان لي مثلما ستقول أمي على الرغم من أن سيسي تزوجت وهي في سن الرابعة عشرة وإيفي في سن السادسة عشرة. وأمي كذلك كانت فتاة صغيرة حين تزوجت ولكنهن

ينسين ذلك ويأتين ليقلن لي إنني صغيرة على مثل هذه الأفكار.. ربما أني ما زلت شابة صغيرة في سن الخامسة عشرة ولكني أكبر من عمري ولا يوجد إلى جانبي أحد لأضمه أو أفهمه.. ربما يوماً ما.. يوماً ما. التفتت إلى نيلي قائلة:

– يا نيلي، إذا كان لا بد من أن تموت أليس رائعاً أن تموت الآن وأن تؤمن أن كل شيء كامل تماماً مثلما هذه الليلة كاملة.

– أتعرفين ماذا.. قال لها نيلي؟

– كلا، ماذا؟

– إنك سكرانة من ذلك المشروب الحليبي.. هذا هو الأمر.

أطبقت يديها على بعضهما وتقدمت نحوه وهي تقول: إياك أن تجرؤ على قول هذا.. كررتها مرتين وهي تتقدم نحوه.

تراجع نيلي قليلاً وقد خاف من شراستها.. لا بأس لا بأس قال وهو يتمتم.. لقد كنت سكراناً أنا نفسي في أحد الأيام.

خف غضبها وسألته بفضول:

– هل حصل وسكرت يا نيلي؟ أحقاً فعلت ذلك؟

– نعم لقد أحضر أحد الأصدقاء بضع زجاجات من الجعة، نزلنا إلى القبو وشربنا.. أنا شربت زجاجتين وسكرت.

– كيف هو شعورك عندما تسكر.

– حسناً.. أولاً تنقلب بك الدنيا رأساً على عقب ثم يبدو كل شيء مثل.. هل تذكرين تلك الأبواق الصغيرة التي تشترينها بسنت ثم تنظرين من طرفها الضيق وتقلبين طرفها الأوسع فتسقط منها قطع من الأوراق الملونة بشكل معين ثم تسقط مرة أخرى ولكن ليس بالشكل نفسه أبداً... الأمر مثل هذا. شعرت بدوار ثم تقيأت.

– إذن أنا سكرت في إحدى المرات. قالت فرانسي معترفة.

– من الجعة.

– كلا في الربيع الماضي، في متنزه ماكارين.. رأيت زنبقة لأول مرة في حياتي.

– كيف عرفت أنها زنبقة في حين أنك لم تري مثلها من قبل.

– لقد رأيت صوراً لها. حسناً.. عندما نظرت إليها وإلى الطريقة التي تنمو فيها وإلى أوراقها وإلى البتلات الحمر الصافية واللون الأصفر داخلها دارت بي الدنيا رأساً على عقب.. كما قلت وظهرت الدنيا حولي كأنها ألوان في أشكال.. اضطررت بعدها إلى الجلوس على أحد مقاعد المتنزه.

– هل تقيأت أيضاً. سألها نيلي.

– كلا، أجابت فرانسي، ولكني أشعر بالشعور نفسه الليلة على السطح إلا أن الأمر لا يتعلق بذلك المشروب الحليبي.

– ياه.

تذكرت شيئاً وقالت:

– أتعلم لقد أرادت ماما تجربتنا عندما أعطتنا ذلك المزيج الحليبي.. أنا أعلم ذلك.

– مسكينة أمي، قال نيلي، ولكن ليس لها أن تقلق عليّ فأنا لن أسكر. مرة أخرى لأني لا أحب أن أتقيأ.

– وليس لها أن تقلق عليّ أيضاً لأني لا أحتاج إلى الخمر لكي أسكر يمكنني أن أسكر على أشياء مثل الزنبق و... هذه الليلة.

– أظن أنها ليلة رائعة.

– إنها هادئة ومشعة.. كأنها مقدسة.

انتظرت قليلاً ثم قالت لنفسها، لو أن بابا كان معنا الليلة. أخذ نيلي يغني.

ليلة صامتة.. ليلة مقدسة.

كل شيء هادئ كل شيء لامع.

إنه مثل بابا.. قالت فرانسي لنفسها وقد غمرتها السعادة.

نظرت إلى بروكلين. كان ضوء النجوم نصف ظاهر ونصف مستور. نظرت إلى أسطح المنزل غير المستوية في الارتفاعات، كان بعضها يتكسر نتيجة انزلاق أحد الأسطح القديمة، فتحات المداخن فوق الأسطح وأبراج الحمام... وبعيداً عن البنايات المعتمة ينتصب برجا الكنيسة.. وفي نهاية الشارع يقف الجسر العظيم وكأنه يلقي بنفسه مثل تنهيدة فوق مياه النهر الشرقي ثم يضيع عند الجهة الأخرى.

النهر الشرقي معتم تحت الجسر وبعيداً تبدو نيويورك خلف ضباب الأفق كأنها مدينة قصت من لوح كرتون.

– لا يوجد مكان مثلها، قالت فرانسي.

– مثل ماذا؟

– مثل بروكلين.. إنها مدينة ساحرة وحقيقية.

– إنها مثل أي مكان آخر.

– كلا.. أنا أذهب إلى نيويورك كل يوم وهي ليست مثلها. ذهبت مرة إلى بايوني لأعود فتاة مريضة من المكتب.. بايوني أيضاً ليست مثلها.. إن بروكلين مدينة غامضة.. تشبه.. الحلم.. بيوتها.. شوارعها لا تبدو حقيقية.. وكذلك أهلها.

- إن بروكلين لا تختلف عن غيرها من الأمكنة.. قال نيلي بحزم.. إنه فقط خيالك الذي يجعلك ترينها مختلفة..ولكن لا بأس.. أضاف نيلي برحابة صدر.. لا بأس إذا كان الأمر يشعرك بالسعادة.

نيلي.. يشبه أمي كثيراً وكذلك يشبه أبي. لقد أخذ الأفضل منهما. كانت فرانسي تحب أخاها وقد رغبت بأن تحيطه بذراعيها وتقبله ولكنه كان مثل أمها.. يكره الاستعراضيين، لو أنها حاولت تقبيله لجن جنونه ودفعها بعيداً لذلك مدّت يدها له مصافحة.

- سنة جديدة سعيدة يا نيلي.

- ولك أيضاً.

تصافح الاثنان بكل رزانة.

47

خلال الأيام القليلة لعطلة عيد الميلاد، سارت الأمور مع آل نولان كما في السابق ولكنها بعد رأس السنة الجديدة عادت إلى الروتين الجديد الذي دأبوا عليه بعد وفاة جوني.

لم يعد هناك دروس بيانو، لسبب هام هو أن فرانسي لم تتمرن منذ أشهر كما أن نيلي كان يمارس العزف على البيانو خلال الأمسيات في حانات بيع البوظة المنتشرة في الضاحية. أصبح خبيراً في بعض القطع الموسيقية كما أصبح أكثر خبرة في موسيقى الجاز. كان بإمكانه أن يجعل البيانو يتكلم.. كما كان يصفه بعض الناس. أصبحت له شعبية كبيرة وكان يعزف للحصول على شراب غازي مجاني. أحياناً كان شيفلي يعطيه دولاراً ليلة السبت كي يعزف طوال الأمسية. ولكن فرانسي لم يعجبها الأمر وشكت لأمها بهذا الخصوص.

- لا يمكن أن أسمح له يا أمي. قالت فرانسي.

- ولكن ما الضرر في ذلك؟

- إنك لا تريدينه أن يعتاد على العزف من أجل الحصول على مشروبات مجانية مثل... ترددت فرانسي قليلاً ولكن كاتي التقطت الكلمة..

– تعنين مثل أبيك.. كلا لن يصبح مثله أبداً.. إن أباك لم يغنِّ أبداً الأغاني التي يحبها مثل آني لوري أو وردة الصيف الأخيرة. كان يغني ما يحبه الناس مثل آدلين الحلوة وهناك في أسفل النهر عند الطاحونة القديمة.. كلا إن نيلي يختلف عن أبيك لأنه يعزف دائماً ما يحبه ولا يهتم بسنت أو بسنتين سواء رغب الغير أم لم يرغب.

– أنت تقولين إذن إن بابا كان شخصاً ترفيهياً بينما نيلي فنان.

– حسناً، نعم. أجابت كاتي بتحدٍّ.

– أظن أنك تدفعين حبك بعيداً بعض الشيء.

عبست كاتي فيما أغلقت فرانسي الموضوع.

توقفت العائلة عن قراءة الإنجيل وكتب شيكسبير منذ دخل نيلي إلى المدرسة الثانوية. أخبرهم أنه يدرس قصة يوليوس قيصر وأن المدير يقرأ لهم أجزاء من الإنجيل في كل اجتماع وأن هذا يعتبر بالنسبة لنيلي جرعة كافية. كذلك أحجمت فرانسي عن القراءة ليلاً لأنها كانت تعود كل يوم بعينين متعبتين من كثرة القراءة في مكان عملها. لذلك لم تصر كاتي على القراءة بعد أن شعرت أنهما قد كبرا بما فيه الكافية لكي يقررا لنفسيهما إذا ما كانا يرغبان بالقراءة أم لا.

كانت فرانسي تقضي أمسياتها وحيدة، فآل نولان لا يجتمعون إلا على العشاء عندما تنهض لوري لتجلس على كرسيها العالي المعلق بالطاولة. بعد العشاء كان نيلي يذهب إلى عمله في العزف داخل حانات البوظة أو مع أصدقائه فيما تخلد كاتي لقراءة الصحيفة بعض الوقت ثم تذهب مع لوري للنوم باكراً عند الساعة الثامنة. كانت كاتي تستيقظ عند الخامسة صباحاً لتنجز عملها في التنظيف فيما تبقى فرانسي ونيلي مع الطفلة.

نادراً ما كانت فرانسي تذهب إلى السينما لأن الحركة على الشاشة كانت تؤذي عينيها. كذلك لم تكن هناك عروض تذهب إليها فمعظم تلك الشركات

اختفت عن الوجود. إلى جانب ذلك كانت فرانسي قد شاهدت عرض باريمور في مسرحية «العدالة» لغالزويرثي في برودواي ومن بعدها لم تعد ترق لها أية عروض أخرى.

في الخريف الماضي شاهدت فيلماً أحبته بعنوان «عروسات الحرب مع نازيموفا» كانت تأمل أن تراه مرة أخرى ولكنها قرأت في الصحف أن الفيلم قد مُنع بسبب ثقل مشاهد الحرب فيه. كانت لها ذكرى رائعة حين ذهبت في نزهة إلى منطقة غريبة من بروكلين لمشاهدة الممثلة العظيمة سارة برنارد في إحدى مسرحياتها في مسرح كيث فودفيل هاوس. كانت الممثلة في سن السبعين ولكنها بدت على المسرح وكأنها في نصف عمرها. لم تفهم فرانسي اللغة الفرنسية ولكنها أجمعت أن المسرحية كتبت حول الرجل المقطوعة للممثلة. لعبت برنارد دور الجندي الفرنسي الذي فقد رجله في الحرب. التقطت فرانسي كلمة «هراء» من حين لآخر ولم تنسَ أبداً تلك الممثلة برنارد بشعرها الأحمر وصوتها الذهبي الرخيم. سجلت البرنامج في دفتر مذكراتها.

ولكن هذه الأمسيات كانت من بين أشهر وأشهر من الأمسيات التي قضتها وحيدة.

جاء الربيع مبكراً تلك السنة، وكانت لياليه الدافئة العذبة تترك فرانسي في حالة من الارتباك. كانت تسير في الشوارع صعوداً ونزولاً وعبر المتنزه وحيثما سارت كانت ترى شاباً وفتاة يسيران معاً وهما يشبكان ذراعيهما أو يجلسان على مقاعد المتنزه وقد ضمّا بعضهما البعض أو وقفا في صمت في أحد الدهاليز. كل إنسان في هذا العالم له صديق أو صديقة إلا فرانسي. شعرت وكأنها هي الشخص الوحيد الذي يشكو الوحدة في بروكلين.

حل شهر آذار/ مارس عام 1917. كل الحديث يدور في الضاحية حول حتمية الحرب. كانت هناك أرملة تعيش في إحدى الشقق مع ابنها الوحيد وكانت تخشى أن يذهب إلى الحرب ويُقتل، لذلك اشترت له بوقاً ليتدرب عليه

لاعتقادها بأنهم إذا أخذوه إلى الجيش فسيلحقونه بالفرق الموسيقية وفرق الاستعراضات، وبذلك يبقى بعيداً عن القتال في الجبهة. ولكن الأمر انعكس سلبياً على سكان الشقق الذين ذاقوا العذاب وقلة النوم من تمارينه المتواصلة طوال الوقت. أحد الجيران اخترع خدعة بعد أن وصل إلى حد اليأس من هذا الإزعاج فأخبر أم الشاب بأنه سمع من مصادر داخلية موثوقة أن رجال الفِرَق الموسيقية العسكرية هم الذي يقتحمون المعركة ويقودون الجنود وبالتالي فهم أول من يُقتل. على إثر ذلك دبّ الرعب في قلب الأم فقامت برهن البوق فوراً ومزقت تذكرة الرهن وهكذا توقفت التمارين وعادت الراحة إلى قلوب السكان.

في كل ليلة على مائدة العشاء كانت كاتي تسأل فرانسي:

– هل بدأت الحرب؟

– ليس بعد ولكنها سوف تبدأ في أي يوم من الآن.

– حسناً أتمنى أن تبدأ وبسرعة.

– هل تريدين الحرب؟

– كلا أنا لا أريدها ولكنّ إذا كان لا بد منها فمن الأفضل أن تبدأ بسرعة فكلما بدأت بسرعة انتهت بسرعة.

إلا أن سيسي أوجدت انطباعاً بأن الحرب قد وضعت جانباً بشكل مؤقت. كانت سيسي قد انتهت من ماضيها العاصف وكان من المفروض أن تهدأ وتستقر لتنعم بالهدوء الذي يسبق مرحلة أواسط العمر. ولكنها أوقعت عائلتها في ارتباك شديد عندما وقعت في حب عاصف جنوني مع جون الذي ظلت زوجة له منذ خمس سنوات. إلا أن الأمر لم يتوقف هنا فقد تحولت سيسي إلى أرملة ثم إلى مطلقة ثم إلى زوجة ثم إلى امرأة حامل... وكل هذا في فترة عشرة أيام.

في ذلك اليوم، تم توزيع صحيفة ستاندرد يونيون وهي الصحيفة المفضلة من وليامزبيرغ، وكالعادة وضعت الصحيفة عند العصر على مكتب فرانسي قبل

موعد الإغلاق، وكالعادة أيضاً أخذتها فرانسي معها إلى المنزل كي تقرأها أمها بعد العشاء وتضع عليها علامات. ولما كانت فرانسي قد درجت على عدم قراءة الصحف خارج المكتب فقد كان من غير الممكن لها أن تعرف ما الذي يحتويه هذا العدد الخاص من الصحيفة.

بعد العشاء جلست كاتي عند النافذة لتطالع الصحيفة. وفجأة وبعد أن وصلت إلى الصفحة الثالثة قفزت من مكانها وهي تصيح آه يا حالي! والدهشة تعقد لسانها. هرعت نيلي وفرانسي ووقفا خلف كتفها ليستكشفا الأمر، فأشارت لهما كاتي إلى عنوان يقول:

رجل إطفاء بطل يفقد حياته في حريق سوق ولابوت.

تحت العنوان، قرأ الجميع عنواناً فرعياً يقول: كان الرجل على أهبة التقاعد في الشهر التالي.

اكتشفت فرانسي خلال قراءتها للخبر أن رجل الإطفاء الشجاع هو الزوج الأول لسيسي. كانت هناك صورة لسيسي مأخوذة قبل عشرين سنة تظهر فيها بتسريحة مرفوعة فوق جبينها وأكمام منتفخة، (ربما كانت في سن السادسة عشرة) تحت الصورة كتبت الكلمات التالية: أرملة رجل الإطفاء الشجاع).

– آه يا حالي، قالت كاتي، إذن فالرجل لم يتزوج مرة ثانية. لا بد أنه ظل محتفظاً بصورة سيسي كل ذلك الوقت وعندما توفي بحث بعض الرجال في أشيائه ووجدوا صورة سيسي بينها.

– عليّ أن أذهب إليها حالاً، قالت كاتي وهي تنزع مريولها بسرعة وتبحث عن قبعتها، قالت إن جون زوج سيسي يقرأ الصحف وقد سبق وأخبرته أنها مطلقة والآن إذا عرف الحقيقة فإنه سوف يقتلها أو على الأقل يطردها من المنزل.. لن يكون لها مكان تذهب إليه مع الطفلة وأمها.

– إنه يبدو لطيفاً، قالت فرانسي، لا أظن أنه سيفعل ذلك.

- لا نعرف أبداً ما الذي لن يفعله. نحن لا نعرف شيئاً عنه. إنه غريب على العائلة وقد كان كذلك طوال الوقت.. أرجو من الله أن لا أصل متأخرة إلى هناك. أصرّت فرانسي أن تذهب معها بينما وافق نيلي على البقاء مع الطفلة شريطة أن يخبروه بكل ما حدث أو يحدث.

وصلت كاتي وفرانسي إلى منزل سيسي ووجداها مشرقة بالإثارة. أخذت الجدة ماري روميلي الطفلة إلى الغرفة الأمامية وجلست في الظلام تصلي أن يسير كل شيء على ما يرام.

وهنا روى جون القصة كما حدثت معه.

أنا أعمل دائماً في المشغل كما ترون. جاء هؤلاء الرجال إلى المنزل وقالوا لسيسي إن زوجك قد قتل.. أترون؟ ظنت سيسي أن الذي قتل هو أنا. التفت فجأة إلى سيسي وسألتها: هل بكيت؟

- كان بإمكانك أن تسمع بكائي من البنايات المجاورة.. أجابته مطمئنة فيما بدا هو راضياً عما حصل.

سألوا سيسي ماذا ينبغي لهم أن يفعلوا بالجثة. سألت سيسي إذا كان هناك أي تأمين.. أترون؟ حسناً تبين أن هناك تأميناً مدفوعاً منذ عشر سنوات بقيمة خمسمائة دولار باسم سيسي. إذن ما الذي فعلته سيسي.. قالت لهم أن يسجُّوا الجثة في مركز جنازات «سبيخت» وطلبت أن تقام جنازة له بقيمة خمسمائة دولار.

- كان عليّ أن أنهي الترتيبات.. قالت سيسي معتذرة، أنا هي القريبة الوحيدة له التي على قيد الحياة.

- ولكن هذا ليس كل شيء.. تابع جون، والآن عاد هؤلاء ليعطوا سيسي تقاعداً.. أنا لن أحتمل هذا، هدر فجأة بصوت عال، عندما تزوجتها، قالت لي.. تابع بهدوء الآن.. إنها امرأة مطلقة والآن تبين أنها ليست كذلك.

– لا يوجد طلاق في الكنيسة الكاثوليكية.. أصرت سيسي على التدخل.

– إنك لم تتزوجي في كنيسة كاثوليكية.

– نعم ولذلك فأنا لم أعتبر نفسي متزوجة ولم يخطر ببالي أن أحصل على طلاق.

رفع يديه إلى السماء وهو يئن.. أنا أستسلم. كانت تلك الصرخة هي نفسها الصرخة العبثية اليائسة التي أطلقها عندما أصرّت سيسي أنها أنجبت طفلة.. لقد تزوجتها بنية طيبة.. أترون وما الذي فعلته هي؟ سأل بطريقة بلاغية.. تحولنا إلى اثنين يعيشان في الخطيئة.

– لا تقل ذلك.. قالت سيسي بحدة، نحن لا نعيش في الخطيئة، نحن نعيش في زواج بين امرأة ورجلين.

– يجب أن يتوقف هذا الأمر الآن.. أترون.. إنك الآن أرملة أحد الزوجين وستصبحين مطلقة الرجل الآخر وبعد ذلك ستتزوجين مني مرة أخرى.

– حاضر يا جون، أجابته بخنوع.

– كما أن اسمي ليس جون، أجابها وهو يرعد، إنه ستيف، ستيف ستيف.

كان يدق على الطاولة بقوة كلما كرر اسمه مرة، بحيث ظل وعاء السكر الأزرق الموضوع على حافة الطاولة يهتز إلى الأعلى وإلى الأسفل.. دفع إصبعه في وجه فرانسي وهو يقول:

– وأنت! من الآن فصاعداً أنا أدعى العم ستيف أترين.

حدقت فرانسي في الرجل الذي تغير فجأة بدهشة صامتة.

– حسناً ماذا تقولين؟ صاح هادراً.

– مر.. مر.. مرحباً يا ستيف.

هذا هو المطلوب.. هدأ روعه قليلاً ثم تناول قبعته المعلقة على مسمار خلف الباب ووضعها على رأسه بعنف.

– إلى أين أنت ذاهب يا جون.. أعني يا ستيف، سألته كاتي بقلق.

– أصغي إليّ.. عندما كنت صغيراً خرج والدي ليحضر بعض البوظة عندما جاءنا ضيوف إلى البيت.. حسناً هذا بيتي وأنتم ضيوفي لذلك سأذهب لأحضر لكم بعض البوظة، أترين.. قال هذا وغادر المكان فوراً.

– أليس رائعاً.. قالت سيسي وهي تتنهد.. إن المرأة قد تقع في حب رجل مثل هذا.

– يبدو أن آل روميلي أصبح لديهم أخيراً رجل في العائلة.. قالت كاتي بطريقة جافة.

ذهبت فرانسي إلى الغرفة الأمامية المظلمة. ومع ضوء الشارع شاهدت جدتها تجلس عند النافذة وهي تضع طفلة سيسي على حضنها، وتتدلى من بين أصابعها المرتعشة مسبحة حجارتها من العنبر.

– يمكنك أن تتوقفي عن الصلاة الآن يا جدتي.. قالت فرانسي.. لقد سار كل شيء على ما يرام.. ذهب ستيف لإحضار البوظة.

– تمجد اسم الأب والابن والروح القدس.. قالت الجدة.

باسم سيسي، كتب ستيف إلى زوج سيسي الثاني على آخر عنوان معروف له طالباً منه توجيه الرسالة وموضحاً ذلك على ظهر الغلاف.

من ضمن فحوى الرسالة، طلبت منه سيسي أن يوافق على طلاقها منه لكي يتيح لها المجال كي تتزوج مرة أخرى. بعد أسبوع وصلت رسالة سميكة من ولاية ويسكنسن إلى سيسي يبلغها فيها زوجها الثاني أنه قد حصل على طلاق من ويسكنسن منذ سبع سنوات وأنه تزوج مرة أخرى واستقر هناك في وظيفة جيدة

كما أنه أصبح أباً لثلاثة أطفال. كتب لها أيضاً وبلغة حادة أنه سعيد جداً وأنه ينوي أن يبقى كذلك. وقد أرفق مع الرسالة قصاصة صحيفة تثبت أنه طلّقها قانونياً ومعها نسخة بالمرسوم الصادر بخصوص ذلك مع صورة أخرى لثلاثة أطفال يلعبون.

سُرَّت سيسي كثيراً لحصولها على الطلاق بهذه السرعة وأرسلت له طبقاً مطلياً بالفضة كهدية زواج وعندما أرادت أن ترسل له رسالة مباركة رفض ستيف أن يكتبها فتحولت إلى فرانسي قائلة:

- اكتبي له أني أتمنى له أن يبقى سعيداً دائماً.. قالت سيسي.

- ولكن يا خالتي.. لقد مضى على زواجه سبع سنوات وهو مستقر الآن سواء كان سعيداً أم لا.

- عندما تسمعين أن شخصاً قد تزوج فمن الأدب والكياسة أن تتمني له السعادة.. اكتبي ما قلت لك.

- حسناً.. كتبت فرانسي ذلك ثم سألتها وماذا أيضاً.

- اكتبي له شيئاً حول أطفاله وكم هم لطيفون.. شيء مثل.. علقت الكلمات في حلقها. كانت تعلم أنه أرسل الصورة ليثبت لها أن وفيات الأطفال التي حصلت عند الولادة لم يكن خطأه وقد آلم ذلك سيسي. فقالت لفرانسي: اكتبي له أنني الآن أم لطفلة جميلة سليمة وضعي خطاً تحت كلمة سليمة.

- ولكن رسالة ستيف تقول إنك سوف تتزوجين. إن هذا سيجعله يظن أنك أنجبت طفلاً قبل الزواج.

- اكتبي كما قلت لك واكتبي أيضاً أنني أتوقع ولادة طفل آخر في الأسبوع القادم.

- سيسي.. هذا ليس صحيحاً؟

- بالطبع لا، ولكن اكتبي ذلك على أية حال.

كتبت فرانسي ما طلبت منها ثم سألتها مرة أخرى:

- هل هناك شيء آخر تريدين أن تكتبيه؟

- نعم اشكريه على ورقة الطلاق وقولي له إنني قد حصلت على طلاقي قبله بسنة إلا أنني نسيت ذلك..

- ولكن هذا كذب.

- كلا لقد حصلت على الطلاق قبله.. على الأقل في ذهني.

- حسناً حسناً استسلمت فرانسي.

- اكتبي له أيضاً أنني سعيدة وأنني أنوي البقاء كذلك وضعي سطراً تحت هذه الكلمات كما فعل.

- يا إلهي.. سيسي لا بد دائماً أن تكون لك الكلمة الأخيرة؟

- نعم تماماً مثلما يجب أن تفعل أمك وإيفي وأنت أيضاً. لم تعترض فرانسي على كلامها.

وهكذا حصل ستيف على تصريح وتزوج من سيسي مرة أخرى ولكن في هذه المرة على يد قسيس من الكنيسة المنهجية. بالنسبة لسيسي كان هذا أول زواج في كنيسة، ما جعلها تؤمن بأنها متزوجة عن حق أي ضمن مبدأ «لا يفرقهما إلا الموت». كان ستيف في غاية السعادة فقد أحب سيسي وظل يخشى أن يفقدها فهي قد تركت أزواجها الآخرين دون أي شعور بالندم لذلك كان يخشى أن تتركه وتأخذ معها تلك الطفلة التي أحبها حباً شديداً. كان يعلم أن سيسي تؤمن بالكنيسة.. أية كنيسة سواء كاثوليكية أو بروتستانتية وأنها لن تخلف عهد زواج كنسي. ولأول مرة في تاريخ علاقتهما شعر بالسعادة والأمان والسيادة، أما سيسي فاكتشفت أنها مجنونة بحبه.

في إحدى الأمسيات، جاءت سيسي لزيارة أختها كاتي وكانت الأخيرة قد آوت إلى فراشها. قالت لها سيسي: ابقي في الفراش فأنا سأتحدث إليك في غرفة النوم. كانت فرانسي في ذلك الوقت جالسة على طاولة الطبخ تلصق قصائد قديمة على صفحات دفاتر مذكرات قديمة. كانت تحتفظ دائماً بشفرة في مكتبها لتقص تلك الأشعار والقصص وتضعها في دفاترها كما كان لديها مجموعة كبيرة من هذه الدفاتر. أحدها بعنوان «كتاب نولان للقصائد الكلاسيكية»، وآخر بعنوان كتاب نولان للشعر المعاصر وثالث هو كتاب آني لوري الذي أودعت فيه فرانسي أناشيد الحضانة وقصص الحيوانات، حتى تقرأها لوري عندما تكبر وتصبح قادرة على ذلك.

كانت الأصوات الصادرة من غرفة النوم المعتمة تحمل إيقاعات مريحة.. أصغت فرانسي إلى الحديث الدائر بينما هي تلصق تلك القصاصات.

- إن ستيف شخص رائع وخلوق. عندما أدركت ذلك كرهت نفسي بسبب الأزواج الآخرين.. أعني.

- ألم تخبريه عن الآخرين سألتها كاتي بترقب.

- وهل أبدو حمقاء.. ولكني أتمنى من كل قلبي لو أنه كان الزوج الأول والوحيد.

- المرأة عندما تتكلم بهذه الطريقة، فإن هذا يعني أن هناك تغييراً بحياتها.

- كيف يمكنك أن تفعلي ذلك.

- إذا لم يكن لها أي عشاق سابقاً، تلوم نفسها بشدة عندما يأتي التغيير لأنها تفكر بكل المتع التي كان يمكن أن تحصل عليها ولم تحصل عليها ولن تحصل عليها بعد الآن. أما لو كان لها العديد من العشاق فإنها تقنع نفسها بأنها قد ارتكبت خطأ وأنها نادمة على ذلك. كما أنها تستمر على هذا النهج لأنها تعلم تماماً أن كل هذه الفتنة والأنوثة سوف تزول قريباً. كما أنها إذا أقنعت نفسها بأن وجود

رجل إلى جانبها لم يكن بالفكرة الجيدة في المقام الأول فإنها تجد العزاء والراحة في ذلك التغيير.

- أنا لست في صدد أي تغيير في حياتي. قالت سيسي بسخط.. في المقام الأول أنا ما زلت شابة وفي المقام الثاني أنا لا أستطيع أن أتحمل التغيير.

- سوف يحصل الأمر مع كل واحدة منا يوماً ما. قالت كاتي بتنهد.

بدا وكأن هناك رعباً في صوت سيسي.. أرعبتها فكرة أن لا تصبح قادرة على إنجاب الأطفال.. وأن تصبح نصف امرأة.. بدينة ينمو الشعر على ذقنها، صاحت بحرارة.. سوف أقتل نفسي قبل أن يحصل مثل هذا.. على أية حال، أضافت مع شعور بالرضا.. أنا لست قريبة من مثل هذا التغيير لأني ما أزال على طريقتي الأولى.

سمعت فرانسي صوت خشخشة في غرفة نوم أمها، تخيلت أن أمها تنهض من الفراش على مرفقيها.

- كلا.. يا سيسي كلا لا يمكنك أن تخوضي هذا الغمار مرة أخرى. لقد حملت عشر مرات وتوفي لك عشرة مواليد قبل أن يولدوا.

وسيكون الأمر أكثر صعوبة هذه المرة لأنك تدخلين في سن السابعة والثلاثين.

- هذا ليس بالعمر المتأخر لإنجاب طفل.

- كلا ولكنه عمر لا يحتمل المزيد من الإحباطات بتلك السهولة.

- لا تقلقي يا كاتي سوف يعيش هذا الطفل.

- لقد كنت تقولين ذلك كل مرة.

- هذه المرة أنا متأكدة مما أقول لأني أشعر أن الله يقف إلى جانبي.. قالت سيسي بهدوء وطمأنينة.. ثم أردفت بعد قليل.. لقد أخبرت ستيف كيف حصلت على سيسي الصغيرة.

- وماذا قال لك؟

- كان يعلم طوال الوقت أنني لم ألدها ولكن الطريقة التي ادعيت فيها ذلك أربكته قليلاً. قال لي إن الأمر سيان عنده طالما أنني لم أحبل بها من رجل آخر، كما أن وجودها معنا منذ ولادتها جعله يشعر أنها طفلته. إنه لأمر غريب جداً كم تشبهه هذه الطفلة فلديها عينان غامقتان وذقن مستديرة وأذنان صغيرتان قريبتان من رأسها مثله تماماً.

لقد ورثت عينيها الغامقتين من أمها لوسيا كما أن هناك ملايين الأشخاص على وجه الأرض ممن لهم ذقون مستديرة وأذان صغيرة ولكن الأمر بالنسبة لستيف مدعاة للسعادة والرضا فهو مرتاح جداً لاعتقاده بأنها تشبهه.

سادت فترة من الصمت في الغرفة قبل أن تتكلم كاتي مرة أخرى:

- يا سيسي هل استطعت تكوين أية فكرة من هذه العائلة الإيطالية عمن يكون أب هذه الطفلة؟

- كلا.. قالت سيسي وصمتت فترة طويلة قبل أن تتابع.. ولكن أتعلمين من الذي أخبرني عن الفتاة وعن كونها تعاني من مشكلة وعن مكان سكناها؟

- من.

- ستيف.

- آه.

ساد الصمت لمدة طويلة أيضاً قبل أن تقطعه كاتي قائلة:

- بالطبع كان هذا صدفة.

- بالطبع، وافقت سيسي، لقد أخبره بالأمر أحد الزملاء في المشغل وكان يسكن بالقرب من منزل عائلة لوسيا.

– بالطبع كررت كاتي، أتعلمين.. هناك أحداث غريبة تقع في بروكلين ولا تحمل معنى على الإطلاق.. أحياناً أكون سائرة في الشارع وأفكر بشخص لم أره منذ خمس سنين وفجأة عند الزاوية التالية أجده متجهاً نحوي.

– أعلم ذلك، أجابتها سيسي.. وأحياناً أكون في خضم عمل ما لم أفعله في حياتي من قبل وفجأة ينتابني شعور بأنني قمت بهذا العمل سابقاً.. ربما في حياة أخرى.. ضاع صوتها وهي تتحدث ثم أردفت بعد برهة.

– كان ستيف يقول دائماً إنه لن يتبنى طفل رجل آخر.

– كل الرجال يقولون ذلك.. الحياة مضحكة.. تابعت كاتي تقول.. أحياناً يحدث شيئان بالصدفة معاً ويستطيع الإنسان أن يستنتج الكثير منهما. لقد كانت معرفتك بما يحدث لهذه الفتاة صدفة ولا بد أن هذا الشخص في المشغل قد أخبر عشرات الرجال عن القصة ولكن ستيف ذكرها لك بالصدفة.. وجاءت صدفة أخرى أنك تعرفت على هذه العائلة وصدفة أخرى أن ذقن الطفلة جاءت مستديرة وليست مربعة.. الأمر أقل حتى من الصدفة إنه.. توقفت كاتي تبحث عن كلمة مناسبة.. كانت فرانسي في المطبخ تصغي للحديث وقد أخذها الانسجام لدرجة أنها نسيت أنه ليس من المفترض منها أن تصغي له ولكنها عندما شعرت أن أمها تبحث عن كلمة لتتابع حديثه، أسعفتها بالكلمة المناسبة دون أن تفكر.

– أتعنين صدفاً متزامنة يا ماما؟ قالت فرانسي.

سرت صدمة من الصمت داخل غرفة النوم ثم عاد الحديث إلى مجراه السابق ولكن هذه المرة بالهمس فقط.

48

كانت هناك صحيفة ملقاة على مكتب فرانسي.. نسخة إضافية جاءت مباشرة من المطابع حتى إن الحبر كان ما يزال رطباً على عنوانها الرئيسي بعد خمس دقائق من وصول الصحيفة. تناولت فرانسي القلم لوضع العلامات المطلوبة، ولكنها حدّقت في تاريخها:

6 نيسان/ إبريل 1917.

كان العنوان كلمة واحدة ارتفاعها ست بوصات وإلى جانبها لطّخت ثلاث كلمات غير واضحة: الحرب تبدو وكأنها تُشنّ.

خطرت ببال فرانسي رؤيا هي أنها بعد خمسين سنة من الآن ستخبر أحفادها كيف أنها جاءت إلى المكتب وجلست على مكتبها وفي خضم روتين العمل قرأت أن الحرب قد أعلنت. كانت تعلم من أحاديث جدتها أن كِبَر السن مليء دائماً بذكريات الشباب.

ولكنها لم تشأ أن تتذكر الأشياء بل أرادت أن تعيشها أو أن تصل إلى حل وسط بين الاثنين.. تعيشها مرة أخرى بدلاً من أن تستذكرها.

قررت أن تثبت هذا الزمن في حياتها تماماً بالطريقة التي تفكر بها الآن. ربما بهذه الطريقة تستطيع التشبث بالزمن وكأنه كائن حي لا تريده أن يصبح ذكرى.

قرّبت عينيها من سطح المكتب وتفحصت نمط الألياف في خشبة. ثم مررت أصابعها على نتوء في الخشب تضع فيها قلمها محاولة تثبيت الإحساس بهذا النتوء في ذهنها. ثم استخدمت نصل الشفرة لبري نقطة على أحد أقلامها الرصاص ثم حلّت القشرة ووضعتها في راحة يدها. لمستها بسبابتها كي تلاحظ شكلها اللولبي ثم أسقطتها في سلة المهملات وهي تعد الثواني التي استغرقتها عملية سقوطها في السلة. بعد ذلك أصغت بانتباه متعمدة أن لا يفوتها الصوت الذي بالكاد يمكن سماعه عند ارتطامها بالقعر.

وبدون أن تبدي أي اهتمام بالعملاء المذكورين على الصفحتين الأولى والثانية، نزعت فرانسي الصفحة الأولى من الصحيفة وطوتها على شكل مستطيل وهي تراقب التجعدات التي تخلفها تحت إبهامها. بعد ذلك أدخلت الشكل المستطيل في أحد المغلفات التي تستخدمه الدائرة في إرسال قصاصات ورقها بالبريد.

سمعت فرانسي، وكأنها المرة الأولى، الصوت الذي يحدثه درج المكتب عندما فتحته لتتناول منه حقيبتها. لاحظت الأداة التي تلتقط الحقيبة وصوتها وقرقعتها. تحسست الجلد وحفظت رائحته في ذاكرتها ثم تفحصت الثنيات داخل البطانة الحريرية المتموجة. قرأت تواريخ إصدار القطع النقدية الموجودة في حقيبتها. كان هناك سنت من إصدار عام 1917، أخذته ووضعته في المغلف ثم فتحت غطاء مُطرّي الشفاه الذي تحمله في حقيبتها ورسمت به خطاً تحت بصمات أصابعها. شعرت بالسرور وهي تراقب لونه الأحمر الصافي وملمسه ورائحته. كذلك تفحصت البودرة التي تحملها معها، والنتوءات في مبرد أظافرها، ومشطها الصلب الذي لا يمكن لويه وخيوط منديلها. كانت هناك قصاصة ورقة بالية في محفظتها، هي قصيدة كانت قد اقتطعتها من جريدة تصدر في ولاية أوكلاهوما، كتبها شاعر عاش في بروكلين، ودرس في مدارسها العامة ثم كشاب صاعد قام بتحرير مجلة «بروكلين إيغل». قرأت فرانسي القصيدة للمرة العشرين وهي تحاول معالجة كل كلمة في ذهنها.

تقول القصيدة:

أنا من الشيب والشباب، من الحمقى كما من الحكماء
بغض النظر عن الآخرين أو ملاحظة ما يفعله الآخرون
من ناحية الأم أم من ناحية الأب، كطفل وكرجل
محشو ذهني بمواد خشنة كما هو محشو بمواد ناعمة

وجدت القصيدة الممزقة طريقها إلى ذلك المغلف. وأمام المرآة المثبتة في علبة التجميل، نظرت فرانسي إلى الطريقة التي جدّلت فيها شعرها، وكيف تلتف الجدائل حول رأسها. نظرت أيضاً إلى رمشيها السوداوين غير المتساويين في الطول ثم تفقدت حذاءها ومررت يدها على جواربها، حيث شعرت للمرة الأولى أن حريرها خشن وليس ناعماً كما كانت تتوقعه. كان نسيج ثوبها مصنوعاً من حبال صغيرة دقيقة، أرجعت حاشية الثوب إلى الوراء ولاحظت الحد الشريطي الضيق لسطحه. كان يشبه في تصميمه شكل الماسة.

– إذا كنت أستطيع أن أثبت كل تفصيل من هذا الزمن في ذهني، فإن بإمكاني أن أبقي هذه اللحظة حية. فكرت قليلاً ثم وبنصل الشفرة مرة أخرى قصت خصلة من شعرها ولفتها بقطعة ورق مربعة عليها آثار بصمات أصابعها وخطوط مطريّ الشفاه ثم طوت الورقة وأدخلتها في المغلف وأغلقته. بعد ذلك كتبت على الغلاف.

فرانسيس نولان 15 سنة وأربعة أشهر 6 نيسان 1917.

قالت لنفسها: إذا فتحت هذا المغلف بعد خمسين سنة من الآن فإني سأعود مرة أخرى كما أنا عليه الآن ولن يؤثر كبر السن فيّ. ما زال الوقت طويلاً جداً للوصول إلى خمسين سنة من الآن. ربما ملايين الساعات.. ولكن لقد مرت ساعة حتى الآن منذ جلست هنا ساعة أقل في حياتي.. ساعة ضاعت من بين ساعات عمري.

يا إلهي العزيز.. صلّت فرانسي.. دعني أكون شيئاً ملحوظاً في كل دقيقة من كل ساعة من حياتي.. دعني أكون سعيدة، دعني أكون حزينة، دعني أكون باردة، دعني أكون دافئة.. أو جائعة.. أو متخمة.. دعني أكون فقيرة بثياب رثة أو غنية بكامل الأناقة.. دعني أكون مخلصة. مخادعة.. صادقة.. كاذبة.. شريفة، دعني أقع في الخطيئة ولكن دعني في النهاية أكون شيئاً في كل لحظة مباركة وعندما أخلد إلى النوم دعني أحلم طوال الوقت بحيث لا يضيع أي جزء من حياتي.

في هذه اللحظة، دخل الفتى الموزِّع ووضع صحيفة أخرى من صحف المدينة على طاولتها. كانت هذه الصحيفة تحمل عنواناً من كلمتين «الحرب أعلنت».

بدت أرضية المكتب وكأنها تنحرف، أخذت الألوان تومض أمام عينيها. وضعت رأسها على ورقة الصحيفة.. كان حبرها ما يزال رطباً.. وبكت بهدوء.

هنا، توقفت إحدى القارئات القديمات عند مكتب فرانسي. كانت عائدة لتوها من الحمام عندما استرعى انتباهها عنوان الصحيفة والفتاة الباكية فكرت قليلاً ثم فهمت الأمر.

- آه الحرب.. تنهدت وقالت: هل لديك صديق أو أخ على ما أظن.. سألت بطريقة متكلفة مثل طريقة القارئات.

- نعم لدي أخ أجابت فرانسي بصدق.

- إني أشعر معك يا آنسة نولان.. قالت ذلك وعادت إلى مكتبها.

- أنا سكرانة مرة أخرى.. قالت فرانسي لنفسها، وهذه المرة بسبب عنوان في صحيفة. إن سكرتي هذه المرة سيئة لأنها مصحوبة بالبكاء.

أثرت الحرب على الدائرة التي تعمل فيها فرانسي في قصاصات المطبوعات وشلّت عملها. كان أول تلك التأثيرات عندما جاء أحد العملاء الذين يدفعون

آلاف الدولارات سنوياً من أجل الحصول على أخبار عن قناة بنما أو غيرها، مباشرة في اليوم الذي تلا إعلان الحرب. وأبلغ الدائرة أنه لن يكون متأكداً من عنوانه لفترة من الزمن، لذلك فإنه سوف يحضر شخصياً كل يوم ليطلب قصاصات الصحف المتعلقة به.

بعد تلك الحادثة بأيام قليلة، جاء إلى الدائرة رجلان يتحركان ببطء وبخطى ثقيلة وطلبا رؤية المدير. أحدهما دفع براحة يده أسفل أنف المدير ليريه شيئاً. وعندما نظر المدير إلى راحة يده انقلب لونه إلى الشحوب وأخرج رزمة سميكة من قصاصات الورق من صندوق ملفات خاص بأحد أهم العملاء. على الأثر قام الرجلان صاحبا الخطوات الثقيلة بقراءة القصاصات وإعادتها إلى المدير الذي وضعها في مغلف وأودع المغلف في درج مكتبه. بعد ذلك دخل الرجلان إلى حمام المدير. وتركا الباب مفتوحاً جزئياً وبقيا ينتظران هناك طوال النهار. عند الظهر أرسل الصبي المراسل ليحضر لهما بعض الساندويشات والقهوة حيث تناولا طعامهما في المرحاض.

عند الساعة الرابعة والنصف عاد العميل الذي يهتم بأخبار قناة بنما، وببطء شديد ناوله المدير المغلف الضخم الذي أودعه في درج المكتب ولكن ما كاد الرجل يضع المغلف في جيب معطفه الداخلي حتى انبرى له الرجلان اللذان كانا في المرحاض. أحدهما دق بيده على كتفه. تنهد العميل عندما رآه وأخرج المغلف من جيبه وسلّمه له. وعندما دق الرجل الثاني على كتفه، ضرب الرجل كعبيه ببعضهما البعض وانحنى بحزم ثم خرج من بينهما. أما المدير فعاد إلى منزله وهو يعاني من نوبة سوء هضم حادة.

في تلك الليلة، أخبرت فرانسي أمها ونيلي كيف تم القبض على جاسوس ألماني في المكتب الذي تعمل به.

في اليوم التالي، جاء إلى المكتب رجل رشيق خفيف الحركة يحمل بيده حقيبة صغيرة. كان على المدير أن يجيب عن عدة أسئلة فيما كان الرجل خفيف

الحركة يدوِّن الأجوبة على ورق فيه نماذج مطبوعة لتعبئتها. بعد ذلك جاء الجزء الحزين، فقد كان على المدير أن يحرر شيكاً بقيمة 400 دولار هي قيمة رصيد الحساب الذي تم إلغاؤه لا إرادياً. بعد مغادرة الرجل الخفيف هرع المدير لكي يستدين النقود من أجل تغطية قيمة الشيك.

بعد ذلك تمزق كل شيء.. أصبح المدير خائفاً من قبول عملاء جدد أو فتح حسابات جديدة مهما كانت بريئة. وهكذا بدأ المسرح بالإغلاق وانفض الممثلون. تحول ذلك التدفق الكبير من الكتب الربيعية المنشورة والتي كانت تجلب مئات العملاء الموسميين من الذين يدفعون مبالغ بقيمة 500 دولار، وعشرات من عملاء دور النشر من فئة المائة دولار، إلى مجرد زبائن يتقاطرون بأعداد قليلة نادرة. كذلك توقفت دور النشر عن الإصدار بانتظار هدوء الأحوال وألغى العديد من الباحثين حساباتهم بانتظار استدعائهم للقرعة في الخدمة العسكرية. وحتى لو بقي العمل على حاله الطبيعي. فإن المكتب لن يستطيع أن يعالج الأمر لأن عُمّاله شرعوا بالمغادرة.

في غضون ذلك، قامت الحكومة، بعد أن توقعت أن يحدث نقص في أعمال الرجال بإجراء امتحانات خدمة مدنية للنساء العاملات، وذلك في مكتب البريد الضخم الواقع في شارع 34. العديد من النسوة اجتزن الامتحان وتم استدعاؤهن إلى العمل فوراً. أما العمال اليدويون، وأعضاء النادي في الدائرة فقد تركوا العمل ليلتحقوا بأعمال المشاريع الحربية. هناك استطاع هؤلاء مضاعفة مداخيلهم مرتين وثلاثاً ونالوا ثناءً عالياً لوطنيّتهم وتضحياتهم. عادت زوجة المدير إلى العمل كقارئة وقام المدير بالتخلص من جميع القارئات الأخريات ما عدا فرانسي.

بدت قاعة المؤسسة الضخمة خالية يتردد فيها الصدى فيما كافح الثلاثة وحدهم لتسيير أمور العمل. كانت فرانسي والزوجة تقرآن وتجمعان الملفات وتتابعان العمل المكتبي فيما راح المدير يقص أوراق الصحف ويطبق عشوائياً ويلصق كيفما اتفق.

في أواسط شهر حزيران (يونيو) استسلم المدير وبدأ بوضع الترتيبات لبيع تجهيزات المؤسسة ومكاتبها. أوقف الإيجار وحلّ مشاكل الردّيات المالية إلى عملائه ببساطة بقوله: دعهم يقاضونني.

اتصلت فرانسي بالمكتب الوحيد الذي تعرف بأنه يعمل في هذا المجال في نيويورك وسألت إن كانوا بحاجة إلى قارئات وجاءها الجواب بأنهم لم يوظفوا أبداً قارئات جداً مدّعين أنهم يعاملون قارئاتهم بشكل سليم وأنهم ليسوا بحاجة إلى تبديلهم. هذا لطيف قالت فرانسي ثم أغلقت الخط.

أمضت فرانسي يومها الأخير في المكتب وهي تضع علامات على إعلانات التوظيف وأهملت الإعلانات المتعلقة بوظائف تعلم أنها يمكن أن تعود فيها إلى الملفات. ففي هذه المكاتب لن تسنح لك فرصة عمل أبداً ما لم تكن تجيد الطباعة أو الكتابة بالاختزال. على أية حال، كانت فرانسي تفضل العمل في المصانع فقد كانت تفضل العاملين في المصانع على العاملين في المكاتب، كما تحب أن تبقي ذهنها حراً خلال عملها بيديها. ولكن بالطبع لم تكن كاتي لتسمح لها بالعمل في المصانع مرة أخرى.

عثرت فرانسي على إعلان بدا وكأنه مزيج سعيد من العمل المصنعي والمكتبي ويضم تشغيل آلة في أجواء مكتبية. فقد عرضت إحدى شركات الاتصالات أن تدرب الفتيات على تشغيل ماكنات الكتابة البرقية على أن تدفع لهن 12.5 دولاراً أسبوعياً خلال فترة تدريبهن. كانت أوقات العمل في الشركة تبدأ من الخامسة مساءً وحتى الواحدة صباحاً، على الأقل. قالت فرانسي لنفسها، سوف يتاح لي المجال أن أملأ وقت الأمسيات إذا حصلت على الوظيفة.

كانت مكاتب شركة الاتصالات تقع في ناطحة سحاب تشرف على النهر الشرقي في مركز مدينة نيويورك. إلى جانب العشرات من الفتيات، عبأت فرانسي طلب الوظيفة بعد أن قدّمت توصية حماسية من مديرها السابق. بعد ذلك قدمت فرانسي فحص جدارة أجابت فيه على أسئلة بدت لها سخيفة مثل: أيهما أثقل

باوند من الرصاص أم باوند من الريش؟ بالطبع، اجتازت فرانسي الامتحان وتم تسليمها رقماً ومفتاح خزانة دفعت ثمنه ربع دولار وتم إبلاغها أن تعود في اليوم التالي في الساعة الخامسة مساءً.

كانت الساعة قد قاربت الرابعة عندما وصلت فرانسي إلى البيت. كانت أمها تنظف المنزل وقد بدا عليها الانزعاج عندما شاهدتها تصعد الدرج.

– لا تقلقي يا أماه.. لست مريضة أو ما شابه.

– أوه، قالت كاتي براحة، لوهلة ما ظننت أنك قد خسرت وظيفتك .

– لقد خسرتها.

– ياه.

– ولن أحصل على أجري للأسبوع المنصرم ولكني حصلت على وظيفة أخرى، وسوف أبدأ العمل غداً مقابل أجر 12.5 دولاراً أسبوعياً. كذلك سوف أحصل على زيادة في الأجر مع مرور الوقت. بدأت كاتي تنهال عليها بالأسئلة ولكن فرانسي قالت لها أنا تعبة يا أماه ولا أرغب في التحدث. سوف نتحدث غداً. كذلك لا أرغب في تناول أي عشاء، فقط أرغب في الإيواء إلى الفراش. قالت هذا وصعدت الدرج إلى غرفة نومها.

جلست كاتي على الدرج وقد استبد بها القلق. فمنذ اشتعال الحرب وأسعار الغذاء وكل شيء آخر ترتفع بشكل صاروخي. في الشهر الماضي لم تتمكن كاتي أن توفر شيئاً في حساب فرانسي إذ لم تكفها الدولارات العشرة أسبوعاً. كما أن لوري أصبحت تستهلك ربع لتر من الحليب الطازج يومياً. وقد ارتفع سعر الحليب كما أنها تحتاج إلى عصير برتقال.

والآن مع 12.5 دولاراً أسبوعياً وبعد طرح مصاريف فرانسي فإن النقود التي ستبقى ستكون أقل من قبل. بعد فترة ستأتي الفرصة. يمكن لنيلي أن يعمل

خلال الصيف ولكن ماذا عن الخريف؟ سيعود نيلي إلى المدرسة كما أن على فرانسي أن تدخل المدرسة في الخريف.. كيف.. كيف..

جلست كاتي على الدرج قلقة محتارة.

ألقت فرانسي نظرة قصيرة على الطفلة النائمة ثم خلعت ثيابها وانسلت في الفراش. طوت يديها تحت رأسها وراحت تحدق في تلك البقعة الرمادية التي يطلقون عليها اسم فتحة التهوية، وتفكر.

ها أنذا وصل عمري إلى 15 سنة ونيف. أعمل منذ سنة أو أقل، بدّلت خلالها ثلاث وظائف. كنت أظن التنقل بين الوظائف نوعاً من المتعة ولكن ها أنا الآن خائفة. لقد تم إقصائي من وظيفتين لأسباب لا تتعلق بخطأ ارتكبته وفي كل وظيفة كنت أقدّم أفضل ما لدي وأعطي كل ما باستطاعتي. والآن أعود لأبدأ من جديد في وظيفة أخرى. أنا الآن فقط أشعر بالخوف، هذه المرة عندما يقفز مديري مرة سأقفز مرتين لأني أخشى أن أفقد وظيفتي. أنا خائفة لأنهم يعتمدون عليّ هنا في البيت من أجل تحصيل النقود. كيف كنا نتدبر أمورنا في السابق؟ كنت أعمل؟ حسناً لم تكن لوري موجودة حينها كما أن نيلي وأنا كنا صغاراً نرضى بالقليل وكذلك كان بابا يساعدنا.

حسناً.. وداعاً أيتها الكلية.. وداعاً لكل شيء يستحق.. أدارت وجهها بعيداً عن الضوء الرمادي وأغمضت عينيها.

في مكان العمل.. جلست فرانسي أمام طابعة في غرفة كبيرة. كان هناك غطاء معدني مثبت فوق الآلة الطابعة بحيث لم تستطع فرانسي أن ترى لوح المفاتيح. في واجهة الغرفة، عُلِّق رسم ضخم للوحة مفاتيح. نظرت فرانسي إلى الرسم وراحت تتحسس الأحرف تحت الغطاء، كان هذا يومها الأول.

في اليوم التالي تم تسليمها رزمة من البرقيات القديمة لتنسخها. ظلت عيناها تتنقل بين النسخ وبين اللوحة فيما أصابعها تتلمس طريقها إلى الأحرف.

في نهاية اليوم الثاني تمكنت فرانسي من حفظ مواقع الأحرف على الآلة الطابعة ولم تعد بحاجة للرجوع إلى الرسم. بعد أسبوع من ذلك التاريخ نزعت فرانسي غطاء الآلة الطابعة.. وظهر الفرق الآن، أصبحت فرانسي طابعة ماهرة.

قام أحد المرشدين بشرح أعمال الآلة الطابعة وظلت فرانسي لمدة يوم كامل ترسل وتستقبل برقيات زائفة إلى أن تم تعيينها على الخط البرقي بين نيويورك وكليفلاند.

ظنت فرانسي أن الأمر يشبه معجزة رائعة كونها تمكنت من الجلوس أمام تلك الآلة وطباعة وتلقي كلمات تصل عبر مئات الأميال على قطعة ورق هي جزء من لفافة ورقة موجودة داخل هذه الآلة في ولاية كليفلاند أوهايو. ولا أقل إعجازاً وجود فتاة أخرى بعيداً هناك في كليفلاند تحول دقّات أصابع فرانسي إلى أحرف مقروءة من جهتها.

كان العمل سهلاً، فقد كانت فرانسي تعمل في إرسال البرقيات لمدة ساعة ثم تتلقى البرقيات خلال ساعة أخرى. كانت هناك فترتان للراحة كل منهما خمس عشرة دقيقة بين انتقال الأفواج العاملة ونصف ساعة لتناول «الغداء» في الساعة التاسعة مساءً. تم رفع أجرها إلى 15 دولاراً في الأسبوع بعد أن عينت على الخط البرقي.. الأمر كله بشكل عام لم يكن سيئاً.

كذلك الأمر في المنزل، فقد عدّلت العائلة وضعها بحسب برنامج فرانسي الجديد. كانت تغادر المنزل بعد الرابعة عصراً بقليل وتعود إليه قبل الثانية صباحاً. كانت تقرع الجرس ثلاث مرات قبل الدخول إلى الردهة لكي تبقى أمها متنبهة وتتأكد من أن أحداً لا يتسكع في الممرات ويهاجمها. كما كانت فرانسي تنام حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً ولم يكن على كاتي أن تستيقظ باكراً جداً لأن فرانسي كانت تنام مع لوري. كذلك كانت كاتي تبدأ نهارها بتنظيف بيتها أولاً وما أن يحين الوقت لعملها في البيوت الأخرى، حتى تستيقظ فرانسي وترعى لوري. اضطرت فرانسي للعمل في ليالي الآحاد ولكن فرصتها الأسبوعية كانت ليلة الأربعاء.

أحبّت فرانسي هذا الترتيب الجديد، فقد ساعدها على تمضية الأمسيات وأعطاها الفرصة لمساعدة أمها كما أنها كانت تمضي ساعات عديدة في المتنزه مع لوري تحت أشعة الشمس الدافئة المنعشة.

في أحد الأيام طرأت لكاتي فكرة طلبت أن تتحدث بأمرها مع فرانسي.

– هل سيبقونك في هذا العمل الليلي؟ سألت كاتي.

– هل سيفعلون ذلك، إنهم مجبرون! لا توجد فتاة تقبل بمثل هذا التوقيت. لهذا السبب هم يرمون ذلك العبء على الفتيات الجدد.

– كنت أفكر ربما تستطيعين في الخريف أن تعملي ليلاً وأن تدرسي في المدرسة الثانوية نهاراً. أعلم أن الأمر شاق ولكن يمكن تطبيقه!

– ماما مهما قلت فإني لن أدخل الكلية.

– ولكنك حاربت من أجل ذلك في السنة الماضية.

– كان هذا في السنة الماضية.. الوقت كان مناسباً، أما الآن فقد تأخرت كثيراً.

– لم تتأخري كثيراً، ولا تكوني عنيدة أرجوك.

– ولكن ما الذي يمكنني أن أتعلمه في المدرسة الثانوية. آه لا تظني أني متعجرفة أو شيء من هذا القبيل ولكن بعد كل شيء، كنت أقرأ ثماني ساعات يومياً ولمدة سنة كاملة تقريباً وقد تعلمت الكثير كما أن لدي أفكاري الخاصة حول التاريخ والإدارة والجغرافيا والكتابة والشعر. لقد قرأت الكثير عن الناس – ماذا يعملون وكيف يعيشون – قرأت عن الجرائم وعن البطولات.. ماما لقد قرأت عن كل شيء ولا يمكنني الجلوس الآن في غرفة دراسية مع زمرة من الأطفال كي أستمع إلى معلمة عجوز تهذي حول هذا أو ذاك. سوف أضطر إلى أن أقفز وأصحح ما تقوله كل مرة أو سأضطر إلى ابتلاع ما قالته وألتزم

الصمت.. حسناً أنا أكره نفسي بسبب ذلك.. أن آكل الوهم بدل الخبز لذلك، أنا لن أذهب إلى المدرسة الثانوية ولكني سألتحق بالكلية يوماً ما.

– ولكن ينبغي لك أن تدخلي المدرسة الثانوية قبل أن يسمح لـك بـدخول الكلية؟

– أربع سنوات في المدرسة الثانوية.. ربما خمس لأنه لا بد من حدوث شيء يؤخرني.. ثم أربع سنوات أخرى في الكلية وسيكون عمري خمساً وعشرين سنة حين أتخرج.. امرأة مستهلكة.

– سواء أعجبك الأمر أم لا فإنك سوف تصلين إلى عمر الخامسة والعشرين يوماً ما مهما فعلت ولعله من الأفضل أن تصلي إلى ذلك العمر وأنت مثقفة.

– للمرة الأخيرة يا أماه لن أدخل المدرسة الثانوية.

– سوف نرى، قالت كاتي وهي تعدِّل حنكها غضباً في خط واحد.

لم تزد فرانسي حرفاً واحداً ولكنها شدت حنكها تماماً مثلما فعلت أمها.

إلا أن هذه المحادثة أعطت فرانسي فكرة. إذا كانت أمها تعتقد أن بإمكانها العمل ليلاً والذهاب إلى المدرسة صباحاً فلماذا لا تفعل ذلك وتدخل الكلية؟ قرأت فرانسي إعلاناً في إحدى الصحف عن توفر دروس صيفية في إحدى أقدم وأفضل كليات بروكلين لطلاب الكليات الراغبين في الاستفادة من خبرة متقدمة أو التعويض عن أوقات وظروف عملهم وكذلك لطلاب المدارس الثانوية الذين يرغبون في تلقي دروس متقدمة تابعة لمناهج الكليات. فكرت فرانسي أن بإمكانها الدخول ضمن الفئة الأخيرة. لم تكن طالبة ثانوية تماماً ولكنها مؤهلة لتكون كذلك. لذلك أرسلت في طلب كتالوج الكلية.

من الكتالوج، اختارت فرانسي ثلاث مساقات تقدم في فترة بعد الظهر. وهكذا فإن بإمكانها أن تنام حتى الحادية عشرة ثم تذهب لحضور الصفوف

الدراسية حتى فترة بعد الظهر وبعدها تنطلق مباشرة إلى العمل. اختارت فرانسي أن تبدأ باللغة الفرنسية والكيمياء الأولية ومادة أخرى تدعى دراما إعادة التأهيل. تمعنت في القسط المطلوب. كان أكثر قليلاً من ستين دولاراً بما فيها رسوم المختبر. كان لديها في حصالة التوفير مائة وخمسة دولارات.. قررت التحدث مع كاتي.

- ماما هل بإمكاني أخذ خمسة وستين دولاراً من الحصالة لأني سأسجل في الكلية؟

- لماذا؟

- لكي أدفع قسط الكلية.. تحدثت فرانسي بطريقة عفوية وبالطبع شعرت بأنها أثّرت في أمها عندما ارتفع صوت كاتي متسائلة:

- كلية؟

- نعم دروس صيفية في الكلية.

- ولكن ولكن.. ولكن تمتمت كاتي.

- أنا أعلم.. لا توجد مدرسة ثانوية ولكني إذا استطعت أن أخبرهم بأني لا أريد شهادة أو أية علامات أخرى، وأني مهتمة فقط بالدروس و..

تناولت كاتي قبعتها الخضراء من رف الخزانة..

- إلى أين أنت ذاهبة يا أمي؟

- إلى البنك لأحضر النقود.

ضحكت فرانسي من الحماس الذي ظهر على أمها..

- بعد ساعات.. البنك مغلق الآن.. ولا لزوم للعجلة أيضاً فالتسجيل يبدأ بعد أسبوع.

كان موقع الكلية في بروكلين هايتس وهو جزء غريب من بروكلين الكبرى ترغب فرانسي في اكتشافه. وفيما هي تعبئ طلب التسجيل، حام قلبها حول سؤال يتعلق بالدراسة السابقة. كانت هناك ثلاث مساحات فارغة لتعبئتها.. دراسة ابتدائية، دراسة ثانوية. بعد تفكير، شطبت فرانسي جميع الكلمات وكتبت.. دراسة خاصة.

- إذا أردنا الصحيح فإنني لا أكذب هنا. قالت فرانسي لنفسها محاولة أن تطمئن بالها.

شعرت فرانسي براحة ودهشة عندما لم يجادلها أحد في الموضوع. فقد قبض الرجل المسؤول عن الصندوق النقود وأعطاها وصلاً بالقسط. بعد ذلك حصلت على رقم تسجيل وتصريح لدخول المكتبة وبرنامج للدروس وقائمة بالكتب التي تحتاجها.

تبعت حشداً من الطلاب كان متجهاً نحو مكتبة الكلية في إحدى البنايات أسفل الحرم.. راجعت القائمة وطلبت كتابين الأول بعنوان «البدء بالفرنسية» والثاني «الكيمياء الأولية».

سألها البائع.. أتريدين كتباً جديدة أم مستعملة؟

- ماذا؟ لا أدري أيهما يفترض أن أشتري.

- جديدة. قال لها البائع.

شعرت بأحد من ورائها يربت على كتفها.. التفت وشاهدت شاباً وسيماً أنيق الملبس يهمس لها.. اشتري المستعمل إنه يخدم الهدف نفسه وبنصف السعر.

- شكراً، التفتت إلى البائع وقالت بحزم.

- مستعمل لو سمحت.

شرعت بطلب الكتابين الآخرين لمادة الدراما ولكن الربت على كتفها تكرر مرة أخرى.

– كلا كلا قال لها الشاب بإمكانك أن تقرئي الكتابين في المكتبة وبعد الصفوف وخلال الفرص.

– شكراً لك مرة أخرى، قالت له.

– أي وقت ! أنا جاهز لمساعدتك. أجابها وانصرف.

تبعته عيناها حتى خرج من المحل.. يا إلهي إنه طويل ووسيم، قالت لنفسها إن هذه الكلية رائعة.

جلست فرانسي في القطار بطريقها نحو المكتب وهي تمسك بالكتابين. كانت مفعمة بجو الكلية لدرجة أنها تخيلت صوت طرق عجلات القطار على السكة الحديدية بإيقاع.. كلية.. كلية.. كلية.. ولكن فرانسي شعرت بالضيق والمرض مما اضطرها إلى النزول في المحطة التالية رغم علمها بأنها متأخرة عن عملها. اتكأت على إحدى آلات التوزين في الشارع متسائلة ما الذي حدث لها.. لا يمكن أن يكون شيء قد أكلته لأنها نسيت أن تتناول غداءها.. فجأة داهمتها فكرة رهيبة وقالت لنفسها.

– لم يكن جدي وجدتي يعرفان لا القراءة ولا الكتابة وكذلك الناس الذين كانوا قبلهم.. خالتي لا تعرف القراءة ولا الكتابة وحتى أهلي تخرجوا من مدرسة ابتدائية. أنا لم أذهب إلى مدرسة ثانوية ولكنني اليوم أنا فرانسيس. ك. نولان أدرس في الكلية. هل تسمعين ذلك يا فرانسي أنت في الكلية.. آه يا إلهي أشعر أني مريضة.

49

عادت فرانسي من أول درس لها في الكيمياء وهي في حالة من التوقد. ففي ساعة واحدة اكتشفت أن كل شيء في الدنيا مصنوع من الذرات التي تظل في حركة مستمرة. كذلك استوعبت فكرة أن لا شيء يضيع أو يتدمر حتى ولو حُرق أو ترك ليتعفن، فهو لا يختفي عن وجه الأرض بل يتحول إلى حالة أخرى غازية أو سائلة أو مسحوقة. كل شيء، قررت فرانسي بعد تلك المحاضرة، ينبض بالحياة ولا يوجد موت في الكيمياء. أصابتها الحيرة لماذا لم يتبنّ الناس المتعلمون الكيمياء كدين.

أما مادة دراما إعادة التأهيل، فعدا عن كونها تتطلب وقتاً كثيراً في القراءة إلا أنها كانت سهلة التدبير بعد تلك الدراسات المنزلية العديدة حول شيكسبير. لم يكن لديها أي قلق بالنسبة لهذه المادة أو لمادة الكيمياء ولكن عندما وصل الأمر إلى مادة «البدء بالفرنسية» شعرت فرانسي بالضياع. لم تكن المادة في الحقيقة بدءاً بالفرنسية بل كان المدرس يتصرف على أساس أن طلابه قد درسوا الفرنسية من قبل ورسبوا فيها أو أنهم اطلعوا عليها في المدرسة الثانوية. لذلك مرّ بسرعة على الخطوات التمهيدية وانتقل مباشرة إلى الترجمة. أما فرانسي التي كانت بطبيعتها ضعيفة أمام قواعد اللغة الإنكليزية واللفظ والفواصل والترقيم فقد وجدت

نفسها في وضع حرج مع اللغة الفرنسية المليئة بالقواعد والألفاظ والفواصل وغيرها. شعرت أنها لا تملك فرصة النجاح في هذه المادة. كل ما استطاعت عمله هو حفظ المفردات عن ظهر قلب كل يوم ومحاولة الاستمرار في المادة.

كانت تدرس في طريقها بالقطار من وإلى الكلية وفي فترات الراحة وظل الكتاب يرافقها خلال تناول وجبات الطعام. كانت تطبع واجباتها المدرسية على إحدى آلات الطباعة في غرفة التدريب بشركة الاتصالات. لم تكن تتأخر أو تغيب أبداً ولم تطلب شيئاً سوى أن تنجح في اثنتين من هذه المواد على الأقل.

أصبح الشاب الذي ساعدها في المكتبة، ملاكها الحارس. كان شاباً مدهشاً يدعى بن بليك. كان طالباً في السنة الأخيرة في مدرسة ماسبث الثانوية، ومحرراً لمجلة المدرسة وعريفاً للصف ولاعباً مدافعاً في فريق كرة القدم الأميركية وفوق هذا كله كان طالباً متفوقاً على لائحة الشرف. وقد ظل ولمدة ثلاثة مواسم صيفية متوالية يدرس في الكلية لكي يستطيع أن يختصر سنة من دراسة الكلية بعد أن ينهي دراسته الثانوية.

إضافة إلى دراسته كان يعمل فترة العصر في شركة محاماة، يقوم فيها بكتابة مذكرات بوقائع الدعاوى والاستدعاءات ويتفقد السجلات وصكوك الملكية ويراجع الحالات السابقة. وقد أصبحت لديه خبرة بقوانين الولاية وأصبح قادراً تماماً على المرافعة في قضية في المحكمة. إلى جانب ذلك كله كان يتقاضى 25 دولاراً في الأسبوع من تلك الشركة. وقد أراد منه هؤلاء أن يعمل معهم كموظف دائم بعد تخرجه من المدرسة الثانوية، يدرس القانون معهم ومن ثم يتقدم إلى امتحان مهنة المحاماة. ولكن بن كان يزدري المحامين الذين لم يدرسوا في الكلية لذلك اختار إحدى الكليات المشهورة في الغرب الأوسط وكان يخطط لاستكمال سعيه من أجل الحصول على شهادة البكالوريوس، ومن ثم الدخول إلى كلية المحاماة.

في سن التاسعة عشرة، كانت حياته مرسومة في خط مستقيم لا ينحرف. بعد نجاحه في امتحان مهنة المحاماة، أصبح جاهزاً لممارسة المحاماة في الأرياف.

كان يؤمن أن المحامي الشاب يملك فرصاً سياسية أكبر في البلدات الصغيرة وقد اختار موقعه في هذا المجال فقد كان عليه أن يخلف أحد أقربائه البعيدين وهو محام ريفي عجوز، ضليع في المهنة وذو شهرة مؤسسية واسعة فيها. ظل بن على اتصال مستمر مع سلفه المستقبلي وكان يتلقى منه رسائل إرشادية مطولة كل أسبوع.

خطط بن أيضاً لأن يعمل في هذه المهنة وينتظر دوره ليصبح مدعي عام المقاطعة (هناك اتفاق بأن يتناوب المحامون في هذه المقاطعة الصغيرة الأدوار بينهم) لأن هذه النقطة ستشكل بداية منطلقه السياسي. سوف يعمل بكد لكي يصبح معروفاً يثق الناس به ومن ثم ينتخبونه عضواً في المجلس التشريعي لولايته. سوف يخدم الناس بأمانة لكي يعيدوا انتخابه وسيظل يعمل كي يصل إلى منصب حاكم الولاية. هذه كانت خطته.

المدهش في الأمر أن جميع الذين عرفوا بن بليك كانوا واثقين بأن الأمور سوف تجري تماماً مثلما خطط لها.

في الوقت نفسه وفي ذلك الصيف من عام 1917، كانت وجهة طموحه، تلك الولاية الواسعة في الغرب الأوسط، تنام حالمة تحت أشعة الشمس ووسط حقول القمح الشاسعة وكروم العنب وبساتين التفاح التي لا نهاية لها. تنام حالمة غير واعية أن هذا الشاب الذي خطط للوصول إلى بيتها الأبيض كأصغر حاكم ولاية.. ما يزال في هذه اللحظة فتى في بروكلين.

هذا هو بن بليك، شاب أنيق وسيم مرح لامع واثق من نفسه، يحبه جميع الشباب وتجن فيه الفتيات وفرانسي نولان.. غارقة في حبه.

كانت تراه كل يوم.. يساعدها في حل واجبات مادة اللغة الفرنسية ويتفقد عملها في مادة الكيمياء ويراجع معها أي غموض لم تفهمه في مادة الدراما.. كذلك ساعدها على التخطيط لدروس الصيف القادم وحاول طوعاً أن يخطط لها باقي حياتها.

مع اقتراب موعد انتهاء فصل الصيف، لحق الحزن بفرانسي لسببين الأول أنها لن ترى بن كل يوم والثاني أنها لن تنجح في مادة اللغة الفرنسية. أخبرت بن عن أسباب حزنها فقال لها بخفة:

– لا تكوني سخيفة – لقد دفعت نقوداً من أجل هذه المادة ودرستها طوال الصيف أنت لست حمقاء وسوف تنجحين.

– كلا، ضحكت فرانسي أعتقد أنني سأرسب.

– إذن سوف نحشوك حشواً بالمعلومات قبل الامتحان النهائي. وسوف يحتاج الأمر إلى يوم كامل.. والآن إلى أين يمكننا أن نذهب.

– إلى منزلي؟ اقترحت فرانسي بتردد.

– كلا سيكون هناك أشخاص حولنا.. فكّر قليلاً ثم قال لها.. أعرف مكاناً جيداً دعينا نلتقي يوم الأحد في التاسعة صباحاً عند ناصية شارعي غيتس وبرودواي.

كان بانتظارها عندما نزلت من القطار. وقد ظلّت تتساءل إلى أي مكان سيأخذها في تلك الضاحية. أخذها بن إلى أحد أبواب مسرح للعرض في برودواي يقع عند أول لفة في الطريق. مرّ عبر الباب السحري بعد أن قال للرجل ذي اللحية البيضاء الذي يجلس على كرسي هزاز قرب الباب.. صباح الخير.. اكتشفت فرانسي حينئذ أن هذا الشاب المدهش يعمل أيضاً في ليالي السبت كدليل في هذا المسرح يرشد الحضور إلى مقاعدهم.

لم تكن فرانسي قد شاهدت من قبل كواليس المسرح. شعرت بإثارة شديدة لدرجة أن حرارتها ارتفعت. بدا المسرح واسعاً ممتداً كأنه بلا سقف. وفيما هي تسير عبر المسرح غيرت من طريقة مشيتها وراحت تمشي الهوينى وتشد على رجلها وهي تستذكر طريقة سير هارولد كلارنس. عندما تكلم بن استدارت نحوه ببطء وبطريقة درامية وقالت بصوت أجش:

- أنت.. هل أنت الذي تتكلم؟

- أتريدين أن أريك شيئاً؟ سألها.

أزاح الستارة.. ورأت فرانسي لفة الأسبستوس وكأنها ظل عملاق. أشعل الأضواء وسارت فرانسي نحو خشبة المسرح.. ظهرت أمامها آلاف من صفوف المقاعد الخالية التي تنتظر جمهورها. مالت برأسها ونادت بصوت يسمعه الجالس في آخر مقعد من صالة المسرح.

- مرحباً! هناك نادت، وبدا لها صوتها وكأنه تضخم مئات المرات في ظلمة هذه القاعة الفارغة.

- انظري، سألها بنية طيبة، هل أنت مهتمة أكثر بالمسرح أم بالفرنسية؟

- لماذا؟ بالمسرح طبعاً.

كانت صادقة، فهنا أنكرت فرانسي جميع طموحاتها الأخرى وعادت لحبها الأول، المسرح..

ضحك بن وهو يفك رباط الستائر ليسدلها ويضع مقعدين متقابلين بطريقة ما. كان قد أحضر أسئلة الامتحانات لمدة خمس سنوات سابقة ومن خلال هذه الأسئلة استطاع وضع ورقة امتحان رئيسية باستخدام الأسئلة الأكثر تكراراً وتلك التي يندر طرحها. أمضى بن طوال النهار يحشو ذهن فرانسي بتلك الأسئلة وأجوبتها ثم جعلها تحفظ عن ظهر قلب صفحة من قصة موليير «لو تارتو» وترجمتها بالإنكليزية، شرح ذلك بقوله:

- سيكون هناك سؤال في امتحان الغد، يبدو لك وكأنه مجرد لغة يونانية لا تفهمين منها شيئاً. أنصحك بعدم الإجابة على هذا السؤال بل اكتبي بصراحة ما يلي: «أنا لن أستطيع الإجابة عن هذا السؤال ولكنني سأقدم بدلاً منه ترجمة لموليير»، بعد ذلك اكتبي ما حفظته من موليير وسوف تجتازين الامتحان.

– ولكن افترض أنهم سألوا عن هذه القطعة بالذات في سؤال عادي.

– لن يفعلوا ذلك لأني اخترت قطعة غامضة جداً.

بالتأكيد، تمكنت فرانسي من النجاح في امتحان الفرنسية. صحيح أنها نجحت بأقل علامة ولكنها عزّت نفسها بفكرة أن النجاح هو النجاح. أما في مادتي الكيمياء والدراما فقد أبدعت فرانسي.

تبعاً للتعليمات التي أعطاها إياها بن، عادت فرانسي لتطلب سجل علاماتها بعد أسبوع والتقت معه ضمن ترتيب مسبق حيث اصطحبها إلى مقهى هولير لتناول شوكولاته ساخنة.

– كم عمرك يا فرانسي؟ سألها بينما هما يحتسيان الشوكولاته.

أجرت فرانسي حساباً سريعاً في المنزل. هي في سن الخامسة عشرة وفي العمل في سن السابعة عشرة. أما هو ففي سن التاسعة عشرة ولا شك أنه لن يكلمها مرة أخرى إذا قالت له إن عمرها خمس عشرة سنة فقط. لاحظ ترددها فقال لها مازحاً وكأنها في محضر تحقيق.

– أي شيء تقولينه سوف يستخدم ضدك!

جمعت شجاعتها وقالت له وهي ترتعش:

– أنا في الخامسة عشرة.. دلت رأسها إلى الأسفل في خجل.

– أوه.. أنا معجب بك يا فرانسي.

– وأنا أحبك. قالت في داخلها.

– أنا أحبك مثلما أحب أية فتاة قابلتها ولكني بالطبع لا أملك وقتاً للفتيات.

– ولا حتى ساعة واحدة في يوم أحد؟ قالت مغامرة.

– إن ساعاتي القلائل التي أكون حراً فيها أقضيها مع أمي فأنا كل ما تملكه.

لم تكن فرانسي قد سمعت عن السيدة بليك قبل هذه اللحظة ولكنها شعرت بالكراهية تجاهها لأنها احتلت هذه الساعات الحرة القليلة. بضع ساعات كان يمكن أن تجلب السعادة لفرانسي.

ولكني سأظل أفكر بكِ.. تابع بن حديثه وسأكتب لك حين يتاح لي المجال (كان يعيش مسافة نصف ساعة بعيداً عنها) ولكن إذا احتجت إليّ في أي وقت ولأي سبب مهما كان تافهاً، اكتبي لي وسأتدبر أمري لكي أراك.. أعطاها إحدى البطاقات التي تحمل اسمه الكامل.. بنجامين فرانكلين بليك، مكتوباً في الزاوية.

افترق الاثنان خارج مقهى هويلر بعد أن تصافحا بمرارة.. قال لها بعد أن ودّعها وسار عدة خطوات.. أراك في الصيف القادم.

وقفت فرانسي تراقبه حتى اختفى خلف ناصية الشارع.. الصيف القادم! الوقت الآن هو أيلول (سبتمبر) والصيف القادم يبدو بعيداً مسافة مليون سنة.

استمتعت فرانسي بدراستها الصيفية لدرجة أنها رغبت أن تُقبل في تلك الكلية في الخريف القادم ولكن هيهات! من أين لها أن تجمع قسطها البالغ أكثر من ثلاثمائة دولار. في إحدى فترات الصباح التي أمضتها تقرأ الفهارس في مكتبة نيويورك بشارع 42، عثرت على كلية للنساء، مجانية التعليم لسكان نيويورك.

وهكذا تسلحت فرانسي بسجل علاماتها وذهبت لتسجل في تلك الكلية ولكنهم أبلغوها أنه ليس باستطاعتها التسجيل لأنها تفتقر إلى شهادة مدرسة ثانوية.. شرحت لهم كيف سمح لها بالتسجيل في مدرسة صيفية بالكلية.

آه.. قالوا لها هذا مختلف لأن هذه الدروس تعطى فقط كساعات دراسة ولكن دون شهادة. سألتهم إذا كان باستطاعتها أن تسجل في المساقات دون أن تحصل على شهادة. كلا.. لو أن عمرها تجاوز الخامسة والعشرين فقد يسمح لها بالتسجيل كطالبة خاصة دون أن تكون مرشحة لأخذ شهادة. اعترفت فرانسي بأسف بأنها لم تصل بعد إلى عمر الخامسة والعشرين ولكن كان هناك بديل: إذا

تمكنت من النجاح في امتحانات الدخول، فقد يسمح لها بالتسجيل دون الحاجة إلى شهادة ثانوية.

قدمت فرانسي الامتحانات ورسبت في كل شيء ما عدا الكيمياء.

- آه حسناً. كان لا بد أن أعرف ذلك، قالت لأمها.. لو أن بإمكان الناس الدخول إلى الكليات بهذه السهولة لما اهتم أحد بالالتحاق بالمدرسة الثانوية. ولكن لا تقلقي يا أماه أعرف الآن تماماً ما هي امتحانات الدخول وسوف أشتري الكتب وأدرس بجد لكي أجتاز هذه الامتحانات في السنة القادمة. يمكنني أن أفعل ذلك وسوف أفعله.. سترين.

حتى ولو استطاعت دخول الكلية، فإن الأمر لن يسير كما تشتهين لأنها وضعت ضمن فترة العمل النهاري. فهي قد أصبحت الآن طابعة سريعة وخبيرة وأصبحوا بحاجة لها في الأوقات التي يزدحم فيها العمل. إلا أنهم طمأنوها أن بإمكانها العودة للعمل في الفترة المسائية خلال فصل الصيف إذا رغبت في ذلك. حصلت فرانسي على زيادة جيدة في الأجر. أصبحت الآن تحصل على 17.5 دولاراً أسبوعياً.

ولكن عادت أمسيات الوحدة مرة أخرى.. كانت فرانسي تتجول في شوارع بروكلين خلال الليالي الخريفية اللطيفة.. وتفكر في بن.

«إذا احتجت إليّ يوماً ما اكتبي لي وسأتدبر أمري لكي أراك».

نعم هي بحاجة إليه ولكنها متأكدة أنه لن يأتي إذا كتبت له: أنا أشعر بالوحدة.. أرجوك تعال وامشِ معي.. وتحدث إليّ. في برنامج الحياتي الصارم الذي يعيشه بن لا يوجد عنوان اسمه «الوحدة».

بدت الضاحية على حالها، رغم بعض الاختلاف. ظهرت نجمات ذهبية في بعض نوافذ البنايات. وما زال الأولاد يجتمعون عند ناصية الشارع أمام دكان الحلويات في المساء ولكن الآن، يبدو أن أحد الأولاد يلبس ثياباً كاكية، على غير العادات السابقة.

كان الأولاد يقفون بانسجام وينشدون أغاني مثل «كوخ في بلـدة الأكـواخ القديمة».. «عندما ارتديت زنبقة».. «عزيزتي أيتها الفتاة الكبـيرة».. «أنـا آسـف لأني جعلتك تبكين».. وغيرها.

أحياناً كان الفتى الذي يرتدي ثياباً كاكية يقودهم في تـرنيم أناشـيد مثـل: هناك... ك ك ك كاتي.. والوردة في المنطقة الحرام.ولكن مهما كانت أغنياتهم، فقد ظلّوا ينهونها دائماً بأغنية من أغاني بروكلين الشعبية مثل «الأم ماكري» و«عنـدما تبتسم العيون الإيرلندية» و«دعيني أناديك حبيبتي» و«الفرقة تعزف».

كانت فرانسي تمر بهم في الأمسيات وتتساءل لماذا تبدو هذه الأغاني حزينة؟

50

توقعت سيسي ولادة طفلها في أواخر شهر نوفمبر (تشرين الثاني). وكم عانت كاتي وسيسي في محاولتهما لتجنب مناقشة الموضوع معها. كانتا متأكدتين أن الطفل سيولد ميتاً وقد بررا لنفسيهما أنه كلما قلّ الحديث عن الموضوع نسيته سيسي فيما بعد بوقت أسرع. ولكن سيسي قامت بحركة ثورية جعلتهما مضطرتين للحديث عن الموضوع. أعلنت أنها ستحضر طبيباً يشرف على ولادة الطفل وأنها ستلد في المستشفى.

أصيبت أمها وأختاها بالصدمة. لم يسبق لأي امرأة من آل روميلي أن طلبت طبيباً لولادتها.. لم يكن الأمر صحيحاً. في العادة تكون الولاّدة قابلة، أو إحدى الجارات أو الأم. ويتم الأمر بسرية تامة وخلف أبواب مغلقة بعيداً عن أي رجل. فالولادة هي شأن نسائي أما المستشفيات فالكل يعلم أن الإنسان يذهب هناك ليموت.

أخبرتهن سيسي أنهن متخلفات عن الزمن وأن القابلة أصبحت شيئاً من الماضي.. كذلك قالت لهم بفخر إن الكلمة ليست لها في هذا الشأن لأن ستيف نفسه أصرّ أن يكون هناك طبيب ومستشفى وهذا ليس كل شيء، سيكون الطبيب المشرف يهودياً.

– لماذا يا سيسي لماذا؟ سألتها أمها وأختاها.

– لأن الأطباء اليهود أكثر رأفة من الأطباء المسيحيين في أوقات مثل هذه.

– أنا لا أحمل ضغينة ضد اليهود.. بدأت كاتي الحديث، ولكن...

– اسمعي! فقط لأن جماعة الدكتور أرونشتاين ينظرون إلى النجوم عندما يصلون ونحن ننظر إلى الصليب فإن هذا لا علاقة له بكونه طبيباً جيداً أم لا.

– ولكني أعتقد أنك بحاجة إلى طبيب من نفس دينك في وقت (كانت كاتي على وشك أن تقول «في وقت الموت» ولكنها أمسكت وقالت: الولادة!).

– آه يا حلاوة. قالت سيسي بازدراء.

– الطيور على أشكالها تقع.. إنك لا تسمعين بيهوديات يطلبن أطباء مسيحيين.. قالت إيفي وهي تعتقد أنها نطقت بكلمة الفصل.

– لماذا يطلبن ذلك؟ قاطعتها سيسي وهن يعلمن أن الأطباء اليهود هم الأفضل.

جاءت ولادة سيسي على غرار الولادات السابقة.. ولكنها أكثر سهولة بسبب مهارة الطبيب.. عندما ولد الطفل أغلقت سيسي عينيها بشدة خشية أن تنظر إليه. قبل الولادة كانت متأكدة أنها ستلد طفلاً حياً ولكنها الآن، وقد جاء الطفل، شعرت في صميم فؤادها أنه لن يعيش. أخيراً فتحت عينيها.. كان الطفل مستلقياً على طاولة مجاورة.. كان هامداً أزرق اللون.. أدارت وجهها عنه.

مرة أخرى.. وأخرى وأخرى وأخرى... إحدى عشرة مرة يا إلهي لماذا لم تترك لي هذا الطفل؟ واحد من أحد عشر.. بعد سنين قليلة سأتوقف عن الولادة بحكم العمر. يصعب على امرأة أن تموت وهي تعلم أنها لم تعط حياةً لأحد آه يا إلهي هل وضعت لعنة عليّ؟

سمعت كلمة لم تسمعها من قبل.. أكسجين.. قال الصوت.

بسرعة أحضروا الأكسجين، سمعت الطبيب ينادي:

راقبته يعمل بسرعة فوق الطفلِ، رأت معجزة فاقت جميع معجزات القديسين التي أخبرتها أمها عنها.. رأت الطفل الأزرق اللون يتحول إلى اللون الأبيض رأت طفلاً بلا حراك يبدأ بالتقاط أنفاسه. ولأول مرة سمعت صراخ الطفل الذي ولدته.

- هل.. هل هو حي؟ سألت وهي تخشى أن تصدق.

- ولم لا؟ هزّ الطبيب كتفيه بفصاحة وقال:

- إن لديك هنا أجمل طفل رأيته في حياتي.

- هل أنت متأكد أنه سيعيش؟

ولم لا.. هز كتفيه وهو يجيبها.. إلا إذا تعمدت إسقاطه من الطابق الثالث لإحدى البنايات. تناولت سيسي يد الطبيب وأشبعتها تقبيلاً، ولم يبد الدكتور آرون آرونشتاين أي حرج من عاطفتها الهياجة مثلما قد يفعل أطباء غير يهود.

- أطلقت على الطفل اسم ستيفن آرون.

- إن الله لا يخذل إنساناً. قالت كاتي.. فبعد أن اضطرت المرأة التي لا تلد أطفالاً إلى تبني طفل، أعطاها الله بعد سنة أو أكثر طفلاً من لحمها ودمها وكأنه أدرك نيتها الطيبة.. إنه لشيء رائع أن تربي سيسي طفلين فليس من المستحسن أن يربى الطفل وحده.

- إن الفرق في العمر بين سيسي الصغيرة وستيفي الصغير سنتان. قالت فرانسي مثلي أنا ونيلي تقريباً.

- نعم سوف يصادقان بعضهما البعض.

أصبح طفل سيسي الحي حديث العائلة إلى أن أعطاهم العم ويلي فليتمان قصة أخرى يتندرون بها. فقد حاول العم ويلي أن يدخل في الجيش وتم رفض

طلبه. بعدها ترك عمله في شركة توزيع الحليب وعاد ليجلس في البيت معلناً فشله في الحياة. ظل في فراشه رافضاً أن يستيقظ لا في اليوم التالي ولا في اليوم الذي بعده. قال إنه سيبقى في الفراش ولن ينهض منه طالما هو حي وأن حياته كلها كانت فشلاً بفشل وهو الآن سيموت وهو فاشل وكلما جاء موته أسرع كان أفضل.

أرسلت إيفي وراء أختيها.

وهكذا وقفت الأخوات الثلاث ومعهن فرانسي حول السرير النحاسي الذي ينام فيه الفشل. ألقى ويلي نظرة واحدة على الدائرة المحيطة به من فتيات آل روميلي القويات الإرادة وبكى.. أنا فاشل ثم غطى رأسه بالبطانية.

حوّلت إيفي زوجها إلى سيسي فيما راقبت فرانسي خالتها سيسي وهي تعمل. وضعت سيسي ذراعيها حوله وشدت الرجل المسكين إلى صدرها وهي تقول له بلهجة مقنعة: ليس كل الرجال الشجعان في الخنادق. هناك رجال يغامرون بحياتهم من أجل بلادهم في مصانع الذخيرة.. تحدثت كثيراً إلى أن شعر ويلي بالإثارة حول المساعدة في كسب الحرب. قفز من الفراش وحثّ الخالة إيفي على جلب بنطاله وحذائه بسرعة.

كان ستيف في هذا الوقت يعمل مراقباً في أحد مصانع الأسلحة على جادة مورجان. دبّر لويلي عملاً جيد الراتب بدوام كامل وساعات عمل إضافية.

كان التقليد السائد في عائلة روميلي أن يحتفظ الرجال بأي نقود إكراميات أو نقود إضافية يحصلون عليها. وهكذا اشترى ويلي بنقود العمل الإضافي طبلاً وزوجاً من الصنوج حيث ظل يمضي معظم الأمسيات يتدرب عليها في الغرفة الأمامية عندما لم يكن لديه عمل إضافي.

أهدته فرانسي هارمونيكا ثمنها دولار في عيد الميلاد فقام بربطها إلى عصا وعلّق العصا على زنّاره كي يتمكن من العزف عليها وهو يقود دراجته. حاول أن

يتدرب على عزف الغيتار والهارمونيكا والطبل والصنج في الوقت نفسه. كان يريد أن يصبح فرقة من رجل واحد.

وهكذا كان ويلي يجلس في غرفة البيت الأمامية في الأمسيات ينفخ في الهارمونيكا، ويداعب أوتار الغيتار ويضرب على الطبل الضخم ويقرع الصنوج النحاسية ولكنه ظل يتحسر لأنه فاشل.

51

عندما أصبح الجو بارداً جداً للسير في الطرقات، التحقت فرانسي بـدورتي تدريب في إحدى المؤسسات على الخياطة والرقص.

تعلمت كيف تفك أنماط الورق وكيف تدير ماكنـة خياطـة. ومـع الوقـت أملت أن تستطيع حياكة ثيابها بنفسها.

كذلك تعلمت رقص القاعات، على الرغم من أنها وشركاءها في الصف لم يكونوا ليتوقعوا أبداً أن تتاح لهم فرصة الرقص في القاعات. أحياناً كان شريكهـا في الرقص واحداً من شبان الحي المعروفين. كان يدهن شعره بمطـرِّي بريليـانتين ويرقص بحيوية حتى إنه علّمها كيف تراقب خطاها خلال الرقص وأحياناً كـان شريكها فتى في الرابعة عشرة من العمر يرتدي بنطلوناً قـصيراً، هنـا كانـت هـي التي تعلمه كيف يراقب خطاه. كانت فرانسي تحب الرقص وتتقنه بالفطرة.

اقترب ذلك العام من نهايته:

– ما هذا الكتاب الذي تقرئينه يا فرانسي؟ سألتها أمها.

– إنه كتاب نيلي في علم الهندسة.

– ما هو علم الهندسة.

– إنه شيء على الطالب أن يجتازه لكي يدخل إلى الكلية.

– حسناً لا تتأخري كثيراً في السهر.

سألت كاتي محصّل التأمين: ماذا أحضرت لي من أنباء عن أمي وأخواتي؟

– حسناً شيء واحد لقد أمّنت للتو على طفلي أختك سارة وستيفن.

– ولكنها أمّنتهما منذ الولادة.. إنها تدفع نيكلاً أسبوعياً بدل بوليصة تأمين.

– هذه بوليصة مختلفة.. إنها تشبه الوقف.

– وماذا يعني هذا!

– يعني أنك لست مضطرة لتؤمني كي تقبضي ثمن البوليصة. يحصل كل طفل على 1000 دولار عندما يصبح في الثامنة عشرة من العمر. إنه تأمين يساعدهما على دخول الكلية.

– آه يا حالي.. أولاً طبيب ومستشفى للولادة وثم بوليصة تأمين للكلية وماذا بعد.

* * *

– هل هناك أية رسائل يا أماه.. سألت فرانسي كعادتها عندما تصل من العمل إلى البيت.

– كلا، فقط بطاقة من إيفي؟

– وماذا تقول الطاقة؟

– لا شيء.. فقط أن عليهم الانتقال من منزلهم بسبب ويلي وطبله.

– وإلى أين سينتقلون الآن.

– لقد عثرت إيفي على منزل عائلي في سايبرس هيلز.. أتساءل إذا كان هذا المكان في بروكلين.

– إنه على طريق شرقي نيويورك حيث تتحول بروكلين إلى كوينز.. والمنطقة تقع حول شارع كريسنت، الموقف الأخير لقطار برودواي. أعني أنه ظل الموقف الأخير إلى أن مددوا سير القطار نحو جامايكا.

كانت ماري روميلي مستلقية على سريرها الأبيض الضيق ووراءها على الجدار الخالي صليب معلق فوق رأسها. وحول فراشها وقفت بناتها الثلاث وفرانسي حفيدتها الكبرى.

– نعم أنا في الخامسة والثمانين الآن وأشعر أن هذا المرض هو الأخير. أنتظر الموت بشجاعة تعلمتها من الحياة. لن أقول كلاماً واهماً وأطلب منكن إذا كنتن ستحزن عليّ عندما أرحل عن هذه الدنيا. لقد أحببت أطفالي وحاولت أن أكون أماً صالحة ولعل من حقي أن يحزن عليّ أولادي. ولكن ليكون حزنكن مختصراً وهادئاً وأذعنوا للأمر بكل وداعة واعلمن أنني سأكون سعيدة وأنا أواجه القديسين العظماء الذي أحببتهم طوال حياتي.

كانت فرانسي وسط مجموعة من الفتيات في غرفة الاستراحة عندما عرضت عليهن صوراً لعائلتها.

– هذه هي آني لوري أختي الصغيرة.. ما تزل طفلة في الشهر الثامن عشر من عمرها ولكن تركض في كل مكان وينبغي أن تسمعوها وهي تتكلم.

– إنها لطيفة.

– وهذه صورة أخي كورنيليوس، إنه سيصبح طبيباً.

– هو لطيف أيضاً.

– وهذه صورة أمي.

- إنها لطيفة أيضاً. تبدو وكأنها شابة.

- وهذه أنا على سطح المنزل.

- إن السطح لطيف.

- أنا لطيفة. أجابت فرانسي بتحدٍّ ظريف.

- إننا جميعاً لطفاء ضحكت الفتيات وكذلك مشرفتنا.. تلك العربة العجوز نتمنى لها أن تموت خنقاً.

ضحكن جميعاً.

- قال نيلي لأمه محتجاً.. أرسلي فرانسي. في المرة الأخيرة التي طلبت فيها «كرنب» طاردني الرجل إلى خارج المخزن.

- عليك أن تسأله عن ملفوف ليبرتي الآن أيها الأحمق.. قالت فرانسي.

- لا تنادوا بعضكم البعض بهذه الألقاب. قالت كاتي موبخة كليهما وهي شاردة الذهن.

- هل تعلمون أنهم غيَّروا اسم جادة هامبورغ لتصبح جادة ويلسون؟ سألت فرانسي.

- إن الحرب تجعل الناس يفعلون أشياء غريبة.. قالت كاتي بتنهد.

- هل ستبلّغين أمي، سأل نيلي بقلق.

- كلا ولكنك ما تزال صغيراً لمواعدة فتاة من هذا النوع، يقولون عنها إنها شاذة وجامحة.

- ومن يرغب في فتاة مدجنة؟

- أنا لا أبالي ولكنك لا تفقه شيئاً في.. الجنس.

– أنا أعلم أكثر مما تعلمين.. وضع يده حول خصره وزعق بطريقة صبيانية:

– آه يا ماما هل سأحبل وألد طفلاً إذا قبلّني أحدهم فقط.. هل سيحدث مثل هذا يا ماما؟ هل؟

– آه يا نيلي كنت تصغي إلى الحديث ذلك اليوم.

– بالتأكيد.. كنت واقفاً في الردهة مباشرة وسمعت كل كلمة قيلت.

– من بين الأشياء الحقيرة..

– أصغي لي أيضاً.. لقد أمسكت بك عدة مرات وأنت تصغين إلى أحاديث أمي وخالاتي في حين من المفترض أن تكوني نائمة في فراشك.

– هذا أمر مختلف ! إن عليّ أن أكتشف الأشياء.

– أهلاً !

– فرانسي فرانسي إنها السابعة. انهضي من فراشك.

– ولماذا؟

– من المفترض أن تكوني في مكان عملك في الساعة الثامنة والنصف.

– أخبريني شيئاً جيداً يا أماه.

– حسناً إنك اليوم في السادسة عشرة من العمر.

– أخبريني شيئاً أحدث. إنني في السادسة عشرة منذ سنتين.

– سوف تضطرين لأن تبقي في السادسة عشرة لسنة أخرى إذن.

– ربما سأبقى في السادسة عشرة طوال حياتي.

– لن يفاجئني ذلك.

– لم أكن أتطفل، قالت كاتي بسخط.. لقد أردت نيكلاً آخر للرجل الذي يبيع الغاز وظننت أنك لن تبالي بذلك، أنت تبحثين في جيبي مرات عديدة طلباً للنقود.

– هذا الأمر مختلف. قالت فرانسي.

كانت كاتي تحمل في يدها علبة صغيرة ليلكية اللون، تحتوي على سجائر معطرة ومذهبة القمة.. كانت هناك سيجارة مفقودة من العلبة.

– حسناً والآن أنت تعلمين الأسوأ. قالت فرانسي لقد قمت بتدخين سيجارة ميلو.

– إن رائحتها لطيفة عل أية حال.

– حسناً يا أماه هيا أعطني موعظتك ولننهِ هذا الأمر.

– مع هذا العدد من الجنود الذين يموتون في فرنسا وغيرها، لن ينهار العالم إذا دخنت سيجارة من حين لآخر.

– آه يا أماه إنك تنتزعين المتعة من كل شيء.. مثلاً إنك لم تعترضي على السروال الشريطي الأسود الذي اشتريته في العام الماضي.. قولي لي ارمِ السجائر جانباً.

– أنا لا أفعل ذلك.. سوف أبعثرها في درج الثياب لعلها تترك رائحة طيبة على ثياب النوم.

كنت أفكر.. قالت كاتي.. بدلاً من أن نشتري لبعضنا البعض هدايا عيد ميلاد هذا العام، دعونا نجمع النقود ونشتري دجاجة مشوية وكعكة كبيرة من فرن الحلويات وباوند من القهوة و...

– لدينا ما يكفي من المال للطعام، قالت فرانسي محتجة.. لسنا مضطرين لاستخدام نقود عيد الميلاد.

– أعني أن نعطي شيئاً لفتيات عائلة تينمور. الناس يقولون إنهن أصبحن متخلفات عن زمانهن وليس لديهن شيء يأكلنه.. لقد كانت الآنسة ليزي تعاملنا جيداً.

– حسناً، وافقت فرانسي ولكن بحماس طفيف.

– آه رفس نيلي رجل الطاولة بقسوة.

– لا تقلق يا نيلي.. قالت فرانسي ضاحكة، سوف تحصل على هدية سوف أشتري لك واقيات حذاء بألوان رائعة هذا العام.

– آه اخرسي.

– لا تقولا لبعضكما مثل هذا الكلام. قالت كاتي موبخة وذهنها ما يزال شارداً.

– أريد أن أطلب منك نصيحة يا أماه. هناك شاب قابلته في الكلية في الصيف الماضي وقد قال لي إنه سيكتب لي ولكنه لم يفعل ذلك.. أريد أن أعرف هل يليق بي أن أرسل له بطاقة معايدة بمناسبة عيد الميلاد.

– لا يليق بك.. هراء.. أرسلي البطاقة إذا كنت تشعرين بأن عليك إرسالها ولكن أكره مثل هذه الأساليب لدى النساء.. الحياة قصيرة جداً وإذا ما عثرت على رجل تحبينه لا تضيعي وقتك في التكلف.. اذهبي إليه وقولي له: أنا أحبك ما رأيك لو نتزوج.. هكذا هو الأمر. قالت كاتي بعجلة وهي تنظر إلى ابنتها بترقب.. متى ستصبحين كبيرة ما يكفي لكي تأخذي قراراتك بنفسك.

– سوف أرسل البطاقة.. قالت فرانسي.

– أماه.. لقد قررت أنا ونيلي أننا نرغب في شرب القهوة بدلاً من مخلوط الحليب مع البراندي.

– حسناً، أعادت كاتي زجاجة البراندي إلى الخزانة.

- ولتكن القهوة قوية وساخنة.. كذلك املأي الكؤوس بالقهوة الساخنة إلى النصف ثم أضيفي حليباً ساخناً ونشرب نخب عام 1918 قهوة بالحليب.

- إذا سمحت.. أضاف نيلي بمرح وباللغة الفرنسية.

- وي وي وي (نعم نعم نعم) أجابت كاتي، أنا أعرف بعض الكلمات في اللغة الفرنسية أيضاً.

رفعت كاتي دلة القهوة بيد وإبريق الحليب الساخن بيد أخرى وصبَّت بشكل متزامن في الكؤوس قائلة.

أتذكر عندما لم يكن هناك حليب في المنزل.. كان أبوكما يضع قطعة زبدة في قهوته.. هذا إذا صدف وكان لدينا زبدة. كان يقول إن هذه الزبدة هي مثل الحليب ولها نفس المفعول في القهوة.

آه يا بابا...

52

كان عمر فرانسي في ذلك اليوم من أيام الربيع المشمسة ست عشرة سنة حين غادرت المكتب عند الساعة الخامسة مساء ورأت أنيتا وهي فتاة تعمل على إحدى آلات الطباعة ضمن فريقها، واقفة عند بوابة مدخل بناية شركة الاتصالات ومعها عسكريان. أحدهما قصير سمين، وعريض المنكبين يمسك بذراع أنيتا بقوة، فيما الثاني يبدو طويلاً ويشبه رجال العصابات ووقفته غريبة. أفلتت أنيتا يدها من الرجلين وجذبت فرانسي جانباً.

– فرانسي عليك أن تساعديني للخروج من هذا المأزق. إن صديقي جوي هو في إجازته الأخيرة قبل الالتحاق بالجيش عبر البحار ونحن مخطوبان.

– إذا كنتما مخطوبين فلا شك أن أمورك على ما يرام وأنك لا تحتاجين إلى مساعدة أحد.. قالت فرانسي مازحة.

– أعني مساعدتي بالشاب الآخر. لقد اضطر جوي إلى إحضاره معه، اللعنة على ذلك. الاثنان صديقان لا يفارقان بعضهما البعض وهذا الشاب قادم من بلدة صغيرة في ولاية بنسلفانيا ولا يعرف شيئاً في نيويورك وسوف يبقى ملتصقاً بنا ولن يتاح لي المجال للانفراد بجوي. عليك أن تساعديني يا فرانسي، لقد خذلتني ثلاث فتيات حتى الآن.

ألقت فرانسي نظرة فاحصة على الشاب القادم من بنسلفانيا. كان يقف على بُعد عشرة أقدام من مكان وقوفها. لم يبدُ عليه أي شيء جذاب. لا عجب أن الفتيات الأخريات رفضن مساعدة أنيتا. تلاقت عيناه بعينيها وبدت منه ابتسامة خجولة. صحيح أنه لم يكن وسيماً ولكن فيه من اللطف أكثر ما فيه من الوسامة. دفعت ضحكته الخجولة فرانسي لأن تأخذ قراراً.

– اسمعي. قالت لأنيتا، إذا استطعت أن أظفر بأخي في مكان عمله فسأترك له رسالة لأمي بأني ذاهبة، ولكن إذا لم أجد فسأضطر للذهاب، إلى المنزل لأخبر أمي فهي ستقلق عليّ إذا لم أحضر للعشاء.

– إذن عجلي بالأمر واتصلي به تلفونياً. قالت أنيتا وهي تحثها بسرعة، هاك.. راحت تبحث في جيبها. سوف أعطيك نيكلاً للمكالمة.

اتصلت فرانسي من دكان بيع السجائر على الناصية وشاءت الصدفة أن يكون نيلي ما يزال موجوداً في حانة مكغاريتي حيث يعمل. أبلغته الرسالة وعندما عادت وجدت أن أنيتا وجوي قد ذهبا فيما كان الجندي ذو الابتسامة الخجولة واقفاً وحده.

– أين أنيتا؟ سألته.

– أظنها باغتتك وذهبت مع جوي.

شعرت فرانسي بالفزع فقد كانت تتوقع أن يخرج الأربعة معاً.. تساءلت ماذا ستفعل بهذا الشاب الغريب الطويل الآن؟

– أنا لا ألومها، قال الجندي لقد أرادا أن يكونا وحدهما.. أنا مخطوب أيضاً وأعلم كيف هي الحال مع الخاطبين.. الموعد الأخير.. الإجازة الأخيرة.

– مخطوب! فكرت فرانسي قليلاً وشعرت بالراحة.. على الأقل لن يحاول أن يغازلني.

- ولكن هذا ليس سبباً لأن تشعري بأي التزام نحوي.. تابع يقول: فقط أرشديني كيف أصل إلى قطار الأنفاق الذي يوصل إلى شارع 34. أنا غريب هنا في هذه المدينة ويمكنني أن أعود إلى الفندق وأسلّي نفسي بكتابة الرسائل. يستطيع الإنسان أن يقضي وقته في كتابة الرسائل إذا لم يجد شيئاً يفعله.. ابتسم الجندي مرة أخرى بخجل.

- لقد أخبرت أهلي للتو أنني لن أعود إلى المنزل لذلك إذا رغبت..

- رغبت.. يا إلهي إنه يوم سعدي شكراً لك أيتها الآنسة..

- نولان! فرانسيس نولان.

- اسمي لي راينور. هو في الحقيقة ليو ولكن الجميع ينادوني «لي». أنا سعيد جداً للقائك أيتها الآنسة نولان.. مدّ لها يده مصافحاً.

- وأنا سعيدة بلقائك أيها العريف راينور.. تصافح الاثنان.

- أوه.. لقد لاحظت رتبتي من الشرائط التي على كتفي.. ابتسم بسرور. أفترض أنك تشعرين بالجوع بعد يوم عمل.. هل ترغبين في تناول طعام العشاء في أي مكان خاص.

- طعام العشاء قد يكون أدق.. لا يوجد مكان خاص وأنت.

- أرغب في تجربة الطعام الصيني لقد سمعت عنه كثيراً.

- هناك مطعم جيد في شارع 42 يقدم الطعام الصيني مع الموسيقى.

- لنذهب إليه.

في طريقهما لركوب قطار الأنفاق سألها الشاب:

- هل تمانعين لو ناديتك فرانسيس.

- لا أمانع أبداً رغم أن الجميع ينادونني فرانسي.

- فرانسي.. كرر الاسم مرتين.. يا فرانسي لدي طلب آخر. هل تمانعين لـو أنني تصرفت وكأنك صديقتي المفضلة.. فقط لهذه الأمسية؟

- فكرت فرانسي.. إنه سريـع العمـل. ولكـن وكأنـه تنـاول الفكـرة مـن رأسها، تابع يقول: أظنك ستقولين إنني سريـع العمـل ولكـن الأمـر كالتـالي: لم أخرج مع فتاة منذ سنة تقريباً وبعد عدة أيام سوف أكون في مركـب يـشق البحـر نحو فرنسا.. وماذا سيحدث بعد ذلـك؟ لـست أدري.. فقـط لبـضعة سـاعات أرجو أن لا تمانعي.. سوف أعتبرها خدمة كبيرة.

- لن أمانع.

- شكراً، أشار إلى يده قبل أن يصلا إلى باب القطار، هيا ضعي ذراعـك في ذراعي أيتها الفتاة المفضلة ثم توقف قليلاً وقال لها بصوت آمر.. نادني «لي».

- .. لي.. قالت له.

- قولي مرحباً يا لي أنا سعيدة لرؤيتك مرة أخرى يا عزيزي.

رددت فرانسي ذلك من ورائه بخجل. أما هو فقد شد ذراعها على ذراعه.

وضع النادل في مطعم روبي وعائين من الطعام الصيني وإبريقاً من الـشاي بينهما.

- صبّي الشاي لي حتى يبدو الأمر أكثر عائلية.

- كم تريد من السكر؟

- أنا أشرب الشاي بدون سكر.

- وكذلك أنا.

- أقول.. إن لدينا أذواقاً متشابهة، أليس كذلك؟

كان الاثنان جائعين.. قرر كلاهما التوقف عن الحديث حتى يتفرغا لالتهام الطعام.. وكلما نظرت فرانسي إليه كان يبتسم وكلما نظر هـو إليهـا كانـت تبتـسم

ابتسامة عريضة. بعد أن أنهيا الطعام وشربا الشاي أسند لي ظهره إلى الوراء وأخرج علبة سجائر.

- أتدخنين؟

هزت برأسها قائلة: لقد جربته مرة ولم يعجبني.

- رائع أنا لا أحب الفتاة التي تدخن.

بعد ذلك انطلق «لي» بالحديث. أخبرها كل ما يمكنه أن يتذكره عن نفسه. أخبرها عن طفولته في تلك البلدة بولاية بنسلفانيا (تذكرت البلدة من خلال قراءتها للصحف في مركز عملها السابق). أخبرها عن أهله وإخوته وأخواته وعن أيام المدرسة وعن الحفلات التي كان يذهب إليها والأعمال التي قام بها. أخبرها أنه في الثانية والعشرين من العمر وأنه انخرط في الجيش في سن الواحد والعشرين، أخبرها عن حياته في معسكرات الجيش وكيف أصبح عريفاً.. أخبرها بكل تفاصيل حياته وكيف تنتظره خطيبته عندما يعود.

كذلك فعلت فرانسي، ولكنها لم تخبره إلا عن ذكرياتها السعيدة.. أخبرته كم كان أبوها وسيماً وأمها حكيمة. أخبرته عن أخيها المغرور نيلي وعن أختها الصغيرة اللطيفة. أخبرته عن الإناء البني على طاولة المكتبة وعن الحديث الذي دار بينها وبين أخيها نيلي على سطح المنزل ليلة رأس السنة. لم تذكر له بن بليك لأنه لم يخطر ببالها أبداً.. وبعد أن انتهت قال لها:

في كل حياتي كنت وحيداً.. كنت وحيداً في الحفلات المزدحمة بالناس، في المعسكر حيث يحيط بي مئات الرجال وفي خضم قبلة لفتاة كنت وحيداً ولكني الآن لم أعد وحيداً أبداً.. ابتسم تلك الابتسامة الخجولة الخاصة به.

- هكذا كان الأمر معي أيضاً ما عدا أنني لم أقبِّل شاباً من قبل والآن ولأول مرة أشعر أنني لم أعد وحيدة أيضاً.

أعاد النادل تعبئة كأسيهما بالماء رغم أنهما كانا مليئين. كانت تلك إشارة إلى أنهما أطالا القعود وأن هناك أناساً ينتظرون خلو الموائد للجلوس. سألت فرانسي لي عن الوقت. كانت الساعة تقترب من العاشرة. لقد أمضيا أربع ساعات وهما جالسان معاً على مائدة الطعام.

- ينبغي أن أعود إلى المنزل. قالت فرانسي بأسف.

- سوف أوصلك إلى هناك. هل تسكنين قريباً من جسر بروكلين؟

- كلا، أنا أعيش في وليامزبيرغ.

- كنت آمل أن يكون مكان سكنك عند جسر بروكلين. كنت أظن أنني إذا أتيت يوماً ما إلى نيويورك فسيحلو لي السير عبر هذا الجسر.

- ولم لا؟ اقترحت فرانسي. يمكنني أن أستقل عربة جادة غراهام من طرف الجسر حيث سأصل مباشرة إلى ناصية منزلي.

استقل الاثنان قطار الأنفاق إلى جسر بروكلين وهناك نزلا وسارا عبر الجسر. في منتصف الطريق توقفا للتأمل في النهر الشرقي. كانا يقفان متلاصقين وكل منهما ممسك بيد الآخر. نظر «لي» إلى الأفق خلف شاطئ مانهاتن.

- نيويورك.. لطالما أحببت أن أراها وها أنا اليوم قد رأيتها.. صحيح ما يقولونه عنها.. إنها أروع مدينة في العالم.

- إن بروكلين أروع منها.

- ولكن لا توجد فيها ناطحات سحاب مثل نيويورك، أليس كذلك؟

- كلا ولكن يوجد فيها إحساس.. آه لا يمكنني أن أفسره لك لأن عليك أن تعيش في بروكلين كي تدرك ذلك الإحساس.

- سوف نعيش في بروكلين يوما ما.. قال بهدوء.. أحست فرانسي بقلبها يتجاوز إحدى نبضاته.

رأت أحد رجال الشرطة الذين يقومون بالدورية على الجسر متجهاً نحوهما.

– لننتقل من هنا.. قالت فرانسي بقلق.. يوجد هناك مرفأ لبحرية بروكلين وهناك حيث يرسو هذا المركب المموه توجد نقليات عسكرية والشرطة يجوبون المنطقة على الدوام بحثاً عن جواسيس.

بينما كان الشرطي يقترب منهما قال لي: لن نقوم بتفجير شيء.. نحن نتأمل النهر الشرقي فقط.

– بالتأكيد.. قال الشرطي، أنا أعلم كيف تكون الأجواء في مثل هذه الليلة اللطيفة من شهر أيار (مايو). لقد كنت شاباً مثلكما وكان هذا في الماضي القريب فقط.

ابتسم لهما فيما رد «لي» الابتسامة، وابتسمت فرانسي لكليهما. نظر الشرطي إلى أكمام لي.

– حسناً.. إلى اللقاء أيها الجنرال، قال الشرطي، أرِهم الجحيم عندما تذهب إلى هناك.

– سوف أفعل ذلك.. وعده «لي» وسار الشرطي في طريقه.

– إنه رجل لطيف، قال «لي» معلقاً.

– كل الناس لطفاء.. قالت فرانسي بسعادة.

عندما وصلا إلى جهة بروكلين من الجسر أبلغته فرانسي أنه ليس مضطراً للسير معها باقي الطريق فلطالما سارت إلى المنزل وحدها في الليل عندما كانت ترجع من عملها الليلي.. قالت له إنه سيضيع إذا حاول العودة إلى نيويورك من مكان سكنها في ضاحية بروكلين لأن شوارع بروكلين مخادعة وعليك أن تعيش هنا حتى لا تضل طريقك.

في حقيقة الأمر، لم تكن فرانسي تريده أن يرى مكان سكناها. كانت تحب ضاحية بروكلين ولم تخجل أبداً من السكن فيها ولكنها شعرت أن الأمر مختلف بالنسبة لشخص غريب لأنه قد يشعر أنه في مكان رث وضيع.

في البداية، أرشدته كيف يستقل قطار العودة إلى نيويورك ثم سارا معاً إلى حيث كان عليها أن تأخذ العربة، مرّا على مشغل للوشم بنافذة واحدة. كان في الداخل بحار شاب يلف أكمامه فوق ذراعيه ويجلس أمام الرسام الذي يخطط الوشم وإلى جانبه صينية مليئة بألوان مختلفة من الحبر. كان يوشم على ذراعه صورة قلب مثقوب بسهم. توقف لي وفرانسي ليراقبا العملية. أشار لهما البحار بيده الحرة ورد الاثنان عليه السلام. نظر الفنان إليهما مشيراً إلى أن بإمكانهما الدخول ولكن فرانسي عبست وأطرقت برأسها قائلة «لا».

ما أن ابتعدا قليلاً عن المحل حتى قال «لي» وأمارات الدهشة في نبرته: يا إلهي هذا الرجل كان يضع وشماً.

– لا تجعلني أمسك بك يوماً ما وأنت تضع وشماً. قالت له مازحة ولكن بلهجة جدية.

– كلا يا أماه أجابها بخنوع.. ضحك الاثنان ثم وقفا عند الناصية ينتظران العربة، ساد بينهما صمت غريب.. وقفا بعيداً عن بعضهما البعض فيما راح «لي» يشعل سيجارة تلو الأخرى ويرميها قبل أن ينهي تدخينها.. أخيراً أطلت إحدى العربات.

– ها قد جاءت عربتي. قالت فرانسي ومدّت له ذراعها قائلة: تصبح على خير يا «لي».

رمى «لي» السيجارة جانباً وكان بالكاد قد أشعلها.

– فرانسي.. مد لها ذراعه. سارت هي نحوه وقبّلها.

في صباح اليوم التالي، ارتدت فرانسي طقمها الأزرق الداكن مع بلوزة بيضاء رقيقة وحذائها الجلدي المخصص ليوم الأحد. لم يكن بينها وبين «لي» أي

موعد ولم تكن قد وضعت أية ترتيبات للقائه مرة أخرى ولكنها كانت تأمل أنه سيكون بانتظارها عند الساعة الخامسة مساءً. نهض نيلي من فراشه فيما كانت على وشك المغادرة وطلبت منه أن يخبر أمها أنها لن تأتي للعشاء.

- وأخيراً عثرت فرانسي على شاب.. عثرت على شاب.. راح نيلي يردد الكلمات على شكل أغنية ثم ذهب إلى لوري التي كانت جالسة في كرسيها العالي قرب النافذة. كان هناك إناءٌ مليء بدقيق الشوفان على الصينية المعلقة بالكرسي. كانت لوري مشغولة بتعبئة دقيق الشوفان في الملعقة وثم رمي محتوياتها على الأرضية.. ربت نيلي على ذقنها بلطف قائلاً:

- أيتها الحمقاء وأخيراً عثرت فرانسي على شاب.

على الطرف الداخلي لحاجب العين الأيمن للوري، ظهر خط خفيف (يدعى خط روميلي مثلما تسميه كاتي) فيما كانت الطفلة ذات السنتين من العمر تحاول فهم ما يقول.

- فرانسي.. قالت لوري بطريقة تبدو فيها الحيرة.

- اسمع يا نيلي. لقد نهضت من الفراش وأعطيتها دقيق الشوفان. إن مهمتك الآن هي أن تطعمها ولا تناديها بالحمقاء.

فيما هي تخرج من مدخل الردهة، سمعت أحداً ينادي باسمها.. نظرت إلى الأعلى وهناك كان نيلي واقفاً على النافذة مرتدياً بيجامته، يغني بصوت عالٍ:

هاهي تنطلق

على أطراف أصابعها

وبكامل أناقتها

في ثياب الأحد

- نيلي إنك شخص رهيب.. رهيب فقط.. نادت عليه فرانسي من الأسفل ولكنه ادعى أنه لم يفهم كلامها.

– هل تقولين إنه رهيب.. هل تقولين إنه له شارب ضخم وإنه أصلع.

– من الأفضل لك أن تذهب وتطعم الطفلة. صاحت فرانسي.

– هل تقولين إنك ستنجبين طفلاً! فرانسي هل تقولين هذا؟

مرّ رجل بجانب الطريق وغمز فرانسي.. كانت هناك فتاتان واقفتان تتضاحكان وقد شبكتا ذراعيهما.

– أيها الولد اللعين. صاحت فرانسي بغضب عاجز.

– أنت تشتمينني. سوف أخبر ماما سوف أخبر ماما راح يكررها وهو يغني.

سمعت فرانسي صوت العربة وهرعت وراءها لتركب. كان «لي» بانتظارها عندما خرجت من عملها.. وقف يستقبلها بتلك الابتسامة الخجولة.

– مرحباً يا فتاتي المفضلة، شبك ذراعه بذراعها.

– مرحباً يا «لي» أنا سعيدة لرؤيتك مرة أخرى.

– عزيزتي.. قالها مكمّلاً.

– يا عزيزي، أكملت فرانسي عبارتها.

ذهبا ليأكلا في الأوتومات وهو مطعم آخر كان يرغب في رؤيته. ولكن لما كان التدخين ممنوعاً في ذلك المطعم، لم يستطع «لي» أن يبقى فيه طويلاً. تناول الاثنان القهوة والحلوى بسرعة وقررا الذهاب للرقص. عثرا على مكان للرقص في برودواي حيث يمنح الجنود أسعاراً خاصة للدخول تصل إلى النصف. اشترى «لي» شريطاً بعشرين تذكرة ثمنه دولار واحد وبدآ يرقصان وقبل أن يصلا إلى منتصف الحلبة، اكتشفت فرانسي أن مظهره السابق أول ما رأته كان خادعاً فقد كان «لي» راقصاً ماهراً ورقيقاً. رقص الاثنان وهما يمسكان ببعضهما البعض عن قرب ولم يحتاجا إلى الكلام أبداً.

كانت الأوركسترا تعزف إحدى الأغنيات المفضلة لدى فرانسي وهي بعنوان:

في صباح يوم أحد
عندما كان الطقس جميلاً
رددت بهمس وراء الجوقة بينما كانت المغنية تقول:
سوف ألبس الثوب القطني
وسأكون عروساً ولا أجمل
شعرت بيد لي تحيط بها فيما المغنية تقول:
أنا أعرف صديقاتي الفتيات
سوف يشعرن بالغيرة مني

كانت فرانسي في منتهى السعادة، رقصت مرة أخرى. وهذه المرة مع أغنية جديدة فيها تكريم للجنود الحاضرين:

وأنت ترتدي الكاكي
ستكون عريساً ولا أجمل

شدّت ذراعها حول كتفه وأراحت وجنتها على سترته. خطرت على بالها تلك الفكرة نفسها التي خطرت على بال كاتي وهي تراقص جوني قبل سبعة عشر عاماً. إنها مستعدة لتقبل أية صعوبات أو تضحيات طالما بقي هذا الرجل إلى جانبها دائماً.. ومثلها مثل كاتي لم تولِ فرانسي أي تفكير للأطفال الذين قد يساعدونها على تجاوز الصعوبات والتضحيات.

كانت هناك مجموعة من العساكر تغادر قاعة الرقص. وكما هي العادة، قطعت الأوركسترا الأغنية التي كانت تعزفها وغنت أنشودة «حتى نلتقي مرة أخرى». توقف الجميع عن الرقص وراحوا يغنون في وداع العسكر.

شبك لي وفرانسي أيديهما وغنّيا معهم دون أن يكونا متأكدين من كلمات الأغنية:

عندما تمر الغيوم
سوف أعود إليك
وعندها ستبدو السماء أكثر زرقة

تعالت صيحات «وداعاً أيها الجندي» «حظاً طيباً أيها الجندي» «حتى نلتقي مرة أخرى أيها الجندي» بعدها وقف الجنود الراحلون صفاً واحداً وأنشدوا الأغنية معاً. سحب «لي» فرانسي باتجاه الباب: سوف نغادر الآن، قال لها لكي تبقى هذه اللحظة مثالية في ذاكرتنا.

نزل الاثنان على الأدراج ببطء يتبعهما صوت الأغنية وانتظرا عند أول الشارع حتى انتهت الأغنية عند مقطعها الأخير:

صلّي من أجلي كل ليلة
حتى نلتقي مرة أخرى

- لتكن هذه الأغنية أغنيتنا.. همس «لي» في أذنها وأرجوك أن تتذكريني كلما سمعتها.

بينما هما يسيران، بدأ المطر ينهمر وكان عليهما أن يركضا ليجدا ملجأً في ممر مغطى أو مخزناً فارغاً. وقف الاثنان في أحد الممرات المعتمة وهما يمسكان بيدي بعضهما البعض ويراقبان المطر.

قالت فرانسي لنفسها: يظن الناس دائماً أن السعادة هي شيء بعيد ومعقد يصعب الحصول عليه. ومع ذلك فكم من الأشياء الصغيرة يمكن أن تصنع السعادة. ملجأ تتقي به المطر، فنجان من قهوة ساخنة عندما تكون بردانا. سيجارة للاسترخاء وكتاب تقرؤه عندما تكون وحدك.. أو أن تكون فقط مع الشخص الذي تحبه.. هذه هي الأشياء التي تصنع السعادة.

- سوف أغادر في الصباح.

- ليس إلى فرنسا.. فجأة شعرت أنها فقدت سعادتها.

- كلا.. إلى منزلي.. إن أمي تريدني أن أبقى معها يوماً أو يومين قبل..

- آه.

- أنا أحبك يا فرانسي.

- ولكنك مخطوب.. هذا ما قلته لي منذ البداية.

- مخطوب قالها بمرارة، كل الناس مخطوبون. في تلك البلدات لصغيرة الجميع يكون مخطوباً أو متزوجاً أو متورطاً.. لا يوجد شيء يفعله الإنسان في البلدات الصغيرة.

يذهب الشاب إلى المدرسة ثم يسير إلى المنزل مع فتاة.. ربما لا لسبب إلا لأنها تسكن إلى جوار منزله.. يكبر الاثنان.. تدعوه الفتاة لحضور حفلة في بيتها.. يذهب إلى حفلات أخرى فيطلب منه الناس أن يحضرها معه ويتوقع منه الجميع أن يوصلها إلى منزلها.. بعد ذلك لا تجد أحداً يخرج معها سوى هو فيظن الجميع أنها فتاته.. حسناً إذا لم يأخذها هنا وهناك يشعر أنه حقير بعد ذلك. ولأنه لا يوجد شيء يفعله يتزوجها. قد تسير الأمور على ما يرام إذا كنت هي فتاة محترمة (معظم الأوقات هي كذلك) وكان الشاب نصف محترم. لا توجد عاطفة قوية بينهما. فقط نوع من الرضا العاطفي ثم يبدأ قدوم الأطفال ويبدأ الاثنان بإعطائهم الحب الذي افتقداه في بعضهما البعض. الأطفال هم الذين يكسبون في نهاية الأمر.

- نعم، أنا مخطوب ولكن الأمر بيني وبينها ليس مثلما هو بيني وبينك.

- ولكنك ستتزوجها.

انتظر طويلاً قبل أن يجيب.

- كلا.

عادت السعادة إلى أسارير وجه فرانسي.

- قوليها.. فرانسي قوليها.

- أنا أحبك يا «لي».

- «فرانسي».. كان في صوته نبرة طارئة.. قد لا أعود من هناك، أنا خائف.. خائف أن أموت.. لم يحصل في حياتي أن قابلت شيئاً مثلك.. هل يمكن أن نبقى قليلاً مع بعض.

- نحن مع بعض.. قالت فرانسي ببراءة.

- أعني في غرفة وحدنا حتى الصباح ومن ثم أغادر.

- لا أستطيع.

- ألا ترغبين؟

- نعم، قالت له بصدق.

- إذن لماذا؟

- أنا في السادسة عشرة من العمر.. اعترفت له بشجاعة لم أكن أبداً برفقة رجل.. ولا أعرف كيف..

- هذا لا يهم.

- كذلك أنا لم أنم خارج البيت ولا ليلة، سوف تقلق أمي.

- يمكنك أن تخبريها أنك قضيت الليلة برفقة صديقتك.

- إنها تعلم أنه ليس لي صديقات.

- يمكنك أن تفكّري بمبرر ما.

- لا أحتاج إلى مبرر. أنا أخبرها دائماً بالحقيقة.

- أتخبرينها.. سألها بدهشة.

أنا أحبك ولن أخجل من ذلك. بعد ذلك إذا بقيت معك فسوف أكون سعيدة وفخورة ولن أحتاج إلى الكذب.

- لم أكن أعرف ذلك.. لم أكن أعرف ذلك. همس وكأنه يهمس لنفسه.

- أنت لا تريد أن يكون الأمر خسيساً أليس كذلك؟

- سامحيني يا فرانسي ما كان ينبغي أن أسألك. لم أكن أعرف ذلك.

- تعرف ماذا؟ سألته فرانسي بحيرة.

وضع ذراعه حولها وضمها إليه بشدة .. كان يبكي.

- يا فرانسي أنا خائف.. خائف إذا ذهبت أن أفقدك ولا أراك مرة أخرى، قولي لي لا تذهب إلى البيت وسوف أبقى لديك غداً وبعد غد.. سوف نأكل معاً ونتمشى معاً، نجلس في المتنزه أو على سقف أحد الحافلات ونتحدث.. قولي لي لا تذهب.

- أظن أن عليك أن تذهب.. الحق هو أن ترى أمك مرة أخرى قبل أن ترحل.. لا أريد ولكن أظن أن هذا هو الصحيح.

- هل تتزوجيني يا فرانسي عندما تنتهي الحرب؟ أو إذا عدت؟

- عندما تعود سوف أتزوجك.

- هل ستفعلين ذلك؟ أرجوك يا فرانسي.. هل ستفعلين ذلك؟

- نعم.

- قوليها مرة أخرى.

- سوف أتزوجك عندما تعود يا «لي».

- وسوف نعيش في بروكلين يا فرانسي.

– سوف نعيش في أي مكان تشاء.

– إذن سوف نعيش في بروكلين.

– فقط إذا رغبت في ذلك يا «لي».

– وستكتبين لي كل يوم؟ كل يوم.

– كل يوم وعدته فرانسي بذلك.

وسوف تكتبين لي الليلة عندما تعودين إلى المنزل وتخبرينني كم تحبينني.. وستكون الرسالة في انتظاري عندما أصل إلى البيت.

وعدته بذلك.

وهل تعدينني أن لا تدعي أحداً يقبّلك وأن لا تخرجي مع أحد وأن تنتظريني.. مهما طال الزمن.. وإذا لم أعد، لا تتزوجي أحداً غيري.

وعدته فرانسي بذلك.

بكل بساطة طلب منها أن تكرّس حياتها له تماماً كما يطلب موعداً.

وعدته فرانسي بأن تهبه حياتها بكل بساطة وكأنها تمد يدها في سلام أو وداع.

بعد قليل توقف المطر وعادت النجوم إلى الظهور.

53

كتبت فرانسي، كما وعدت لي، رسالة طويلة صبّت فيها كل حبها وأعادت ذكر الوعود التي قطعتها. في اليوم التالي غادرت باكراً إلى العمل حتى تجد الوقت الكافي لإرسال الرسالة من مكتب بريد شارع 34. أكد لها الموظف هناك أن الرسالة ستصل هدفها عصر اليوم نفسه. كان ذلك اليوم هو الأربعاء.

رغم أنها لم تكن تتوقع أية رسالة ليلة الخميس إلا أنها مرت لتلقي نظرة على البريد. لا يوجد متسع من الوقت لوصول رسالة من طرفه ما لم يكن قد أرسلها فوراً ساعة فراقهما. بالطبع عليه أن يجهز أمتعته وربما يستيقظ باكراً ليلحق القطار (لم يخطر على بالها أنها هي نفسها وجدت وقتاً لكتابة رسالة). لم تجد أية رسالة في البريد ليلة الخميس.

أمضت فرانسي يوم الجمعة في العمل طوال النهار. امتدت مناوبتها على مدى ست عشرة ساعة، إذ لم يكن هناك عدد كافٍ من الموظفين نتيجة وباء الإنفلونزا الذي ضرب البلاد. وصلت إلى المنزل بعد العمل في الساعة الثانية صباحاً. كانت هناك رسالة لها في إناء السكر الموضوع على طاولة الطبخ. مزقت الغلاف بحماس وقرأت على رأس الرسالة: عزيزتي الآنسة نولان.. ذبلت فرحتها لأن لي لا يمكن أن يبدأ الرسالة هكذا بل قد يبدؤها بعزيزتي فرانسي. ولكنها حين قلبت الصفحة ونظرت إلى التوقيع قرأت: إليزابيث راينور.. آه إنها أمه أو

حماتها.. ربما كان «لي» مريضاً ولم يستطع الكتابة. أو ربما هناك قانون في الجيش يمنع الجنود الذاهبين للقتال وراء البحار من كتابة الرسائل. ربما طلب من أحد أن يكتب له.. لعل هذه هي الحقيقة. بدأت تقرأ:

– لقد حدثني لي عنك. أريد أن أشكرك لأنك كنت لطيفة وودودة معه في نيويورك. لقد وصل إلى المنزل عصر يوم الأربعاء ولكنه اضطر إلى المغادرة للمعسكر في الليلة التالية. لم يقضِ في المنزل سوى يوم ونصف. كان العرس هادئاً، لم يحضره سوى عائلتينا وبعض الأصدقاء..

نحّت فرانسي الرسالة جانباً.. لقد كنت أعمل لمدة ست عشرة ساعة متواصلة ولا بد أني متعبة جداً. لقد قرأت آلاف الرسائل اليوم ولا يبدو أن للكلمات معنى الآن. على أية حال لقد اكتسبت عادات سيئة في القراءة خلال عملي السابق في مركز القصاصات. كنت أقرأ عموداً كاملاً ولا أرى إلا كلمة فيه. عليّ أولاً أن أغسل النوم من عيني وأحتسي بعض القهوة ثم أقرأ الرسالة مرة أخرى. وهذه المرة سأقرؤها بشكل صحيح.

وضعت فرانسي القهوة على النار وغسلت وجهها وهي تفكر: لا بد أن الكلمات التي تلي كلمة العرس في الرسالة ستكون «كان الإشبين هو لي. لقد زوجنا أخاه.. أو شيئاً من هذا القبيل».

في غرفة نومها، سمعت كاتي صوت فرانسي وهي تجول في المطبخ. انتظرت بقلق وهي تسائل نفسها.. ما الذي أنتظره؟

قرأت فرانسي الرسالة مرة أخرى:

العرس.. فقط العائلتين وبعض الأصدقاء.. طلب مني لي أن أكتب لك هذه الرسالة وأشرح فيها لماذا لم يرد على رسالتك. على أي حال أشكرك كثيراً لأنك رفهّت عنه بشكل رائع عندما كان في نيويورك.

التوقيع المخلصة إليزابيث راينور

كان هناك هامش تحت التوقيع:

لقد قرأت الرسالة التي بعثتها إلى لي. لقد تصرف بشكل حقير حين ادعى أنه يحبك وقد أخبرته بذلك فأوصاني أن أخبرك أنه يأسف بشدة.
إليزابيث راينور

كانت فرانسي ترتجف بشدة حتى إن أسنانها كانت تصطك وتصدر أصواتاً.

– ماما، نادت وهي تئن.. ماما.

سمعت كاتي القصة.. لقد جاء الوقت أخيراً، فكرت في داخلها.. الوقت الذي لن تعود فيه قادراً أن تحول بين أطفالك وبين حرقة القلب. عندما لم يكن في البيت طعام كنت أدعي أنني لا أشعر بالجوع حتى يتسنى لهما الحصول على المزيد. وفي ليالي الشتاء الباردة كنت أنهض من فراشي وأعطيهما ببطانيتي حتى لا يشعرا بالبرد. كنت سأقتل كل من يحاول أن يؤذيهما.. لقد حاولت كل جهدي أن أقتل ذلك الرجل في الممر ثم وفي يوم مشمس يغادرونك بكل براءة ويدخلان بنفسيهما في ذلك الأسى الذي أمضيت حياتك وأنت تحاول أن تجنبهما إياه.

أعطتها فرانسي الرسالة.. قرأتها كاتي ببطء وفيما هي تقرأ شعرت أنها أدركت الأمر. فها هو شاب في الثانية والعشرين، وله في الحياة تجربة (كما تقول سيسي) وها هي فتاة في السادسة عشرة، أصغر منه بست سنوات رغم كونها تضع أحمر الشفاه وترتدي ثياباً أكبر منها وتعرف أشياء كثيرة التقطتها هنا وهناك، ما زالت في منتهى البراءة. فتاة جاءت وجهاً لوجه أمام أكبر شر في العالم وأصعبه ومع ذلك حافظت على نفسها ولم يستطع هذا الشر أن ينال منها.. نعم بإمكانها الآن أن تدرك سبب إعجاب فرانسي به.

حسناً.. ماذا عساها تقول.. إنه لم يكن شاباً سوياً أو أنه في أفضل الأحوال كان ضعيفاً، عرضة لأي شيء. كلا لن تحكم عليه بمثل هذه القسوة.. وكذلك فإن فرانسي لن تصدقها..

قولي شيئاً ناشدتها، فرانسي لماذا لا تقولين شيئاً؟

– ماذا عساي أقول؟

– قولي إني ما أزال صغيرة وأني سوف أجتاز هذه المحنة.. هيا قوليها واكذبي عليّ.

– أنا أعلم أن هذا ما يقوله الناس وأنك سوف تجتازين هذه المحنة. وأنا أقولها أيضاً ولكني أعلم أنها ليست الحقيقة. آه سوف تعودين سعيدة مرة أخرى، لا تخافي ! ولكنك لن تنسي هذه الحادثة وفي كل مرة ستقعين فيها بالحب سيكون هناك شيء في الرجل سيذكرك به.

– أماه ...

أماه... تذكرت كاتي كيف كانت تنادي أمها هكذا إلى أن جاء اليوم الذي أخبرتها فيه أنها ستتزوج جوني. قالت لها: أماه.. سوف أتزوج.. وبعد ذلك لم تعد تناديها ماما أبداً. لقد كبرت بما فيه الكفاية حتى تنادي «ماما» والآن جاء دور فرانسي.

– أماه.. لقد طلب مني أن أمضي الليلة معه. هل كان ينبغي لي أن أفعل ذلك؟

زاغ ذهن كاتي وهي تبحث عن كلمات.

– لا تصيغي كذبة يا أماه قولي لي الحقيقة.

لم تستطع كاتي العثور على الكلمات المناسبة.

– أنا أعدك أني لن أذهب مع أي رجل ما لم أتزوجه.. هذا إذا تزوجت وإذا شعرت أني مضطرة لذلك دون زواج فسوف أخبرك أولاً. هذا وعد صادق لذلك أرجوك أن تقولي الحقيقة دون أن تخشي أني قد أرتكب خطأً أو أقع في زلة لو عرفتها.

أخيراً استطاعت كاتي أن تجمع أفكارها وتقول:

- هناك حقيقتان وليس حقيقة واحدة.

أنا أقول، كأم، إن قيام ابنتي بالنوم مع شخص غريب هو أمر رهيب.. وأعني هنا رجلاً لم تعرفه إلا منذ ثمان وأربعين ساعة. كان يمكن أن تحصل لك أشياء رهيبة مرعبة، تدمر حياتك.. أقول لك هذه الحقيقة كأم.

ولكن، كامرأة.. ترددت قليلاً ثم أردفت.. سوف أقول لك الحقيقة كامرأة كان يمكن أن يكون الأمر رائعاً لأن الحب بهذه الطريقة لن تريه إلا مرة واحدة.

فكرت فرانسي.. كان لا بد أن أذهب معه إذن. أنا لن أحب أحداً مثله مرة أخرى.

لقد أردت أن أذهب معه ولكني لم أفعل. والآن لا أريده بهذه الطريقة لأن هناك امرأة أخرى تمتلكه. ولكني أردت ذلك ولم أفعل والآن لقد تأخرت. وضعت رأسها على الطاولة وراحت تبكي.

بعد فترة قالت كاتي: أنا لدي رسالة أيضاً.

كانت رسالتها قد وصلت قبل عدة أيام ولكنها كانت تنتظر الوقت المناسب لتذكرها وقد قررت أن الوقت أصبح مناسباً الآن.

- لقد وصلتني رسالة.. كررت كاتي.

- من.. من كتبها. قالت فرانسي وهي تجهش بالبكاء.

- السيد ماكشين.

علا بكاء فرانسي:

- ألست مهتمة.

حاولت فرانسي التوقف عن البكاء.. حسناً ماذا يقول فيها..سألت بفتور.

- لا شيء سوى أنه قادم لرؤيتنا في الأسبوع القادم.. انتظرت كاتي قليلاً ولكن فرانسي لم تبدِ أي اهتمام فعادت كاتي للحديث وسألتها.

- ما رأيك بالسيد ماكشين كأب لك؟

ارتعش رأس فرانسي وصاحت: أماه.. يكتب لك رجل رسالة يقول فيها إنه قادم إلى منزلك، وبسرعة تخطر على بالك مثل هذه الأفكار.. ما الذي يجعلك تظنين أنك تعرفين كل شيء طوال الوقت؟

- أنا لا أعرف.. أنا لا أعرف شيئاً في الحقيقة، ولكني أستشعر وعندما يكون الشعور قوياً بما فيه الكفاية أقول عندها فقط إنني أعرف ولكني لا أقول ذلك الآن.. أسألك فقط.

ما رأيك فيه كأب؟

- بعد هذا العمل الأخرق الذي أفسدت فيه حياتي، قالت فرانسي بمرارة (ولم تبتسم كاتي).. فإني آخر شخص ينبغي أن تطلبي منه نصيحة.

- أنا لا أسألك نصيحتك ولكني فقط سأعرف كيف أتصرف بشكل أفضل إذا ما عرفت شعور أولادي تجاهه.

شكّت فرانسي في أن حديث أمها عن ماكشين هو خدعة لتبعد عنها أفكارها وشعرت بالغضب لأن الخدعة فعلت مفعولها تقريباً.

- لا أعرف يا أماه.. لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أتحدث عن أي شيء. أرجوك أن تذهبي وتتركيني وحدي.

عادت كاتي إلى فراشها.

حسناً.. يمكن للإنسان أن يبكي مطولاً ولكن عليه في النهاية أن يملأ وقته بشيء ما. كانت الساعة قد قاربت الخامسة صباحاً. قررت فرانسي أن لا فائدة من النوم لأن عليها أن تنهض عند الساعة السابعة. اكتشفت أنها تشعر بجوع شديد

إذ إنها لم تتناول أي طعام منذ فترة ظهيرة اليوم السابق، ما عدا ساندويش بين فترة عمل الصباح والمساء.

سخنت بعض القهوة وحمّصت قطعة خبز ووضعت بيضتين في المقلى. دهشت لأن الطعام بدا لها رائعاً ولكن وفيما هي تتناول طعامها حانت منها التفاتة إلى الرسالة وسالت الدموع من عينيها مرة أخرى. رمت الرسالة في المجلى وأشعلت فيها النار ثم فتحت الصنبور وراقبت الرماد وهو يسقط في المصرف ثم تابعت تناول إفطارها.

بعد ذلك أحضرت ورقة رسائل من الخزانة وجلست على الطاولة وكتبت ما يلي:

عزيزي بن:

لقد قلت لي أن أكتب لك إذا احتجتك يوماً وها أنا الآن أكتب..

مزقت الورقة نصفين ثم صاحت:

كلا لا أريد أن أحتاج لأحد. أريد أحداً يحتاج لي، كررت ذلك مرتين ثم بكت ولكن بكاءها كان خفيفاً هذه المرة.

54

كانت هذه أول مرة ترى فيها فرانسي ماكشين دون بزته الرسمية. قررت أنه شخص يترك انطباعاً رائعاً في قلب من يراه وخاصة بهذه البذلة الرمادية الثمينة التي يرتديها. بالطبع لم يكن بوسامة بابا ولكنه كان أطول وأضخم جثة كما أنه كان وسيماً بطريقته الخاصة رغم الشيب الذي بدأ يغزو رأسه. ولكن يا إلهي إنه كبير السن بالنسبة لأمي، صحيح أن أمي لم تعد شابة تماماً فهي تدخل الآن في سن الخامسة والثلاثين ولكن هذا أقل بكثير من سن الخمسين. على أية حال لا يجب لأي امرأة أن تخجل من كون ماكشين زوجها. فعلى الرغم من كونه سياسياً حاذقاً إلا أنه يتحدث دائماً بصوت لطيف.

كانوا يتناولون القهوة والكعك. شعرت فرانسي بغصة عندما لاحظت أن ماكشين يجلس في مقعد والدها على الطاولة. كانت كاتي قد أنهت للتو إبلاغه عما حدث منذ وفاة جوني. وبدا أن ماكشين قد دهش للتقدم الذي أحرزته العائلة. نظر إلى فرانسي قائلاً:

- إذن هذه الفتاة الصغيرة استطاعت أن تدخل الكلية في الصيف الماضي.

- وستعود إلى الكلية هذا الصيف. قالت كاتي بصوت فخور.

- هذا رائع.

- كما أنها تعمل الآن وتحصل على 20 دولاراً أسبوعياً.

- كل هذا وما تزال في صحة جيدة؟ سأل ماكشين بدهشة صادقة.

- كما أن نيلي قد أكمل نصف المرحلة الثانوية.

- لا؟

- وهو يعمل هنا وهناك في فترات العصر والمساء. أحياناً يحصل على خمسة دولارات أسبوعياً من عمله خارج المدرسة.

- إنه شاب طيب.. بل من أطيب الشباب. وانظري إلى صحته !

تساءلت فرانسي لماذا يعلق كثيراً على مسألة الصحة وهو أمر يسلمّون هم بها جدلاً. ولكنها تذكرت أطفاله وكيف أن معظمهم كانوا يولدون ويموتون قبل أن يكبروا.. لا عجب أنه ينظر إلى مسألة الصحة كشيء هام.

- والطفلة؟ سأل ماكشين.

- اذهبي واحضريها يا فرانسي. قالت كاتي.

كانت الطفلة في سريرها في الغرفة الأمامية التي كان من المفترض أن تكون غرفة فرانسي ولكن الجميع اتفق على أن الطفلة بحاجة لأن تنام في غرفة حسنة التهوية. حملت فرانسي الطفلة. كانت نائمة ولكنها فتحت عينيها فجأة وبدت مستعدة لأي شيء.

- باي باي فرانسي.. المتنزه المتنزه، سألتها.

- كلا يا عزيزتي فقط نريد أن نعرفّك على رجل.

- رجل؟ سألت لوري بتشكك.

- نعم رجل كبير وعظيم.

– رجل كبير، رددت الطفلة بسعادة.

أحضرت فرانسي الطفلة إلى المطبخ.. كانت لوري بالفعل طفلة جميلة يسعد الإنسان أن يراها. كان مظهرها يبدو جميلاً ونديّاً في ثوب النوم الزهري اللون. كما كان شعرها الأسود مجدلاً وعيناها السوداوان لامعتين. وخداها يغمرهما اللون الأحمر الداكن.

– آه، الطفلة الطفلة، دندن ماكشين. إنها وردة.. وردة برية.

– لو أن أبي كان هنا.. قالت فرانسي لنفسها لبدأ يغني «يا وردتي الإيرلندية البرية». سمعت أمها تتنهد وتساءلت إذا كانت هي أيضاً تفكر بالأمر نفسه.

حمل ماكشين الطفلة وأجلسها على ركبتيه ولكنها شدت ظهرها إلى الوراء قليلاً وحدقت فيه بشك.. تمنت كاتي لو أنها لا تبدأ بالبكاء.

– لوري، قالت لها.. السيد ماكشين قولي السيد ماكشين.

خفضت الطفلة رأسها ونظرت إلى الأعلى ثم ابتسمت وهزت رأسها وقالت: «لا».

– لا.. رجل.. صاحت بانتصار.. «رجل كبير» ابتسمت لماكشين ثم قالت بتملق.. خذ لوري باي باي.. إلى المتنزه إلى المتنزه.. ثم أراحت خدها على معطفه وأغمضت عينيها ثم نامت بين ذراعيه.

بعد حين تكلم السيد ماكشين قائلاً:

أظن أنك تتساءلين أيتها السيدة نولان لماذا جئت هنا الليلة. أرجو أن أريحك من التساؤل فأنا جئت لأسألك سؤالاً شخصياً.. نهض نيلي وفرانسي استعداداً للخروج ولكن ماكشين سارع إلى القول: أرجو أن لا تغادرا فهذا السؤال يخصكما بالقدر الذي يخص أمكما. عاد الاثنان إلى الجلوس فيما بلع ماكشين ريقه وتابع حديثه قائلاً:

– يا سيدة نولان لقد مضى وقت طويل منذ وفاة زوجك رحمه الله.

– نعم سنتان ونصف رحمه الله.

– رحمه الله، رددت فرانسي ونيلي.

– وأنا كذلك، لقد مضى على وفاة زوجتي رحمها الله سنة كاملة.

– رحمها الله، ردد آل نولان.

لقد انتظرت سنين طويلة وأجد أن الوقت الآن مناسب لكي أتحدث دون أن يكون في حديثي قلة احترام للأموات.

– يا كاثرين نولان أنا أطلب أن أكون زوجك.. وأن نتزوج في الخريف.

نظرت كاتي نظرة خاطفة إلى فرانسي وعبست.. ماذا جرى لأمي على أية حال.. لم تكن فرانسي تفكر حتى في الضحك.

تابع السيد ماكشين:

أنا في وضع يمكنني أن أعتني بك وبأطفالك الثلاثة. لدي راتب تقاعدي ودخل يأتيني من عقارات أملكها في وودهافين وريتشموند هيل كما أن دخلي يتعدى العشرة آلاف دولار سنوياً ولديّ تأمين أيضاً. أنا أعرض عليك أن أدخل الشاب والفتاة في الكلية وأعدك أن أكون زوجاً مخلصاً في المستقبل كما كنت في الماضي.

– هل فكّرت في هذا جيداً يا سيد ماكشين؟

– لا أحتاج إلى التفكير.. لقد فكرت في الأمر منذ خمس سنوات عندما رأيتك في نزهة ماهوني. حينها سألت الفتاة إذا كنت أنت أمها.

– أنا امرأة خادمة وغير متعلمة.. قالت كاتي ذلك من باب الاعتراف بالحقيقة وليس من باب الاعتذار.

– تعليم ! من علمني الكتابة والقراءة.. لقد تعلمتها بنفسي.

– ولكن رجلاً مثلك له حياة عامة يحتاج إلى امرأة تتقن العمل الاجتماعي ويمكنها أن تنسجم مع أصدقائه المتنفذين ورجال الأعمال.. أنا لست من هذا النوع من النساء.

– إن مكان الانسجام والترفيه هو المكتب ولكن منزلي هو المكان الذي أعيش فيه. والآن أنا لا أقول إنك لن تكوني مكسباً لي. أنت مكسب لرجل أفضل. أنا لست بحاجة إلى امرأة تساعدني في عملي. بإمكاني أن أدير عملي بنفسي.. شكراً لك.

هل ينبغي أن أقول لك إني أحبك.. تردد قليلاً قبل أن يناديها باسمها الأول.. يا كاثرين وأنا أريدك أن تفكري بالأمر.

– أنا لا أحتاج للتفكير.. سوف أتزوجك يا سيد ماكشين.. ليس من أجل دخلك، مع أنني لا أتجاهل ذلك. إن عشرة آلاف دولار هي نقود كثيرة ولكن ألف دولار هي كذلك بالنسبة لقوم مثلنا.

لقد كان لدينا القليل من المال وقد تعلمنا أن نعيش بدونه. كما أني لن أتزوجك لأنك تريد إدخال أولادي إلى الكلية. إن مساعدتك لنا ستجعل الأمور أسهل رغم أن بإمكاننا تدبير الأمر ببعض الصعوبة. كذلك لا يتعلق الأمر بكونك شخصية عامة مرموقة رغم أن هذا الأمر يدعو للفخر كوني زوجة لرجل مثل هذا.. ولكني سأتزوجك لأنك رجل طيب ولأني أرغب في أن تصبح زوجاً لي.

كان هذا صحيحاً. فقد عقدت كاتي العزم على الزواج منه، في حال طلب منها ذلك.. لأن الحياة بكل بساطة لا تتم بدون وجود رجل يحبك. لم يكن للأمر أية علاقة بحبها لجوني.. فهي سوف تحبه دائماً ولكن شعورها نحو ماكشين كان أهدأ. كان شعور إعجاب واحترام وكانت تعلم أنها ستكون زوجة مناسبة له.

– شكراً يا كاثرين. بالطبع إن ما قلته هو القليل بالنسبة لزوجة شابة وجميلة مثلك وثلاثة أطفال رائعين.. قال ذلك بتواضع صادق رزين ثم التفت إلى فرانسي.

– كونك الأكبر سناً هل توافقين؟

نظرت فرانسي إلى أمها التي بدت وكأنها تنتظر جوابها ثم نظرت إلى أخيها وأومأت بالإيجاب.

– أظن أني وأخي نرغب في أن تكون لنا.. انهمرت الدموع من عينيها عندما فكّرت بأبيها ولم تستطع أن تتابع حديثها.

– والآن والآن. قال ماكشين بلطف وهو يحاول تهدئتها.. لا أريدك أن تقلقي.. ثم التفت إلى كاتي وتابع قائلاً:

– أنا لا أطلب من الكبار أن ينادوني «أبي». لقد كان لهما أب من أروع ما خلق الله من رجال.. الطريقة التي ظل يغني فيها دائماً.

شعرت فرانسي بضيق في حلقها.

– ولا أطلب منهما أن يحملا اسمي أيضاً. إن نولان اسم رائع.

ولكن هذه الطفلة الصغيرة التي أحملها والتي لم تنظر إلى وجه أبيها.. هل تسمحون لها أن تناديني بابا وأن أتبناها وأعطيها الاسم الذي سنحمله معاً.. أنا وأنت يا كاتي.

نظرت كاتي إلى فرانسي ويلي.. كيف سيتقبلان أن تحمل أختهما اسم ماكشين بدلاً من نولان.. أومأت فرانسي برأسها إيجاباً وتبعها نيلي.

– سوف نعطيك الطفلة. قالت كاتي.

– لن نناديك «يا أبي»، قال نيلي فجأة، ولكن ربما نناديك بابا أحياناً.

– أشكركم.. قال ماكشين ببساطة.. شعر بالارتياح وابتسم لهم قائلاً: والآن أتساءل إذا كان بإمكاني تدخين غليوني.

– لماذا؟ كان بإمكانك أن تدخن في أي وقت تشاء دون أن تسأل. قالت كاتي بدهشة.

– لم أكن أريد أن أستغل أية امتيازات دون أن أكون مـؤهلاً لـذلك. شرح ماكشين الأمر.

سحبت فرانسي الطفلة من حضنه حتى يتسنى لـه أن يـدخن غليونـه ثـم قالت لنيلي:

– ساعدني كي أضعها في الفراش.

– لماذا.. كان نيلي مستمتعاً بوقته ولم يرغب في المغادرة.

– ساعدني على توضيب البطانية في الفراش. على أحد أن يفعل ذلـك بيـنما أنا أحملها.

قالت فرانسي لنفسها: ألا يعلم نيلي شيئاً؟ ألا يعلم أن السيد ماكشين وأمي ربما يريدان أن يختليا بنفسهما دقيقة على الأقل.

في ظلمة الغرفة الأمامية همست فرانسي لأخيها قائلة:

– ماذا تعتقد؟

– إنها فرصة طيبة لأمنا. بالطبع هو ليس أباً لنا.

– لن يكون أحد أباً لنا ولكنه رجل طيب أليس كذلك؟

– إن لوري ماكشين.. لن تعاني تلك الأزمات الصعبة التي عانيناها.

– كلا، ولكنها لن تجد المتعة التي تمتعناها أيضاً.

– يا إلهي لقد تمتعنا كثيراً، أليس كذلك يا نيلي.

– نعم.

– المسكينة لوري. قالت فرانسي مشفقة.

الكتاب الخامس

55

قفزت فرانسي فيما كان أحدهم يربت على كتفها.. ثم استرخت قليلاً وابتسمت.. بالطبع كانت الساعة الواحدة صباحاً. لقد جاء دور المناوبة التالية على الآلة وحان وقت خلاصها.

– دعيني أرسل واحدة أخيرة. توسلت فرانسي.

– لا أفهم كيف أن هناك أشخاصاً يحبون عملهم.

قالت الفتاة الأخرى التي جاءت لتحل محلها.

طبعت فرانسي الرسالة الأخيرة ببطء وشغف. كانت سعيدة كونها رسالة تنبئ عن ولادة وليس عن وفاة.. كانت الرسالة رسالة وداعها. لم تخبر أحداً أنها ستغادر بل كانت تخشى أن يتحطم قلبها وتبكي إذا ودّعت أحداً. مثلها مثل أمها التي كانت تخشى أن تظهر عاطفتها علناً.

بدلاً من أن تتوجه مباشرة إلى خزانتها، توقفت عند غرفة الاستراحة حيث كانت هناك فتيات يقضين فترة راحة الخمس عشرة دقيقة. وهن متحلقات حول فتاة تعزف على البيانو وتغني «مرحباً.. أيها المركزي.. أعطني الأرض الحرام..».

بينما كانت فرانسي على وشك دخول القاعة، انتقلت المغنية إلى أغنية أخرى استوحتها من ثوب فرانسي الرمادي وحذائها الرمادي أيضاً وغنّت الفتيات معها. هناك صديق في بلدة الأصدقاء. وضعت إحدى الفتيات ذراعها حول فرانسي وسحبتها نحو الحلقة كي تغني معهن:

«في عمق قلبها أنا أعلم أنها ليست بطيئة».

– فرانسي.. من أين جئت بفكرة ارتداء مثل هذا الطقم الرمادي الكامل؟

– أوه لا أعرف.. ربما من إحدى الممثلات التي رأيتها عندما كنت صغيرة. لا أذكر اسمها ولكن العرض كان بعنوان:

عشيقة القس.

– إنه رائع.

تابعت الفتيات الغناء:

«كانت تحمل تلك النظرة: «قابلني فيما بعد»

صديقتي الصغيرة في بلدة الأصدقاء».

أنهت الفتيات الأغنية ثم بدأن بأغنية أخرى عنوانها:

سوف تعثر على ديكسي لاند في فرنسا

ذهبت فرانسي لتقف إلى جانب النافذة الكبيرة حيث يمكنها رؤية البناية ذات الأدوار العشرين على ضفة النهر الشرقي. كانت هذه هي المرة الأخيرة التي سترى فيها النهر من النافذة. المرة الأخيرة لأي شيء يحمل حدة الموت نفسه. هذا الذي أراه الآن.. لن أراه بهذه الطريقة بعد الآن.. آه المرة الأخيرة التي ترى فيها الأشياء كلها بوضوح وكأنما تسلط عليها ضوء مكبِّر. وأنت تحزنين لأنك لم تستطيعي أن تمسكي بها بشكل أشد عندما كانت تقف أمامك كل يوم.

ما الذي قالته ماري روميلي.. أن تنظر إلى كل الأشياء دائماً وكأنك تراها للمرة الأولى أو الأخيرة.. هكذا يكون زمنك على الأرض مفعماً بالمجد.

جدتي ماري روميلي.

لقد تحملت مرضها الأخير لعدة أشهر ولكن الوقت جاء عندما حضر ستيف ليخبرهم قبيل الفجر.

- سوف أفتقدها. قال لهم: لقد كانت سيدة رائعة.

- أتعني امرأة رائعة. قالت كاتي.

لماذا؟ تساءلت فرانسي بحيرة، اختار العم ويلي هذا الوقت ليهجر عائلته.. راقبت مركباً ينزلق على الماء تحت الجسر قبل أن تستعيد أفكارها. هل كان لا بد من أن تنقص عائلة روميلي امرأة ليشعر بحرية أكثر؟ هل أعطاه موتها فكرة وجود شيء اسمه الهرب وأنه قادر من خلال حقارته أن يستغل الفوضى التي طرأت خلال جنازة الجدة ليهرب من عائلته؟ مهما حدث فإن ويلي قد ولّى.

ويلي فليتمان.

لقد تدرب بشدة حتى استطاع أن يعزف على جميع الآلات مرة واحدة ثم وكفرقة مؤلفة من رجل واحد راح يتنافس مع الآخرين في دار للسينما ضمن عرض للهواة.. نال الجائزة الأولى وقيمتها عشرة دولارات.

لكنه لم يعد إلى البيت لا بالجائزة ولا بالآلات ولم يره أحد من عائلته منذ ذلك الحين.

كانوا يسمعون عنه بين الحين والآخر. بدا وكأنه يتجول في شوارع بروكلين كفرقة مؤلفة من رجل واحد ويقتات على النقود التي يجمعها. قالت إيفي إنه سيعود إلى البيت عندما يبدأ الثلج بالهطول ولكن فرانسي كانت تشكك في كلامها.

حصلت إيفي على عمل في أحد المصانع التي كانت تعمل بها سابقاً. وكانت تجني ثلاثين دولار أسبوعياً. سارت أمورها على ما يرام ما عدا ليلة

واحدة عندما - مثلها مثل جميع فتيات آل روميلي - وجدت صعوبة في البقاء بدون رجل.

فيما كانت فرانسي تتأمل النهر من النافذة، تذكرت كيف أن العم ويلي كان دائماً محاطاً بشيء شبيه بالأحلام بالنسبة لها. ذلك الرجل الذي حاول الاعتداء عليها في ممر الردهة لم يكن حلماً بالتأكيد. ولكن الطريقة التي انتظر فيها ماكشين أمي طوال هذه السنين كانت حلماً.. أبي ميت.. كل هذا مرّ مثل حلم طويل ولكنه الآن يبدو وكأنه لم يكن له وجود. الطريقة التي كانت فيها لوري تستفيق من حلمها.. طفلة ولدت بعد وفاة أبيها بخمسة أشهر. بروكلين كانت حلماً. كل الأشياء التي حصلت هناك لم تكن لتحصل.. كان الأمر كله حلماً أو ربما أنه كان حقيقة وأن فرانسي نفسها هي الحلم.

حسناً.. سوف تعرف ذلك عندما تصل إلى ميشيغان. إذا كان الشعور بالحلم هذا سيبقى معها في ميشيغان فإنها ستعرف حينئذ أنها هي التي كانت تحلم.

آن آربور حيث تقف جامعة ميشيغان. خلال يومين ستكون على متن القطار المتوجه إلى آن آربور. انتهت المدرسة الصيفية وتمكنت من النجاح في الأربعة مواضيع التي اختارتها ومن خلال حشوها بالمعلومات التي قدّمها بن تمكنت من النجاح في امتحانات الدخول إلى الكلية أيضاً. كان هذا يعني أنها وفي سن السادسة عشرة ونصف تستطيع دخول الكلية وقد أنهت نصف متطلبات السنة الأولى.

أرادت أن تلتحق بجامعة كولومبيا في نيويورك أو أدلفي في بروكلين ولكن بن قال لها إن جزءاً من التعليم يشمل التكيف مع بيئة جديدة. وافقت أمها وماكشين بأن تذهب إلى جامعة بعيدة وكذلك نيلي الذي شجعها على ذلك لكي تتخلص من لهجة بروكلين. ولكن فرانسي لم ترغب بأن تتخلص من تلك اللهجة مثلما لم ترغب بأن تتخلص من اسمها. فهذه اللهجة تعني أنها تنتمي إلى مكان ما.

إنها فتاة من بروكلين تحمل اسماً من بروكلين ولهجة من بروكلين. لم ترغب بأن تتغير إلى شيء من هذا وشيء من ذاك.

اختار بن جامعة ميشيغان لها وقال إنها جامعة حكومية تحررية توجد فيها كلية جيدة للغة الإنكليزية كما أن أقساطها منخفضة. تساءلت فرانسي إذا كانت الجامعة جيدة لهذه الدرجة فلماذا لم يدرس بن فيها بدلاً من أية جامعة أخرى في ولايات الغرب الأوسط. ولكن بن برّر ذلك بأنه في نهاية الأمر سوف يعمل في هذه الولاية ويدخل في سياستها وقد يكون زميلاً في الدراسة لبعض من ألمع مواطنيها في المستقبل.

أصبح بن الآن في سن العشرين. سجّل في هيئة تدريب ضباط الاحتياط في كليته وبدا أنيقاً جداً في بزته العسكرية.

- بن.

نظرت إلى الخاتم في الإصبع الثالث من يده اليسرى. إنه خاتم التخرج من المدرسة الثانوية. كان على الخاتم أحرف تختصر اسم المدرسة وتاريخ التخرج 1918 وفي الداخل كان محفوراً من ب.ب إلى ف.ن. قال لها إنه بينما كان يستطيع أن يفهم عقليتها، كانت هي أصغر من أن تفهم عقليته. قدم لها الخاتم هدية كرمز للربط بين تفهمهما لبعضهما البعض. بالطبع قد تمضي خمس سنوات قبل أن يكون بن في وضع ليتزوج، قال لها: خلال ذلك الوقت ستكونين كبيرة بما يكفي لتفهمي عقليتك. حينها إذا كان ما يزال هناك مجال للتفاهم فإنه سيقدم لها خاتماً من نوع آخر. وهكذا ولما كان لدى فرانسي خمس سنوات لتقرر فإن مسؤولية أخذ قرار بالزواج أو عدم الزواج من بن لم تكن أمراً يثقل كاهلها. مدهش هذا الشاب بن.

فقد تخرج من المدرسة الثانوية في يناير/ كانون الثاني 1918 ودخل الكلية مباشرة حيث سجّل في عدة مواد مذهلة وعاد إلى الكلية الصيفية في بروكلين

ليكمل دراسة مواد أخرى ولكي يرى فرانسي مرة أخرى.. كما اعترف والآن نحن في شهر أيلول (سبتمبر 1918) وها هو يعود إلى الكلية ليبدأ سنته الثالثة.

بن الطيب!

كان بن شاباً محترماً خلوقاً ولامعاً، يعرف عقليته تماماً فهو لن يطلب الزواج من فتاة ثم يذهب ليتزوج واحدة أخرى في اليوم التالي. لم يطلب منها أن تكتب له عن حبها ومن ثم يترك قراءة الرسالة لشخص آخر.. ليس بن ليس بن.. إنه شاب رائع وكم كانت فرانسي فخورة بصداقته ولكنها فكرت بـ «لي».

لي

أين هو لي الآن؟

لقد أبحر إلى فرنسا على متن باخرة تشبه تلك التي تراها الآن تخرج من الميناء - مركب طويل مموه يحمل آلاف العساكر ذوي الوجوه البيضاء الصامتة.. يبدون من حيث تقف وكأنهم رؤوس إبر بيضاء داخل وسادة طويلة تستخدم لغرز الإبر.

(فرانسي أنا خائف.. خائف إذا ما ذهبت أن أفقدك ولا أراك مرة أخرى.. قولي لي لا تذهب).

(أظن أنه من الأفضل أن ترى أمك مرة أخرى.. لا أعلم..).

كان لي ضمن فرقة رينبو وهي الفرقة التي تقاتل الآن داخل غابات أرغون. هل يا ترى هو مدفون الآن تحت صليب أبيض؟ من سيخبرها إذا مات؟ لن تخبرها تلك المرأة في بنسلفانيا إليزابيث راينور (السيدة)

كانت أنيتا قد غادرت منذ عدة أشهر للعمل في مكان آخر ولم تترك عنوانها.. لا يوجد أحد أسأله ولا يوجد أحد يخبرها.

بقسوة، تمنت لو أنه ميت كي لا تحصل عليه تلك المرأة في بنسلفانيا، صلّت فرانسي في صلاتها التالية قائلة: يا رب لا تجعله يموت ولن أشتكي أبداً من التي تملكه أرجوك يا رب أرجوك.

أرجوك أيها الوقت أن تمر حتى أنسى.

(سوف تعودين سعيدة مرة أخرى.. لا تخافي ولكنك لن تنسيه).

كانت أمي على خطأ.. يجب أن تكون على خطأ.. أرادت فرانسي أن تنسى.. ها قد مضت أربعة أشهر منذ أن عرفته ولكنها لا تستطيع النسيان. (سعيدة مرة أخرى ولكنك لن تنسيه أبداً) كيف يمكنها أن تعود سعيدة مرة أخرى إذا كانت لا تستطيع نسيانه.

أيها الوقت.. المداوي العظيم.. مر عني ودعني أنسى.

(كل مرة تقعين في الحب ستكون لأن شيئاً في الرجل الذي تحبينه يذكرك به).

كان لبِنْ ضحكة بطيئة تشبه ضحكته ولكنها كانت تظن أنها واقعة في حب بن منذ السنة الماضية.. منذ وقت طويل قبل أن ترى لي.. إذن فإن هذا لم ينجح.

لي.. لي..

انتهت فترة الاستراحة ودخلت إلى القاعة مجموعة جديدة من الفتيات حان الآن موعد استراحتهن. تحلقن حول البيانو وبدأت سلسلة جديدة من الأغاني.. علمت فرانسي ماذا سيحصل.

اهربي اهربي أيتها الحمقاء قبل أن تبدأ موجات الألم.ولكنها لم تستطع الحراك.

غنت الفتيات أغنية تيد لويس «عندما تبتسم لي حبيبتي» وبالطبع انتقلت الجوقة إلى أغنية «هناك ابتسامات تجعلك سعيداً» ثم جاء دور

«ابتسمي قليلاً

وقبلني بحزن قبلة الوداع

(اذكريني كلما سمعتِ هذه الأغنية.. فكري بي) ».

هرعت إلى خارج الغرفة، وأخذت قبعتها الرمادية ومحفظتها الرمادية وقفازاتها من الخزانة ثم ركضت نحو المصعد.

نظرت إلى أعلى وأسفل الشارع الذي يشبه الأخدود. كان معتماً مهجوراً. عند بوابة البناية المجاورة المعتمة كان يقف رجل طويل يرتدي زياً عسكرياً. سار نحوها في الظلام ثم اقترب منها وهو يبتسم ابتسامة خجولة.

أغمضت عينيها.. كانت جدتها تقول إن لدى نساء روميلي قدرة على رؤية أشباح أحبائهن. لم تصدق فرانسي هذا الكلام لأنها لم ترَ شبح أبيها أبداً. ولكن الآن الآن..

مرحباً يا فرانسي.

فتحت عينيها.. كلا إنه ليس شبحاً.

لقد كنت أعتقد أنك سترتعبين.. هذه آخر ليلة لك في العمل لذلك جئت لأصطحبك إلى البيت.. هل أنت متفاجئة؟

- كلا.. لقد كنت أعتقد أنك ستأتي.

- هل تشعرين بالجوع.

- جداً.

إلى أين تريدين الذهاب؟ هل نذهب إلى مقهى الأوتومات أم ترغبين في بعض الطعام الصيني؟

- كلا.. كلا.

- إلى مطعم تشايلدز.

– نعم لنذهب إلى هناك ونتناول بعض الكعك والقهوة. أخذ بيدها ولـفّ ذراعه حولها.

– فرانسي أنت تبدين غريبة الليلة.. هل أنت غاضبة مني.

– كلا.

– أنا سعيد أني أتيت.

– نعم.. قالت بهدوء.. رائع أن أراك يا بن.

56

كان يوم السبت هو السبت الأخير في البيت القديم. فاليوم التالي سيشهد زواج كاتي وسوف ينتقلون جميعاً من الكنيسة إلى منزلهم الجديد. سوف يحضر عُمّال شركة النقل صباح الاثنين لنقل أشيائهم من البيت القديم ولكنهم سيتركون معظم الأثاث للساكنة الجديدة. سيأخذون فقط أشياءهم الشخصية وأثاث الغرفة الأمامية. أرادت فرانسي أن تأخذ معها السجادة الخضراء ذات الورود النهدية الكبيرة، والستائر ذات اللون الأبيض والبيانو الصغير. هذه الأشياء ستوضع جانباً في غرفة جانبية خصصت لفرانسي في منزلها الجديد.

أصرت كاتي على العمل في ذلك السبت الأخير وقد ضحك الاثنان عندما شاهدا أمهما تحمل مكنستها ودلوها. كان ماكشين قد فتح لها حساباً في البنك بقيمة ألف دولار كهدية لزواجهما. وفقاً لمعايير آل نولان فإن كاتي أصبحت غنية الآن وليست بحاجة للعمل، ومع ذلك أصرت على العمل ذلك النهار الأخير. شكت فرانسي أنها تحمل بعض المشاعر تجاه تلك المنازل وأنها أرادت أن تقدم لها التنظيفة الأخيرة قبل الفراق.

بدون أن تخجل من شيء، بحثت فرانسي عن دفتر الشيكات في محفظة أمها وتفقدت الأصل الوحيد لورقة الشيك الوحيدة المكتوبة.

الرقم 1

التاريخ 29-9-1918

إلى إيفا فليتهان

السبب لأنها أختي

الرصيد 1000 دولار

قيمة الشيك 200 دولار

الرصيد المتبقي 800 دولار.

تساءلت فرانسي لماذا 200 دولار، لماذا لم تعطها خمسين مثلاً أو خمسمائة ولكنها فهمت الأمر بعد ذلك. 200 دولار هي قيمة تأمين العم ويلي، أي قيمة ما تحصل عليه إيفي لو أنه مات. لا شك في أن كاتي كانت تعتبر ويلي ميتاً حتى ولو كان حياً.

لم يكن هناك شيك لفستان العرس. فسّرت كاتي ذلك بأنها لا تريد أن تستخدم شيئاً من هذه النقود لنفسها إلا بعد أن تتزوج من مانحها. لذلك ومن أجل شراء فستان العرس اقترضت كاتي من النقود التي وفّرتها لفرانسي بعد أن وعدتها بأن تعيدها لها بعد انتهاء مراسم العرس.

في صباح ذلك السبت الأخير، وضعت فرانسي أختها لوري في عربتها ذات العجلتين وسارت بها في الشارع. وقفت عند الناصية لوقت طويل تراقب الأطفال وهم يجرّون الخردة عبر جادة منهاتن باتجاه دكان كارني. ثم صعدت الطريق نحو دكان تشيب تشارلي للحلويات في ذروة نشاطه. وضعت خمسين سنتاً على المنضدة وأعلنت أنها تريد أخذ جميع الجوائز.

- آه فرانسي والآن يا فرانسي. قال الرجل.

- لن أتعب نفسي باختيار الهدايا فقط أعطني كل ما يوجد على اللوح.

– آه أصغي إلي.

– إذن لا توجد أية أرقام جوائز في تلك العلبة.. أليس كذلك يا تشارلي.

– يا للمسيح يا فرانسي ينبغي أن أجد شيئاً أعتاش منه وأنت تعلمين كم أن النقود تأتي بطيئة في هذه المهنة.. سنت وراء سنت.

– كنت أظن دائماً أن هذه الهدايا مفبركة.. عليك أن تخجل من نفسك.. وأنت تخدع هؤلاء الأطفال طوال الوقت.

– لا تقولي هذا أنا أعطيهم حلوى بقيمة سنت لكل سنت ينفقونه هنا ولكن اختيار الجوائز هو الأكثر إثارة بالنسبة لهم.

– وهو ما يجعلهم يعودون إليك دائماً.

– إذا لم يأتوا إليّ فسوف يذهبون إلى دكان جيمبي.. أترين. من الأفضل لهم أن يأتوا هنا لأني رجل متزوج ولا أدخل الفتيات إلى الغرفة الخلفية.

– حسناً أظن أن هناك شيئاً من الصحة فيما تقول. اسمع هل لديك لعبة بقيمة خمسين سنتاً.

أخرج لعبة ذات وجه قبيح من تحت الطاولة وهو يقول: لدي لعبة بتسعة وستين سنتاً. سوف أعطيك إياها بخمسين سنتاً.

– سوف أدفع لك إذا علقتها كجائزة وأعطيتها لأحد الأولاد الرابحين.

– ولكن انظري يا فرانسي.. إذا ربحها طفل فسوف يتوقع الأطفال أن يربحوا مثلها دائماً.. إنها مثال سيء.

– آه بحق المسيح، قالت له.. دع أحداً يربح شيئاً مرة واحدة.

– حسناً حسناً لا تثوري الآن.

– أنا فقط أريد لأحد الأطفال أن يحصل على شيء مقابل لا شيء.

– سوف أعلّقها ولن آخذ الرقم من العلبة أيضاً بعد أن تذهبي، هـل هـذا يرضيك؟

– شكراً يا تشارلي.

– وسأقول للرابح أن اسم اللعبة فرانسي.

– آه لا ليس للعبة لها مثل هذا الوجه القبيح.

– أتعلمين يا فرانسي.

– ماذا؟

– إنك أصبحت فتاة وأي فتاة! كم عمرك الآن؟.

– سوف أكون في السابعة عشرة خلال شهرين.

– أذكر عنـدما كنـت صـبية نحيفـة طويلـة القـدمين.. حـسناً أظـن أنـك ستصبحين امرأة لها قيمة يوماً ما.. ليست جميلة جداً ولكنها متميزة.

– أشكرك على لا شيء.. ضحكت فرانسي.

– هل هذه الطفلة أختك؟

– نعم.

– أول شيء ستفعله هو إحضار الخردة والقدوم إلى هنا مع سنتاتها. يوماً ما يكونون أطفالاً في العربات واليوم التالي تراهم هنا يختـارون الجـوائز.. الأطفـال يكبرون بسرعة في هذه الضاحية.

– لن تجر الخردة أبداً ولن تعود إلى هنا أيضاً.

– صحيح لقد سمعت أنكم سترحلون من هنا.

– نعم سنرحل من هنا.

– أتمنى لك حظاً سعيداً يا فرانسي.

أخذت فرانسي لوري إلى المتنزه ورفعتها من العربة وتركتها تلعب على العشب الأخضر. مر أحد الأولاد الذين يبيعون البسكويت المملح. اشترت فرانسي واحدة وقسمّتها إلى قطع ثم بعثرتها على العشب. ما لبث أن ظهر قطيع من عصافير الدوري السوداء من حيث لا تدري وراح يلتهم قطع البسكويت. أخذت لوري تجري وراءهم لتمسك أحدهم ولكن العصافير كانوا يتركونها تقترب لعدة بوصات منهم قبل أن يفردوا أجنحتهم ويطيروا. كانت الطفلة تزعق وتصرخ فرحة كلما طار أحدهم من أمامها.

وضعت فرانسي لوري مرة أخرى في العربة وجرَّتها أمامها باتجاه المدرسة القديمة التي كانت تبعد مسافة بنايتين عن المتنزه. كانت فرانسي تأتي إلى المتنزه كل يوم ولكن لم يخطر ببالها أبداً أن تعود إلى الوراء قليلاً وتزور المدرسة التي تخرجت منها.

فوجئت كم تبدو المدرسة صغيرة اليوم. كانت تفترض أن المدرسة كبيرة كما كانت تراها دائماً، ولكن يبدو أن عينيها قد اعتادتا على رؤية أشياء أكبر.

- هذه هي المدرسة التي كانت فرانسي تذهب إليها يا لوري.

- فرانسي.. تذهب إلى المدرسة. وافقت لوري.

- لقد جاء بابا إلى هنا يوماً ما وغنى أغنية.

- بابا؟ سألتها لوري بحيرة.

- لقد نسيت أنك لم تري بابا.

- لوري رأت بابا. رجل كبير. كانت تعتقد أن فرانسي تعني ماكشين.

- هذا صحيح، وافقت فرانسي.

في السنتين اللتين مرتا منذ تركت فرانسي المدرسة تحولت فرانسي من طفلة إلى امرأة.

عادت إلى المنزل مروراً بالبيت الذي كانت تدعي أنه عنوانها. بدا صغيراً ومتداعياً الآن ولكنها ما زالت تحبه.

مرت من أمام حانة مكغاريتي. لم تعد الحانة ملك مكغاريتي الآن فقد انتقل الرجل من هنا باكراً في الصيف وقد أبلغ نيلي أنه سمع من بعض المصادر الموثوقة أن تحريم الخمر قادم وأنه استعد لذلك بأن اشترى محلاً كبيراً في منطقة هامبستيد تيرنبايك في لونغ آيلند وبدأ يخزن الخمر في أقبيته استعداداً لذلك اليوم. ما أن يعلن التحريم حتى يفتح المكان ويطلق عليه اسم نادٍ وقد اختار اسماً للنادي منذ اليوم وهو نادي ماي - ماري وسوف ترتدي زوجته ثياب السهرة كمضيفة في النادي. كانت فرانسي واثقة أن السيدة مكغاريتي ستكون سعيدة جداً بالعمل كمضيفة وتمنت لو أن السيد مكغاريتي يصبح إنساناً سعيداً يوماً ما.

بعد الغداء، ذهبت فرانسي إلى المكتبة لتسليم الكتب التي استعارتها للمرة الأخيرة. ختمت مسؤولة المكتبة بطاقتها وأعادتها لها دون أن تنظر إليها، كالعادة.

- هل بإمكانك أن توصي بكتاب لفتاة.

- كم عمرها.

- إحدى عشرة سنة.

أخرجت المرأة كتاباً من تحت المكتب ونظرت فرانسي إلى عنوانه «لو كنت ملكاً».

- لا أريد في الحقيقة أن آخذه وأنا لست في عمر الحادية عشرة.

نظرت المرأة إلى فرانسي لأول مرة.

- لقد كنت آتي إلى هنا منذ طفولتي - قالت فرانسي وأنت لم تنظري إليّ سوى الآن.

- هناك العديد من الأطفال، قالت المرأة بغيظ، لا يمكنني أن أنظر إلى كل واحد منهم.. هل تريدين شيئاً آخر؟

– كنت أريد أن أقول شيئاً بالنسبة لهذا الإناء البني وكم كان يعني بالنسبة لي.. دائماً الأزهار فيه.

نظرت المرأة إلى الإناء البني. كان فيه بضع أعواد من نبتة النجمية البرية النهدية اللون. شعرت فرانسي أن المرأة تشاهد الإناء البني لأول مرة أيضاً.

– أوه هذا، إن بواب العمارة يضع الأزهار فيه أو ربما أحد غيره. هل تريدين شيئاً آخر؟ سألتها بنفاد صبر.

– أريد أن أسلم بطاقتي. دفعت فرانسي البطاقة المجعدة والمغطاة بتواريخ السحب والإرجاع، عبر طاولة المكتب. تناولتها المرأة وهمّت بتمزيقها إلى قطعتين، ولكن فرانسي سحبتها فوراً وقالت:

– أظن أني سأحتفظ بها.. ثم غادرت فوراً بعد أن ألقت نظرة طويلة على المكتبة القديمة الرثة. كانت تعلم أنها لن تراها مرة أخرى. العيون تتغير بعد أن ننظر إلى أشياء جديدة. لو أنها عادت إلى هنا بعد سنين، فإن عينيها ستريان الأشياء مختلفة عما كانتا تراها في السابق. ولكنها أرادت أن تتذكر المكتبة كما هي عليه الآن.

كلا لن تعود أبداً إلى تلك الضاحية. في السنين القادمة لن تكون هناك ضاحية قديمة تعود إليها. بعد الحرب ستقوم السلطات المدنية بهدم البنايات القديمة، تلك المدرسة القبيحة التي كانت مديرتها تجلد الأولاد الصغار، وسوف تبني بدلاً منها مساكن نموذجية، مساكن يمكن للشمس أن تدخلها والهواء أن يعبر فيها، مساكن موزونة، ومعقولة يعطى فيها لكل ساكن حصة.

رمت كاتي مكنستها ودلوها في الزاوية. كان هذا يعني أنها انتهت تماماً منهما ولكنها بعد ذلك رفعتهما وأعادت وضعهما بلطف.

فكّرت فيما هي ترتدي ثيابها للخروج.. كانت هذه البروفة الأخيرة للثوب المخملي الأخضر الذي اختارته ليكون فستان زفافها – انتابها بعض القلق لأن

الطقس كان لطيفاً بالنسبة لنهاية شهر أيلول (سبتمبر). كانت تخشى أن يكون الجو حاراً مما لا يلائم ارتداءها ثوباً مخملياً. كما أنها كانت تشعر بالغضب لأن الخريف تأخر هذه السنة، وقد دخلت في جدال مع فرانسي التي أصرّت أن الوقت هو الخريف الآن.

كانت فرانسي تعلم أن الخريف قد حلّ رغم أن الرياح ما تزال دافئة والأيام ضبابية حارة. علمت فرانسي أن الخريف حلّ في بروكلين لأن بائع الكستناء عاد ليقيم منصته الصغيرة عند زاوية الشارع كلما حل الليل وأضيئت أنوار الشوارع. وأمامه كان يضع منقلاً يشعل داخله النار على الفحم ويحمّص حبات الكستناء في مقلى مغطى. كان الرجل يحمل الحبات غير المحمصة في يده ويشق قشرتها بشفرة حادة قبل أن يضعها في المقلى.

نعم.. لقد دخل الخريف بالتأكيد عندما ظهر بائع الكستناء، مهما كانت الأجواء تدل على غير ذلك.

بعد أن وضعت لوري في سريرها لتمضي غفوة العصر، جمعت فرانسي عدة أشياء في علبة الصابون الخشبية. وتناولت الصليب وصورة لها ولنيلي يوم تثبيت العماد، من على رف الموقد ثم لفّت هذه الأشياء في وشاح كانت قد استخدمته سابقاً يوم تناولها الأول للقربان المقدس ووضعت كل شيء في الصندوق. بعد ذلك طوت مريولين لوالدها كان يستخدمهما خلال عمله كنادل وأضافتهما إلى الصندوق. ولفّت كأس الحلاقة الذي يحمل اسم جون نولان في سترة بيضاء قطنية كانت كاتي قد ألقتها في سلة النفايات لأنها تمزقت خلال الغسل. كانت تلك هي السترة نفسها التي ارتدتها فرانسي في تلك الليلة الماطرة عندما وقفت مع لي لتحتمي عند مدخل أحد الأبواب. كانت هناك أيضاً اللعبة «ماري» والعلبة الجميلة التي كانت تضع فيها السنتات العشرة الذهبية اللون، وكتبها المتناثرة مثل إنجيل جدعون والأعمال الكاملة لوليام شيكسبير، وكتاب عن أوراق الأعشاب ودفاتر المذكرات الثلاثة «كتاب نولان للشعر المعاصر»، وكتاب «نولان للقصائد الكلاسيكية» و«كتاب آني لوري» كلها دخلت في ذلك الصندوق.

بعد ذلك ذهبت فرانسي إلى غرفة النوم وقلبت الفراش لتسحب من تحته دفتر مذكراتها التي جمعت فيها عبارات متقطعة خلال السنة الثالثة عشرة من عمرها، ومع الدفتر مغلف مصنوع من ورق القنب. ركعت أمام الصندوق وفتحت دفتر المذكرات وراحت تقرأ فيه عشوائياً.

24 أيلول/ سبتمبر (قبل ثلاث سنوات)

الليلة عندما اغتسلتا، بدأت أكتشف أنني أتغير لأصبح امرأة. لقد حان الوقت لذلك.

ابتسمت فيما هي تضع الدفتر في الصندوق، ثم حانت منها التفاتة إلى المغلف كان مكتوباً عليه ما يلي:

المحتويات

1- مغلف مغلق يفتح عام 1967.

2- شهادة دبلوم.

4- قصص.

كانت هناك أربع قصص طلبت منها السيد غارندر أن تحرقها. حسناً.. تذكرت فرانسي كيف أنها وعدت ربها أنها ستتوقف عن الكتابة إذا أبقى أمها على قيد الحياة. لقد حافظت على وعدها ولكنها أصبحت أقرب إلى الله الآن مما كانت عليه في السابق. كانت متأكدة أنه لن يقلق كثيراً إذا ما عاودت الكتابة مرة أخرى.. حسناً.. ربما ستحاول مرة أخرى يوماً ما. أضافت إلى محتويات المغلف بطاقة المكتبة التي احتفظت بها وكتبت ذلك على الغلاف. وهكذا انتهت مهمة التوضيب. كانت جميع مقتنياتها في ذلك الصندوق ما عدا ثيابها.

جاء نيلي راكضاً وهو يصعد الأدراج ويصفر لحن أغنية «في الحفلة التي تقام داخل البلدة المعتمة». دخل إلى المطبخ وخلع معطفه.

- أنا في عجلة من أمري يا فرانسي هل لدي قميص نظيف.

- هناك واحد.. نظيف ولكنه غير مكوي. سوف أكويه لك.

وضعت المكواة على الحرارة وبلّلت القميص بالماء ثم نصبت لوحة الكي على كرسيين فيما أحضر نيلي ملمع الأحذية من الخزانة وراح يلمع حذاءه كيفما اتفق.

- هل ستذهب إلى مكان معين؟ سألت فرانسي.

- نعم.. بالكاد سأتمكن من اللحاق بالعرض. هناك عرض لفريق اسمه فان وشينك، وشينك مغنٍّ رائع ولكنه يجلس على البيانو هكذا:

جلس نيلي على طاولة المطبخ وراح يعرض أمام فرانسي طريقة جلوس شينك. هو يجلس جانبياً ويعقد رجليه وينظر إلى الجمهور. ثم يتكئ بمرفقه الأيسر على المنصب الموسيقي ويختار اللحن بيده اليمنى فيما هو يغني. راح نيلي يقلد المغني الشهير في أغنيته «عندما تكون بعيداً جداً جداً عن البيت».

- نعم إن نيلي رائع يغني مثلما كان بابا يغني.. تقريباً. قالت فرانسي لنفسها.

بابا.

نظرت فرانسي إلى علامة النقابة المنقوشة على القميص، وبدأت بكيّ القميص فيها.

(إن هذه العلامة تشبه الزينة، تماماً مثل وردة تضعينها على صدرك).

كان آل نولان يختارون الثياب التي تحمل علامة النقابة، فهي أحد الأشياء التي تذكرهم بجوني.

نظر نيلي إلى نفسه في المرآة المعلقة فوق المجلى.

- هل تظنين أنني أحتاج إلى حلاقة؟ سألها.

– كلا من الآن ولخمس سنوات.

– أوه اخرسي.

– لا تقولا اخرس واخرسي لبعضكم البعض. قالت فرانسي وهي تقلد أمها.

ابتسم نيلي وبدأ يغسل وجهه ورقبته وذراعيه ويديه. كان يغني بينما هو يغسل:

أرى مصر في عينيك الحالمتين

وجزءاً من القاهرة في أسلوبك

تابعت فرانسي الكي مسرورة.

أخيراً أكمل نيلي ارتداء ثيابه ووقف أمامها ببذلته الزرقاء الداكنة المزدوجة الصدر وقميصه الأبيض الناصع وياقته المائلة قليلاً وربطته القماشية المنقطة. كان مظهره نظيفاً بذلك العطر الجميل والشعر الأشقر اللامع.

– كيف أبدو أيتها السيدة الجميلة؟

ربط أزرار معطفه بأناقة ولاحظت فرانسي أنه يرتدي خاتم أبيه.

– صحيح إذن ما قالته جدتي.. إن نساء عائلة روميلي يملكن القدرة على رؤية أشباح أحبائهن الميتين. رأت فرانسي أباها وهي تنظر إلى نيلي.

– نيلي هل تذكر مولي مالوني؟

وضع يده في جيب معطفه واستدار بعيداً عنها وغنى:

في مدينة دبلن الجميلة

توجد فتيات جميلات

بابا بابا

كان لنيلي ذلك الصوت الصافي الصادق.. إنه يبدو أنيقاً وسيماً بشكل لا يصدق رغم أنه لم يصل إلى سن السادسة عشرة بعد. النساء يلتفتن إليه وهن يتنهدن، كلما سار في الشارع. كان وسيماً لدرجة أن فرانسي شعرت أنها تبدو مثل قذارة داكنة إلى جانبه.

– نيلي هل تعتقد أنني جميلة؟

– اسمعي لماذا لا تصلين المسبحة التاسوعية للقديسة تيريزا، ربما حينها ستفعل معجزة ما وتصلح الأمر.

– كلا.. إنني أسألك بجد.

– لماذا لا تقصين شعرك وتجدلينه مثلما تفعل باقي الفتيات بدلاً من تركه يلتف قطعاً حول رأسك.

– ينبغي أن أنتظر حتى سن الثامنة عشرة بسبب أمي ولكن هل تعتقد أني جميلة؟

– اسأليني مرة أخرى عندما تضعين بعض الوزن على جسمك؟

– أرجوك أن تخبرني.

نظر إليها نظرة فاحصة ثم قال:

– سوف تجتازين الامتحان..

كان عليها أن ترضى بهذا.

لقد قال إنه على عجلة من أمره ولكن ها هو يبدو متردداً في الخروج.

– فرانسي إن ماكشين أعني أبي سوف يحضر هنا الليلة لتناول العشاء، بعدها سأخرج للعمل وغداً العرس والحفلة التي ستقام ليلاً في منزلنا الجديد. يوم الاثنين، ينبغي أن أذهب إلى المدرسة بينما ستكونين أنت على متن القطار

المتجه إلى ميشيغان. لن تكون هناك فرصة لأودعك وحدي، لذلك سأقول لك وداعاً من الآن.

– سوف أكون هنا في عيد الميلاد يا نيلي.

– نعم ولكن الأمور لن تكون مثل سابق عهدها.

– أعلم ذلك.

انتظر قليلاً فيما مدّت فرانسي يدها اليمنى، ولكن نيلي دفع يدها جانباً وأحاطها بذراعيه وقبّلها على وجنتها. تعلقت فرانسي به وراحت تبكي. دفعها جانباً وهو يقول:

– إن الفتيات يسببن لي المرض.. إنهن عاطفيات دائماً. كان صوته متهدجاً أيضاً وكأنه على وشك البكاء.

استدار وخرج بسرعة من المنزل فيما اتجهت فرانسي نحو الممر المفضي إلى الردهة وراحت تراقبه وهو ينزل الدرج. توقف عند آخر الدرج المظلم ونظر إليها. رغم الظلام كان هناك لمعان حيث يقف:

– تماماً مثل بابا... تماماً مثل بابا. فكرت .. ولكنه يملك قوة أكثر في وجهه. لوّح لها بيده ثم اختفى.

الساعة الرابعة.

قررت فرانسي أن ترتدي ثيابها أولاً ثم تبدأ بتحضير العشاء بحيث تكون جاهزة عندما يأتي بن ليأخذها. كان بن قد اشترى تذاكر لحضور عرض هنري هل في مسرحية «الرجل الذي عاد». كانت تلك المسرحية آخر لقاء لهما حتى عيد الميلاد لأن بن سيغادر إلى الكلية غداً. كانت فرانسي معجبة جداً ببن وكانت تتمنى لو أنها تستطيع أن تحبه. لو أنه فقط ليس واثقاً بنفسه لهذه الدرجة طوال الوقت. لو أنه يتعثر أو يرتكب خطأ فقط ولو مرة واحدة.. لو أنه يحتاج إليها.. آه حسناً عليها أن تنتظر خمس سنوات.

وقفت مقابل المرآة وهي ترتدي قميصها الداخلي الأبيض وبينما هي تلوي ذراعها فوق رأسها لتغسله تذكرت كيف كانت تجلس على سلم الحريق وكتابها في حضنها وبيدها كيس صغير من الحلوى، تراقب الفتيات الكبار في شققهن عبر الفناء وهن يجهزن أنفسهن للذهاب إلى مواعيدهن. هل يا ترى سيراقبها أحد وهي تجهز نفسها الآن.

نظرت نحو النافذة.. نعم هناك على بُعد ياردين شاهدت فتاة صغيرة تجلس على سلم الحريق وعلى حضنها كتاب وبيدها كيس من الحلوى. كانت الفتاة تحدق عبر القضبان باتجاه فرانسي. عرفت فرانسي الفتاة. كان عمرها عشر سنوات واسمها فلوري وندي.

مشطت فرانسي شعرها الطويل ثم عقدته ولفّت العقد حول رأسها. ارتدت جوارب جديدة وحذاء أبيض عالي الكعب. وقبل أن ترتدي ثوبها الكتاني النهدي اللون، رشت بعض مسحوق البودرة على قطعة من القطن ودستها داخل صدريتها.

ظنت أنها سمعت صوت عربة فرابر تدخل إلى الحوش. انحنت باتجاه النافذة ونظرت. نعم لقد جاءت العربة ولكنها ليست عربة الآن. إنها شاحنة حمراء تحمل اسماً مذهباً على جوانبها. كان الرجل يستعد لغسلها ولكنه لم يكن فرانك ذلك الشاب اللطيف ذو الوجنتين الورديتين. بل كان شاباً صغير الجسم متقوس الساقين، استخدم لهذا الغرض.

نظرت فرانسي عبر الحوش ورأت أن فلوري كانت ما تزال تحدق بها عبر قبضان سلم الحريق. لوّحت لها فرانسي ونادت:

- مرحباً يا فرانسي.

- اسمي ليس فرانسي، ردّت الفتاة الصغيرة.. اسمي فلوري وأنت تعرفين ذلك.

- أنا أعرف ذلك. قالت فرانسي.

نظرت إلى الفناء. كانت الشجرة ذات الأوراق التي تشبه المظلة قد قطعت لأن أغصانها التفت حول وأسفل سلم الحريق مما دعا ربات البيوت إلى الشكوى من أن أغصانها تعرقل لهن حبال الغسيل. لذلك أرسل المالك رجلين وقطعاها.

ولكن الشجرة لم تمت بل كانت هناك نموات جديدة تخرج من جذعها، كما أن ساقها نما باتجاه لا توجد فيه حبال غسيل، وبعدها بدأت ترتفع نحو السماء.

الشجرة «آني» التي رعاها آل نولان بالماء والسماد العضوي مرضت وماتت ولكن هذه الشجرة التي قطعها الرجلان في فناء البناية والتي طالما أشعلوا النار تحت ساقها في محاولة لإحراقها.. بقيت حية.

عاشت ولم يستطع أحد تدميرها.

مرة أخرى نظرت فرانسي إلى فلوري وندي وهي تقرأ عند سلم الحريق.

– مع السلامة يا فرانسي. قالت هامسة.

ثم أغلقت النافذة.

تمت

بيتي سميث



وُلدت بيتي ديفيس باسم إليزابيث وينر يوم الخامس عشر من كانون أول (ديسمبر) عام 1896 وهو اليوم ذاته، رغم أنه أبكر بخمس سنوات، الذي ولدت فيه بطلة قصتها فرانسي نولان. كانت بيتي ابنة لمهاجرين ألمانيين وعاشت في بيئة فقيرة في حي وليامسبيرغ ببروكلين وهي البيئة نفسها التي أعادت خلقها بتلك التفاصيل الدقيقة في قصتها «شجرة تنمو في بروكلين».

بعد زواجها من جورج.هـ.إي. سميث وكان هو أيضاً يعيش في بروكلين، انتقلت معه إلى آن أربور في ميشيغان حيث كان يدرس المحاماة في جامعة ميشيغان. أنجبت العروس الشابة فتاتين هما نانسي وماري واضطرت للانتظار حتى دخول ابنتيها إلى المدرسة قبل أن تحاول إكمال دراستها الرسمية. ورغم أنها لم تنهِ الدراسة الثانوية إلا أنه سمح لها بأخذ دروس في الجامعة حيث ركّزت في

دراستها على الصحافة والمسرح والكتابة والأدب. توجت تعليمها بالحصول على جائزة أفيري هوبكنز للعمل المسرحي (الدراما) وأمضت ثلاث سنوات في دراسة كتابة المسرحيات بكلية «ييل» للدراما.

بعد أن عملت في كتابة مقالات بصحيفة في ديترويت، وقراءة المسرحيات لمشروع المسرح الفيدرالي والتمثيل في أعمال صيفية، انتقلت السيدة سميث إلى تشابيل هيل بولاية نورث كارولينا تحت مظلة إدارة تقدم الأعمال. في عام 1938 تطلقت من زوجها ثم عادت وتزوجت عام 1943 من جو جونز وهو كاتب وصحفي ومحرر مساعد في مجلة تشابيل هيل الأسبوعية وكان في الوقت نفسه مجنداً في الجيش خلال الحرب. في تلك السنة تم نشر روايتها الأولى: شجرة تنمو في بروكلين.

أدت شهرتها التي اكتسبتها من كتابة هذه الرواية التي دخلت قائمة أكثر الكتب رواجاً وحظيت على إعجاب النقاد إلى حصولها على مهمات لكتابة مقالات في مجلة نيويورك تايمز حيث كتبت مقالات خفيفة وجدية. وفي ديسمبر (كانون أول) 1943 كتبت مقالاً بعنوان «لماذا بروكلين هي هكذا». وفي هذا المقال ظهرت السيدة سميث كبطلة غير رسمية للطفولة في ضاحيتها بروكلين وتضمّنت مواضيع تلك المقالة مفاهيمها الخاصة التي جاءت رداً على معظم نقّادها من أهل المدن. قالت فيها: بروكلين هي بلدة صغيرة، ولكن على مقياس ضخم، يهرب منها أهل نيويورك ربما من خلال سخريتهم من حجم بروكلين وأفكارها، كما كتبت أيضاً: يحاول أهل نيويورك أن يتخلصوا من خلفياتهم التي جاءت من بلدات صغيرة.

ورغم أنها ما تزال تُذكر كثيراً للظاهرة التي رافقت نجاح كتابها الأول، إلا أن سميث كتبت روايات أخرى شملت الروايات التالية:

- «غداً سيكون أفضل»، 1947.

- «ماغي - الآن»، 1958.

- «فرح في الصباح»، 1963.

كذلك، أبدعت السيدة سميث ككاتبة مسرحيات دراما، وكتبت مسرحيات من فصل واحد وعدة فصول تلقت على أثرها زمالة روكفلر والزمالة الذهبية لكتاب المسرحيات. توفيت عام 1972.

شجرة تنمو في بروكلين

1943

أنا، بيتي سميت، كاتبة رواية شجرة تنمو في بـروكلين أخـبرت جمعـاً مـن الأصدقاء الأدباء بعد سنة تقريباً من النجاح المدهش الذي حققه الكتاب «أنني لم أكن أملك فأساً للقطع، أنا فقط أردت أن أكتب ولكنـي كـما يبـدو لم أكـن أدرك مدى قوتي».

إنها قوة بالتأكيد.. فعندما تم نشر الكتاب عام 1943، حققت هذه الرواية الأولى لكاتبة مغمورة مبيعات وصلت إلى ثلاثمئة ألـف نـسخة في غـضون سـتة أسابيع فقط. وبعد ذلك بخمسين عاماً ما يزال الكتاب يعـد مـن أفـضل الكتـب مبيعاً وبشكل دائم، إذ وصلت أعداد النسخ التي بيعت منه مليون نسخة. ويعتبر الكتاب مصدراً رئيسياً على قوائم القراءات المدرسية إلى جانب قـصص أميركيـة كلاسيكية أخرى مثل «هكلبري فين» و«غاتسبي العظيم» كما تعتبره السيدة أوبرا ونفري وهي حكم مشهورة في أذواق القراءة المعاصرة واحداً من بين عشرة كتب تركت أثراً عميقاً في حياتها. في عام 1995 تم اختيـار الكتـاب مـن قِبَـل المكتبـة العامة في نيويورك كواحد من كتب القرن.

بعد صدور الرواية بفترة قصيرة، بدأت السيدة سميث تتلقى الإطراء والنقد من كلٍّ من معجبيها ومنتقديها. طلب الأخيرون أن يعرفوا الهدف من إصدارها لهذا الكتاب. في ذلك الزمن اعتبر البعض كتاب «شجرة تنمو في بروكلين» كتاباً جريئاً، مفعماً بالمشاعر المؤيدة للنقابات العمالية ومتحيزاً بشكل لا يقبل الاعتذار لصالح الفقراء. رفض آخرون الكتاب باعتباره شهوانياً على الرغم من أن المناقشات التي ظهرت في الكتاب حول القضايا الجنسية قد تبدو أليفة جداً بالنسبة لقراء اليوم.

إحدى سيدات بوسطن كتبت إلى سميث تقول إن من يكتب مثل هذا الكتاب يجب أن يحشر ليعيش في إسطبل ولكن السيدة سميث، وطوال الوقت، أنكرت أنها كتبت رواية ذات دلالات اجتماعية بل إن قصتها تروي حكاية عائلة فقيرة تكافح من أجل البقاء مع بداية قرن جديد في بروكلين وأكدت أنهم أناس من النوع الذي أعرفهم وأحبهم.

مهما كانت نية السيدة سميث، إلا أنه في عام 1943، وفي ذروة الحرب العالمية الثانية، كان الجميع بمن فيهم سائقو التكسيات والبائعون والكتبة ونخب المجتمع يقرؤون كتاب شجرة تنمو في بروكلين. حتى النقّاد أنفسهم احتضنوا الكتاب. وقد أطلق عليه أورفيل برسكوت لقب واحد من أعز وألطف وأحب الكتب في أيامنا هذه وأوردت صحيفة نيويورك تايمز أن فرانسي نولان بطلة القصة هي تجسيد فذ لطفل حاذق، ذكي وواسع الخيال.

من المحتم أن يستثير النجاح الذي حققته السيدة سميث في وصف تجربة طفولتها ردود فعل حاسدة وطامعة. ففي أيار/ مايو من عام 1944، رفعت السيدة سادي غراندنر من بروكلين دعوى قضائية على دار نشر سميث وهاربر خوان تطالب بتعويض قيمته ربع مليون دولار كضرر لحقها لأن شخصية سيسي تنطبق عليها. وقد ادعت هذه السيدة أنها ابنة عم الكاتبة وأنها تعتبر النواحي اللاأخلاقية التي ذكرتها في سيسي قذفاً وطعناً ضدها، ولكنها نسيت الوجه الآخر

لسيسي وهو كونها أكثر شخصيات القصة كرماً وطيبة. باعت السيدة سميث حقوق الرواية كفيلم بقيمة 55.000 دولار وصدر الفيلم من إنتاج شركة فوكس للقرن العشرين السينمائية الشهيرة عام 1945. وظهر الفيلم الذي أخرجه إيليا كازان أكثر عاطفية من الرواية نفسها واختصر القصة لظروف تطلبتها الحاجة السينمائية حتى وفاة جوني نولان. وقد فاز الممثل جيمس دن بجائزة الأوسكار عن دوره في الفيلم كشخصية جوني كما تم ترشيح كاتبي سيناريو الفيلم فرانك ديفيس وتس سليزنغر لهذه الجائزة.

كتب جيمس آجي لدى عرضه للفيلم في مجلة «ذو نيشون» ما يلي: أعتقد أن الفيلم يلقى إعجاباً واهتماماً أكثر من معظم الأفلام الأخرى لأنه يركز على الفقر وعلى بعض النواحي الأساسية في بداية البلوغ وعلى العلاقات العائلية والحياة في المدن الكبرى وهي مواضيع نادراً ما ظهرت على شاشة الأفلام الأميركية بهذا الحماس والذكاء والنظام والرقة. كما أن الفيلم يعرض ويتقبل أفكاراً ربما لم تكن تكفي قبولاً كافياً بين القصص المعاصرة لها، وهذه الأفكار توضح أن بعض الخصومات والعداءات متعمقة في المجتمع لدرجة لا يمكن علاجها أو تفسيرها. كذلك يوضح الكتاب علاقة المحبة الرئيسية بين الفتاة وأبيها ويصور الأب السكير دون أي تعليق عن أخلاقياته أو أي محاولة لإصلاحه.

ينطبق هذا الثناء الذي أبداه آجي للفيلم تماماً على الكتاب نفسه. ويشكل هذا وبدون أي شك بعض الأسباب التي تفسر لماذا تستمر هذه الرواية ذات البصيرة الواضحة التي تعرض الإنسانية بكل نواحي عنادها المرغوب والوضيع، في جذب القراء. ويكمن الإنجاز الخيالي لبيتي سميث في عدم محدودية الرواية لأي وقت، ولكن ما يدعو للأسف أن الكاتبة لم تستطع فيما بعد أن تقدم في رواياتها اللاحقة رواية توازي مستوى هذه الرواية المتميزة.

A TREE GROWS IN BROOKLYN

روايات



شجرة تنمو في بروكلين

رواية كلاسيكيّة أمريكيّة حول فتاة شابّة في مطلع القرن العشرين

◆ ◆ ◆

◆ رواية عميقة التأثير، صادقة وصحيحة، تدخل في صميم الحياة. إذا فاتتك قراءة هذه الرواية فإنّك سوف تحرم نفسك من تجربة غنيّة. إنّها رواية تحمل تفهّمًا عميقًا وحادًّا لعلاقات الطفولة والعلاقات العائليّة. عاش آل نولان في حيّ وليامزبيرغ الفقير بضاحية بروكلين من عام 1902 حتّى عام 1919. نالت ابنتهم فرانسي وابنهم نيلي حصّة وافية من الحرمان والفقر الّذي عاشته التجمّعات الفقيرة في المدن الكبرى. هذا الكتاب - أساسًا - هو كتاب فرانسي، وهو تجسيد فذّ لطفلة ذكيّة، نبيهة وواسعة الخيال، وتمثّل مراحل نموّ فرانسي وبدايات نضوجها مادّة كتاب «شجرة تنمو في بروكلين». / نيويورك تايمز

◆ إنّه أحد أغلى الكتب وأحبّها في يومنا هذا. /أورفيل بريسكوت

◆ أحد أهمّ كتب القرن. / المكتبة العامّة في نيويورك

◆ ◆ ◆

ولدت بيتي سميث عام 1896، وأصدرت - بالإضافة إلى روايتها هذه - «غدًا سيكون أفضل»، و«ماغي الآن»، و«فرح في الصباح». توفّيت عام 1972

ISBN 978-6589-09-898-0

9 786589 098980

الأهلية

الإردن، عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين - بناية رقم 12
ص. ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات العام 2011
الغلاف: ® ، هاتف 95297109 7 00962